سليم حسن

موسوعة مصر القديمة

الجزء الحادي عشر

موسوعة مصر القديمة (الجزء الحادي عشر)

موسوعة مصر القديمة (الجزء الحادي عشر)

تاريخ مصر والسودان من أول عهد «بيعنخي» حتى نهاية الأسرة الخامسة والعشرين ولمحة في تاريخ آشور

تأليف

سليم حسن

هنداوي

موسوعة مصر القديمة (الجزء الحادي عشر)

سليم حسن

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٠١٧/١/٢٦

٣ هاي ستريت وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٥٤٠ ٢

تمهيد

وصلنا في الجزء السابق من هذه الموسوعة إلى أوائل حكم الفرعون «بيعنخي» بن الملك «كشتا» مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين، وقد تولى «بيعنخي» الحكم بعد والده حوالي عام ٧٥١ق.م، في «نباتا» عاصمة ملكه في بلاد «كوش»، غير أنه لم يحضر إلى مصر إلا في عام ٧٢٠ق.م، عندما أراد أحد أمراء مصر العظماء المسمى «تفنخت» حاكم بلدة «سايس» (صا الحجر الحالية) وأعظم ملوك الدلتا أو حكامها أن يجلي الكوشيين عن بلاد مصر جملة، وقد التف حوله معظم الأمراء الإقطاعيين في الدلتا ومصر الوسطى، وأخذ في الزحف نحو الجنوب حتى وصل إلى بلدة الأشمونين ضامًّا إليه كل البلاد التي كانت في طريقه في أثناء زحفه، ولما رأى «بيعنخي» الخطر الذي يتهدد ملكه في «مصر» سار على رأس جيش عظيم وأخذ في محاربة «تفنخت» والتغلب عليه وعلى من والاه من الأمراء الإقطاعيين إلى أن استسلموا جميعًا، ودان له كل وادي النيل من «نباتا» حتى نهاية الدلتا، ولكنه لم يعمل على تثبيت أركان حكمه في مصر بتعيين حكومة مركزية قوية؛ بل ترك الأمر للحكام الإقطاعيين، كل في دائرة نفوذه.

ومن أجل ذلك قاموا باضطرابات كرة أخرى وشقوا عليه عصا الطاعة وعلى رأسهم «بوكوريس» خليفة «تفنخت» في «سايس»، وكان «بيعنخي» على ما يظهر قد مات وتولى الحكم مكانه أخوه «شبكا» فحارب «بوكوريس» وانتصر عليه وقتله، كما يحدثنا بذلك الكُتاب الإغريق.

وتدل شواهد الأحوال على أن «شبكا» قد اتخذ «منف» عاصمة لملكه، ولم يتبع سياسة سلفه في اتخاذ «نباتا» مقرًّا له. وقد أخذت الأحوال تتحسن في البلاد المصرية بصورة مُحَسَّة؛ فإن الكوشيين والمصريين كانوا موحدين من حيث السلالة والدين، ولا غرابة في ذلك؛ فإن الشعبين كانا يدينان بدين الإله «آمون رع» وينتسبون إلى السلالة الحامية كما فصلنا القول في ذلك في الجزء السابق من هذه الموسوعة.

والواقع أن ملوك «كوش» الذين أسسوا لأنفسهم ملكًا عظيمًا في بلادها قاموا بنهضة قومية شاملة في «مصر» «وكوش» كان لها أثر بعيد في إحياء وادي النيل ثانية وإعادة مجده القديم، بعد أن ظل خاملًا عدة قرون في أعقاب سقوط الدولة الحديثة، وقد تناول هذا الإحياء النواحي الدينية والاقتصادية والاجتماعية والفنية جميعًا.

والواقع أن ملوك «كوش» الذين تتألف منهم ملوك الأسرة الخامسة والعشرين قاموا جميعًا على رأس تلك النهضة التي تعد بحق آخر محاولة في الأزمان القديمة لاسترداد عزة مصر وكرامتها، فنجد أن «بيعنخي» أخذ في إحياء عبادة «آمون» بصورة تذكرنا بعصر «تحتمس الثالث» وأخلافه، كما أحيا اللغة بصورة ممتازة فأعاد لها ما امتازت به من رصانة وبهجة في عهد ملوك الدولة الوسطى حينما كانت في عصرها الذهبي، وأكبر دليل على ذلك لغة اللوحة

التي نقش عليها «بيعنخي» حروبه مع «تفنخت»، وفضلًا عن ذلك أبرز لنا في متن هذه اللوحة ما كان يتصف به من رحمة وتدين، هذا إلى مهارته في فنون الحرب.

أما خلفه «شبكا» فقد كان لا يقل عنه ورعًا وميلًا إلى النهوض بالبلاد التي كان يعتبر نفسه ابنها البار، وقد قص علينا هذا الفرعون أنه نقل تمثيلية بدء الخليقة التي ترجع كما يقول إلى عهد «مينا» عن بردية أكلها الدود، وقد وصفها «شبكا» بأنها من تأليف الأجداد، ويقصد بذلك أجداده المصريين، وهذه التمثيلية المنفية تعد أقدم مسرحية ظهرت في تاريخ الإنسان حتى يومنا هذا، ولا نزاع في أنها من اختراع كهنة «منف» الذين أرادوا وقتئذٍ أن يرفعوا إلههم «بتاح» إلى أعلى درجة بين الآلهة المصريين؛ فقد نسبوا إليه فعلًا أنه هو الذي خلق الإله «رع» إله الشمس الذي كان يعد خالق كل شيء.

والجزء الفلسفي الذي يحتويه هذا النقش يدل على ما كان للمصريين من مكانة مرموقة في الفلسفة الراقية، ومنذ عهد هذا الفرعون أصبحت عبادة الإله «بتاح» تحتل مكانة عالية في كل من مصر والسودان بجانب عبادة «آمون رع» الذي كان يعد إله الدولة الأكبر.

وفي عهد «شبكا» نلحظ كذلك أن فن النحت قد أخذ يزدهر بصورة جلية؛ إذ أخذ المفننون ينحتون التماثيل للملوك وعظماء القوم بما يُحاكي الطبيعة الخالية من كل زخرف، وفي أعمار متفاوتة، فلدينا تماثيل لبعض رجال الدولة تصورهم في الشباب والكهولة والشيخوخة بما فيها من معايب ومحاسن.

ولم تحدثنا الآثار بأشياء كثيرة عن خلف «شبكا» وهو أخوه «شبتكا» الذي اعتلى الملك حوالي عام ٧٠١ق.م، وكل ما عرف عنه أنه ترك بعض آثار قليلة، والظاهر أنه في أيامه قامت اضطرابات في مصر تغلب على إخمادها، ويدل تمثاله الذي وصل إلينا على أن نهضة الفن كانت سائرة في طريقها، وقد كانت عاصمة ملكه في مصر «منف» أيضًا على الرغم من أنه دفن في «الكورو» كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

ولا نزاع في أن «تهرقا» أو «ترهاقة» كما جاء ذكره في التوراة الذي خلف «شبتاكا» كان أعظم ملوك هذه الأسرة وأمجدهم أعمالًا، فعصره مليء بالأحداث الجسام من كل الوجوه، ولن نغالي إذا قلنا عنه إنه كان يضارع ملوك الأسرة الثامنة عشرة من حيث التعمير ونشر الفنون والصناعات، غير أنه يقصر عنهم من حيث الفتوح والغزو، فالآثار التي تركها لنا «تهرقا» الذي مكث على عرش الملك أكثر من ست وعشرين سنة (٦٩٠–٦٦٤ق.م) منتشرة في أرجاء وادي النيل من «نباتا» حتى الدلتا، وبخاصة ما أقامه أو أصلحه من عمائر في مكان قرية «الكوة» القريبة من «دنقلة»، وقرية «الكوة» الحالية تقع على أنقاض بلدة «جمأتون» التي أقيمت على ما يقال في عهد الفرعون «أمنحوتب الثالث»، وهناك يقع معبده العظيم الذي أقامه للإله «آمون رع»، وما بقي لنا من آثار في هذا المعبد وبخاصة اللوحات العدة التي دُوِّن فيها تاريخ بناء المعبد تحدثنا بجلاء عما كان لوادي النيل في تلك الفترة من مجد أثيل في كل نواحي العمران، وبخاصة في الفن والعمارة والثروة الهائلة، هذا بالإضافة

إلى ما كان لمنف وغيرها من المدن المصرية من فضل في بث النهضة الجديدة وابتكار أشياء لم تكن معروفة من قبل.

ولم تقتصر عمائر «تهرقا» على «الكوة»، بل نجدها في «نباتا» نفسها عاصمة بلاد «كوش» وبخاصة معبد «صنم» الذي كان صنوًا لمعبد «الكوة».

أما في القطر المصري نفسه فنجد له آثارًا في كل أرجائه وبخاصة في «الكرنك» الذي شيد فيه قاعات عمد عدة، والواقع أن آثار هذا الفرعون تكاد توجد في معظم بقاع مصر والسودان.

وقد كان لهذا الفرعون نشاط عظيم في السياسة الخارجية التي كانت تشغل ملوك هذه الأسرة منذ توليهم عرش البلاد، فقد كان شغل ملوك «كوش» الشاغل زحف مملكة «آشور» على بلاد سوريا وفينيقيا وفلسطين بصورة مخيفة منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد، وكان ملوك «كوش» يعتبرون هذه الأصقاع حاجزًا بينهم وبين الآشوريين، وأن هؤلاء إذا وطدوا أركانهم فيها أصبحوا خطرًا يهدد مصر، هذا فضلًا عن أن ملوك مصر منذ أقدم العهود كانوا أصحاب السيادة على هذه الدويلات، وأنهم كانوا أحق الناس بتملكها، من أجل ذلك أخذ ملوك مصر منذ بداية الزحف الآشوري يحرضون أهل هذه الأصقاع على الحكم الآشوري ويساعدونهم بالمال والرجال تارة خفية وتارة علانية، وقد فطن ملوك «آشور» إلى ذلك منذ البداية إلى أن اشتد النزاع بصورة كبيرة في عهد الملك «إسرحدون» الذي صمم على غزو البلاد المصرية نفسها، وكان ذلك في عهد الملك «تهرقا»، على أن هجوم الآشوريين على مصر كان منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد على يد الملك «سرجون الثاني»، واستمرت المناوشات بين الفريقين، ولكن «آشور» لم تقم بهجمتها القاضية إلا في عهد «إسرحدون»، فلقد قام على رأس جيش عظيم إلى مصر، وقد لاقى جيشه أهوالًا عظيمة في طريقه، ولكنه في النهاية أفلح في الاستيلاء على «منف» عاصمة الملك وغيرها من البلاد في الدلتا، وقد هرب أمامه الملك «تهرقا» ملك مصر والسودان إلى «طيبة»، ولكن على أثر عودة «إسرحدون» إلى بلاده وموته في الطريق استرد «تهرقا» بلاد الدلتا ثانية، غير أن ذلك لم يدم طويلًا؛ لأن الملك «آشور بنيبال» الذي خلف والده «إسرحدون» جهز حملة ثانية وسار بها على مصر واستولى على كل البلاد مرة أخرى بعد حروب عنيفة اضطرت «تهرقا» إلى الهرب إلى «نباتا» ولم يعد بعدها إلى مصر ثانية.

ولما استتب الأمن في البلاد المصرية عاد «آشور بنيبال» إلى عاصمة ملكه، وعلى أثر ذلك قام خليفة «تهرقا» وهو أخوه «تانوت آمون» بغزو مصر كرة أخرى، وقد نجح فعلًا، ولكن ذلك لم يدم طويلًا؛ إذ عاد «آشور بنيبال» بجيش عظيم وقهر «تانوت آمون» وأتباعه فاضطر إلى الفرار صوب «نباتا»، ولم نسمع عنه بعد ذلك شيئًا، أما «آشور بنيبال» فقد خرب طيبة تخريبًا مريعًا للمرة الثانية، وقد حدثنا كتاب التوراة عن ذلك.

والغريب المدهش في كل الحروب التي قامت بين «آشور» «ومصر» في تلك الفترة الطويلة التي استمرت حوالي نصف قرن أننا لم نجد نقشًا واحدًا أو بردية أو أي متن مصري يشير إلى هذه الحروب من الجانب المصري الكوشي، والواقع أن كل ما وصل إلينا كان من المصادر الآشورية التي خلفها ملوك «آشور» في كتاباتهم المسمارية.

ومن المؤكد أن السبب في ذلك يرجع إلى أن ملوك «مصر» «وكوش» كانوا يعدون أنفسهم آلهة لا يُهزمون، ولما كانت الحروب التي قامت بينهم وبين «آشور» هي سلسلة هزائم دارت على المصريين فإن هؤلاء الملوك «كما هي العادة منذ أقدم العهود» لم يذكروا عنها شيئًا في نقوشهم، وإلا فكيف تتفق الهزيمة مع ما للإله من قوة وجبروت وسيطرة على الأكوان؟ ومن أجل ذلك تعوزنا بصورة جلية المصادر المصرية الكوشية؛ إذ إن ما وصل إلينا عن هذه الحروب كان من الجانب الآشوري وحده، ولا ندري إلى أي حد لعبت في تلك المصادر المبالغات والخيال وزهو الملوك، فلقد بلغت أوصاف انتصاراتهم مبلغًا هائلًا، كما كانت عادتهم في كل ما وصل إلينا عنهم.

وقد حتمت علينا قلة المصادر المصرية والرغبة في استكمال الفائدة من ناحية التاريخ المقارن لفهم الموقف الدولي في تلك الفترة أن نورد لمحة عن تارخ «آشور» منذ نشأتها حتى نهاية عهد الملك «آشور بنيبال» الذي بموته قُضي على دولة «آشور» في نهاية القرن السابع تقريبًا.

وقد أوردنا بعض التفاصيل عن الحروب التي قامت بين «آشور» وما جاورها من البلدان وبخاصة البلاد المتاخمة لأملاكها، وأفضنا القول في الحروب التي قامت بين «آشور» والولايات الصغيرة التي على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وهي: سوريا وفينيقيا وفلسطين وما تحوى كل منها من دويلات صغيرة.

وكذلك أوردنا نصوص المتون الخاصة بالحروب التي قامت بين «مصر» «وآشور» والتي قامت بين «آشور» وبلاد العرب، تلك البلاد التي كانت مجهولة للعالم تقريبًا حتى تلك الفترة، وذلك إتمامًا للفائدة وفهم الموقف الدولي.

وسيلمس القارئ فيما أوردناه من متون «آشورية» ما جُبلت عليه نفوس ملوك «آشور» من غلظة وفظاعة وقسوة منقطعة النظير في التاريخ البشري، وأخيرًا أوردنا الأسباب التي يُحتمل أنها أدت لسقوط دولة «آشور» فجأة وبدون علل ملموسة مما أدهش علماء التاريخ حتى الآن.

والظاهر أن «تهرقا» كان أكبر بطل وقف في وجه «الآشوريين»؛ إذ قد دلت الآثار التي كُشف عنها حديثًا في «نينوة» (الموصل) وهي بقايا تماثيل عليها من نقوش على أنه كان محاربًا مغوارًا، وأنه كان ذا مكانة عظيمة بين دويلات الشرق الأوسط التي حاربت «إسرحدون» ومن بعده «آشور بنيبال» لنيل استقلالها.

وقد فحصنا نقوش هذه التماثيل ووصلنا في بحثنا إلى أنها على ما يظهر كانت مهداة من «تهرقا» إلى معبد بلدة تدعى «دجل»، وهذه البلدة يُحتمل جدًّا أنها قريبة من بلدة «حماة» كما جاء في برديه مصرية من عهد الملك «رعمسيس الثاني».

والظاهر أن الملك «إسرحدون» عندما استولى على هذه البلدة نقل هذه التماثيل المهداة من «تهرقا» إلى عاصمة ملكه، والنقوش التي على التماثيل تشير إلى ذلك، هذا فضلًا عن أن «إسرحدون» نفسه قد أشار في النقوش التي خلفها لنا إلى أنه استولى على تماثيل لملوك مصر، تلك إشارة عابرة عن هذا الكشف الحديث في بلدة «نينوة» القديمة، وسنفصل القول فيه في مقال خاص.

أما النضال الذي كان بين «آشور» «ومصر» فلم ينتهِ عند استيلاء «آشور بنيبال» على البلاد المصرية جملة؛ بل ظلت مصر تناضل ضد «آشور» لنيل استقلالها.

وقد جاء ذلك في نهاية الأمر على يد بطل عظيم من أبطالها من سلالة «تفنخت» على ما يظهر، وهو الملك «بسمتيك الأول» مؤسس الأسرة السادسة والعشرين، وهي الأسرة التي سارت بالبلاد شوطًا بعيدًا في مدارج الحضارة، وذلك بقيام نهضة عظيمة، وهي استمرار للنهضة الكوشية، تركت آثارًا لا تزال باقية حتى الآن في مصرنا العزيزة، وسيكون حديثنا عنها في الجزء الثاني عشر من هذه الموسوعة إن شاء الله.

•••

وإني أتقدم هنا بعظيم شكري لصديقي الأستاذ محمد النجار المفتش بوزارة التربية والتعليم لما قام به من مراجعة أصول هذا الكتاب وقراءة تجاربه بعناية بالغة، كما أتقدم بوافر الشكر إلى السيد محمد زكي خليل مدير مطبعة جامعة القاهرة ومعاونيه لما بذلوه من جهد مشكور وعناية ملحوظة في إخراج هذا الكتاب.

وكذلك أقدم عظيم شكري للأستاذ أحمد عزت بجامعة عين شمس لما بذله من مجهود عظيم في قراءة التجارب وعمل فهرس الأعلام والمصادر الإفرنجية بكل دقة وعناية.

الملك «بيعنخي»

٧٥١ق.م–٧١٦ق.م

بيعنخي مري آمون	وسر ماعت رع

تدل الظواهر على أن «بيعنخي» قد تولى عرش ملك «مصر» «وكوش» بعد والده الملك «كشتا» مباشرة؛ أي حوالي عام ٧٥١ق.م، ولكننا لا نعلم شيئًا مطلقًا عن أعماله في «مصر» «وكوش» قبل قيامه بفتح الوجه البحري ومصر الوسطى في السنة الواحدة والعشرين من حكمه، وهذا التاريخ يعد حتى الآن أعلى تاريخ عرف لهذا العاهل.

وتنحصر معلوماتنا عن هذا الفرعون في وثيقتين؛ إحداهما: أثرية، وهي قبره الذي كشف في جبانة «الكورو»، والأخرى: لوحته الفاخرة التي دون عليها انتصاراته على ملوك السفلى والوسطى، وهي التي عُثر عليها في جبل «برقل»، ومن ثم أصبحت كل معلوماتنا عن تاريخ هذا الفاتح العظيم من وجهة واحدة وهي الوجهة الكوشية، أما الوجهة المصرية فلم تصل إلينا عنها كلمة واحدة، وعلى ذلك سنظل نحكم على تاريخ «بيعنخي» وفتوحه في مصر من وجهته هو التي رواها لنا.

والواقع أنه لم يختلف كثيرًا عن فراعنة مصر في سرد أعمالهم التي يغمرها الزهو والفخار والانتصارات التي لا تتخللها هزيمة قط كما سنرى بعد، ولكنه من جهة أخرى قد أظهر في نقوشه ما يدل على تدينه ورحمته، هذا؛ وقد أكدت كل من «بنسون» «وكورلاي»[١] أن «بيعنخي» قد حكم مصر بعد هذا التاريخ؛ أي بعد عام ٧٥١ق.م، أكثر من عشرين عامًا بعد فتحها وتهدئة الأحوال فيها؛ وذلك لأنه ذكر في نقش مؤرخ بالسنة السادسة والعشرين من حكمه، والواقع أنه لم يعثر المؤرخون حتى الآن على هذا النقش، لكن من المحتمل أنه بعد عودته من مصر إلى «نباتا» عاصمة ملكه في «كوش» قد عاش عدة سنين، غير أنه ليس لدينا أية وثيقة تحدثنا عن عدد سني[٢] حكمه.

وقبل أن نتناول بالشرح والتعليق لوحة «بيعنخي» الفاخرة يجدر بنا أن نقرر هنا ثانية بوجه عام أنه لا يوجد ملك آخر يدعى «بيعنخي» كما ادعى بذلك كل من «جوتييه»[٣] «وبتري»[٤] وقد تحدثنا عن الأسباب التي تدعو لوجود «بيعنخي» واحد فيما سبق.

لوحة جبل «برقل»

ذكرنا فيما سبق أننا لا نعلم شيئًا عن كيفية غزو الملك «كشتا» لبلاد مصر العليا إذا كان هو الذي فتحها، كما لا نعلم أية حروب قام بها، ولكن من جهة أخرى قد ترك لنا خلفه «بيعنخي» ابنه العظيم لوحة عثر عليها في معبد جبل «برقل»، وقد حفر متن هذه اللوحة التي تصف لنا غزوه لمصر السفلى والوسطى بالخط الهيروغليفي، وقد غطيت اللوحة بالنقوش من جوانبها الأربعة، وهي من الجرانيت الرمادي، وجزؤها الأعلى مستدير، ويبلغ ارتفاعها ثمانين ومائة سنتيمتر، وعرضها أربعة وثمانين ومائة سنتيمتر، وسمكها ثلاثة وأربعين سنتيمتر، وتزن اللوحة طنين وربع الطن، وقد كشف عن هذه اللوحة من أربع لوحات أخرى بطريق الصدفة المحضة عام ١٨٦٢م على يد ضابط مصري كان يعمل في الجيش المصري بالسودان المصري في عهد «سعيد باشا» الذي يعد المؤسس لمتحف «بولاق» الخاص بالآثار المصرية، ولكن مما يؤسف له جد الأسف أن اسم الضابط الذي كشف عن هذا الكنز التاريخي لم نعرفه بعد، وتاريخ العثور على هذه اللوحات على حسب ما جاء في مذكرات الأثري «مريت» نقلًا عن «مسبرو» طريف في بابه، ويتلخص في أن هذا الضابط المصري كان على ما يظن منحدرًا في النيل بسفينته، وفي خلال ذلك وجد نفسه مضطرًّا إلى تمضية بضعة أيام في إحدى القرى الواقعة بالقرب من جبل «برقل» وهو جبل شامخ الذرى جميل المنظر يبلغ ارتفاعه حوالي ٣٠١ من الأقدام، ويقع على الشاطئ الشرقي للنيل على مسافة بضعة أميال من «كاسنجار» الواقعة بدورها في سفح صخور الشلال الرابع، ويقابل هذا الجبل على الشاطئ الغربي للنيل بلدة «نبت» النوبية الشهيرة وهي «نباتا» التي جاء ذكرها في المتون المصرية القديمة.

وعندما كانت قوة الحدود المصرية الإنجليزية تقيم مساكن لها بالقرب من «صنم أبو دوم» سنة ١٨٩٧ عُثر في أثناء حفر الأسس على خرائب معابد ومبانٍ أخرى على عمق ست أقدام تحت الرمال، ويقع عند سفح الجبل من النهاية الشرقية سهل شاسع أقام عليه ملوك، يُحتمل أن أولهم هو «بيعنخي»، معابد بالحجر كما أقاموا على ربوة بالقرب من ذلك عدة أهرام برهنت أعمال الحفر على أنها لملوك، وهذه المعابد قد خربت منذ أزمان بعيدة تخريبًا تامًّا، كما دلت على ذلك أعمال الحفر التي قام بها «ريزنر» في هذه الجهة، ويظهر أن المعابد التي كانت قد أقيمت قريبًا من سفح الجبل قد خربت جزئيًّا أو كليًّا على حسب الأحوال بقطع الصخر الضخمة التي انفصلت من الجبل وسقطت على سقف المعابد، أما التي بنيت في السهل نفسه فكانت مبنية بناء واهنًا حتى إن بعضها أصبح خرابًا بعد إقامته بزمن يسير.

ويقول الأثري «بدج» أنه عندما كان يحفر في هذه الجهة في شتاء عام ١٨٩٧-١٨٩٨م، كان الموقع يشبه حظيرة أحجار نصفها مدفون في الرمل ونصفها الآخر بارز للعيان،[٥] وقد كان ظاهرًا منها أجزاء من أعمدة وأحجار من رقعة المعبد وكرانيش، وكان بعضها منقوشًا، وهذه الأحجار كانت مبعثرة بعضها فوق بعض يستعملها الأهالي بطبيعة الحال في مبانيهم، فنجد أنه في أعلى النهر وفي أسفله من هذه البقعة لمسافة كانت صواديد السواقي مقامة من هذه

الأحجار، هذا إلى عدد كبير من أحجار الطواحين التي قطعت كذلك من أحجار هذه المعابد، يضاف إلى ذلك أحجار المقابر الإسلامية في هذه الجهة فإنها كانت تسلب من خرائب هذه الآثار، على أن هذا التخريب الشامل للآثار لم يقف عند هذا الحد حتى في عهد الاحتلال الإنجليزي للسودان المصري عام ١٨٩٨م، كما كان المنتظر من الحكام المفروض فيهم أن يحافظوا على حرمة الآثار ويقدروها، فقد ذكر الأثري «بدج» أن الآثار التي شاهدها في بلدة «دلقو» وغيرها في هذه السنة كانت قد اختفت كلية عام ١٩٠٥، وفي عامي ١٩٠٣ و١٩٠٤ نعلم أن عددًا من البيوت قد أقيمت بأحجار انتزعت من جدران معبد «صلب» الذي أقامه «أمنحتب الثالث» وأن العمد التي كانت لا تزال قائمة في بلدة «العمارة» التي رآها «بدج» عام ١٩٠٥ قد اختفت بعد ذلك.

نعود بعد هذه اللمحة عن الآثار وتخريبها في تلك الفترة إلى الضابط المصري الذي كان قد اضطر إلى المكث بضعة أيام لسبب ما عند جبل «برقل»، فيحدثنا «مسبرو» أن هذا الضابط كان قد ذهب لزيارة بعض الآثار، وأنه في بعض جزء من المعبد «ولا بد أنه يقصد معبد الملك تهرقا» لم يحدده بدقة رأي عدة لوحات ذات نهاية مستديرة وعليها طغراءات، وليس في مقدورنا الإدلاء بالسبب الذي من أجله أخطأ الزائرون الذين سبقوا هذا الضابط رؤية هذه اللوحات؛ إذ لم نجد لها ذكرًا فيما كتبه «كايبو» Caillaud وهسكنز Hoskins كما لم يذكرها «لبسيوس» الذي لا شك في أنه فحص عن هذا الموقع بدقة، فقد كتب عن جبل «برقل» في مايو عام ١٨٤٤م آخر سائح يعدد لنا بعض الأشياء التي حملها معه من هناك؛ وهي الكبش الثمين الذي يزن حوالي ١٥٠ رطلًا ومائدة قربان ارتفاعها أربع أقدام وتمثال «إزيس» الذي نقش باللغة المروية، وقاعدة تمثال صغير … إلخ،[٦] وإذا كان قد رأى اللوحات فإنه كان لا يتأخر عن أخذها، ولكن من الجائز أنه بين عامي ١٨٤٤ و١٨٦٢م كان الأهالي قد حملوا بعض الأحجار اللازمة لمبانيهم، وهذه كانت تخفي تحتها اللوحات المذكورة، ولذلك لم يرها كل من «كايبو» «وهسكنز» «ولبسيوس»، ومن ثم نفهم أنه عندما زار الضابط هذا المعبد وجد اللوحات مكشوفة أمامة، ولكن يُحتمل من جهة أخرى أن هذا الضابط كان شغوفًا جدًّا بتاريخ بلاده القديم كما يحدثنا بذلك «مسبرو»، ولذلك كان لديه معرفة كافية لفهم أهمية هذه الوثائق، على الرغم من أنه لم يكن في استطاعته قراءتها، ولا يبعد إذن أنه انتهز فرصة وجوده في هذا المعبد وقام بعمل حفائر على نطاق ضيق على حسابه في المعبد، وكانت نتيجتها العثور على اللوحات الخمس التي نحن بصددها الآن، والظاهر أن «مريت باشا» أخذ تصريحًا من «سعيد باشا» والي مصر وقتئذٍ بعمل حفائر في عام ١٨٦١م في السودان، غير أن بُعد المواقع الأثرية في هذه الجهة وقلة طرق المواصلات المؤدية إليها عاقاه عن القيام بحفائر هناك.

ولا يخفى أن الأخبار الخاصة بالشروع في عمل الحفائر كانت لا تزال وقتئذٍ تثير أعظم اهتمام عند الأهالي؛ وذلك لأن السواد الأعظم من الناس إن لم يكن كلهم كانوا مقتنعين أن الحفار لا بد قد حصل على كتاب أو وثيقة تدله على كنز دفين سيقوم بالكشف عنه والحصول على ثروة طائلة منه.

وقد ظن الضابط عند كشفه عن هذه اللوحات أن الطغراءات التي عليها تدل على أنها نقوش ملكية «وقد كان عند ظنه» وعلى ذلك كانت من الأهمية بمكان، ومن ثم شرع في نقل نقوش أطول هذه اللوحات، وبعد الفراغ من ذلك أرسل نسخته إلى «مريت» في القاهرة، ولسنا في حاجة إلى القول بأن هذه النسخة كانت تحتوي على أخطاء عدة؛ وذلك لأن حفر كثير من الحروف الهيروغليفية على اللوحة نفسها لم يكن من الطراز الأول من الحفر، ولكن مع ذلك كان معظم ما جاء في نسخة الضابط مفهومًا لدى «مريت» فتأكد في الحال أن الكشف الذي قام به هذا الضابط من الدرجة الأولى في الأهمية من الوجهة التاريخية، وقد كان هذا ظاهرًا من الخطوات التي اتخذها «مريت» للحصول على هذه اللوحات للحكومة المصرية، وقد اتخذ الإجراءات لإصدار الأوامر إلى «دنقلة» للاستيلاء عليها باسم الحكومة المصرية وإرسالها إلى القاهرة في أقرب فرصة ممكنة، وكذلك صدرت الأوامر للضابط بتعيين حراس لمنع أي فرد غير مرخص له بالاقتراب من خرائب جبل «برقل» كما كلف بأن يراقب مراقبة خاصة تجار الآثار الذين سمعوا بطريقة ما ما أصدرته الحكومة المصرية من أوامر بخصوص هذا الكشف، وقد أخذوا يتوافدون إلى هذه البقعة ليتصلوا بالأهالي ويحرضوهم على سرقة ما يمكن سرقته من الآثار بشتى الطرق، وقد أخذ حاكم «دنقلة» طوعًا لأوامر الضابط في جر اللوحات من المعبد حتى شاطئ النهر حيث حُملت في الوقت المناسب على سفن شحن خاصة يمكن أن تخترق الشلالات، وفي صيف عام ١٨٦٢ أقلعت السفينة من مدينة «مروي» الصغيرة إلى «القاهرة» في سفرة طويلة.

وفي تلك الأثناء كان «مريت» يشتغل بحل رموز النسخة التي أرسلها إليه الضابط المصري، وفي عام ١٨٦٣م كان في مقدوره أن يعلن نتيجة بحثه عن هذا الكشف إلى الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب.[٧]

وبعد ذلك أرسل نسخة من النقش إلى «دي روجيه» مع خطاب[٨] لخص فيه النتيجة التاريخية التي اعتقد أنه يمكن استخلاصها من فحص خاطف قام به عن هذا المتن، وطلب إليه أن يقوم بترجمة كاملة لهذا المتن، وقد حدثنا «دي روجيه» عن أن هذا العمل كان غاية في الصعوبة؛ وذلك لأن النسخة التي أرسلت إليه، وهي التي نقلها الحارس العربي «يقصد الضابط المصري» المشرف على أعمال الحفر، كانت مشوهة كما يقول، ولكن في الواقع كانت النسخة التي يتحدث عنها «دي روجيه» هي النسخة التي نقلها الضابط المصري، ومهما كانت حالة النسخة المذكورة فإنها كانت كافية لتجعل «دي روجيه» يترجم المتن، وفعلًا نشر هذه الترجمة،[٩] وبعد مضي بضعة أشهر على ذلك أعلن «مريت» هذا الكشف للأكاديمية الفرنسية، وفى هذا العام ١٨٦٣م قضى «دي روجيه» بعض الوقت في مصر، وذهب إلى متحف «بولاق» أملًا منه أن يجد لوحة «بيعنخي»؛ لأنه أراد أن يراجع نسخة الضابط على الأصل ويزيل العقبات التي اعترضته في الترجمة.

وكانت السفينة التي تحمل اللوحات لم تصل بعد من جبل «برقل»، وليس في ذلك أية غرابة، حقًّا إن الذين كلفوا بنقلها لم يجدوا صعوبة في الإقلاع حتى بلدة «كرمة»، ولكن

عندما وصلوا حتى هذا المكان كان النيل قد أخذ في النقصان ولم يكن فيه ماء يكفي للمرور بعيدًا عن صخور الشلال الثالث، إذ في الواقع قابلتهم عوائق متنوعة.

وبالاختصار قد ضاع على المسافرين مع اللوحات شتاء سنة ١٨٦٢، وكان لزامًا عليهم الانتظار حتى حلول الفيضان التالي عام ١٨٦٣م، وعندما حل الفيضان التالي سارت السفينة في طريقها مسافة طويلة، ولكن هبط بعدها النيل وكان لا بد من انتظار فيضان آخر، وكانت اللوحات وقتئذٍ في مكان ما عند الشلال الثاني، ثم استؤنفت الرحلة كرة أخرى بحلول فيضان عام ١٨٦٤م، وحوالي ختام السنة وصلت اللوحات إلى القاهرة، ولا نزاع في أن النتيجة الناجحة لنقل هذه اللوحات تجعلنا نُشيد كثيرًا بفضل أولئك الذين قاموا بهذا العمل الشاق بطريقة ساذجة كالتي استعملوها، وهذا العمل يشعر بضخامته أولئك الذين قاموا مرة بنقل لوحة ضخمة في النيل بسفن الأهالى وحبالهم، والواقع أن شلالات مثل شلالات «تنجور» «ودال» «وسمنة» «وجزيرة الملك» … إلخ كان من الصعب جدًّا المرور فيها، وعلى ذلك فإن نقل لوحات جبل «برقل» بالمرور فيها يُعد من الأعمال العظيمة التى تشهد بمهارة بحارة بلاد النوبة؛ ولا غرابة فهم أبناء النيل الذين تربوا في كنفه أجيالًا لا تحصى.

وعلى أثر وصول اللوحات إلى القاهرة كلف «مريت» الأثري «دي فيريا» بعمل نسخ منها، ومن هذه عمل تحاليل لمحتويات النقوش، ونشر في مقال عنوانه: «أربع صفحات من السجلات الرسمية الكوشية».[١٠]

وبعد ذلك بعامين نشر «مريت» نسخة «دي فيريا» في كتابه عن أعمال الحفر في السودان،[١١] وهذا الكتاب ظهر في السوق وتُدوول بالطريق العادية، غير أنه بعد نشره ببضعة أيام سُحب من السوق وأُعدمت كل نسخه بسبب لا يزال مجهولًا.

وفي عام ١٨٦٨م بدأ الأستاذ «دي روجيه» يلقي سلسلة محاضرات في كلية فرنسا College de France عن لوحة «بيعنخي».

وفي عام ١٨٦٩م نشر الأثري «لوث» ترجمة ألمانية لهذه اللوحة،[١٢] ثم ظهرت ترجمة بالإنجليزية في عام ١٨٧٣م بقلم «كانون ف. س. كوك»،[١٣] وفي عام ١٨٧٦م نشر ابن الأستاذ «دي روجيه» ترجمة والده بالفرنسية ومعها شرح، وهذه الترجمة تعد في الواقع الأساس الذي بُنيت عليه التراجم الأخرى التي عُملت بعده، وفِي عام ١٨٧٦-١٨٧٧م ظهرت ترجمة الأثري الكبير «بركش» لهذه اللوحة،[١٤] وكذلك قام بترجمتها مرة أخرى الأثري «لوث»،[١٥] وترجمها «بركش» بالإنجليزية في كتابه عن «مصر في عهد الفراعنة» الجزء الثاني، ص٢٣٠ … إلخ.

وأحدث ترجمتين لهذه اللوحة هما اللتان وضعهما «جرفث»[١٦] ثم ترجمة «برستد».[١٧]

أما أحسن طبعة للمتن نقلت عن الأصل بعناية فائقة، فقد وضعها الأستاذ «شيفر»،[١٨] وقد ظهرت بعض إصلاحات في الترجمة لبعض فقرات هذا المتن في المجلات العلمية سنشير

إليها في الترجمة التي سنوردها هنا.

هذا؛ وقد عَثر على قطعتين من القطع الناقصة من اللوحة الأثري «لوكيانوف» ونشرهما في مجلة مصر القديمة.[١٩]

وصف لوحة «بيعنخي» وترجمتها (انظر صورة رقم ٢)

نشاهد في الجزء الأعلى المستدير من اللوحة قرص الشمس يكنفه صِلَّان ولكنه بدون أجنحة، وفي أسفل نشاهد الإله «آمون» رب «نباتا» قاعدًا ونقش أمامه: «كلام «آمون رع» رب تيجان الأرضين المشرف على «الكرنك» والقاطن في جبله المقدس «برقل»: إني أعطيك أرض … مثل والد الـ …» وخلف «آمون» تقف الإلهة «موت» وكتب أمامها: «موت» ربة «أشرو». وأمام «آمون» «وموت» يقف الفرعون «بيعنخي»، ويلاحظ أن صورته قد كشطت غير أنه يمكن التعرف عليها، ويحمل في منطقته خنجرًا ويرتدي قميصًا يصل إلى ركبتيه، ونقش أمامه متن يظهر أنه كشط ثم أعيد ثانية وهو: ملك الوجه القبلي والبحري «ابن رع» «بيعنخي». ويشاهد أمام الفرعون امرأة رافعة يدها اليمنى «والظاهر أنه كانت توجد صورة أخرى» وكتب أمامها: الزوجة الملكية «وهي زوجة «نمروت» كما سنرى بعد في المتن سطر ٦٢-٦٣»، ثم يشاهد الملك «نمروت» يحمل على جبينه الصِّلَّ ويقود بيده اليسرى جوادًا وفي يده اليمنى يحمل صناجة ونقش فوقه الملك «نمروت».

ويُشاهد بعده ثلاثة ملوك يحمل كل منهم على جبينه الصِّلَّ مقبِّلين الأرض أمام الفرعون وهم:

- (١) الملك «أوسركون».
- (٢) الملك «أوبوت».
- (٣) الملك «بف-نف-ددي-باست».

ويُرى بعد هؤلاء على الجهة اليسرى أمير لا يحمل الصِّلَّ، ولكن له ضفيرة شعر جانبية ويقبل الأرض، وكُتب فوقه اسم مهشم بقي منه «… تتي»، وكذلك نشاهد أربعة أمراء بدون أصلال ولكن يحمل كل منهم ريشة على قمة رأسه، وجميعهم يقبلون الأرض أمام الفرعون، وأسماؤهم هم:

- (١) الأمير «بثنفي».

- (٢) الأمير «باما».
- (٣) الرئيس العظيم لقوم مي «مركنشا».
- (٤) الرئيس العظيم لقوم مي «زد آمون أوف عنخ».

والخطاب الذي وجهه هؤلاء الأمراء للفرعون وُجد مهشمًا ولكن تبقى منه بعض كلمات جاء فيها: «كن مسرورًا يا «حور» رب القصر … لأصغر ملك …»

المتن: وأسفل هذا المنظر يأتي النص التاريخي العظيم، وهاك الترجمة:

التأريخ: السنة الواحدة والعشرون الشهر الأول من فصل الفيضان «الفصل الأول» في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «بيعنخي محبوب آمون» عاش أبديًّا.

مقدمة: الأمر الذي ينطق به جلالتي: اسمعوا لما أنجزته أكثر من الأجداد، إني ملك صورة الإله وتمثال «آتوم الحي»، الذي خرج من بطن «أمه» مزينًا بمثابة حاكم، يخافه العظماء الذين أكبر منه، والذي عرفه (٢) والده، ومن فطنت أمه أنه سيكون ملكًا وهو لا يزال في البيضة، الإله الطيب المحبوب من الإله ابن «رع» ومن ينجز بيديه ما يريد «بيعنخي» محبوب «آمون.»

وصول رسول يحمل أخبارًا تنذر بزحف «تفنخت»: لقد أتى إنسان ليخبر جلالته أن الأمير صاحب الأرض الغربية وهو الأمير الوراثي، والحاكم العظيم لبلدة «نتر» المسمى «تفنخت» قد صار في مقاطعة «يأتي بعد ذلك علامة ترمز للفظة مقاطعة غير أن اسم المقاطعة لم يُكتب عليها» وكذلك في مقاطعة «أكسيوس»[٢٠] وفي «حعبي» وفي … «اسم مشهم» (٣) وفي «عن» أو «عيان» وفي «برنب» وفي «منف»، «أنب حز» = الجدار الأبيض. وقد استولى على الأرض الغربية قاطبة من أول المستنقعات حتى «إثتاوي» «= اللشت» وهو يصعد في النيل بجيش جرار، في حين أن البلاد أصبحت موحدة خلفه، والأمراء الوراثيون، حكام المعاقل كانوا كالكلاب «طائعين في عقبيه» ولم (٤) يُغلق حصن … في مقاطعات الوجه القبلي، فبلدة «مر-توم» (ميدوم) وبلدة «برسخم خبر رع» ومعبد «سبك» (الفيوم) «وبرمزد» (البهنسا) وبلدة «تكناش» (دقناش بالقرب من غربي ببا)، وكل بلدة في الغرب قد فتحت له أبوابها خوفًا منه؛ «أي سلمت دون قيد ولا شرط».

وقد عاد إلى مقاطعات الشرق ففتحت أبوابها له أيضًا: «حت بنو» «وتايوزاي» «وحس نسوت» «وأطفيح» تأمل (٥) … لقد حاصر «أهناسيا المدينة»، وأحاط بها تمامًا «جعل من نفسه كذيل في فم» فلم يجعل الخارجين يخرجون، ولم يجعل الداخلين يدخلون لاستمرار الحرب يوميًّا، وذرع الأرض حولها كلها «أي كان يلف حولها ماشيًا» وكل أمير عرف حصنه، وجعل كل رجل من الأمراء والحكام في قسمه «لمحاصرته».

الملك كان متشبعًا بحب الحرب غير أن الوقت لم يكن قد حان بعد: وقد أصغى «جلالته إلى الرسول» (٦) بقلب كبير، وكان ضاحكًا وقلبه منشرحًا.

الأخبار كانت تأخذ دائمًا صورة جدية منذرة بالخطر: وأرسل هؤلاء الكبراء والأمراء والقائد الذين كانوا في مدنهم يوميًّا قائلين: هل صمت متجاهلًا أرض الجنوب التابعة لمقر الملك؟ في حين أن «تفنخت» يستولي عليها ولا يجد أحدًا يصدُّ ساعده.

انضمام «نمروت» ملك «الأشمونين» إلى «تفنخت»: نمروت ... (٧) حاكم «حت ورت» وصدع جدران «نفروسي» وهدم له مدينته خوفًا من الاستيلاء عليها لنفسه، لأجل أن يحاصر مدينة أخرى.

تأمل لقد ذهب ليكون واحدًا من أتباعه وبذلك ترك ولاءه لجلالته؛ (أي خان «بيعنخي») وقد وقف معه بمثابة واحد «من أتباعه» في (٨) مقاطعة «البهنسا» وقد أعطاه (يقصد «تفنخت») هدايا كما يرغب فيها قلبه من كل شيء وجده.

الملك يأمر جنوده الذين في مصر بالانقضاض على مقاطعة «الأشمونين»: وبعد ذلك أرسل جلالته إلى الأمراء وقواد الجيش الذين كانوا في مصر، القائد «باوارمع» والقائد «لمرسكني» وكل قائد لجلالته كان في مصر قائلًا: سارعوا إلى صفوف القتال، وحاربوا في المعركة، وحاصروا ... (٩) اقبضوا على أهلها وماشيتها وسفنها التي على النهر، ولا تجعلوا الفلاحين يخرجون إلى الحقول، ولا تدعوا الحراثين يحرثون الأرض، وحاصروا حدود مقاطعة الأرنب وحاربوها يوميًّا، وقد فعلوا ذلك.

«بيعنخي» يرسل جيشه وتعليماته للقتال: وبعد ذلك أرسل جلالته جيشًا إلى مصر مكلفًا قواده بشدة قائلًا: «لا تهاجموا العدو في أثناء الليل (١٠) على طريقة لاعبي الشطرنج «حيث يبحث كل لاعب عن التغلب على قرنه» ولكن حاربوهم عندما يمكن رؤيتهم، واطلب خوض المعركة من بعيد، وإذا طلبك فانتظر مشاة وفرسان مدينة أخرى، وابقَ ساكنًا لا تتحرك حتى تأتي جنوده، وحاربه فقط عندما يطلب إليك الحرب، وفضلًا عن ذلك إذا كان له خلفاء في مدينة أخرى فاعمل على انتظارهم.» (١١) أما أمثال الأمراء الذين يمكن أن يتخذهم لمساعدته أو أي جنود لوبيين ممن يوثق بهم فأمر بمنازلتهم مقدمًا قائلًا: «وأنت «لأننا لا نعرف من نخاطب عند تنظيم الجيش» شد على أحسن جواد في الإصطبل وصُفَّ (١٢) الجنود في خط المعركة، ولا بد أن تعلم أن «آمون» هو الإله الذي أرسلنا.»

التعليمات للزحف على «طيبة»: وعندما تصلون إلى «طيبة» قبالة «الكرنك» انزلوا الماء وطهروا أنفسكم في النهر، وطهروا أنفسكم في ملابس كتان نظيفة، وشدوا القوس وارموا السهم، ولا تفخروا بأنكم (١٣) أرباب القوة؛ لأنه بدونه لا يكون لشجاع قوة؛ إذ يجعل القوي ضعيفًا، وبذلك تفرُّ الكثرة أمام القلة، وأن رجلًا واحدًا يستولي على ألف رجل، اغسلوا أنفسكم بماء قربانه وقبلوا الأرض أمام محياه وقولوا (١٤) له: امنحنا سواء السبيل حتى

يمكننا أن نحارب تحت ظل سيفك القوي، أما الشبان الذين أرسلتهم فسيكون النصر لهم وسيروع الكثيرون منهم.

الجيش يثني على نصائح الملك وقوته: وعندئذ استلقوا على بطونهم أمام جلالته قائلين: «إن اسمك هو الذي يمنحنا القوة، ونصيحتك هي مرسى جيشك، وخبزك في بطوننا في كل سبيل «سلكناه»، وَجِعَتُكَ تطفئ (١٥) ظمأنا، وبطولتك تعطينا القوة، والبطش في تذكر اسمك؛ لأنه لا يتغلب جيش يكون قائده مخنثًا، فمن مثيلك فيه؟ «أي في الجيش» فأنت ملك مظفر يعمل بساعديه، وأنت المشرف على شئون الحروب.»

الجيش يتقدم نحو «طيبة»: ثم (١٦) ساحوا منحدرين في النهر إلى أن وصلوا إلى «طيبة» وعملوا وفق كل ما قاله جلالته.

الجيش يسير إلى الأمام ويهزم أسطول الثائرين: ثم ساحوا منحدرين في النهر ورأوا سفنًا عدة مصعدة في النهر محملة بالجنود والبحارة وضباط عديدين، وكل رجل شجاع من الوجه البحري كان مجهزًا (١٧) بأسلحة الحرب ليحارب جيش جلالته، وقد وقعت مذبحة عظيمة بينهم وكان عددهم لا يحصى، وقد استولى على جنودهم وسفنهم، وأحضروا أسرى أحياء إلى حيث مكان جلالته (أي إلى «نباتا»).

الزحف على «أهناسيا المدينة» والواقعة التي وقعت في هذه المدينة: ثم زحفوا نحو مشارف «أهناسية المدينة» طلبًا للحرب.

قائمة بأسماء الأمراء والملوك الشماليين:

- (١) الملك «نمروت».
- (٢) الملك «أوبوت» (١٨).
- (٣) رئيس مي «شيشنق» صاحب «بوصير» رب «دد».
- (٤) ورئيس مي العظيم «زد آمن أوف عنخ» صاحب «منديس» (تل الربع الحالي).
- (٥) ومعه بِكر أولاده الذي كان قائد الجيش «بر-تحوتي-وب-رحوي».
- (٦) وجيش الأمير الوراثي «باكنرف».
- (٧) وبِكر أولاده رئيس مي المسمى «نس ناعاي» (١٩) في مقاطعة «حسب».[٢١]

- (٨) وكل رئيس يحمل الريشة من الذين كانوا في أرض الشمال.
- (٩) ومعهم الملك «أوسركون» الذي كان في «بوبسطة» وإقليم «رع نفرت».

وقد تجمع كل أمير وحكام المدن المسورة في الغرب وفي الشرق وفي الأقاليم التي في الوسط بقلب واحد متحدين بوصفهم أتباعًا لرئيس الغرب العظيم حاكم المدن المسورة للأرض الشمالية «الذي يلقب» كاهن الإلهة «نيت» صاحبة «سايس» (٢٠) والكاهن الأعظم «سم» للإله «بتاح» المسمى «تفنخت».

الواقعة التي نشبت قبالة «أهناسيا المدينة»: فخرجوا إليهم «لملاقاتهم» وأوقعوا مذبحة عظيمة بينهم أعظم من أية موقعة (شيء) واستولوا على سفنهم التي كانت في النهر.

العدو يفر إلى بلدة «بربج» ويتبعهم الكوشيون في المدينة: وعندئذ عبرت بقيتهم «فلولهم» النهر ورسوا على الشاطئ الأيمن بجوار «بربج»، وعندما (٢١) أضاءت الأرض في الصباح المبكر عبر جيش جلالته نحوهم والتحم الجيش بالجيش «الآخر» فقتلوا خلقًا كثيرين منهم وخيلًا لا يحصى عددها، ووقعت الهزيمة بين الفلول «بقية الجيش المهزوم».

العدو يفر نحو الدلتا: وفروا نحو الأرض الشمالية بسبب الضربة القوية المؤلمة أكثر من أي شيء «أي من أي ضربة أخرى».

قائمة بالمذبحة التي وقعت بينهم: «أناس» «ترك الكاتب هنا مكان العدد دون أن ينقش» … رجال.

نجاة «نمروت» وهزيمة جيشه في «الأشمونين»: وهرب «نمروت» مصعدًا في النيل نحو الجنوب عندما قيل له: إن «الأشمونين» في وسط الأعداء، وهو جيش جلالته الذي استولى على أهلها وماشيتها.

وبعد ذلك دخل «الأشمونين» في حين كان جيش جلالته على النهر في ميناء (٢٣) مقاطعة «الأرنب» «أي العاصمة».

وبعد ذلك سمعوا بذلك فحاصروا مقاطعة «الأرنب» من جوانبها الأربعة ولم يسمحوا للخارجين أن يخرجوا ولا للداخلين أن يدخلوا.

تقرير يُكتب للملك «بيعنخي»: وأرسلوا تقريرًا لجلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري (محبوب آمون «بيعنخي») معطي الحياة عن كل موقعة حاربوها وعن كل انتصار لجلالته.

«بيعنخي» يغضب ويسير نحو مصر بنفسه في أول عيد رأس السنة: وعندئذ غضب جلالته من أجل ذلك، وقال وكأنه الفهد: (٢٤) هل سمحوا لفلول من جيش الشمال أن تبقى وسمحوا لمن خرج منهم أن يخرج لأجل أن يتحدث عن غزوته؟ ولم يعملوا على موتهم حتى يفنوا

عن آخرهم، وإني أقسم بحب «رع» لي وبحظوة «آمون» لي أني سأذهب بنفسي شمالًا حتى أقضي (٢٥) على الذي عمله وحتى أجعله يولي الأدبار من الحرب أبديًّا.

والآن فيما بعد عندما أحتفل بشعائر السنة الجديدة سأقدم القربان لوالدي «آمون» في «نباتا» في عيده الجميل عندما يظهر بطلعته الجميلة للسنة الجديدة؛ حتى يجعلني أخرج في سلام لأرى «آمون» صاحب «طيبة» في عيد «أبت» (الأقصر) الجميل وحتى يمكنني أن أحضره في صورته (٢٦) في موكب «الأقصر» في عيده الجميل المسمى «ليلة عيد أبت» في العيد المسمى «البقاء في طيبة»، وهو الذي عمله له «رع» في البداية، ولأجل أن أتمكن من أن أحضره في موكب إلى بيته قاعدًا على عرشه كما هي الحال في يوم إدخال الإله في الشهر الثالث من الفصل الأول، اليوم الثاني، ولأجل أن أتمكن من جعل الأرض الشمالية تذوق طعم أصابعي «في الحرب».

الاستيلاء على «البهنسا»: وبعد ذلك سمع الجيش الذي كان هناك في مصر (٢٧) بغضب جلالته منهم، وعلى ذلك حاربوا «برمزد» (البهنسا) التابعة لمقاطعة «البهنسا» فاستولوا عليها كأنهم طوفان من الماء، وأرسلوا لجلالته غير أن قلبه لم يكن راضيًا بذلك.

الاستيلاء على «طهنة»: وبعد ذلك حاربوا «طهنة» عظيمة الانتصار، وقد وجدوها مملوءة (٢٨) بالجنود من كل رجل شجاع من أرض الشمال، وبعد ذلك استعملوا المنجنيق في قذفها فهدمت جدرانها، ووقعت مذبحة عظيمة بينهم لا يُحصى عدد قتلاها، ومنهم: ابن رئيس مي «تفتخت» ثم أرسلوا لجلالته بشأنها غير أن قلبه لم يكن راضيًا بذلك.

الاستيلاء على «حت نبو»: ثم (٢٩) قاموا لمحاربة «حت نبو» فتثبتوا داخلها، ودخلها جيش جلالته ثم أرسلوا إلى جلالته، ولكن قلبه لم يكن راضيًا بذلك.

الملك يذهب من «طيبة» إلى «الأشمونين»: في الشهر الأول من الفصل الأول اليوم التاسع ذهب جلالته شمالًا إلى «طيبة» وأتم عيد «آمون» في عيد «أبت» (الأقصر) وساح جلالته شمالًا (٣٠) إلى بلدة مقاطعة «الأرنب» (الأشمونين) وخرج جلالته من حجرة السفينة وكانت الخيل مجهزة، وامتطى العربة، وساد الرعب من جلالته إلى نهاية بلاد الآسيويين، وكان كل قلب مثقلًا بالخوف منه.

«بيعنخي» يوبخ جيشه: ثم خرج جلالته (٣١) ليوبخ جنوده ثائرًا عليهم كالفهد قائلًا: هل ثباتكم في الحرب معناه التراخي فيما آمر به؟ هل بلغ العام نهايته عندما نفذ الخوف مني في الأرض الشمالية؟ إنهم سيضربون ضربة عظيمة مؤلمة.

وقد أقام لنفسه معسكرًا في الجنوب الغربي من الأشمونين وحاصرها (٣٢) يوميًّا، وقد أقيم جسر ليحيط بالجدار، وأقيم برج ليرفع الرماة عندما يرمون بسهامهم والضاربين بالمقلاع عندما يرمون بالحجارة، وكانوا يذبحون الناس من بينهم يوميًّا.

المدينة تطلب التسليم ولكن الفرعون بقي متعنتًا: وقد مرت الأيام ورائحة «الأشمونين» نتنة في الأنوف بعد عبيرها (٣٣) الحلو، وبعد ذلك انبطحت الأشمونين على بطنها طالبة العفو أمام ملك الوجه البحري، وقد خرج الرسل ونزلوا حاملين كل شيء جميل المنظر من ذهب وكل حجر فاخر ثمين وملابس في صندوق والتاج الذي كان على رأسه «نمروت» والصِّلَّ الذي كان يبعث الخوف منه، دون انقطاع لمدة عدة أيام طالبين العفو بتاجه «أي بأن ينزل عن تاجه على ما يظهر».

الملكة زوج «نمروت» تتوسط في الأمر: ثم قاموا وأرسلوا (٣٤) زوجه (أي زوج الملك «نمروت») وابنة الملك المسماة «نستنت» تطلبان العفو من أزواج الملك وحظيات الملك وبنات الملك وأخوات الملك، ولتنبطح على بطنها (يقصد زوج الملك «نمروت») في الحريم أمام زوجات الملك قائلة: إننا نأتي إليكن يا زوجات الملك وبنات الملك ويا أخوات الملك لتهدئن «حور» رب القصر صاحب القوة الكبيرة والنصر العظيم، ليته يمنحنا … تأمل (٣٥) أنه … تأمل … تكلمن إليه ليلين للذي يمجده … (الأسطر من ٣٦ حتى السطر التاسع والأربعين مُحيت تقريبًا) ووجدت خمس قطع من هذه اللوحة بعد الكشف عنها، عثر عليها الدكتور ريزنر في نفس المكان الذي كانت فيه اللوحة في جبل برقل، وقد حاول لوكيانوف[٢٢] أن يحدد مكانها ويعطي مضمون ترجمتها، فالقطعة رقم ٤٧٠٨٧ لا يمكن وضعها إلا على الوجه الأيسر من اللوحة بين الأسطر من ٣٥ إلى ٥٠، ومن معنى سياق الكلام يمكن وضع هذه القطعة في الأسطر ٤١، ٤٢، ٤٣؛ إذ إن كل سطر من هذه القطعة مكمل للأسطر المقابلة في اللوحة.

ومتن هذه الأسطر هو تكملة لتضرع الملكة «نستنمحونت» إلى أزواج وأخوات الملك «بيعنخي» (انظر السطر ٣٤) لأجل أن يصفح عن الملك «نمروت»، ومن متن هذه القطعة ومتن اللوحة نشاهد أن زوجات الملك وأخواته قد انبطحن على الأرض أمام الملك «بيعنخي» (السطر ٤٢)، وأن الزوجات الملكيات تضرعن للملك طالبات إليه العفو عن «نمروت» ملك «حت ورت» (السطر ٤٣). ولا بد أنه كان في الجزء الناقص تسلم ما ورده «نمروت»، ثم أتى الأخير بنفسه للملك.

«بيعنخي» يخاطب «نمروت»: انظر! من قادك؟ من قادك؟ من قادك إذن؟ من قادك … (٥٢) لقد تركت سبيل الحياة، هل السماء تمطر سهامًا (؟) أنى … «مرتاح» عندما يخضع أهل الجنوب، وأهل الشمال، يقولون: ضعنا في ظلك، تأمل أنه مؤذ … (٥٤) حاملًا طعامه، وإن القلب دفة سفينته، تقلب صاحبها بما هو من قوة الله، وأنه يرى اللهيب كأنه برودة في القلب؛ «أي إن اللهيب يظهر له كأنه برودة في القلب؛ لأن القلب نفسه حار» … (٥٥) لا يوجد مسن … والمقاطعات ملأى بالشباب.

جواب «نمروت» «لبيعنخي»: فانبطح على الأرض أمام جلالته، قائلًا: كن (٥٦) «هادئًا» يا حور يا رب القصر إن قوتك هي التي فعلتها، وإني واحد من عبيد الملك أدفع الجزية للخزانة … (٥٧) جزيتهم، ولقد أحضرت لك أكثر منهم.

«نمروت» يحضر هدايا للملك «بيعنخي»: وعلى ذلك أهدى كثيرًا من الفضة والذهب واللازورد والفيروز والبرنز وكل الأحجار الثمينة، فملأ (٥٨) الخزينة بهذه الجزية، وأحضر جوادًا في يده اليمنى وصناجة في يده اليسرى[٢٣] من الذهب واللازورد.

دخول «بيعنخي» مظفرًا في «الأشمونين»: وبعد ذلك ظهر جلالته (٥٩) في قصره ومن ثم سار إلى بيت «تحوت» رب «الأشمونين» وذبح ثيرانًا وعجولًا وطيورًا لوالده رب «الأشمونين» ولثمانية الآلهة في بيت (٦٠) الثامون «أي ثمانية الآلهة». وقد ارتفع صياح جيش مقاطعة «الأرنب» وفرحوا قائلين: ما أجمل حور ثاو في (٦١) مدينته، ابن «رع»، «بيعنخي»، أقم لنا عيدًا ثلاثينيًّا؛ لأنك قد حميت مقاطعة «الأرنب».

«بيعنخي» يزور قصر «نمروت» والخزانة والمخازن والحريم: ثم سار جلالته إلى (٦٢) بيت «نمروت»، ودخل كل حجرة في بيت الملك وبيت ماله ومخازنه، وأمر بأن تُحضر (٦٣) له زوجات الملك وبنات الملك، وصافحهن جلالته على طريقة النساء، ولكن جلالته لم يُدِرْ وجهه لهن (٦٤) «أي كان متعففًا».

«بيعنخي» يزور حظيرة خيل «نمروت» وينتقد تجويعها وهزالها: ثم سار جلالته إلى حظيرة الخيل وحظائر المهارى وعندما رأى (٦٥) أنها قد تألمت من الجوع، قال: أقسم بحب «رع» لي وبقدر ما تنتعش أنفي بالحياة أنه لأكثر إيلامًا لقلبي (٦٦) أن تكون جيادي قد تألمت جوعًا أكثر من تألمي لأي عمل مسيء قد عملته في تنفيذ غرضك، لقد شهد عليك لي خوف رفاقك عليك، (٦٧) ألم تعلم أن ظل الله فوقي؟ وأن حظي لن يولي بسببه؟ فلو كان آخر عمل ذلك معي (٦٨) فإنه لم يكن يسعني إلا أن أدينه من أجل ذلك، وعندما كنت أُصَوَّر في الفرْج وأُكَوَّن في البيضة المقدسة (٦٩) فإن بذرة الإله كانت فيَّ، وأقسم بحضرته أني لا أعمل شيئًا بدونه، فإنه هو الذي يأمرني بفعله.

التصرف في متاع «نمروت»: وبعد ذلك أعطيت أملاكه الخزانة (٧٠) ومخازن غلاله القربان المقدس الخاص «بآمون» في الكرنك.

خضوع أمير «أهناسية المدينة» وولاؤه للملك «بيعنخي»: وأتى حاكم «هيراكليوبوليس» (أهناسيا المدينة) «بفنفد ديباست» يحمل جزية (٧١) للقصر من ذهب وفضة وكل حجر ثمين وجياد من خيرة ما في الإصطبل، فاستلقى على بطنه أمام جلالته، وقال: مرحبًا بك يا حور، أيها الملك القوي (٧٢) يا أيها الثور مخضع الثيران! إن العالم السفلي قد قبض عليَّ وقد غمرت في الظلام الذي سطع (٧٣) عليه النور[٢٤] الآن، وإني لم أجد صديقًا في يوم البؤس كان ثابتًا في يوم الواقعة، ولكن أنت أيها الملك الجبار لقد بددت (٧٤) الظلام عني، وإني أكدح مع رعاياك وستدفع «أهناسيا المدينة» ضرائب (٧٥) لخزانتك، أنت يا صورة «حور أختي» والمهيمن على النجوم الثابتة، فكما كان فأنت كذلك ملك، وكما أنه لا يفنى فإنك (٧٦) لن تفنى يا ملك الوجه القبلي والوجه البحري «بيعنخي» العائش أبديًّا.

الملك ينحدر في النهر نحو بلدة «برسخم خبر رع» ويأمرها بالتسليم: وانحدر جلالته في النهر نحو فتحة القناة «بحر يوسف الحالي» بجوار (٧٧) «اللاهون» فوجد أن جدران «برسخم خبر رع» متهدمة وحصنها مغلق، ومملوءة بكل رجل شجاع من الأرض الشمالية، وعندئذ أرسل جلالته لهم قائلًا: أنتم يا من تعيشون في الموت! أنتم يا من تعيشون في الموت! أنتم أيها النكرات (٧٨) والتعساء! أنتم يا من تعيشون في الموت! إذا مرت ساعة دون أن تفتحوا لي تأملوا أنكم ستكونون في عداد الساقطين، وهذا مؤلم للملك، فلا تغلقوا أبواب حياتكم لأجل أن تحضروا على مقصلة هذا اليوم، فلا ترغبوا في الموت ولا تكرهوا الحياة … (٧٩) … أمام كل الأرض.

استسلام مدينة «برسخم خبر رع»: وعندئذ أرسلوا إلى جلالته قائلين: «تأمل، إن ظل الإله فوقك، وابن «نوت» (الإله «ست») يعطيك ساعديه، وفكرة لبك تحدث في الحال كالتي تخرج من فم الإله، تأمل لقد صورت في صورة إله، ونحن نرى بمراسيم يديك، وتأمل إن بلدك هي حصنه (٨٠) فافعل بها ما «يرضيك»، فاجعل الداخلين يدخلون هناك والخارجين يخرجون، ودع جلالته يفعل ما يريد.»

وبعد ذلك خرجوا مع ابن رئيس مي «تفنخت» فدخل جيش جلالته فيها دون أن يُقتل واحد من كل الناس، ووجد (٨١) مع حاملي الأختام ليختموا أملاكه، وخزائنه سلمت لبيت المال، ومخازن غلاله للقربات الإلهية الخاصة بوالده «آمون رع» رب «طيبة».

استسلام «ميدوم»: وانحدر جلالته شمالًا، وقد وجد «ميدوم» دار «سكر» رب «سحز»[٢٥] قد أغلقت وكانت ممتنعة، ونشب القتال في قلبها، أخذًا (٨٢) … فاستولى عليها الخوف، وختم الفزع فمهم، وعندئذ أرسل جلالته لهم قائلًا: تأملوا إن أمامكم طريقين فاختاروا أنتم كما ترغبون: افتحوا فتعيشوا، أغلقوا فتموتوا، إن جلالتي لن يمر في باب مغلق. وعندئذ فتحوا في الحال فدخل جلالته في داخل هذه المدينة (٨٣) وقدم قربانًا … إلى «منحيت» صاحب «سحز» وقد أهدى بيت ماله إلى بيت المال، ومخازن غلاله للقربان المقدسة «لآمون» صاحب «الكرنك».

استسلام «اللشت»: ثم انحدر جلالته شمالًا إلى «اللشت» فوجد السور مغلقًا والجدران ملأى بالجنود من أرض الشمال الشجعان، وبعد ذلك فتحوا الحصن وانبطحوا على بطونهم (٨٤) أمام جلالته، قائلين: إن والدك قد قرر لك إرثه، فالأرضان ملكك وما فيها ملكك، وكل ما على الأرض ملكك. ودخل جلالته ليجعل قربانًا عظيمًا يقدم للآلهة القاطنين في هذه المدينة من ثيران «أوا» وثيران «ونز» ودجاج وكل شيء طيب وطاهر.

وبعد ذلك أعطيت ماليتها الخزانة، ومحازن الغلال صارت قربانًا للضيعة المقدسة (٨٥) لوالده «آمون رع».

الملك يسير نحو «منف» لتسلم بدون حصار طويل: «انحدر بعد ذلك جلالته في النهر» إلى «منف»، وقد أرسل إليها (أي إلى أهلها) قائلًا: لا تغلقي «الأبواب» ولا تحاربي أنت يا مأوى

الإله «شو» «يخاطب المدينة» في الأزلية، وإن الذي يريد أن يدخل دعوه يدخل، وإن الذي يريد أن يخرج دعوه يخرج، ولا تمنعوا من يريد أن يغادر «المدينة»، وسأقدم قربانًا للإله «بتاح» ولكل الآلهة الذين في «الجدار الأبيض» (منف)، وإني سأضحي للإله «سكر» في المكان السري، وسأشاهد الذي في جنوبي جداره (يقصد الإله «بتاح») إلى أن أنحدر شمالًا في النهر في أمان (٨٦) … وإن أهل «الجدار الأبيض» (منف) سيكونون سالمين معافين، ولن يبكى أحد حتى الأطفال، انظروا أنتم إلى مقاطعات الجنوب فإنه لم يذبح واحد منهم إلا الأعداء الذين لعنوا الإله، وهم الذين قطعت رءوسهم على المقصلة بوصفهم ثائرين، غير أنهم «الأهالي» أوصدوا معاقلهم وأرسلوا جيشًا على فئة من جنود جلالته، من الصناع والمشرفين على المباني، والنواتي (٨٧) … ميناء «منف».

«تفنخت» يدخل «منف» ليلًا ويحمس جنوده ويعود إلى الدلتا: تأمل فإن أمير «سايس» هذا (يقصد «تفنخت») قد وصل إلى الجدار الأبيض ليلًا محمسًا مشاته وبحارته وجميع خيرة جيشه وعددهم ثمانية آلاف رجل حاثًّا إياهم بحماس عظيم، تأملوا إن «منف» قد اكتظت بالجنود من خيرة ما في الأرض الشمالية، ومخازنها تفيض بالشعير والبر وبكل أنواع الأسلحة … (٨٨) «وإنها محصنة» بجدار، وقد أقيمت شرفة عظيمة صُنعت بمهارة والنهر يجري حول جانبها الشرقي، وليس هناك فرصة للهجوم (أي من الشرق) ويوجد فيها حظائر للماشية مملوءة بالثيران، والخزانة مجهزة بكل شيء من فضة وذهب ونحاس وملابس وبخور وشهد وزيت.

«تفنخت» يذهب لعمل الإمدادات: وسأذهب وأعطي شيئًا لرؤساء الشمال، وسأفتح مقاطعاتهم، وسأكون (٨٩) … «وسأقضي أيامًا قليلة» إلى أن أعود. وامتطى جوادًا ولم يطلب عربته، وسار شمالًا خوفًا من جلالته (أي من «بيعنخي»).

«بيعنخي» يذهب إلى «منف»: وعندما انفلق الإصباح في النهار المبكر كان جلالته قد وصل إلى الجدار الأبيض وأرسى سفينته في شماليها، وكان قد وجد أن الماء قد اقترب من الجدران وأصبحت السفن ترسو عند (٩٠) جدران «منف»، وعندئذ رأى جلالته أنها كانت قوية وأن السور قد رُفع بوساطة بناء جديد «عليه»، وشرفات يحميها رجال حرب أشداء، ولم تكن هناك طريقة لمهاجمتها.

الضباط يقترحون طرقًا للاستيلاء على المدينة: وقد أبدى كل واحد رأيه من رجال جيش جلالته على حسب قواعد الحرب، فقال كل رجل: دعنا نحاصرها (٩١) … تأمل إن جنودها عديدون «حتى لا يمكن مهاجمتها»، وقال آخرون: فلْنُقِمْ طريقًا «يوصل» إليها ولنرفع التربة حتى جدرانها، دعنا نُقِمْ برجًا «يوصل إليها» ونصنع من العمد الخشبية قنطرة إليها، وبهذا التصميم نقسمها من كل جانب من جوانبها على الأرض العالية (٩٢) … من شماليها لأجل أن ترفع الأرض عند جدرانها حتى نجد طريقًا لأقدامنا.

الملك لا يأخذ بهذه الآراء ويصمم على مهاجمة المدينة: وعندئذ استولى الغضب على جلالته كالفهد، وقال: إني أقسم بحب «رع» لي وبحظوة والدي «آمون» الذي برأني أن ذلك لا بد أن يحدث لها على حسب أمر «آمون»، وهذا ما سيقوله الناس: (٩٣) إن الأرض الشمالية ومقاطعات الجنوب قد فتحت له أبوابها من بعيد؛ لأنها لم تضع «آمون» في قلوبها، ولم تعرف ما الذي أمر به، فإنه (أي «آمون») قد جعل «بيعنخي» يُظهر شهرته كما جعل هيبته تُرى، وإني سأستولي عليه «أي المدينة» بوصفي فيضان الماء، وقد أمرت (٩٤) …

الاستعداد للهجوم: وبعد ذلك أمر بإرسال أسطوله وجيشه لمهاجمة ميناء «منف»، وقد أحضروا له كل معبر وكل سفينة شحن وكل سفينة نقل وكل سفينة بقدر ما كان يوجد، وأرسيت في ميناء «منف» وربطت حبال مقدمتها بين بيوتها «أي بيوت المدينة» (٩٥) … ولم يوجد واحد بكى بين كل جنود جلالته «المقصود هنا على ما يظن أنه لم يُصَبْ واحد منهم بسوء».

الأمر بالهجوم: وقد أتى جلالته ليرتب السفن بقدر ما كان هناك منها، وأمر جلالته جيشه قائلًا: إلى الأمام عليها «أي على المدينة»، تسلقوا الجدران، اقتحموا البيوت التي على النهر «أي التي على ضفة النهر»، وإذا وصل أحدكم إلى أعلى الجدار فلا يقف أمامه حتى (٩٦) لا يردكم الجنود «المعادون»، وإنه لأمر حقير «بالنسبة لنا» أن نوصد الجنوب، ثم ينبغي علينا أن نرسو في الشمال ونضع الحصار في ميزاني الأرضين.[٢٦]

الاستيلاء على «منف»: وبعد ذلك استولى على «منف» (من نفر) كأنها أخذت بفيضان ماء، وقد قتل فيها جم غفير من الناس، وأحضر أسرى أحياء إلى المكان الذي كان فيه جلالته أيضًا.

حماية «منف»: والآن عندما (٩٧) أضاء الصبح وطلع النهار الثاني أرسل جلالته أناسًا لها لحماية معابد الإله «آمون» ومحراب الآلهة، وقدم القربان لمجلس آلهة مدينة «حتكبتاح» (منف)، ونظفوا «منف» بالنطرون والبخور، وأقاموا الكهنة في أماكنهم، ثم سار جلالته إلى بيت «بتاح» (٩٨) وأديت شعيرة تطهيره في حجرة الصباح، وكل تقليد كان يُعمل للملك أجري له، ودخل المعبد وقدم قربانًا عظيمًا لوالده «بتاح» القاطن جنوبي جداره، ويتألف من ثيران وعجول ودواجن وكل شيء طيب، ثم سار جلالته إلى بيته.

إقليم «منف» يسلم: وبعد ذلك لما سمع بهذا «أي الاستيلاء على منف» فإن كل المراكز التي كانت في إقليم «منف» وهي: «حري بدمي» «وبني-نا-أوع» (٩٩) وبرج «بيو» وواحة «بيت» وقد فتحوا المعاقل وهربوا بعيدًا ولم يعرف أحد أين ذهبوا.

خضوع صغار ملوك الدلتا للملك «بيعنخي»: وقد حضر الملك «أوبوت» ورئيس «مي» المسمى «أكانشو» والأمير الوراثي «بدي إزيس» وكل أمراء (١٠٠) الأرض الشمالية حاملين جزيتهم ليروا بهاء جلالته.

إعطاء ثروة «منف» للإله «آمون» رب «طيبة» ولآلهة «منف»: وبعد ذلك أعطيت خزائن «منف» ومخازنها قربانًا مقدسة «لآمون» «وبتاح» وتاسوع الآلهة القاطنين في «حتكبتاح» (منف).

الملك يزحف على «خرعحا» (مصر العتيقة الحالية): وعندما أضاء النهار في الصباح المبكر سار جلالته شرقًا وقرب قربانًا «لآتوم» صاحب «خرعحا» وللتاسوع المقدس (١٠١) وكهف الآلهة القاطنين فيه، وتحتوي على ثيران وعجول ودواجن ليمنحوا الحياة والفلاح والصحة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «بيعنخي» العائش أبديًّا.

«بيعنخي» يذهب إلى «عين شمس»: ثم سار جلالته إلى «عين شمس» الواقعة على تل «خرعحا» على الطريق العام الخاصة بالإله «سب» إلى «خرعحا»، وسار جلالته نحو المعسكر الذي كان في غربي «آتي» (قناة «عين شمس») وطهر نفسه ونظف في بركة «كبح» (١٠٢) وغسل وجهه في نهر «نون» الذي غسل فيه «رع» وجهه.

الاحتفال في «عين شمس» (تل الرمال): ثم سار إلى «تل الرمال» في «عين شمس»، وهناك قربت قرابين عظيمة على «تل الرمال» في «عين شمس» في حضرة «رع» عند طلوعه، وتحتوي «أي القربان» على (١٠٣) ثيران بيضاء ولبن وعطور وبخور وكل خشب ذي رائحة جميلة.

الذهاب إلى المعبد: وحضر متجهًا إلى بيت «رع»، ودخل المعبد بدعاء عظيم، وقد تضرع الكاهن رئيس المرتلين للإله أن يصد الثوار عن الملك، ثم زار قاعة الصباح لأجل أن يرتدي لباس «سدب»،[٢٧] وطُهِّر بالبخور والماء، وقُدمت له أكاليل لأجل بيت الهرم الصغير، وكذلك أُحضرت له الأزهار (١٠٤)، وصعد السلم إلى النافذة العظيمة[٢٨] ليشاهد «رع» في بيت «بن بن» (الهرم الصغير) وقد وقف الملك نفسه منفردًا، وكسر المزلاج حين فتح المصراعين وشاهد الوالد «رع» في بيت «بن بن» الفاخر وسفينة الصباح الخاصة «برع» وسفينة المساء الخاصة «بآتوم»، ثم أوصد المصراعين ووضع عليهما الطين وختمهما (١٠٥) بخاتم الملك نفسه، وكلف الكهنة المطهرين، قائلًا: لقد فحصت الخاتم ولن يُسمح لأي فرد آخر أن يدخله من كل الملوك الذين سيأتون، فانبطحوا على بطونهم أمام جلالته قائلين: ليتك تبقى وتستمر دون أن تهلك يا حور محبوب «عين شمس».

الذهاب لمعبد «آتوم»: ثم أتى ودخل في بيت «آتوم» سائرًا خلف (١٠٦) صورة والده «آتوم-خبري» العظيم صاحب «عين شمس».

الملك «أوسركون» يقدم خضوعه «لبيعنخي»: وحضر الملك «أوسركون» ليشاهد بهاء جلالته.

الذهاب إلى «أتريب» (بنها الحالية) وضرب الخيام فيها: وعندما أضاءت الأرض في الصباح المبكر جدًّا سار جلالته إلى الميناء، وقد عبرت أحسن سفينة إلى الميناء على الشاطئ

«الآخر» إلى ثغر مقاطعة «أتريب» (كاكم) وضرب جلالته خيمته في الجنوب من «كاهني» (قها الحالية) الواقعة في شرقي (١٠٧) مقاطعة «أتريب» (كاكم).

وبعد ذلك جاء أولئك الملوك والأمراء الشماليون وكل الرؤساء الذين كانوا يلبسون الريشة، وكذلك كل وزير وكل الرؤساء، وكل قريب للملك من الغرب ومن الشرق ومن الجزائر الواقعة في الوسط ليشاهدوا جمال جلالته.

قبول «بيعنخي» رجاء «بدي إزيس» لزيارة «أتريب»: وانبطح الأمير الوراثي «بدي إزيس» على بطنه أمام (١٠٨) جلالته، وقال: تعال إلى «أتريب» لترى الإله «خنتي خاتي» ولتعبد الإلهة «خويت»،[٢٩] ولتقدم قربانًا «لحور» في معبده من ثيران وعجول ودواجن ولتدخل بيتي، وإن بيت مالي مفتوح لك، فابسط «يدك» على أملاك والدي «أي التي ورثتها من أبي»، وإني سأقدم لك ذهبًا بقدر ما يرغب فيه قلبك، أما (١٠٩) الفيروز فإنه سيكدس أمامك، وكذلك جياد عدة من أحسن ما في الإصطبل وخيرة ما في الحظيرة.

الفرعون يزور معبد «حور» في «أتريب» (بنها الحالية): ثم سار جلالته إلى بيت الإله «حور خنتي خاتي»، وهناك قرب ثيرانًا وعجولًا ودواجن لوالده «حور خنتي خاتي» سيد «كم ور» (بنها).

الفرعون يدخل قصر الأمير ويتسلم الهدايا: وبعد ذلك ذهب جلالته إلى بيت الأمير الوراثي «بدي إزيس» (١١٠) فقدم له فضة وذهبًا ولازوردًا وفيروزًا بمقدار عظيم من كل شيء، وملابس من الكتان الملكي من كل عدد من الخيوط «التي تدل على دقة الصنع» وسررًا محلاة بالكتان الجميل، والعطور والمسوح في أواني «خبخب» وجيادًا من كلا النوعين ذكورًا وإناثًا من أحسن ما في إصطبله.

الأمير يُقسم أنه لم يُخْفِ على الملك شيئًا: وقد طهر «بدي إزيس» نفسه بأن أقسم يمينًا مقدسًا أمام هؤلاء الملوك والرؤساء العظام (١١١) الشماليين قائلًا: إذا كان أي واحد منهم يخفي جياده ويخبئ ما هو واجب عليه فإنه سيموت ميتة والده، وكذلك سيكون هذا نصيبي أن تشهدوا عليّ «يخاطب أمراء الدلتا» بكل ما تعرفونه عني، وقولوا أنتم إذا كنت قد أخفيت أي شيء عن جلالته من كل (١١٢) متاع بيت والدي؛ من ذهب وفضة وأحجار ثمينة، من كل أنواع الأواني، ومن الأساور الذهبية والعقود والقلائد المرصعة بالأحجار الغالية، ومن التعاويذ الخاصة بكل عضو، وأكاليل الرأس وأقراط الآذان وكل زينات خاصة بملك، وكل الأواني الخاصة بطهور الملك من ذهب وأحجار ثمينة، فإن كل هذه قد قدمتها إلى الحضرة «الملكية» وملابس من الكتان الملكي بالآلاف من أحسن ما في بيتي مما عرفت أنك ستكون مسرورًا بها، واذهب إلى الحظيرة لتختار كما ترغب من الخيل التي تريدها. وقد فعل جلالته ذلك.

الأمراء يعودون إلى بلادهم ويقدمون الهدايا للملك: ثم قال هؤلاء الملوك والأمراء لجلالته، اصرفنا إلى مدننا حتى نفتح بيوت مالنا (١١٤) لننتخب منها بقدر ما يرغب فيه قلبك،

ولنحضر لك أحسن ما في حظائرنا «أي أجود خيلنا». وعندئذ فعل جلالته ذلك.

قائمة بهؤلاء الأمراء: قائمة بأسماء الأمراء:

- (١) الملك «أوسركون» في «بويسطة» إقليم «رع نفر».
- (٢) الملك «أوبوت» في «تنترمو» «وتاعان».
- (٣) الأمير الوراثي «زد أمنف عنخ» (١١٥) في مخزن غلال «رع» التابع لبلدة «بربانبدد» (منديس).
- (٤) بِكر أولاد قائد الجيش في بلدة «تحوت بررحوي» المسمى «عنخ حور».
- (٥) الأمير «أكانش» في «سمنود» (تب نتر) وفي «بهبيت» وفي «سمابحدت».
- (٦) الأمير رئيس مي «باثنف» في «برسيد» (صفط الحنا) وفي مخزن غلال «منف».
- (٧) (١١٦) الأمير رئيس مي المسمى «بمو» في بيت «أوزير» (بوصير) سيد «دد».
- (٨) الأمير رئيس مي المسمى «نس-ناقدي» في مقاطعة «حسب».
- (٩) الأمير رئيس مي «نخت-حر-نا-شنو» في برج «رو-رو».
- (١٠) رئيس مي «بنتاور».
- (١١) رئيس مي «نبتي بخنت».
- (١٢) كاهن «حور» سيد «لتيوبوليس» (أوسيم) المسمى (١١٧) «با-دي-حرسماتوي».
- (١٣) الأمير «حوراباس» في بيت «سخمت» سيدة «سايس» وبيت «سخمت» سيدة «رحساوي».
- (١٤) الأمير «زدخيو» في «خنت نفر».

(١٥) الأمير «باباس» في «خرعحا» في «برحعب» (بيت النيل).

ويحملون كلهم جزيتهم (١١٨) الطيبة من ذهب وفضة … وأَسِرَّة مزركشة بالكتان الجميل، وكذلك العطور في (١١٩) أواني «خبخب» … بمثابة ضريبة طيبة وجياد (١٢٠) …

عصيان بلدة «مسد»: وبعد عدة أيام على ذلك أتى إنسان ليقول (١٢١) لجلالته: الـ … جيش … جدار (١٢٢) «خوفًا» منك، وقد أشعل النار في بيت ماله وفي المراكب التي على النهر، (١٢٣) وحاصر «مسد» (مكان غير معروف) بالجنود و… ثم جعل جلالته جنوده يذهبون (١٢٤) ليروا ما قد حدث هناك بين قوة الأمير الوراثي «بدي إزيس»، وقد حضر إنسان ليخبر جلالته (١٢٥) قائلًا: لقد ذبحنا كل رجل وجدناه هناك، وقد منحها جلالته هدية (١٢٦) للأمير الوراثي «بدي إزيس».

رسالة «تفنخت» بالاستسلام: وقد سمع رئيس مي «تفنخت» بذلك وجعل (١٢٧) رسولًا يحضر إلى المكان الذي كان فيه جلالته وقال مما لقًا: كن مرتاحًا! إني لم أرَ وجهك (١٢٨) بسبب الخجل، على أنه لا يمكنني أن أقف أمام لهيبك، وإني أرتعد من هيبتك، تأمل وإنك «نبتي» (= الإله ست) المهيمن على الأرض الجنوبية «ومنتو» صاحب الساعد القوي، وإن أية مدينة تولي وجهك نحوها، فإنك لن تجدني حتى أصل إلى جزائر (١٣٠) البحر مرتجفًا أمام جبروتك قائلًا: إن لهيبه معادٍ لي، ألم (١٣١) يهدأ قلب جلالتك بهذا الذي فعلته ضدي؟ والواقع أني رجل تعس، وينبغي ألا تضربني على حسب مقدار الجريمة وازنًا (١٣٢) بالموازين ومقدرًا بالقدرات، لقد ضاعفتها لي ثلاثة أضعاف «أي الجرائم»، فاترك البذرة لأجل أن تدخرها للوقت المناسب، ولا تجتث الأشجار (١٣٣) من جذورها، وبحياة حضرتك إن خوفك في جسمي، والرعب منك في عظامي، وإني لم أجلس في (١٣٤) في حانة الجعة ولم يضرب على العود أمامي؛ بل لقد أكلت الخبز جوعًا، وشربت (١٣٥) الماء عطشًا منذ ذلك اليوم الذي سمعت فيه باسمي، وإن المرض في عظامي، ورأسي عارٍ، وملابسي قذرة (١٣٦) حتى ترضى الإلهة «نيت» (= إلهة مقرونة بشرب الدماء) عني، وإن الشوط الذي جلبته عليَّ طويل وإن وجهك ضدي! … (١٣٧) وإن السنة قد قضت على نفسي، فطهِّرْ خادمك من خطيئته، ودع ممتلكاتي تُسَلَّم للخزانة من (١٣٨) ذهب وكل حجر ثمين وأحسن الجياد والفدية عن كل شيء، أرسل (١٣٩) إليَّ رسولًا بسرعة ليذهب عن قلبي الخوف، ودعني أذهب أمامه إلى المعبد حتى أطهر نفسي بميثاق مقدس.

«تفنخت» يعقد يمين الطاعة: (١٤٠) وأرسل جلالته رئيس المرتلين «بدي-أمن-نستاوي» ورئيس الجيش «بورما» (١٤١) فأهدى إليه «أي تفنخت» فضة وذهبًا وملابس وكل أحجار ثمينة، ثم ذهب إلى المعبد وصلى للإله (١٤٢) وطهر نفسه بقسم مقدس قائلًا: إني لن أتعدى أمر الملك (١٤٣) ولن أتخطى ما يقوله الملك، ولن أفعل شيئًا معاديًا ضد أمير دون علمك، وإني سأفعل على حسب ما يقوله (١٤٤) الملك، وإني لن أتعدى ما أمر به. وعندئذ كان جلالته راضيًا.

خضوع آخر مدن لم تكن قد أخضعت بعد: وأتى إنسان ليقول (١٤٥) لجلالته: إن معبد «سبك» قد فتح حصنه، وقد انبطحت «متنو» على بطنها، ولم تبقَ (١٤٦) مقاطعة مغلقة أمام جلالته من مقاطعات الجنوب والشمال والشرق والغرب والجزر التي في الوسط إلا انبطحت على بطنها خوفًا منه، و(١٤٧) جعلت ممتلكاتها تقدم في المكان الذي فيه جلالته بمثابة رعايا للقصر.

وعندما أضاءت الأرض في الصباح المبكر (١٤٨) حضر هذان الحاكمان للجنوب والشمال «أي «نمروت» وملك الفيوم» وعلى جبينيهما الصِّلَّان ليلثما الأرض أمام عظمة (١٤٩) جلالته، في حين أنه من جهة هؤلاء الملوك والأمراء أصحاب الأرض الشمالية الذين أتوا ليشاهدوا بهاء جلالته فإن أرجلهم (١٥٠) كانت كأرجل السيدات ولم يدخلوا بيت الملك (١٥١)؛ لأنهم كانوا نجسين «لم يختتنوا» ومن أكلة السمك الذي يعد لعنة للقصر (١٥٢) تأمل، إن الملك «نمروت» قد دخل بيت الملك؛ لأنه كان مطهرًا لا يأكل السمك، وقد وقف هناك ثلاثة (١٥٣) على أرجلهم «ولكن» دخل واحد فقط بيت الملك.

عودة الملك «بيعنخي» إلى الجنوب: وبعد ذلك حملت السفن بالفضة والذهب والنحاس (١٥٤) والملابس وكل شيء من أرض الشمال وكل محصولات «سوريا» وكل الأخشاب الحلوة من أرض الإله، ثم أقلع (١٥٥) جلالته جنوبًا بقلب منشرح، وكان شاطئا النهر من الجانبين يهللان، وقد قبضوا غربًا وشرقًا، (١٥٦) مهللين في حضرة جلالته مغنين ومهللين عندما كانوا يقولون: يا أيها الحاكم الشجاع، (١٥٧) يا «بيعنخي»، يا أيها الحاكم الشجاع، إنك تأتي وقد كسبت ملك الأرض الشمالية، لقد حولت الثيران (١٥٨) نسوة، ما أسعد قلب الأم التي حملتك والأب الذي أنجبك، وإن أولئك الذين في الوادي يقدمون الثناء للبقرة (١٥٩) التي حملت ثورًا، وإنك ستبقى إلى الأبدية، وإن عظمتك تمكث يأيها الحاكم محبوب «طيبة».

تعليق وشرح للوحة «بيعنخي»

لا نزاع في أن من يقرأ متن لوحة الملك «بيعنخي» بإمعان ويقرنها بالمتون المصرية الأخرى، حتى التي من عهد ازدهار الدولة الحديثة، يجد اختلافًا بينًا من حيث سرد الوقائع وما فيها من هدوء في التعبير، وبساطة في الشرح، وخلو من المغالاة التي نجدها في الوثائق المصرية التي من هذا النوع، على أنه من الجائز أن السبب في ذلك قد يرجع إلى الدم الأجنبي الكوشي الذي كان يجري في عروق أولئك القوم النشطين المحبين للحرب مما جعلهم يخلدون على لوحات انتصاراتهم — على الرغم من تمسكهم الشديد بالتقاليد الفرعونية — مقدارًا عظيمًا من التفاصيل المبهمة، والمظاهر المتعلقة بطبائعهم وأمزجتهم الشخصية مما لا نجده في تواريخ العصور التي سبقت عصرهم، وهي التي كانت تحتوي على ألفاظ ملؤها الزهو والغرور والفخر الكاذب، حقًّا إن «تحتمس الثالث» «ورعمسيس الثاني» قد قصا علينا أعمالهما العظيمة بصورة أقل ركاكة بكثير عن معظم مواطنيهما من

الملوك، ولكن مَنْ من أبناء عصرنا من المؤرخين والأثريين يفضل قصصهم على ما جاء في لوحة الفاتح الكوشي «بيعنخي». والواقع أن كل ما جاء في هذه اللوحة يجعلها مفضلة على كل ما كتبه هؤلاء الفراعنة بوجه عام، ولست مبالغًا إذا قررت هنا أن متن لوحة «بيعنخي» يقدم لنا صفحة من أمجد الصفحات في تاريخ مصر في العصر الذي تبحث فيه، فالمتن لا يحتوي على معلومات تاريخية قيمة وحسب؛ بل في الواقع يعد سجلًّا حافلًا بالمعلومات الجغرافية والاجتماعية والدينية والخلقية، كما يكشف لنا عن نواحٍ خاصة بالملك «بيعنخي» ومهارته، ولكن مما يؤسف له جد الأسف أن هذه اللوحة لا تكشف لنا إلا عن الناحية الكوشية وحسب، ولم نسمع من الجانب المصري كلمة واحدة لنتمكن من الموازنة بين الجانبين؛ إذ قد صمتت الآثار عن ذلك صمتًا تامًّا، فلم نعثر على متن واحد لمصري في هذا العهد، وكل ما نعرفه عن المصريين في الحرب التي قامت بينهم وبين «بيعنخي» هو ما ذكره لنا كاتب لوحة هذا الفاتح فقط، ومع ذلك أمكننا أن نلتقط من بين السطور أنه كان يوجد بينهم أبطال يحبون بلادهم ويدافعون عنها دفاع المستميت، حتى تشل حركتهم ويضطرون إلى التسليم قهرًا، ولا أدل على ذلك مما أتاه «تفنخت» من ضروب الشجاعة والصبر وبُعد الحيلة وحسن القيادة التي لولا ظهور «بيعنخي» لعُدَّ من بين الفاتحين العظام والساسة الممتازين.

وسنحاول هنا أن نتتبع سير الحوادث في الحرب التي نشبت بين «بيعنخي» وبين «تفنخت» ملك «سايس» إلى أن ضيق الخناق على الأخير واضطر إلى التسليم، ولكن بعد أن سُدَّت في وجهه كل السبل.

لما مات الملك «كشتا» حوالي عام ٧٥١ق.م خلفه على عرش الملك ابنه «بيعنخي»، وسنرى أنه كان صاحب نشاط كبير وعزم صادق، وتدل شواهد الأحوال على أنه حكم «طيبة» مدة عشرين سنة في سلام وهو في عاصمة ملكه في «نباتا»، وقد شجعه على فتح الدلتا ومصر الوسطى على ما يظهر موت «شيشنق الرابع»، وما نتج عنه من سوء الحال في الدلتا على القيام بالمطالبة بوحدة وادي النيل وتوحيد كلمة البلاد تحت سلطانه من جديد من «نباتا» عاصمة ملكه جنوبًا حتى البحر الأبيض المتوسط شمالًا، وقد اتخذ سببًا لذلك ازدياد قوة «تفنخت» الذي أصبح جنوده خطرًا يهدد مقاطعة «طيبة» نفسها، وقد كان معترفًا «بتفنخت» ملكًا على البلاد في الشمال خلفًا للملك «شيشنق الرابع»، وعلى ذلك فإن «تفنخت» وخلفه «بكنرنف» (بوكاريس) يُعدَّان في القائمة التي وصلت إلينا عن «مانيتون» الملكين[٣٠] اللذين تتألف منهما الأسرة الرابعة والعشرون. وتدل شواهد الأحوال على أن «تفنخت» كان يقصد توحيد البلاد من جديد تحت سلطانه بتأسيس أسرة جديدة فتية.

وكان ينافس «تفنخت» هذا في تلك الفترة المضطربة من تاريخ مصر أمراء كثيرون اتخذ كل منهم لقب ملك، غير أن منافسه الأكبر كان «نمروت» ملك «الأشمونين»، أما الملك المسمى «أوسركون» فلم يكن إلا لعبة هينة وكان منزويًا في إقليم «تل بسطة» وما جاوره على ما يظهر، وكان معه رؤساء آخرون من رؤساء «مي» وغيرهم، نخص بالذكر منهم أمير «خرعحا» (مصر العتيقة) وملك «أتريب» وأمير «بوصير» وأمير «صفط الحنا» وأمير «منديس» وأمير «سمنود» وغيرهم مما سنذكرهم بعد.

ومعظم هؤلاء الأمراء كانوا من أصل لوبي ينتمون إلى ملوك الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، وقد أخذ «تفنخت» في مد نفوذه نحو الجنوب إلى أن أصبح خطرًا يهدد «طيبة» عاصمة ملك «بيعنخي» في مصر، وهو الذي كان وقتئذٍ يقطن في عاصمة ملكه «نباتا» في بلاد السودان، وعندما شعر بهذا الخطر قائدا أجناده في مصر وهما «بورما» «ولمرسكني» طلبا إلى الملك السماح لهما بالزحف بجيوشهما لوقف زحف العدو عند حدٍّ بعد أن أوضحا له الموقف بالضبط، كما جاء في اللوحة التي أقامها فيما بعد هذا الفرعون في «نباتا» تذكارًا لهذه الحروب، وهي التي كان من نتائجها أن أصبح «بيعنخي» يسيطر على مصر كلها وبلاد السودان حتى الشلال الرابع، ويقص المتن الذي على اللوحة أنه قد جاء «لبيعنخي» رسول من عند قواده يخبره أن «تفنخت» المسيطر على الأراضي الواقعة غربي الدلتا وأمير بلدة «نتر» (بهبيت الحالية) قد استولى على مقاطعات في الدلتا نذكر منها «سخا» ثم انحدر جنوبًا في الدلتا واستولى على «برحعبي» «وهي أثر النبي الواقعة على مسافة كيلو متر جنوبي «مصر العتيقة»» وكذا أخذ «عن» أو «عيان» القريبة من «الجيزة»، ثم صعد جنوبًا واستولى على «بر-تب-نب-أح»، وهي «أطفيح» الحالية الواقعة على الشاطئ الأيمن للنيل قبالة «ميدوم»، وهي عاصمة المقاطعة الثانية والعشرين من مقاطعات الوجه القبلي، وكانت تقدس فيها البقرة «حتحور» ربة الجمال؛ ولذلك أُطلق عليها «أفريدوتو بوليس» عند اليونان، ثم استولى على «منف» القديمة «الجدار الأبيض».

والواقع أنه قد أصبح صاحب السلطان على كل الأراضي الواقعة غربي النيل من أول مستنقعات الدلتا حتى بلدة «اللشت» (مركز العياط)، وكان يساعده في تنفيذ فتوحه هذه جيش جرار يسير هو على رأسه، هذا إلى أن البلاد التي كان يفتحها «تفنخت» هذا كانت تنضم إلى لوائه وتدين له بالطاعة مما جعل كل البلاد من ورائه موحدة وحكامها طوع بنانه، ولذلك أخذ يزحف على مصر الوسطى، فاستولى على «ميدوم» وعلى بلدة «برسخم خبر رع» القريبة من مدخل «الفيوم» وبلدة «الفيوم» نفسها (برسبك) وبلدة «البهنسا» وبلدة «تكناش» وهي «دقناش» الحالية الواقعة بالقرب من غربي «ببا»، وكذلك نجد أن كل البلاد الواقعة في غربي النيل في هذه الجهة قد فتحت أبوابها خوفًا منه؛ «أي إن هذه البلاد كلها قد سلمت له بدون قيد ولا شرط».

وبعد ذلك عاد هذا الأمير إلى مقاطعات الشرق المقابلة لما فتحه غربًا، واستولى عليها دون حرب أو نزال؛ إذ فتحت له أبوابها فاستولى على أربعة بلاد وهي:

- (١) «حت بنو» وتعد عاصمة المقاطعة الثانية عشرة من مقاطعات الوجه القبلي، وتقع على مقربة من «شارونة» على الشاطئ الأيمن للنيل.
- (٢) «وتايوراي» وتقع مكان «الحيبة» الحالية (مركز الفشن) على مسافة ٢٣ كيلو مترًا شمالي «شارونة».

- (٣) «وحت نسو» وهي بلدة «الكوم الأحمر سويرس» (مركز بني سويف) الواقعة على الشاطئ الأيمن للنيل على مسافة خمسة كيلو مترات جنوبي «شارونة».
- (٤) «وأطفيح» وتقع على مسافة ٧٩ كيلو مترًا شمالي «الحيبة».

وإذا دققنا في ترتيب فتح هذه المدن الشرقية وما يقابلها من المدن الغربية التي فتحها «بيعنخي» وجدنا أن الترتيب في الفتح من الجنوب إلى الشمال لم يرتب جغرافيا بدقة؛ إذ قد وُضعت «حت نسو» (الكوم الأحمر) في غير مكانها التسلسلي الطبعي وقد حدث مثل ذلك على ما يُظن في لوحة «بيعنخي» عند ذكر الأسماء التي فتحها بالتسلسل على الشاطئ الغربي التي ذكرناها من الشمال إلى الجنوب؛ إذ قد وضع «البهنسا» بعد «دقناش».

ويذكر لنا بعد ذلك الرسول الذي حمل الرسالة إلى «بيعنخي» عن الأحداث في مصر أن «تفنخت» أخذ من ثم في حصار «أهناسية المدينة» وأحاط بها من كل جوانبها، فلم يجعل أحدًا يخرج منها أو يدخل فيها، وفي ذلك من المهارة الحربية ما فيه؛ إذ بهذا الإجراء ضمن سرية الحصار وعدم الاتصال بالعدو من الخارج.

وبعد ذلك أخذ «تفنخت» يذرع الأرض حوالي المدينة، ووضع كل أمير في مكانه الذي يدافع عنه، وجعل كل رجل وكل حاكم يلزم القسم الخاص به من المدينة للدفاع عنه، كل ذلك كان يجري وقد سمع به «بيعنخي» من الرسول بقلب كبير منشرح ووجه باسم، وهو في كل ذلك يرى أن الوقت لم يكن قد حان بعد لمنازلة عدوه، ولكن عظماء رجاله وكبار قواده الذين كانوا يرابطون في أماكنهم كانوا لا يفتئون يرسلون إليه عن خطر الموقف، ويسألونه هل صمت متجاهلًا أرض الجنوب التي كانت تابعة لملكه وقد أخذ «تفنخت» يمعن في الاستيلاء عليها دون أن يجد من يصده؟

غير أن الموقف قد ازداد سوءًا عندما انضم «نمروت» ملك «حت ورت» («هور» الحالية القريبة من مدينة «الأشمونين») إلى «تفنخت» وقد كان مواليًا من قبل للملك «بيعنخي»، وقد تغالى في ولائه «لتفنخت» لدرجة أنه هدم جدران مدينته رغبة في إرضاء الغازي، ولكن أمام هذه الأخبار المزعجة كتب «بيعنخي» لقواده الذين كانوا بالفعل في مصر يأمرهم أن يحاصروا «الأشمونين»، وفي الوقت نفسه كان يعد هو جيشًا آخر ليرسله لمصر من «نباتا» عاصمة بلاد «كوش» الواقعة عند الشلال الرابع، فاستمع إلى تلك الفقرة الهامة التي جاءت على لوحته وهي التي يوجه فيها جيوشه وقواده.[٣١]

وعندئذ أرسل جلالته جيشًا إلى مصر قائلًا لجنوده: لا تهاجموا العدو ليلًا على حسب طريقة لاعبي الشطرنج، ولكن حاربوا عندما يمكن أن تروا «العدو»، واطلبوا «العدو» للموقعة من بعيد، وإذ طلبكم «للحرب» فانتظروا المشاة والفرسان من مدينة أخرى، وانتظروا هادئين حتى تأتي جنوده وحاربوه فقط عندما يطلب منازلتكم، وفضلًا عن ذلك إذا كان حلفاؤه في مدينة أخرى فاعملوا على انتظارهم، وعليكم أن تطلبوا إلى ساحة القتال مقدمًا ما يمكن أن

يساعد من الأمراء أو أي جنود يوثق بهم من اللوبيين قائلين لهم: «أنت»؛ لأننا لا نعرف من يخاطب عند اصطفاف الجيش، أسرِجْ أحسن جواد في حظيرتك واصطف للموقعة، وعليك أن تعرف أن «آمون» هو الإله الذي أرسلنا.

وبعبارة أخرى نفهم من هذه الفقرة أن «بيعنخي» يأمر جيشه أن يعطي العدو اختيار الزمان والمكان لأجل الحرب، لذلك كان لزامًا أن يسمح بمهلة تمكن مساعدي «تفنخت» من أن يصلوا إلى مكان القتال، هذا كما كان لزامًا أن ينبهوا مقدمًا بوقت كافٍ قبل أن ينقضوا عليهم بأي هجوم، والسطر الأخير من هذه الفقرة يكشف عن الأسباب التي دعت إلى إسداء هذه النصيحة الغريبة من الوجهة الحربية وهو: «عليك أن تعرف أنت أن «آمون» هو الإله الذي أرسلنا»، «فهو كفيل بالنصر».

وإذا كان مثل هذا الأمر الذي أصدره «بيعنخي» قد قصد منه معناه الحرفي جديًّا فإنه في الواقع يعد نطقًا لم يسبق له مثيل من رجل حرب مدرب؛ وذلك لأن أول مبدأ في فنون القيادة الحربية ألا يستهين القائد بقوة العدو أولًا، ولا شك في أنه يعد من التجديد الهام أن تعطي الفرصة عن قصد للعدو ليحدد شروطه هو للموقعة التي سيشنها، ولكن يجب أن نتجاوز بعض الشيء عما جاء في هذا الأمر؛ لأنه قد كُتب على لوحة انتصار أقيمت في تاريخ جاء بعد تسليم «تفنخت» بدون قيد أو شرط، وعلى أية حال لو اعتُبرت كلمات «بيعنخي» أنها تعبير بلاغي (أي كلامي) فإنها على أقل تقدير تحمل في طياتها شهادة بشجاعته العالية وتقواه العميق، وهذه الفقرة تتفق في هذا الصدد مع ما جاء في سائر اللوحة؛ إذ كما ذكرنا من قبل نعلم أنه عندما سمع في بادئ الأمر بثورة «تفنخت» فإنه تقبلها بقلب عالٍ وَسِنٍّ ضاحك ولُبٍّ منشرح. هذا؛ وتدل الفقرة التي تعقب الفقرة التي ترجمناها على اعتقاده العميق في ربه فاستمع إليه وهو يقول:

> وعندما تصلون إلى «طيبة» قبالة «الكرنك» فانزلوا إلى الماء وطهروا أنفسكم في النهر، وأظهروا أنفسكم في ملابس كتان نظيفة، وشدوا القوس وارموا بالسهم، ولا تفخروا بأنكم أرباب القوة؛ لأنه بدونه لا تكون لشجاع قوة؛ إذ قد يجعل القوي ضعيفًا، وبذلك تفرُّ الكثرة أمام القلة (كَمْ من فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ) وإن رجلًا واحدًا قد يستولي على ألف رجل، اغسلوا أنفسكم بماء قربانه، وقبلوا الأرض أمام محياه، وقولوا له: امنحنا سواء السبيل حتى نستطيع أن نحارب تحت ظل سيفك القوي، أما الشبان الذين أرسلتهم فإن النصر سيكتب لهم وسيروع الكثيرون منهم.

وبطبيعة الحال قابل رجال الجيش هذه النصائح بالثناء العاطر على الملك وعلى شجاعته وقالوا له: «إنه لا يتغلب جيش يكون قائده مخنث.»

وبعد ذلك سار الجيش من «طيبة» منحدرًا في النهر، ولكنهم رأوا جيش العدو في أسطول عظيم معد بالرجال والعتاد لملاقاة جيش «بيعنخي»، وقد نشبت بين الفريقين مذبحة عظيمة كانت الغلبة فيها للكوشيين؛ إذ استولوا على جنود أعدائهم وسفنهم وساقوا الأسرى إلى جلالته في «نباتا» مقر ملكه.

وبعد هذا النصر زحف الجيش الكوشي حتى وصل إلى مشارف «أهناسية المدينة» يريد منازلة العدو الذي كان قد حشد جموعه هناك، وكان «تفنخت» كاهن الإلهة «نيت» وحاكم مدينة «سايس» والكاهن الأعظم للإله «بتاح» على رأس حلف يتألف من أمراء الشمال، وهم الملك «نمروت» السالف الذكر الذي انضم إليه مؤخرًا، ثم الملك «أوبوت» ورئيس «مي» حاكم «بوصير»، ورئيس «مي» العظيم المسمى «زد آمون أوف عنخ» حاكم «منديس» («تل الربع» الحالية مركز السنبلاوين)، ومعه بِكر أولاده الذي كان قائدا الجيش «برتحوتي-وب-رحوي» (أي مسكن الإله تحوت الحكم بين الرجلين؛ أي بين «حور» «وست») وهذه المدينة هي العاصمة المقدسة للمقاطعة الخامسة عشرة من الوجه البحري، وقد وحدها «دارسي» «بتل البقلية» الواقع جنوبي «المنصورة»[٣٢] وجيش الأمير الوراثي «باكنفي» ومعه بِكر أولاد رئيس «مي» المسمى «نس-ناعاي» في مقاطعة «حسب»؛ أي في المقاطعة الحادية عشرة من مقاطعات الوجه البحري وعاصمتها «الشباسية» الحالية القريبة من «هربيط».[٣٣] هذا إلى كل رئيس يحمل الريشة من الذين كانوا يحكمون في أرض الشمال، والمقصود بذلك هم الأمراء اللوبيون الذين كانوا مسيطرين على البلاد في تلك الفترة على غرار المماليك قبل عهد محمد علي مباشرة، هذا إلى الملك «أوسركون» الذين كان يحكم الآن في «بوبسطة» وإقليم «نفر رع» القريب من «تل بسطة»، ويحتمل أنه هو «أوسركون الرابع».

يضاف إلى هؤلاء كل الأمراء والحكام الذين كانوا يسيطرون على مدن مسورة؛ أي كان لهم جيوش في شرقي الدلتا وغربيها ووسطها، وقد كانوا يدًا واحدة لملاقاة عدوهم «بيعنخي» الذين كان يريد أن يستولي على بلادهم ويحرمهم استقلالهم، وقد نشبت المعركة بين الفريقين قبالة «أهناسية المدينة» وحدثت مذبحة عظيمة مات فيها كثيرون كما يقول المتن الكوشي بعدد لم يُعرف له مثيل من قبل، واستولى الكوشيون على سفن الحلف التي كانت في النهر، وقد عبر فلول الجيش المصري النهر وأقاموا معسكرهم هناك على الشاطئ الأيمن بالقرب من بلدة تدعى «بربج»، وقد وُحدت هذه البلدة بقرية «البكي» أو «البكا» التي تقع في الشمال الغربي من «الفشن».

وفي اليوم التالي لذلك عبر جيش «بيعنخي» النهر والتحم بالعدو وقتل من رجاله كثيرين وخيلًا لا يحصى عددها، وقد فر فلول الجيش مرة أخرى نحو الشمال بسبب ما أصابهم من خسائر، والظاهر أن القتلى بينهم كانوا كثيرين، فقد عملت بهم قائمة، غير أن الحفار ترك مكان الأرقام خاليًا.

وقد هرب «نمروت» بعد هزيمة جيشه صاعدًا في النيل عندما قيل له: إن «الأشمونين» قد أصبحت في وسط جيش الأعداء، فدخلها في أثناء أن كان جيش «بيعنخي» راسيًا في

ميناء مقاطعة «الأرنب» (المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطعات الوجه القبلي؛ أي «الأشمونين»)، وعندما سمع قواد «بيعنخي» بذلك حاصروا المدينة من جوانبها الأربعة فلم يسمحوا لأحد بالدخول فيها أو الخروج منها، ثم أرسل القواد إلى «بيعنخي» عن المواقع التي نشبت بينهم وبين العدو وعن الانتصارات التي أحرزوها، وعندما سمع «بيعنخي» بأنهم لم يقضوا على فلول جيش العدو وأنهم رجعوا ثانية لمحاصرة «الأشمونين» غضب غضبًا شديدًا، وهاج كأنه فهد الجنوب في ثورته، وبخاصة أن جيش الأعداء قد أفلت منهم وعاد إلى الدلتا، وقد كان ذلك في نهاية السنة الواحدة والعشرين، وهو الوقت الذي عقد فيه العزم «بيعنخي» على أن يسير بنفسه إلى «طيبة» بعد الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة في «نباتا»، وفي «طيبة» نفسها أقيم عيد «أبت» للإله «آمون» (عيد «الأقصر») في الشهر الثالث، ثم قاد الحملة بنفسه على «تفنخت» وحلفائه في الشمال. ويجب أن نشير هنا إلى أن الإله «آمون» كان هو أكبر معبود عند الكوشيين، ولا غرابة في ذلك؛ فإن ما لدينا من آثار يدل دلالة واضحة على أن هذا الإله كان يُعبد في «نباتا» منذ الأسرة الثامنة عشرة، وأن كهنته على ما يظهر قد توارثوا وظائفهم في معبد «نباتا» حتى العهد الكوشي، فالرابطة الدينية إذن بين البلدين كانت قوية وبخاصة بين «طيبة» «ونباتا»، وليس هناك ما يُدهش أن نرى الأحفال التي كانت تقام «لآمون» في «نباتا» هي نفس الأحفال التي كانت تقام له في «طيبة»، وربما كانت هذه الرابطة الدينية من الأمور التي سهلت «لبيعنخي» احتلال البلاد دون كبير عناء، وبخاصة أنه كان ملكًا متدينًا صالحًا رحيمًا.

وفي خلال تلك الفترة التي عزم فيها «بيعنخي» على قيادة الجيش بنفسه كان قواده يضاعفون هممهم لمد نفوذ مليكهم في أنحاء البلاد، وبخاصة بعدما علموا بغضبه عليهم، ومن أجل ذلك انقضوا على بلدة «البهنسا» بجيوشهم كالطوفان واستولوا عليها، وأرسلوا إلى «بيعنخي» ليخبروه بهذا النصر، ولكنه لم يرضَ بذلك، فضاعف الجيش همته كرة أخرى وزحف على بلدة «طهنا» (مركز المنيا)، وقد وجد قواد «بيعنخي» أنها محتشدة بالجنود الشجعان الأشداء من أجناد الشمال، وقد قاومتهم المدينة فرموها بالمنجنيق حتى هدمت جدرانها، ثم وقعت مذبحة قُتل فيها عدد عظيم من رجال «تفنخت» وحلفائه، وكان من بين القتلى ابن رئيس «مي» «تفنخت»، وفي النهاية استولوا عليها وأرسلوا إلى «بيعنخي» يبشرونه بهذا الانتصار، ولكن ذلك لم يشفِ غُلَّته أيضًا.

فاندفعوا إلى «حت بنو» (زاوية الميتين الحالية) عاصمة المقاطعة السادسة عشرة من مقاطعات الوجه القبلي وتقع على مقربة من بلدة «شارونة»[٣٤] فدخلها جيش «بيعنخي» وأخبروا الملك بذلك غير أن هذا النصر لم يشفِ له غُلَّة أيضًا.

وفي الشهر الأول من فصل الفيضان اليوم التاسع من الشهر دخل «بيعنخي» «طيبة» واحتفل بعيد «أبت» (عيد الأقصر)، ثم زحف بجيشه شمالًا إلى «الأشمونين»، وعندما وصل إلى هذه البلدة التي كانت محاصرة خرج من حجرة سفينته، وكانت عربته في انتظاره، وعندما ركبها دب الرعب في قلوب الأعداء في كل البلاد، حتى وصل هذا الخوف إلى بلاد آسيا نفسها «كما يقول المتن»، وكان كل قلب ينوء تحت عبء من الذعر، وعندما اجتمع

بجيشه في ساحة الوغى أخذ ينهال عليهم بالتوبيخ ويكيل لهم اللوم والتأنيب وهو في ثورة غضبه فقال لهم: «هل معنى ثباتكم في الحرب هو التراخي فيما أمرت به؟ هل بلغ العام نهايته عندما كان الخوف مني نفذ إلى أرض الشمال؟ لا عليكم، سأضربهم ضربة مؤلمة جبارة.»[٣٥] وعلى أثر ذلك ضرب لنفسه معسكرًا في الجنوب الغربي من «الأشمونين» وحاصرها يوميًّا، ثم أخذ في إقامة جسر ليحيط بجدران المدينة حتى لا يخرج منها أحد، وبنى برجًا ليضع فيه الرماة ليتسع لهم المجال عندما يُفَوِّقُون سهامهم على العدو في داخل المدينة، وكذلك ليتمكن الضاربون بالمقلاع من الإصابة عندما يرجمون الأهالي في الداخل بالحجارة.

وقد نتج عن ذلك أن مات كثيرون يوميًّا، ولم تمضِ مدة طويلة على هذا الحصار القوي حتى طلب أهل المدينة الأمان واستسلموا، غير أن «بيعنخي» بقي متعنتًا. والواقع أن الحصار الذي أقامه «بيعنخي» قد تسبب في موت أناس كثيرين دون أن يُدفنوا، فأنتنت «الأشمونين» وتصاعدت منها روائح كريهة، فلم يَسَعْ الأهلين أمام هذا العذاب والخراب إلا أن يسجدوا أمام «بيعنخي» طالبين منه العفو، وخرج الرسل إلى «بيعنخي» يستغفرونه حاملين إليه كل ما طاب وغلا ثمنه في المدينة من ذهب وأحجار فاخرة ثمينة وملابس وُضعت في صناديق، وحتى التاج الذي كان على رأس «نمروت» أمير المدينة قُدم هدية له، وقد استمروا على ذلك أيامًا طالبين العفو ومقدمين فدية لذلك تاج الملك نفسه، ولكن كل ذلك لم يُجْدِ نفعًا، ولما أعيتهم الحيل أرسلوا زوج الملك «نمروت» وابنته تطلبان التوسط عند زوج الملك في طلب العفو عن «نمروت»، ثم قدم له «نمروت» هدايا، وجاء هو بنفسه بعد ذلك فنهره الملك قائلًا له: «من أتى بك إلى هنا؟» وكرر هذه العبارة عدة مرات ثم أخذ يوبخه.

وبعد فراغ الملك من هذا اللوم، سجد «نمروت» أمامه على الأرض، وأخذ يتقرب إليه زلفى بعبارات تدل على الذلة والمسكنة، وقال له: إنه واحد من عبيده مستعد لتقديم الجزية، وإنه في الوقت نفسه أحضر له كثيرًا من الذهب والفضة واللازورد والفيروز وغير ذلك من الأشياء التي ملأ بها خزانته، ثم أحضر جوادًا في يده اليمنى وصناجة في يده اليسرى من الذهب «كما يشاهد ذلك في المنظر الذي رُسم في أعلى اللوحة التي نحن بصددها الآن»، وبعد أن تم الصلح بين الفريقين دخل «بيعنخي» «الأشمونين» فزار معبد الإله «تحوت» أعظم آلهة هذه المدينة، وقدم له القربان من كل نوع، كما قدم لآلهة «الأشمونين» الثمانية في معبدها، وقد رحب الأهلون بالملك أيما ترحيب، ثم زار «بيعنخي» بعد ذلك قصر «نمروت» ودخل كل حجرة فيه، كما زار بيت ماله ومخازن غلاله، ثم أمر أن تَمْثُل أمامه زوجات «نمروت» وبناته وصافحهن جلالته على طريقة النساء، ولكن جلالته لم ينظر لواحدة منهن[٣٦] وجهًا لوجه تعففًا واستحياء وصلاحًا، وهذا ما لم نسمع به من قبل في النقوش المصرية القديمة.

وبعد أن فرغ من زيارة القصر وبيت المال ولى وجهه شطر حظائر الخيل والمهارى، غير أنه عندما رأى الجياد نحيلة الجسم هزيلة المنظر تألم أشد الألم؛ لأن هذا الهزال نتيجة ما أصابها

من الجوع، وقال «لنمروت»: إن تألمي لهذه الجياد كان أشد من تألمي لأي شيء آخر عملته لتنفيذ غرضك،[٣٧] ثم أخذ يوبخه على ذلك بقوله: ألم تعلم أن ظل الله فوقي وأن حظي لن يولي بسببه؟ ثم أخذ يفهمه أن الله هو الذي يوجهه في كل أعماله وفعاله. ولا غرابة أن ترى «بيعنخي» يتألم لجوع الخيل وهزالها، فإنا سنرى بعدُ أنه كان هو وملوك أسرته يُعنون بالخيل عناية كبيرة، ويقيمون لها المقابر الفخمة المجهزة بالأثاث الثمين وبجوار مقابرهم أنفسهم.

وبعد أن فرغ «بيعنخي» من كل هذه الزيارات وزع متاع «نمروت»، فأعطيت أملاكه للخزانة العامة، وحبست غلاله على القربات المقدسة «لآمون» «بالكرنك».

وعلى أثر هذه الانتصارات جاء ملك «أهناسيا المدينة» «بفنفد ديباست»[٣٨] إلى «بيعنخي» يقدم له خضوعه واستسلامه دون قيد ولا شرط، وتدل شواهد الأحوال على أنه كان من الخارجين على «تفنخت» والموالين «لبيعنخي» ولذلك حضر إليه بهدايا عظيمة من الذهب والفضة وكل أنواع الأحجار الكريمة وجياد من خير ما في حظيرته.

والظاهر أن تربية الخيل والاعتناء بها كانت شائعة في هذا الوقت كما تدل على ذلك الوثائق، ولا غرابة في أن تكون الفروسية شائعة في ذلك الوقت عند حكام الإقطاع؛ إذ كانوا يعتمدون على الحرب لحفظ كيانهم، وهذا نفس ما نلحظه عند المماليك في العهد الذي سبق عصر «محمد علي»؛ إذ كانت الخيل وتربيتها وشن الحرب بوساطتها من أهم مقومات حياة هؤلاء الفرسان فكانت الغلبة لمن له جيش أقوى من المدربين على ركوب الجياد في ساحة القتال.

وتدل الألفاظ التي نطق بها صاحب «أهناسيا المدينة» عندما سجد أمام «بيعنخي» على أنه قد كشف عنه غمة، وأنه وجد فيه صديقًا يحميه؛ لأنه قد أذهب عنه ظلام الاستعباد، وقد قبل أن يكدح ويعمل مع رعايا هذا الفاتح، وأن تدفع «أهناسيا المدينة» الضرائب إلى الخزانة العامة؛ وبذلك لم تُرَقْ نقطة دم واحدة في «أهناسيا المدينة».

وبعد ذلك ترك «بيعنخي» هذه المدينة وانحدر في النهر بجيشه نحو مدينة «برسخم-خبر رع» الواقعة بجوار «اللاهون» الحالية، فوجد جدرانها مهدمة وحصنها مغلقًا وحُشد فيه عدد عظيم من الجنود الشجعان من أهل الدلتا، فأرسل إلى حامية الحصن وخيرهم بين أمرين: إما التسليم وإما الموت المحتوم، وأنه ليؤلمه أن يموتوا حربًا، وطلب إليهم ألا يغلقوا أبواب حياتهم وبذلك يكون مضطرًّا إلى سوقهم إلى المقصلة، وقد كان لهذا الإنذار أثر فعال في نفوسهم؛ إذ أرسلوا إليه يعترفون بما له من قوة مستمدة من عند الإله، وأنه قد أخذ قوته عن ابن الإلهة «نوت»؛ أي الإله «ست» إله الحرب والقوة، ولذلك فإن بلدهم هي حصن هذا الإله وليفعل بها ما يريد، وطلبوا إليه أن يفك عنها الحصار، وقد فك «بيعنخي» عنها الحصار فعلًا، وعندئذ خرج أهلها مع ابن رئيس «مي» «تفنخت» ودخلها جيش الملك دون إراقة نقطة دم

واحدة، وسلَم كل ما فيها لبيت المال، أما مخازن الغلال فحبست قربانًا على الإله «آمون رع» رب «طيبة» وإله «بيعنخي» الأعظم.

ولم يمضِ بعد ذلك مدة طويلة حتى انحدر «بيعنخي» في النهر ثانية شمالًا نحو «ميدوم» وهي بيت الإله «سكر» رب «سخر»[٣٩] وكانت محصنة، ولما هاجمها «بيعنخي» دب الرعب في قلوب الأهلين، ولكن «بيعنخي» على عادته أرسل إليهم يخبرهم إما أن يفتحوا أبواب المدينة وبذلك تكتب لهم الحياة وإما أن يغلقوا أبوابها وبذلك يجلبون لأنفسهم الموت والدمار، وعلى أثر ذلك سلمت الحامية ودخل الملك المدينة، وجعل بيت مالها لخزانة الدولة ومخازن غلالها قربانًا «لآمون» صاحب «الكرنك».

وبعد ذلك اندفع «بيعنخي» نحو «اللشت»، تلك المدينة القديمة التي اتخذها ملوك الأسرة الثانية عشرة فيما مضى عاصمة لملكهم، فوجد سورها مغلقًا، وأنها تزخر بالجنود من أرض الدلتا الشجعان؛ ولكن فضل قائدهم التسليم، ففتح الحصن دون حرب، ودخلها الملك وقدم قربانًا للآلهة القاطنين في هذه المدينة من ثيران وعجول ودجاج، ثم أعطيت ثروتها للخزانة، كما قدمت مخازن غلالها قربانًا مقدسة «لآمون».

وأخيرًا انحدر إلى «منف» عاصمة البلاد القديمة، وقبل أن يصل إليها أرسل إلى القائمين على أمورها وخاطبهم في شخص المدينة قائلًا: لا تغلقي أبوابك ولا تحاربي يا مأوى الإله «شو» بن «رع»، ثم أخذ يخاطب أولي الشأن بقوله لهم أن يدعوا من يريد الدخول إلى المدينة يدخلها، ومن أراد أن يخرج منها فليغادرها؛ «أي إنه لن يحاصرها، بل على العكس سيقدم للإله «بتاح» القاطن في جنوبيها القربان، وكذلك للإله «سكر» في مكانه السري»، ثم حذرهم من المقاومة وقال لهم إنه ملك رحيم، ولا أدل على ذلك مما حدث في المقاطعات الجنوبية وأهلها؛ فإنه لم يسفك دم واحد من أهلها إلا الذين لعنوا الآلهة فقد جزت رءوسهم بوصفهم ثائرين.

وعلى الرغم من هذا التحذير فإن الأهالي أوصدوا أبواب «منف» وجمعوا جيشًا من العمال والبنائين والبحارة لمقاومة فئة صغيرة من جنود «بيعنخي»، وفي تلك الأثناء تسلل «تفنخت» ليلًا إلى المدينة وأخذ يحمس أهل المدينة على مقاومة «بيعنخي».

وتدل شواهد الأحوال على أنه كان ينتظر محاصرة العدو لهذه المدينة، فأعدها بكل ما يلزم من زاد وأسلحة ورجال، كما قوَّى سورها بجدار ضخم لا يمكن لجيش العدو أن ينفذ منه بسهولة، فاستمع إليه وهو يخاطب مشاته وبحارته وخيرة جيشه الذين كان يبلغ عددهم ثمانية آلاف مقاتل: «تأملوا، إن «منف» قد اكتظت بالجنود من خيرة من في الأرض الشمالية، ومخازنها كانت تفيض بالشعير والبر وبكل أنواع الحبوب وبكل أنواع الأسلحة، كما أنها محصنة بجدار، وقد أقيمت شرفة عظيمة بنيت بطريقة ماهرة، والنهر يجري حول جانبها الشرقي، وليس هناك فرصة للهجوم من الشرق، هذا؛ ويوجد فيها حظائر للماشية مملوءة بالثيران، والخزانة تزخر بكل شيء نفيس من الذهب والفضة والنحاس والملابس والبخور

والشهد والزيت.» وهذا الوصف يدل على ما كانت عليه المدينة من استعداد وما كان عليه «تفنخت» من يقظة وحسن تدبير لمقاومة العدو. هذا؛ ولم يمكث «تفنخت» في المدينة لمحاربة العدو، بل عمل حسابًا للمستقبل وذهب ليعد العدة في المعاقل الأخرى على أن يعود ثانية لمواصلة مقاومة العدو في «منف» حصنه الحصين، وبعد يوم أو بعض يوم كان «بيعنخي» قد وصل بجيشه إلى «منف» في أسطوله وأرسى سفنه في شماليها، وكان ذلك في فصل الفيضان، فكان الماء عاليًا لدرجة أنه قد اقترب من الجدران، وبذلك أصبحت السفن ترسو عند جدران «منف» نفسها، وقد دُهش «بيعنخي» عندما رأى أن «منف» محصنة تحصينًا منيعًا، ولا غرابة؛ فإن كل المدن التي فتحها قبل ذلك بما في ذلك «الأشمونين» كان يتضاءل تحصينها أمام ما كانت عليه عاصمة الملك القديمة من تحصينات يرجع عهدها إلى أزمان قديمة، يضاف إلى ذلك أن «تفنخت» قد أضاف إلى سورها تعلية أخرى جديدة مما قواها وجعلها منيعة مستعصية على من يهاجمها، وقد بدت الحَيرة عليه وعلى ضباطه عندما رأوا مناعة المدينة، والظاهر أنهم عقدوا مجلسًا حربيًّا كالذي عقده «تحتمس الثالث» قبل موقعة «مجدو».[٤٠]

وفي هذا المجلس أخذ كل قائد من قواد «بيعنخي» يبدي رأيه؛ فاقترح واحد منهم حصارالمدينة إلى أن تسلم، وحجته في ذلك أن الجنود الذين كانوا يحمونها عديدون، واقترح آخر إقامة طريق توصل إليها وذلك بعد تعلية الأرض حتى تصل إلى جدرانها العالية، وقال آخر: «فلنقم صرحًا يوصل إليها ثم نضع قنطرة من الخشب تصل إلى المدينة، وبهذه الكيفية نقسمها من كل جانب من جوانبها بوساطة الأرض العالية التي تصل إلى نهاية جدرانها، ومن ثم نجد طريقًا للمرور إلى داخلها.»

غير أن الملك «بيعنخي» لم يأخذ برأي من هذه الآراء وصمم على أخطر رأي «كما فعل «تحتمس الثالث» من قبله» وهو الاستيلاء على المدينة بالهجوم.

وفي ذلك يقول المتن: «وعندئذ استولى غضب جلالته عليها كأنه الفهد، وقال: إني أقسم بحب «آمون رع» لي وبخطوة والدي «آمون» الذي أوجدني أن ذلك لا بد أن يصيبها على حسب ما أمر به «آمون»، وهذا ما سيقوله الناس بعد، إن الأرض الشمالية ومقاطعات الجنوب قد فتحت له أبوابها من بعيد؛ لأنهم لم يضعوا «آمون» في قلوبهم ولم يعرفوا ما الذي أمر به، فإن «آمون» قد جعله يظهر شهرته كما جعله يرى جبروته، وسأستولي عليها كالفيضان، وقد أمرت …»

وعلى أثر ذلك أخذ «بيعنخي» يستعد للاستيلاء على المدينة، ومما تجدر ملاحظته هنا أن جدران المدينة العالية الواقعة في الجهة الغربية كانت قد زِيد في ارتفاعها حديثًا على يد «تفنخت» استعدادًا للحصار الذي كان يتوقعه، وكان من البِدهى أن الجانب الشرقي كان محميًّا على ما يظهر برفع المياه اصطناعيًّا (؟) ولذلك أهمل تحصينه، وقد أرسل «بيعنخي» أسطوله وجيشه لمهاجمة الميناء التي كانت على الجانب الشرقي، وقد أحضر إلى هذه

الجهة كل ما لديه من سفن شحن وسفن نقل وغيرها وربطت حبال مقدمتها بين بيوت المدينة، والظاهر أن جنوده لم يصابوا بأي أذى.

وبعد ذلك أتى الملك بنفسه لينظم الهجوم ويضع كل سفينه في المكان اللائق بها، وبعد أن تم له ذلك أمر جنوده أن يقوموا بالهجوم، وأن يتسلقوا الجدران ويقتحموا البيوت التي على النهر، ونصحهم ألا يدعوا واحدًا منهم عندما يصل إلى قمة الجدار أن يقف أمامه حتى لا يُرمى بسهام العدو من داخل المدينة، ثم حمس جنوده بقوله: «إنه لمن العار أن نوصد الجنوب في وجه العدو، ثم نضطر بعد ذلك إلى أن نحاصر هذه المدينة التي تعد الفاصل بين الوجهين القبلي والبحري «الجنوب والشمال» ونقف أمامها دون الاستيلاء عليها.»

ولم يمضِ طويل زمن حتى استولى «بيعنخي» على «منف» بجيش كالفيضان بعد أن قتل منها خلقًا كثيرين واستولى على أسرى عديدين، وبعد أن تم له النصر أرسل بعثًا من قبله لحماية معابد المدينة وآلهتها وبخاصة الإله «بتاح» وتاسوع المدينة، ثم طهرت بالنطرون والبخور.

وبعد ذلك سار الملك إلى بيت «بتاح» وأدى فيه شعيرة التطهير في حجرة الصباح التي يظهر فيها الملك كل صباح على حسب التقاليد التي كانت تُعمل للملوك على غرار ما كان يعمل للإله «رع» عندما كان يحكم على الأرض، ثم دخل المعبد وقدم قربانًا لوالده «بتاح» القاطن جنوبي جداره «أي معبده» وعندما سمعت الأقاليم المجاورة «لمنف» بسقوطها سلمت بدورها، والظاهر أنها كانت أماكن محصنة ولكنها فتحت أبراجها وولى أهلها هاربين هائمين على وجوههم، وهذه المدن أو الأقاليم هي «حري بدمي» «ويحتمل أنها «حري» المدينة» ومدينة «يني-نا أوع» وبرج «بيو» وواحة «بيت»، وكل هذه الأماكن لم يحدد موقعها بعدُ؛ لأنها لم تذكر كلها إلا في هذا المتن، وعلى أية حال فإنها كانت على مقربة من «منف»، وعلى أثر ذلك النصر العظيم الذي أحرزه «بيعنخي» في «منف» وما جاورها حضر إليه صغار ملوك الدلتا ليقدموا له الولاء والخضوع، وفي الوقت نفسه كانوا يحملون له الجزية، ونخص بالذكر منهم الملك «أوبوت» ورئيس «مي» المسمى «أكانش» وهو اسم أجنبي والأمير الوراثي «بدي إزيس».[٤١]

وقبل أن يغادر «بيعنخي» «منف» منح ثروتها للإله «آمون» ولآلهة المدينة أيضًا؛ أي للإله «بتاح» وتاسوع «منف» القاطن في حتكبتاح.[٤٢]

وبعد أن فرغ من ذلك زحف «بيعنخي» إلى «خرعحا» (مصر عتيقة الحالية)، فقد توجه شرقًا في الصباح المبكر وقرب قربانًا «لآتوم» في «خرعحا» وكذلك للتاسوع المقدس وكهف الآلهة القاطنين فيه،[٤٣] وذلك تقربًا منه إلى هذه الآلهة.

وبعد ذلك سار إلى «عين شمس» الواقعة على تل «خرعحا» وقد طهر الملك نفسه في البركة المقدسة وغسل وجهه في نهر «نون» الذي غسل فيه «رع» وجهه. وهذه العبارة تشير إلى الخرافة القائلة بأن الملك هو ابن الإله «رع» الذي اتخذ مكانه في بادئ الأمر في مدينة «عين

شمس»، ومن ثم كانت تقام له الأحفال التي كانت تقام له فيما بعد في السماء، وعلى ذلك فإن ابن «رع» كان يتمثل بوالده في كل الأحفال.

وبعد ذلك سار إلى تل الرمال في «عين شمس» وقرب قربانًا للإله «رع» عند طلوعه، وتل الرمال هذا يرمز للتل الأزلي الذي ظهر في مياه المحيط الأزلي «نون»، والواقع أن أهم جزء في المعبد هو قدس الأقداس، وكانت فكرته المثالية هي أنه يعد بمثابة التل الأزلي؛ أي أول رقعة من أديم الأرض ظهرت في مياه العدم في يوم خلق العالم، ولما كانت الكائنات كلها قد ذُرِئَت من هذه البقعة على يد «بتاح» فإنها عُدَّت مصدر قوة لا حدَّ لها صالحة لظهور الإله فيها.[٤٤]

وقد دعا «بيعنخي» رئيس كهنة «رع» والمرتلين أن يصدوا الثوار عنه، وبعد ذلك زار قاعة الصباح في المعبد، وهي المكان الذي كان مفروضًا أن يغتسل فيه «رع» ويطهر نفسه ويلبس ملابسه الجديدة كل صباح وينشر فيها عبير البخور، وهناك قدمت للملك أكاليل لأجل بيت الهرم الصغير «بن بن» وهو المكان الذي يوضع فيه الهرم الصغير، وهو رمز التل الأزلي الذي كان يجثم عليه الإله «رع» في صورة الطائر «بنو» وهو في شكل الطائر «مالك الحزين» ويتقمص روح الإله «رع» في صورة صقر.

وبعد ذلك صعد الملك في السلم إلى النافذة العظيمة ليشاهد «رع» في بيت «بن بن» هذا، وهناك وقف الملك نفسه منفردًا[٤٥] أمام باب «بن بن» ثم كسر خاتم المزلاج وفتح الباب على مصراعيه وشاهد الوالد «رع» في بيت «بن بن» الفاخر، وكذلك شاهد سفينة الصباح الخاصة بالإله «رع» التي يسبح فيها في أثناء النهار في السماء من الشرق إلى الغرب، كما شاهد سفينة المساء التي يسبح فيها الإله «آتوم» في السماء السفلى من الغرب إلى الشرق، وهكذا كل يوم. ومن ثم نفهم أن إله الشمس كان يسمى في خلال النهار الإله «رع» وفي خلال الليل الإله «آتوم».

وبعد ذلك أوصد المصراعين ووضع عليهما الطين وختمهما بخاتم الملك، ثم أمر الكهنة بألا يسمحوا لأحد من الملوك الذين سيأتون بعده بفتحه فسجدوا أمامه سمعًا وطاعة.

وبعد ذلك زار معبد «آتوم» في هذه الجهة أيضًا.

ولما سمع الملك «أوسركون»[٤٦] الذي كان مقره في «بوبسطة» بإيغال «بيعنخي» في الدلتا أسرع بتقديم ولائه له.

وبعد ذلك توجه «بيعنخي» إلى زيارة «أتريب» (بنها الحالية)، فرست سفينته في الميناء على الشاطئ الغربي وضرب خيامه بالقرب من «قها» الحالية الواقعة في شرقي مقاطعة «أتريب»، وعندما سمع بذلك الملوك والأمراء الشماليون وكل الرؤساء اللوبيين «وهم الذين كانوا يميزون بلبس الريشة على رءوسهم» هذا إلى كل وزير ورئيس وسمير ملك من غربي الدلتا وشرقيها ومن الجزائر الواقعة في وسطها، هرعوا ليشاهدوا بهاء طلعته ويقدموا له

الطاعة ويكفوا أنفسهم شر القتال، وقد سجد أمامه الأمير الوراثي «بدي إزيس» راجيًا إياه أن يزور بلده «أتريب» ليرى إلهها العظيم «خنتي خاتي» «الذي كان يمثل في صورة صقر» وليتعبد للإلهة «خويت» معبودة هذه البلدة، وليقدم قربانًا «لحور» «أي حور خنتي خاتي» في معبده، وكذلك ليزور بيت ماله، وقد وضع ما فيه تحت تصرفه وكذلك أملاكه التي ورثها من والده، هذا إلى أنه كان مستعدًا ليقدم له ذهبًا بقدر ما يحب، وكذلك الفيروز الذي كان مكدسًا عنده، وفوق كل هذا عرض عليه جيادًا عدة من أحسن ما في حظائره.

وقد قبل «بيعنخي» زيارة «أتريب»، وقد كان أول ما زار فيها معبد الإله «حور خنتي خاتي» وهناك قرب له قربانًا فتقبل منه، وبعد ذلك دخل قصر هذا الأمير وتسلم منه الهدايا من فضة وذهب ولازورد وفيروز بمقادير عظيمة من كل صنف، هذا إلى ملابس من الكتان الجميل والعطور والمسوح وأوانٍ أنيقة وجياد أصيلة ذكورًا وإناثًا من أحسن ما في حظيرته.

وبعد ذلك طهر «بدي إزيس» نفسه بأن أقسم يمينًا مقدسًا أمام كل هؤلاء الملوك والرؤساء حكام الشمال العظام، وقال لهم: «إن كل واحد منهم سيموت ميتة والده إذا أخفى جياده وخبأ التزاماته، وليقع عليَّ مثل هذا العقاب إذا كنت قد أخفيت أي شيء من جلالته من كل متاع والدي من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، ومن كل أنواع الأواني الثمينة ومن أسوار الذهب والقلائد والأطواق المرصعة بالأحجار الكريمة والتعاويذ التي توضع على كل عضو من أعضاء الجسم وأكاليل الرأس والخواتم والأقراط وكل زينة خاصة بالملك، وكل هذه الأشياء قد قدمتها أمام جلالته، وأعني ملابس من الكتان الملكي بالآلاف من أحسن ما في قصري ومما أعرف أنك ستسر بها»، وفي النهاية خاطبه قائلًا: «اذهب إلى حظيرة الجياد وخذ ما طاب لك»، وقد فعل الملك ذلك.

ويلحظ أن الهدية التي كانت تلفت النظر من بين الهدايا التي كان يقدمها كل الأمراء هي الخيل، والظاهر «كما قلنا» أن تربيتها في مصر واستعمالها كان له منزلة عالية ملحوظة.

وبعد أن رأى الأمراء الهدايا العظيمة التي قدمها «بدي إزيس» صاحب «أتريب» طلبوا إلى «بيعنخي» أن يصرفهم كلٌّ إلى مدينته حتى يفتحوا خزانات ماليتهم ليضعوا ما فيها تحت تصرف جلالته ليأخذ منها ما يشاء، وكذلك ليُحضروا له خيرة جياد حظائرهم، فسمح لهم بالانصراف، وكان عددهم خمسة عشر ما بين ملك وأمير ورئيس من قوم اللوبيين وكاهن، وهاك أسماؤهم وألقابهم:

- (١) الملك «أوسركون» ملك «بوبسطة» وأقليم «نفر رع» المجاور «لبوبسطة».
- (٢) الملك «أوبوت» حاكم «تنترمو» «وتاعان».[٤٧]
- (٣) الأمير الوراثي «زد أمنف عنخ» في مخزن غلال «رع» حاكم «منديس».[٤٨]

(٤) وأكبر أولاده قائد الجيش في بلدة «تحوت بررحوي»، ويدعى «عنخ حور». وبلدة «تحوت بررحوي» هي التي قام على أنقاضها بلدة «تل البقلية» القريبة من «المنصورة».

(٥) الأمير «أكانش» في «سمنود» (رتب نتر = العجل المقدس) وفي «بهبيت» وفي «سما بحدت»، والاسم الأخير يطلق على المقاطعة الثامنة عشرة من مقاطعات الوجه البحري، وعاصمتها تسمى بهذا الاسم، وكذلك تسمى العاصمة «با أو آمون» (أي بحيرة «آمون») وقد بقي لنا الاسم في «تل البليمون» الحالي مركز شربين.[٤٩]

(٦) الأمير رئيس «مي» المسمى «باثنف» في «برسبد» (أي «صفط الحنا» الحالية) وفي «شنوت أنبوحز» (أي مخزن غلال الجدار الأبيض؛ أي «منف»)، وتقع على ما يُظن في المقاطعة العشرين من مقاطعات الوجه البحري، وعاصمتها «صفط الحنا» الواقعة في مديرية الشرقية مركز الزقازيق.

(٧) الأمير رئيس «مي» «بمبو» حاكم «بر أوزير» رب «دد»، وهذا هو الاسم الكامل لعاصمة المقاطعة التاسعة من مقاطعات الوجه البحري وهي «بوصير»، وغالبًا ما تسمى باختصار «بر أوزير» وهي الآن «أبو صير بنا» مديرية الغربية مركز «المحلة الكبرى».[٥٠]

(٨) الأمير رئيس «مي» المسمى «نس ناقدي» حاكم مقاطعة «حسب» وهي المقاطعة العاشرة والعاصمة الدينية لها، ويحتمل أنها تقع على أنقاض بلدة «الحبيش» التي تبعد مسافة أربعة كيلو مترات من «هربيط» مركز «كفر صقر».[٥١]

(٩) الأمير رئيس «مي» المسمى «نخت حرنا-شنو» حاكم «برجرر» (مسكن الضفدعة) إحدى عواصم المقاطعة الثامنة، ويقول عنها «دارسي» إنها تقع في «كوم الشقافة» في الجنوب من «التل الكبير»[٥٢] ويقول «برستد»: إنها تقع في الإقليم الواقع في النهاية الشمالية لخليج «السويس».[٥٣]

(١٠) رئيس «مي» المسمى «بنتاور».

(١١) ورئيس «مي» المسمى «نبتي بخنت».

- (١٢) كاهن «حور» رب «ليتوبوليس» المسمى «بادي حر سماتوي».

- (١٣) الأمير الوراثي «حور أباس» حاكم «بر سخمت نب سا» (أي مسكن الإلهة «سخمت» ربة «سايس»)، وهذا اسم محراب للإلهة «سخمت» في بلدة «سايس»؛ أي «صا الحجر»[٥٤] الحالية، وكذلك حاكم «بر سخمت نب رحساوي» وهو محراب للإلهة «سخمت» سيدة «رحساوي» وهي مدينة لم تُعرف بعدُ من المقاطعات الثانية من مقاطعات الوجه البحري، ويُحتمل أنها بالقرب من «أوسيم» الحالية.[٥٥]

- (١٤) الأمير الوراثي «زدخيو» في «خنت نفر»، وقد وحد الأستاذ «حمزة» «خنت نفر» ببلدة «قنتير» الحالية،[٥٦] ويقول «بروكش»: إنها مدينة بالقرب من «ليتوبوليس» (أوسيم).[٥٧]

- (١٥) الأمير «بباس» حاكم «خرعحا» «وبرحعبي» «وقد شرحنا موقع هاتين المدينتين فيما سبق.»

وكل هؤلاء الملوك والأمراء قد عادوا حاملين للملك جزيتهم من ذهب وفضة ومتكآت منمقة بالكتان الجميل، وكذلك العطور في جرار، هذا إلى جياد مما كان مغرمًا بها «بيعنخي».

وعلى الرغم من خضوع كل هؤلاء الحكام وامتثالهم لأوامر «بيعنخي» فإنه لم تمضِ إلا عدة أيام على تقدمهم بهذه الهدايا حتى أتى رسول للملك يخبره أنه قد قامت ثورة في بلدة «مسد» التي تدل شواهد الأحوال على أنها كانت تقع على حدود مقاطعة «تفنخت» في الدلتا الغربية؛ فأرسل «بيعنخي» جيشًا من جنود «بدي إزيس» ليستطلع جلية الأمر هناك وليخمدوا الثورة إذا كانت قد أشعلت نارها حقًّا، ولم تمضِ مدة طويلة حتى أتى إلى الملك رسول يخبره بإخماد الثورة وأن الثوار قتلوا عن آخرهم، وقد أهدى «بيعنخي» هذا البلد إلى الأمير «بدي إزيس»، وأخيرًا لما سمع «تفنخت» بإخماد هذه الثورة «والظاهر أنه كان هو المحرك لها» لم ير بدًّا من إرسال رسول للملك يستأذنه في الحضور للمثول بين يديه.

والواقع أنها كانت رسالة استعطاف واعتراف بقوة «بيعنخي» وطلب العفو عما بدر منه من سيئات، وفي الوقت نفسه يصف له فيها ما وصلت إليه حالته خلال تلك الحروب الطاحنة من جوع وعري وتشريد، حتى إنه كان أحيانًا يضطر إلى أكل أيبس خبز من أيدى عامة الناس خلال دفاعه عن وطنه في حملة من الحملات التي قام بها على «بيعنخي»[٥٨] فاستمع إليه وهو يقول في رسالته لهذا الملك العظيم: «فليهنأ بالك! إني لم أرَ وجهك خجلًا وخزيًا، وليس في مقدوري أن أقف أمام لهيبك الذي «ينفث من حولك» كما أني أرتعد فرَقًا أمام جبروتك، حقًّا إنك الإله «ست» (نوبتي) المسيطر على الأراضي الجنوبية، وفي آن واحد «منتو» ذلك الثور صاحب الساعد القوي «في حومة الوغى» وأنت الذي عندما كنت تولي

وجهك نحو أية مدينة لم تجدني فيها؛ إذ أكون قد وليت الأدبار إلى أن بلغت في فراري جزر البحر خائفًا مرتعدًا أمام بطشك مرددًا: إن لهيبه يناصبني العداء، ألم يهدأ لب جلالتك بعد بهذه الأشياء التي عملتها لي؛ إذ الواقع أني قد أصبحت رجلًا يائسًا تعسًا، ولا ينبغي لك أن تعاقبني على ما اقترفت من جريمة فتزن خطاياي بالقسطاس المستقيم وبالحبة والدانق، لقد ضاعفت في الحق هذه الخطايا ثلاثة أضعاف، فليتك تترك البذرة لأجل أن تجدها في الوقت المناسب، ولا تجتث الشجرة من أصلها، وبحقك أن الفزع منك يسري في جسمي والخوف منك يدب في أعضائي، على أني لم أجلس في حانة جعة ولم أَلْهُ بالضرب على العود في حضرتي، بل على العكس لقد أكلت الخبز اليابس جوعًا وشربت الماء عطشًا منذ ذلك اليوم الذي سمعت فيه اسمي «أي منذ أن نشبت الحرب بيننا» ولقد ألمَّ المرض بعظامي وسرت حاسر الرأس وارتديت الخرق إلى أن رضيت عني الإلهة «نيت» ربة «سايس» ولقد كان الشوط الذي جلبته عليَّ في محاربتك طويلًا، وما العمل والغضب في وجهك بادٍ ضدي، والسنون قد حلت جسمي، فطهرني من خطيتي، ولتكفر عني ممتلكاتي بتسليمها إلى بيت المال بما فيها من ذهب وأحجار ثمينة من كل صنف، وما تحتويه حظائري من خيرة الجياد لتكون دية عن كل ما اقترفته، فأرسل لي رسولًا على وجه السرعة حتى ينقشع عن قلبي الخوف، ودعني أخرج أمامه إلى المعبد حتى أطهر نفسي بأخذ ميثاق مقدس على نفسي.»

وعلى أثر ما جاء في هذه الرسالة أرسل جلالة الملك «بيعنخي» إلى «تفنخت» الكاهن رئيس المرتلين المسمى «بدي أمن نستاوي» وبصحبته قائد الجيش «بورما» فأهدى إلى الملك فضة وذهبًا وملابس وأحجارًا ثمينة فاخرة من كل الأنواع، ثم سار «تفنخت» مع رسولي الملك إلى المعبد وصلى للإله، وطهر نفسه بميثاق مقدس قائلًا: «أقسم بأني لن أتعدى أمر الملك، ولن أتخطى ما يقوله الملك، ولن أناصب أميرًا العداء دون علمك، وإني سأفعل على حسب ما يقول الفرعون ولن أتعدى ما أمر به.»

وعندئذ رضي الملك بهذا القسم العظيم، وفي الحق إنه لقسم وثيق العرا؛ إذ نفهم من كلماته أنه لن يقوم بأي عمل عدائي على «بيعنخي»؛ فلا يحرض أميرًا على العصيان، ولن يقوم بأي عمل على غير رغبة الفرعون، وفي هذا كل الخضوع والطاعة لأمير كان الفوز منه والتغلب على كل مصر وتأسيس إمبراطورية ضخمة قاب قوسين أو أدنى.

والواقع أن ما قام به «تفنخت» من مقاومة وما أبداه من شجاعة وإقدام في مقاومة «بيعنخي» في بلاد كانت تسودها الفوضى والانقسام لمما يدل على ما كان عليه من ذكاء وحسن قيادة، ولو أتيحت لهذا البطل الفرص كما أتيحت لأحمس الأول لَكوَّن إمبراطورية لا تقل في عظمتها وقوتها عن إمبراطوريته، ثم بعد ذلك يتساءل الإنسان: هل قدم «تفنخت» حقًّا خضوعه على هذه الصورة المشينة؟ إنا نشك في ذلك كثيرًا، والواقع أنها مبالغات!

وبعد أن فرغ «بيعنخي» من إخضاع أكبر مناهض له في مصر وهو «تفنخت» لم يبقَ له في طول البلاد وعرضها مناهض، وقد كان آخر من سلم بالخضوع والإذعان بالطاعة له «الفيوم» التي كانت قد خضعت «لتفنخت» ثم «أطفيح»، هذا بالإضافة إلى البقية الباقية من ملوك

الدلتا، وقد جاء ذلك نتيجة لهزيمة رئيسهم الأكبر «تفنخت»؛ فقد أتى إلى هذا الفاتح رسول يقول له: «إن معبد «سبك»؛ أي «الفيوم» قد فتحت حصنها وكذلك «متنو»؛ أي «أطفيح» عاصمة المقاطعة الثانية والعشرين من مقاطعات الوجه القبلي قد سجدت له، ولم تبقَ مقاطعة في جنوب البلاد أو شماليها أو شرقيها أو غربيها وحتى الجزر التي في وسط الدلتا إلا سجدت خوفًا منه، وقد جعل أصحابها كل ممتلكاتهم تقدم إلى الملك في المكان الذي يريده بوصفهم رعايا قصره.»

وقد حضر في الصباح المبكر كل من الملك «نمروت» وملك «أطفيح» على ما يُظن، وهما من حكام الجنوب والشمال ليقبلا الأرض بين يدي جلالته، هذا؛ وفي الوقت نفسه فإن ملوك الدلتا وأمراءها الذين لم يكونوا قد خضعوا بعد، وهم الذين قد أتوا ليشاهدوا بهاء جلالته، كانت أرجلهم كأرجل النسوة طراوة.

وهؤلاء الأمراء لم يسمح لهم بدخول بيت الفرعون؛ لأنهم كانوا أنجاسًا؛ «أي إنهم لم يختنوا»[٥٩] وكذلك لأنهم من أكلة السمك الذي كان يعد في نظر رجال القصر لعنة،[٦٠] ولكن نجد أن الملك «نمروت» قد دخل بيت الملك؛ لأنه كان طاهرًا؛ أي مختونًا، ولم يكن من آكلي السمك، وقد كان بباب الملك ثلاثة من هؤلاء الملوك ولكن لم يدخل قصر الملك إلا واحد وهو «نمروت».

بعد أن انتهى «بيعنخي» من فتحه العظيم وإخضاع كل البلاد المصرية وتوحيدها مع بلاد «كوش» شحن سفنًا بالفضة والذهب والنحاس والملابس وكل شيء يرغب فيه من بلاد الشمال، وما تصبو إليه نفسه من محاصيل سوريا وكل الأخشاب الحلوة المجلوبة من أرض الإله؛ أي من بلاد «بنت»، وفي ذلك إشارة إلى اتصال التجارة في ذلك الوقت بين مصر والبلاد المجاورة لها وبخاصة بلاد سوريا وبلاد «بنت» الواقعة على ساحل البحر الأحمر.

وبعد ذلك أقلع «بيعنخي» إلى الجنوب بقلب منشرح، وكانت الناس على كلا شاطئي النهر ترحب به وتهلل لطلعته، وكان القوم القاطنون في غربي النهر وشرقيه يقيمون الأفراح في حضرة جلالته ويغنون ويصفقون وهم يقولون: «يا أيها الحاكم الجبار، يا «بيعنخي»، أيها الحاكم صاحب البطش، إنك تعود وقد أحرزت السلطان على الأرض الشمالية، فأنت الذي تجعل من الثيران نسوة، فما أسعد قلب المرأة التي حملتك والرجل الذي أنجبك، فسكان الوادي يقدمون الثناء إلى البقرة التي حملت ثورًا، وإنك ستبقى مخلدًا وقوتك سرمدية يأيها الحاكم محبوب طيبة.»

تلك هي قصة «بيعنخي» وما قام به من أعمال عظيمة كما رواها هو عن نفسه في لوحته التي أقامها في بلاده. حقًّا إنها تحدثنا عنه كما يرغب هو لا كما يرغب المؤرخ المحايد أن يسمع القصة من الجانبين المتخاصمين ثم يدلي بحكمه، ولا نزاع في أنها قصة فيها تحيز، ولن يمكن الحكم على صحة كل ما جاء فيها إلا إذا جادت علينا تربة مصر بقصة «تفنخت» الذي ناضل عن بلاده حتى آخر سهم في كنانته، ومع ذلك فإنا نجد في رواية «بيعنخي»

نواحي كثيرة إنسانية، لم نجدها على وجه عام فيما تركه الفاتحون المصريون العظام، وأقل ما يقال عنه إنه كان لا يميل كثيرًا إلى سفك الدماء، وكان لا يأتي هذا العمل الفظيع إلا مضطرًّا، وناهيك بشفقته على الحيوان وتقاه وصلاحه واعتماده على إلهه حتى في ساحة الوغى وفي توجيهاته الحربية، وهذا على الرغم من مهارته في فنون الحرب والقيادة، والواقع أن أقرب فرعون يشبهه في أخلاقه وصفاته هو «تحتمس الثالث» الذي كان لا يميل إلى سفك الدماء كثيرًا إذا ما قرن بأسلافه وخلفائه من فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، كما أنه في تقاه وتمسكه بمساعدة «آمون» له يشبه الفاتح العظيم «رعمسيس الثاني» وبخاصة في موقعة «قادش» العظيمة عندما كان يناجي إلهه «آمون» للأخذ بناصره في ساحة الوغى، ولا يعتمد على أحد سواه.

ويطيب لنا أن نذكر هنا أن من الظواهر التي تسترعي النظر في لوحة «بيعنخي» بل وفي العهد الكوشي بعامة كما سنرى بعد التمسك الواضح بأهداب الدين وتحمس ملوكه لآلهتهم، وبخاصة إذا وازناهم بملوك مصر في تلك الفترة، فقد كانوا فعلًا في عصر انحلال ديني ظاهر، فملوك «كوش» يمكن أن نشبههم في تلك الفترة بملوك الوهابيين في خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، في حماسهم الديني والتمسك بأهداب العقائد القديمة. والواقع أن لوحة «بيعنخي» قد أوضحت لنا تمامًا كيف كان ملوك «كوش» يتبعون بكل دقة شعائر الدين المصري، فقد عمل كل ما في وسعه ليظهر تمسكه بالعقيدة الشمسية القديمة في هليوبوليس، كما وجدناه في مشهد آخر يرفض التسليم التام لأولئك الأمراء المصريين الأنجاس بسبب أكلهم للسمك.[٦١]

هذا؛ وقد كان تمسكهم بعبادة «آمون» وتقديسه من أبرز صفاتهم، وهذا يذكرنا بما كان عليه ملوك الدولة الحديثة وبخاصة الأسرة الثامنة عشرة من تمسك بعبادة «آمون» والعمل على نشرها في كل أنحاء الإمبراطورية وبخاصة في بلاد «كوش»، ولا يبعد إذن أن تأثير عبادة «آمون» كان لها مفعول كبير على ملوك «كوش» في عهد الأسرة الخامسة والعشرين، فقد وجدناهم فجأة في مصر معتنقين هذه العقيدة، ولذلك يميل الإنسان إلى الاعتقاد أن كهنة معبد جبل برقل الذين كانوا من عباد «آمون» لهم ضلع كبير في تأسيس الأسرة الخامسة والعشرين، إن لم يكونوا هم المؤسسين لها بعد أن مكثوا في «كوش» مدة طويلة نشروا فيها عقيدتهم في أرجاء تلك البلاد، إلى أن حانت فرصة تدهور البلاد المصرية في أواخر الأسرة الثانية والعشرين، فانقضُّوا عليها بدمهم الفتيِّ وأسسوا الأسرة الخامسة والعشرين.

مقبرة «بيعنخي»[٦٢]

كُشف عن مقبرة الملك «بيعنخي» في جبانة «الكورو» ضمن المقابر الملكية التي وُجدت هناك، وقد وجدت في حالة تهدم وتخريب تامَّين، ويحتمل «مما تبقى من وضعها» أن البناء الذي كان يعلو حجرة الدفن هرمي الشكل.

وقد عُثر على حجر واحد من مدماك الأساس، وسور هذه المقبرة أقيم من الحجر الرملي، أما مقصورة المقبرة أو بعبارة أخرى مزارها فقد خرب تمامًا، ولم يعثر على شيء من ودائع الأساس قط، ويحتوي السلم المؤدي إلى حجرة الدفن على تسع عشرة درجة مؤدية مباشرة إلى الباب الذي أقيم في الجهة الشرقية، أما حجرة الدفن نفسها فقد نهبت محتوياتها تمامًا، ومع ذلك وجد فيها بعض قطع مهشمة تدل على أنها كانت تحتوي على أثاث جنازي ثمين نخص بالذكر منه قطعًا من الخزف المطلي وتعاويذ،[٦٣] وكذلك قطعًا من اللازورد وعينين سليمتين، وتعويذة من عقد «منات» «وهذا العقد كانت تلبسه الراقصات أو الراقصون أمام الإلهة حتحور» نقش عليها طغراء الملك «بيعنخي» على الظهر، وكذلك أربعة أغطية أواني أحشاء وإناءًا أحشاء وتماثيل مجيبة من الخزف عليها صورة «بيعنخي» واسمه.[٦٤]

هذا؛ إلى مائدة قربان عليها أقداح ماء من البرنز عثر عليها في السلم المؤدي إلى حجرة الدفن، وهي محفوظة الآن بمتحف «بوستون» بمدينة «نيويورك»،[٦٥] ووجدت أوانٍ من الفخار لها قيمتها الأثرية.[٦٦]

ويوجد في المتحف البريطاني قطعة نسيج من الكتان كُتب عليها بالمداد طغراءات الملك «بيعنخي»،[٦٧] ويقال إن «ولكنسن» قد أحضرها من «طيبة».[٦٨] والمتن الذي كتب على هذا النسيج نشره «جرين»[٦٩] على أن القول بأن هذا النسيج يمكن أن يكون قد أتى من حجرة دفن «بيعنخي» فإنه قول بعيد الاحتمال؛ وذلك لأن مقبرة هذا الملك كما قلنا قد نهبت نهبًا تامًّا في العصور القديمة أو على أقل تقدير في العصر المروي، هذا إلى أن بقاء مثل هذا النسيج معرضًا مدة تزيد على ألف وخمس مائة سنة يكاد يكون من ضروب المستحيل، ولكن المرجح في أمر هذا النسيج أنه قد كشف عنه في العصور الحديثة، وأنه كان هدية من الفرعون إلى أحد المعابد أو لمقبرة أحد أتباعه.[٧٠]

آثار «بيعنخي» في أنحاء مصر والسودان

وُجد لهذا الفرعون بعض آثار تدل على امتداد نفوذه، نخص بالذكر منها ما يأتي:

- (١) جزء من مسلة مصنوعة من الجرانيت، عليها سطر من النقوش على كل وجه من أوجهها الأربعة، وهو محفوظ الآن بمتحف الخرطوم، رقم ٤٦٢.[٧١]
- (٢) قطعة فضة نُقش عليها اسم الملك «نمروت»، وهي على ما يظهر من خرائب «هرموبوليس»؛ أي «الأشمونين»، والظاهر أن «بيعنخي» قد أحضرها معه عند عودته من مصر إلى بلاده، وهي محفوظة الآن في «أكسفورد» بمتحف «أشموليان».

وقد عُثر على هذه القطعة في خزانة معبد صنم الواقعة على مسافة خمس مائة متر شرقي هذا المعبد.[٧٢]

(٣) ومن المحتمل أن المعبد B. 900 قد وضع أساسه في الأصل الملك «بيعنخي» ثم أعاد بناءه الملك «حرسيوتف» (؟) في العهد المروي.[٧٣]

(٤) وكذلك يحتمل أنه هو أو والده «كشتا» قد بنى المعبد رقم B. 800.[٧٤]

(٥) ووُجد في معبد «صنم» الجزء الأسفل من تمثال مصنوع من البازلت جالسًا ورسم على أحد جانبي العرش علامة توحيد الأرضين، وهذا التمثال على ما يظهر قد اغتصبه «بيعنخي»، هذا ووجد عرش تمثال من الحجر الرملي منقوش عليه اسمه.[٧٥]

(٦) ولوحة «بيعنخي» العظيمة التي أسهبنا القول في محتوياتها عُثر عليها في معبد جبل «برقل» الذي يحمل اسم B. 500، وهذا المعبد يعد أكبر وأجمل المعابد التي أقيمت في جبل «برقل»، غير أنه مما يؤسف له جد الأسف لم يبقَ منه إلا بقايا مهدمة، ويقع عند سفح جبل «برقل» في الجهة الشمالية الغربية، ويحتل مساحة كبيرة، ويبلغ طوله حوالي ٥٠٠ قدم، وهو في حجمه وعظمته يحتل المكانة الثانية بعد معبد «صلب».

والظاهر أنه قد وُضع أساسه في عهد الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة في حكم «رعمسيس الثاني» ثم أعاد بناءه «بيعنخي» وبُني مرة أخرى في عهد الملك «ناتا كاماني» (خبر كارع).[٧٦]

ويبلغ طول معبد «بيعنخي» هذا حوالي ٥٠٠ قدم، وعرضه في أوسع ردهاته حوالي ١٣٥ قدمًا، وهذه الردهة كان يصل إليها الإنسان بوساطة بوابة لا يمكن تقدير حجمها على وجه التأكيد، وأبراج هذه البوابة لم تُهدم، بل أزيلت أحجارها واستُعملت في أغراض أخرى، وعلى كلا جانبي البوابة كان يوجد ستة تماثيل لكباش من الجرانيت كل منها يقبض أمامه على تمثال للملك «أمنحتب الثالث» أحضرها «بيعنخي» من معبد «صلب»، ولا يزال منها اثنان في مكانهما الأصلي.

وحول الجهات الأربع للردهة الخارجية أقيم ممر كان مدعمًا من الجهة الشمالية بصفين من العمد، وهذه الردهة يبلغ طولها ١٥٠ قدمًا تقريبًا، وقطر كل عمود حوالي ست أقدام، وترتكز على قواعد قطرها حوالي ـ   من الأقدام، وأهم ما كان يشاهد على جدران هذه الردهة سُوَّاس خيل «بيعنخي» يقودون الخيل، وكذلك وُجدت لوحة من الحجر الرملي الأحمر للملك «بيعنخي» وقد هُشم الجزء الأسفل منها، وبها منظر يشاهد فيه الملك يتسلم التاج من «آمون رع» تتبعه الإلهة «موت» والإله «خنسو»، وقد عُثر عليها أمام قاعدتها الأصلية، وهي الآن بمتحف مروي Khartoum, N. 1851[٧٧] هذا إلى لوحات الجرانيت التي نُقلت في عام ١٨٦٢ كما تحدثنا عن ذلك من قبل.

والردهة الثانية طولها ١٢٥ قدمًا، وعرضها ١٠٢ من الأقدام، ويصل إليها الإنسان كذلك بوساطة بوابة عمقها حوالي ٢٨ قدمًا، وفي الجانب الشرقي كان يوجد أربعة صفوف من العمد كل منها يحتوي على ستة عمد ثلاثة على كل جانب من الباب، هذا إلى صفوف مزدوجة من العمد أقيمت على كل من جانبي الممر الذي كان يبلغ عرضه حوالي ٧ أقدام من بوابة إلى بوابة، وقد أقيم على مدخل بوابة هذه الردهة أربعة تماثيل لكباش كل منها يقبض أمامه على تمثال صغير للملك «أمنحتب الثالث» أحضرها «بيعنخي» من معبد «صلب»، ويوجد بقايا منظر يشاهد فيه الملك يذبح الأعداء على جدران البوابة، أما على الجدران داخل الردهة فقد مُثل عليها منظر للملك وأسرى خلف عربته.

والردهة الثالثة أصغر بكثير من سابقتيها؛ إذ يبلغ طولها حوالي ٥١ قدمًا وعرضها ٥٦ قدمًا، وتحتوي على عشرة عمد، خمسة على كل من جانبي الطريق، وقد كان لها بوابة، وعلى جدران هذه الردهة في الجهة اليمنى كان يوجد بابان يؤدي كل منهما إلى مقصورة يمر الإنسان منها إلى الممر المؤدي إلى المحراب، وقد كان مقسمًا ثلاثة أجزاء بجدارين ممتدين على طول الممر، ففي الجدار الذي على اليمين باب يؤدي إلى حجرة طويلة ضيقة فيها أربعة أعمدة محاريب، وخلف ذلك مقصورة صغيرة تحتوي على عمودين ومقصورة، وإذا عدنا أدراجنا ومررنا بالجدران التي في الداخل والخارج دخلنا مقصورة أخرى تحتوي على أربعة أعمدة، وفي نهاية هذه الحجرة مائدة قربان جميلة من الجرانيت نقش عليها

«تهرقا» اسمه، ورسم عليها آلهة النيل يعقدون علامة ضم القطرين على واجهة المائدة وخلفها، هذا إلى أربع صور «لتهرقا» ترفع السماء على الجانبين، وهي لا تزال في مكانها الأصلي، وهذا يدل على أن «تهرقا» قد أضاف مقصورة في معبد «بيعنخي»، وخلف هذه المقصورة حجرة طويلة لها باب على اليسار.

وأخيرًا ينتهي المبنى بالمحراب ويمكن تتبع تصميمه بسهولة، فنجد صورة الإله «آمون» موضوعة على نهايته بالقرب من المائدة الضخمة المصنوعة من الحجر، ولا يزال عليها اسم صانعها «بيعنخي»، وعلى اليمين توجد مقصورة صغيرة يمكن الدخول إليها من نهاية المحراب، ومن المحتمل أنها كانت لحفظ ملابس الإله والكهنة وحليهم.[٧٨]

- (٧) قاعدة مائدة قربان من الجرانيت الأسود باسم «بيعنخي» لا تزال موجودة في مكانها الأصلي،[٧٩] وجاء على هذه القاعدة النقش التالي: «يتكلم» «آمون رع» ملك رب «برقل» وهذه الآلهة: إني معروف عند هذا الطفل، وإني أنا أعرفه قبل أن يولد وقبل أن يأتي إلى العالم، وإني أعطيته أشياء ملكي، وإني أقضي له على كل الأعداء، وإنه هو الذي يسر قلبي؛ لأنه أقام أماكني العظيمة، وهو ملك الوجه القبلي والوجه البحري «بيعنخي».[٨٠]

- (٨) ويوجد «لبيعنخي» منظر «بالكرنك» في معبد الإلهة «موت» ربة «أشرو»، ويشاهد على أحد أحجار هذا المنظر الذي نجده في حجرة هذا المعبد اسم «بيعنخي» ويمثل المنظر رحلة نهرية قام بها هذا الملك، إما عند عودته من الشمال بعد فتح الدلتا وإخضاع صغار ملوكها، وإما حملة سلمية قام بها في جنوب بلاد «كوش» لأجل أن يحضر لمصر المحاصيل النادرة التي تنتجها هذه البلاد النائية،[٨١] هذا ما قاله بعض المؤرخين عن هذا المعبد، والواقع أنه لا يمت له بصلة، بل دل البحث على أن هذا المنظر تابع لرحلة «نيتوكريس» كما سنرى بعد.

لوحة الملك «بيعنخي» المصنوعة من الحجر الرملي: كشف الأثري «ريزنر» عن لوحة من الحجر الرملي يُظن أنها في الأغلب للملك «بيعنخي» وقد وجد عليها صورة ملك وأسماء مكشوطة، وقد وُضعت فيما بعد صورة «بيعنخي» واسمه، كما يلاحظ أن اسم «آمون» لم يكشط، وقد عُثر عليها في جبل «برقل» في قاعدة العمد B. 501 ملقاة على وجهها أمام عقب باب كانت مثبتة فيه.

ويقول «ريزنر»: إن «بيعنخي» أقام هذه القاعة بعد حملته على مصر.

ويبلغ عرض هذه اللوحة الآن ١٢٣ سنتيمترًا وطولها ١٣٠ سنتيمترًا، ولكن تدل الأحوال على أنها كانت أعلى من ذلك؛ لأن الجزء الأسفل منها قد كُسر ولم يُعثر عليه بعد، والمظنون أنها كانت في الأصل منصوبة أمام البوابة الثانية قبل أن تُبنى القاعة B. 501.

والمنظر الأعلى للوحة يعلوه قرص الشمس المجنح يتدلى منه صِلَّان، أما في وسط اللوحة فيشاهد الإله «آمون» برأس كبش قاعدًا على عرش وممسكًا تاج الوجه البحري في يده اليسرى يقدمه للملك، وفي يده اليمنى تقية، ويقف خلف هذا الإله الإلهة «موت» على رأسها التاج المزدوج وتربت «آمون» بيدها اليمنى، وفي يدها اليسرى علامة الحياة.

وخلف هذه الإلهة يقف الإله «خنسو»، ويشاهد أمام «آمون» الآن ملك «كوش» واقفًا وعلى رأسه التاج الكوشي المعتاد، وفي يديه قلادتان «واحدة منهما صدرية» يقدمها لآمون، وتدل صورة اللوحة على أنها في الأصل ترجع لعهد بعد زمن «إخناتون»؛ لأن اسم «آمون» لم يكشط.

وتحتوي هذه اللوحة على ثمانية وعشرين سطرًا، وهاك الترجمة:

(١) كلام «آمون» سيد عروش الأرضين، الذي ينصب والطاهر (٢) لابنه محبوبه «بيعنخي»، إني أقول لك عندما كنت في (٣) بطن أمك أنك ستكون حاكمًا على مصر (٤) وأني أعرفك في البذرة عندما كنت (٥) في البيضة أنك ستكون (٦) سيدًا، وقد جعلتك تتسلم التاج المزدوج «ورت المخصص بِصِلَّيْنِ، وهذه خاصية لملوك كوش» الذي أمر «رع» أن يطهر (٧) في الزمن الأولي الطيب، والوالد يجعل (٨) ابنه ممتازًا، وإني أنا الذي قد أمرت بالملكية لك، من الذي سيشاركك فيها؟ (٩) إني رب السماء، وإن ما أعطيته «رع» فإنه يعطيه (١٠) أولاده بين الآلهة أو (١١) الناس، وإني أنا الذي أمنحك المرسوم، فمن الذي (١٢) سيشاركك فيه؟ ليس هناك ملك آخر قد استولى عليه (١٣)، وإني أنا الذي يمنح الملكية (؟) لمن أريد. (١٤) كلام «موت» سيدة السماء: لقد تسلمت التيجان من «آمون» وإنه يقول لك … (١٥) كلام الإله «خنسو مديس»: خذ الصِّلَّين من والدك «آمون».

الأسطر من ١٦ إلى ٢٤ هي كلمات الملك، ويلحظ أن السطر ١٦ قد كُشط، ويُحتمل أنه جاء فيه: كلام ابن «رع» سيد التيجان … (١٧) يقول: «آمون» صاحب «نباتا» جعلني (١٨) حاكم كل أرضي، والذي أقول له: أنت ملك، فإنه سيكون ملكًا، والذي (١٩) أقول له: أنت لست ملكًا، فإنه لن يكون ملكًا، وقد جعلني «آمون» صاحب «طيبة» حاكمًا على مصر، وأن الذي (٢٠) أقول له: أقم حفلًا «بوصفك ملكًا» فإنه سيقيم حفلًا «بوصفه ملكًا»، والذي أقول له: لا تُقم حفلًا، فإنه لن يقيم حفلًا «للتتويج»، وكل واحد

(٢١) أحبه لن تخرب مدينته إلا (٢٢) إذا كان بيدي، الآلهة تصنع ملكًا، والناس يصنعون ملكًا (٢٣) ولكن «آمون» صنعني، فمَن مِن هؤلاء الحكام لا يقدم هدايا لي وررت حكاو (٢٤).

وإذا نظرنا بعين فاحصة في هذه العبارات وجدنا أنها مطابقة للمتاعب التي صادفها «بيعنخي» في أثناء حكمه، وهي التي أدت للحملة التي سار على رأسها لفتح مصر أو تلك الصعاب والحروب التي نتجت عن غزو الآشوريين في عهد كل من «تهرقا» «وتانوت آمون» كما سنرى بعد.

(٢٥) يعيش حور الثور القوي الذي يظهر في نباتا، السيدتان، الممكن الملك مثل «رع» في السماء، حور الذهبي جميل التيجان، شديد القوة، وكل واحد يعيش برؤيته مثل أختي، ملك الوجه القبلي والوجه البحري سيد الأرضين «الطغراء مكشوط» ابن رع سيد التيجان (٢٦) … «الطغراء مكشوط».

الإله الطيب ملك الملوك وحاكم الحكام، والملك الذي يقبض على كل البلاد، عظيم القوة، وتاجه «آتف» على رأسه والذي يصد بقوته، جميل الصورة مثل رع في السماء، والظاهر (؟) مثل أختي عندما (؟) يعطي …

(٢٧) (نصف سطر غير مفهوم) وحده (؟) والذي يوسع كوش، والخوف منه قد جعله سيد الأراضي …

وما تبقى من الأسطر من ٢٨–٣٠ يظهر أنه عقود مدح للملك، ولكن المتن مهشم فلا يمكن استخلاص شيء مؤكد منه.

وعلى أية حال نجد مما كتبه الأستاذ «ريزنر» أنه استنبط بعد فحص طويل لهذه اللوحة أنها من عمل الملك «بيعنخي» في الجزء الأول من حكمه قبل سفرته إلى مصر، ويُحتمل أنه أقامها أمام البوابة الثالثة للمعبد B. 500 ويجوز أنه نصبها في القاعة B. 501 بنفسه. «أما الكشط» الذي حل بها فقد يجوز أنه من عمل «بسمتيك الثاني» وأن إصلاحها باسمه ثانية قد حدث بعد ارتداد المصريين عن تلك المنطقة.

وبعد ذلك بمضي الزمن عندما هجر هذا المعبد سقطت اللوحة على رقعة القاعة وبقيت كذلك حتى كشف عنها «ريزنر» عام (١٩٢٠) ميلادية.[٨٢]

جبانة الخيل في «الكورو»: عُثر في جبانة «الكورو» على مدافن أربعة وعشرين جوادًا Kurru 201 to 224 هذا إلى قبرين صغيرين مستديرين Kurru 225 and 226 واحد منهما وجد فيه هيكل عظمي لكلب، ومقابر الخيل تقع في أربعة صفوف من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي كما يأتي: ٢٢١–٢٢٤ «أربعة قبور» ومن ٢٠١ إلى ٢٠٨ «ثمانية قبور» ومن ٢٠٩–٢١٦ «ثمانية قبور» ومن ٢١٧–٢٢١ «أربعة قبور»، ونجد في معظم هذه الصفوف من

المقابر أن المقابر تكاد تكون كلها من طراز واحد، ولكن كل صف يظهر فيه بعض اختلاف عن الصفوف الأخرى، فالمقابر التي في الصف الجنوبي الغربي قد صُنعت بعناية ولها ثقوب عميقة لتوضع فيها الأرجل الأمامية والخلفية للخيل، وكذلك فيها أماكن عالية لتستند عليها بطون الخيل ورقابها.

ومقابر الصف التالي نجدها عُملت بعناية أقل، فهي ليست عميقة وتنقصها «إلا في حالة واحدة» السنادة التي تتكئ عليها رقبة الجواد، وهذا الصف قد أُرِّخ بنقوش على آثار من عهد الملك «شبكا».

ومقابر الصف الثالث على الرغم من أنها عميقة ومنظمة فإن كل السنادات الداخلية لأجل البطن أو الرقبة لا وجود لها، وقد أرخت بأشياء منقوشة من عهد الملك «شبتاكا».

وأما المقابر التي في الصف الشمالي الشرقي فعلى الرغم من أنها تشبه مقابر صف خيل «شبتاكا» لكنها بيضية الشكل وأقل إتقانًا في نحتها.

وعلى الرغم من أن مقابر الصفين الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي لم يوجد فيها أشياء منقوشة «وذلك لأنها قد نُهبت أكثر من الصفين المتوسطين» فإنه مما لا شك فيه «على حسب ما نجده من انحطاط متزايد في الشكل» أن ترتيب التاريخ هو من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وأنه لدينا هنا مقابر لخيل عربات «بيعنخي» «وشبكا» «وشبتاكا» «وتانوت آمون» وهم الملوك الرئيسيون الذين دفنوا في جبانة «الكورو».

ويلحظ أنه في كل حالة نجد فيها بقايا هياكل خيل وأشياء محفوظة معها بصورة مرتبة كان يتضح لنا من ذلك أن الخيل كانت مدفونة واقفة برأسها إلى الشمال الشرقي، وأن الأشياء كانت محصورة عند رأس الحصار ورقبته، ومما يدعو إلى الدهشة أنه لم يوجد في أية حالة من حالات الدفن جمجمة الحيوان، كما أنه لم توجد في أية حالة كذلك آثار للجم أو السرج أو أي عدَّة خيل من نوع عملي، فمن المؤكد إذن أن الخيل كانت تُقطع رءوسها قبل الدفن.

وقد أرسلت بعض الهياكل الأكثر حفظًا عن غيرها إلى متحف الحيوان المقارن Museum of Comparative Zoology at Harvard لفحصها، وقد دل الفحص على أن أجسام هذه الخيل تشبه الحيوانات التي تعيش الآن في أوروبا وأمريكا إلا أن هيئتها كانت أدق بقليل؛ إذ كانت أقل ببضع ملليمترات في طول عظمة الساق الطويلة، وهذا الكشف يُظهر أنها تتفق مع الرأي الذي نشره الأستاذ «ريزنر» في مجلة «السودان»[٨٣] حيث يقول في ص٢٥٣: إن الحصان كان بكل وضوح من نوع قصير بالنسبة للحصان العربي.

جواد «بيعنخي»:[٨٤] قبر هذا الجواد مستطيل الشكل، ورأسه متجه إلى الشمال الشرقي، وله حفرة عميقة لأجل الساقين الخلفيتين، أما الساقان الأماميتان فقد صُنع لكل واحدة منهما

حجر خاص، وكذلك توجد سنادة للبطن وسنادة صغيرة جدًّا للرقبة، وقد وُجد هذا القبر منهوبًا تمامًا ولم يوجد فيه أي أثر.

جواد «بيعنخي»:[٨٥] قبر هذا الجواد مستطيل الشكل، وفيه ثقوب عميقة لتوضع فيها أرجل الحصان الأمامية والخلفية، وسنادة للبطن وأخرى للرقبة، والرأس يتجه نحو الشمال الشرقي، وقد وُجد هيكل الجواد محفوظًا بعض الشيء غير أنه زُحزح من مكانه، أما الأشياء التي وُجدت معه فهي أجزاء من حبل من الليف المجدول، وأجزاء من حصير، وبعض نسيج، وآثار نسيج دقيق الصنع، وعدد كبير من الخرز المصنوع من الخزف المطلي على هيئة حلقات وخرزتان مفرغتان من الفضة المذهبة، كما وجد بقايا قطع من عين سليمة «وزات» من الفضة المذهبة.

هذا وقد جاء اسم «بيعنخي» على آثار عدة جمعها الأثري لكلان.[٨٦]

---

[١] راجع: The Temple of Mut in Asher P. 259.

[٢] راجع: L.R, IV, P. 2.

[٣] راجع: L.R, IV, P2. note 1.

[٤] راجع: Petrie, History of Egypt Vol. III, p. 267-8.

[٥] راجع: Budge, Annals of Nubian Kings, P. XII.

[٦] راجع: Lepsius, Letters from Egypt, Ethiopia and Sinai, p. 223.

[٧] راجع: lettre de M. Auguste Mariette a M. le Vicomte de Rougé Sur une Stele trouvée à Gebel Barkal in comptes Rendus, Tom. VII, P. 119ff.

[٨] راجع: Rev. Arch. (1863) Part I, p. 413.

[٩] راجع: Inscription Historique du Roi Plankhi-Meriamoun, in Revue. Arch., 1863. Part II, P. 94. With a plate.

[١٠] راجع: Revue Arch. (1865) Tom XII, P. 161ff.

[١١] راجع: Fouilles exècutèes en Egypte, en Nubia et au Sudan, fol, Paris (1867) Vol. I, Text; Vol. II, Plates.

[١٢] راجع: Sitzungsberichte der Kön. Bay. Akad, pp. 13–49 Philos-Philol Classe.

[١٣] راجع: The Inscription of Pianchi. Meriamon London 1873, 8vo; see also Records of the Past, O. S. II, p. 79.

[١٤] راجع: Geschichte Agypten P. 676ff; Die Gottingen Nachrichten, No. 19, P. 457.

[١٥] راجع: Abhandlungen of the Bavarian Akad. Bd., XII.

[١٦] راجع: Egyptian Literature in specimen Pages of the Library of the World’s Best Literature P. 5274.

[١٧] راجع: Ancient Records of Egypt Vol. IV P. 406.

[١٨] راجع: Urkunden der Ateren Athiopen Konige I, Leipzig (1905) P. 1ff.

[١٩] راجع: Ancient Egypt (1926) P. 86ff.

[٢٠] المقاطعة السادسة من مقاطعات الوجه البحري (سخا الحالية).

[٢١] المقاطعة الحادية عشرة من مقاطعات الوجه البحري الغربية، وعاصمتها السياسية الحالية القريبة من «هربيط»، (راجع «أقسام مصر الجغرافية» للمؤلف، ص٩١).

[٢٢] راجع: Ancient Egypt, 1926 Part III, P. 86ff.

[٢٣] كما يشاهد ذلك في المنظر الذي أعلى اللوحة.

[٢٤] هذا الوصف كناية عن الحرب التي قامت بين مدينته «وتفنخت» والنجدة التي أتى بها «بيعنخي» له لإنقاذه.

[٢٥] بلدة مخصصة لعبادة الإله «سكر» رب «منف»، ويُحتمل أنها موحدة ببلدة «ميدوم» وتقع في المقاطعة الواحدة والعشرين من مقاطعات الوجه القبلي، ويُحتمل كذلك أنها تمثل مديرية الفيوم وما حولها، راجع D.G.V. p. 42-43.

[٢٦] موازين الأرضين: هو اسم للمكان الذي ينفصل عنده الوجه القبلي عن الوجه البحري، وهو المكان الذي كان فيه «بيعنخي» الآن، ويسمى بالمصرية «مخاتاوي»، ويقصد «بيعنخي» من الجملة الأخيرة بما أنه قد أغلق الجنوب في وجه «تفنخت»؛ فإنه يكون من الأشياء المحطة بالكرامة بعد أن وصل إلى الشمال أن يعسكر هناك والقيام بحصار عند أبوابه «أي أبواب الشمال» راجع عن هذه التسمية Helek, Untersuchungen.

[٢٧] لباس «سدب» هو لباس يتمنطق به الملك.

[٢٨] تشبه مقدمة محراب الإله بالنافذة التي تشبه البلكون في القصر حيث يطل منها الملك على الشعب.

[٢٩] «خويت» إلهة كانت تُعبد في «بنها» قديمًا.

[٣٠] Thephachates and Bocahores.

[٣١] راجع: J.E.A. Vol. XXI. P. 219 ترجمة الأستاذ «جاردنر»، وهي تخالف كل التراجم السابقة إذ تقلب المعنى.

[٣٢] راجع: D. G, II P. 141.

[٣٣] راجع «أقسام مصر الجغرافية»، ص٩١.

[٣٤] راجع «أقسام مصر الجغرافية»، ص٦٣.

[٣٥] هذا التوبيخ يذكِّر بما جاء على لسان «رعمسيس الثاني» في موقعة «قادش» عندما أخذ يُقَرِّع جنوده الذين خذلوه وفروا منه (راجع، مصر القديمة، الجزء السادس إلخ).

[٣٦] ترجم مكأدم هذه العبارة بصورة أخرى فقال: وهن (أي نساء نمروت) سلمن على جلالته على طريقة النساء، ولم يقل جلالته لهن لا، وهذا يقلب المعنى الذي أوردناه في الترجمة الأصلية (راجع Macadam Kawa I, Text VI. P. 40).

[٣٧] وقد فات «بيعنخي» أن سبب هزال الخيل كان راجعًا لطول الحصار، وعدم إمكان تقديم العلف لهم من خارج المدينة.

[٣٨] راجع ما كُتب عن هذا الملك في الجزء التاسع من مصر القديمة.

[٣٩] و«سخر» هذه يحتمل إنها تمثل إقليم «الفيوم» وما حوله مباشرة.

[٤٠] راجع مصر القديمة، الجزء الرابع.

[٤١] بدي «إزيس» = عطية «إزيس».

[٤٢] ومعناها قصر روح الإله «بتاح»، وهو اسم معبد الإله «بتاح» في «منف» عاصمة المقاطعة الأولى من مقاطعات الوجه القبلي، ويستعمل غالبًا بوصفه اسمًا مقدسًا لمدينة «منف»، وهي التي كانت تعد مدينة الإله «بتاح» بوجه خاص، وهي بالبابلية كانت تسمى «حيكوبتاح»، ومن المحتمل جدًّا أن من هذا الاسم أُخذ الاسم الإغريقي «إجبتوس» .Dic. Geogr. T. 4 .P. 137-8

[٤٣] راجع مصر القديمة الجزء السابع.

[٤٤] راجع مصر القديمة الجزء السادس.

[٤٥] راجع مصر القديمة الجزء السابع.

[٤٦] راجع مصر القديمة الجزء التاسع.

[٤٧] راجع مصر القديمة الجزء التاسع.

[٤٨] وهو الاسم المقدس لعاصمة المقاطعة السادسة عشرة من الوجه البحري، وقد وجد هذا المكان «بشونة يوسف» الواقعة على مسافة عشرة كيلو مترات من «تل تمي» على وجه التقريب، ولكن على أغلب الظن أنه يقابل «تل الربع» الحالية.

[٤٩] راجع «أقسام مصر الجغرافية»، ص١٠٠.

[٥٠] راجع «أقسام مصر الجغرافية»، ص٨٧، .D. G. tom. II. P. 69-70

[٥١] راجع «أقسام مصر الجغرافية»، ص٩١.

[٥٢] راجع: .D. G. II P. 138-9

[٥٣] راجع: .Br., A. R., IV § 878 note II

[٥٤] راجع: .D. G. II, P. 130

[٥٥] راجع: .D. G. II, P. 130

[٥٦] راجع مصر القديمة الجزء السادس.

[٥٧] راجع: .Brugsch, D. G., p. 660

[٥٨] راجع: .Diodorus, I, 45

[٥٩] راجع مصر القديمة الجزء السابع.

[٦٠] راجع مصر القديمة الجزء التاسع.

[٦١] راجع: J.N.E.S., XII, No. 1, P. 63.

[٦٢] راجع: El Kurru, 17 (2) Fig. 22 A, Pl. XXI, XXII a.

[٦٣] راجع: Ibid, Pl. LXXII a.

[٦٤] راجع: Ibid, Pl. XLIV.

[٦٥] راجع: Ibid Pl. XL.

[٦٦] راجع: Ibid, P. 65-6.

[٦٧] راجع: British Museum No. 6640.

[٦٨] راجع: Wilkinson, M. Ms. IX, 137.

[٦٩] راجع: J. B. Green, Fouilles Executés à Thebes en 1885, Pl. VIII, 388 a; British Museum Guide to the Fourth, Fifth & Sixth Egyptian Rooms, P. 224 (13).

[٧٠] راجع: El Kurru, P. 66.

[٧١] راجع: Porter & Moss, VII, 192.

[٧٢] راجع: Ibid, P. 202.

[٧٣] راجع: Ibid, 213.

[٧٤] راجع: Ibid, 212.

[٧٥] راجع: Porter and Moss, Ibid, p. 201.

[٧٦] راجع: Porter and Moss, Ibid, p. 211.

[٧٧] راجع: A. Z. XVI Pl. V, VI, pp. 89–100; and Sudan Notes IV, pp. 72-3.

[٧٨] راجع: Porter and Moss, VII P. 215; and Budge, Egyptian Sudan, I, P. 144ff.

[٧٩] راجع: L.D.V, 14 h–k; of Texte V pp. 269; A. Z. LXVI, P. 81 “23”.

[٨٠] راجع: Schafer, A. Z. pp. 65-6.

[٨١] راجع: Benson Gourlay, The Temple of Mut in Asher, P. 257–259.

[٨٢] راجع: A. Z. 66, p. 90–100.

[٨٣] راجع: Sudan Notes and Records II, p. 104.

[٨٤] راجع: Ku, 221 (2) Fig. 43, Horse of Piankhy.

[٨٥] راجع: Ku, 222 (2) Fig. 44 a, Horse of Piankhy.

[٨٦] راجع: Leclant, Revue D’Egyptologie Tom. 8, p. 215ff.

الملك «شبكا» (سبكون)

٧١٦–٧٠١ق.م

(cartouche)	(cartouche)
نفر كارع	شبكا

تولى الحكم بعد الملك «بيعنخي» أخوه الأصغر «شبكا» بن «كشتا»، وذكر «مانيتون» أنه حكم اثنتي عشرة سنة.[١]

ويعده «مانيتون» أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين، ولعل ذلك لأن الملكين السابقين لم يتخذا مقر حكمهما في مصر، بل كانا يحكمان من بلدة «نباتا»، وقد يعضد هذا الزعم أنهما لم يدونا مقاييس للنيل في عهديهما، وكان أول من دون هذه المقاييس هو «شبكا» كما سنرى بعد.

وتدل الآثار الباقية على أن «شبكا» حكم على أقل تقدير حوالي خمس عشرة سنة، وذلك على حسب ما ذُكر على تمثال محفوظ بالمتحف البريطاني.[٢]

وقد نقل نقوشه الأثري «بدج» وجاء فيها: السنة الخامسة عشرة، اليوم الحادي عشر «يجيء بعد ذلك اسم الملك شبكا» وعلى ذلك يكون الرقم الذي أعطاه مانيتون لحكم شبكا خاطئًا، هذا إذا اعتمدنا على النسخة التي نقلها «بدج» عن الأصل.

وقد ترك لنا ملوك الأسرة الخامسة والعشرين سجلات لمقاييس النيل منقوشة على جدران مرسى الكرنك، على غرار ما تركته الأسرة السالفة.[٣]

> (١) السنة الثانية من عهد جلالة «حور سبكتو» (= سبكتاوي) محبوب الإلهتين المسمى «سبكتو» حور الذهبي المسمى «سبكتو»، ملك الوجه القبلي والوجه البحري المسمى «نفر-كا-رع» ابن رع، «شبكا» العائش أبديًّا محبوب «آمون رع» رب طيبة ومحبوب «منتو رع» رب طيبة.
>
> إن النيل والد الآلهة كان ارتفاعه عشرين ذراعًا وشبرًا وأصبعًا واحدة.

- (٢) النيل السنة … «في عهد» جلالة الملك «شبكا».
- (٣) السنة … «في عهد» جلالة الملك «شبكا».

ويلحظ هنا أن الملك «شبكا» هو أول ملك بعد «باديباست» الأول من الأسرة الثالثة والعشرين دوَّن مقاييس للنيل في مرسى الكرنك، وكما نرى لم يبقَ من المقاييس التي تركها لنا إلا تاريخ واحد، أما التاريخان الآخران فقد محيا تقريبًا.

هذا؛ ويوجد لهذا الملك عدة آثار أخرى في مصر وبلاد «كوش» نذكر ما كُشف عنها حتى الآن، ففي طيبة عُملت بعض إصلاحات في البوابة الرابعة بالكرنك التي وجدها تحتاج إلى ترميم، وهذا الإصلاح عُمل على الجانب الشمالي للبوابة الرابعة لمعبد الكرنك العظيم.[٤]

وهاك النص:

> الملك «شبكا» لقد عمله بمثابة أثره لوالده «آمون رع» رب طيبة المشرف على الكرنك، فأصلح الباب العظيم الفاخر (يقصد هنا الباب الرئيسي للبوابة الكبرى الرابعة التي عليها هذا النقش) المسمى «آمون رع عظيم في القوة»، فعمل لها طبقة عظيمة من الذهب اللطيف الذي أحضره جلالة الملك «شبكا» العائش أبديًّا من الانتصارات التي كتبها له والده «آمون».

وقد غطيت القاعة العظمى بالذهب اللطيف، والعمود الجنوبي والعمود الشمالي غشيا بالذهب، والشفتان السفلَيان عُملتا من الفضة الخالصة «لا بد أن المقصود هنا بالعمودين الجنوبي والشمالي هما العمودان الجميلان اللذان أقامهما «تحتمس الثالث»، وهما إلى الخلف بقليل أمام المحراب بالضبط، أما المقصود بالشفتين السفليين فيُحتمل أنه القاعدتان.»

وفي بلدة «الكوة» يوجد في المعبد B المهدى «لآمون» عمود عليه إهداء للملك «شبكا»،[٥] وفي متحف الخرطوم يوجد خاتم آخر من البرنز «لكيٍّ البهائم» نُقش عليه طغراء الملك «شبكا»،[٦] وفي متحف برلين خاتم آخر باسم «شبكا»، والمحتمل أنه عُثر عليه في بيت مال معبد «صنم» الذي يقع على مسافة خمس مائة متر شرقي المعبد،[٧] وعثر له على جعران من حجر استايتيت «حجر الطلق» في مكان مأهول عند حافة الماء على الشاطئ الغربي للنيل الأزرق أسفل الخزان، وهو الآن بمتحف الخرطوم،[٨] وفي الواحة البحرية عُثر على أحجار عليها اسم هذا الفرعون،[٩] وقد وُجد لهذا الفرعون في خارج مصر والسودان آثار نذكر منها:

(١) لوحة من الطين عليها طغراؤه وُجدت في قبر قرطاجني من القرن الرابع الميلادي، وهي الآن في «تونس»، وقد وجدت في أرض الخرايب على مقربة من قرطاجنة.[١٠]

وفي فلسطين وجد خاتم جرة في تل المتسلم نُقش عليه اسمه،[١١] هذا وقد عثر على جعران لأحد أتباع «شبكا» يدعى «منكرع» في تل الفرعة،[١٢] وآخر له كذلك باسم هذا التابع في تل الحصن «بيسان» عليه اسم هذا الفرعون،[١٣] وأخيرًا وُجد له خاتم من طين مُثل عليه وهو يضرب العدو في كوتييك وهي نينوة عاصمة المملكة الآشورية القديمة الواقعة قبالة الموصل.[١٤]

(١) مقبرة الملك «شبكا»[١٥]

يدل ما بقي من مقبرة الملك «شبكا» على أن الجزء العلوي منها كان هرمي الشكل، وكان يحيطها سور مقام من الحجر الرملي، وقد حُفظت لنا بعض أجزائه، أما معبدها الجنازي أو المزار فقد وُجد مهدمًا وقد بقي الخندق الذي أقيم فيه الأساس، هذا ولم تكشف أعمال الحفر عن ودائع أساس لهذا الهرم، أما جزء القبر الذي تحت الهرم فلم يبقَ منه إلا السلم الذي أمام المزار وباب بسيط مستدير، ويحتوي القبر على حجرتين الأولى دهليز له سقف مقبب وسبع درجات مائلة إلى جهة الغرب وطوله ٤٫٣٠ من الأمتار، ومدخله يؤدي إلى حجرة بوساطة باب مستدير أعلاه، وهذه الحجرة مساحتها ٦٫٣٥ × ٤٫٦٠ مترًا، ولها سقف مقبب عالٍ، وفي وسطها تابوت على شكل طوار له كَوَّاتٍ لأجل أرجل السرير، وقد وُجدت حجرة الدفن منهوبة تمامًا.

والأشياء التي عثر عليها في هذا القبر وُجد على بعضها طغراء هذا الفرعون، كما وُجد كذلك بينها طغراء «بيعنخي»، وأهم ما وجد باسم «شبكا» ما يأتي:

(١) مائدة قربان من الجرانيت الرمادي حُفرت لترصع بالخزف المطلي، وقد نُقش عليها متن هيروغليفي على الجزء الأعلى والجزء الأسفل، ويتضمن المتن طغراء «شبكا»[١٦] ووُجدت قطع كثيرة من العاج المحفور بالحفر الغائر والبارز تحتوي على مناظر وكتابات هيروغليفية، منها صورة إله النيل الراكع، وطغراء «شبكا» معه صورة تقدم قربانًا، وقطعة من منظر العيد الثلاثيني ومعها طغراء «شبكا»، وقطع نقوش من التي تزين بها المناظر، وأخيرًا قطع من منظري موكب يُحتمل أنها من جانبين طوليين لصندوق، فنشاهد متجها نحو اليمين شجر نخيل ورجلًا معه نعامة، ونشاهد متجهًا نحو اليسار برديًا، ورجلًا معه حزمة بردي على ظهره وحيوانات وطيور.[١٧]

هذا؛ وقد وُجدت تعاويذ عدة وتماثيل مجيبة وقطع من أوانٍ مختلفة من أحجار متنوعة، مما يدل على أن المقبرة كانت غنية وبخاصة ما وجد فيها مبعثرًا من حبات الذهب وقطع اللازورد والتعاويذ المصنوعة من الأحجار النادرة، هذا إلى مرآة من البرنز عثر عليها في حجرة الدفن، ولهذا المرآة مقبض مذهب على هيئة عمود في صورة شجرة النخيل رُسم عليه أربعة آلهة بالحفر البارز.[١٨]

وكل هذه الأشياء التي بقيت في هذا القبر الملكي تدل من حيث الصناعة والفن على الاتصال الوثيق بمصر، هذا فضلًا عن أن الحياة الدينية كانت واحدة من كل الوجوه في كلا البلدين، ولذلك لم يكن هناك من الأسباب ما يدعو لفصل هاتين المدنيتين إحداهما عن الأخرى في أية ناحية من نواحي الحياة في هذا العصر بوجه خاص إلا في الشكل الهرمي الذي كان يميل إليه ملوك «كوش» في هذا العهد وتنسيق مقابرهم على صورة خاصة بهم.

(٢) النهضة في العهد الكوشي «الدراما المنفية أو تمثيلية بدء الخليقة»[١٩]

تدل الأحوال على أن عصر النهضة الذي ينتسب عادة للأسرة السادسة والعشرين كما سنرى بعد كان قد بدأ فعلًا في عهد الأسرة الخامسة والعشرين، وأن المبتدعين لهذه النهضة هم ملوك «كوش» الذين أدخلوا على البلاد قوة جديدة من حيث الفنون الحربية والفنية والأدبية والدينية، بل والفلسفة الحقيقية التي لم نرها ممثلة في مصر القديمة حتى هذا العهد، وقد رأينا فيما سبق كيف أن «بيعنخي» قد وضع خططًا جديدة في فنون القيادة الحربية لم نسمع بمثلها من قبل، وكيف أنه دون لنا لوحة عن حروبه في لغة سهلة بسيطة تذكرنا بلغة الدولة الوسطى التي يعد عصرها أعظم عصر ازدهرت فيه اللغة، وكيف أنه قد أظهر في نقوشه من التقى والصلاح والإيمان ما جعله يتكل في كل أعماله وأفعاله على خالقه، وأنه زار كل المعابد المصرية التي صادفها في رحلته من أول «نباتا» حتى أطراف الدلتا، وقد أعطى لكل إله عناية خاصة وقدم له القربان، ثم يلفت النظر أنه حط رحاله في منف وزار معبد الإله بتاح، وقام بشعائر تتويج نفسه هناك بوصفه الإله الأعظم، على الرغم من أن ميول هذا الملك كانت موجهة لإلهه الأعظم «آمون رع»، وعلى أي حال نلحظ في كل أعمال هذا الملك الميل إلى القيام بنهضة جديدة في كل مرافق الحياة المصرية، على أن ما جعل لهذه النهضة قيمتها العظيمة هو أن الملوك الذين خلفوه قد ساروا بها سيرًا حثيثًا بقدر ما سمحت لهم به الأحوال العالمية التي كانت تحيط بهم، ولا نزاع في أن أخاه الأصغر «شبكا» قد شجع هذه النهضة تشجيعًا مُحَسًّا، ولا أدل على ذلك مما تركه لنا من آثار عظيمة تدل على ميله لإحياء ما كان لمصر من مجد عريق في الدين والفلسفة.

والواقع أنه قد وصل إلينا من عهده المتن الحقيقي لوثيقة يقال إنها دونت في عهد بداية الاتحاد الثاني لمصر؛ أي من عهد مينا، ولدينا منها نسخة منقوشة على حجر أسود محفوظ الآن بالمتحف البريطاني، وكان من أمر هذا الحجر أنه استعمله أخيرًا القرويون المصريون قاعدة لطاحون تطحن عليه غلالهم، وقد وصل إلينا بصورة ناقصة لتآكل ما عليه من كتابة،[٢٠] ومن يقرأ السطر المنقوش على قمته يعرف شيئًا عن أصله؛ إذ يوجد فيه اسم الملك «شبكا» الكوشي الذي حكم مصر في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، ويلي اسم هذا الفرعون نقوش تقول: إن جلالته (يعني «شبكا») نقل تلك الكتابات من جديد في بيت والده بتاح القاطن

جنوبي جداره (أي «منف»)، وقد وجدها جلالته بمثابة تأليف للأجداد قد أكلها الدود حتى أصبح لا يمكن قراءتها من البداية حتى النهاية، وإذ ذاك قام جلالته بكتابتها من جديد حتى أصبحت أكثر جمالًا مما كانت عليه من قبل، ومن ثم نفهم أن ملك مصر الكوشي كان مهتمًا بالمحافظة على الكتابات القديمة التي كتبها الأجداد وإحيائها من جديد، وهذا ما يوسم به عصر النهضة الذي يقال إنه بدأ في عهد الأسرة السادسة والعشرين، ولا نزاع في أن هذا المتن كان مدونًا على بردية وإلا لما استطاع الدود أن يأكله، ويلحظ أن هذا المتن قد سماه شبكا الكوشي «تأليف الأجداد»، وهذا التعبير منهم يوحي إلينا بأن كُتَّاب هذا الملك فاتهم أن الكتابة التي ينسخونها كان عمرها؛ إذ ذاك يزيد على ٢٥٠٠ سنة؛ لأن لغة الوثيقة تحتوي على اصطلاحات تدل على أنها قديمة جدًّا، كما أن المتن يكشف لنا عن موقف تاريخي يدل بداهة على أن وقوعه لا يمكن أن يكون إلا في بداية الاتحاد الثاني؛ أي في العهد الذي أسس فيه مينا الأسرة الأولى حوالي ٣٤٠٠ق.م، ومعنى ذلك أنه قد أظهر لنا أقدم أفكار وصلت إلينا مدونة في تاريخ العالم لأقدم أقوام، ولكن من جهة أخرى لا نجد في ذلك إبهامًا ولا غموضًا؛ لأنه على ما يظهر كان غرض النهضة الجديدة التي قام بها ملوك «كوش» هو إحياء مجد مصر القديم والعودة إلى تقليد كل ما هو مصري يدل على مجد البلاد وعظمتها، فلا غرابة إذن أن نجد أن ملوك «كوش» هم أول من قاموا بهذه النهضة؛ لأنهم ينتسبون إلى السلالة الحامية التي نشأ منها المصريون، وعلى ذلك لن ندهش من قول «شبكا» عن هذا المتن إنه من «تأليف الأجداد»؛ «أي إنه ينسب إلى قوم مصر، وأنه هو من نسلهم، فحقه في ملك مصر طبعي»، والوثيقة تشبه كل الشبه «بحالة تجذب النظر» القصص المقدسة التي مثلت في المسرحيات الرمزية في القرون الوسطى، والمسرحية المنفية التي نحن بصددها تعد أقدم سلف لها، وقد وجدنا أن بتاح إله منف يقوم في كل من الجزء المسرحي والجزء الفلسفي بدور إله الشمس الذي يعد إله مصر الأعلى، وذلك يفسر لنا العادة التي كان يسعى بها هذا الإله المحلي للحصول على عظمة إله الشمس وبهائه، وذلك بأن يتقلد سلطته ويستولي على الدور الذي لعبه في تاريخ مصر الخرافي.

وتدل بوضوح سيادة «بتاح» في تلك المسرحية على تزعمه «منف» مدينته الأصلية تزعمًا سياسيًّا، وتلك الزعامة ترجع في هذه الحالة إلى انتصار «مينا» مؤسس الأسرة الأولى، وذلك الملك هو الذي أسس «منف» لتكون عاصمته ومقر ملكه، وهذا هو ما حدا بالملك «بيعنخي» لزيارة «منف» وإقامة الشعائر بتولي الملك فيها، وعلى الرغم من وجود أصل تلك المسرحية المنفية فإن المنبع الأصلي لمحتوياتها العجيبة كان بلا شك بلدة «هليوبوليس» «مما دعا «بيعنخي» لزيارتها وتقديم القربان للإله رع فيها» وبذلك نجد فيها أصل لاهوت كهنة «عين شمس» الفلسفي كما تطور في عهد الاتحاد الأول[٢١] أي عندما وصل إلى المرحلة التي نجد فيها كهنة «منف» يخصون به إلههم «بتاح»، فهذه المسرحية تُبرز لنا إذن إله الطبيعة القديم وهو إله الشمس رع متحولًا تمامًا إلى قاضٍ يحكم في شئون البشر «بمقتضى قانون أطلق عليه اسم «ماعت»، وهو يعني: الحق والصدق والعدالة والحكم الصالح».

ويمكن تلخيص محتويات هذه المسرحية بأنها محاولة لتفسير الأشياء على حسب نظرية كهنة «منف»، ويدخل في ذلك نظام العالم الخلقي، وكذلك تدل على أن أصلها يرجع إلى «بتاح» إله «منف»، أما كل العوامل التي ساعدت على خلق العالم أو المخلوقات التي كان لها نصيب في ذلك فلم تكن إلا مجرد صور أو مظاهر لبتاح إله «منف» المحلي المسيطر على أصحاب الحرف والصناعات والذي يعد إله كل حرفة «يقصد أنه كان الإله الأحد الفرد الصمد».

ولم يكن فتح «مينا» لمصر واتخاذ «منف» الواقعة بين الوجه القبلي والوجه البحري عاصمة ومقرًّا لملكه إلا خطوة نحو الاعتقاد بأن «بتاح» هو الصانع الأعظم الذي خلق العالم. على أن المجهود الذي بُذل لينال الإله «بتاح» هذه المكانة قد ساعده مساعدة جدية في الاستيلاء على السلطة والسيادة الفريدة التي كان يتمتع بها الإله «رع» الذي كان يتزعم في «منف» آمادًا طويلة آلهة مصر بما كان له من المكانة الممتازة في «هليوبوليس».

وعلى أية حال فإن اللاهوت المنفي الذي نقرؤه في هذه الوثيقة يقدم لنا التعاليم الدينية الخاصة بعاصمة «مينا» الجديدة، وهذا اللاهوت يجمع بين آراء نفهم منها أنها جديدة؛ وذلك لأنها خاصة بالتأسيس الجديد للدولة المصرية وبين آراء أخرى نشك في أنها جديدة؛ لأنها لا تتفق مع المعتقدات المصرية السائدة، ولم يكن في الاستطاعة الاعتراف بها؛ إذ لم تكن جزءًا من الحركة العظيمة التي قامت في فجر التاريخ.

هذا؛ وتوجد بعض عقائد أخرى يظهر أنها متأصلة في التقاليد المصرية، بل توجد في التقاليد الأفريقية وترجع إلى آماد بعيدة جدًّا في القدم، والواقع أن هذا المتن كما أشرنا خاص بنظام الكون، فهو يصف نظام الخليقة، ويجعل من مصر كما نظمها «مينا» جزءًا لا تنفصم عراه عن هذا النظام، ولكن «بتاح» الإله المحلي الذي أقيم له معبد جنوبي جدار منف قد أعلن بأنه خالق الكل، كما جمع بحجة غاية في الجسارة والعمق الفوائد العقلية للتوحيد، هذا مع تنوع الآلهة المصريين المعترف بهم وقتئذٍ، غير أن هذه التأملات الهامة التي يحتويها هذا المتن لا تؤلف إلا الجزء الخامس الذي اشتهر من أجله هذا المتن، وهو عبارة عن مقال يبحث في موضوع المجتمع الطبعي، وإنه لمن الغريب أن نرى رأي المصري عن الملكية قد وضح في مثل هذا السياق من الكلام.

ويمكن تقسيم المتن بحالته الراهنة ستة أقسام، وهذا التقسيم لا يعتمد على أصل، بل وُضع لسهولة الفهم، والقسم الأول قد هشم تهشيمًا مريعًا غير أن موضوعاته الرئيسية يمكن التعرف عليها، فمن جهة نجد أن أرض مصر قد أعلن أن وجودها في الإله الخالق «بتاح» «تاتنن»؛ أي بتاح هو الأرض التي رفعت، ومن جهة أخرى قد أشير إلى ظهور مملكة موحدة تحت حكم ملك واحد، وما بقي من الجزء الأول هذا هو:

> … «بتاح» أي هذه الأرض المسماة بالاسم العظيم للإله تاتنن …

وإن الذي وحد هذه «الأرض» قد «ظهر ملكًا للوجه القبلي وملكًا للوجه البحري»، والجمل التي تتلو ذلك تذكر أن «آتوم» وهو إله الشمس الخالق للمعتقدات المصرية العامة، قد اعترف بأن «بتاح» قد برأه وكذلك خلق كل الآلهة الآخرين وسنفهم معنى ذلك فيما بعد.

والإشارات المختلفة التي تشير في المتن إلى كلمة أرض «تا» يجب أن تفهم بشيء من التقدير للمعاني الصوتية المختلفة «أي التورية» التي يحبها المصريون ويميلون إليها، فالكلمة تعني المملكة أي مصر بكل معانيها، وكذلك تعني التربة الخصبة، وبهذا المعنى الأخير تصبح موحدة باسم الخالق بتاح «تاتنن» «أي الأرض المرتفعة»، والأرض المرتفعة من جهة أخرى لها معانٍ شتى منها أنها ترمز إلى الاعتقاد المصري في العالم القائل بأن الخليقة ابتدأت بظهر تل، وهو التل الأزلي الذي ظهر فوق ماء العدم أو المحيط الأزلي، ومعلوم أن بتاح «أي الأرض المثمرة» موحد بهذا التل، وهو نقطة البداية لكل موجود وحتى للحياة نفسها، ولكن «التل الأزلي» يرمز كذلك في الوقت نفسه إلى الأرض التي قد جففها الملك مينا من مياه المستنقعات لأجل أن يقيم عليها مدينة «منف» ومعبد الإله بتاح، وفضلًا عن ذلك يرمز هذا التل إلى «الأرض العظيمة» وأعني بذلك إقليم ثس «طينة القريبة من العرابة» وسنرى بعدُ أن هذا التل له أهمية في اللاهوت الجديد.

والقسم الثاني من المتن يعالج موضوعًا حدث قبل تمكين النظام في كل من الكون والدولة المصرية. وتفسير ذلك أن كلًّا من الإلهين «حور» «وست» كان يتشاجر مع صاحبه على حكم مصر، وقد فصل بينهما في هذا الأمر الإله «جب» «إله الأرض» فقسم البلاد بينهما، غير أنه ندم على القرار الذي اتخذه في هذا الشان ورجع فيه وأعطى كل البلاد حور. ومن ثم قيل ان تاجي الوجه القبلي والوجه البحري ينموان من رأس حور. ثم يظهر «حور» يلعب دور الملك «مينا». «وهذا الدور يقوم به كل ملك لمصر عند تتويجه» موحدًا الأرضين في حكمه المنفرد، يضاف إلى ذلك أن التاسوع أو تسعة الآلهة الذين كانوا يساعدونه يفسرون العلاقة التي بين الملك والآلهة.

ومما يؤسف له أن المتن وجد مهشمًا في بداية هذا القسم من المتن، وهاك ما تبقى منه:

> … واجتمع إليه التاسوع «أي إلى جب» وفصل بين حور وست … ومنعهما عن الشجار، ونصب «ست» ملكًا على الوجه القبلي في الجنوب في المكان الذي ولد فيه؛ أي في بلدة «سو» «وتقع بالقرب من مدينة هيراكليوبوليس، وهي الكاب الحالية» ثم نصب «جب» حور ملكًا مصريًّا للدلتا في الوجه البحري في المكان الذي غرق فيه والده «أوزير» عند «منتصف الأرضين»، «يحتمل أن ذلك المكان كان بالقرب من منف»، وعلى أثر ذلك وجد «حور» في مكانه «وست» في مكانه، واتفقا معًا فيما يخص الأرضين في عيان «مكان قبالة القاهرة» وهو الحد أو الفاصل للأرضين … غير

أنه كان كريهًا لقلب «جب» أن يكون نصيب «حور» مثل نصيب «ست» وعلى ذلك منح «جب» كل إرثه إلى «حور».

أي إلى ابن ابنه البكر «والمعنى الحرفي في المتن المصري إلى أول من فتح جسمه»، وقد سمى «جب» «حور» فاتح الجسم، إشارة إلى أنه أول مولود لابنه «أوزير»، ومن ثم نجد أن «حور» أصبح يوحد بالإله الذي كان يصور في صورة ذئب وهو «وبوات»، ومعنى اسمه فاتح الطرق، ويرتبط كل من صورته ورمزه بالفرعون ارتباطًا تامًّا في كل الأحفال العظيمة كما سنراه بعد. ويلفت النظر في هذا المتن معالجة موضوع «حور»، فنجد عند التقسيم الأول للبلاد أن «ست» كان قد ذهب إلى المكان الذي ولد فيه، ولكن «حور» ذهب إلى المكان الذي غرق فيه والده، ومن ثم نفهم أن «حور» على عكس «ست» لم يعين ملكًا بحق مباشر على ما يظهر؛ بل كان يعتبر الخلف الشرعي لوالده «أوزير».

وثانيًا نجد أن «جب» عندما غير فكره وأعطى كل البلاد «حور» قد برر عمله بإعلان «حور» في ابتهاج وسرور أنه هو بكر والده «أوزير» وقد تولى «حور» الملك على الأرضين لا بوصفه فاتحًا مظفرًا؛ بل بوصفه الوارث الشرعي لأبيه «أوزير» الذي كان حاكمًا على الأرضين قبل مماته.

وإذا تذكرنا أن هذا المتن كان قد ألف في عهد الملك «مينا» وهو يعد ملكًا في صورة «حور»، وأنه كان قد انتهى من فتح مصر كلها وتوحيدها تحت سلطانه فإنه يمكننا أن نقدر الأهمية النسبية في العقل المصري لهذا الحادث من حيث الحقائق التاريخية واللاهوتية.

وإنه لمن المهم أن نرى الإله «جب» يقوم في هذا الموضوع بدور الحكم، ولا نزاع في أنه كان له الحق في أن يقوم بهذا الدور بوصفه والد «أوزير» وبكونه إله الأرض، ففي الحالة الأولى كان يعمل بوصفه رأس الأسرة بما له من سلطان بدائي، معترف به في كل العالم، أما في الحالة الثانية فكان بطبيعة الحال يقوم بقسمة أرض مصر؛ لأنه إله الأرض.

ويلحظ أن قراريه المتتاليين يمثلان بوضوح الأسطورة التي يمكن أن يوضح بها كل الآراء المركبة الخاصة بملكية «مينا» الثنائية، وأعني بذلك الرأي الأساسي الذي يعبر عن عالم ممثل في توازن ثابت لا يتحرك بين قوتين متضادتين وهما «حور» «وست»، وبعبارة أخرى ملك الوجه القبلي والوجه البحري، بوصفه صورة سياسية لما نشب بينهما من شجار، يضاف إلى ذلك قيام حكومة ممثلة في شخص واحد في نهاية الأمر.

ثم يستمر المتن بعد ذلك مؤكدًا من جديد صلة الأرض بالإله «بتاح»، وهي الصلة التي كانت موضوع القسم الأول من هذا المتن فيقول:

> وقف حور بوصفه ملكًا على الأرض، وبذلك أصبحت هذه البلاد موحدة وسميت باسمها العظيم تاتنن الذي في جنوب جداره «كلمة الجدار هنا تعني بلدة «منف»» رب الأبدية …

وقد نما من رأسه العظيمان في السحر «أي التاجان» وعلى ذلك حدث أن «حور» ظهر ملكًا على الوجه القبلي وملكًا على الوجه البحري ضامًا الأرضين في أقليم الجدار الأبيض عند المكان الذي ضمت فيه الأرضان. ويتلو ذلك شعيرة دينية كان المقصود منها ظهور رضاء قسمي مصر بالاتحاد، فقد وضع كل من البنائين الذين يمثلان الوجه القبلي والوجه البحري عند مدخل معبد الإله «بتاح» وهاك النص:

> وحدث أن البشنين والبردي قد وضعا على البوابتين الخارجيتين لمعبد «بتاح» ويعني ذلك: أن «حور» «وست» حملا سويًا وضما للتآخي معًا، وبذلك انتهى شجارهما في أي مكان يكونان فيه، وقد ضما في معبد «بتاح» وهو ميزان الأرضين الذي وزن فيه الوجه القبلي والوجه البحري.

القسم الثالث «وجد مهشمًا جدًّا» والظاهر مما بقي من هذا المتن أنه بعد أن قررت وراثة «حور» للملك بوصفه الوارث الشرعي يعود الآن إلى سلفه «أوزير» ويفسر علاقة هذا الإله بالإله «بتاح» وبالعاصمة الجديدة، غير أن الجزء المفقود من المتن كبير جدًّا، مما يجعل من الصعب الحكم على هذه العلاقة بصفة قاطعة، ويقال إن بلدة «منف» قد استقت أهميتها من كونها مخزن غلال مصر، وذلك يرجع إلى أن الإله «أوزير» قد دفن هناك، وهذه الحقيقة ذكرت ثانية في القسم الخامس من هذا المتن حيث وجدنا المتن أكثر حفظًا هناك كما سنرى بعد.

والقسم الرابع من هذا المتن يعالج موضوع إقامة القلعة الملكية في «منف» وهي التي ذكرت من قبل بأنها المكان الذي دفن فيه «أوزير»، وهي هامة كذلك بوصفها مقر الحكومة لكل مصر التي أسسها ووحدها «مينا». والمتن في حالته التي وجد عليها لا يحتمل تعليقًا أكثر من ذلك لتهشمه.

والقسم الخامس وهو البيان المشهورالذي فاه به «بتاح» بوصفه الخالق الأحد، وهو برهان لاهوتي معقول نفهم منه أن آلهة مصر ليست إلا مظاهر من صور الإله «بتاح»، ويمكن تلخيصه فيما يأتي:

دل البحث على أن كل شيء موجود يرجع أصله إلى أفكار عقل «بتاح» «وكلمة عقل هنا عبر عنها بالمصرية القلب»، وهي التي قد جسمت فنطقها بلسانه، وبوساطتها أوجد «بتاح»

العالم المرئي وغير المرئي وكل المخلوقات الحية وكذلك العدالة والفنون … إلخ.

وهذا البيان يقدم لنا في الوقت نفسه صورة نظام مقرر صالح لكل زمان في عالمنا الواقعي، فالمدن والمعابد المصرية ليست في الواقع إلا جزءًا من هذا النظام، والجملة الأخيرة من هذا القسم تختم بالدائرة التي يتألف منها هذا الجزء من المتن، ففي حين نجدها قد ابتدأت بالقول إن الآلهة قد خرجوا من الإله «بتاح» بوصفهم أفكارًا واقعية لعقله؛ فإنها تحتم بجعل هؤلاء الآلهة يدخلون في أجسامهم «أي تماثيلهم» من كل نوع من المواد كالحجر والمعدن والخشب الذي قد نما من «الأرض»؛ أي من الإله «بتاح».

ويلاحظ أن المتن يبتدئ بسلسلة معادلات إلهية عددها ثمانٍ، نرى فيها تعدد الآلهة في مصر «وبهذه الطريقة للخلق برأ «بتاح» الآلهة الواحد تلو الآخر»، غير أنه قد أضيف إليها الفكرة الجديدة القائلة في النهاية بوحدانية الله، فقد أعلن أن الآلهة ليسوا إلا مظاهر للإله «بتاح»، وقد اختير ثمانية الآلهة دفاعًا عن رأي شائع الانتشار خاص بالخلق يعترف فيه بأن إله الشمس هو الخالق، ولكن في الوقت نفسه يدل هذا الرأي على أن الشمس قد انبثقت أو خلقت من مياه العدم بوساطة ثمانية آلهة غريبين لم يكونوا بدورهم إلا ممثلين لمياه العدم، كما يدل على ذلك أسماؤهم وهم:

- **«نون»:** هو ماء العدم أو المحيط الأزلي.
- **«نونت»:** هي زوجة وكانت تمثل السماء التي فوقه، وبعضهم يفضل القول إن نون هو المادة غير المنتظمة الأولية، ونونت هي الفضاء الأولي، وقد صارت «نونت» في العالم المخلوق؛ أي المقابل للسماء وهي تمثل محنية على العالم السفلي وتقابل «نون» وتشبهها كما أن «نون» قد أصبح الأقيانوس الذي يحيط بالأرض ويسندها.
- **«كوك» «وكوكت»:** ويمثلان غير المحدود أو اللانهاية.
- **«هوه» «وهوهت»:** ويمثلان الظلام والعتمة.
- **«آمون» «وأمونت»:** ويمثلان الخفي والمستتر.[٢٢]

ومن ثم توجد نقطة هنا يمكن للاهوتي المنفي أن يتخذها أساسًا يدعي بها أن «بتاح» هو الخالق؛ إذ نجد في المتن آلهة أقدم من إله الشمس هذا، ويؤكد المتن الذي في أيدينا أنه حتى هؤلاء الآلهة — أو بعبارة أخرى العدم — كانوا هم مادة «بتاح»؛ أي مظهرًا من كينونته لم يكونوا قد وجدوا بعد، ومن ثم نجد أن المعادلة الثانية من المعادلات الثمانية السالفة الذكر تُقرأ هكذا: ««بتاح-نون» الوالد الذي أنجب «آتوم» ونعرف أن «نون» هو المحيط

الأزلي الذي خرج منه «آتوم»؛ أي الشمس الخالقة، ولكن نعرف أن «بتاح» يظهر في كل إله، وعلى ذلك يظهر في الإله «آتوم» «وبتاح» الواحد العظيم هو قلب التاسوع ولسانه.»

ومن ثم نفهم أن الواحد العظيم يعادل «آتوم» الذي خلق تاسوع «عين شمس»، وهو الذي يسمى قلبه ولسانه؛ وذلك لأن هذين العضوين هما عضوا التكوين على حسب اللاهوت المنفي، ونعت «الواحد العظيم» قد ذكر هنا؛ لأنه يبرز أمامنا بصورة واضحة القوة الفريدة للإله «بتاح»؛ «أي إن «آتوم» الذي كان يعبد بوجه عام بوصفه الخالق للآلهة والعالم ليس إلا منبثقًا من «بتاح» أو بعبارة أخرى خرج منه».

والمعادلات الثمانية التي ذكرناها فيما سبق ظهرت بالعنوان التالي: الآلهة الذين خرجوا من «بتاح» «أي نبعوا منه»، والواقع أنهم يقدمون كل الآلهة الذين في المتن بمثابة صيغة متفق عليها، ولكن هذه النظرية تذكر بعد ذلك مرة أخرى في صورة قصة خلق العالم، وهنا يمكننا أن نلحظ كيف أن اللغة المصرية القديمة بوصفها أداة للتعبير العقلي كانت تميل إلى الأشياء المُحَسَّة، ولم تكن على استعداد للتعبير عن آراء معنوية، وقد استعملت هنا أداة للتعبير عن بعض معنويات تدعو إلى الدهشة، والواقع أن مؤلف هذا المتن قد عبر بوضوح عن الاعتقاد بأن أسس الوجود روحية، وهي آراء تصورها الخالق وجسَّمها بأقواله؛ أي بقلبه ولسانه، والواقع أن المتن يعبر عن هذا بأن القلب واللسان هما عضوا التكوين، وهذان اللفظان مُحَسَّان بدرجة كافية، غير أننا نكون قد أخطأنا قراءة المتن إذا فهمناهما بمعناهما الظاهر؛ فنحن نعرف من متون أخرى عدة أن «القلب» يعبر عن العقل أو الفهم أو حتى عن الروح، واللسان هو الذي ينفذ الفكر، فهو يترجم الآراء إلى حقيقة بواسطة «حو» الذي معناه النطق والأمر؛ أي النطق الآمر، وعلى ذلك يجب علينا أن نقرأ هذه الفقرات بوصفها الحقيقي الذي يقابله ما جاء في إنجيل «يوحنا» وهو: «في البدء كان الكلمة، والكلمة عند الله، وكان الكلمة الله» (إنجيل يوحنا الإصحاح الأول سطر واحد).

وهاك النص المصري لهذا المتن:

> لقد أوجد في قلب الإله «بتاح» وعلى لسانه «شيء» في صورة «آتوم»، إن «بتاح» الذي ورث قوته كل الآلهة والأرواح عظيم ورفيع بوساطة قلبه وعلى لسانه … واتفق أن القلب واللسان قد تغلبا على كل الأعضاء الأخرى، باعتبار أنه «أي الإله بتاح» قلب في كل جسم، ولسان في كل فم، لكل الآلهة والناس والحيوان والزواحف وكل شيء آخر يعيش، في حين أنه يفكر بمثابة قلب، ويأمر بوصفه لسانًا بكل شيء يرغب فيه، وكل كلمة مقدسة قد صارت في حيز الوجود بوساطة ما فكر فيه القلب وأمر به اللسان.

وعلى ذلك برأت الأرواح «كاو» وخلقت «حمسوت» «مؤنث كلمة كاو» وهم الذين يصنعون كل المؤن وكل الطعام بهذا الكلام «الذي فكر فيه بالقلب ونطق به لسانه» وعلى ذلك يقضي بالحق لمن يفعل ما يحب، ويقضي بالشر على من يفعل ما هو ممقوت، وعلى ذلك تمنح الحياة للمسالم والموت للمجرم.

وعلى ذلك ينجز كل عمل وكل صناعة، وكذلك ينجز عمل الذراعين ومشي الساقين وحركة كل الأعضاء على حسب هذا الأمر الذي فكر فيه القلب وخرج من اللسان، وهو الذي ينظم أهمية كل الأشياء. ولا نزاع في أننا نجد هنا إيضاحًا بطريقة فيها شذوذ عن بيان يعلن وحدة الله وصفته الروحانية وانتشاره في الطبيعة الحية.

وقد حذفنا هنا برهانًا لاهوتيًا يقرر مرة أخرى أن فكرة «بتاح» ونطقه هما أساس عمل «آتوم» في تكوين الخليقة، ولدينا تأكيد آخر لهذا مماثل يأتي بعد الأسطر التي اقتبسناها هنا فنقرأ ما يأتي:

> وهكذا ارتاح «بتاح» بعد أن خلق كل الأشياء وكل الكلمات المقدسة، وقد برهنا من قبل على أن هذه الكلمات المقدسة تعني في الحقيقة الأمر الإلهي الذي وجدت فيه كل الأشياء أماكنها اللائقة بها.

وعلى أية حال فإنه مما لا شك فيه أن المتن يصف لنا كيف أن «بتاح» قد قرر أمرًا معينًا، وما اقتبسناه هنا قد فسر لنا أن الآلهة والمخلوقات الأخرى وكذلك نفس حياتها وسر حياتها قد اشتقت من عمل «بتاح» بوصفه فاطر الخلق، ثم يستمر المتن ناسبًا للإله «بتاح» وضع نظام ديني للأرض، وهو العبادات المحلية وكل خصائصها، حتى نفس أشكال الآلهة التي كانت تُعبد؛ وذلك لأن تماثيلها كان قد صنعها «بتاح» من مادة تنمو على جسمه بوصفه إله الأرض، وهاك المتن:

> لقد خلق الآلهة «المحلية»، وصنع المدن وأسس الأقسام الإقليمية، ووضع الآلهة في أماكن عبادتهم، وجدد قربانهم وأقام محاريبهم، وجعل أجسامهم تنطبق على ما يشرح صدورهم «أي الأشكال التي يريدون أن يظهروا فيها»، وهكذا دخلت الآلهة في أجسامهم من كل نوع من الخشب، ومن كل نوع من الحجر، ومن كل نوع من الطين، ومن كل نوع من شيء ينمو عليه مما مثلوا فيه؛ وهكذا فإن كل الآلهة وأرواحهم كانت في اتحاد معه راضية وموحدة مع رب الأرضين. ومن ذلك نفهم أن كل العبادات المختلفة قد ظهرت هنا بوصفها من ابتكار إله البلاد الموحدة.

القسم السادس: والقسم السادس والأخير من هذا المتن يستمر في تنسيق العلاقات الوثيقة بين الإله وأرض مصر، وذلك بالتحدث عن «منف» وهي موقع معبد الإله «بتاح» وعاصمة البلاد الجديدة، وذلك أن «منف» يقال عنها إنها ذات أهمية خاصة في تموين مصر، وهذه حقيقة يفسرها ما قيل عن وجود جسم «أوزير» مدفونًا في تربتها، ويعترف المتن أن «أوزير» لم يكن دائمًا مرتبطًا بمنف؛ «أي إنه لم يكن قد نبت فيها، بل وصل إليها بماء النيل»، ويتحدث إلينا المتن على نسخ الأسطورة التي نسبت إليه فيما بعد، وهي القائلة بأن «أوزير» الغريق هو الذي أخرج جسمه بعد ذلك إلى الشاطئ بواسطة كل من «إزيس» «ونفتيس» غير أن كلمة الغريق هنا تحمل في طياتها معاني بالنسبة لهذا الإله لا يمكن أن تدل على الترجمة الحرفية للكلمة، والواقع أن التناقض في قصة «أوزير» ينحصر بالضبط في أن هذا الإله يصبح مركزه في الموت قوة إحياء، ومن ثم نجد أن النيل وبخاصة فيضان النيل («حعبي»؛ أي الفيضان أو إله الفيضان) يعد مظهرًا من مظاهر «أوزير»، وعلى ذلك فإن علاقة «أوزير» بالنهر لا يمكن التعبير عنها تمامًا بالقول إنه قد أهلك بالماء؛ أي أغرق، فالإله «أوزير» كان في المياه، وقد ترجم الفعل «أو يجب على الأقل أن يترجم هنا الفعل الدال على ذلك بلفظة: عامَ لا غَرِقَ»، والفكرة هنا أن الإله هو القوة الفعالة والتأثير المفيد للفيضان، وعلى ذلك يمكن التعبير هنا فقط بدقة في هذه الأسطورة بوصف صورة «أوزير» التي في هيئة إنسان بأنها كانت عائمة أو مغموسة في ماء النهر، أما العثور على «أوزير» الذي يصفه المتن هنا بانتشال جسمه بواسطة «إزيس» «ونفتيس» فقد مثل في الشعائر الدينية في صورة رفع جسمه من ماء النيل العذب.

أما القول بأن «أوزير» قد دفن في العاصمة الجديدة فإن ذلك يعد إعلانًا عنها بأنها المركز الذي تنتشر منه القوى المحيية، ومن ثم يمكن أن نطلق على «منف» مخزن الغلال … حيث يُعنى بالمؤن اللازمة للأرضين.

ولما كان المتن هنا يعترف صراحة بأن «أوزير» لم يكن في «منف» في موطنه الأصلي فإنه يمكن أن يتساءل الإنسان: من أين جاء «أوزير» إلى هذه المدينة؟ والواقع أن «العرابة المدفونة» قد ادعت أنه من أهلها، ولذلك يمكن الإنسان أن يتساءل هنا: لماذا يُنسب هذا الإله للعاصمة التي أسسها «مينا» عند نهاية الدلتا؟ والظاهر أن «أوزير» كان جد أسرة الملوك الذين منهم «مينا»، ولا يخفي أن أهمية الملوك المتوفين في مصر القديمة كما هي الحال في أفريقيا «الحديثة» كانت عظيمة لدرجة أنه لا يمكن للإنسان أن يرمق بالعناية الإلهية نقل المقر الملكي من مقاطعة «طينة» التي فيها العرابة المدفونة إلا إذا نقلت إليها صورة «أوزير» جد الأسرة لتكون على اتصال أكيد بالعاصمة الجديدة، وهذا الاتصال قد أوجده النيل الذي ظهر فيه «أوزير» ومثَّله، وهو الذي كان يمر بمنف كما كان يمر بالعرابة، وقد فسر ذلك أسطوريًّا في قصة خلاص جسم «أوزير» من المياه، وينسب خلاص «أوزير» الفعلي في اللاهوت المنفي وفي أسطورته إلى الإلهتين «إزيس» «ونفتيس»، غير أن اللاهوت على عكس الأسطورة يؤكد أن الإلهتين قد عملتا بأوامر من «حور» بن «أوزير»، ويتفق اللاهوت

مع متون الأهرام في ذلك؛ حيث نجد أن «حور» الملك العائش يظهر بوصفه الحاث على كل الأعمال المفيدة لأوزير سلفه ووالده.

ويستمر المتن في وصف مصير «أوزير» بعد دفنه، وهنا نجد مصير «أوزير» كان مزدوجًا، فمن جهة نجده ينضم إلى إله الشمس في دورته اليومية من الشرق إلى الغرب، ومن جهة أخرى ينضم إلى بلاط «بتاح تاتنن» ورجال حاشيته الذين كان لزامًا عليهم أن يسكنوا حيث كان الإله «بتاح» في بطن الأرض. والواقع أنه صار أرضًا، وهذه العبارة هي المحك في هذا القسم من المتن؛ وذلك لأنها تفسر كما رأينا في القسم الثالث الخصوبة الفائقة الحد لإقليم «منف» حيث دفن «أوزير»، وعلى أثر دفن «أوزير» مباشرة يذكر أن الإله «حور» قد اعتلى عرش الملك، وبذلك ينتهي المتن.

وهاك نص هذا القسم:

> إن مخزن غلال الإله «بتاح تاتنن» كان العرش العظيم «أي منف» الذي يشرح قلوب الآلهة الذين في معبد بتاح سيدة الحياة «لقب للمعبد»؛ حيث يُعنى بمؤن الأرضين؛ لأن «أوزير» سبح في مياهه «النيل»، وقد لحظه كل من «إزيس» «ونفتيس» وقد رأتاه وذهلتا، ولكن «حور» أمر كلًّا من «إزيس» «ونفتيس» أن تمسك بأوزير بدون تأخير وتمنعاه السباحة بعيدًا، وأدارتا رأسيهما في الوقت المناسب وجعلتاه يصل إلى اليابسة.
>
> ودخل البوابات السرية «في العالم السفلي» وكان فخار أرباب الأبدية «أي الأموات» وكانوا يسيرون مع الذي يضيء في الأفق «الشمس» على طريق «رع» وفي العرش العظيم «أي منف»، وقد دخل البلاد «أي «أوزير»» وتآخى مع الإلهين «تاتنن» «وبتاح» رب السنين.
>
> وبذلك صار «أوزير» أرضًا في القصر الملكي على الجانب الأيسر لهذه الأرض التي وصل إليها، وقد ظهر ابنه «حور» ملكًا للوجه القبلي وملكًا للوجه البحري بين ذراعي والده «أوزير» في حضرة الآلهة الذين كانوا أمامه والذين كانوا من خلفه.

وإذا فحصنا الآن اللاهوت المنفي في مجموعه فإن أهم ما يتسم به «غير الوجهة الروحية التي تتصل بخلق العالم» أنه هو الكيفية التي اختلطت فيها الحقيقة بالخرافة، حقًّا إن كل الشخصيات التي ذكرت في المتن آلهة، غير أننا نعلم أن الفن المصري يقدم لنا الفرعون بوصفه إلهًا، وقد رأينا في القسم الثاني من هذه الوثيقة أن الإلهين «حور» «وست» كانا يتخاصمان، غير أن موضوع خصامهما كان من أجل التسلط على ملك مصر، ونعلم من جهة أخرى أن الملك كان يدعى أحيانًا بعبارة «حور» «وست» ليدل على أن حكمه يعلن نهاية الخلاف الذي وقع بين هذين الإلهين، ولا يفوتنا أنه ذكر في القسم الخامس من هذه الوثيقة

قصة خلق العالم، وذلك بمنح الخالق اللقب الملكي «رب الأرضين» في حين أن القسم السادس وهو النهائي كان خالصًا صراحة بالعاصمة «منف» وبأسطورة «أوزير»، ولا نزاع في أن المكان الذي حدثت فيه القصة حقيقي لا خرافي، فقد حدثت في «منف» وبعبارة أدق في القصر الملكي، وهو المقر الذي أسس حديثًا للمملكة المتحدة والمكان الذي دفن فيه «أوزير»، ويلحظ أن صورة «أوزير» ليست إطلاقًا في موطنها من الوجهة الأسطورية؛ وذلك لأن كل ملك عند موته كان يصير «أوزير»، كما أن كل ملك على قيد الحياة متربع على عرش مصر كان يدعى «حور»، ومن ثم نفهم أن كل ملك يكون «حور».

فمن الجائز أن «حور» الذي يظهر في نهاية المتن بوصفه ملك مصر بين ذراعي والده «أوزير» على الرغم من أن الأخير قد مات ودفن لم يكن الإله فحسب بل الملك أيضًا، والواقع أن التوراث الملكي كما يظهر لنا كان في مستوى فوق مستوى البشر الذي يشار إليه هنا، أما كون «حور» «وأوزير» هنا هما إلهان أو ملكان فإن ذلك لا معنى له في نظر المصريين؛ إذ الواقع أن هذين الملكين هما الملك المتوفى وخليفته على العرش، وهذان الملكان هما هذان الإلهان، ولدينا البرهان الذي يثبت حقيقة ذلك، وهو أن تعانق «حور» «وأوزير» المتوفى الذي ذكر في العبارة التي ينتهي بها المتن نجده ممثلًا في شعيرة من شعائر دراما التتويج (راجع كتاب «الأدب المصري القديم»، الجزء الثاني، ص١٦)؛ ففي هذا المنظر نجد أن الملك الجديد يقوم بنفسه بتأدية شعيرة دفن والده صوريًّا، فالتعانق هو اتصال الروحين حقًّا، وهو يتضمن الحاكم الفعلي وسلفه المتوفى في شعيرة تُؤدى عند تولي كل ملك جديد العرش، وتظهر هذه الشعيرة بنفس الطريقة دون تحديد الوقت في اللاهوت المنفي متضمنة الإلهين «حور» «وأوزير» وهما يتعانقان، وهذا التعانق يبرز لنا صفة بينة أخرى للملكية المصرية تؤكد لنا أكثر من أي صفة أخرى أن الملكية كان قد فكر فيها كحقيقة في عالم الآلهة كما فكر فيها في عالم الناس، ولهذا السبب نجد أن نظرية الملكية قد ضمنت في متن دنيوي، والواقع أن الطبيعة نفسها لا يمكن تصورها دون وجود ملك لمصر، وهذا ما يظهره لاهوت منف بوجه خاص؛ إذ يبرهن على أن المملكة الثنائية «أي الوجه القبلي والوجه البحري» التي اتخذت مركزها «منف» قد حققت تصميمًا إلهيًّا.

هذا إلى أن نظام المجتمع كما وضعه «مينا» قد مثل بمثابة جزء من النظام العالمي.

والآن يجب علينا أن نفحص ما تحتويه النظرية المصرية عن الملك، فلدينا رأي ذكرناه من قبل وهو أن الملك مقدس والرأي الآخر وهو أكثر أهمية يشير بوضوح إلى أن الملكية قد صورت في أعمق صورة لها «أي في مستوى الآلهة» بأنها تتضمن جيلين «أي الملك السابق وخلفه على العرش».

وقد رأينا عند التعليق على الجزء الثاني من هذا المتن الخاص باللاهوت أن «حور» قد اعترف به الآلهة مجتمعين بوساطة «جب» إله الأرض، لا لأنه يملك سلطة أعظم من سلطة «الإله ست»، ولكن فقط لأنه بِكر أولاد «أوزير» والوارث الشرعي له، وقد رأينا في الجمل الأخيرة من هذا المتن مرة ثانية أن كلًّا من «حور» «وأوزير» لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر

حتى في اللحظة التي يظهر فيها «حور» ملكًا بعد دفن والده، فقد مثل وهو يعانقه، ومن ثم يظهر أن الاعتلاء الفعلي للعرش يولد اندماج قوى الملك المتوفى في قوى خليفته على العرش.

وهذا الرأي بوجه خاص مصري الصبغة، وإن كان مرتبطًا بالعقيدة الكثيرة الانتشار في العالم المصري، وهي القائلة بأن الملك إلهي، ولذلك فإنه من المهم أن نجدد العلاقة بين الرأيين اللذين تتألف منهما نظرية الملكية المصرية.

والرأي الأساسي هو أن الحكم يتضمن أشياء خاصة محرمة على الرجل العادي، وهذا رأي تقليدي، فنجد مثلًا في الجماعات البدائية ومن بينها عدد كبير يقطن شرقي أفريقيا أن الرئيس فوق منصب الرياسة يكون رجل الطب أو السحر، وبعبارة أخرى يعتقد فيه قومه أنه يتمتع باتصال وثيق بقوى الطبيعة أكثر من أناس كثيرين غيره، فالملك الأفريقي صانع المطر يعد مثالًا معروفًا جيدًا من هذا الطراز من الحكام، فيقال في قبيلة «دنكا»: إن صانع مطر قد دفن في حظيرة الماشية التي استمرت تستعمل «وهذا على غرار القصر الملكي في «منف» حيث دفن «أوزير»»، وقد قيل عن هذا الملك أنه يأخذ طعام الجماعة معه إلى القبر إلى أن يحل الفصل التالي فيحفر ثقب في جانب الحظيرة ليخرج منه الطعام[٢٣] ثانية، وكذلك قيل عن «كومدي» أن صحة (شونجر) ومصلحة كل الجماعة مرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا،[٢٤] هذا وكون «شونجر» (= الرئيس) في صحة وقوة يعني أرضًا تؤتي أكلها؛ «أي إن المطر يأتي إليها في ميعاده وأن الشر يبعد عنها»، وعلى مسافة من هذه القبيلة من جهة الغرب نجد القوم يخاطبون ملك «جوكون» هكذا: «قمحنا الأصفر اللون وبندق أرضنا وفولنا»، ومن ذلك نرى أن الملك «جوكون»[٢٥] كان في مقدوره أن يسيطر على المطر والرياح، وإذا اتفق تتابع سني قحط أو محصول رديء؛ فإن ذلك ينسب إلى إهماله أو اضمحلال قوته، وعلى ذلك كان يخنق سرًّا. وغرضنا من التحدث عن هذا النوع من الملكية في أفريقيا هو أننا نريد أن نشير إلى المقدمات التي ارتكز عليها «مينا» في موقفه.

فمن المعلوم أن الملك المصري «عقرب» الذي يحتمل أنه حكم قبل «مينا» كان يعد متقمصًا للإله «حور»، ومن ثم يمكننا أن نزعم أنه حتى عهد ما قبل الأسرات كان الاعتقاد أن الرؤساء يحملون في نفوسهم قوة الإله، وقد زاد اتحاد الأرضين في أهمية الملكية، ولم يقض على مظهر من مظاهرها، فالارتباطات التي كانت خارقة للطاقة البشرية بقيت قوية، والخدمات غير المؤكدة التي كان يقدمها رجل الطب للجماعة قد أصبحت مقررة، وظلت الملكية في مصر هي المجرى الذي تنساب فيه قوى الطبيعة في جسم السياسة لتجعل المجهود البشري مثمرًا.

ولكن نجد أن هذا الرأي أو الفكرة عن الملكية يتطلب فضلًا عن ذلك جيلين من الزمن، فإذا كان الحاكم العائش هو الوسيط بين الناس والطبيعة فإن قوته تستمر مفيدة للمجتمع حتى بعد موته، وهذا الاعتقاد شائع أيضًا؛ إذ نجد حكام يوغندة يستمرون بعد مماتهم يعقدون المجالس ويقدمون النصائح لقومهم بوساطة الوحي، كما نجد قبائل أخرى كذلك يطلبون

النصيحة عند قبور حكامهم الأموات في وقت الشدة، ولا يدفنونهم إلا بعد أن ينظموا من يخلفهم.[٢٦] هذا؛ وتشاهد قبيلة «كيزبو» روح ملك قديم يحكم الآن الأموات على الرغم من أن أهلها يعترفون بوجود إله «سام».

وكذلك نعلم أن «نياكانج» حاكم قبيلة الشلوك المتوفى يلعب دورًا عظيمًا في حياتهم الدينية أعظم من الدور الذي يلعبه إلههم الأكبر «جوك»، فهو الذي يرسل لهم الغيث والحصاد.[٢٧]

هذا؛ وقد رأينا فيما سبق أن صانع المطر لقبيلة «الدنكا» كان المفروض فيه أن يأخذ معه طعام القوم عند مماته، وفي مصر نجد أن قوة الملك المدفون كانت تشق الأرض التي تسكن فيها وتخرج منها؛ أي إن النباتات التي تنبت من الأرض، وماء النيل الذي يفيض على الشاطئين، والقمر والجوزاء اللذين يطلعان في الأفق، كانت كلها مظاهر تدل على قوته الحية، ولكن ينبغي علينا أن نقف عند هذه النقطة تاركين دائرة الفكر البدائية العالمية، وننتقل إلى التصورات المصرية العجيبة في بابها، ففي أرض الكنانة نجد أن الملوك الأموات كانوا يمثلون بصورة إلهية واحدة؛ إذ الواقع أن كل ملك منهم بعد الموت يصير إله العالم السفلي مثل «أوزير»، ويتجلى في الظواهر الطبعية المختلفة التي تخرج من الأرض بعد الموت الظاهري، ومن ثم نجد أن تعاقب الحكام الدنيويين كان يأخذ شكلًا خرافيًّا ثابتًا.

ومن ثم نرى أن «حور» كان يخلف «أوزير» عند كل خلافة جديدة للملك إلى الأبد، ويلحظ أن الميل إلى تفسير تغييرات في التعابير الأسطورية الثابتة كان قويًّا في مصر، ونرى ذلك في موضوع الإلهين المتخاصمين؛ أي «حور» «وست»، وهما اللذان يمثلان كل ما يدل على مخاصمة في الطبيعة والدولة، وفي هذا الخصام يظهر الإله «حور» منتصرًا.

والواقع أن المصريين كانوا ينظرون إلى العالم على أنه في الأصل كان هامدًا لا يتحرك، وعلى ذلك كانت حوادث التاريخ تحتاج إلى وجود حقيقة نهائية، ولا ريب في أن الملوك كانوا يموتون، وأن الحاكم كان يخلفه آخر، غير أن ذلك كان يبرهن للمصري على أن الصفة الأصلية للملكية لا يمكن أن يعبر عنها إلا بصيغة المضارع فقط، فيقال: هذا الملك يحكم»، ولكن كان لا بد أن يعبر عنها بصيغة الماضي القريب فيقال: هذا الملك اعتلى عرش الملك أو يعبر عنها بالتعبير الأسطوري: «حور خلف أوزير». هذا؛ ونجد في كل التاريخ المصري أن المتون التي بقيت لدينا تردد حالة غريبة عما تم حديثًا وهي: إن الأرض قد اتحدت والخلاف قد انتهى والملك قد اعتلى العرش، وقد وضع الصدق مكان الكذب.

والواقع أن اللاهوت المنفي ينتهي بهذه النغمة، وذلك أن الجمل الختامية فيه تظهر «حور» يعانق والده على الرغم من أن الأخير قد دفن وصار أرضًا، تبرهن على أن الموت لم يقضِ على الملوك قضاء تامًّا؛ إذ كان يوجد اتصال خفي بين الوالد والابن عند لحظه تولي الخلافة، وذلك يعد اتحادًا واستمرارًا لقوة إلهية توحي بوجود تيار جارٍ يأتي فيه ويذهب أفراد الحكام كالموج.

هذه لمحة عن محتويات هذه الوثيقة التي أنقذها الملك «شبكا» كما يقول هو من الضياع، وهي تدل على ما كان يرمي إليه هو وأفراد أسرته من تجديد في الروح المصري القديم بالرجوع للقديم وإحيائه بعد أن كان قد اندثر وعفت عليه الأيام، ولا شك في أن ما أوردناه هنا من تحليل لهذه الوثيقة الفذة فيه نقص كبير لتهشيم المتن وغموضه، هذا بالإضافه إلى أن ما استنبطناه أحيانًا قد لا يصيب الحقيقة التي كان يعنيها المصري القديم.

(٣) أسرة الملك «شبكا»

تحدثنا عن أسرة الملك «شبكا» فيما سبق، وقلنا إنه أنجب ولدًا يدعى «حورمأخت» وابنة تدعى «أستنخب»، ولا نعرف عن «أستنخب» هذه إلا أنها دفنت في العرابة المدفونة حيث عُثر لها على تمثال مجيب.

حورمأخت

أما ابنه «حورمأخت» فقد كان له شأن آخر؛ إذ كان يحمل لقب الكاهن الأكبر لآمون، وعُثر له على تمثالين، واحد منهما سليم وُجد في خبيئة الكرنك،[٢٨] والآخر[٢٩] وُجدت بعض أجزاء منه في معبد آمون بالكرنك، وتدل شواهد الأحوال على أنه كان ممثلًا ماشيًا يحمل في يديه شيئًا قد يكون تمثالًا صغيرًا لإله أو محرابًا، وعلى الرغم من أن بقايا هذا التمثال الأخير لا تدل على أنه كان من القطع الفنية كتمثاله الأول الذي سنتحدث عنه فيما بعد، فإن النقوش التي عليه لها أهمية تاريخية لا بد من كشف النقاب عنها، وهاك ما بقي على الجانب الأيسر منه:

> الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد في الحب، والابن الأكبر للملك من جسده وحبيبه، والكاهن الأكبر لآمون «حورمأخت» يقول: أيها الأحياء الذين على الأرض … إن بيتكم «سيخلد بعدكم» إذا قلتم: قربانا يقدمه الملك عندما تروحون وتجيئون إلى المعبد وتقدمون أزهارًا «للإلهة» والدته لأجل روح رئيس طائفة الكهنة «حورمأخت».

والمتن التالي من الجهة اليسرى على الفاصل هو:

> … كاهنة حتحور سيدة أطفيح وكاهنة حتحور سيدة دندرة وكاهنة الإلهة «نيت» التي تسكن الكهف سيدة كل الناس المسماة «تاباكن-أمن» «والدة» الأمير الوراثي،

> والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد في الحب، ورئيس كل الناس، وكاتم أسرار الملك في كل أماكنه، ورئيس المراقبين في الجنوب والشمال، «… المستشار» الممتاز عند الملك، ومن له الدخول مع كبار الموظفين في حجرات الملك، ومن رفعه الملك في دائرة رجال البلاط بوصفه الكاهن المشرف على كهنة آمون في مقاطعة طيبة، والابن الأكبر من جسده، والكاهن الأول لآمون، والذي يرى آمون في صورته الفاخرة؛ أي في قدس الأقداس «حورمأخت».
>
> على الجهة اليمنى: «يا أيها …» كل كاهن مرتل، وكل كاهن خادم الإله، وكل كاهن مطهر، وكل رجل سيدخل هذا المعبد … سيحبوكم … والموت سيتجاهلكم إذا قلتم: قربانًا يقدمه الملك إلى «موت» العظيمة ربة السماء … ألف رغيف من الخبز ومن الجعة والثيران والإوز، والملابس والبخور والعطور، وكل ما يخرج من مائدته … «… لأجل روح» بنت الملك وزوج الفرعون وأخت الملك المقربة من حتحور «تاباكن أمن» المرحومة.

ونقش على عمود التمثال ما يأتي:

> … هذه التي تملأ المحراب بعبير نداها ومن تقرر كل شيء وينجز لها زوج الملك … زوج الملك «شبتاكا» والابنة الملكية «بيعنخ أرتي».

ونفهم من هذه النقوش بصفة قاطعة أن هذا التمثال كان للكاهن الأكبر لآمون المسمى «حورمأخت».

وقد عرفنا فضلًا عن ذلك من نقوشه اسم الملكة «تاباكن-أمن» ابنه الملك «بيعنخي» وزوج الملك «تهرقا» والملكة «بيعنخ أرتي» أخت الملك «تانوت آمون» وزوجه، وهاتان الملكتان لم يعثر على قبريهما في جبانة «الكورو».

التمثال الآخر للكاهن الأول «حورمأخت»: عُثر على هذا التمثال في خبيئة كما قلنا من قبل، وهو من الحجر الرملي الأحمر، ويبلغ ارتفاعه ستة وستين سنتيمترًا، ويمثل «حورمأخت» في طراز غريب لا يتفق مع الطرز المصرية الأصيلة، ورأسه حليق، وقد مُثل ماشيًا بذراعين مبسطوتين على جانبيه، ويرتدي قميصًا ذا ثنيات، ويتدلى من نحره رمز الحياة.

والتمثال محفوظ حفظًا جيدًا، وأسلوبه مرن ورشيق، ويعد من القطع الفنية الجميلة بين تماثيل العهد الكوشي، وقد تحدثنا عن هذه التماثيل فيما سبق، والمتون الأربعة التي نقشت على هذا التمثال تؤكد لنا أنه من العهد الكوشي.

والواقع أن ما جاء في المتون الأول والثاني والرابع تحدثنا عن ألقاب «حورمأخت»، ومنها نعلم أنه كان شخصية غير معروفة لنا من قبل.

فقد جاء في هذه المتون الألقاب التالية: الكاهن الأول «لآمون رع» ملك الآلهة، وفي رواية أخرى الكاهن الأول «لآمون» في الكرنك، وفاتح باب السماء «قدس الأقداس»، وكاهن «خنسو الطفل»، وقريب الملك الحقيقي ومحبوبه، وابن الملك من جسده.

والمتن المنقوش على الجانب الأيسر للعمود الذي يرتكز عليه التمثال يقدم لنا معلومات هامة جدًّا وهو:

> الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد في الحب، والابن الملكي لشبكا المرحوم الذي يحبه، والسمير الوحيد، ومدير قصر ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تانوت آمون» العائش أبديًّا، وعينا ملك الوجه القبلي، وأذنا ملك الوجه البحري، الكاهن الأول لآمون صاحب الكرنك، وكاهن خنسو الطفل، والمقرب من والده «حورمأخت» يقول: إن أي شخص يدخل لعمل تضحية في هذا المعبد إذا أحنى نحوي ذراعه عند قراءة صيغة القربان الجنازي فإن هذا «الشخص» سيكون محميًّا من آمون، ولكن سيكون اللوم عليه عظيمًا من جانب هذا الإله لمن لا يعمل هكذا.

ومن هذا المتن نفهم أن الكاهن الأكبر لآمون المسمى «حورمأخت» كان ابن الملك شبكا، وأنه عاش مطوقًا عنقه بألقاب الشرف والفخار حتى عهد الملك «تانوت آمون» آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين.

وهكذا نرى أن وظيفة الكاهن الأكبر لم تُلغَ في عهد الأسرة الخامسة والعشرين كما قال «مسبرو»،[٣٠] بل إن وجود هذين التمثالين يعد دليلًا قاطعًا على وجود هذه الوظيفة في العهد الكوشي، غير أن مركز الكاهن الأكبر لم يكن يتمتع بتلك المكانة الرفيعة التي كان يتمتع بها في عهود الأسر الواحدة والعشرين والثانية والعشرين والثالثة والعشرين كما سنرى بعد.

(٤) مقابر خيل الملك «شبكا»

وجد قبران لجوادين للملك «شبكا» في جبانة خاصة للخيل في الكورو.

المقبرة الأولى (راجع El Kurru, 201 (3) fig. 37a)

وهذه المقبرة مستطيلة الشكل، ويلحظ أن رأس الجواد يتجه نحو الشمال الشرقي، وجدت المقبرة منهوبة، ولم يترك اللصوص إلا بعض عظام مبعثرة في أنحائها وأسنان حصان.

والأشياء التي عثر عليها وجدت في الردم عند نهاية القبر من جهة الرأس، وأهمها بعض خرزات في هيئة حلقات من الخزف الأزرق المطلي، وقد أعيد نظامه (راجع El Kurru pl. LXVIL.e) كما وجدت خمس عشرة زهرة من الخزف الأزرق وست أزهار صفراء من الخزف وخمس أزهار من الفضة، وثلاث وأربعون كرة من الخزف الأزرق والأصفر والأحمر (راجع Ibid) هذا إلى حلية في هيئة رأس حتحور من الفضة وقطع مهمة (راجع Ibid Pl. LXIXB).

وعُثر على طغراءين مصنوعتين من الخزف المطلي باسم «شبكا» (راجع Ibid Pl. LXII e) هذا إلى حوالي خمسة وعشرين رأس حتحور من الخزف الأزرق (Ibid Pl. LXII e) وقطع من خرزة من الفضة على شكل برميل مجوف (راجع Ibid Fig 37 b).

ويظن الأستاذ «ريزنر» أن الحلية التي نظمها ثانية (Ibid Pl. LXIIe) من هذه الأشياء التي وُجدت في القبر تشبه طراز الحلية التي وضعت مع الجواد في القبر، وقد كان رائده في إعادة نظمها موقع الخرز كما وجد في القبر، وقوله هذا مجرد اقتراح.

المقبرة الأخرى (راجع El Kurru, 203 (3) fig. 38a)

شكل هذه المقبرة مستطيل، وقد وُضع فيها أحجار للساقين الأماميتين وللخلفيتين، كما وضعت سنادة يرتكز عليها بطن الجواد وأخرى منخفضة للرقبة (راجع Ibid Pl. XXVIII A) وحجرة الدفن وُجدت منهوبة، ولم توجد فيها إلا بعض قطع من العظام وأشياء أخرى، أما الأشياء التي وُجدت في الحجرة فكانت كلها عند نهاية رأس الجواد، نذكر منها أكثر من مائة رأس حتحور صغيرة كالتي وجدت في المقبرة السابقة (راجع Ibid LXIX B) وكذلك حلقات من الخزف الأزرق والأبيض والأحمر (راجع Pl. LXIX B) هذا إلى اثني عشر رأس حتحور من الفضة وثلاث محارات من الفضة (Ibid) وغير ذلك من الخرز الذي كان يستعمل حلية في زينة سرج الخيل وعرباتها.

---

[١] راجع: Ungar, Chronologie des Manetho, P. 246 and 247–249.

[٢] راجع: Budge, Book of Kings II, P. 10.

[٣] راجع: Legrain, A. Z. 1896, P. 114.

[٤] راجع: L. D. Text. V. 1, b; Br, A. R, IV, § 889.

[٥] راجع: Porter and Moss, VIII. P. 184.

[٦] راجع: Khartoum Museum no. 5458.

[٧] راجع: Porter and Moss, Ibid, P. 20–2.

[٨] راجع: Varia Sudanica. J.E.A. Vol, XXXVI. p. 4.

[٩] راجع: Porter and Moss, Ibid, P. 311.

[١٠] راجع: Vercoutter, Les Objects Egyptien du Mobélier funeraire Carthaginois Pl. XXIV (8 77) and P. P. 262-3.

[١١] راجع: Porter and Moss, Ibid. P. 381.

[١٢] راجع: Ibid. P. 370.

[١٣] راجع: Ibid. P. 379.

[١٤] راجع: British Museum, 84884; Layard Discoveries in the Ruins of Neneveh: &.

[١٥] Babylon. P. 156; A Guide to the Babylonian and Assyrian Antiq. (1922) P. 211 (32).

[١٦] راجع: El Kurru, 15. Fig. 20 e Pl. XXX. B.

[١٧] راجع: El Kurru, 5. P. 58 and Fig. 20. G.

[١٨] راجع: Ibid. P. 56, and Pl. LXII A–E.

[١٩] راجع ما كتب في هذا الموضوع في كتاب «الأدب المصري القديم»، جزء ٢، ص٧–١٦.

[٢٠] راجع: Sethe, Dramatische Texte. pp. 12–22.

[٢١] إن موضوع الاتحاد الثاني فيه شك.

[٢٢] راجع: Kingship and The Gods, p. 154.

[٢٣] راجع: Seligman, Egypt and Negro Africa, a Study in Divine Kingship (London 1934) P. 22.

[٢٤] راجع: Ibid, 28.

[٢٥] راجع: Ibid, P. 38.

[٢٦] راجع: P. M. Kastors, Das Grab der Afrikaner, Anthropos XVI-XVII (1921-22) P. 919.

[٢٧] راجع: Fraser, The Golden Bough, Part IV, Vol. II, p. 166–174.

[٢٨] راجع: A. S, VII, P. 188.

[٢٩] راجع: A. S, 25 P. 26ff.

[٣٠] راجع: Maspero, Les Momies Royales, p. 747.

حالة البلاد السياسية قبل تولي «شبكا» الملك وما بعد ذلك

مقدمة

عاد «بيعنخي» إلى مقر ملكه في «نباتا» بعد أن قضى على آخر مقاومة حاول القيام بها «تفنخت» غير أن القائد أو النائب الذي تركه «بيعنخي» وراءه لإدارة البلاد لم يمضِ عليه طويل زمن في تصريف الأمور حتى أحس أن مهمته أصبحت شاقة غريبة لا قِبَل له بتحملها، وأنه ليس في استطاعته المحافظة على بقاء البلاد المصرية خاضعة راضية بالحكم الكوشي، وسبب ذلك أن سلطان بلاد «آشور» الفتية كان في تلك الفترة قد امتد على كل دولة إسرائيل بعد الاستيلاء على «السامرة»، وقد حدث ذلك قبل قيام «بيعنخي» بحملته على مصر بسنة واحدة، وكان «سرجون» عاهل آشور وقتئذٍ قد تقدم في زحفه في بلاد الشرق الأوسط حتى أصبح على أبواب مصر، وعلى الرغم من أن معلوماتنا ليست محددة جلية عن تاريخ هذه الفترة من الوجهة المصرية لانعدام المصادر الأثرية، فإنه من الجائز أن القائد الأعظم الذي كان على رأس الجيش المصري «موسري»، الذي يفتخر «سرجون» بأنه هزمه هزيمة منكرة حوالي عام ٧٢٠ق.م في موقعة «رفح»؛ أي عند حدود مصر نفسها، إما أن يكون القائد النوبي الذي تركه «بيعنخي» على رأس جيشه في شمالي مصر، وإما أن يكون قد نصب على هذا الجيش «شبكا» الذي خلف «بيعنخي» على عرش مصر بعد وفاة الأخير، والرأي الأخير هو الأرجح.

وقد كان من جراء هزيمة «شبكا» على يد الآشوريين أن ارتد إلى الجنوب، وبذلك تخلصت الدلتا من الكوشيين، وعلى أثر ذلك قفز «تفنخت» من مكمنه وجمع حوله حكام مقاطعات الدلتا وأصبح ثانية ملكًا على مصر، وتدل شواهد الأحوال على أنه هو الذي كان فرعونًا على البلاد وقتئذٍ لا الملك «أوسركون الرابع» الذي كان قد اختفى مؤقتًا، ويقال إن «تفنخت» هو الملك الذي صالح «سرجون» ملك «آشور» واسترضاه بالهدايا، وقد عد الآشوريون هذه الهدايا جزية تأتي إليهم من مصر، وسنفصل القول في ذلك في باب خاص عن الفتح الآشوري لمصر والبلاد المجاورة لها في الشرق الأوسط.

ومما تقدم نرى أن «تفنخت» بعد هزيمته على يد «بيعنخي» قد عاد ثانية إلى التربع على عرش ملك مصر ثانية حوالي ٧٢٠ق.م.

بوكاريس «بكنرف»: وقد خلفه ابنه بكنرف أو كما يسميه الإغريق «بوكاريس» على عرش الكنانة واتخذ لنفسه لقب «واح-أب-رع» وقد نطق الإغريق هذا اللقب «فوهكرس»؛ ولما كنا

نعرف من الآثار أنه قد ذكرت السنة الثامنة من عهد الملك «تفنخت» فإنه لا بد كان قد أرخ عهده على أحدث تقدير بحوالي ٧٢٥ق.م، وهي آخر سنة من حكم «شيشنق الرابع».

ويعد كل من «تنفختوس» «تفنخت» وبوكاريس «بكنرف» من بين طليعة الملوك الذين حفظت لنا الكتابات الإغريقية أشياء عن حياتهم غير أنها في معظمها أساطير الأولين.

وقد أخذت المدينة الإغريقية تظهر من عالم الظلمات في العهد الذي جاء على أعقاب الكارثة التي حلت بعصر البرنز المنوي والثقافة الكفتية «أي ثقافة كريت» التي كانت معروفة في مصر في خلال عهد الأسرة الثامنة عشرة (راجع مصر القديمة الجزء الخامس) فقد كان العصر الجديد لتوسيع التجارة والاستعمار سائرًا في طريقه، وكان التجار يختلفون على مواني النيل، وكان فم النيل الغربي الذي عرف وقتئذٍ بفرع كانوب هو الذي يرتادونه كثيرًا جدًّا؛ وذلك لأنه كان يهيئ مكانًا مباشرًا للاجئين أو طريقًا على الساحل لبلاد لوبيا لا يزاحمهم فيه كثيرًا الفينيقيون.

وقد أصبح الفرع الكانوبي للنيل بالنسبة لتجارة الأغريق ذا أهمية أعظم من الفرع البيلوزي، وهو الذي كان في عهد الرعامسة ودولة اللوبيين من بعدهم الممر التجاري للفينيقيين، وقد كان التاجر الصوري المحنك يرى على أيه حال عند مطلع الشمس السفن اليونانية تبرز في الأفق ماخرة عرض البحار، وبذلك أصبح أهل جزر اليونان مسيطرين على تجارتها كما غذوا الشواطئ المصرية بما كانت تحمله سفنهم من زيت وخمر وتين وغير ذلك من منتجات بلادهم، وكانت بلدة سايس (صا الحجر الواقعة بالقرب من كفر الزيات) تقع على الفرع الكنوبي، ويسيطر على الطريق المؤدية إلى «منف».

والواقع أن كل بلاد الدلتا كانت ضيعة لأسياد بلدة «سايس»، ولا نزاع في أن الثروة التي ساعدت ملك هذه البلدة على أن يصبح أول حكام مقاطعات الدلتا ويستولي على «منف» كانت تأتي إليه من الضرائب، وما كان يجبيه من جزية يحصلها من التجارة الجديدة التي كانت قائمة بين مصر وبلاد الإغريق، وبخاصة من توريد الزيت والخمر من بلاد الإغريق، ومن تصدير القمح والشعير إلى بلاد اليونان، وكذلك من أغنام بلاد «لوبيا» التي كان صوفها لا فائدة منه لأهل مصر الذين لا يلبسون إلا الكتان، ولكنه كان يصدر إلى بلاد الإغريق الذين ينتفعون به تمامًا.

وقد أقام الميليزيون بالقرب من «سايس» مؤسسة عظيمة لتخزين سلعهم، وهذه المؤسسة أصبحت فيما بعد تدعى «نقراش»، وسنتحدث عن ذلك في حينه.

وقد كانت كل من «منف» «وسايس» معروفة للإغريق من قبل بوصفها المدن الرئيسية المصرية.

وكان «بوكاريس» مشهورًا في التقاليد التي حفظها لنا «ديدور» الكاتب اليوناني بأنه صاحب غنًى، كما كان مشهورًا بحكمته، كما كان والده «تفنخت» مشهورًا بشجاعته الحربية العظيمة،

وقد قيل عن «بوكاريس» إنه حدد قانون العقود أكثر من ذي قبل؛ إذ أصبح بعد الإصلاح الذي أدخله كل من تعاقد على دين دون اتفاق مكتوب وأنكر المدين هذا الدين بعد حلف اليمين يكون معفًى منه.[١]

وكان «بوكاريس» في الواقع ملك أعمال، وقد قفت أثره نقمة العدالة كما كانت تقفو أثر كل محب للثراء؛ إذ يقال إن «شبكا» قبض عليه كما حدثنا بذلك «مانيتون» وحرقه حيًّا، ويقال إنه في حكمه على حسب ما جاء في التقاليد المصرية المحفوظة في الكتابات الديموطيقية أن خروفًا صغيرًا تكلم متنبئًا بالفتح الآشوري واستعباد مصر، ونقل آلهتها إلى نينوى عاصمة مملكة «آشور».

ولا شك في أنه هو الفرعون الذي أرسل للملك «سرجون» عاهل «آشور» جزية عام ٧١٥ق.م، عندما ثارت بلدة أشدد بقيادة المخاطر الإغريقي «ياوني» القبرصي، وذلك ليزيل عن نفسه كل شبهة قد توحي بأنه اشترك مع الأخير في مناهضة «آشور»، ويقال إن «بوكاريس» قد عُزل وقُتل على يد شبكا عام ٧١٢ق.م، وعلى ذلك فإنه من الجائز أن تكون هذه الرواية صحيحة في جملتها، وبموت هذا الملك انقرض آخر ملوك الأسرة الرابعة والعشرين على رأي بعض المؤرخين.

وقد مات «بوكاريس» بعد حكم مليء بالمتاعب دام سبعة أعوام.[٢]

والواقع أننا لا نعلم شيئًا عن أخلاقه الحقيقة؛ لأن المصادر الأصلية تعوزنا في هذه الناحية، ولكنه قد ترك أثرًا عميقًا في ذكريات القوم، فكان طبعيًا أن نستخلص أنه أظهر أحيانًا قدرة ونشاطًا في خلال حكمه، ومن ثم نجد أنه قد انتشرت بعد موته أساطير عدة لعبت فيها العناصر الخرافية التي تفوق حد المألوف شوطًا بعيدًا مما جعلها تجري على ألسنة القوم وتتناقلها الأجيال باستمرار، فقد كان على حسب هذه الأساطير رجلًا ضعيف الجسم ليس في منظره ما يلفت النظر،[٣] غير أنه كان في مقابل ذلك ذا عقل قدير ورأي سديد، كما كان يمتاز ببساطة طرائقه في الحياة[٤] وكان مشهورًا بمكانته في التشريع؛ إذ كان يعد من أعلام المشرعين الستة العظام الذين أنجبتهم مصر، فقد نسب إليه كما قلنا من قبل قانون الدين والأرباح، هذا؛ وكان مشهورًا بعدالة أحكامه التي كانت تُعزى إلى إلهام إلهي؛ إذ قد منحته «إزيس» ثعبانًا[٥] لف نفسه حول رأسه عندما كان يقعد إلى القضاء، فكان يغطيه بظله ويحذره ألا ينسى لحظةً مبادئ العدالة والصدق التي لا تلين،[٦] وقد بقيت لنا في كتابات العهد الإغريقي الروماني بعض الأحكام التي أصدرها في قضايا شهيرة، وقد اقتبست لنا منها قصة مطولة، وذلك أنه قد حكم على عاهرة أن تتسلم ظل كيس نقود بمثابة أجر لظل حظوة قد تفضلت بها في حلم على محبها.[٧]

وقد صاغ أحد شعراء الإسكندرية الذي يدعى «بانكراتس» هذه القرارات الحكيمة من أحكامه في مجموعة من الشعر، وهذا الشاعر قد عاش في عهد الإمبراطور «هدريان».[٨]

وقد أخذ المُفتون في العهد الإمبراطوري الروماني يضعون عن هذه الأقاصيص صورًا زينوا بها جدران المباني الأثرية، فقد صوروا هذا الملك وهو ينطق بحكم بين والدتين ادعت كل منهما بنوة طفل، وبين متسولين، ادعى كل منهما ملكية عباءة بعينها، وبين ثلاثة رجال ادعى كل منهم ملكية حقيبة مليئة بالطعام، وقد كُشف عن جزء كبير من هذه الرسوم على جدران «بومبي» وروما في سلسلة مناظر تعرَّف عليها بعض العلماء على أنها للفرعون «بوكاريس».

وقصة النزاع بين الأمين تذكرنا بطبيعة الحال بقصة سليمان وحكمه بين الأُمَّين في أمر طفل.[٩]

على أنه من جهة أخرى نجد تقاليد غير ما ذكرنا تمثل «بوكاويس» في صورة لا تشرفه، فقد مثل في صورة ملك دنس كافر؛[١٠] إذ قيل عنه أنه فكر في رغبة دنسة تنحصر في قيام مناطحة بين ثور عادي وبين الثور «منفيس» الذي كان يقدس في عين شمس،[١١] وقد غضب الآلهة بطبيعة الحال من إتيانهم مثل هذا العمل، وقيل إنهم وجدوا على حين غفلة خروفًا صغيرًا يمشي على ثماني أرجل ينطق متنبئًا بأن الوجه القبلي والوجه البحري سيلحقهما الخزي فيحكمهما أجنبي.[١٢]

ومن المحتمل أن «شبكا» كان مشتركًا مع «بيعنخي» في حكم مصر حوالي عام ٧١٥ق.م ثم تولى الحكم بعده مباشرة، وتدلنا الآثار الآشورية على أنه أول ملك اشتبك مع الآشوريين في حرب مباشرة، كما سنفصل ذلك فيما بعد في فصل خاص يبحث في تاريخ الآشوريين وفتحهم لمصر.

---

[١] راجع: Diodorus I, P. 79, Translated by G. H. Oldfather.

[٢] راجع: The Passing of Empires (Maspero) P. 244, Note. 6.

[٣] راجع: Diodorus Sicules I, 65, & 94, Translated by G. H. Oldfather.

[٤] راجع: Alexis, Frag. 3 in Muller-Didot. Fragments Historicum Graecorum Vol. IV. P. 299.

[٥] هذا الثعبان هو الصِّلُّ الذي يوضع في تاج الفرعون.

[٦] راجع: Plutarch on False Shame § 3.

[٧] راجع: Glement of Alexandira Stromateis IV, 18.

[٨] راجع: Atheneus Deipnosophistae, p. 677.

[٩] راجع: Maspero, The Passing of Empires P. 245-6 Note 2.

[١٠] راجع: Diodorus Seculus I, 65, 94.

[١١] راجع: Aelian, Hist. Animal XI, II.

[١٢] راجع: Ibid XII, 3.

الملك «شبتاكا»

٧٠١–٦٩٠ق.م

دد كاو رع	شبتاكا

لم نعرف على وجه التأكيد إذا كان «شبتاكا» الذي خلف الملك «شبكا» قد حكم اثنتي عشرة سنة أو أربع عشرة سنة؛ وذلك لتضارب المصادر المنقولة عن مانيتون.[١]

«وشبتاكا» هذا هو ابن الملك «بيعنخي» ووالد الملك «تانوت آمون» الذي تولى عرش الملك بعد «تهرقا»، وقد ذكر لنا «تهرقا» أخو «شبتاكا» أنه ذهب إلى مصر وهو في سن العشرين لينضم إلى أخيه «شبتاكا» في طيبة، ويقال إنه اشترك معه في الملك كما سنرى بعد، وقد ترك لنا «شبتاكا» بعض آثار له في جهات متفرقة في وادي النيل نتحدث عنها فيما يأتي:

(١) لم يترك لنا «شبتاكا» أثرًا مؤرخًا من عهده إلا مقياس النيل الذي دونه على مرسى الكرنك، وقد أرخ «بالسنة الثالثة» الشهر الأول من الفصل الثالث اليوم الخامس من الشهر في عهد جلالة الملك «شبتاكا»، وعندما تولى جلالته بوصفه ملكًا في معبد «آمون» منحه البهاء في ظهوره باعتباره محبوب الإلهتين مثل «حور» على عرش «رع» والفيضان الذي منحه والده آمون العظيم «حعبي» عظيم، العظيم في فيضاناته، أعطاه إياه في زمنه، هو عشرون ذراعًا وشبران (راجع Br. A. R. VI, § 887) ويعترف «بتري» بأن «شبتاكا» حكم اثنتي عشرة سنة،[٢] غير أنه يظن أن «شبتاكا» ينبغي أن يكون قد امتطى عرش الملك وهو في العشرين من عمره تقريبًا، ومات بعد أن جاوز الثلاثين بقليل، هذا؛ ويجعل مكان حكمه في مصر الوسطى والوجه البحري، غير أن هذه النظرية لا تتفق كثيرًا مع ما نعرفه عن آثاره، فقد أقام «شبتاكا» آثارًا في طيبة، ويظن الأثري «بدج»[٣] أن أحد المعابد الصغيرة المخربة الآن في جبل «برقل» كان من عمله، وهذا ليس ببعيد قط، وبخاصة بعدما كشف عن قبره في جبانة «الكورو»، وهذا الرأي الذي عبر عنه «بدج» يخالف ما ذكره

الأثري «جوتييه»؛ إذ اعتقد أن رأي «بدج» مجرد نظرية؛ لأن هذا الملك لم يوجد له أية آثار في بلاد النوبة أو السودان،[٤] والواقع أنه قد وُجد له بعض آثار في الحفائر التي عملت في صنم (A.A.A, 10; (1923) PI. 43 (1 et 6) cf. p. 113).

(٢) ويوجد لهذا الفرعون مقصورة محفوظة الآن بمتحف برلين وكانت من قبل مقامة بمعبد الكرنك بالقرب من البحيرة المقدسة،[٥] والظاهر أن هذه المقصورة كانت قد أقيمت على بقايا مقصورة «لرعمسيس الثالث»، وتحتوي على معظم ما كان معروفًا عن هذا الملك.

(٣) ويوجد له تمثال بدون رأس مثله جالسًا عُثر عليه في «منف» في معبد الإله «بتاح»، وهو محفوظ بالمتحف المصري،[٦] وقد أخطأ «مسبرو» في نسبة هذا التمثال لكل من «شبتاكا» «وتهرقا».

وقد قيل إن هذا التمثال فيه ملامح من تماثيل الملك خفرع مما أوحى بأنه من تماثيل هذا الملك الأخير، وأنه أصلح من جانبي العرش، غير أن البحث قد أثبت عكس ذلك؛ لأن أمثال هذا التمثال المنسوب لخفرع يعد رأيًا خاطئًا، ومن جهة أخرى فإن تقليد تماثيل خفرع يعد من الأمور التي تثبت أن عصر النهضة في الفن وغيره أخذ يتطور منذ الأسرة الخامسة والعشرين، ثم بلغ قمته في عهد الأسرة السادسة والعشرين.

(٤) ويوجد في الكرنك منظر نحته «شبتاكا» على واجهة معبد «أوزير» مثل فيه وهو يتسلم السيف من الإله «آمون».[٧]

(٥) وفي المتحف البريطاني يوجد محراب صغير من البرنز للإله «آمون رع» عليه اسم هذا الفرعون.[٨]

(٦) نفش اسمه على قطعة من إناء من الحجر الجيري محفوظة بمجموعة «بتري».[٩] هذا؛ وقد وجد له عدة جعارين وتعاويذ في جهات مختلفة نقش عليها اسمه.[١٠]

وفي متحف الخرطوم توجد قطعة من الخزف المطلي عليها طغراء هذا الفرعون.[١١]

مقبرة «شبتاكا»: دفن «شبتاكا» في المقبرة رقم ١٨ بجبانة الكورو.[١٢]

ويحتمل أن البناء الذي أقيم فوق قبره كان هرمي الشكل وبُني بالحجر الرملي، ولم يبقَ إلا الخندق الدال على مكان البناء، وتدل الظواهر كذلك على أن السور الذي كان حول القبر قد بُني من الحجر الرملي أيضًا، وقد وجد الخندق الدال عليه، كما وجدت بعض قطع من المباني في الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية، وشكل المباني كان بسيطًا، ومزار القبر قد هدم تمامًا، ولم يُعثر على ودائع أساس لهذا الملك.

أما الجزء السفلي من المقبرة؛ أي المبني تحت الأرض، فيصل إليه الإنسان بوساطة سلم ينحدر أولًا تسع درجات إلى الجنوب، ثم يلتفت إلى الغرب وينحدر ثماني عشرة درجة أخرى، ويدل تحول السلم هذا على أن المقبرة رقم ٨ التي أقيمت قبل هذا القبر كانت قد أعاقت انحدار السلم في خط مستقيم، وينتهي هذا السلم بباب أعلاه مستدير ويحتوي القبر نفسه على حجرتين:[١٣]

الأولى مساحتها ٦ × ٣ من الأمتار، أما الأخرى وهي أقل من الأولى انخفاضًا فمساحتها ٦٫٤٠ × ٥٫١٠ من الأمتار وقد نصب في وسطها تابوت.

ولم يوجد في حجرة الدفن أي أثاث جنازي، وتدل حالتها على أنها كانت قد استعملت كرَّة أخرى للدفن في عهد متأخر.

ووُجدت في حجرتي الدفن قطع كثيرة من العاج المحفور، منها قطع تصور منظر لوبيين وزنوج أسرى وبلاد مقهورة، وهذه القطع تشبه التي وُجدت في مقبرة «الكورو» رقم ١٥؛ أي مقبرة «شبكا» كما وجدت قطع من مناظر موكب كالتي وجدت في مقبرة «شبكا» أيضًا، هذا إلى قطع أخرى منوعة نقش عليها اسم «شبتاكا» الحوري وطغراؤه.[١٤]

ووجد له كذلك تماثيل مجيبة كالتي وجدت «لشبكا».

وأهم شيء وجد في قبر «شبتاكا» هو قطع جمجمته، ولكنها كانت هشة للغاية عندما سلمت للفحص، ومع ذلك فإنه لحسن الحظ قد أمكن جمع كل هذه القطع الصغيرة بعناية فائقة أسفرت عن إعادة تركيب الجمجمة وأخذ مقاييس لها، والواقع أنها كانت صغيرة ولم تكن ذات تفاصيل عضلية بارزة، وكان من المحتمل أن يشك الإنسان في سلالتها إذا لم يكن لدينا أدلة على شخصية صاحبها.

هذا مجمل ما عُثر عليه لهذا الملك من آثار في مصر وبلاد «كوش»، وكما هو ظاهر لا نعرف منها عن قيام أية حروب وقعت بينه وبين بلاد «آشور» التي كانت قد بدأت توجه مطامعها بنوع خاص نحو البلاد الواقعة في غربي ممتلكاتها، وأعني بذلك البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط في آسيا ثم إلى مصر في أفريقيا.

وسنرى بعد من النقوش الآشورية أنه كلف «تهرقا» ابن أخيه بالقيام بحملة على الآشوريين لطردهم من حدود مصر وما جاورها من البلدان، ومن الغريب أنه ليس لدينا مصدر واحد يدل على قيام حرب بين مصر وبلاد آشور في الآثار المصرية التي وصلت إلينا حتى الآن، ولعل سبب ذلك أن ملوك مصر لم يوفقوا في هذه الحروب، وأن النصر كان عدوًّا لهم في كل أطوارها، ولذلك لم يكن من ديدنهم أن يدونوا وصف أية حروب كانت الغلبة فيها عليهم.

- **قبور جياد «شبتاكا»: القبر الأول**[١٥]: هذا القبر مستطيل الشكل بعيد الغور، وليس فيه سنادات داخلية كما في مقابر الجياد الأخرى، وقد وجد هيكل الجواد سليمًا تقريبًا ولا ينقصه إلا الرأس[١٦] والأشياء التي كانت معه وجدت عند نهاية الرأس،[١٧] وقد وجد معه على أقل تقدير خمس قلائد أو عقود، الأولى منها تحتوي على أربع عشرة طغراءات للملك «شبتاكا» نقش عليها بالتوالي لقبا الملك وهما: «زد-كاو-رع» «من خبر رع». والثانية قلادة من الخزف مؤلفة من تعاويذ تمثل العين السليمة «وزا» وأصداف محار في موضعها الأصلي.[١٨] والقلادة الثالثة تتألف من ثمان وعشرين زهرة مصنوعة من الخزف الأزرق مدلاة بين مجاميع مؤلفة من حلقات من الخرز في موضعها الأصلي.[١٩] والقلادة الرابعة تتألف من ست وثلاثين عينًا سليمة «وزا» من الخزف الأزرق، ومعها كرة من الخزف المطلي محلاة بنقط ودوائر في كل طرف منها، وقد وجدت بنظامها الأصلي.[٢٠]

هذا؛ وقد وجدت كمية كبيرة من خرز خزفي في هيئة حلقات موضوعة على الأرض تظهر كأنها شبكة من الخرز.[٢١]

ووجدت كذلك عين سليمة من الفضة المذهبة مفرغة وقطع من شريط طوق من الفضة له ثقوب على إحدى حافتيه لربط الشبكة،[٢٢] وكذلك كرتان من الخرز الأزرق نظم معهما على التوالي العين السلمية وعلامة الحياة باللون الأسود، هذا بالإضافة إلى كرات من الخرز المصنوعة من الذهب المفرغ والخزف المطلي.[٢٣]

وأخيرًا وجدت قلادة مؤلفة من اثنتي عشرة كرة من البرنز كانت منظومة في الأصل على مسافات في خيط سميك،[٢٤] وكذلك كرتان من الخرز الأزرق محلاتان على التوالي بالعين السليمة وعلامة الحياة باللون الأسود،[٢٥] يضاف إلى ذلك كرات من الخزف الخرز من الذهب المفرغ والخزف المطلي.[٢٦]

- **مدفن لجواد ثانٍ للملك «شبتاكا»**[٢٧]**:** قبر هذا الجواد يشبه قبر الجواد السابق،[٢٨] وقد وجد جسمه في مكانه الأصلي كما في القبر السابق.[٢٩]

والأشياء التي وجدت معه هي:

سمط منظوم من الأعين السليمة المصنوعة من الخزف الأزرق كالتي في القبر السابق،[٣٠] وكذلك سمط من العيون السليمة المصنوعة من الخزف الأزرق والمحار كما في القبر السابق، وكمية كبيرة من حلقات الخرز كما في القبر السابق أيضًا، وهكذا نجد تشابهًا عظيمًا بين محتويات هذين القبرين.

- **مدفن لجواد ثالث للملك «شبتاكا»**[٣١]**:** قبر هذا الجواد يشبه القبر رقم ٢٠٩ من كل الوجوه تقريبًا، هذا إلى سمط نظم من الطغراءات المصنوعة من الخزف نقش عليها اسم هذا الملك.

مدفن لجواد رابع للملك «شبتاكا»: يشبه هذا القبر في شكله ومحتوياته القبر ٢٠٩.[٣٢]

---

[١] راجع: Ungar, Chronologie des Manetho, p. 246.

[٢] راجع: Petrie, History of Egypt, Vol, III, p. 287.

[٣] راجع: Budge, The Egyptian Sudan Vol. II, p. 33.

[٤] راجع: Gauthier, L. R. III P. 2 8 note 5.

[٥] راجع: L. D, V, a-b, a-c = L.D. Texte, III, p. 40–42.

[٦] راجع: Mariette, Monuments Divers, Pl. 29 e, 1, 2, et 3; Maspero, Guide Ed. 1912, P. 172 no. 678.

[٧] راجع: Rec. Trav. XXII, p. 125.

[٨] راجع: Brit. Mus. Guide to the 3rd & 4th Egyptian Rooms (1904) P. 160; The Egyptian Sudan II, p. 32.

[٩] راجع: Petrie, Ibid P. 287.

[١٠] راجع: L. R. III. P. 30.

[١١] راجع: Macadam, Kawa I, Pl. 35 (XXX) P. 87, ii, Pl. G ii (b) no 4 27. Khartum Mus. n. 2749.

[١٢] راجع: El Kurru, No. 18, (48). Fig. 23 a Pl. XXIII A.

[١٣] راجع: El, Kurru, Pl. XXIII, A-B.

[١٤] راجع: El Kurru, P. 69.

[١٥] راجع: El Kurru, P. 113, No. 209 (4) Fig. 39.

[١٦] راجع: Ibid, Pl. XXVIII B.

[١٧] راجع: Ibid, Pl. XXVIII e-d.

[١٨] راجع: El Kurru, Pl. LXVIII A 2.

[١٩] راجع: Ibid, LXVIII. B. 1.

[٢٠] راجع: Ibid, Pl. IXVIII. A. 3.

[٢١] راجع: Ibid, LXVIII. B. 2.

[٢٢] راجع: Ibid, Pl. LXVIII. B. 6.

[٢٣] راجع: Ibid, Pl. LXXI. E.

[٢٤] راجع: Ibid, Pl. LXVIII. A, 1.

[٢٥] راجع: Ibid, Pl. LXXVIII b, 4/1-2.

[٢٦] راجع: Ibid, Pl. LXVIII 3/1-2, 5/1-2.

[٢٧] راجع: El Kurru, 210 (4).

[٢٨] راجع: Ibid, No. 209.

[٢٩] راجع: Ibid, Pl. XXIX–A.

[٣٠] راجع: El Kurru, 209.

[٣١] راجع: El Kurru, 211 (4).

[٣٢] راجع: Ibid, Pl. XXIX, LXIX A, 2, LXIX A. 4, Pl. XXIXD, PlLXIX. A. 3, XXIXD Pl. LXIX A 1, Pl. XXIX c-d.

الملك «تهرقا»

٦٩٠–٦٦٤ق.م

نفر-تم خو رع	تهرقا

(١) مقدمة

لم تحدثنا النقوش بشيء من التفصيل عن موت الملك «شبتاكا» بل جاء ذكر موته عرضًا في إحدى الوثائق التي تركها لنا خلفه «تهرقا»، وتدل ظواهر الأحوال على أن «تهرقا» كان وقت أن طار الصقر إلى السماء في أرض الكنانة.

ومن الجائز جدًّا أن الاتفاق كان تامًّا على أن يخلفه «تهرقا» على عرش مصر وكوش إذا أخذنا بنظرية الأثري «مكادم» وصدقنا ما رواه «تهرقا» لنا عن حب «شبتاكا» له أكثر من إخوته وأولاده، ولا نزاع في أن «تهرقا» من أعظم ملوك الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية، وقد جاء ذكر اسمه في التوراة بلفظة «ترهاقة»، وقد سماه الإغريق تاركوس ταρκος وجعلوا منه فاتحًا عظيمًا كما سنرى بعد.

وقد اختلفت الروايات التي نُقلت عن «مانيتون»[١] حول مدة حكمه، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه حكم ثماني عشرة سنة، وجاء في مصدر آخر أنه حكم عشرين سنة، أما الآثار الباقية لنا من عهده فترفع مدة حكمه على أقل تقدير إلى أكثر من ست وعشرين سنة.[٢]

ويعتقد بعض المؤرخين الأحداث أن «تهرقا» كان مشتركًا مع الملك «شبتاكا» في حكم بلاد وادي النيل، وأنه ظل يحكم معه مدة خمس سنين ثم انفرد بعد وفاته مباشرة بالحكم، غير أنه لم يأتِ ذكر ذلك في النقوش التي في متناولنا عن هذا العهد صراحة، ولذلك فإن البت في هذا الموضوع لا يزال يحتاج إلى ما يدعمه بصورة قاطعة، وسنفصل القول في ذلك فيما بعد.

والواقع أن كل ما نعرفه عن هذا الاشتراك في الحكم ينحصر في أن «تهرقا» قد ظل في مصر حوالي ستة أعوام بجوار «شبتاكا» وبعد ذلك أُعلن ملكًا على البلاد، وقد كان عند

وفوده على مصر من «نباتا» مع إخوته في العشرين من عمره.

وعهد «تهرقا» كان مليئًا بالأحداث الجسام في داخل البلاد وخارجها، فإصلاحاته ومبانيه في مصر وبلاد «كوش» تشهد له بأنه كان من أمجد الملوك الذين خلدوا ذكراهم في وادي النيل، هذا؛ وقد ترك لنا وثائق عدة تشهد له بالفوقان في هذا المضمار، وأنه لا يقل عن أعاظم ملوك مصر في عز سطوتها وسلطانها.

أما عن سياسته الخارجية وما قامت بينه وبين ملوك دولة آشور المترامية الأطراف وقتئذٍ من حروب، فقد سكت عنها سكوتًا تامًّا، ولكن لحسن الحظ أسعفتنا الوثائق الآشورية ببعض الأخبار.

وعلى الرغم من أن الأخيرة لم تشفِ غُلَّة إلا أنها أوضحت الموقف بعض الشيء، ولا غرابة في ذلك؛ فإن فراعنة مصر طوال تاريخهم قاطبة قد أغفلوا الحوادث التي يشتم منها رائحة هزيمتهم، ولعمري تلك سليقة نعرفها ونلمحها في دول الشرق القديم عامة، فكلها تغفل الهزائم وتتحدث عن الانتصارات وحسب.

فنرى هنا أن ملوك آشور الأقوياء قد تحدثوا لنا عن الحروب التي شنوها على مصر بعد سيطرتهم على كل بلاد شاطئ البحر الأبيض المتوسط في سوريا وفلسطين وفينيقيا وما جاورها، وقد كانت نتيجة هذه الحروب أن خضعت مصر مدة من الزمان للحكم الآشوري، ومع كل ذلك فإن الغموض يحيط بأيام «تهرقا» الأخيرة لقلة المصادر المصرية.

وسنحاول هنا أولًا أن نستعرض آثار الملك «تهرقا» على ضوء الكشوف الحديثة التي ظهرت في شقي الوادي، ثم نستخلص منها بقدر المستطاع ما يمكن من حقائق تاريخية خاصة بهذه الأسرة الكوشية وعلاقتها بمصر من الوجهة السياسية والدينية والاجتماعية.

أما العلاقات الخارجية فسنفرد لها فصلًا خاصًّا نستعرض فيه بشيء من الاختصار تاريخ بلاد «آشور» وما كان لها من سلطان في عهد الأسرة الخامسة والعشرين، ثم نتناول علاقتها مع دويلات شرق البحر الأبيض المتوسط بشيء من التفصيل بقدر ما تسعفنا به الوثائق الأصلية الآشورية، وبخاصة منذ أن أخذت آشور تحول أنظارها للاستيلاء على هذه الأقاليم الواقعة غربي حدودها.

(٢) أعمال «تهرقا» في بلاد «كوش» ومصر

لا يزال جوف بلاد وادي النيل مليئًا بالآثار التي تطالعنا بها الكشوف كلما ضرب الحفار الأرض بمعوله، ولسنا مبالغين إذا قلنا إن ما كُشف عنه من آثار هو عشر معشار ما هو دفين في بطن الأرض، وبلاد «كوش» لا تزال فيها أماكن بِكر تنتظر الكشف عنها لتنير لنا الطريق

المظلم الذي نتخبط في ديجوره عند التحدث عن تاريخ هذه البلاد، ومن أهم المواقع التي كُشف عنها حديثًا الموقع الذي تقوم على أنقاضه قرية «الكوة» الحديثة، والواقع أن ما عُثر عليه فيها من آثار يقدم لنا صفحة مجيدة عن تاريخ الملك «تهرقا» بما أصلحه فيها من معابد وما أقامه هو بنفسه من مبانٍ دينية فاخرة، وقد ظل الملوك الذين أتوا بعده يرعون هذه الآثار ويضيفون إليها مباني خاصة بهم، حتى أصبحت مباني تلك البقعة بمثابة سجل دون عليه كثير من ملوك السودان أسماءهم ومفاخرهم.

من ذلك لا نكون قد تجاوزنا موضوعنا إذا رسمنا هنا للقارئ صورة عن تاريخ هذه البلدة الغنية بآثارها من أول أمرها بقدر ما وصلت إليه معلوماتنا إلى أن دمرت، وبخاصة أن «تهرقا» كان يعد أكبر ملك قام فيها بإصلاحات وأنشأ بها معبدًا يعد من أفخر المعابد التي أقيمت على ضفاف وادي النيل في تلك الفترة من تاريخ الفراعنة.

(٢-١) موقع «الكوة»

لما كان موقع قرية «الكوة» الحالية في الأزمان القديمة يحتل مكانة هامة في التاريخ المصري الكوشي بسبب ما جدَّ فيه من بقايا آثار ضخمة؛ فقد آثرنا أن نورد هنا لمحة عن التقلبات والأحداث التي مرت بهذه البقعة، وبخاصة قبل عهد «تهرقا» وفي زمنه وزمن أخلافه من ملوك دولة «نباتا» الأولى وما بعدها، بقدر ما تسمح به معلوماتنا الحالية (انظر خريطة ٥).

ويدل ما لدينا من معلومات حتى الآن على أن أقدم إشارة جاء فيها ذكر «الكوة» في الأزمان الحديثة ما ورد في كتاب «السودان الإنجليزي المصري»[٣] حيث يقول المؤلف: «على مسافه ستة أو سبعة أميال جنوبي «دنقلة» يوجد على الضفة اليمنى للنيل معبد مصري صغير عند مكان يدعى «الكوة»، وهو في حالة حفظ جيدة ولكن تاريخه مجهول، وقد عثر عليه وحفره جزئيًّا الكولونيل «كولبورن» سنة (١٨٨٥) ميلادية.»

وقرية «الكوة» تقع على الشاطئ الشرقي للنيل على مسافة ـ ميل جنوبي «دنقلة» (الجديدة)، وهي تتألف من ثلاثة أو أربعة مبانٍ مقامة باللبنات، وهي الآن تعتبر جزئيًّا مهجورة وفي حالة خربة، وبها عدد قليل من النخيل، ويُلحظ هنا أن شاطئ النيل في هذه البقعة منحدر، ولكنه في العادة مدرج بدرجات ضيقة صالحة للزراعة، ويشاهد أن شجر السنط ينمو فيه على مسافات متقاربة، ولكن الصحراء الرملية تمتد من هذه البقعة على مسافة بضعة أميال شرقًا إلى المنخفض المعروف باسم حوض «كرمة» وهو الذي يُغمر بمياه النيل سنويًّا، ثم تمتد إلى النيل ثانية عند الجزء الشمالي للمنحنى العظيم الواقع بين الشلالين الخامس والرابع، ومن ثم إلى تلال البحر الأحمر النائية، وتوجد خلف «الكوة» لمسافة حوالي ميل جنوبًا قطع فخار ودمن مساكن، وفي النهاية الجنوبية توجد أكوام مرتفعة مؤلفة من جدران من اللبنات الساذجة، هذا بالإضافة إلى بوابتين من الحجر، ومما له

أهمية هنا أنه توجد تحت طبقة الرمل طبقة غرين أسود تذهب إلى عمق كبير في جوف الأرض.

ولا نزاع في أن قرية «الكوة» هذه هي بقايا مدينة عظيمة كانت تقوم على الشاطئ الشرقي للنيل في الأزمان القديمة، وكانت تمدها بالخيرات المزارع التي كانت تحيط بها من جهاتها الثلاث، وتاريخ «الكوة» ومعابدها بعد الحفر الذي قام به الكولونيل كولبورن محزن؛ وذلك لأن السباخين قد استمروا في تخريب هذا الموقع ونهبه، هذا إلى أن بعض الضباط كانوا أحيانًا في أوقات فراغهم يبحثون فيه عن الكنوز الأثرية، والظاهر أن المعبد المعروف بحرف (أ) A كان يجذب إليه الأنظار لما فيه من آثار، فقد قام فيه الكولونيل «هوث جاكسون» بحفريات ضيقة النطاق أسفرت عن نتائج مغرية، لدرجة أنه لما قامت الحفائر العلمية فيه فيما بعد ثم زار الموقع دهش كثيرًا عندما رأى أن الجدران المقامة من اللبنات التي كشف عنها هو قد ذهبت عنها المناظر الملونة التي كانت مرسومة عليها عندما كشف عنها لأول مرة، وقد وصلت بعض التحف الصغيرة والكبيرة إلى مجموعة القائد «جاكسون» في «مروي» من بينها تمثال بدون رأس للإله «بتاح» على ظهره نقش: إهداء لبتاح[٤] رب «جمأتون»، وقد قال عنه هذا القائد إنه جاء به من «الكوة»، أما التحف الصغيرة التي كشف عنها هناك فقد أخذها «كتشنر» سنة (١٩١٣)، وقد وُضعت التحف الكبيرة في متحف «مروي» الحكومي.

وعلى الرغم من صدور الأوامر المشددة بالمحافظة على جدران هذا المعبد فإن الأحجار المنحوتة فيه قد نُهبت على مر السنين لتُستعمل في المباني الحديثة، وقد ترك الأهالي أحجار العمد المستديرة؛ لأنها لم تكن ذات فائدة لهم في مبانيهم.

وفي أواخر عام (١٩٢٨) أمضى المستر «أديسون» أمين الآثار السودانية بضع ساعات في حفر معبد «تهرقا» بنجاح منقطع النظير، وقد رسم جزءًا من تصميمه وتعرف على اسم بانيه واسم الإله «آمون» واسم المدينة «جمأتون»، وهي التي قامت على أنقاضها «الكوة» الحالية.

وفي الشتاء التالي عُملت حفائر تمهيدية لمدة تسعة أيام أسفرت عن نتائج مشجعة، فقد كُشف أولًا عن عمود في المكان الذي سمي فيما بعد معبد (أ) = A ونُقش عليه طغراءات الملكين «رعمسيس الثاني» «ورعمسيس السادس» هذا بالإضافة إلى أشياء أخرى.

وبعد ذلك اتخذت الاستعدادات للعام التالي (١٩٣٠-١٩٣١)، وقد أسفرت أعمال الحفر في موسم هذا العام عن كشف معبد آخر أطلق عليه معبد (ب) = B محاذيًا لمعبد (أ) A، ولكنه من عصر متأخر عن سابقه.

وبعد ذلك عُمل مجس طويل كشف عن واجهتي المعبدين، وبعد الانتهاء من ذلك نظفت قاعة العمد وقدس الأقداس للمعبد (أ) A وما يحيط به من حجرات، وفي هذه الأماكن عُثر على آثار ثمينة محفوظة.

وبعد ذلك كُشف عن مبانٍ واقعة في الجهة الشرقية من معبد «تهرقا» غير أنها ترجع إلى العصرين المروي والروماني، وقد أُطلق عليها مؤقتًا القصر الشرقي، ومن ثم أخذت الكشوف تترى حتى انتهت أعمال الحفر في شهر مارس.

وقبل أن نتحدث عن تاريخ معبدي «الكوة» وما أقيم فيها من مبانٍ في عهود مختلفة يجدر بنا أن نذكر كلمة عن آخر نقطة وصلت إليها الفتوح المصرية في أعلى النيل في الأزمان الغابرة؛ لنربط حوادث التاريخ بعضها ببعض في تلك البقعة من وادي النيل.

والمعلوم الآن أن الشلال الرابع وما في اجتيازه من مخاطر قد وضع حدًّا لأطماع الفاتحين المصريين القدامى، على أن أي شك قد يحوم حول هذا الرأي قد يعضده ما فاجأ به الدكتور «ريزنر» علماء الآثار عندما كشف عن قلعة يرجع تاريخها إلى الأسرة السادسة عند «كرمة» الواقعة خلف الشلال الثالث، وعلى ذلك فإنه من المحتمل أن نفاجأ بشيء آخر من هذا النوع خلف الشلال الرابع، مما يدل على أن المصريين قد تخطوا في فتوحهم هذه النقطة، والواقع أنه في الأزمان القديمة كانت طريقة الارتياد العادية لأعالي النيل هي السياحة بالقوارب، ولكن قبل عمل السكة الحديدية في السودان كان المتبع منذ قرون مضت هو أن يترك الإنسان ركوب متن النيل عند «كرسكو» ويخترق الصحراء إلى أن يلتقي بالنيل ثانية عند بلدة «أبو حمد»، وبذلك كان المسافر يتفادى انحناء عظيمًا غريبًا في النيل تعترضه شلالات صعبة وصخور وعرة ومنخفضات رملية وتيارات معاكسة ورياح شديدة، ولكن الصحراء كانت من جهة أخرى هنا قاحلة لا ماء فيها قط، وعلى ذلك فإن السير في طريق «كرسكو» كان يستغرق أسبوعين دون انقطاع، وعلى أية حال فإن هذه الطريق كانت تتخطى الشلال الثالث، وإذا كانت هذه الطريق تجتاز في الأزمان الحديثة بسهولة نسبيًّا فإنه من الجائز جدًّا أنها كانت مطروقة في عهد قدماء المصريين، ومن المحتمل جدًّا أنها كانت في عهدهم أقل جدبًا عما هي عليه الآن.

والظاهر أنه لدينا برهانان على أن طريق «كرسكو» كان مستعملًا في عهد قدماء المصريين، غير أنهما ليسا مؤكدين تمامًا، فقد ذكر مستر «أديسون» أنه رأى طغراء فرعون غير واضح المعالم منقوشًا على صخرة على مقربة من السكة الحديدية، وعلى مسافة قريبة من بلدة «أبو حمد»، غير أنه على الرغم من وجود هذه الطغراء فإنه من الجائز ألا تكون لملك مصري، بل من المحتمل أن تكون لملك «كوشي» أو «مروي»، هذا ونجد من هذا الصنف من الطغراءات أمثلة فيما وراء «أبو حمد».

والبرهان الثاني هو أنه يوجد في النهاية الشمالية للطريق نقش مصري قديم، وذلك أنه في عام (١٨٧٥) ميلادية نقل صديق للأثري العظيم «هنري بركش» نقشًا من صخرة تقع في البقعة التي يبدأ فيها الطريق الصحراوي عند «كرسكو»، وهذا النقش مؤرخ بالسنة التاسعة والعشرين من عهد الملك «أمنمحات الأول» مؤسس الأسرة الثانية عشرة، والظاهر أن هذا الملك كان قد نقشه وهو في طريقه إلى فتح بلاد كوش، ومما يؤسف له جد الأسف أن هذا النقش لم يعثر عليه ثانية لدرجة أن الإنسان أصبح يشك في وجوده فعلًا،[٥] ولكن يمكن

الإنسان أن يستخلص منه ومن تاريخ أمنمحات الذي جاء بعد ذلك أنه أخفق في فتح «كوش» لاختياره طريق الصحراء، ومن المحتمل أنه قد لقي حتفه في[٦] هذه الصحراء القاحلة في حين أن ابنه «سنوسرت الأول» قد أصاب نجاحًا عظيمًا في حملة قام بها في أعالي النهر.

والرأي المتبع الآن أن الشلال الرابع يعتبر نهاية امتداد الإمبراطورية المصرية في الجنوب؛ إذ تقع قبل الشلال الرابع تقريبًا القلعة والمعبد والمدينة المعروفة باسم «نباتا».

وتدل الوثائق التي في متناولنا على أن وجود هذه المؤسسة يرجع إلى عهد «تحتمس الثالث» الذي وُجد له لوحة هناك كشف عنها الدكتور «ريزنر».[٧]

ولكن لا يوجد لدينا البراهين التي نستطيع بها إثبات عدم قيام هذه المؤسسة قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة، والواقع أنه يوجد في إقليم «نباتا» بين الأحجار المنقوشة المبنية في الجدار الشمالي لسور القصر الخاص بمدينة «مروي» القديمة «وهي التي كان يسكنها الحكام الأتراك في خلال الحكم المصري قبل عهد المهدي» حجر مذكور عليه «مقر أمنمحات».

والظاهر أن هذا الاسم غير اسم الجدار الموجود في «كرمة»، وليس من المؤكد قط أن مقر «أمنمحات» هذا كان تابعًا للمكان المجاور له، ولكن على أية حال يوحي بفكرة قد تشجع الرواد في المستقبل على المضي في الكشف عن أشياء جديدة تنير السبيل في هذا الصدد، وعلى أية حال فإنه خلافًا لما ذكرنا بالإضافة إلى بعض جعارين فإنا لم نصادف نقوشًا للأسرة الثانية عشرة خلف بلدة «كرمة» وجزيرة «أرقو» حيث ترك «سنوسرت الأول» مائدة قربان محفوظة الآن بمتحف «مروي».

وعندما نلتفت إلى «الكوة» الواقعة على مسافة عشرين ميلًا جنوبي «أرقو» فإنا نتساءل هل كان يحتلها المصريون قبل عهد الدولة الحديثة الزاهر؟

والواقع أنه وجدت في الصحراء عند «صنم»[٨] «ووادي أبو دوم» آلات خشنة من الحجر يرجع تاريخ بعضها إلى العصور الحجرية المتأخرة.

وكذلك عثر على عينات من الظِّرَّان في وادي التي ولاجيا أرمان وتؤرخ كذلك بهذا العصر، وهذه هي أقدم ما صنعه الإنسان وكشف عنه حتى الآن في مركز دنقلة، أما حوالي «الكوة» فلم يوجد شيء من هذا القبيل، ولكن وجدت في معبد الملك «تهرقا» بين الأشياء المهداة للإله «آمون» أنواع هامة من الآلات التي من عهد ما قبل التاريخ أو أوائل العصر التاريخي تشبه التي وجدت في المقابر المصرية، ومن الجائز أن هذه كانت خاصة بمؤسسة بدائية لمستعمرين مصريين في «الكوة».

وأقدم أثر منقوش كُشف عنه في «الكوة» هو تمثال صغير من الأردواز عثر عليه بين الأشياء التي تركها اللصوص في الحجرات المبنية من اللبنات الواقعة في الجانب الشرقي لمحراب

«توت عنخ آمون» في المعبد (أ) A، ويمثل هذا التمثال رجلًا يدعى «سنو» ويلقب «المشرف على مائدة الملك» وهو لقب خاص بالدولة الوسطى. وقد يجسر الإنسان على الجهر بالقول إن هذا التمثال يحملنا على القول صراحة أن مؤسسة «الكوة» ترجع تاريخها بوصفها مؤسسة مصرية إلى ما قبل الدولة الحديثة.

أما النقش المؤرخ الذي وجد بعد السابق فهو قطعة من قاعدة من الجرانيت وربما كانت لكبش عُثر عليها أمام البرج الشمالي لبوابة المعبد T وعليها طغراء الملك «أمنحتب الثالث»، ومثل هذه الآثار نجد منها تسعة بين كل عشرة للملك «أمنحتب الثالث»، ويؤكد هذا الزعم إلى حد ما العثور على طغراء «أمنحتب الثالث» على جعران يُظن أنه كان ضمن ودائع أساس المعبد (ب) B.

ويخيل إليَّ أن مجرى التاريخ هنا كان كالآتي: بعد أن تقدم «تحتمس الثالث» بحدود الإمبراطورية إلى التخوم القديمة عند الشلال الرابع، وعندما جاء «أمنحتب الثالث» بعد ذلك بجيلين من الناس وجد مستعمرة مصرية قديمة مخربة ومهجورة، ومن ثم أخذ في تأسيسها من جديد فأقام معبدًا صغيرًا للإله آمون صاحب «جمأتون» ولإله الشمس «آتوم» صاحب عين شمس وهو الذي جاء ذكره على جعران الأساس السالف الذكر، ومن الغريب أنه لم يوجد أي أثر منسوب لخلفه «إخناتون» ولكن من الجائز أن معبد «أمنحتب الثالث» كان قد هدم بأمر منه، وقد وجد الفرعون «توت عنخ آمون» هذا المعبد مخربًا ومهملًا فأصلح جزءًا منه في صورة محراب صغير مع أربعة أعمدة في الردهة، ونقش كل الجزء الذي أصلحه، كما زينه بالمناظر، وأهداه ثانية للإله «آمون رع» صاحب «جمأتون» «ولآتوم» والإله «حور أختي».

هذا؛ ويُلحظ أن ابن الملك «حوي» الذي كان النائب العظيم لتوت عنخ آمون في بلاد النوبة «وهو صاحب القبر الفاخر المقام في جبانة طيبة، ونقوشه تعد وثيقة أصلية يُعتمد عليها في معرفة واجبات نائب «كوش» وإدارته» لم يأتِ اسمه في نقوش «الكوة». هذا إذا لم يكن هو أمنحتب «وهو اسم ثانٍ له» الذي جاء ذكره على عمود في المعبد (أ) A، ولكن على أية حال لدينا بعض المعلومات عن الإدارة نتعرف عليها من النقوش، فيوجد أمام ردهة الأعمدة لمعبد توت عنخ آمون قطعة من الحجر نقش عليها: «مملوك حجرة التنشئة الملكية، والمشرف على الأراضي الجنوبية» وحامل المروحة على يمين الملك والمريح لآتون؟ «خعي» وهو يقدم ثورًا سمينًا، هذا ويرتكز على عارضة باب الدخول في الردهة الثانية للمعبد (أ) A لوحة أهداها كاتب المعبد في «بر رع» المسمى «تانخت»، وفضلًا عن ذلك كان يوجد في معبد «تهرقا» مجموعة من تماثيل مصنوعة من الجرانيت تمثل حامل المروحة على يمين الملك … ورئيس الأحفال «خعمواي» وقد أهدتها سيدة وجد تمثالها مع تمثاله في نفس الأثر، وقد وصفت بأنها رئيسة الحريم للملك «نب خبرو رع» «واسمها» «تمواجسي» وهي معروفة لدينا من قبل؛ إذ قد ذكرت مع نائب الملك «حوي» وموظفين آخرين في

نقوش «فرص» في بلاد النوبة السفلى، ويمكن أن نصل من لقبها وآثارها إلى أنها كانت أهم نساء عصرها في الحياة الاجتماعية والحكومية في بلاد النوبة المصرية.[٩]

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة نشاهد «رعمسيس الثاني» قد اغتصب طغراءات «توت عنخ آمون» التي على أعمدة في المعبد (أ) A ، وفي عهد الأسرة العشرين نلحظ أن موظفًا يدعى «نب ماعت رع نخت» وضع اسم «رعمسيس السادس» على نفس الأعمدة.

وكذلك وجدنا من عهد الأسرة العشرين طغراء مهشمة بعض الشيء على تمثال مجيب في مكان لم يكن منتظرًا أن يوجد فيه، وأعني في القصر الشرقي المروي، «للملك رعمسيس السابع»، على أن تفسير وجود مثل هذا التمثال المجيب لا يمكن البت فيه بصفة قاطعة، فمن الجائز مثلًا أنه نقل إلى هذا المكان كما يحدث ذلك كثيرًا في تاريخ الآثار المصرية.

(٢-٢) مختصر تاريخي لمعبد «الكوة» والمباني التي وُجدت فيها حتى الآن

إن من يطلع على تصميم المعبدين (أ) و(ب) A & B (انظر ٦) يجد أن الجزء القديم منهما وهو المعبد (أ) A يقع بالقرب من النهر بمحوره محاذيًا له، في حين أن الجزء المتأخر وهو المعبد (ب) B يقع على جانب الأخير، فنجد أن الجدار الغربي للمعبد (ب) B والجدار الشرقي للمعبد (أ) A يكادان يتماسان على الرغم من أن كلا منهما منفصل عن الآخر، ويوجد لكل من هذين المعبدين ردهتان مقامتان من اللبنات، وباباهما مكسوان بالحجر، ويؤديان إلى محراب مصنوع من الحجر.

ومما لا شك فيه أنه لا يمكن تحديد أقدم تاريخ لمعبدي «الكوة» الآن إلا بعد عمل حفائر تكميلية للتي عملت في عام (١٩٣٠-١٩٣١) ميلادية، وعلى أية حال فإنه قد أصبح من المؤكد أنه لم تكن توجد ودائع أساس لهما إلا في الجهة الشمالية الشرقية من ركن معبد (أ) A، وكل ما وجد هناك هو بعض قطع عظام.

على أن البحث لإمكان الوقوف على ودائع أساس من جهة أخرى قد أسفر عن وجود جعران كبير للملك «أمنحتب الثالث»، وقد وجد على عمق متر تحت مستوى رقعة المعبد (أ) A عند الركن الشمالي الغربي الخارجي لمحراب هذا المعبد المقام من الحجر، ويرجع تاريخه إلى العهد المروي القديم، والظاهر أنه وجدت هنا طبقتان من البلاط يفصلهما ردم، ومن ثم كان بدهيًا وجود أساس قديم تحت المعبد (ب) B، غير أنه من المشكوك فيه أن يكون هذا الجعران حقًا جزءًا من ودائع الأساس لهذا المعبد.

ومما لا يحتاج إلى دليل أن اسم «الكوة» (جم آتون = آتون مبصر) كان قد أطلق أولًا على المدينة في خلال العهد القصير الذي كانت قد بدأت فيه عبادة آتون فعلًا.

وتدل شواهد الأحوال على أن هذه العبادة قد بدأت في عهد «أمنحتب الثالث»[١٠] ثم نشطت بما أظهره «إخناتون» من غيرة على تعاليمها، ولكنها لفظت في عهد خلفه «توت عنخ آمون» عندما ضغط عليه كهنة «آمون رع» إله الدولة ولم يكن في مقدور هذا الشاب مقاومتهم.

وعندما أعيدت عبادة آمون وجدنا أن كل أثر لعبادة «آتون» في مصر قد قُضي عليها بسرعة، وكان المنتظر بطبيعة الحال أن تتبع نفس الطريقة في خارج مصر، والواقع أنه لم توجد أية قطعة حجر أو لبنة يمكن نسبتها للملك «إخناتون» في «الكوة»، ومع ذلك نجد من المدهش أن اسم المدينة «جم آتون» قد بقي على مر الأيام.

وليس ببعيد أنه كانت توجد بلدة في موقع «الكوة» قبل الفرعون «أمنحتب الثالث» كما ذكرنا من قبل. هذا؛ وقد عثر في موسم حفائر (١٩٣٥-١٩٣٦) ميلادية على بعض جدران مقامة من الآجُرِّ الأحمر تحت معبد «تهرقا»، وقد عثر على منسوب أعلى من ذلك على أساس بوابة من الحجر تحت حدائق المعبد، وذلك على بعض مسافة تحت البقعة التي وجدت فيها قطعة الجرانيت (رقم ١٨) المنقوش عليها اسم «أمنحتب الثالث» عثر عليها «جرفث»، وإذا حكمنا بالعمق الكبير الذي وجدت فيه هذه المباني فإنه لا يبعد أن تكون من الدولة الوسطى والدولة الحديثة.

وأقدم جزء في مبنى المعبدين (أ) و(ب) A وB لا يزال قائمًا، وهو الجزء الداخلي المقام من الحجر الرملي للمعبد (أ) A ويحتوي على حجرتين صغيرتين «قاعة عمد ومحراب»، هذا بالإضافة إلى أربعة عمد ذات قنوات في الردهة الثانية من نفس المعبد، وهي من صنع الملك «توت عنخ آمون»، وعلى الرغم من أن المباني المقامة بالحجر تدل فعلًا على تغييرات ظاهرة فإنها في مجموعها يظهر عليها أنها من عمل نفس هذا الفرعون وحده، والواقع أننا لا نجد طغراءات من شكل طغراءات «توت عنخ آمون» في أي مكان، كما أننا لا نجد تغيرًا بإحلال اسم «آتون» بدلًا من «آمون». وتدل الظواهر على أن الجدار الشمالي لقاعة العمد الصغيرة التي قبل المحراب كان في الأصل جدارًا جانبيًّا، أما الباب الذي فيه فقد عمل فيما بعد كما تشير إلى ذلك اتجاهات الصور التي مثلت في النقوش (Pls. IIc, IIIa).

وقد كان المفروض أنه يوجد باب في الجدار الغربي غير أنه قد سُدَّ، وقد نقش كل الجدار بوساطة «توت عنخ آمون». والظاهر أن مثل هذه التغيرات التي عملت في ترتيب هذا المعبد لا بد أن سببها كان يرجع إلى تغير في تصميم المباني، ولا يتحتم أنها تنسب إلى إعادة «توت عنخ آمون» تشييد مبنى قام به أحد أسلافه، والأعمدة الأربعة المنسوبة «لتوت عنخ آمون» نقش على كل منها سطر عمودي على الجانب الأقرب لمحور المعبد الأوسط كما هو الآن، وعلى الرغم من عدم وجود براهين معمارية تدل على أن «توت عنخ آمون» قد أصلح معبدًا قديمًا فإنه لا يمكن أن نتغاضى بسهولة عن ادعائه لذلك، فقد نقش على أربعة أعمدة أنه أقام ما كان قد تداعى بعمل خالد من الحجر الرملي الجيد.

ومن جهة أخرى قد استنبط الأستاذ «جرفث» أن «أمنحتب الثالث» أسس أو أعاد تأسيس معبد هدمه فيما بعد «إخناتون»، وأن «توت عنخ آمون» قد أعاد بناء جزء منه وذلك ببناء المعبد (أ) A، ولكن كيف يفسر التغير الظاهر في تصميم المعبد (أ) A؟ فهل ابتدأ «توت عنخ آمون» بناء معبد «لآتون» ثم حوله إلى معبد «لآمون» قبل أن يتقدم كثيرًا في بنائه؟ فإذا كان الأمر كذلك فإنه من المحتمل أن «إخناتون» لم يكن له أية علاقة «بالكوة»، وأن هناك معبدًا أقامه «أمنحتب الثالث» قد خرب بعامل آخر، والواقع أن النتيجة التي يمكن استنباطها معقدة، على أنه قد يجوز أن يفصح عنها إذا عملت حفائر أخرى تحت المعبد (ب) B.

وخلاصة القول إن كل ما يمكن أن يقال الآن دون الوقوع في خطأ، هو أنه من المحتمل أن «أمنحتب الثالث» قد أقام مباني في «الكوة»، ولكن لا نعرف إذا كانت أسس معبده تقع تحت المعبد (ب) B أم لا، أما «توت عنخ آمون» الذي يحتمل أنه أصلح معبدًا قديمًا فقد غير تصميم بنائه في أثناء إقامته له، ولا يوجد لدينا برهان على عبادة «آتون» أو على ما يشعر بنشاط بنائي للملك «إخناتون» في هذه البقعة، وكل ما يدل على أثره هنا هو اسم «جمأتون»، ولكن من الجائز أن هذا كان قد وضعه أولًا «أمنحتب الثالث» أو «إخناتون» نفسه، ويدل بقاء هذا الاسم دون كشط على أنه في «كوش» البعيدة لم يكن يوجد إلا عدد ضئيل من الموظفين المصريين (إذا استثنينا «نباتا») يهتمون بالتقلبات التي كانت تحدث في البلاط المصري، ولذلك لم يكن هناك ضرورة لاتخاذ إجراءات للقضاء على عبادة «آتون»؛ وذلك لأن فكرة عبادته لم تستول قط على نفوس القوم هناك، على أن ذلك ليس إلا مجرد رأي قد يظهر يومًا ما ينقضه.

هذا، ونعلم أن طغراءات الملك «توت عنخ آمون» كانت منقوشة على أربعة عمد قد اغتصبها «رعمسيس الثاني» فيما بعد، وقد وضع «رعمسيس السادس» طغراءاته عليها بوساطة موظف من موظفي نائب «كوش» وهو المشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية، وحامل المروحة على يمين الملك المسمى «نب ماعت رع نخت»، يضاف إلى ذلك أن قائد الحامية «رعمسيس نخت» أضاف طغراءات أخرى قد يجوز أنها «لرعمسيس السادس»، وأخيرًا وجد جزء من تمثال مجيب للملك «رعمسيس السابع» O302 في القصر الشرقي المروي، وبعد ذلك لا نجد شيئًا قط يدل على مجرى التاريخ في هذه البلدة، بل كان هناك صمت تام لمدة أربعة قرون حتى جاءت الأسرة الكوشية «أو ما تسمى الأسرة الأثيوبية خطأ» وتدل شواهد الأحوال على أنه في خلال تلك الفترة كان المعبد أ قد دفن تقريبًا تحت الرمال التي كانت تغزو هذه الجهة.

وأول دليل لدينا على إقامة مبانٍ في هذه البقعة مؤرخة ما نشاهده في الجهة الشرقية من موقع المعبدين «أ، ب» A-B حيث يوجد المعبد (ب) B «كما وجد عنده حفره» الذي لم يكن قد أقيم بعد، والظاهر أنه كان يوجد هنا معبد أو محراب في صورة ما أقامه الملك «شبكا» على شرف الإلهة «عنقت» (أنوكيس)، ويلحظ هنا أن أحد الأعمدة التي أقيمت فيما بعد في

المعبد (ب) B كان مؤلفًا من قطع من مبنى الملك «شبكا»، وهذه القطع قد جيء بها من عمودين فقط، ومن المحتمل أن معبد الإلهة «عنقت» هذا كان قد أقيم في هذا المكان، وكذلك قد وجدت قطعة مشابهة من عمود على مسافة في أثناء حفر الموقع (١) في سنة (١٩٣٥-١٩٣٦)، وكذلك عُثر على اسم «شبكا» على خرزة في شكل برميل، ويحتمل أنها خاتم، أما اسم «شبتاكا» فلم يوجد إلا على تعويذة (٠٤٢٧).

وقد بدأت أعمال البناء الجدية عندما تولى «تهرقا» الملك؛ فقد كان له ميل خاص لمدينة «الكوة»، وأراد أن يسبغ عليها قوة شبابه وما في نفسه من طموح لإقامة المباني الفاخرة، وقد ذكر لنا «تهرقا» أنه عندما غادر بلاد النوبة وهو في العشرين من عمره ليلحق بالملك «شبتاكا» في مصر وقف موكبه عند «جمأتون» وقد استولى على قلبه الحزن[١١] هناك عندما رأى حالة المعبد الذي وجده مخربًا هناك، ويقول إنه كان مقامًا من اللبنات وكان مدفونًا في الرمال حتى سقفه، هذا فضلًا عن أنه كان مغطى بالتراب على ما يظهر لأجل أن يُحفظ من الأمطار أو ماء الفيضان.

والمفهوم عادة أن المتون التي تتغنى بنشاط بنائي يُستعمل فيها تعابير مثل «أقيم من حجر جيد صلب بعمل خالد»، وذلك أنه عندما كان الملك المقيم للمبنى يريد أن يؤكد فخامة ما تم على يديه من إعادة مبانٍ دينية أقامها أسلافه يقول عنها: إن المبنى كان «مصنوعًا من اللبنات» وذلك للدلالة على أن المبنى كان عاديًا.

وقد رأينا أن كل ما بقي من معبد (أ) A من تلك الأزمان الغابرة كان من الحجر، ولكن من المحتمل أن أية إضافات في مثل هذه المباني يجوز أنها عُملت في العصور المظلمة التي كانت تقام فيها المباني باللبنات، فكانت نسبيًا من صنف رخيص.

وفضلًا عن ذلك يجوز أن الأجزاء التي أضيفت باللبنات للمعبد (أ) A كانت لا تزال ظاهرة عندما زار «تهرقا» جمأتون، ومن ثم لم يظهر عليها أنها قد أقيمت من الحجر، ومن جهة أخرى يجوز أن «تهرقا» لم يكن يشير وقتئذٍ إلى المعبد (أ) A قط، بل كان يشير إلى معبد أقدم منه كان قائمًا على مستوى أقل انخفاضًا بكثير عن الموقع الذي اختير للمعبد T الذي يقع غربًا بعض الشيء.

وعلى آية حال فإن «تهرقا» استأنف سيره ليلحق بأخيه «شبتاكا» في طيبة، ومن المحتمل أنه اشترك معه في الحكم على عرش البلاد على أثر وصوله، ولكن في هذا شك كبير، وعندما توفي «شبتاكا» بعد ذلك بخمس سنين تولى «تهرقا» عرش البلاد رسميًا وأُعلن ملكًا في «منف»، حيث تصادف أنه كان فيها وقتئذٍ، ولا بد أن العمل كان قد بدئ في إصلاح المعبد (أ) A بعد إعلان «تهرقا» ملكًا بمدة قصيرة؛ وذلك لأن الأعطية التي منحها للمعبد بدأت في السنة الثانية كما جاء في النقش الثالث الذي وضعه لهذا الغرض (Inscr. III) وعلى أثر اعتلاء «تهرقا» عرش الملك مباشرة نجد أنه قد ابتدأ في بناء معبد جديد لنفسه وهو

المعروف بمعبد T، وقد أرسل لهذا الغرض جماعات من أصحاب الحرف والصناعات من «منف» لإقامته ولتزيينه بالنقوش التي كانت تقليدًا لأكبر حد في تفاصيلها لنماذج آثار الدولة القديمة القائمة في «أبو صير» «وسقارة»، وقد صُفحت عُمُد المعبد الجديد بالذهب، وصُنعت الأبواب من خشب الأرز، ومزاليجها صيغت من البرنز، وزُرعت الحدائق في الأراضي المجاورة بالنباتات والأشجار، وسقيت بوساطة بحيرات أو برك، كما زُرعت الكروم التي كان يقوم على رعايتها رجال مختصون جُلبوا من قبيلة أجنبية يُعرف أهلها باسم «منتيو آسيا».

وقد قيل إن نبيذ هذه الكروم كان ألذ من نبيذ الواحة البحرية، وهي مكان مشهور بزراعة الكروم وعصرها، وحدائق المعبد بما في ذلك جزء من شارع الموكب المؤدي إلى مدخله يكنفه كباش من الجرانيت، كانت محاطة بسور مقدس ضخم مصنوع من اللبنات.

وفي الركن الشمالي الشرقي كان يوجد مصنع طوب له مخزن غلال خاص ومستودعات، كما وُضعت لوحات في الردهة الخارجية للمعبد T وقد دون عليها معظم هذه الحوادث، وأحدث هذه اللوحات تحمل تاريخ الانتهاء من العمل، وبعد ذلك سكن الإله «آمون» في بيته الجديد، وقد أرخت اللوحة بالسنة العاشرة من حكم «تهرقا» حوالي عام ٦٨٠ق.م.

وتصميم المعبد T يطابق تمامًا تصميم معبد «صنم»، ويقع تقريبًا قبالة بلدة «نباتا» وهو الذي حفره بعث أكسفورد سنة (١٩١٣) ميلادية، ومعبد «صنم» المعروف في الأزمان القديمة بمعبد «آمون رع ثور أرض القوس «النوبة»» يبلغ طوله ٩٨٫٥ مترًا، وقد خرب حتى مستوى الصحراء المحيطة به، وهو يظهر على ذلك أنه شيء صغير «كما هو الواقع» إذا ما قرن ببعض المعابد المصرية الضخمة، ومعبد آمون صاحب «جمأتون» أقيم في نفس امتداد معبد «صنم»، ولكنه ينحرف في اتجاهه عن معبد «صنم» بعض درجات، وعلى أية حال فإنه لما كانت جدران معبد «الكوة» لا تزال قائمة في بعض أجزائه وتصل إلى ارتفاع حوالي أربعة أمتار فإن المعبد يظهر كبيرًا ومهيبًا.

وقد أضاف الملك «تهرقا» فيما بعد في قاعة عمد المعبد T محرابًا صغيرًا بهجًا من الحجر الرملي مثبتًا بين العمد الأربعة الواقعة في الشمال الشرقي من القاعة بنفس الطريقة التي نراها في معبد «صنم»، وعلى أية حال فإنه يلحظ في «الكوة» أن المحراب ليس محاطًا كلية بالعمد، ولكنه يبرز من جهة خارجًا عنها، والظاهر أن المحراب لم يكن جزءًا من المعبد عند التصميم الأصلي ولكنه فكر فيه فيما بعد، وعلى أية حال فإنه لم يُبْنَ متأخرًا قبل الانتهاء من سائر المعبد؛ وذلك لأن العمود الذي يحيط به جداره الشمالي لم ينقش قط كما نقشت العمد الأخرى التي في القاعة بأسماء وألقاب «تهرقا»، ولو كان قد نقش لكان الجزء العلوي من الكتابة قد أصبح ظاهرًا للعيان على العمود عندما انتزع المحراب في عام (١٩٣٥-١٩٣٦) من مكانه لينقل إلى متحف أشموليان بأكسفورد، ومحراب «صنم» الذي يعد من وجهة العمارة أكثر خشونة من محراب «تهرقا» في «الكوة» كان محاطًا بأربعة عمد، وعلى ذلك كان يعد جزءًا من التصميم الأصلي لهذا المعبد، وهذا يوحى بأن معبد «صنم» كان قد بُني بعد إتمام بناء معبد «الكوة» مباشرة؛ أي بعد السنة العاشرة من حكم «تهرقا».

والواقع أن الإنسان يميل إلى الظن أن مهندس العمارة الذي أشرف على إقامة المحرابين كان واحدًا وأنه أفاد في «صنم» بما كسبه من تجاربه في «الكوة».

ولا تزال ترى أوجه نشاط «تهرقا» في «جمأتون»؛ فقد وُجد فضلًا عن معبد T نفسه كبشان من الجرانيت في مكانهما الأصلي خارج مدخل المعبد، كما وُجد اثنان آخران عند مدخل قاعة العمد، وعثر في الطريق على مائدة قربان كبيرة كان قد أعيد بناؤها في الأزمان التالية، غير أنها على ما يظهر كانت في الأصل من عمل «تهرقا»؛ وذلك لأنها مقامة من نفس الحجر الرملي الذي أقيم منه المعبد T، هذا فضلًا عن أن القطعة السفلى من عقب الباب المصنوعة من البرنز مكتوب عليها اسم «تهرقا»، وقد عُثر عليها على مقربة منه.

هذا؛ ويلحظ أن أبواب المعبد أ المصنوعة من الحجر كانت بدورها تحمل اسم «تهرقا» وتُوحي أن جدران الردهات المقامة من اللبنات الملاصقة لهذه الأبواب كانت من صنع هذا الفرعون، أما عن الحدائق فقد وجدت سلسلة من الحفر التي كانت تزرع فيها الأشجار، وكانت في الأصل مبطنة بالحجر، ولكنها فيما بعد قد زيد في ارتفاعها تدريجًا باللبنات، كما وجدت بئر كانت في الأصل مبطنة بالحجر يحفها كتل من الخشب، ويدل الكشف عن معصرة للنبيذ في الموقع رقم ٢ يرجع تاريخها إلى القرن الثاني بعد الميلاد، على أن إنتاج النبيذ الذي وضع أساسه «تهرقا» كان لا يزال موضع عناية واهتمام بعد انقضاء ثمانية قرون مضت على تأسيس هذه الصناعة، ولا نزاع في أن بحيرات الري الخاصة بذلك لا تزال موجودة تحت التراب المتراكم في هذه الجهة، وتنتظر معول الحفار للكشف عنها.

والواقع أن قصة مدينة «جمأتون» هي قصة صراع طويل بينها وبين الرمال السافية التي كانت تهب عليها وقد انتهت بهزيمتها وطمرها، وذلك أنه بعد أن اختفى «تهرقا» أخذ البلد ينحط تدريجًا، ولم يصل قط في يوم من الأيام إلى مستوى الأبهة الذي وصل إليه في عهده، حقًّا إنه من الجائز أن «أمن-نتي يريك» قد أشعلت في قلبه نار الحماس الديني الذي كان يتأجج في صدر «تهرقا»؛ إذ قد جعل جيشه يعمل على إزاحة الرمال من طريق المعبد، وبعد ذلك انتحل لنفسه نعت «جميل الآثار في جمأتون». على أن تهدُّم المعبد يمكن أن يكون بسبب سقوط السقف على قاعة عمد المعبد T وذلك لأن أعمدته كانت صغيرة جدًّا لا تقدر على حمل كتل السقف الكبيرة نسبيًّا، ولا نزاع في أن المسافة اللازمة لحمل هذه الكتل كانت في الواقع قد قيست، ولكن من الواضح أن الكتل التي استعملت لم تكن ذات سُمك كافٍ، ولا بد أنها كانت قد سقطت بعد مضي بعض مئات السنين على إقامتها.

وقد زار الملك «أنلاماني» «الكوة» وخلف وراءه هناك لوحة جميلة (٠٤٩٩) لتضاف إلى سلسلة اللوحات التي تركها لنا «تهرقا»، أما الملك «أسبلتا» فقد أقام كما هي الحال في «صنم» محرابًا باستعمال جدار وعمود كانا هناك وثبت فيهما بابًا وجدارًا من أحجار رقيقة، والمحراب الذي في «الكوة» مقام من الحجر الرملي وقد وجد تقريبًا كاملًا، وقد سمحت الحكومة السودانية بنقل هذا الجدار وكذلك القشرة الخارجية التي كان منقوشًا عليها مناظر محراب «تهرقا» وقد نُصبت الآن في أماكنها متناسبة الوضع في متحف «أشموليان»

بأكسفورد، وهذان الأثران لهما أهمية عظمى؛ وذلك لأن الآثار المنقوشة من هذا العهد قليلة في حين أن النقوش التي على محراب «تهرقا» قد مثل فيها شكلان من أشكال الإلهة «عنقت»، وهذا ما لا يوجد له نظير حتى الآن، ومن حسن الحظ أن هذه الآثار قد بقيت حتى الآن إذا علمنا أنه قد حدث حريق هائل في قاعة العمد هذه في الأيام الأخيرة من تاريخ «الكوة».

ومن المباني التي يظهر أنها قد أقيمت في «جمأتون» حوالي هذا العصر الكشك الشرقي، ويقع خلف الجانب الشرقي من تل البلد، وهو تقريبًا في مستوى الصحراء، ومحوره يقع تقريبًا من الشمال إلى الجنوب، وعلى ذلك فإنه كان على ما يظن يقع في الطريق الخاصة بالأحفال، وهي التي يعتقد أنها كانت تدور حول البلد أو جزء منه، ويحتوي هذا الكشك على بقايا مناظر وعلامات هيروغليفية جميلة الصنع، وهي بلا شك لا يبعد تاريخها عن العصر النباتي المبكر، ولا يمكن أن يكون قد وضع الكشك في هذا المكان المكشوف خارج سور المعبد إلا في وقت مزدهر؛ أي عندما كانت الهجمات التي كثرت في الأزمان المتأخرة غير منتظرة الوقوع.

وفي خلال العصر النباتي المتوسط كان نشاط العمارة في «الكوة» قليلًا، فمن المعتقد أنه قد حدثت إصلاحات وإضافات في مخازن «تهرقا» الواقعة في الشمال الشرقي لمنطقة حرم المعبد في تلك الفترة، وكذلك بدئ بإقامة مبانٍ على طول الجانب الواقع جنوبي المعبد T حيث أقيمت مخازن غلال ومستودعات وكانت مفصولة عن جدران المعبد بطريق ضيقة. ومن بين أسماء ملوك العصر النباتي المتوسط التي وجدت هنا اسم الملك «ماليناقن» فقد ذكر اسمه على عدة لوحات صغيرة من القاشاني في الحجرة الواقعة غربي محراب المعبد (أ) A وكذلك عُثر على لوحة باسم الملك «أسبلتا» وأخرى من نوع مختلف بأسماء «تهرقا» في نفس المكان، وإذا كانت هذه الألواح في الأصل من التي زين بها الجدار فإنه من المحتمل أن الحجرات المقامة من اللبنات في هذه المنطقة كانت تؤلف جزءًا من الإصلاحات التي قام بها «تهرقا» في المعبد (أ) A.

والملك الذي جاء ذكره في «الكوة» بعد «أمن-نتي يريك» الذي سبقت الإشارة إليه هو الملك «حرسيوتف» من العصر النباتي المتأخر «وكانت نباتا هي العاصمة الدينية وقتئذٍ في حين كانت العاصمة السياسية هي «مروي»»، وقد جاء اسمه على عمودين في الردهة الثانية للمعبد (ب) B هذا بالإضافة إلى صورة رسمت على صخر للملك في حجرة القربان E في المعبد T ويلحظ أن الأسماء التي على العمد باهتة وحفرت بصورة فجة كالتي نقشت في العصر النباتي المتأخر، ومن الجائز أن هناك عمودًا آخر كان قد نقش، وإذا كان الأمر كذلك فإن كل معالم نقوشه قد ذهبت واختفت، والعمود الرابع الموجود في هذه الردهة هو الذي أقيم من قطع عمود للملك «شبكا» كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ومن الجائز حينئذ أن يكون الملك «حرسيوتف» هو الذي أقام العمد، وكذلك الجدران المصنوعة من اللبنات التي في الردهات الخارجية للمعبد.

ونقوش «حرسيوتف» المشهورة التي عثر عليها في جبل «برقل» (Urk, III, 113ff) تدل على أنه كان ميالًا لإصلاح المعابد وزخرفتها بدرجة عظيمة، وقد لا يكون من الحكمة أن ينسب إليه نشاط كبير في «الكوة»، وذلك لأن النقش الذي تركه في «نباتا» وهو في معظمه خاص بقائمة من مثل هذه الأشياء لم تذكر لنا أي شيء من هذا القبيل في «الكوة».

وفي خلال حكم الملوك المتأخرين من عصر «نباتا» لا بد أن «جمأتون» كانت عرضة لهجوم من الخارج، والواقع أنه حتى فيما يخص الإقليم الواقع بين «نباتا» «ومروي» كانت غزوات أقوام البدو من الصحراء تقع باستمرار، فقد كان الملك «أمن-نتي يريك» في حاجة إلى إرسال جيش لإخلاء الطريق أمامه قبل أن يترك «مروي» وهو في رحلته إلى «نباتا» والجزء الشمالي من مملكته، وقد اشتبك في قتال مع قوم المجا في الإقليم الواقع جنوبي «الكوة»، وقد تصادم كل من «حرسيوتف» «ونستاسن» مرات عدة مع أقوام هذه الصحراء، وعلى الرغم من أن اسم «نستاسن» لم يوجد في آثار «جمأتون» فإن لوحته التي عثر عليها في جبل «برقل» تقص علينا أنه في وقته قد زحف قوم «المجا» في غزوهم حتى «الكوة» حيث نهبوا المعبد وأحدثوا ارتباكًا في أملاك الإله «آمون»، وقد قام هذا الملك بإعادة ما نهبوه.

ويعد بداية القرن الثالث قبل الميلاد على حسب رأي الدكتور «ريزنر» العصر الذي قسم فيه السودان مملكتين: المملكة الشمالية وعاصمتها «نباتا»، والمملكة الجنوبية ومقر حكمها «مروي»، وقد كانت هناك أحيانًا منافسات ومناوشات فيما بينهما، وأهرام ملوك «نباتا» كانت عارية من النقوش، ولكن أسلوبها كان على ما يقال يتفق مع أسلوب الأهرام المعاصرة لها في «مروي» الواقعة بعيدًا عنها في أعلى النيل، وهذا العصر قد أطلق عليه الدكتور «ريزنر» المملكة المروية الأولى لنباتا.

وقد عرفنا من «الكوة» أسماء جديدة لملوك أربعة منهم على الأقل لا بد من وضعهم بطريقة ملائمة في قائمة الملوك الكوشيين، والواقع أن «ريزنر» قد أفلح في الكشف عن كل أسماء ملوك «نباتا» من أول «تهرقا» حتى «نستاسن» وهؤلاء هم الذين دفنوا في جبانة «نوري» الملكية، وكل أهرام «نوري» قد عرف أصحابها، ولكن هرمًا واحدًا في جبانة «الكورو» التي تعد أقدم من جبانة «نوري» قد ترك دون أن يحقق اسم صاحبه، وهذا الهرم تدل الظواهر على أنه معاصر لسلسلة أهرام «نوري» المتأخرة، وقد نسب إليه اسم «بيعنخي آلارا» وهذا هو اسم ملك ذكره «نستاسن» بالقرب جدًّا من اسم «حرسيوتف» الذي يظن أن «بيعنخي آلارا» قد خلفه، وعلى أية حال فإن نقوش «الكوة» قد قدمت لنا ملكًا اسمه «آلارا» وهو جد للملك «تهرقا»، وقد ذكرنا في غير هذا المكان البراهين الدالة على أنه من الجائز أن يكون أخًا للملك «كشتا»؛ أي إنه جد مبكر للأسرة النباتية، وقد كان محترمًا، ويجوز أن الملوك الذين أتوا بعده قد ألهوه، كما يجوز أن «آلارا» هو نفس «بيعنخي آلارا» الذي جاء ذكره في نقوش الملك «نستاسن» وأن كلمة «بيعنخي» التي وضعت في أول الاسم هنا قد أُخذت من اسم الفاتح العظيم «بيعنخي» مستعملة كاستعمال كلمة قيصر عند الرومان، فإذا كان هذا الاستنباط صحيحًا فإن هذا الاسم لا يمكن أن يكون هو باني هرم «الكورو» الأول الذي بقي حتى الآن مجهول الاسم.

أما الأسماء الأخرى التي نقرؤها أحيانًا بشيء من الشك أو وجدت مهشمة فهي:

(١) بيعنخي-يريك-قا. (٢) أمان ... سبراك (؟) «ومن الجائز أن يقرأ سبراكا» مري آمون. (٣) كشت ... ير «ومن الجائز مع شك كبير أن يقرأ كشتا-يريك». (٤) «أرنخ-مري آمون» أو «أرنخ أماني». و(٥) «إري-مري آمون، أمانري» أو «أريأماني». والاسمان الأولان من هذه الأسماء يوجدان في النقش XIII وقد حكما على التوالي، وقد قيل مع الشك إنهما صاحبا الهرمين ١٨ و٧ في برقل (See Vol. I, P. 75) واسم التتويج الخاص بالثاني هو «خعمنابي»؛ أي المضيء في «نباتا»، ويُلحظ أن النقش الذي جاء فيه ذكر هذين الملكين يتبع الأسلوب والتعبير الخاص بالنقوش النباتية المتأخرة، ولا يكاد يكون هناك شك في أنهما جاءا بعد الملك «نستاسن» بسرعة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الملوك المتأخرين من سلسلة ملوك «نباتا»، على الرغم من أنهم قد أتوا إلى الشمال ليدفنوا بالقرب من «نباتا» عاصمة البلاد القديمة فإنهم بلا شك حكموا البلاد من «مروي»، وكذلك كانوا يأتون إلى «نباتا» ليتوجوا فيها، وعلى ذلك فإن الاسم «خعمنابي» لا يعني أنه ملك قد حكم فقط في «نباتا»، بل من الجائز أن أهرام «برقل» (نباتا) الخاصة بهذا العهد هي في الواقع لهؤلاء الملوك والملكات الذين أقاموا «كما كانت الحال في الماضي» في مروي ولكنهم في الوقت ذاته اجتهدوا أن يستمروا في اتباع التقاليد القديمة في بناء أهرامهم في «نباتا»؛ وذلك لأن الفكرة القائلة إن الحكام يجب أن يدفنوا في «مروي» كانت فكرة جديدة، وأن هذه العملية قد أتت شيئًا فشيئًا. ولكن هذا الرأي يمكن أن يثير عقبات من جهة التأريخ؛ وذلك لأنه يوجد عدد عظيم من مدد حكم ملوك يتطلب أن يوضع في الزمن المخصص له إذا قبل هذا الاقتراح، ولكن من جهة أخرى لا يوجد لدينا روابط محددة ما بين عهد الملك «تانوت آمون» عام ٦٦٣ق.م إلى عهد الملك «أرجامنيز» سنة ٢٢٥ق.م يمكن الارتكاز عليها، والظاهر أنه من الصواب أن نشك في وجود مملكة مروية لنباتا منفصلة بذاتها.

والاسم الثالث من هؤلاء الملوك قد ظهر على قطعة ورق من الذهب (O 211) انتزعها اللصوص من صندوق مذهب وجد في الحجرة المقامة من اللبنات، وتقع في شرقي محراب المعبد (أ) A ولكن قراءة الاسم يلعب فيها الحدس والتخمين دوره، وإذا كان اسم «بيعنخي-يريك-قا» مشتق من «بيعنخي» ويعني المولود من «بيعنخي» (المؤله)[١٢] فإن هذا الاسم يمكن أن يكون مشتقًّا من «كشتا». والواقع أن النعت «مري آمون» ووصف الاسم هما فقط اللذان يقدمان أي حل لتاريخ هذا الملك، ومن المحتمل أن لقب «مري آمون» هو خاصية لأسماء ملوك العصر الذي نناقشه كما سنرى بعد.

والاسم الرابع منقوش على رأس جميل من البرنز (OO 21/1) عثر عليه في الردهة التي قبل محراب المعبد (أ) A، ويحتمل أنها من قارب الأحفال، وهجاء الاسم مشكوك فيه على الرغم من أن الحروف ظاهرة، ولكن الصعوبة هي: ماذا تقابل هذه الحروف في الحروف

الأبجدية الشائعة الاستعمال في هجاء الأسماء النباتية (Cf. Inscr XLIV) ولقب هذا الملك هو «خبر كارع» وهو اختيار محبب[١٣] لأنه لقب الملك «سنوسرت الأول»، هذا على أن ظهور النعت «مري آمون» في هذا الاسم والأسماء السابقة واللاحقة يعد أمرًا هامًّا جدًّا، فنحن نعلم أن هذا النعت كان عاديًّا في عهد الرعامسة وفي الأسر اللوبية، ثم نجده يظهر بعد ذلك مع «بيعنخي»، ولكنه يختفي تمامًا من كل أسماء ملوك العصر النباتي المبكر، ثم يظهر مرة أخرى في اسم «أمانيسلو» الذي يأتي خلال العصر الأول للملكة المروية النباتية، وهذا العصر نجد فيه عددًا من الأهرام لا أسماء لها، وهذه الحقيقة بالإضافة إلى أسلوب رأسه البطلمي الطراز يعتبران البرهانين اللذين يمكن أن نقدمهما عن التأريخ الذي يجوز أن يرجع إليه عهد هذا الملك.

والاسم الخامس وهو «إري» أو «إريأماني» عُثر عليه على لوحة غريبة (Kawa XV) وجدت في رقعة الردهة الخارجية للمعبد (أ) A وهي تشبه كثيرًا النقوش التي على جدران البوابة الحجرية ومحراب معبد (ب) B، وعلى ذلك فإنه من الصعب ألا نستنبط أنه كان الباني لها؛ وذلك لأن كلا من البوابة والحجرة التي تؤدي إليها يمكن قرنهما من حيث الحجر والأسلوب بالبوابات والردهات الأمامية الخاصة بالأهرام المروية المقامة في «نباتا» «ومروي».

ويلحظ أن الترهل وضخامة الأعجاز البارزة التي نشاهدهما في صور العصرين المروي المتوسط والمتأخر قد اختفت هنا بوضوح، وعلى العكس نرى أن الأشكال هنا نحيفة بعض الشيء بالنسبة لارتفاعها، فهي تشبه في ذلك الأشكال التي نشاهدها في النقوش البطلمية المصرية، ويلحظ فيها نفس الأعجاز الضيقة المدببة، وعلى الرغم من أن الجزء الأعلى من ثوب الملك غريب في مظهره وليس له نظير فإن طرفه الأدنى المكدس من الأمام بهدابات ونطاق يذكرنا بالملابس الملكية الخاصة بالدولة الحديثة، وبخاصة أنه يشبه تمامًا الملبس الذي كان يلبسه «رعمسيس الثالث» في منظر من مناظر مدينة «هابو»،[١٤] وشكل نفس هذا الملبس الخاص بالدولة الحديثة يشاهد كرة أخرى في لوحة أرياماني Aryamani[١٥] وهذا الملك قد قرن فعلًا بعصر الرعامسة؛ وذلك لأنه كان يستعمل الاسم «وسر ماعت رع ستبن رع» والنعت «مري أمن» وهما من خواص نعوت ملوك أسرة الرعامسة، وعلى نفس هذه اللوحة نشاهد كذلك الشكل النحيف والأليتين المدببتين، وهذا بالإضافة إلى أشياء أخرى تحملنا على أن ننسب إقامة محراب وبوابة المعبد (ب) B إلى الملك «أرياماني» وعلى ذلك يكون هذا الملك منسوبًا إلى العصر المروي المبكر الذي يتبع أسلوب بنائه في العصر أيضًا.

هذا؛ ويمكن أن نلحظ بصورة عابرة الميل الضعيف إلى اتباع الذوق البطلمي والرعمسي في الوقت نفسه في عصر الانتقال هذا من العهد النباتي إلى العهد المروي من حيث الثقافة.

ونشاهد آثار كسوة من الحجر في خارج محراب معبد (ب) B ومن الجائز أن هذه الكسوة هي من بقايا محراب أقدم من هذا، وهذا المحراب نفسه قد هدم ونقل ليقام في الخرطوم، والواقع أن نقل هذا المحراب سيخلي الرقعة التي أقيم عليها، مما يسهل عمل حفائر فيها قد

تلقي ضوءًا أكثر على تاريخ ملحقات المعبد المتأخرة، بل على تاريخ «الكوة» نفسها في عهد الدولة الحديثة.

هذا؛ ولا نعرف حتى أواخر القرن الأول أي ملك في مروي «حتى ولا الملك «أمانيسلو» أو الملك «إرجامنيز»» كان له علاقة بالجزء الشمالي من السودان قد ترك أي سجل في «الكوة»، ولا نزاع في أن المعابد كانت لا تزال معمورة، أما عن سير الحوادث في المنطقة المقدسة التي تحيط بالمعبد فقد رأينا أن المنازل التي في الموقع رقم واحد قد هجرت وغزتها الرمال، والظاهر أن معظم سور المنطقة المقدسة قد اختفى، أما في الموقع رقم ٣ فنجد أن المنازل كانت لا تزال مسكونة.

ننتقل الآن بعد ذلك إلى العهد الصعب الذي يبتدئ حوالي نهاية القرن الأول، وهو الذي ميز بغزو الإثيوبيين لمصر العليا وما تلاه من حملات تأديبية قام بها الحاكم الروماني جايوس بترونيوس Gaius Petronius عام ٢٣ق.م، وأطول قصة تسرد لنا هذه الحوادث التي وردت في جغرافية «سترابون»[١٦] قد ترجمها الأستاذ «جرفث»[١٧] حيث نجده يعزز الرأي الذي أدلى به الأستاذ «سايس»[١٨] وهو القائل إن «كانداس» التي كانت موجودة في وقت الحملة الرومانية على بلاد مصر هي نفس الملكة «أمانيرتاسي» صاحبة اللوحة الموجودة الآن بالمتحف البريطاني، وهي التي عثر عليها في معبد صغير على مسافة صغيرة جنوبي «مروي».[١٩]

والواقع أن رأي الأستاذ «سايس» يظهر أنه على أساس مكين؛ وذلك لأنه لدينا في هذه اللوحة أثر عن «كانداس» التاريخية التي غزت جنودها معاقل حدود أغسطس الرومانية في عام ٢٣ق.م أو حوالي ذلك التاريخ، وقد دون لها «سترابون» بيانًا حقيقيًّا من الوجهة الرومانية عن هذه الغارة وما نتج عنها من عقاب حل بالسودانيين، وقد كان هذا الكاتب مع أليوس جالوس Aelius Gallus في السنة السابعة لغزوة مصر العليا[٢٠] فيقول:

> لقد شجع الإثيوبيين، أخذ جزء من الجنود الذين في مصر لمصاحبة «جالوس أليوس» في حروبه مع العرب، فهاجموا إقليم طيبة وحاسية سيني «أسوان» المؤلفة من ثلاث فرق، وقد استولوا بهجوم خاطف مفاجئ على «سيني» «والفنتين» «وفيلة»، وجعلوا كل الأهالي هناك عبيدًا لهم وهشموا تماثيل قيصر، وكان عندئذ «بترونيوس» قد وصل بجيش أقل من عشرة آلاف مقاتل وثمان مائة خيال لمنازلة ثلاثين ألفًا من الأعداء، وقد اضطرهم أن يتقهقروا حتى «بسلكيس» وهي مدينة إثيوبية «الدكة» وأرسل إليهم رسلًا طالبًا إعادة الغنائم كما طلب إليهم السبب الذي من أجله بدءوا الحرب، وقد أكدوا له أنهم قد عوملوا معاملة مجحفة على يد ملوكهم، وقد جاوبهم «بترونيوس» على ذلك بقوله: إن قيصر لا الملوك هو الذي يحكم البلاد، وبعد ذلك طلبوا إليه هدنة مدة ثلاثة أيام ليفكروا فيها، ولكن لما لم يفعلوا شيئًا مما

تدعو إليه الحاجة هاجمهم «بترونيوس» مما اضطرهم للخروج في معركة ولم يلبثوا أن ولوا الأدبار؛ وذلك لأن نظامهم كان سيئًا، وكانت أسلحتهم رديئة «كانت دروعهم ذات حجم كبير وطويلة ومصنوعة من الجلود غير المدبوغة، وكانت أسلحتهم هي البلط أو العمد أو أحيانًا السيوف»، وقد احتمى بعضهم في المدينة وفر آخرون إلى الصحراء، وكما لجأ جزء منهم إلى جزيرة قريبة ملقين بأنفسهم في الماء وقطعوا البوغاز سبحًا «لأن التماسيح هنا لم تكن عديدة بسبب التيار»، ومن بين هؤلاء الأخيرين قواد «كانداس» التي كانت تحكم إثيوبيا في أيامنا، وهي امرأة مسترجلة فقدت بصر إحدى عينيها، وقد استولى «بترونيوس» على كل هؤلاء أسرى حرب، فقد وصل إلى الجزيرة على عوامات وقوارب، وساقهم في الحال إلى الإسكندرية، وبعد ذلك هاجم «بسلكيس» واستولى عليها، وإذا أضفنا عدد هؤلاء الذين سقطوا في الموقعة إلى أولئك الذين أسروا كانت البقية الباقية التي هربت ضئيلة جدًّا، وقد وصل «بترونيوس» من «الدكة» إلى مدينة برمنيس «إبريم» المحصنة مارًّا بتلك الكثبان الرملية التي غمر فيها جيش «قمبيز» في عاصفة ريح هوجاء، وقد هاجم «بترونيوس» القلعة واستولى عليها ومن ثم سار إلى «نباتا»، «ونباتا» هذه كانت عاصمة «كانداس» وكان ابنها هنا كما كانت هي نفسها في مكان قريب.

وقد أرسلت هذه الملكة رسلًا طالبة إعادة العلاقات الودية وإعادة الأسرى الذين أُخذوا في سيني والتماثيل، ولكن «بترونيوس» زحف على «نباتا» واستولى عليها «وقد هرب منها الصبي» وخربها، وبعد أن استعبد السكان قفل عائدًا إلى موطنه محملًا بالغنائم، وذلك بعد أن علم أن الأراضي التي خلف ذلك من الصعب اختراقها، وبعد أن قوى في طريقه تحصينات برمنيس «إبريم» ووضع فيها حامية ومئونة سنتين تكفي لأربع مائة رجل، غادرها إلى الإسكندرية، وقد باع بعض الأسرى وأرسل منهم ألفًا إلى قيصر «الذي كان قد وصل مؤخرًا من كانتاباريا Cantabaria» وقد مات بعضهم من المرض، وفي تلك الأثناء زحفت «كانداس» على القلعة بقوة يبلغ عددها عشرات الآلاف من الجنود، ولكن «بترونيوس» أرسل جيشًا لنجدتها، وكان هو أول من دخل القلعة بعد أن قواها تمامًا، وعندما أرسل الإثيوبيون للمفاوضة في الصلح أمرهم أن يوفدوا رسلهم إلى قيصر، وقد اعترفوا على أية حال أنهم لا يعرفون من هو قيصر ولا من أي طريق يصلون إليه، وعلى ذلك أعطاهم مرشدين وصلوا بوساطتهم إلى جزيرة «ساموس»، وهنا كان قيصر يجهز لإرسال «تيبريوس» إلى «أرمينيا» في حين أنه كان في طريقه إلى «فارس»، وقد منحهم قيصر كل ما طلبوه، بل أعفاهم من الضرائب التي فرضت عليهم.[21]

ومن جهة أخرى اعتقد «ريزنر» أن البلاد في هذا الوقت قسمت ثانية مملكتين، وأنه لما كانت مملكة «نباتا» هي التي وصل إليها «بترونيوس» وخربها، فإن ملكة «مروي» لا بد كانت «أمانيرناس» التي وجدت نقوشها منتشرة من «مروي» حتى «الدكة»، وعلى ذلك يمكن القول إنها حكمت كل المملكة من «مروي»، وقد قرر «ريزنر» أن الملكة القوراء التي وقفت

في وجه الرومان لا بد كانت آخر حاكمة لهذه الأسرة النباتية، وهي التي أقامت الهرم الصغير العاشر[٢٢] «ببرقل»، ولم يذكر على أية حال «أمانيرناس» التي أغفلها، وعلى أية حال فإن «ريزنر» ذكر نقطة هامة وهي أن الموازنة بين أشكال الطراز تظهر أن الملكة «أمانيشاختي» المروية والملكة النباتية المدفونة في هرم برقل رقم ١٠ لا بد كانتا متعاصرتين ولو لمدة قصيرة من حكميهما،[٢٣] ولدينا برهان من «الكوة» يمكن ذكره هنا قد يجوز أن يوضح الموضوع.

وذلك أن أسماء حكام «مروي» قد وجدت غالبًا حوالي هذا الوقت في مجموعات، فمثلًا في معبد السبع في النجع نجد اسم الملك «ناتاكاماني» والملكة أمنيتير Aminetère مع اسم الأمير أريكاخاتاني Arikakhatani، في حين نجد في العمارة أن مكان الأخير قد أخذه شيراكارر Shérakarèr، وكذلك نجد اسم الملكة أمانيرناس Amanirenas في «الدكة» وعلى لوحة صغيرة من «مروي» مع اسم الملك تريتقاس Teriteqas والأمير «أكينيداد» «أو أكيداد أو أكيدد؛ لأن الهجاء يختلف» ونجد كذلك اسم «أكينيداد» يظهر مع اسم «أمانيرناس» على ما يسمى بلوحة «أكينيزاز» المذكورة فيما سبق وعلى محراب من البرنز من «الكوة».

هذا؛ وقد وجدت بجانب الباب الجنوبي للردهة الأولى لمعبد T قطع من الحجر الرملي عليها طغراءات الملكين «أكينيداد» «وأمانيشاختي»، وطرازهما واحد، ويمكن الفرض أنهما يؤلفان جزءًا من إضافة عُملت في المعبد، وأن «أكينيداد» الذي عاصر الملكة «أمانيرناس» مدة كان كذلك معاصرًا لعهد الملكة «أمانيشاختي»، ونحن نعلم أن «ريزنر» قد اعتبر الملكة «أمانيشاختي» معاصرة لملكة برقل رقم ١٠، هذا؛ ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن اسم «أمانيخبال» هو حاكم آخر مدفون في مروي قد وجد اسمه على قطعة من البرنز في «الكوة»، وقد وضعه «ريزنر» بعد اسم الملكة «أمانيشاختي» بقليل، ومن ثم يعتبر في نظره لم يحكم نباتا.

وعلى ذلك ليس لدينا إلا نتيجة واحدة من هذه الحقائق، وهي أن «الكوة» والبلاد التي في شماليها حتى الدكة على الأقل لم تكن ضمن حدود مملكة نباتا بل ضمن أملاك مروي.

وتدل شواهد الأحوال على أن مملكة نباتا «إذا كان هناك مملكة بهذا الاسم وقتئذٍ» كانت تشمل مساحة صغيرة لا تزيد رقعتها عن نباتا نفسها، وهذه النظرية لا تعارضها الحقائق، وعلى أية حال يمكن اعتبارها حلًّا مؤقتًا ليقابل وجود المملكة المروية الأولى النباتية؛ أي إن ملكًا مفروضًا فيه أنه يحكم في عاصمة واحدة فقط قد خلف اسمه في عاصمة أخرى، ولم تكن قوة السلاح وحدها هي التي حتمت حدوث ذلك، والملك المعني هنا هو الملك تانيداماني Tanyidamni، وقد ترك لنا ككل من الملكة «أمانيرناس» والملك «أكينيداد» نقشًا في مروي (Meroe, pl. 1 Insc. No. 5) على لوحة عُثر عليها في معبد السبع، وقد أقام في نباتا لوحة عظيمة من الجرانيت منقوشة من جهاتها الأربع في معبد آمون (Great

Temple of Amon, B500) وقد وجد بالمقارنة أن لوحته تشبه لوحتي الملكين أمانيرناس وأكينيداد اللتين عُثر عليهما في مروي، ولم يكن في مقدور الدكتور «ريزنر» أن يضع هؤلاء الملوك الثلاثة في تصميمه التاريخي؛ وذلك بسبب أنه لم يتحقق من شخصية مقابرهم، ولكن قد ذكرنا من قبل الأسباب التي تدعو إلى وضع «أمانيرناس» «وأكينيداد» قبل الملكة «أمانيشاختي» مباشرة، وعلى الرغم من أنه ليس لدينا براهين قاطعة فإن «تانيداماني» على ما يظهر قد عاش على حسب رأي «ريزنر» عندما كانت «كوش» قد قسمت مملكتين، ولما كانت أهرام برقل صغيرة وعارية من النقوش فإنه من المحتمل أنه قد دفن في «مروي»، وعلى أية حال فإن ظهوره في كلا العاصمتين وقربه من حيث الزمن للملوك «أمانيرناس» «وأكينيداد» «وأمانيشاختي» مما يدعو إلى الشك الذي يحملنا على إعادة النظر في الترتيب التاريخي لهذا العصر.

والسؤال المحير في تاريخ «الكوة» هو الوقوف على ما حدث فيها عند زحف «بترونيوس» نحو «نباتا»، وقد أكد الأستاذ «جرفث» في عام (١٩٣٠-١٩٣١) أن هذه البلدة كانت قد دمرت على يد «بترونيوس» ثم هجرت، فقد وجدت في وسط قاعة العمد بمعبد T عدة أشياء من الحجر والقاشاني والفخار اللازمة للمعبد، هذا بالإضافة إلى مصابيح من الفخار وأشياء من البرنز قد أكلتها النار مما يدل على أنه قد أشعل حريق في هذا المكان عن قصد، غير أن البحوث التي أتت بعدُ قد دلت على أن هذا الاستنباط ليس مؤكدًا تمامًا، فقد وصل الأثري كروان إلى أن الحريق لم يقتصر على داخل المعبد T بل شمل كل مواقع الكوة القديمة الثلاثة، وهي التي يرمز لها بالمواقع ١ و٢ و٣ وهي التي تميز لنا عصور تاريخ هذه البلدة؛ إذ الواقع أنه وجدت آثار واسعة النطاق للنار في كل أنحاء المنطقة التي حفرت حتى الآن، وقد لوحظ في عدة نقط أن نفس الحريق الذي حدث في الحجرات المقامة باللبنات في المعبد T والجدران المجاورة له والأعمدة قد حدثت في أماكن أخرى، وتدل شواهد الأحوال إذًا على أن الحريق العظيم قد وقع آخر شيء في تاريخ هذه البلدة.

ولا شك في أن العهد المحدد الذي وقع فيه هذا الحريق لا يخرج عن دائرة الحدس والتخمين، فقد يكون قوم البلميين أو الأكسوميين هم الذين ارتكبوا هذه الفعلة غير أنه ليس لدينا برهان مباشر على أن قوم الأكسوميين قد زحفوا شمالًا إلى هذا الحد، ومن جهة أخرى قد وصل الأثري «كيروان» إلى أن من الجائز أن النوبيين السود البشرة الذين أخرجوا من بلادهم في الجنوب وقت أن هجم عليهم الأكسوميون هم الغزاة المتوحشون الذين قضوا القضاء المبرم على أرزاق الكوة ومجدها الذي يرجع إلى عهد بعيد.

هذه نظرة خاطفة عن تاريخ «جمأتون» أو قرية الكوة الحالية من أول نشأتها كما وصل إلينا حتى الآن إلى أن قُضي عليها نهائيًّا ومحيت من التاريخ بالحرق والنهب، وسنحاول بعد ذلك أن نتحدث عن المعبد الذي أقامه الفرعون «تهرقا» وخلف لنا فيه لوحات كشف لنا عن صفحة جديدة من تاريخه وتاريخ إمبراطوريته التي كانت تشمل مصر «وكوش»، كما كانت تبسط نفوذها على ما جاورها من البلاد الأفريقية والآسيوية مما سنشير إليه فيما بعد.

(٣-٢) الطريق إلى معبد «تهرقا» بالكوة

يصل الإنسان إلى معبد «جمأتون» الذي أقامه الملك «تهرقا» (وهو المعروف عند الأثريين باسم معبد T) بوساطة طريق احتفالي خاص، وقد أطلق عليه «طريق «ميت» هذا الإله «آمون رع صاحب جمأتون»»

ويحدثنا أحد الملوك الذين أتوا بعد «تهرقا» وهو الملك «أمن-نتي-يريك» أنه في عهده؛ أي منذ أكثر من قرنين من الزمان مضيا على تأسيس معبد «تهرقا» كانت الطريق قد دفنت تحت الرمل لمدة أربعين سنة «والإله لم يسر على طريقه التي … هذه المقاطعة، وقد حفر هذا الملك تلك الطريق حاملًا الرمال بيديه، وبعد ذلك احتفل بالكشف عنها من الصحراء، وذلك بحفل ليلي بوساطة المشاعل حُمل فيه الإله حول المدينة» وهذا يوحي بأن هذه الطريق الاحتفالي لم يوصل من المعبد T إلى النهر وحسب، بل كان يطوف حول محيط المدينة أو جزء منها على الأقل، ويؤكد هذا الظن موقع الكشك الشرقي الذي أقيم على مسافة حوالي أربعين مترًا خلف الجزء الشرقي لجدار الحرم المقدس الذي أقامه «تهرقا» وعلى ذلك كان خارج حدود المعبد، ولا بد أن هذا الكشك كان يعتبر محطًّا يقف عنده المارون بالموكب الإلهي، وعلى هذا الزعم سنأخذ في وصف المباني المختلفة القائمة على هذه الطريق على حسب ترتيبها مبتدئين بالكشك الشرقي وسائرين إلى الكشك الغربي، ثم إلى مائدة القربان فحديقة المعبد فالكباش، وأخيرًا المعبد T نفسه.

الكشك الشرقي

أقيم الكشك الشرقي من نفس الحجر الرملي الأصفر القاتم الذي بُني منه المعبد T، وهذا الكشك قد خرب الآن حتى رقعته ولم يبقَ منه إلا مدماكان، ولا بد أن هذا الكشك كما ذكرنا من قبل كان محطًّا يقف عنده تمثال الإله والسفينة المقدسة عندما كان الحفل يطوف حول المدينة، ولا بد أن هذا الكشك كان يقع في نهاية الحدود الشرقية للمدينة في العهد النباتي المبكر، ويلحظ هنا أن الجدارين الشرقي والغربي لهذا الكشك يعدان بمثابة ستائر للعمد التي أقيمت فيهما وعددها ثمانية، والكتابة التي كانت على الجدران أصبحت باهتة وتصعب قراءتها، وقد وجد في هذا الكشك بعض آثار قليلة.

الكشك الغربي

تدل شواهد الأحوال على أن هذا الكشك قد أقيم في عهد الملك المروي المسمى أمانيخبال Amanikhabale الذي وجد اسمه على مخروط من البرنز عُثر عليه في جنوبي الكشك، ويلحظ أن الجهة الشرقية من هذا الكشك كانت رقعة الطريق الاحتفالي مرصوفة بقطع من الحصا.

وقد وجدت في الطريق الاحتفالي بين الكشك الغربي ومائدة القربان ذراع من البرنز الجميل له يد.

مائدة القربان

وجدت مائدة قربان مقامة من الحجر الرملي كالذي أقيم منه معبد «تهرقا» T، وتقع في اتجاه منحرف بعض الشيء بين الكشك الغربي والكباش التي عند مدخل المعبد T، وهذه المائدة أو المذبح موضوع فوق مبنى يصل إليه الإنسان بسلم عدد درجاته ثلاث عشرة، ثم يصعد بعدها الإنسان درجة أخرى إلى قمة هذا المذبح، وقد عُثر في خزانة مقامة تحت هذا السلم على نقش جاء فيه اسم الملك «تهرقا»، وقد يكون هذا دليلًا على أنه هو الذي وضع أساسه، ومن الجائز أن هذا المبنى في الأصل كان سدة وضع فوقها عرش الملك، ولا غرابة في ذلك؛ فقد جاء في الأزمان النباتية المتأخرة ذكر عرش من الذهب أو سلم في الكوة، وقيل إن الملك «نستاسن» كان يعلوه (Kawa II, P. 51) ويقعد عليه في الأحفال الرسمية.

وإذا كان عرشه قد وُضع على الطوار الذي سمي هنا مذبحًا فإنه لا بد كان يشغل مكانًا أرقى وأفخم من السدة التي وجدت في القاعة E بالمعبد T كما سنرى بعد، وعلى ذلك يُحتمل أنه لهذا السبب قد أظهر الملك نفسه للعيان على المذبح، وعلى ذلك فإنه من الجائز جدًّا أن كلًّا من الطوارين كان يحمل تماثيل للإله آمون، وعلى أية حال فإن تاريخ هذا المذبح أو السدة لا يزال يحوم حوله الشك.

حدائق المعبد T

دلت أعمال الحفر الأخيرة في الكوة على أنه كانت توجد حدائق في حرم معبد «تهرقا» خاصة به، فقد جاء في لوحة الكوة رقم ٤ سطر ٢٤ إشارة لمعبد T ما يأتي: «وأشجاره العدة قد غرست في الأرض، وبحيراته قد حفرت» وكذلك جاء في لوحة الكوة رقم ٦ سطر ١٩ … إلخ إشارة لمعبد T: ومستودعه كان مفعمًا، وموائد قربانه ممونة، وقد ملأها «أي تهرقا» موائد قربان للشراب من الفضة والذهب، والبرنز الآسيوي، وكل نوع من الحجر الثمين الحقيقي الذي يخطئه العد، وملأه بخدم عديدين، وعين له خادمات من زوجات زعماء الوجه البحري، وكانت الخمر تعصر من كروم هذه المدينة وكانت أغزر من خمرة «جس جس» «الواحة البحرية» وعين لها بستانيين مهرة من «منتيو آسيا» «أي بدو آسيا»، وبدهي مما سبق أن المعبد كان له ضيعة من نوع ما يحصل منها على ما يمده ويحفظ كيانه، وعبارة «كروم هذه المدينة» التي ذكرت هنا تدل على أن المعبد كان له حدائقه الخاصة في «الكوة». هذا ولا نعلم إلى أي حد كانت تمتد هذه الحدائق، ولكن مما لا شك فيه أن أجزاء حرم المعبد التي كانت خالية من المباني كانت تزرع، هذا فضلًا عن أن مساحات صالحة للزرع كان يمكن أن تكون على الشاطئ الغربي، وهو الآن مزدهر بالنباتات إذا ما قرن بالشاطئ الشرقي القاحل

الذي أقيم عليه المعبد، يضاف إلى ذلك أن الأراضي المنخفضة التي في شرقي «جمأتون»، وحوض كرمة كانت تزرع في الأزمان القديمة.

وفي داخل السور الذي يحيط بحرم المعبد كان المنتظر أن يجد الإنسان أشجار نخيل ولبخ؛ لأن كلًّا منها له صلة بالإله «آمون» وقد جاء ذكرها بمناسبة الأشكال المصنوعة من الذهب في قائمة أعطيات الملك «تهرقا» للمعبد (Kawa III, 12-13) ففي السنة الثانية من حكم هذا الفرعون منح المعبد ١٢٠٠ حبة سرو (؟) (= عونت) وشجرة بخور، في حين أنه في السنة الثامنة نجد إشارة لكل نوع من الخشب: السنط «شنز» والأرز «عش» واللبخ «شواب» (راجع Kawa III, 21) وفي السنة التاسعة أشير كذلك إلى منح ألف حبة من السرو (؟) (راجع Kawa VI, 10).

هذا؛ وقد وجد صف حفر أشجار مبطنة بالطوب، لا تزال جذورها باقية في مكانها الأصلي، وفي نهاية هذا الصف كانت توجد بئر للري، وفي الجهة الشرقية وجدت حفرة شجرة محفوفة بالحجر وفيها جذور محفوظة تدل على أنها من نفس فصيلة اللبخ، هذا؛ وتدل الأحوال على أن البئر وحفر الأشجار التي كشف عنها في منطقة الموقع الثاني يرجع عهدها إلى العصر النباتي، وعلى ذلك تكون بقايا من حديقة «تهرقا»، ومن ثم يمكن الإنسان أن يؤكد عن ثقة أن حدائق معبد الملك «تهرقا» قد امتدت على الجانب الجنوبي للمعبد T وغربًا حتى بوابته تقريبًا، ولما كان الملك «تهرقا» قد أصلح المعبد A وأضاف قوائم الباب باسمه، فإنه من المحتمل أن المدخل لهذا المعبد كذلك كان داخل حدود حرم المعبد الرئيسي.

هذا؛ ولم يعثر على أثر للبحيرات الأصلية للمعبد T ولا بد أنها تقع في الجزء الذي لم يكشف عنه بعد، أما عن مصانع المعبد فلم يوجد لمبانيها الأصلية أثر، ومن المحتمل أنها كانت في الركن الشمالي الشرقي للسور حيث نجد مبنى مستطيلًا يؤرخ بالعصر النباتي، وهو يوازي جدار حرم المعبد، هذا؛ ويوجد عبر دهليز على جانبه الجنوبي مخازن الغلال.

هذا؛ وقد وجدت قطعة من قاعدة تمثال من الجرانيت أمام البرج الشمالي لبوابة المعبد T والمظنون أنها كانت مقامة أمام بوابة المعبد القديم الذي أقيم على أنقاضه المعبد T.

الكباش

يوجد على مقربة من غربي بوابة المعبد أربع قواعد لكباش؛ اثنتان على كل جانب من البوابة، ولا يزال يوجد كبشان من الجرانيت الرمادي في حالة حفظ جيدة، ويوجد أحدهما الآن في متحف «مروي» بالسودان (Khartoum No, 2682) (No. 50)، ويوجد الآخر في المتحف البريطاني (No. 1779).

ويلحظ أن كلّا منهما يجثم على قاعدة من الجرانيت ويحيط بمخالبه الأمامية تمثال صغير واقف للملك «تهرقا»، ويشاهد في رأسه ثقب ليوضع فيه سبخ ليحمل لباس الرأس، ويحتمل أن ذلك كان قرص الشمس وقرنين ملويين.

وقد نقشت أسماء الملك «تهرقا» حول قاعدة كل منهما، وكذلك يوجد كبشان آخران من نفس الطراز (O473)، (O497) نصبا في الردهة الأولى للمعبد على جانبي مدخل قاعة العمد، ولا يختلف الواحد منهما عن الآخر إلا قليلًا.

(٢-٤) معبد «تهرقا» في جمأتون «الكوة»

إن معبد الفرعون «تهرقا» المعروف عند الأثريين بمعبد T ويطلق عليه بالمصرية القديمة «بر-أمن-جم-آتن» (= بيت آمون صاحب جمأتون) يبلغ طوله ٦٨٫٥ مترًا وعرضه ٣٨٫٧ مترًا أو ١٣٠ ذراعًا × ٧٤ ذراعًا، وقد أقيم من حجر رملي أصفر داكن وطوله هو نفس طول معبد «تهرقا» الذي أقام قواعده في «صنم» أبو دوم، وأطلق عليه اسم «آمون رع ثور أرض القوس»، والمعبدان بينهما وجه شبه كبير جدًّا من حيث التصميم، والفرق الرئيسي بينهما هو أن معبد «صنم» له بوابتان ومعبد «الكوة» له بوابة واحدة، كما أن سلالم المعبدين تختلف في موضعها، هذا إلى أنه في حين نشاهد محراب «تهرقا» في قاعة العمد في «صنم» قد أقيم بين أربعة عمد في الممر الشمالي وتسدها تمامًا، نجد أنها في معبد «الكوة» تبرز خلف العمد نحو الشرق ونحو الغرب، والظاهر أن معبد «صنم» قد بُني في زمن متأخر عن معبد «الكوة»؛ إذ إنه في الواقع صورة منه أدخل عليها تحسينات وتنسيقات.

وقد قرر «تهرقا» أن يقيم هذا المعبد في السنة السادسة من حكمه ٦٨٤ق.م وأرسل صناعًا مهرة مع مهندسي عمارة لهذا الغرض من «منف»، وكانت النتيجة أن أقيم معبد مصري خالص بنقوش حفرت بعناية بأسلوب نماذج مناظر الدولة القديمة دون أن يشوبها شائبة من شوائب جنون التقتيل والوحشة السودانية التي كانت قد نسبت إلى عمله في «نباتا».[٢٤]

ومما يطيب ذكره هنا أن ما لدينا من مناظر أثرية محفورة من عهد الأسرة الخامسة والعشرين قليل جدًّا، كما أن عدد ما نشر منها قلة أيضًا، ولذلك فإن سلسلة المناظر التي في هذا المعبد تعتبر ذات قيمة أثرية على الرغم مما أصابها من التهشيم والتدمير، وأهم هذه المناظر بلا نزاع تمثيل الملك في صورة بولهول يدوس بأقدامه اللوبيين، وهي كالتي عثر عليها في معبد الوادي للملك «سحو رع» وغيرها، وكذلك موكب خدام المعبد والمغنين الذين صوروا على الجدارين الجنوبي والغربي لقاعة العمد.[٢٥]

هذا؛ وقد بقيت لنا في هذا المعبد صورة كاملة أقل أهمية وأصغر حجمًا على عوارض مدخل الأبواب وفي نقوش محراب الملك «تهرقا».

ويلحظ أن بوابة المعبد مهشمة من كل جوانبها الأربعة ويوجد في واجهتها الغربية مكان أربع قنوات كان يوضع في كل جانب منها علمان، وكان النقش الذي على هذه الواجهة يتألف من خمسة صفوف من المناظر، غير أنه لم يبقَ منها إلا صف وبعض صف، فيشاهد على قائمة البوابة اليسرى الملك «تهرقا» يؤدي شعيرة قربان يقدمه الملك أمام الإله «آمون رع» صاحب «جمأتون»، والمناظر التي على الجهة اليمنى من البوابة تشبه السابقة التي على الواجهة اليسرى، فنشاهد في الصف الأسفل الملك «تهرقا» لابسًا تاج الوجه البحري ويؤدي شعيرة القربان إلى «آمون رع» صاحب «جمأتون» برأس كبش، وفي الصف الذي فوق ذلك يشاهد «تهرقا» يقدم صورة العدالة لوالده لأجل أن يمنح الحياة مثل رع أبديًّا، والإله هنا هو «آمون» صاحب «نباتا» لابسًا قرص الشمس والصِّلَّين وريشًا طويلًا، وفي الصف الثالث يشاهد «تهرقا» يقدم للإله «بتاح» المحنط القاطن جنوبي جداره ورب «عنخ تاوي» (منف) قربانًا وهو واقف على قاعدة.

وعندما يمر الإنسان من البوابة يدخل ردهة مكشوفة، وكان سقفها في الأصل حول حافتها مستندًا على ستة عمد على صورة جريد النخيل في الجهتين الشمالية والجنوبية، هذا بالإضافة إلى عمود في كل من النهايتين لترتكز عليهما الخارجة عبر بابي الردهة، وبذلك يكون في الردهة ١٦ عمودًا.

ويشاهد على كل من النصف الشمالي والجنوبي للجدار الغربي للردهة الأولى صورة هائلة للملك في هيئة بولهول يدوس الأعداء الأجانب بأرجله، ويلفت النظر في هذا المنظر وجه الشبه الكبير لما نجده من أمثاله منقوشًا في عهد الدولة القديمة في معابد الوادي للملوك «سحو رع» في «أبو صير» «وبيبي الثاني» في سقارة[٢٦] وفي هذا دليل كافٍ يوحي بأن الصناع الذين كانوا يعملون في معبد «الكوة» قد أحضروا من «منف»، والواقع أنه توجد تفاصيل لا تزال يمكن رؤيتها في صور الدولة القديمة، ولكنها لا تُرى في معبد «الكوة» هنا، غير أنه توجد غالبًا آثار تدل على أنها كانت موجودة وقريبة الشبه، فمن تلك ما نشاهده في الصورة التي على الجانب الشمالي للبوابة (Pl. IX A) وفي مناظرالملك «نوسر رع»، وأقل من ذلك تقاربًا في الشبه ما نشاهده في المنظر الذي على الجانب الجنوبي (Pl. IX b) في نقوش «سحو رع»، فالنقوش التي على الجانب الجنوبي تمثل الملك بوصفه بولهول، وهو ضخم يرتدي شعرًا مستعارًا وَصِلًّا ولحية وطوقًا، أما في «سحو رع» فنلحظ أن جسم بولهول مزيج من أسد وصقر، ولما كان رأس الشكل مفقودًا فإنه ليس لدينا ما يؤكد إذا كان بولهول هنا برأس صقر أو برأس إنسان، ويلحظ هنا كذلك أن الجسم هو لأسد فقط والرأس لآدمي.

ويدوس بولهول تحت أرجله ثلاثة أجانب، وهؤلاء قد وضحوا من حروبهم في الدولة القديمة بأنهم لوبي وآسيوي وبنتي «من بلاد بنت»، وقد ميز اللوبي بكيس عضو التذكير والمتن الذي يفسر المنظر هو «دوس كل الممالك الأجنبية»، وأمام الأسير اللوبي قيل عن بولهول الملكي: إنه أخذ أسرى كل قطعانهم وماشيتهم، وفوق هذه الكلمات ثلاثة ثيران،

وهي آخر صف من سلسلة صفوف من الحيوانات التي استولى عليها مرتبة في صفوف، ويمكن مشاهدة نفس ذلك في منظر معبد الملك «سحو رع» غير أنه في هذه الحالة يظهر أكثر اتقانًا، ومن المحتمل أنه كان هناك متسع لصورة الإلهة «سشات»[٢٧] تدون عدد الأسرى كما هي الحال في مناظر الملك «سحو رع».

ويأتي بعد ذلك عمود من النقوش، قد «هشم» البلاد الأجنبية التي ثارت وجعلهم شبه الكلاب «أي إما أنهم كانوا يمشون مطيعين عند كعبي سيدهم أو أنهم كانوا يتسللون خوفًا»، ونجد نفس هذا المتن في صورة أتم على باب قاعة العمد (Pl. XI, a, b) وهاك ما بقي منه: «لقد ذبح التمحو، وصد الآسيويين وفتت الممالك الأجنبية التي ثارت، وجعلهم يمشون مشية الكلاب وسكان الرمال يأتون والإنسان لا يعرف مكانهم خائفين من وحشية الملك»، ومن ثم فإن هذه العبارة الأخيرة تذكرنا بأخرى جاءت في تعاليم «أمنمحات[٢٨] الأول»: «لقد جعلت الآسيويين يمشون مشية الكلاب» وهي بلا شك اقتباس استعمل هنا لبلاغته، ومهما يكن من أمر فإن العثور على كلمات من هذا القبيل في متون «الكوة» يؤكد لنا احتمال أن هذه التعاليم كانت شائعة الاستعمال في العهد الكوشي، وبعبارة أخرى كان العهد الكوشي عهد نهضة جديدة ترمي إلى الرجوع لإحياء القديم، وهذا نلحظه في وجوه كثيرة من وجوه الحياة المصرية في العهد الكوشي.

ونجد فضلًا عن ذلك في الجهة اليمنى من هذا المنظر صفين من المناظر (Pl. IX. B) ففي الصف الأعلى تقف إلهة الغرب وعلى رأسها علامتها الخاصة بها، ونجد ذلك في «سحو رع» مع بعض الاختلاف البسيط، ويصحب إلهة الغرب صورة إله في هيئة تمساح، ويقابل ذلك في نقوش «سحو رع» الإله «عاش» سيد «تحنو» برأس إنسان، ويشاهد في الصف الأسفل ثلاثة من اللوبيين واقفين «شابان وامرأة» يحملون الأسماء الآتية بالتوالي «وسا»، «وني»، «وخوت-أتس» ومما يلفت النظر هنا بصورة خاصة أن هذه الأسماء نفسها قد ظهرت في نقوش «سحو رع» «وبيبي الثاني» وكذلك يلحظ في منظر الدولة القديمة كما هي الحال هنا (Pl. IX A) أن الذكرين قد رسما أصغر من الأنثى.

وهذا المنظر قد كرر ثانية على الواجهة الشرقية من الجناح الشمالي للبوابة، غير أنه مختلف بعض الشيء، وكذلك في معبد الملك «نوسر رع» كان ترتيب الأشخاص مماثلًا لذلك إلا في بعض التفاصيل.

ويشاهد الملك في مناظر النهاية الغربية للجدار الشمالي مغادرًا القصر يسبقه أربعة أعلام ويواجهه الكاهن «إيون مونف» (عمود أمه)، وعلى يمين هذا المنظر يشاهد الملك يطهره «حور» «وست» أو «حور» «وتحوت».

نصل بعد ذلك إلى الباب الشمالي للردهة، ويحيط به نقوش من الجانبين، فالنقوش التي على الجانب الأيمن (Pl. XII, A left) … «رب» الأرضين السيد الذي ينجز ابن رع «تهرقا»، لقد بنى معبد والده «آمون رع» (صاحب جمأتون) … لقد جعل الإله يأوي داخل بيته في

مكانه الجميل الأبدي، لأجل أن يمنح «أي تهرقا» الحياة مثل «رع» سرمديًّا. وعلى الجانب الأيسر للباب نجد مثل هذا النقش مع اختلاف بسيط.

وعلى يمين الباب الشمالي يوجد جزء من منظر يشاهد فيه يد الملك في يد الإله (Pl. XII, A)، والنقوش التي على الأوجه الغربية للنصفين الشمالي والجنوبي من الجدار الشرقي للردهة الأولى (Pl. XI b, & XI A) موحدة تقريبًا وتمثل الملك يضرب أمام الإله جماعة من الأمراء الأجانب الذين أُخذوا أسرى.

والجدار الجنوبي للردهة فيه باب في الوسط، والنقوش والمناظر التي على جانبيه مهشمة، ولكننا نتحدث عن أعمال «تهرقا» في تأسيس المعبد في جمأتون، وعلى ذلك فإن «آمون رع» يعطيه مكافأة على عمله هذا بلاد الدلتا والوجه القبلي مثل «رع» أبديًّا.

وفي الجهة الغربية من الباب يشاهد الملك ماشيًا تسبقه صورة أنثى بذراعيها ممتدتين إلى الخلف وبيديها عصوان، ويواجه الملك إلهًا وإلهة، والظاهر أن هذا المنظر له علاقة بوضع أساس المعبد، ويشاهد خلف الملك صفان من الرموز الواقية التي تشاهد عادة في احتفال وضع أساس المعابد وأعياد «حب سد» (العيد الثلاثيني).

وفي الجهة الشمالية من الجانب الأيسر لمدخل البوابة توجد لوحة كبيرة من الجرانيت (Inse VII) للملك «تهرقا»، وتحتوي على قصة افتتاح «تهرقا» لمعبده في السنة العاشرة من حكمه، وقد عثر عليها مسندة على الجدار، وبجانبها من الشمال كانت توجد لوحة أخرى (Inser III) دون عليها هبات «تهرقا» لمعبد جمأتون من السنة الثانية من حكمه حتى السنة الثامنة، وكذلك يتحدث فيها عن تمكين المعبد، وكذلك وجدت لوحتان أخريان مسندتان على الجدار المقابل «الجدار الشرقي النصف الشمالي» فاللوحة التي كانت في الشمال (Insc. VIII) خاصة بالملك «أنلاماني» وهي من صناعة لا تكاد تقل عن صناعة لوحات «تهرقا» من حيث الجودة، ولكن كسر منها جزء كبير، وعلى يسارها لوحة أخرى من الجرانيت (Insc. V) يرجع تاريخها إلى السنة السادسة من حكم «تهرقا»، وقد دلت نقوشها على أنها صورة من لوحة «تانيس» ولوحتي «قفط» «والمطاعنة» الخاصتين بالفيضان العظيم الذي حدث في عهد «تهرقا»، وكذلك وجدت مسندة على النصف الجنوبي للجدار الشرقي للردهة لوحة فاخرة من الجرانيت (Insc. IV) عن نفس السنة السادسة من حكم «تهرقا»، وتقص علينا بناء المعبد، وهذا المتن قد ظهر كذلك أن له أهمية تاريخية؛ إذ أوضح لنا صلة «تهرقا» بأخيه «شبتاكا»، وقدم لنا اسم ملك لم يكن معروفًا من قبل وهو الزعيم «آلارا» الذي كان جدًّا للملك «تهرقا»، ويحتمل أنه كان أخًا للملك «كشتا» وزوجًا للعمة الثانية للملك «تهرقا».

وكان يرتكز على النصف الجنوبي من الجدار الغربي للردهة لوحة أخرى من الجرانيت (Insc. VI) دون عليها أعطية أخرى قدمها «تهرقا» في السنين الثامنة والتاسعة والعاشرة من حكمه، ولكنها وجدت ملقاة على الأرض، ولحسن الحظ لم يفقد من المتن إلا اليسير، هذا؛

وتدل قطع من الجرانيت (انظر ٠٤٧٦) وجدت في الركن الجنوبي الشرقي على أن سلسلة من النقوش الأثرية استمر وضعها هنا بوساطة الملك «أسبلتا».

وقد وجد زوج من الكباش مصنوع من الجرانيت على قاعدة عالية على جانبي مدخل قاعة العمد، ويوجد واحد منها الآن في متجف «أشموليان» وهو مهشم بعض الشيء، والآخر وهو سليم تقريبًا محفوظ في متحف «مروي» بالسودان.

ويلحظ أنه قد أقيم بين العمد في الردهة عدة حجرات من اللبنات، وكلها من عصر متأخر بطبيعة الحال.

وقد وجدت في أنحاء الردهة قطع عدة من جدران المعبد ملقاة على الأرض ومعظمها من مباني «تهرقا» الأصلية، ولكن وجدت قطع أخرى من العصر المروي وعليها طغراءات للملك أكنيداد Akinidad (Insc. 105 Vol, I Pl. 58)والملك أمانيشاختي Amanishakhte (Insc. 106 Vol, I Pl. 35) ومن القطع التي عليها نقوش من عهد «تهرقا» (٠٧٩٦) منظر يمثل خيالًا محفورًا حفرًا غائرًا (Pl. I) يقوده فردان واحد منهما يقود الجواد والآخر يحمل لفة حبال، ويلحظ أن الجواد يلبس قبعة تقيه حر الشمس، وفي هذا دليل آخر على عناية الكوشيين بالخيل والرفق بها، ويُشاهد الفرعون يؤدي شعيرة قربان يُقدمه الملك على الوجهين الغربيين لعارضتي باب مدخل قاعة العمد، ويلبس على الجانب الشمالي تاجًا يجمع بين تاج أتف والتاج الأحمر، وعلى الجانب الجنوبي يلبس التاج الأحمر فقط، وقد كتب بين ساقيه الكلمات التالية: «كل فرد يدخل المعبد يجب أن يكون مطهرًا.»

وعندما يدخل الزائر قاعة العمد يشاهد نقوشًا للملك أمان … سابراك على الوجه الجنوبي لعارضة الباب الشمالية، وأسفل من هذه نقشان للملك أمان-نتي-يريك، (Nos. X, XI) هذا بالإضافة إلى كبش آمون بنقوش غائرة.

وكذلك نجد على الوجه الشمالي للعارضة الجنوبية (Vol. I, Pl. 20) نقشًا للملك «أمان-نتي-يريك».

وفي الداخل على الجدار الغربي لقاعة العمد يشاهد أن باب الدخول قد حدد من الشمال والجنوب بشريط عليه سطران من النقوش جاء فيهما إطراء للآلهة آمون وتهرقا … الذي برأ الأرض وصنع الماء، والذي أوجد الفيضان وأنشأ المدن وفتح المقاطعات، والذي صنع … للآلهة، والذي صنع ما يرغبون فيه، والذي أنجز الأعمال لهم بدون «انقطاع» لأجل أن يمنح الحياة.

وقاعة العمد هذه كانت مسقوفة وتحتوي على ثمانية عمد تيجانها على هيئة جريد النخيل في الجهة الشمالية وثمانية عمد أخرى في الجهة الجنوبية (Pls. LI. LII)، وجدران هذه

القاعة الشمالية والغربية والجنوبية قد مُثِّل عليها سير الاحتفال بسفينة الإله. وهذا الاحتفال قد قسم أربعة أقسام، ويبتدئ القسم الأول من الاحتفال عند الجدار الشمالي (Pl. XIV A) من نقطة تقع غربي جدار الملك «أسبلتا» وينتهي الجزء الرابع منه عند مدخل قاعة العمد في الجهة الجنوبية من الردهة الأولى، والصور في هذا الجزء تسير إلى اليسار، وعندما وجدت كانت سليمة تمامًا، وهذا الجدار يحتوي على المنظر الفريد الذي يمثل فرقة المعبد التي تحتوي على نفاخين في الأبواق وطبالين وضاربين على الأعواد ومغنين، وعندما كشف عنها أطلق عليها جدار الموسيقارين.

ولما كان الجزء الرابع من الموكب؛ أي الذي على الجدار الذي مثل عليه الموسيقارون هو أكمل جزء في هذا الاحتفال فإنه من المستطاب أن نَصِفَه أولًا؛ ويبتدئ بمنظر على الجدار الجنوبي للردهة مُثِّل فيه الملك بصورة ضخمة (Pl XV b) مرتديًا قميصًا طويلًا وشريطًا يتدلى منه خيطان ينتهيان بهدابات، وينتعل حذاء ملكيًّا وجلد فهد ويحمل في يده عصا طويلة، ويتبع الملك كاهن يتقلد عقد منات وقميصه يصل إلى ركبتيه، وهذا الكاهن هو رئيس المرتلين ويحمل في يده لوحته، وعند هذه النقطة يعترض المنظر الباب الجنوبي للقاعة الذي يكنفه عمود على كلا الجانبين وسطر من الكتابة جاء فيه: «الإله الطيب، رب الأرضين، السيد الذي ينجز، ملك الوجه القبلي والوجه البحري، «خو رع نفر تم» بن رع ليته يعيش أبديًّا»، ويأتي بعد ذلك على يمين الباب (Pl. XV c) أربعة كهنة يحملون مواقد مشعلة، ويلبس كل واحد منهم قميصًا قصيرًا، ويلحظ أن الأول يحمل موقدًا واحدًا قصيرًا، أما الثلاثة الباقون فيحمل كل واحد موقدين طويلين.

ينتقل الموكب الآن إلى الجدار الذي مثل عليه الموسيقارون (Pl. XIVb) ونجد مصورًا عليه كاهنًا آخر مماثلًا للسابقين، ثم يأتي بعد ذلك اثنان من النافخين في الأبواق (٨، ٩) ويحمل كل منهما بوقين، والأول منهما وضع أحد البوقين على فيه، والثاني يحمل بوقا في فيه إلى أعلى وآخر إلى أسفل، ويأتي بعد ذلك طبال يطبل على شكل البرميل، وهو يشبه الطبول التي نشاهدها حاليًّا في ريف مصر وبلاد النوبة، وكثيرًا ما تشاهد في الرقص الزنجي، ويوجد في متحف «مروي» طبل من هذا الصنف.

ويعقب ذلك مُغَنٍّ حافي القدمين يضع يده على أذنه كما هي الحال الآن عند قُرَّاء القرآن والمغنين في الأرياف، ويلبس جلبابًا طويلًا ويقبض على وسط الطبال الذي أمامه بيده، ويحتمل أن ذلك لأنه أعمى ونقش معه العبارة التالية: «مغني العود»، ويأتي بعده طبال آخر، ثم نشاهد بعد ذلك الضارب الأول على العود وفي يده عود ذو سبعة أوتار يضرب عليه بأصابع اليدين، يتبع ذلك مُغَنٍّ ثانٍ، فضارب على العود يضرب عليه بيده اليمنى فقط، وفي خلف الموكب يأتي ثلاثة من خدم المعبد يلبسون أحذية، وبذلك يميزون عن الموسيقارين الحفاة الذين مثلوا أمامهم، وهؤلاء يحملون على ما يظن أبواقًا أو قرونًا للنفخ فيها.

والموكب الثالث حفظ لنا منه جزء يبتدئ على الجدار الجنوبي للردهة (Pl. XVa) ويشاهد في اللوحة بعد صورة ممحوة ستة أشخاص سائرين، أولهم يلبس زنارًا طويلًا له هدابات، والظاهر أن هؤلاء كانوا يحملون القارب المقدس، ويأتي خلف هؤلاء كاهن ذو رتبة عالية يلبس جلد الفهد، ثم يعقبه حامل مروحة أو علم يتبعه خمسة يحملون مؤخر القارب، ثم كاهن يلبس جلد فهد وآخر ينتهي به الموكب الثالث.

والموكب الأول يحتوي على موسيقارين يشبهون أولئك الذين شهدناهم في الموكب الرابع، هذا مع العلم أن معظم الصور هنا لم يبقَ منها إلا جزء بسيط من أسفل؛ أي إن الجزء الأعلى معظمه قد ضاع.

والموكب الثاني ويوجد في الركن الشمالي الشرقي للقاعة وهو يقابل الموكب الثالث، ولم يبقَ من صوره إلا أرجل المشتركين فيه.[٢٩]

هذا؛ ويلحظ أن أجزاء من هذه المناظر قد وجدت بحجم أصغر مع اختلاف بسيط في معبد «صنم أبو دوم» الذي يعد صورة من المعبد الذي نتحدث عنه هنا.

محراب الملك «تهرقا» Pl. 16, see. Pls. 41 A and LV c

أقيم هذا المحراب في النهاية الشرقية للنصف الشمالي من قاعة العمد بين العمد ٣، ٤، ٧، ٨ وكان سقفه عند الكشف عنه في داخل هذا المعبد لا يزال في مكانه، وأوجهه الأربعة كانت محلاة بالنقوش تمثل الملك «تهرقا» أمام آلهة مختلفين، وقد عثر في معبد «صنم أبو دوم» على محراب للملك «تهرقا» بنفس وضع هذا المحراب، ولكن المحراب في «صنم أبو دوم» لم يبقَ منه إلا المداميك السفلية، هذا بالإضافة إلى أنه قد وضع بصورة منتظمة داخل العمد الأربعة بخلاف محراب معبد «الكوة» فإنه يبرز منها، وتدل شواهد الأحوال على أن معبد «الكوة» قد أقيم أولًا؛ وذلك لأن أوقاف معبد «جمأتون» كانت قد بدأت بعد توليه الملك في مصر، ومن هناك أرسل الصناع من منف، ولا نزاع في أن معبد «الكوة» قد أقيم على ما يظهر في أوج سلطان «تهرقا» كما يظهر ذلك من مبانيه وما فيها من اتقان ونقوش خلابة من إنتاج أيدٍ مصرية مدربة، في حين أن معبد «صنم» لا بد قد أقيم في زمن كان فيه ضغط الآشوريين شديدًا على مصر، فكانت البلاد في حالة اضطراب، ومن أجل ذلك كان من المحتمل أن الأيدي التي أقامته غير الأيدي المصرية المدربة.

هذا؛ وتدل الظواهر على أن هذا المحراب كان قد أضيف بعد إقامة قاعة العمد في حين أنه في معبد «صنم» كان جزءًا من التصميم الأصلي للمعبد، وهذا دليل آخر على قِدَم معبد «الكوة» عن معبد «صنم أبو دوم»، وباب هذا المعبد ضيق ويقع في الجهة الجنوبية بين العمودين السابع والثامن من قاعة العمد.

وقد انتزعت نقوش محراب معبد «جمأتون» بالكوة، وأقيمت في متحف «أشموليان» بأكسفورد، وقد سهل ذلك على ما يقال درس كيفية بناء هذا المحراب، وداخل المحراب كان مكسوًّا بالأحجار، ولكنه عار من النقوش والمناظر.

وحول كرنيش المحراب إفريز من النقوش البارزة تبتدئ بعلامة الحياة فوق وسط الباب في الجنوب وتنتهي عند وسط الجدار الشمالي، وقد جاء فيها: يعيش حور المسمى «قا-خعو»، والسيدتان المسمى «قا-خعو»، وحور الذهبي المسمى «خو تاوي»، ملك الوجه القبلي والوجه البحري المسمى «خو رع نفر تم»، ابن رع «تهرقا» ليته يعيش أبديًّا ابن «آمون صاحب جمأتون» الذي أنجبه والذي ولدته «موت» سيدة السماء، إن والده «آمون رع» سيد عروش الأرضين قد اختاره من بين ملايين الرجال بوصفه إنسانًا رغبته هي بناء معبد وإصلاح المقاصير، والمكافأة التي عملها على هذه الأشياء هي منحه كل الحياة والثبات والسعادة لنفسه والصحة لنفسه والسرور لنفسه والظهورعلى عرش «حور» «مثل رع أبديًّا». هذا؛ ولدينا نقش آخر مماثل ولكنه أصغر منه على الجدار الجنوبي … إلخ، وتدل بعض المباني هنا على أن «أسبلتا» قد عمل إصلاحات في هذا الإفريز.

ويُشاهد «تهرقا» على الجانب الغربي من باب المحراب (Pl. XVIIa) يعانقه الإله «حور أختي» برأس صقر، وعلى الجانب الشرقي من الباب يشاهد الملك يعانقه الإله «آتوم» لابسًا التاج المزدوج، ويُرى على الجدار الغربي (Pl. XVIIe) الملك «تهرقا» يقدم صورة العدالة لوالده «آمون» لأجل أن يمنحه الحياة، وهذا الاحتفال كان رمزيًّا، ويقصد به الملك أنه سيحافظ على نشر العدالة، وقد كتب معه: ملك الوجه القبلي والوجه البحري سيد الأرضين والسيد الذي ينجز «تهرقا» ليته يعيش أبديًّا «وآمون رع صاحب جمأتون» أنه يمنح كل الحياة وكل السعادة.

هذا؛ ويوجد مع الإله آمون في هذا المنظر الإله «ساتيس» والإلهة «أنوكيس» (عنقت صاحبة جزيرة سهيل) وهذا يدل على توحيده مع الإله «خنوم» الذي يمثل في صورة كبش، ويعد الإله الحارس لإقليم الشلال الأول، وهاتان الإلهتان هما زوجتاه، وقد كان الإله «خنوم» منذ زمن بعيد الإله الحارس للمستعمرات المصرية التي في أقصى الجنوب.

وتدل النعوت الحربية التي وصف بها مثل «المقاوم للأقواس» «والضارب لسكان الرمال» (Temple of Samnah, Urk. IV, 194) على أنه كان الحامي للقوات الحربية المصرية في تقدمها جنوبًا لفتح بلاد النوبة، وتدل نقوش معبد «سمنة» على أنه في عهد «سنوسرت الثالث» كان الإله «خنوم» قد ذهب معهم إلى ما وراء الشلال الثاني، وأنه كان قد وضع هناك على قدم المساواة مع إله «واوات» المحلي «ددون»، ومن المحتمل أنه كان قد وصل فعلًا إلى الشلال الثالث مع المصريين الذين أسسوا المستودع التجاري في «كرمة» (L. D, III, 74a 56 b).

وعندما امتدت الفتوح المصرية حتى الشلال الرابع في أوائل الأسرة الثامنة عشرة كان الإله المسيطر على القوات المصرية وقتئذٍ الإله «آمون» الذي تقمص صورة كبش، كما كان قد اعترف به وقتئذٍ بأنه إله الدولة المصرية، ومن ثم فإنه عندما كانت تؤسس بلدة جديدة في بلاد النوبة ومعها معبدها من أول مدينة «نباتا» إلى أسفل كان «آمون» يصبح الإله المحلي لها والمسيطر عليها، وعلى ذلك نجد أن صفة الإله الذي في صورة كبش قد امتزجت بالإله «آمون»، غير أن كيانه الأصلي نلحظه في وجود زوجتيه «ساتيس وأنوكيس» كما هي الحال في المنظر الذي وصفناه هنا، ولكن يلحظ هنا أن الثالوث المعتاد في هذه الحالة قد زيد فيه، وذلك أن الإلهة أنوكيس «عنقت» قد قسمت شخصيتين إحداهما تسمى «أنوكيس نثي» والأخرى تسمى «أنوكيس با»، وهذه ظاهرة منقطعة القرين في الآثار المصرية على ما أعلم، ولذلك تحتاج إلى تفكير طويل وبحث عميق.

ويشاهد «تهرقا» مصورًا على النصف الغربي للجدار الشمالي (Pl XVII c) مرتديًا نفس الملابس التي يلبسها على الجدار الغربي، وهو ينفث في رموز الحياة والنبات والأبدية من صولجان الإله «نفر توم حور أختي» الذي أمامه بملابس الرأس الخاصة به، وهي زهرة البشنين والريشتان وشعره المستعار الطويل … إلخ، ويتبع هذا الإله الإلهة «سخمت» التي مُثِّلت برأس لبؤة، وتلقب «سخمت العظيمة (؟) محبوبة بتاح»، هذا إلى مواقف أخرى يظهر فيها «تهرقا» أمام الإله «آمون» وثالوثه.

محراب أسبلتا: ويلحظ خلف وشمالي محراب الملك «تهرقا» أن المساحة التي بينه وبين الجدار الشمالي للردهة قد حولت إلى محراب ثانٍ للملك «أسبلتا»، وذلك بإضافة جدار رفيع (PI. LVII) يحتوي على باب يمتد شمالًا من العمود الثالث حتى جدار الردهة وكرنيشه أقل ارتفاعًا من محراب «تهرقا»، وهذا الجدار الذي أقامه «أسبلتا» من الحجر الرملي الأحمر قد اتضح عند فكه لنقله إلى أكسفورد أنه هش، وقد أقام «أسبلتا» في «صنم» محرابًا مشابهًا لذلك، ويشاهد في «الكوة» منظر على الجدار الغربي في جنوب المدخل (PI. XVIII A) نقش بالحفر البارز مثل فيه الملك «أسبلتا» يقدم رمز العدالة لوالده «آمون» ليمنحه الحياة.

ويرتدي «أسبلتا» لباس الرأس النوبي برباط مسبل له ذيلان على الظهر ويعلوه صِلَّان ورأس كل منهما يرتدي تاجي الوجه القبلي والوجه البحري ويلبس في الأذن وحول الرقبة تعاويذ صغيرة في هيئة رأس كبش، وذراع الملك اليمنى تمتد إلى الأمام وتحيط بها أسورة، والذراع اليسرى خارجة من تحت جلد الفهد تقبض في اليد صورة الإلهة «ماعت» جالسة في إناء، وقد وُجد معها نقش مهشم، وقد مثل أمام الفرعون الإله «آمون رع» قاعدًا على عرشه وتقف خلفه الإلهة «أنوكيس نثي»، وقد خاطب آمون الملك في هذا المنظر بالكلمات التالية: كلام آمون رع الكبش على البلاد الجنوبية والذي في «جمأتون»: يا بني المحبوب «أسبلتا»، إني أمنحك القوة في يوم الموقعة، وإني أوحد لك الأرضين في سلام لك، وإني أمنحك الحياة حتى عنان السماء وعرض الأرض مثل «رع».

ونطقت «أنوكيس» (عنقت) بالكلمات الآتية: «إني أمنحك كل السرور».

وقد حدد باب محراب «أسبلتا» من اليمين ومن الشمال بأعمدة من الكتابة لم يبقَ منها إلا الجزء الأسفل الذي تمكن قراءته … «مر-كا-رع» (اسم العرش) «محبوب آمون» معطي الحياة مثل «رع أبديًّا». هذا؛ ويشاهد «أسبلتا» على يسار الباب يلبس ريشًا وَصِلًّا مزدوجًا، ويُحتمل أنه يقوم بشعيرة «قربان يقدمه الملك».

وعلى ظهر الجدار (PL. XVIIIb) مثل الملك «أسبلتا» لابسًا الملابس التي كان يلبسها في الوجه الآخر من الجدار، هذا بالإضافة إلى أنه يحمل «قرني كبش» رمزًا إلى أنه من نسل «آمون» ويقبض في يده اليمنى على علامة الحياة، ويتسلم بيده اليسرى علامتي الحياة والثبات مجتمعتين، كما يتسلم الصِّلَّين اللذين يرمزان للملكية، وهذه كانت تقدم له من على طرف صولجان الإله «آمون».

أما «آمون» فكان يرتدي قرص الشمس والريش الطويل. والمتن الذي يصحب ذلك هو: «ملك الوجه القبلي و«الوجه البحري» مر-كا-رع بن رع، «أسبلتا محبوب آمون» معطي الحياة. كلام «آمون رع» سيد عرش الأرضين: يا بني المحبوب «أسبلتا»، إني أمنحك أن تنفق (؟) ملايين السنين وإني أمكن (؟) رأسك أبديًّا.»

ويلحظ في هذا المنظر أن «آمون رع» كانت تتبعه الإلهة «موت»، وقد سميت «موت عين رع» معطية الحياة، وقد خاطبت الملك بقولها: «إني أمنحك عرش رع ووظيفة الإله خبري ومملكة أتوم والحياة … القوة … والصدق مثل رع أبديًّا.»

وتدل شواهد الأحوال على أنه قد حدث حريق في هذه البقعة من المعبد، وقد وجد الحفارون الأحداث كمية هائلة من البرنز في أنقاضها، والظاهر أن هذا الحريق حدث بعد عهد بترونيوس القائد الروماني حوالي عام ٢٣ق.م.

ننتقل بعد زيارة محراب «أسبلتا» إلى القاعة التي تسبق قدس الأقداس؛ أي قاعة العمد الثانية، والأوجه الغريبة لقوائم باب هذه القاعة «بروناوس أو قاعة العمد الثانية» (PI LIX) رسم عليها «تهرقا» يؤدي شعيرة تقديم القربان أمام «آمون رع» صاحب جمأتون برأس كبش (PI. XVI c, d) ويلبس الملك في هذا المنظر التاج الأحمر مع التاج أتف محلى بالصِّلِّ المزدوج في حين أن «آمون رع» يلبس قرص الشمس وَصِلًّا واحدًا، ونقش أمام الملك: «كل فرد يدخل المعبد يجب أن يكون مطهرًا.» وكان يكنف الباب من الداخل أعمدة من النقوش غير أن معظمها قد محي، وتحتوي هذه القاعة على أربعة عمد، وكل النقوش التي على الجدران باستثناء المناظر التي على الجدار الشرقي تمثل الملك يقدم لآلهة مختلفة.

وتحتوي هذه القاعة على حجرات صغيرة جانبية وهي الحجرة J والحجرة H، وتفتح على الحجرات T وF وG في الجهة الشمالية وعلى الحجرتين D وE التي تفتح على الحجرة A في الجهة الجنوبية، وجدران هذه الحجرات قد مثل عليها مناظر عادية للملك وهو يقدم

القربان. ويلحظ أن الحجرة D تحتوي على أربعة عمد تيجانها على هيئة النخلة، والحجرة A الواقعة خلف المحراب ضيقة ومهدمة ولم يبقَ من نقوشها إلا القليل جدًّا.

قدس الأقداس: يشاهد على واجهتي قائمتي باب المحراب من جهة الغرب (Pls. XXVII b, d) منظر يمثل الملك «تهرقا» يؤدي شعيرة تقديم القربان الملكي للإله آمون، ويلحظ أن هذا المنظر قد مثل على أبواب المعبدين A وT المحورية، ويلفت النظر هنا أن معظم نقوش هذا المحراب قد محيت أو هدمت.

المناظر التي على جدران المعبد الخارجية: مما يؤسف له أن معظم ما بقي من الجدران الخارجية للمعبد مهدم، ويحتوي على مناظر ناقصة ومتون مشوهة، وهذه المناظر تمثل في جملتها الملك يقدم البخور للإله آمون، أو يقدم القربان لآلهة مختلفين الواحد تلو الآخر، كما يشاهد ذلك على الجدارين الشمالي والجنوبي.

هذا؛ وقد وجدت بعض قطع من ودائع الأساس في جوانب هذا المعبد غير أنها كما يظهر قد عُبث بها من قبل.

وقبل أن نتحدث عن اللوحات الدينية والتاريخية التي خلفها لنا الملك «تهرقا» في معبد «الكوة» (جمأتون) يجدر بنا أن نتحدث أولًا عن معبد «صنم» الذي أقامه هذا الفرعون في بلدة «صنم أبو دوم»؛ وذلك لأنه يكاد يكون صورة طبق الأصل من معبد «جمأتون» وإن كان قد أقيم بعده بمدة كما تدل على ذلك مبانيه ونقوشه.

(٢-٥) معبد «صنم»

مقدمة

قامت جامعة أكسفورد بحفائر في بلاد النوبة في أوائل القرن العشرين، وقد كان من أهم ما كُشف عنه معبد «صنم» الذي أقامه الملك «تهرقا»، وتقع بلدة «صنم» في مركز وسط على الشاطئ الأيسر للنيل على مسافة سبعة أميال ونصف من طرفي زوما وبلال، وقد أسفرت نتائج الحفر عن أن معبد «صنم» كان كبير الحجم نسبيًّا، ويحتوي على ردهة أمامية يحيط بها عُمُد يصل إليها الإنسان من بوابة ضخمة، كما يحتوي على قاعة عمد يصل إليها الإنسان من بوابه نائية، وخلف هذه القاعة قاعة عمد أخرى ومحراب يحيط به حجرات منوعة، وكل هذه المباني أقامها «تهرقا».

هذا؛ وقد أقام كذلك مقصورة صغيرة في النصف الشمالي من قاعة العمد الصغرى التي قبل المحراب مباشرة. وتدل شواهد الأحوال على أن المعبد قد احتله بعد فترة قصيرة صناع تماثيل مجيبين وتماثيل صغيرة أخرى وحليات من الخزف المطلي، يدل على ذلك ما وُجد من قوالب في هذا المكان، هذا إلى بعض الأشكال التي وُجدت مبعثرة فيه وحوله، ومن

المحتمل أنه من أجل ذلك قد أقيمت جدران ساذجة من اللبنات عفو الخاطر في داخل المعبد لتسد المنافذ لتهيئ مكانًا لصناعة هذه التحف الصغيرة، وقد سدت المداخل الجانبية في الجهتين الشمالية والجنوبية بدقة بأحجار، ثم أضيف لها جدران من اللبنات، ويُحتمل أن ذلك قد حدث قبل وقوع الكارثة التي حلت بالمعبد. هذا؛ ولدينا آثار مباني جدران باللبنات أقيمت بعد التخريب الذي وقع، وقد وُجد فيه اسم ملك «كوش» من العصر المتأخر كما وُجدت نقوش من العصر المروي المتأخر.

ويقع هذا المعبد على الحافة الجنوبية الشرقية لخرائب بلدة «صنم»، هذا ويقع على الحافة الجنوبية الغربية من البلدة في منحدر النهر، وعلى مسافة نصف كيلو متر من جنوبي المعبد جبانة كبيرة نظف معظمها، وقد عثر فيها على ١٥٠٠ مقبرة كهفية الشكل ومقابر مبطنة باللبنات ومدافن في الرمل، وتدل محتوياتها على أنها بدأت منذ عهد «بيعنخي» واستمرت إلى زمن طويل بعد عهد «تهرقا» بوجه عام.

وقد كشفت البعثة عن موقع ثالث شمالي الجبانة السالفة الذكر وعلى نفس المسافة من النهر، وقد كشف هنا عن سلسلة حجرات غريبة ذات عمد تدل شواهد الأحوال على أنها كانت مستودعات ملكية أو خزانة من عهد الأسرة الكوشية.

ويدل ظاهر جدران هذه المباني على أنها قد حرقت وهدمت ولم يبقَ منها إلا جزء قائم صغير جدًّا من الجدران، وقد وجدت قبالة الطرف الغربي بقايا كثيرة من مبانٍ باللبنات وبعض آثار عمد من الأحجار يُحتمل أنها كانت تابعة للقصر الملكي، وهذه الآثار قد ربطت الخزانة بالمدينة.

وتدل بقايا سطح مواقع المدينة على أن معظمها من نفس عهد المعبد والجبانة. والعصر المزهر لكل هذه الآثار يمكن أن يمتد بوجه عام من أول عصر «بيعنخي» حتى عهد الملك «أسبلتا»، ويقدر بحوالي مائتي سنة، وهو يقابل في التاريخ المصري من الأسرة الثالثة والعشرين إلى الأسرة السادسة والعشرين.

وصف معبد «صنم»

يقع محور «صنم» (١١٠ درجة) في زاوية مستقيمة تقريبًا للنيل الذي يجري هنا جنوبًا بغرب على مسافة ٤٧٠ مترًا من البوابة الأولى للمعبد، وكان طول المعبد في الأصل ـ مترًا، وعرض البوابة الأمامية كان ـ مترًا.

ويتألف المعبد من مبنيين مستطيلين، فالبناء الخارجي يتألف من ردهة ذات عمد يصل الإنسان إليها بوساطة البوابة الأولى الضخمة. والبناء الثاني وهو الداخلي يصل إليه الإنسان من البوابة الثانية، ويتألف أولًا من قاعة عمد وخلفها المحراب، هذا إلى حجرات تابعة حوله،

وقد دل الفحص على أن أساس المعبد كان مقامًا على رمل، وقد بُني حول المعبد جدار من اللبنات لحفظه من التداعي.

وقد كان أول ما بحث عنه الحفارون هو ودائع الأساس عند زوايا الجدار الحامي للمعبد، ففي الركن الجنوبي الشرقي عُثر على ستة ألواح من البرنز والقصدير (؟) والحجر البلوري والفلدسبار الأخضر واللازورد والخزف المطلي على التوالي باسم «تهرقا» وفي وسطها لوح رقيق من الفضة، يضاف إلى ذلك أشياء أخرى خشنة الصنع وكمية من الخز المثقوب فوق كومة من نماذج أوانٍ فخارية من خمسة طرز. وفوق كل هذه الأشياء وجدت قطع من جمجمة ومقدمة عجل، وكانت ودائع الركن الشمالي الشرقي مماثلة للسابقة غير أن الألواح كانت هنا من الذهب والبرنز والبلور الصخري واليشب الأحمر والفلدسبار الأخضر والخزف المطلي الأخضر، والنقوش التي على الألواح تسمي «تهرقا» محبوب «آمون رع» ثور أرض القوس «أي النوبة».

ويلحظ على أية حال أن الكتابة التي على اللوحين المصنوعين من الخزف المطلي هي «حو حامي والده» والإله الأول؛ أي «آمون رع» هو الإله الرئيسي للمعبد ومعه الإلهة «موت» وابنهما «خنسو»، ولكن «حور» لم يوجد في النقوش التي عثر عليها في المعبد.

وكان يبلغ عرض البوابة الأمامية عند القاعدة حوالي أربعين مترًا، ومما يؤسف له جد الأسف أنه لم تبقَ لنا عناصر معمارية من هذه البوابة.

والأبعاد الخارجية لقاعة العمد هي ٢٩ مترًا عرضًا ـ عمقًا، وكانت تحتوي على عشرة أعمدة في الجهة اليسرى ومثلها في الجهة اليمنى، وكانت تحتوي على باب في الجدار الشمالي وآخر في الجدار الجنوبي، والأخير كان مسدودًا بقطع من الحجارة المربعة الشكل، وكانت الردهة معمورة بالسكان بعد مضي أجيال قليلة من بناء المعبد.

ويبلغ عرض البوابة الثانية للمعبد ثلاثين مترًا وسمكها أربعة أمتار بين الردهتين.

وكان يوجد في الركن الجنوبي الشرقي من قاعة العمد سلم يؤدي إلى أعلى البوابة، ولم يبقَ منه الآن إلا ست درجات.

والمبنى المسمى حصن كتشنر كان مقامًا معظمه على دمن قاعة العمد والبوابة الثانية.

وكان باقي المعبد يؤلف مستطيلًا عرضه ٢٥,٧٥ مترًا و٣٧ مترًا من الخلف إلى الأمام، ويحتمل أنه كان كله مسقوفًا، وكانت قاعة العمد تشغل أكثر من ثلثه وكل عرضه، وتحتوي على ستة عشر عمودًا أسطواني الشكل موزعة في أربعة صفوف، وقد أقام «تهرقا» بين داخل أربعة الأعمدة التي في الجانب الشمالي للقاعة محرابًا صغيرًا أو مقصورة للإله «آمون»، وقد أحاط الملك «أسبلتا» الركن الجنوبي الشرقي من القاعة ببعض ألواح من

الحجر ليكون بمثابة مقصورة أخرى له، وخلافًا لهاتين المقصورتين توجد الجدران العادية الدخيلة التي من العهد المتأخر.

والجزء الباقي من هذا المستطيل معقد التركيب فليس له مداخل جانبية، والمدخل المحوري فيه قد ضيق حتى أصبح ٣٦٠ سنتيمترًا، وهو يؤدي إلى قاعة عمد أخرى صغيرة كان يرتكز سقفها على أربعة عمد، وعلى اليسار توجد حجرة صغيرة «ي» J يصل إليها الإنسان بوساطة درجة سلم، وفي الأمام يوجد المحراب «ب» B وله باب كباب قاعة العمد الثانية في سعته، والحجرات التي حول المحراب يصل إليها الإنسان من حجرة «ج» C فقط.

وأهم هذه الحجرات الاثنتان اللتان على اليمين «د، ه» D & E وهما على شكل حرف «ل» L وتصلان إلى جدار المعبد الشرقي بوساطة صف من العمد الأسطوانية عددها أربعة يستند عليها السقف في جزئه العريض.

ويشغل النهاية الغربية للحجرة «ه» E طوار مرتفع حوالي خمسين سنتيمترًا عن رقعة المعبد.

وفي وسط هذا الطور كان يوجد بناء مرتفع تدل شواهد الأحوال على أنه إما عرش كانت توضع عليه مجموعة تماثيل للملك وآلهة أو في الأغلب كانت مائدة قربان.

ولم يحفظ بوجه عام من جدران هذا المعبد إلا مدماك أو أكثر فوق رقعة الحجرات، ولكن في مباني البوابة حفظت أحيانًا عدة مداميك، غير أن المحفوظ لنا منها عدد كافٍ يمكننا من معرفة ارتفاع الجدران الحقيقي.

والظاهر أن المؤسس والمنفذ لفكرة المعبد هو الملك «تهرقا» وهو الذي تُنسب إليه المقصورة الصغيرة التي في قاعة العمد، وقد أقام الملك «أسبلتا» مقصورته في الجنوب الشرقي من نفس القاعة، ولا بد أن الملك «سنكامنسكن» كان قد أقام بعض مبنى في هذا المعبد بقيت لنا فيه قطع باسمه عند مدخل البوابة، وكذلك ترك لنا ملكان اسميهما على قطع أحجار في الحجرة ج C، هذا؛ وقد وجد في المعبد تماثيل وآثار أخرى يدل واحد منها على أنه من المحتمل أقدم من عهد «تهرقا»، وعلى ذلك فإنه من الجائز تمامًا أنه كان يوجد معبد آخر بالقرب من هذا الموقع كما كانت الحال في «الكوة».

وتدل الأحوال على أن هذا المعبد قد خرب في الأزمان المتأخرة، ولكن من جهة أخرى تدل الدلائل على أن جزءًا منه كان يأوي إليه بعض الصالحين أو المشعوذين حتى نهاية الوثنية في القرن السادس.

الآثار التي عثر عليها في المعبد

عثر على بعض الآثار المنحوتة والنقوش التي كانت على الجدران ملقاة في داخل المعبد وحوله، هذا فضلًا عن الآثار التي وجدت في ودائع الأساس ونخص بالذكر من هذه ما يأتي:

- (١) وجد في قاعة العمد قاعدة كانت توضع عليها السفينة القدسة وهي من الجرانيت الأسود (؟) كما وجد في نفس القاعة رأس أسد يحتمل أنه رأس الإلهة «سخمت» وتمثال بولهول صغير متآكل.
- (٢) وجد في النصف الجنوبي لقاعة العمد الثانية قاعدة في صورة سلم كان على قمتها بلا شك صورة محنطة للإله «خنسو».
- (٣) وفي القاعة «ح» H وجد رأس تمثال صغير للإله آمون جميل الصنع من حجر السربنتين الأصفر (Pl. XIII I,2) وعلى ظهره وجد اللقب الحوري لملك غير معروف.
- (٤) وجدت قوالب تماثيل مجيبة وتعاويذ (Pl. XVII) تكشف عن إحدى الصناعات التي كانت قائمة في المعبد، ويلحظ أنه لم يوجد أي تمثال مجيب من التي وجدت في هذا المعبد، كالتي عثر عليها «ريزنر» في أهرام «نوري».

مناظر معبد «صنم» وما تبقى منها

دلت أعمال الحفر على أن جدران معبد «صنم» قد خربت إلى أدنى مداميكها، وحتى القطع المنحوتة التي بقيت في مكانها الأصلي قد شوهت بوجه عام، غير أن كثيرًا من الأحجار المنقوشة قد سقطت من الجدران وبقيت محفوظة في الرديم حتى كشف عنها معول الحفار حوالي جوانب المعبد وفي داخله وخارجه.

ويلفت النظر أن النقوش التي بقيت من جدران خارج المعبد كانت بحجم صغير إلا ما كان منها على البوابتين والمداخل فإنها كانت ضخمة، ولا نزاع في أن هذه النقوش كانت من صنع الملك «تهرقا» وهو الذي تنسب إليه المناظر المنحوتة الضخمة ومواكب المقاطعات التي مثلت على الجدار الخلفي للمعبد:

- **البوابة الأولى:** أهم ما يلفت النظر فيما بقي من آثار البوابة الأولى طغراءات الأسرى التي تذكر لنا ممالك أو أماكن خاصة من التي استولى عليها الفرعون، ولكن بكل أسف قد

وجدت مهشمة فلم يمكن تحقيقها، ومن بينها لفظة «واحة» كتبت بهجاء غريب وتلفظ بالمصرية القديمة «واحة».

- **قاعة العمد الأولى:** وجد فيما بقي من مناظر جدران هذه القاعة بعض بقايا مناظر موكب وجد منه مقدمة سفينة وبغال وراكبوها وبقايا عربات.

النقش الطويل الذي في قاعة العمد[٣٠] (راجع A.A.A, XI, P. 101 & XXXIII XL) ويبتدئ هذا النقش المهشم عند النهاية الشرقية للجدار الجنوبي عند بداية السلم الذي في البوابة الداخلية، ويستمر على كل امتداد هذا الجدار حتى نهايته الغربية وينتهي على ظهر البوابة.

وهذا النقش يفهم مما بقي منه بداهة أنه في مجموعه خاص ببناء المعبد وإهدائه والأوقاف التي حبست عليه، وقد وجد فيه طغراء الملك (؟) Methosuphis «موتسوفيس مرنرع» على قطعة حجر، وهذا يشير بلا شك للملك الرابع من ملوك الأسرة السادسة «هذا لقب للملك مرنرع-محتي-إم-ساف = Methosuphis»، وهذا الملك كما هو معلوم قد جاء إليه أمراء بلاد النوبة السفلى عند الفنتين في أثناء رحلته إلى الحدود المصرية مظهرين ولاءهم وخضوعهم، وهو الذي في عهده قام «حرخوف» برحلته المليئة بالأحداث الهامة، ومما يؤسف له أن طغراء هذا الملك قد وجد على قطعة صغيرة جدًّا من الحجر والمتن الذي معه قد فقد كلية، ولم يسبقه أي لقب ملكي. ويجوز أن الحرفين اللذين قبل الطغراء كانا خاصين باسم جغرافي، وعلى ذلك يمكن أن يكون اسمًا في بلاد النوبة نفسها مثل «مقر أمنمحات» الذي وجد منقوشًا على قطعة فنرى هنا أن ملوك آشور الأقوياءحجر من صنع «كوش» في قلعة مروي القديمة الواقعة على الضفة اليمنى للنيل، ونحن نعلم من جانبنا أن ملوك الأسرة الخامسة والعشرين كانوا معجبين بمفاخر الدولة القديمة فكانوا يفخرون بحفظ أو إحياء مثل هذه الأماكن النوبية، وهذه القطعة محفوظة الآن بمتحف «أشموليان».

وقد جاء ذكر مكان يدعى شايس Shais مرتين في الأسطر الأولى من هذا المتن غير أنه مجهول لنا، هذا؛ وقد أشير إلى «منف» في هذا المتن، وتدل النقوش التي وجدت باسم هذا الملك في معبد «الكوة» على أن العمال الذين رفعوا بنيانه كانوا من «منف»، فمن الجائز أن صناعًا من «منف» قد أقاموا معبد «صنم»، ولا سيما أنه صورة مطابقة لمعبد «الكوة» الذي أنجز بأيدي صناع مصريين.

وعلى أية حال تدل شواهد الأحوال على أن هذا المعبد لم يُقَمْ في عز سلطان الملك «تهرقا»، بل من المحتمل أنه قد أقيم بعد أن أوقع به الآشوريون الهزيمة والعار، وقد يعزز هذا الرأي العبارة التي جاءت في المتن وهي «فلتلعن أسماؤهم» في السطر ١٥٥.

وعلى ذلك فإن هذا النقش كان له أهمية تاريخية على ما يظهر غير أنه فقد معظمه، هذا؛ وقد وجد حجر في النصف الجنوبي من الردهة نقش عليه «… ومعابدهم على ضياعهم (؟)،

مملوءة بالعبيد من الرجال والنساء ... التحنو ... إلخ»، وفي هذا دليل آخر على أنه بُني على غرار معبد «الكوة» وأنه جُهِّز مثله بكل ما يلزم من خدم وحشم وقربان.

الخزانة: إن بقايا هذا المبنى الغريب تشغل مساحة كبيرة بقيت أكثر من ألفي سنة على ما يظن موردًا لقنص الآثار، فقد كان يرتاده الأهالي والزوار للحصول على الخرز والتعاويذ وقطع الحلي الصغيرة، وهذا المكان بعينه كان المصدر الذي استخرج منه معظم الآثار الصغيرة التي أهديت لكتشنر عام (١٩١٢)، وقد برهنت الحفائر التي قامت بها جامعة أكسفورد على أن مساحته تبلغ ٢٥٦ مترًا طولًا وعرضه ٤٥ مترًا، وهو يقف منفردًا في الصحراء إلا في نهاية الجهة الغربية، وربما كان يجاوره قصر ملكي، والأشياء التي وجدت في هذا المبنى نقش على بعضها أسماء الملوك «بيعنخي» «وشبكا» «وأتلانرسا» «وسنكامانسكن» «وأسبلتا».

فقد وجد خاتم جميل مهشم كثيرًا ونقش عليه «ليت آمون رب عروش الأرضين في الجبل المقدس «يمنح» سنة طيبة لابن الشمس بيعنخي.» A.A.A, 9. P. 123 NO. 11، وقد ذكر كذلك اسم «سنكامانسكن» في ص١٢٣ «وأتلانرسا» في ص١٢٣ أيضًا.

(٦-٢) الوثائق التي خلفها الملك «تهرقا» في المعبد الذي أقامه في «الكوة»

لقد كان من حسن حظ التاريخ الكوشي أن يترك لنا الملك «تهرقا» مجموعة من اللوحات الأثرية في معبده الذي أقامه في جمأتون «الكوة» الحالية، وقد بقيت هذه اللوحات سليمة إلى أن كشف عنها معول الحفار، وعلى الرغم من أن معظمها خاص بالمعبد وتأسيسه والقيام على خدمته فإنها مع ذلك تكشف لنا عن نواحي عدة من تاريخ البلاد النوبية وما كانت عليه في تلك الفترة من رخاء وسؤدد وعزة، وسنتناول كل لوحة بالشرح والترجمة ثم التعليق، وفي النهاية نستخلص نتيجة عامة عما جاء فيها.

اللوحة رقم ٣: لوحة الملك «تهرقا» الخاصة بالقربان من السنة الثانية من حكمه حتى الثامنة[٣١]

وجدت هذه اللوحة في المعبد T مرتكزة على النصف الشمالي من الجدار الغربي للردهة الأولى من المعبد، وهذه اللوحة محفوظة الآن بمتحف مدينة كوبنهاجن.[٣٢]

وتبلغ مساحة هذه اللوحة ١٫٣٠ × ٠٫٧١ × ٠٫٢٩ مترًا، وهي مصنوعة من الجرانيت الرمادي ونقشت من وجه واحد، وتحتوي على خمسة عشر سطرًا، وعلى الرغم من بعض التهشيم الذي أصابها فإنها في مجموعها تعد سليمة بالنسبة لغيرها، والجزء الأعلى من هذه اللوحة مستدير ومحدد بالعلامة التي يرمز بها للسماء، وأسفل من ذلك تشاهد صورة الشمس

المجنحة التي ينتهي كل من طرفيها بسطر معناه «صاحب بحدت» (أي حور رب إدفو) وقد مثلت في أسفل قرص الشمس من الجهة اليسرى الإلهة «عنقت» (أنوكيس) صاحبة سهيل «أي جزيرة سهيل بأسوان» وبإحدى يديها علامة الحياة، وتقدم بالأخرى علامة حياة أخرى للصقر الملكي الذي يلبس التاج المزدوج ويجثم على رموز الاسم الحوري للفرعون «تهرقا» وهو: «قا-خعو»، ونشاهد في نفس الاتجاه الإلهة «وازيت» سيدة الوجه البحري تقدم الدائرة الدالة على الأبدية لاسم ملك الوجه البحري «خو رع نفر تم» محبوب التاسوع ورب الأرضين «تهرقا» معطي الحياة والثبات والسلطان مثل رع أبديًّا، وتقرأ أسفل صورة الإلهة «وازيت» العبارة التالية: «إنها تعطي الحياة والسلطان».

وعلى الجهة اليمنى من أعلى اللوحة نشاهد نفس الترتيب الذي على الجهة اليسرى في اتجاه مضاد، ولكن نجد هنا بدلًا من الإلهة «عنقت» الإله آمون رع صاحب جمأتون ممثلًا برأس كبش، وبدلًا من الإلهة وازيت تشاهد الإلهة نخبيت سيدة الوجه القبلي.

وأسفل هذا المنظر يأتي المتن الرئيسي ويتألف من خمسة وعشرين سطرًا، وهو سجل الهدايا التي قدمها الملك «تهرقا» لمعبد «جمأتون» الذي أقامه هو، ويشمل ما وهبه هذا الفرعون لهذا المعبد من السنة الثانية من حكمه حتى السنة الثامنة، ومما يلفت النظر هنا بصفة خاصة أن كل عمود في كل قسم لسنة قد ميز بالعلامة المصرية القديمة الدالة على لفظ سنة، وهي ممتدة إلى أسفل وتشير إلى عدد السنين، ومن ثم كانت الأعمدة من واحد إلى أربعة تشير إلى ما تم في السنة الثانية، والعمودان الخامس والسادس يشيران إلى ما تم في السنة الثالثة، والعمودان السابع والثامن يشيران إلى ما تم في السنة الرابعة، والعمود التاسع يشير إلى ما تم في السنة الخامسة، والعمود العاشر يشير إلى ما تم في السنة السادسة، والأعمدة من أحد عشر إلى أربعة عشر تشير إلى ما تم في السنة السابعة، والأعمدة من خمسة عشر إلى واحد وعشرين تشير إلى ما تم في السنة الثامنة، أما بقية الأعمدة فيمكن أن تشير إلى أي سنين أو إلى السنين كلها.

وهاك ترجمة النص حرفيًّا:

> السنة «الثانية» حور المسمى «قا-خعو»، السيدتان المسمى «قا-خعو»، حور الذهبي المسمى «خو-تاوي»، ملك الوجه القبلي والوجه البحري المسمى «خو-رع-نفر-تم» (رع حافظ نفر-تم) ابن «رع» (المسمى «تهرقا») ليته يعيش سرمديًّا، لقد عمله بمثابة أثره لوالده «آمون رع» رب «جمأتون»:

	العدد		الوزن بالدبن	القدت
	١	مائدة قربان من الفضة وزنها (٢)	٢٢	

	العدد		الوزن بالدبن	القدت
	١	مبخرة من الذهب وزنها	١٠	
	١	آنية نمست من الذهب وزنها	١٠	٥
	١	آنية «ونح» من الذهب وزنها	١	٢
	٧	أواني «شام» من البرنز		
	٥٠	لفة كتان باقت		
	٣٨	(لفة) كتان شنزت		
(٣)	١٢	لفة من نسيج روز		
	٢٠	لفة نسيج منخت		
	١٢٠	المجموع		
	١	صورة الإلهة ماعت من اللازورد		
	١٢٠٠	حبة من السرو «عونت»		
	١	شجرة بخو «كندر»		
	١	طبلة		
(٤)	١	عود		

لأجل أن يمنح كل الحياة وكل الصحة وكل الثبات وكل السعادة وأحفال ملايين السنين للأعياد الثلاثينية العديدة جدًّا، فقد ظهر بوصفه ملك الوجه القبلي والوجه البحري على عرش حور مثل رع أبديًّا.

(٥) السنة الثالثة: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» ليته يعيش أبديًّا لقد عمل بمثابة أثره لوالده «آمون رع» سيد «جمأتون» ما يأتي:

	العدد	
	١	إناء خاوت واحد من الفضة*
	١	غطاء إناء خاوت
	٥٠	آنية نمست بوجه كبش

	العدد	
	٢٠	آنية شو من البرنز
	٢٠	آنية خاوت
(٦)	٣٠	آنية دنيت من البرنز
	١٤	آنية «بشني» من البرنز «نوع من الأواني لم يعرف بعد»
	٣	قواعد من البرنز
	١	آنية دنيت من البرنز … (؟)
	١	برنز … (؟)
	١	«آنية» عات من البرنز … (؟)
	٥٠	دبنا من الشمع
	٢٠	دبنا من القطران
	٧	أرغفة من البخور
	٥	أرغفة من اللادن «بالمصرية لدنو»
	٤	كهنة الساعة «منجمون»
	٢	آلتان للرصد

* يلحظ هنا أن نوع من الأواني في هذا المتن وغيره من هذا العصر لم يعرف بعد بوجه الدقة، وبعضها جديد لم يذكر في قاموس اللغة، ولذلك فقد كتبت أسماؤها بالمصرية وحسب، وكذلك كتبت أسماء الأشياء الأخرى التي لم يعرف معناها بالمصرية وحسب.

(٧) السنة الرابعة: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» ليته يعيش سرمديًّا، لقد عمل بمثابة أثره لوالده آمون رع سيد «جمأتون»:

العدد		دبن	قدت
١٠٠	مائة دبن من الذهب		
٥	خمس أوانٍ نمست من الفضة بوجه كبش قيمته	٨	

العدد		دبن	قدت
١	إناء نمست من الفضة	١٥	
١	إناء حست من الذهب بوجه كبس قيمته	٧	
١	إناء نمست بوجه كبش قيمته	٣	٥
٧	قاعدة من البرنز		
٣	ثلاث زهرات بشنين من البرنز لأجل أواني خاوت		
٣	حلقات «قواعد» من البرنز قيمتها	٩ دبنات	٥ قدات
٣	مصابيح		

وذلك لأجل أن يمنح «الملك» كل الحياة والثبات والسلطان وكل الصحة وكل السعادة أبديًّا.

(٩) السنة الخامسة: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» ليته يعيش أبديًّا، عمل بمثابة أثره لوالده آمون رع سيد جمأتون:

العدد			
١	قلادة ببت قيمتها	٢١ دبنا	٦ قدات
١٥	دبنات من اللازورد وقدت واحد*		
٥٦	دبنا من الصفيح الأصلي		
٦١	دبنا من الفيروز		
١٠	لفات من الكتان		
٥	«لفات» من كتان شنزت		
٥	«لفات» من نسيج روز		
٢٠	«لفة» من نسيج هرت (؟)		
٤٠	المجموع «أربعون»		

* راجع عن تصحيح بعض الأخطاء التي جاءت في هذا الكشف والتي في اللوحة رقم ٦ ,I
.clere, Bibliotheca Orientalis Jaargang VIII No. 5 P. 1951 P. 174ff

(١٠) السنة السادسة: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» ليته يعيش سرمديًّا، لقد عمل بمثابة أثره لوالده آمون رع رب جمأتون.

١	غطاء من الذهب بصورة الملك مرسومة عليه قيمته ٥ دبنات وقدت واحد.
١	خاتم من الفضة والذهب للختم به «أو ليلبس في الأصبع».

وذلك لأجل أن يمنح كل الحياة والثبات والفلاح وكل الصحة وكل السعادة مثل رع أبديًّا.

(١١) السنة السابعة: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» ليته يعيش أبديًّا لقد عمل بمثابة أثره لوالده آمون رع سيد جمأتون.

	١	مبخرة من الذهب في هيئة مقدمة سبع.
	١	صقر من الذهب مع صورة ملك أمامه وهما معًا على جريدة نخل.
	١	تمثال بولهول بوجه كبش ومعه صورة نسر وهما يقفان على (١٢) علامة السنة.
	١	تمثال صغير من الذهب يمثل الإله خنسو محمولًا على علامة السنة.
	١	صورة من الذهب لآمون رع رب جمأتون ومعه شجرتا لبخ على نهايتها وصورة الملك أمامها.
(١٣)	١	طبق «مسوت» من الذهب «سوت نوع من القمح ومن الجائز أن هذا الطبق كان يوضع فيه هذا النوع من القمح».
	٣	رءوس كباش من الذهب على نخلة «أي كل واحد منها على نخلة».
	١	تمثال صغير من الذهب لآمون رع سيد جمأتون على شجرة نخيل.
	١	صورة «إزيس» من الذهب قيمتها (١٤) ١١ دبنا و ـ قدات.
	٢	شريطان من الكتان (؟)
		وهي «أي الأشياء السابقة» التي أهداها ابن رع «تهرقا» لوالده «آمون رع» سيد جمأتون ليمنح كل الحياة وكل الفلاح وكل السعادة مثل رع سرمديًّا.

(١٥) السنة الثامنة: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا»، ليته يعيش سرمديًّا لقد عمل بمثابة أثره لوالده آمون رع سيد «جمأتون»:

تمثال من البرنز للملك وهو يضرب ممالك أجنبية وملابسها الستة.	١	
ثماني جرار من الذهب والفضة للعطور.	٨	(١٦)

معدات المعبد الجديد الذي بناه جلالته.*

مكنسة من الذهب.	١	
إناء حست من الذهب.	١	
إناء نمست من الذهب.	١	
آنيتان عبش من الذهب «عبش = إبريق للنبيذ».	٢	
بوق (١٧) من الذهب «هذا البوق غريب في شكله».	١	
مكيال بخور من الذهب.	١	
إناء؟ شفد من الذهب = ملعقة من الذهب للبخور.	١	
مائدة مستديرة من الفضة.	١	
تمثال الملك بوجه من الذهب «تمثال من الذهب للملك «الذي» عليها؛ أي على المائدة السالفة الذكر».	١	
تمثال من الذهب لإله الفيضان الذي عليها «أي المائدة».	١	
المجموع ١٠ أدوات من الذهب يبلغ وزنها ٥١ دبنا و٤ قدات.	١٠	(١٨)
مائدة قربان من الفضة.	١	
آنية خاوت من الفضة.	١٥	
آنية خاوت مستديرة من الفضة.	١	
مبخرة من الفضة.	١	
آنية حست من الفضة.	١	
مكيال بخور من الفضة.	١	
إناء شفد (١٩) من الفضة (= ملعقة).	١	
بوق من الفضة.	١	

	١	إناء مسوت من الفضة.
	١	إناء عبش من الفضة.
	١	إناء قبي من الفضة.
	٢	إناءان همت من الفضة «كلمة جديدة».
	٤	أوانٍ «وشم» من الفضة.
	١	قدح من الفضة (؟).
	١	إناء بشني من الفضة (؟).
	١	إناء ودح من الفضة «أو مائدة قربان».
	١	صندوق من الفضة خاص بشعيرة فتح الفم ومحتوياته هي:
	٤	أواني دشرت «حمراء» من الفضة.
	٢	مشعلان من الفضة.
	٢	إناءان «عرف» من الفضة «لا بد أن يكون هذان الإناءان من الأكياس التي كان يوضع فيها الكحل ولكنها حُولت هنا إلى أوانٍ من الفضة».
	٤	أوعية ررم من الفضة «أوانٍ يوضع فيها بخور المر».
	٤	صولجانات «أمس» «يحملها الملك غالبًا في يده».
(٢٠)	١٧	أداة (وهذا المجموع يحتوي الصندوق نفسه).
	١	مقصورة حز يبلغ وزنها ١٨٩١ دبنا ١ قدت.
	٣٥	ورقة من الذهب الرفيع للحفر (؟).
		وكل نوع من خشب السنط والأرز واللبخ.

* الإشارة هنا بطبيعة الحال للمعبد الذي يرمز له بحرف T.

وقد ثبت دخل الإله (٢٢) ومدت موائده ومون مستودعه بالرجال والخادمات وحتى أولاد زعماء «الأسرى» من التحنو «أي اللوبيين» (٢٣)، وقد أمد هذا المعبد الذي بناه له من جديد وحشد بمغنيات عديدات وبأيديهن صناجات ليلعبن بها أمام وجهه الجميل «أي آمون» (٢٤) وذلك ليعوضه عن ذلك بمكافأته بكل الحياة من نفسه، وكل الثبات من نفسه، وكل الفلاح من

نفسه، وكل الصحة من نفسه، وكل (٢٥) السعادة من نفسه، وليحتفل آلاف آلاف المرات بالأعياد الثلاثينية كثيرًا جدًّا، وهو مشرف على عرش حور الأحياء، وليكون سعيدًا مع روحه مثل رع أبد الآبدين.

التعليق: تعدد لنا هذه اللوحة الهدايا التي قدمها الملك «تهرقا» من السنة الثانية حتى السنة الثامنة لتجهيز المعبد الجديد الذي أقامه خصيصًا لوالده «آمون رع» في مدينة جمأتون، فقد جهزه بأدوات إقامة الشعائر والمواد اللازمة لتزيين هذا الأثر وتنظيم الموظفين وما يحتاج إليه القربان من خدمات.

ونستخلص من المتون التي وجدت في هذا المعبد أنه في السنة الأولى من حكم «تهرقا» قبل تتويجه ملكًا على البلاد قد لاحظ أن المعبد كان خربًا؛ ولذلك أرسل العمال فيما بعد من منف إلى «الكوة» ليبدءوا أعمال الإصلاح وإقامة المعبد الجديد، وبحلول السنة السادسة من حكمه كان قد فرغ من إتمام المعبد الجديد والحدائق التابعة له، ثم حمل الإله إلى مقره الجديد، ويلحظ أن هذه الهدايا والمعدات التي ذكرت في هذه اللوحة وهي الخاصة بالمعبد الجديد كانت على أية حال حتى المتن الذي نحن بصدده في السنة الثامنة، في حين أن الافتتاح الرسمي لهذا المبنى لم يحدث حتى السنة العاشرة، وهذا دليل على أن البيانات التي ذكرت هنا كانت سابقة لأوانها أو أنها كانت استعدادات لافتتاح المعبد، وسنرى بعد أنه بعد هذا العهد بمدة طويلة وجد أحد الملوك الذين أتوا بعد «تهرقا» وهو الملك «أمان-نتي-يريكي» أنه من الضروري تنظيف مدخل هذا المعبد من الرمال (Kawa IX P. 70). هذا؛ ولما كان السجل الحالي الخاص بالهبات التي قدمها «تهرقا» يقف عند السنة الثامنة حيث يبتدئ السجل الثاني (Kawa VI) فإن السنة الثامنة تكون هي السنة التي أقيمت فيها هذه اللوحة، ويدل ذلك دلالة واضحة على أن الملك «تهرقا» كان يقوم بأعمال البناء والتأثيث في آن واحد.

وإذا نظرنا نظرة عامة في قائمة الهدايا هذه التي قدمها الفرعون «تهرقا» لهذا المعبد، وكذلك في القائمة الأخرى التي أهداها بعد ذلك كما سنرى بعد نجد أن ما وهبه لهذا المعبد قد زاد في معلوماتنا الفنية في الصناعات المصرية في ذلك العهد، فهي تؤكد بصورة واضحة وجود نماذج معدنية ذات أشكال نباتية كالقطع الزخرفية أو المنذورة مثل أزهار البشنين المصنوعة من البرنز، وأزهار البشنين من الذهب أو الفضة (Kawa VI, 933) ومكنسة من الذهب، وآلات الرصد المصنوعة من الفضة على هيئة جريد النخل K. VI, 9 وكذلك يلفت النظر الأكياس والأواني الحمراء المصنوعة من المعدن الثمين، يضاف إلى ذلك أن مجموعة الأوعية قد أصبحت غنية بزيادة أسماء جديدة لم تكن شائعة بعد، ويلفت النظر من بين هذه الأواني تلك التي لها رأس كبش وذلك يتفق مع متاع الإله آمون، وهي أشياء قد عرفت من قبل في آثار أكثر قدمًا من هذه.

ولا يفوتنا كذلك التماثيل الإلهية أو الملكية وبخاصة تمثالًا من البرنز للملك يضرب الممالك الهمجية بملابسها الستة، وكذلك الآلات الموسيقية العديدة مثل الطبول والأبواق

والصناجات، وكل هذه كانت تستخدم في الأحفال التي كانت تقام في هذا المعبد، وقد رأيناها على جدرانه كما نشاهدها كذلك في معبد «صنم» (راجع A.A.A, 9 Pl. 29) الذي أقامه بعد هذا المعبد بمدة قصيرة.

ولسنا في حاجة إلى القول بأن متن هذه اللوحة يكاد يكون من المتون الفريدة في بابها؛ فهو فضلًا عن أنه يعدد لنا أولًا الهدايا والأدوات التي قدمها الفرعون «تهرقا» العظيم إلى معبده الجديد الذي أقامه خصيصًا في «جمأتون» لعبادة «آمون» معبود الدولة الأعظم فإنه يدل على ما كانت تتمتع به البلاد من ثروة طائلة، فالأواني التي قدمت للمعبد كان معظمها من الذهب، وهذا برهان على استغلال مناجم الذهب في تلك الفترة من تاريخ البلاد، هذا فضلًا عن أن الأدوات الكثيرة المصنوعة من الفضة وكذلك من الصفيح قد دل على ارتباطها تجاريًّا مع جاراتها، وكذلك مع بلاد آشور نفسها وبخاصة في جلب الصفيح منها، هذا ويدل تعدد أنواع الأنسجة والكتان على تقدم صناعة الغزل في البلاد، ولكن أهم من كل ذلك من الوجهة الدينية أنه فضلًا عما نشاهده في هذا المتن من ذكر الأدوات والآلات المختلفة التي كانت تستعمل في إقامة الشعائر الدينية فإنه يضع أمامنا فضلًا عن أسماء الأشياء الجديدة التي وردت فيه، صورة جديدة عملية عن هذه الأدوات، فقد شاهدنا معظم بل كل ما جاء من معدات في هذه القائمة مصورًا أمامنا في أحفال المعبد وأعياده ومتعلقاته، ولا نزاع في أن هذه المعدات والتماثيل والتعاويذ الفنية الدقيقة توحي إلينا بأنها لم تخرج إلا من أيدي مفتنين على جانب عظيم من المهارة وحسن الذوق، وهذا برهان آخر على ازدهار الفنون في تلك الفترة من تاريخ وادي النيل.

وقد ذكر لنا «تهرقا» نفسه أنه كان يستعين على إنجاز بناء المعبد بمهندسين مصريين، وكذلك بمفتنين وأصحاب حرف من «منف»، وفي هذا دليل قاطع على ما كان بين القطرين من ارتباطات فنية عظيمة، وأن مصر كان لها قصب السبق في ذلك والمكانة الأولى.

ويحدثنا «تهرقا» فوق ذلك أنه بعد إتمام بناء المعبد وتجهيزه بكل ما يلزم من معدات أمده كذلك بخدام وخادمات، وكان من بين هؤلاء نفر من أبناء الرؤساء اللوبيين، كما خصص له مغنيات وكاهنات يقمن بأداء الشعائر اليومية وشعائر الأعياد التي كانت تؤدى للإله والملك، ويلحظ أن العنصر النسوي كان سائدًا في هذه الأحفال.

ولا غرابة في ذلك؛ فإن الكاهنات كن يعملن في معبد «آمون» في كل عصور مجده، وقد بلغ العنصر النسائي في معابده أن انتهت إليه السيادة العظمى وأصبحت الكهانة العظمى في يد الجنس اللطيف لفترة طويلة من الزمن بدلًا من الكاهن الأكبر كما لاحظنا ذلك من قبل.

وخلاصة القول إنه على الرغم من أن هذه اللوحة في ظاهرها لم تقدم لنا إلا قائمة جافة من أسماء الأدوات والمواد والموظفين اللازمين لشعائر المعبد وخدمته؛ فإنها في الواقع تحتوي بين سطورها على مقدار ما كان للملك «تهرقا» في هذه الفترة من تاريخ وادي النيل وبخاصة من الوجهة السياسية من نفوذ وسلطان؛ إذ نفهم من بين ثنايا هذا المتن أن تجارة مصر

كانت متصلة مع البلاد المجاورة، كما أن حالة البلاد الاقتصادية كانت على جانب عظيم من الرخاء والفلاح، وأنه كان هو المسيطر على الموقف في شطري الوادي في أول حكمه، ويرجع السبب في ذلك إلى اتخاذه سياسة حازمة في جمع شمل البلاد تحت لواء الإله «آمون رع» الذي كان يعد المعبود المحبب في القطرين، هذا بالإضافة إلى أنه راعى شعور الكوشيين بتمجيد الإلهة «عنقت» (أنوكيس) بصفة خاصة، وصورها جنبًا لجنب مع الإله «آمون»، وقدم لها القربان. وسياسة «تهرقا» هذه في أول حكمه تذكرنا بسياسة الفاتح العظيم «تحتمس الثالث» مؤسس أول إمبراطورية مصرية.

اللوحة رقم ٤: لوحة الملك «تهرقا» التي نقشها في السنة السادسة من حكمه في معبد «الكوة»[٣٣]

وجدت هذه اللوحة في المعبد الجديد الذي أسسه «تهرقا» في «جمأتون» «الكوة» في الردهة الأولى، وكانت مرتكزة على النصف الجنوبي من الجدار الشرقي، وهي الآن محفوظة بمتحف «مروي»[٣٤] وهذه اللوحة لم تكن في مكانها الأصلي عند الكشف عنها.

وأبعاد هذه اللوحة هي ٢٫٠٨ × ٠٫٨٠ × ١٫٣٥ مترًا، وهي لوحة جميلة من الجرانيت الرمادي، وجزؤها العلوي مستدير، وهي في حالة حفظ تام، ويلحظ أن ظهرها محدودب بعض الشيء ونقشت من الوجه فقط بنقوش جميلة، والمتن الرئيسي فيها يتألف من سبعة وعشرين سطرًا محفورة.

ويشاهد في الجزء الأعلى المستدير منها العلامة التي يرمز بها للسماء مرتكزة على العلامة الدالة على الصولجان من الجانبين، وفي أسفل من ذلك قرص الشمس المجنح، ونقش في أسفل الجناحين المتن التالي: «بحدتي الإله العظيم رب السماء»، وفي أسفل هذا نشاهد المنظرين التاليين اللذين يفصل أحدهما عن الآخر عمودان من النقوش، فعلى الجانب الأيسر نقش المتن التالي: الإله الطيب رب الأرضين والسيد الذي ينجز «تهرقا» معطي الحياة مثل رع، وفي أسفل هذه الكتابة مُثِّل «تهرقا» لابسًا التاج الأبيض ومقدمًا رغيفًا أبيض لوالده «آمون» لأجل أن يمنحه الحياة، وخلف الملك نقشت رواية أخرى من الصيغة العادية: «ليت كل الحماية والحياة تكون حوله كما «هي حول» رع أبديًّا.» وقد مثل أمام الملك الإله «آمون رع» برأس كبش وقد نقش فوقه: «آمون رع» صاحب «جمأتون» الإله العظيم رب السماء، وبيد «آمون» علامتا السلطة والحياة ويقول للملك: إني أمنحك كل الحياة والثبات، ويشاهد خلف الإله «آمون رع» الإلهة «عنقت» (أنوكيس) لابسة لباس رأسها الخاص الطويل وتُرَبِّت بيدها اليمنى على كتف «آمون رع»، وفي يدها اليسرى علامة الحياة، ونقش خلفها المتن التالي: «إني أمنحك كل الحياة والسلطان وكل الصحة وكل السعادة مثل رع أبديًّا»، وعلى الجانب الأيمن من أعلى اللوحة يشاهد «تهرقا» مرتديًا كوفية وقد وُصف بنفس الأوصاف التي ذكرت على الجانب الأيسر مع إضافة الجملة التالية: «معطي الحياة والثبات والسلطان

مثل رع أبد الآبدين»، وفي هذا المنظر نجد الملك يقدم إناءين من النبيذ لوالده آمون لأجل أن يمنحه الحياة، ويلفت النظر هنا أن الإلهة «عنقت» تلبس تاج مصر المزدوج.

وهاك ترجمة المتن حرفيًّا:

السنة السادسة في عهد جلالة حور المسمى «قاخعو»، السيدتان المسمى «قا-خعو»، وحور الذهبي المسمى «خوتاوى»، ملك الوجه القبلي والوجه البحري المسمى «خو رع نفر تم» (= رع حامي «نفر تم») ابن رع المسمى «تهرقا»، ليته يعيش أبديًّا، المحبوب حقًّا من ماعت «= العدالة»، ومن منحه «آمون» العدالة، ليته يعيش سرمديًّا، والآن فإن جلالته سيد الشباب والبطل الشجاع المنقطع القرين والمغوار والملك المقوى الذي لا مثيل له، وهو يحكم مثل «آتوم»، وحبه (٣) يسود العالم مثل حب رع عندما يضيء في السماء، وابن رع مثل «أونوريس» (أنحور) وملكه آلاف آلاف السنين مثل (ملك) «تاتنن» «صورة من صور الإله «بتاح» الذي خلق الكون في البداية» والسريع الخطا و(٤) العريض النعلين ليدوس بهما الأعداء والمفوق سهمه ليهزم القوى، والذي يطأ التلال في طلب (٥) أعدائه ليحاربهم بسيفه البتار، ذابحًا مئات الآلاف، ومن عند مشاهدته ينبهر كل وجه، ومن عندما يظهر (٦) والحرب في قلبه يوميًّا يفرح كل الناس، وهو لا يتوانى؛ لأن صناعته هي الاستعداد للقيام بالحرب واسمه يسود الأرض المنخفضة وكل (٧) الهضاب بقوة سيفه البتار، والآن كان جلالته في بلاد النوبة وهو شاب فتي «أي محارب فتي» بوصفه أخا الملك،[٣٥] حلو الحب، وقد سار شمالًا (٨) إلى طيبة في صحبة الشباب الطيبين الذين كان قد أرسل في طلبهم جلالة الملك «شبتاكا»[٣٦] من بلاد النوبة وعندما وجدوا (٩) هناك معه فضله على كل إخوته، وعندما مر بمقاطعة آمون صاحب «جمأتون» ليقدم الطاعة عند باب المعبد مع (١٠) جيش جلالته الذي سار معه شمالًا، وجد أن هذا المعبد كان قد أقيم باللبنات، ولكن (١١) تلال رماله «التي تغمره» قد وصلت إلى سقفه، وكان قد غُطِّيَ بالتراب في وقت من السنة عندما كان يخاف الإنسان هطول الأمطار، وقد أخذ الحزن يستولي (١٢) على قلب جلالته من أجله «أي من أجل المعبد» إلى أن طلع جلالته ملكًا متوجًا للوجه القبلي والوجه البحري، وعندما ثبت التاج المزدوج على رأسه وأصبح اسمه «خو رع» سامي التاجين تذكر (١٣) هذا المعبد الذي كان قد شاهده وهو شاب في السنة الأولى من حكمه، وعندئذ قال جلالته لرجال حاشيته: تأملوا، إني أرغب في أن أعيد بناء معبد (١٤) والدي «آمون رع» صاحب «جمأتون»؛ لأنه كان قد بُني باللبنات فقط وغُطي بالتراب، وهذا ليس بالشيء المستطاب (١٥) في رأي الناس، وكان الإله في هذا المكان، ومع ذلك لم يعرف ما فعله المطر «لأن المعبد كان غير مستعمل وكان مهجورًا» ولكنه هو الذي حفظ هذا المعبد إلى أن حدث أني توجت ملكًا (١٦) ولأنه «أي الإله» عرف أن ابنه «أي الملك» الذي أنجبه كان قد أقام أثرًا[٣٧] له، ولأن أمهات والدتي قد وكل (١٧) أمرهن إليه بوساطة أخيهن الزعيم ابن رع المسمى «آلارا» المرحوم بالكلمات التالية:

أنت يا أيها الإله الذي يعرف من هو مُوالٍ لك، يا سريع الخطا، ويا من تأتي لمن يدعوك (١٨) ارعهن في فرج … (؟) ثبت أولادهن على الأرض، واعمل لهم كما عملت لي، واجعلهم يصلون إلى الفلاح، فأصغى لما قاله بالنسبة لنا «أي إن آمون أصغى لما قاله «آلارا» بالنسبة لنسل أخت «آلارا» أو أخواته» ونصبني ملكًا كما قال له، فما أجمله من شيء أن يعمل الإنسان لمن يعمل؛ (٢٠) لأن قلب من يعمل لمن يعمل يكون راضيًا، وقالوا لجلالته:[٣٨] إن كل كلماتك هي الصدق نفسه؛ لأنك ابنه المصلح لآثاره، وجعل جلالته جيشه (٢١) يذهب إلى «جمأتون» ومعه طوائف عدة من العمال ومهرة الصناع الذين لا يحصى عددهم، وكان هناك مهندس عمارة معهم (٢٢) ليدير العمل في هذا المعبد في حين كان جلالته في «منف»، وبعد ذلك أقيم المعبد من الحجر الرملي الأبيض الممتاز (٢٣) الصلب الذي نحت بصناعة متينة ووجهه «أوجه المعبد» نحو الغرب، وهو من الذهب «أي عليه قشرة من الذهب» وعمده من الذهب، والترصيع الذي فيه من الفضة، وبُرجاه رُفعا، وأبوابه أقيمت، ونُقش عليه الاسم العظيم لجلالته، وغُرست أشجاره العدة (٢٥) في التربة، وحُفرت بحيراته، وكذلك بيت نطرونه «للتطهير»، وملئ بالأدوات من الفضة والذهب (٢٦) والبرنز التي لا يحصى عددها، وقد جعل هذا الإله يأوي فيه «المعبد» لامعًا فخمًا أبديًّا، وقد كانت المكافأة على ذلك «للملك» هي الحياة والفلاح والظهور على عرش حور أبديًّا.

تعليق: هذا المتن المؤرخ بالسنة السادسة من حكم الملك «تهرقا» يبتدئ بذكر ألقاب هذا الفرعون كما جرت العادة في اللوحات التاريخية، وهذه ألقاب موحدة بالألقاب التي وردت في اللوحة الخامسة، ويتلو ذلك عقود مدح يعقبها مقدمة للدخول في الموضوع الذي من أجله أقيمت اللوحة، فذكر كيف أن «تهرقا» الشاب الذي ذهب إلى مصر مع الجيش قد لحظ تخريبًا شاملًا في معبد «جمأتون»، وعندما أصبح ملكًا على البلاد أعلن «تهرقا» إرادته لبناء معبد ليظهر اعترافه بالجميل للإله آمون صاحب «جمأتون»، وعندما جعله الإله آمون على عرش الملك، فإنه كان يوفي أمنية كان قد طلبها الملك «آلارا» فيما سبق، وهو الذي كان قد نذر أخواته للإله، وكان قد تضرع إليه أن يجعل نسلهن على عرش الملك، ويقص علينا الجزء النهائي من المتن الأعمال الخاصة بإقامة المعبد مثل البناء والزخرفة وغرس الأشجار وحفر بركة، وقد تم ذلك بأيدي رجال الجيش والصناع الذين أرسلوا من «منف»، وبعد تقديم الهبات له لأجل إقامة الشعائر وتقديم القربان كان مستعدًا لإيواء الإله.

غير أن الأثري مكأدم قد فهم الفقرة التي جاءت في السطرين الثاني عشر والثالث عشر بصورة غير التي أوردناها هنا مما قلب الحقائق التاريخية رأسًا على عقب، وسنورد هنا ترجمته لهذه الفقرة وتعليقه عليها استعدادًا لنقدها في مكانها:

- (١) وعندما ثبت التاج المزدوج على رأسه … تذكر هذا المعبد الذي كان قد رآه وهو شاب في السنة الأولى من حكمه.

(٢) وعندما ثبت التاج المزدوج على رأسه … تذكر هذا المعبد «الذي كان قد شاهده وهو شاب» في السنة الأولى من حكمه.

ثم يقول «مكأدم» وإذا قبلنا الترجمة الأولى فعلى ذلك يكون «تهرقا» قد حسب سني حكمه من الوقت الذي اشترك فيه مع شبتاكا وهو في العشرين من عمره (راجع Kawa IV, 17) وعلى ذلك تكون بداية أعماله البنائية في «الكوة» لم تكن قد بدأت قبل السنة السادسة من حكمه؛ لأنه لا بد أن نلحظ أنه لا يوجد سجل لبناء المعبد قبل هذه السنة، وزيارة أم «تهرقا» التي دُونت في لوحة «تانيس» قد دُونت في لوحة «الكوة» رقم ٥، وتؤرخ كذلك بالسنة السادسة، فهل كانت هذه السنة هي تاريخ موت «شبتاكا»، وسنة تتويج «تهرقا» وزيارة الملكة الوالدة أبار، وتأسيس معبد T بالكوة وكذلك سنة الفيضان العالي المدهش؟ ولدينا فقرة في اللوحة الخامسة حذفت في كل من رواية متن «قفط» ورواية متن «المطاعنة» جاء فيها (سطر ١٠): «وقال جلالته: إن والدي آمون رب عروش الأرضين قد أنجز لي هذه المعجزات الطيبة الأربع في مدى سنة واحدة، وهي السنة السادسة من حكمي.» ولكن حتى هذه الفقرة من المتن لم تصف إلا معجزتين وهما الفيضان العظيم والسيل الذي حدث في النوبة، والوصف بعد العودة إلى النيل الحسن وتأثيره الطيب، يأخذ في التحدث عن تتويج «تهرقا» وزيارة الملكة الوالدة «أبار»، ولا يسع الإنسان إلا أن يفرض أن هذه الأشياء هي المعجزتان الأخريان، وقد أكدت واحدة منهما في اللوحة السادسة في السطرين ٢٣-٢٤، حيث نجد جد «تهرقا» المسمى «آلارا» يشير إلى تتويجه هو بمثابة معجزة لم تكن في الحسبان، وفي اللوحة السادسة سطر ٢٢ نجد أن وضع «أبار» للملك «تهرقا» قد وُصف بأنه معجزة؛ لأنه كان مقدرًا له أن يصبح ملكًا. وعلى ذلك فإن اعتلاء «تهرقا» العرش قد فكر فيه بأنه أعجوبة واضحة، على أن كون السيل الذي حدث في النوبة كان من الأسباب التي ساعدت على فيضان عالٍ لم تعق الكاتب عن وصف كلا الحادثين بأن كلًّا منهما أعجوبة قائمة بذاتها، وعلى ذلك ليس هناك من سبب يمنع أن تسمى زيارة «أبار» التي سببها تتويج «تهرقا» أعجوبة أيضًا.

وليس لدينا نتيجة أخرى يؤدي إليها التفسير الأول، فقد رأينا أن «تهرقا» قد لاحظ فعلًا الحالة الخربة التي كان عليها معبد «جمأتون» وهو الذي تراكمت عليه الرمال وغطته الأتربة لمنع اختراق المطر لسقفه، ولن يتصور الإنسان أن سكان «الكوة» كان لديهم من بعد النظر بحيث يقدمون على هذا العمل قبل أن يكون قد حدث ضرر للمعبد من المطر، وبدهي أن المطر كان قد دخل قبل أن تتخذ هذه الخطوات لدرئه، ولنفكر الآن فيما عساه أن قد يحدث بعد مضي خمس سنوات على ذلك عندما كان المطر ينهمر انهمارًا عظيمًا في النوبة لدرجة أن «جعل كل التلال تلمع (V, a)»، وبدهي أن هذه التحصينات الواهية كانت قد اكتسحت وأن الخشب والجص قد سقطا، والجدران المقامة من اللبنات قد تداعت، وكان «تهرقا» في هذا الوقت في مصر ولكنه كان قد وقف في طريقه سابقًا في «الكوة» ليظهر تقاه عند المعبد، ولا نزاع في أن ذلك كانت قد عملته الملكة الوالدة «أبار» عندما ذهبت لمصر، ويحس الإنسان

أنها لا بد هي التي كانت قد قوت عزيمة «تهرقا» ليرى هذا المعبد مرة أخرى وهو في حالة نظام حسنة.

ولنلخص الآن المواد التاريخية التي يمكن أن نحصل عليها من هذا التفسير.

لقد كان المتفق عليه حتى الآن أن نضع السنة الأولى لحكم «تهرقا» في عام ٦٨٨ق.م (السنة الفلكية ٦٨٧ق.م) وذلك ارتكازًا على لوحة عجل من عجول أبيس (Br, A. R. § 909) ونفهم مما جاء عليها أن أبيسًا كان قد وُلد في السنة السادسة والعشرين من عهد «تهرقا» ونصب في نفس السنة «في السنة الأولى» من حكم «بسمتيك الأول» وهي السنة ٦٦٣ق.م وقد أفضت بحوث الأثري «بورخارت» الأخيرة به في هذا الموضوع أن يضع السنة الأولى من حكم «تهرقا» في عام ٦٨٩ق.م (Mittel. P. 65) وإذا كان «تهرقا» كان قد أصبح حاكمًا منفردًا في السنة السادسة من حكمه فإن ذلك يجعل موت «شبتاكا» في عام ٦٨٣ق.م، ولدينا مقياس نيل في مرسى الكرنك نعلم منه أن «شبتاكا» كان قد توج في السنة الثالثة، وهذا لا يعني إلا أنه كان مشتركًا مع شبكا منذ سنتين مضتا، وهذا يحبذ نظريتنا القائلة أن «شبتاكا» كذلك أشرك معه «تهرقا» على عرش البلاد، وهذا التأريخ قد وضعه بورخارت في عام ٦٩٦ق.م، ومن ثم يكون التاريخ ٦٩٨ق.م هو تاريخ الاشتراك، وأعلى سنة مسجلة لحكم «شبكا» هي الثانية عشرة، وعلى ذلك فإن أول سنة لحكمه لا بد أن تكون حوالي عام ٧٠٧ق.م، وأخيرًا لما كان «تهرقا» في العشرين من عمره عند اشتراكه في الحكم في عام ٦٨٨ فإنه يكون قد ولد في عام ٧٠٨ق.م، وهذه الاستنباطات يمكن وضعها في القائمة التالية:

ولادة «تهرقا»	٧٠٨، ٧٠٩ق.م
قولي أو اشتراك «شبكا»	٧٠٧، ٧٠٨ق.م
اشتراك «شبتاكا»	٦٩٨، ٦٩٩ق.م
موت «شبكا» «وشبتاكا» يصبح ملكًا منفردًا	٦٩٦، ٦٩٧ق.م
اشتراك «تهرقا» في الملك	٦٨٨، ٦٨٩ق.م
موت «شبتاكا» وتولي «تهرقا» ملكًا منفردًا، زيارة «آبار»، نيل عال خلاف العادة وإقامة معبد T «بالكوة»	٦٨٣، ٦٨٤ق.م
الافتتاح الرسمي لمعبد T	٦٧٩،

	٦٨٠ق.م

وعلى هذا الزعم نجد أن البيان الذي ورد في كتاب الملوك الثاني الإصحاح ١٩ السطر ٩ وهو القائل إن عدو سنخرب في «التاقا» في عام ٧٠١ق.م كان «تهرقا» هو بلا نزاع غلطة؛ إذ كان في ذلك الوقت في الثامنة فقط من عمره، وتحدثنا اللوحة رقم ٥ بأنه لم يترك والدته في بلاد النوبة إلى أن بلغ العشرين من عمره (Kawa I, V, 16-17).

والتفسير الأخير للجملة التي نبحثها ليس فيه ما يحبذه، غير أنه من الوجهة النحوية مقبول، وعلى حسب هذا التفسير نجد أن السنة الأولى من حكم «تهرقا» تتفق مع سنة تتويجه، غير أنه لا بد من وجود بعض السبب لتفسير تأخر مدة خمس سنوات قبل تسجيل بناء معبد «الكوة»، ومرور مدة سنتين (K.I, V, 17-18) قبل وصول الوالدة الملكة لتأخذ مكانتها الشرعية بجانب «تهرقا» في مصر، وعلى أية حال فإن شك «بورخارت» في مقياس النيل وارتفاعه في عهد الملك «شبتاكا» يقلل كثيرًا من قيمة هذا التفسير، وعلى ذلك فإن التفسير الأول هو الذي اتبع.

والأرقام التي ذكرت أعلاه هنا تخصص خمس عشرة سنة لحكم «شبتاكا» ولكن من جهة أخرى نرى أن كلًّا من سينسلس Syncillus ويوزي(ب) Eusebius يخصص له اثنتي عشرة سنة ويعطيه «أفريكانوس» أربع عشرة سنة، وهي أرقام تقرب من الرقم الصح أكثر من التي خصصت لحكم «تهرقا»، هذا؛ ولا يمكننا أن نصدق البيان الذي أدلى به «مانيتون» وهو القائل إن «تهرقا» قد قاد جيشًا من «كوش» وذبح «شبتاكا» واستولى على التاج، وذلك لأن أمر اشتراكه مع «شبتاكا» على عرش الملك يظهر أنه أمر قد تقرر، ولأن «شبتاكا» كما يقال قد أحب «تهرقا» أكثر من كل إخوته ومن كل أولاده (IV, 9, V, 14) (راجع Kawa I, Inscriptions Text IV. P.18 note 30).

اللوحة رقم ٥: لوحة الفيضان «المؤرخة بالسنة السادسة من حكم الملك تهرقا»

عثر على هذه اللوحة بجوار اللوحات السابقة في الردهة الأولى بالمعبد المعروف باسم T في «الكوة» (جمأتون) وكانت مرتكزة على النصف الشمالي للجدار الشرقي على الجانب الجنوبي، وهي موجودة الآن بمتحف «ني كالرزبرج جلبتوتيك» بمدينة كوبنهاجن.[٣٩]

وتبلغ مساحة هذه اللوحة ١٫٠٢ × ١٫٢٢ × ٠٫٣٣ مترًا، وهي مصنوعة من الجرانيت الرمادي ونقشت من الوجه فقط، ويتألف المتن الذي عليها من اثنين وعشرين سطرًا، والمناظر التي في الجزء الأعلى منها المستدير محفورة حفرًا غائرًا، وعندما عثر على هذه اللوحة كانت في حالة سليمة إلا النهاية اليسرى من منظر الجزء الأعلى، وكذلك نهايات الثلاثة العشر سطرًا

الأولى من المتن، ومما يؤسف له أنها عندما شُحنت هُشمت قطعًا، ويُحد أعلاها وجانباها بعلامة السماء وصولجانين على التوالي، ويشاهد أسفل علامة السماء قرص الشمس المجنح مُحلًّى بِصِلَّيْن وفي أسفل الجناحين نقش: «صاحب بحدتي الإله العظيم سيد السماء.» ونقش على اليمين وعلى الشمال وفي الوسط: «رب السماء.»

وفي أسفل هذا يشاهد المنظران التاليان يفصلهما سطران من النقوش.

فالمنظر الذي على الجانب الأيسر نقرأ فيه: «الإله الطيب رب الأرضين «خو-رع نفر تم» بن رع من جسده «تهرقا»، معطي الحياة مثل رع أبديًّا.» وأسفل هذا يشاهد «تهرقا» يقدم رغيفًا أبيض هرمي الشكل لوالده «آمون» لأجل أن يمنحه الحياة، وأمامه آمون رع رب جمأتون يقبض على صولجان «واس» وعلى رمز الحياة «عنخ» وخلفه الكلمات التي فاه بها وهي: «إني أمنحك كل الحياة والفلاح وكل الصحة وكل السعادة مثل رع أبديًّا.» وتقف خلف «تهرقا» أمه التي تدعى «أبار» مرتدية جلبابًا طويلًا شفيفًا مسبلًا على الكتف حتى الكعب ويتدلى منه قطعة من الخلف تشبه الذيل، ويلحظ أنها تلعب بالصناجة لوالدها آمون لأجل أن تمنح الحياة، وهي كذلك ترفع يدها اليسرى في هيئة تعبد.

وعلى الجانب الأيمن نشاهد «تهرقا» كما وصف على الجهة اليسرى واقفًا يقدم إناءين من النبيذ لآمون رع الممثل برأس إنسان ونقش معه: «آمون رع رب عروش الأرضين ورب السماء.» ويقبض بأحدى يديه على الصولجان وفي الأخرى رمز الحياة، ونقش معه المتن التالي: «تقديم النبيذ لوالده آمون ليمنح الحياة.» وأمامه آمون رع برأس إنسان ونقش معه: «آمون رع رب عروش الأرضين ورب السماء.» وبيده علامتا الصولجان والحياة وخلفه المتن التالي: «ما قيل إني أمنحك كل الحياة والفلاح وكل الثبات وكل السعادة مثل رع أبديًّا.» وتظهر «أبار» والدة «تهرقا» واقفة خلفه ونقش معها اللقب والصيغة على الجانب الأيسر، ويلحظ هنا أن ثوبها يحتوي على ثنية مدلاة من كتفها اليسرى.

المتن الرئيسي لهذه اللوحة: هذا المتن يختلف عن المتون الأخرى التي عثر عليها في هذا المعبد، وقد نشره من قبل الأستاذ جرفث[٤٠] فهو لا يتحدث عن التاريخ المحلي، وقد عثر معه عدة روايات أخرى واحدة في «قفط» وأخرى في «المطاعنة»[٤١] وثالثة في «تانيس»[٤٢] ومتن الفيضان الذي عثر عليه في «الكوة»، وهو المعروف بالمتن الخامس على حسب ترتيب وجود المتون في المعبد يتألف بعد التأريخ والألقاب الملكية من: (أ) سرد قصة طويلة خاصة بسعادة البلاد وفيضان عالٍ للنيل حدث معه مطر غزير جارف. (ب) ويتلو ذلك في المتن خطاب يشير فيه الفرعون «تهرقا» إلى حدوث أربع عجائب حدثت في السنة السادسة، وتذكر بسوابقها والأحوال التي توج فيها في مصر «وهذه القصة نجد شبيهها في المتن السابق». كما يحدثنا الفرعون عن وصول والدته «أبار» التي كانت حتى هذا الوقت في بلاد النوبة. (ج) وأخيرًا يحدثنا عن وصف العواطف والأحاسيس التي أظهرتها هذه الأميرة. (د) وكذلك شعور القوم بعد مقابلة الملك بأمه.

وإذا قرنا الروايات التي وصلت إلينا من هذا المتن نلحظ أن كلًّا من متن «قفط» «والمطاعنة» لا يحتوي إلا على القصة (ب)، ولكن يشتملان في الألقاب الملكية على سلسلة نعوت لا نجدها في متن «الكوة» (أ)، أما متن تانيس فيحتوي على العناصر (أ، ب، ج، د) وبعبارة أخرى يقدم لنا هذا المتن أتم رواية معروفة عن هذا المتن حتى الآن، وقبل أن نتحدث عن كنه هذا المتن وما ينطوي عليه من معلومات هامة سنورد ترجمته الحرفية على حسب ما جاء في روايات لوحات «الكوة» وقفط والمطاعنة وتانيس.

السنة السادسة في عهد جلالة حور المسمى «قا-خعو»، السيدتان المسمى «قا-خعو»، حور الذهبي المسمى «خو-تاوي»، ملك الوجه القبلي والوجه البحري المسمى «خو-رع-نفر-تم» «الإله الطيب ابن آمون رع، والرمز الفاخر لآتوم، والبذرة الطاهرة التي خرجت منه، ومن خلق جماله في جنوبي جداره، ومَن حمَلته «موت» سيدة السماء، والفرد الوحيد المقدس الذي خرج من جسد الإله، وهو ملك للوجه القبلي والوجه البحري، لم يأتِ للوجود مثيله «سابقًا»، ومَن لأجل أن ينشأ ويُرفع ويُسَرَّ اجتمع تاسوع الآلهة معًا، وإنه هو الذي قبض على الممالك وأخضع الأقواس التسعة، ملك الوجه القبلي والوجه البحري، «حور» القوي الساعد، رب الأرضين وسيد العمل العظيم»[٤٣] ابن رع «تهرقا»[٤٤] ليته يعيش أبديًّا، المحبوب حقًّا من «ماعت» وممن أعطاه «آمون» الحق، ليته يعيش أبديًّا.

والآن فإن جلالته محب للإله (٢) وإنه يصرف النهار ويمضي الليل باحثًا عن مصلحة الآلهة مقيمًا معابدهم «التي كانت قد آلت» للخراب، وناقشًا صورهم كما كانت في البداية، ومقيمًا مستودعاتهم ومموِّنًا (٣) موائد قربانهم، ومخصصًا لهم دخلًا من كل نوع، وصائغًا موائد قربانهم من الذهب الجميل والبرنز، وفضلًا عن ذلك فإن قلب جلالته فرح بعمل خيرات لهم كل يوم، وهذه الأرض كانت في فيض (٤) في زمنه كما كانت معتادة أن تكون في أيام سيد الكون، فكل إنسان ينام حتى نور النهار دون أية رغبة لم تُجَبْ؛ لأن العدالة قد أُدخلت في كل البلدان، والظلم سُمِّرَ في الأرض «أي أصبح مشلولًا».

(٥) وحدثت معجزات في زمن جلالته في السنة السادسة من حكمه ولم ترَ مثلها منذ زمن أولئك الذين غبروا؛ لأن والده «آمون رع» قد أحبه كثيرًا، وقد كان جلالته (٦) يصلي من أجل فيضان من والده «آمون رع» رب تيجان الأرضين ليمنع حدوث قحط في زمنه، والواقع أن كل شيء كان يخرج من شفتي جلالته كان والده «آمون» يجعله يظهر للوجود، وعندما أتى الفصل الخاص بارتفاع (٧) الفيضان، فإنه استمر يفيض على الأرض بكثرة كل يوم، ومضت أيام كثيرة يعلو بنسبة ذراع يوميًّا، وقد اخترق تلال الوجه القبلي وغمر تلال الوجه البحري، وأصبحت الأرض محيطًا أزليًّا؛ أي رقعة راكدة، ولم يكن هناك مميز (٨) للأرض من النهر، وقد فاض إلى ارتفاع إحدى وعشرين ذراعًا وشبرًا وأصبعين ونصف أصبع عند مرسى طيبة،[٤٥] وجعل جلالته تحضر له تواريخ الأجداد ليرى نوع الفيضان الذي حدث في أزمانهم، ولكن لم يوجد مثيله هناك، (٩) وفضلًا عن ذلك أمطرت السماء في بلاد النوبة وجعلت كل التلال تلمع «بالماء»، وكل إنسان في النوبة كان لديه رخاء في كل شيء، وكانت مصر في عيد سعيد، وحمدوا جلالته، وكان قلب جلالته سعيدًا للغاية من عمل والده (١٠) «آمون» لفائدته، وأمره

بعمل قربان لكل الآلهة، وكان قلبه منشرحًا مما عمله والده لمنفعته لأجل أن يعطي كل الحياة والثبات والفلاح والظهور على عرش «حور» مثل «رع» سرمديًّا. وقال جلالته: إن والدي «آمون رع» رب عروش الأرضين قد عمل لي أربع معجزات[46] حسنة في مدة سنة واحدة، وهي السنة السادسة من حكمي، (١١) ومثل ذلك لم يرَ منذ عهد أولئك الذين كانوا في الأزمان الغابرة، فإن الفيضان قد أتى كلصِّ الماشية ففاض على هذه الأرض، ولم يوجد مثله مكتوبًا في زمن الأجداد، ولم يقل أحد: لقد سمعت من والدي «مثل ذلك»، فقد جعل الزراعة (١٢) كلها حسنة من أجلي، وقتل الفيران والأفاعي التي كانت في وسطها، وأقصى عنها نهم الجراد، ومنع رياح الجنوب من حصدها، (١٣) ولكني حصدت المحصول في مخازن لا حصر لها؛ أي شعير الوجه القبلي وشعير الوجه البحري، وكل غلة تنمو على سطح الأرض، وقد أتيت من النوبة في صحبة إخوة الملك الذين طلبهم، ولما كنت موجودًا مع جلالته فإنه فضلني على كل إخوته، وعلى كل أولاده حتى إنني ميزت عليهم من جلالته، وقد كسبت قلب الناس وبعثت الحب عند كل الناس، (١٥) وقد تُوجت في «منف» بعد أن طار الصقر إلى السماء «أي مات الملك»، وأمرني والدي آمون أن أضع أرض كل إقليم تحت قدمي جنوبًا حتى «رتحو-قابت» وشمالًا حتى (١٦) «قبح حور» (الحدود الشمالية للدولة المصرية) وشرقًا حتى شروق الشمس وغربًا حتى غروبها.

والحالة هذه كانت «أمي» في بلاد النوبة، أعني أخت الملك، حلوة الحب، والأم الملكية المسماة «أبار» ليتها تعيش، وكنت (١٧) قد افترقت عنها وأنا شاب في العشرين من عمري عندما أتيت مع جلالته إلى مصر السفلى، وعلى ذلك حضرت شمالًا لتراني بعد فترة (١٨) من السنين، وقد وجدتني متوجًا على عرش حور، وتسلمت تيجان رع، والصِّلَّان وُضعا على رأسي، وكانت كل الآلهة تحمي جسمي، وقد فرحت للغاية (١٩) بعد أن شاهدت جمال جلالته كما شاهدت «إزيس» ابنها «حور» متوجًا على عرش والده بعد أن كان شابًّا في عش خميس[47] (= المكان الذي نشأ فيه حور في الدلتا) وقد انحنى حتى الأرض الوجه القبلي (٢٠) والوجه البحري وكل مملكة أجنبية أمام هذه الأم الملكية، وفرح جدًّا مُسنُّوهم ومعهم شبانهم وهللوا لهذه الأم الملكية (٢١) قائلين: إن «إزيس» عندما استقبلها «حور» كانت مثل الأم الملكية الآن عندما انضمت ثانية إلى ابنها، أنت يا ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» (ليتك تعيش أبديًّا) محبوب الآلهة إنك ستعيش مخلدًا بأمر والدك آمون (٢٢) الإله الممتاز الذي يحب من يحبه ويعترف بمن هو موالٍ له، والذي جعل والدتك تنضم لك ثانية في سلام حتى يمكن أن تشاهد جمالك الذي أوجده لك، يا أيها الملك القوي ليتك تعيش، وليتك تكون في صحة كما عاش «حور» لوالدته «إزيس»، وإنك ستظهر على عرش «حور» أبد الآبدين.

تعليق: إن من ينظر في هذا المتن بعين فاحصة لا يتردد في أنه خطاب رسمي يمكن أن يطلق عليه اسم المتن الكبير للسنة السادسة من حكم «تهرقا»، فهو إذن بهذا الوصف موجه لكل أنحاء الإمبراطورية المصرية، ولا سيما أنه قد وُجد منشورًا في كل أرجائها، وتدل شواهد الأحوال على أنه متعدد النواحي، فهو يحدثنا عن فيضان معجز كما يتحدث عن

وفود الملكة «أبار» أم الملك «تهرقا» وقد أحدث مجيئها هذا من بلاد النوبة إلى أرض الكنانة هزة فرح وابتهاج.

والواقع أن تحليل هذا المتن بهذه الكيفية يقف حجر عثرة في سبيل فهم هذا المتن كما فهمه مكأدم، عندما أخطأ على ما أظن في إضافة كلمة «هذه» لعبارة معجزات أربع في السطر العاشر من أسطر هذه اللوحة،[٤٨] وعلى أية حال فإننا إذا سلمنا بذلك لا نجد إلا معجزتين في الجزء (ب) من المتن الكبير.

هذا؛ ونجد من جهة أخرى أن الأثري مكأدم قد طلع علينا في شرحه للوحتين الرابعة والخامسة بنظرية جديدة اقترح فيها أن «تهرقا» كان مشتركًا مع «شبتاكا» في الحكم مدة ست سنوات قبل موت الأخير، ويترتب على الأخذ بهذه النظرية مجموعة أمور خاصة بمصائر الشاب «تهرقا» (١) وتاريخ إعادة بناء معابد «الكوة» (٢) وتفسير للمعجزات التي حدثت في السنة السادسة (٣)، وهذه الأمور تُظهر على الأقل أنه يمكن مناقشتها! فلا نجد أولًا في المتن الأصلي ما يوحي بتقديم تاريخ بداية حكم «تهرقا» الأصلي بأية حال من الأحوال، هذا فضلًا عن أن ذلك لا يتفق مع بعض الحقائق التاريخية الكوشية، وإذا فحصنا ما جاء في اللوحتين الرابعة والخامسة بخصوص مجيء «تهرقا» واعتلائه عرش الملك فإنا لا نجد فيهما ما يوحي بتتويج «تهرقا» مرتين قط، وعلى ذلك فإنه لا محل هناك لاشتراك «تهرقا» مع «شبتاكا» على عرش الملك، وبهذه الأوضاع يكون تاريخ نشاط «تهرقا» في «الكوة» كما يأتي على حسب المتون التي تناولناها أو سنتناولها فيما بعد:

- (١) في السنة الأولى من حكمه اهتم الملك «تهرقا» بالمعبد الذي شاهده في حالة خربة كما جاء في الأسطر ١٢-١٣ من اللوحة الرابعة.
- (٢) في السنين من ٢–٥ عمل الملك «تهرقا» هبات (المتن ٣ من سطر ١–٩).
- (٣) في السنة السادسة اتخذ الملك قرارًا لإقامة معبد جديد (اللوحة ٤ سطر ١٤ … إلخ.)
- (٤) في السنتين من ٦-٧ منح هبات منوعة (اللوحة ٣ الأسطر ١٠–١٣).
- (٥) في السنين من ٦–١٠ انتهى العمل في المعبد بوجه عام؛ إذ في السنين من السادسة إلى الثامنة تمت الأعمال الكبيرة، وفي السنة الثامنة ابتدأ استعمال المعبد: فقد أُهدي المعبد أدوات شعائر هامة (٣ سطر ١٦–٢١) وكميات هائلة من الغلال (٤ سطر ١–١٦)، وفي نفس هذه السنة ألف المتن رقم ٣ وهو الخاص بقوائم السنين من ٢–٨، وتم في السنين من الثامنة إلى العاشرة عمل الزخرفة (المتن ٤ سطر ٢٣ والمتن ٦ سطر ١٧-١٨.)

وفي السنة العاشرة كان الافتتاح الرسمي للمعبد كما جاء في المتن السابع.

أما من حيث المتن الكبير والمعجزات الأربع الخاصة بالسنة السادسة من عهد «تهرقا» فإن المتن بعد أن قص علينا قصة فيضان هائل حدث بسبب الأمطار الجارفة يقول: «إن والدي «آمون رع» رب عروش الأرضين قد صنع لي أربع معجزات حسنة في سنة واحدة وهي السنة السادسة من تتويجي ملكًا … وعندما أتى بفيضان ليحمل المواشي وليعرف كل البلاد قاطبة … فإنه منحني حصادًا حسنًا في كل امتداده، وقد أهلك الفيران والزواحف التي كانت توجد فيه وقد صد تخريب الجراد، ولم يسمح لرياح الجنوب بحصده «أي المحصول» وقد كان في مقدوري إذن أن أحصد لمخزن الغلال المزدوج كمية لا تحصى …»

ويرى الأثري «مكأدم» أن هذه المعجزات الأربع الحسنة التي حدثت في سنة واحدة؛ وهي السنة السادسة من حكمه هي: (١) فيضان النيل. (٢) الأمطار الغزيرة. (٣) تتويج «تهرقا» عند موت سلفه. (٤) ومجيء الملكة الوالدة لمصر. وينتج عن هذا التفسير أن موت «شبتاكا» وتتويج آخر للملك «تهرقا» قد وقعا في السنة السادسة من حكم الأخير.

وهذا يعني أنه كان هناك اشتراك في الملك بين هذين الملكين لمدة ست سنوات. وهذا الوضع على ما يظهر فيه عقبات خطيرة؛ إذ يظهر من جهة أنه من الصعب البحث عن معجزتين من المعجزات الأربع في المتن الأصلي الخاص بالفيضان، كما يجد القارئ في الترجمة التي أوردناها هنا، بل الواقع أنه إذا طبقنا كلمة معجزات على تقويم الحياة الزراعية فإن ذلك يفسر بصورة أحسن أن السنة السادسة من حكم هذا الفرعون قد ميزت بمحصول وفير سببه فيضان ومطر هائلان «وهما نفسهما قد عُدَّا معجزتين» أتيا كما يظن بعد عدة سنين كان النيل فيها منخفضًا، وإذا كان ذلك الفيضان الهائل لم يسبب أية أضرار كان منتظرًا حدوثها كما هي العادة عند حدوث فيضان عال جدًّا فإنه يمكننا مع كل تحفظ أن نورد هنا التفسير التالي لما قاله الفرعون عن السنة السادسة من حكمه بخصوص المعجزات الأربع: علم «تهرقا» أنه بفضل حماية رباعية على يد «آمون» كانت مقومات الحياة العامة مضمونة بكرم، يضاف إلى ذلك الخبر السار وهو زيارة أمه، وعلى ذلك فإنه بهذه الكيفية يكون موضوع اعتلائه العرش ليس إلا مقدمة لهذا الحادث الأخير، ولا يشير هنا بأية حال من الأحوال إلى تتويج ثانٍ للفرعون، وعلى ذلك فإن نظرية مكأدم على ما أعتقد لا ترتكز على برهان قاطع، ومن ثم فإنه ليس من الحكمة الأخذ بها بصفة قاطعة.

وعلى حسب نظرية مكأدم يكون تواريخ الأسرة الخامسة والعشرين كما يأتي «شبكا» ٧٠٨–٦٩٧ق.م، «شبتاكا» من ٦٩٩–٦٨٤ق.م «وتهرقا» ٦٨٩–٦٦٤ق.م.

ولأجل أن يحفظ تاريخ مكأدم تماسكه الداخلي لا بد أن نعترف بجانب اشتراك «شبكا» «وشبتاكا» في الحكم واشتراك «شبتاكا» «وتهرقا»، واشتراك «بيعنخي» «وشبكا»، وهذه نظرية لا يمكن الإنسان أن يرفضها بصفة قاطعة، وبخاصة عندما نعلم أن «بيعنخي» قد جاء ذكره على تمثال في المتحف البريطاني (Brit. Mus. 2442 and C.A.H. III, 277

(Note 1 بوصفه عائش أبديًا. وقد تساءل الأثري «هول»: هل ذلك يعني أن «بيعنخي» كان لا يزال على قيد الحياة في السنة الخامسة عشرة من حكم «شبكا»، وإذا تذكر الإنسان أن تانوت آمون نفسه كان على ما يظهر قد توج في حياة «تهرقا» (راجع H. V Zeissl. Athiopen and Assyrer, P. 48) فإنه يلوح في الواقع أنه من المحتمل جدًّا أن ملوك «كوش» كان من مبادئهم أن يشركوا خلفهم معهم على عرش الملك، ولكن إذا أخذنا مع ذلك كل ملك منهم على حدة من حيث هذا الاشتراك على عرش الملك المزعوم فإننا لا نجد ما يدعمه من البراهين القاطعة، وهذا ما يجعل نظرية الأثري مكأدم فيما يخص اشتراك «تهرقا» مع «شبتاكا» في عرش الملك واهية الأساس.

هذا؛ ويلحظ أن إعادة نظر مكأدم في تاريخ ملوك «كوش» قد حدا به إلى جعل «شبتاكا» يحكم مدة خمس عشرة سنة، على أن آخر تأريخ معروف له هو السنة الثالثة، والواقع أنه حتى لو قبلنا أنه في عهده عاق النشاط الفني عقبات سياسية واقتصادية فإن العدد المحدود نسبيًّا للآثار الملكية الضخمة والصغيرة منها إذا ما قرنت بسلسلة الآثار الهامة التي أنجزها كل من «شبكا» «وتهرقا» تجعل حكمه أقصر مما فرضه مكأدم، والواقع أن جهلنا الفعلي بمدة حكم هذا الملك تجعل موضوع التأريخ المطلق للعهد الكوشي أمرًا مبهمًا.

والواقع أن العناصر التي في متناولنا من جهة أخرى لأجل تقرير هذا التأريخ هي بلا نزاع غير كافية أبدًا:

فنجد أولًا أن المدد التي حصلنا عليها مما نقله إلينا «مانيتون» (راجع Manethon ed. Waddel 167–169) خاطئة جدًّا فيما يخص «شبكا» فقد ذكر اثنتي عشرة سنة بدلًا من خمس عشرة سنة على الأقل، وذكرت أن «تهرقا» حكم عشر سنين بدلًا من ست وعشرين سنة، وكذلك نجد ما لا يُعقل فيما يخص «شبتاكا»؛ فقد ذكر كل من «سنسيلس» «ويوزيب» أنه حكم اثنتي عشرة سنة، وذكر إفريكانوس أنه حكم أربع عشرة سنة.

وإذا رجعنا إلى التأريخ الذي جاء في التوراة فإنه قد حاد عن الصواب؛ فنجد أنه من المتفق عليه غالبًا أن نأخذ بما جاء في كتاب (الملوك الثاني الإصحاح ١٩ سطر ٩) وعلى حسبه نجد أن «تهرقا» ملك «كوش» قد صعد على «سنخرب» في السنة الرابعة عشرة من عهد حزقيا Ezechias ٧٠١ق.م وذلك على فرض أن «تهرقا» قبل أن يكون ملكًا بطبيعة الحال كان يقود جيوش «شبكا» وهو الذي تحت حكمه قد اعترف أنه قد نزل إلى مصر، وذلك على حسب متن «تانيس» المهشم الذي كان وقتئذٍ المتن الوحيد المعروف، ونحن نعلم الآن من رواية متن «الكوة» الخاص بالفيضان، وكذلك من اللوحة رقم ٤ سطر ٨ وهما اللتان نعرف منهما أن «تهرقا» قد أتى إلى مصر في عهد «شبتاكا»، أن مثل هذا التفسير الذي نجده في التوراة يقرر الآن أن خلف «شبكا» قد حكم فعلًا في عام ٧٠١ق.م، غير أنه من الأمور المضللة أن نبني تأريخ الأسرة الخامسة والعشرين على تفسير معادٍ لمتن لا يعكس علينا إلا ضوء رواية محرفة.

ولدينا لوحة هبة عثر عليها في هربيط ومؤرخة بالسنة الثانية من عهد الملك «شبكا» (Louvre E. 10571, of. G.L.R, 1,13, II) يظهر أنها تبرهن على أنه في هذه السنة كان خلف «بيعنخي» قد فتح الدلتا فعلًا بانتصاره على «بوكاريس»، ولما كانت متون سرجون تسمح بوضع هذا الفتح بعد السنة ٧١٥ق.م، أو على أكثر تقدير عام ٧١١ق.م (راجع Meyer, Gesch due Altert. III, (ed. 1938), 41) فإنه يمكننا أن نعترف أن السنة الثانية من عهد «شبكا» تقع بين تاريخين محددين، وهما السنة (٧١٤) «ويكون الفتح قد حدث في خلال السنة الثانية من حكمه» والسنة (٧١١) «ويكون في هذه الحالة قد حدث في السنة الأولى من حكمه».

هذا؛ وقد جاء في رواية عن «هردوت» (Herod. II, 137) على حسب رأي «كافنياك» أن سيادة الكوشيين على مصر قد حُددت بنحو خمسين سنة، أو بعبارة أدق على أرض الدلتا. هذا ولما كنا نعلم أن تسلط «بسمتيك الأول» على «منف» قد حُدد بعام ٦٦٤ق.م فإنه من المستطاع تحديد مجيء «شبكا» إلى مصر حوالي ٧١٤ق.م، وهي حادثة على حسب ما جاء في لوحة الهبة كان يمكن أن توضع في سنة من السنتين الأوليين لحكم هذا الملك.

وعلى أية حال سواء أكان هناك اشتراك في الحكم أم لا فإنه يمكن أن نضع مع التحفظ القائمة التالية عن تواريخ ملوك «كوش» وهي قريبة جدًّا من القوائم الأخرى: حكم «شبكا» من ٧١٥–٧٠١ق.م، «شبتاكا» من ٧٠١–٦٨٩ق.م، «وتهرقا» من ٦٨٩–٦٦٤ق.م (راجع Bull. Inst. F. Tom LI, p. 27)، وهذا لا يختلف كثيرًا عما أوردناه في الجزء الأول من تاريخ السودان (راجع مصر القديمة الجزء العاشر).

اللوحة رقم ٦[٤٩] الخاصة بالملك تهرقا من السنة الثامنة إلى العاشرة من حكمه

وجدت هذه اللوحة في المعبد T بالردهة الأولى ملقاة على الأرض بوجهها إلى أعلى في الجنوب الغربي للعمود التاسع وبرأسها في الشمال الشرقي، وهي الآن بمتحف «مروي» وتحمل رقم ٥٣.

وأبعاد هذه اللوحة هي ١٫٢٨ × ٠٫٨٥ × ٠٫٣٠ مترًا، وهي منحوتة في الجرانيت الرمادي وحجمها ضخم، وقد كسر جزؤها الأعلى المستدير كما كسر جزء من أسفلها، ويشمل المتن الرئيسي خمسة وعشرين سطرًا، مثل في الجزء الأعلى منها منظران، ففي الجهة اليسرى منظر يمثل الملك «تهرقا» ولم يبقَ منه إلا القدمان وذيل الحيوان الذي كان يلبسه، والظاهر أنه كان يقدم بعض قربان للإله آمون رع رب جمأتون، وخلف آمون رع نقش: إني أمنحك كل الحياة والفلاح والثبات وكل السعادة أبديًّا.

وفي الجهة اليمنى نشاهد صورة «تهرقا» مكسورًا رأسها، وكذلك كسر الجزء الذي كان فيه الوصف الذي كان معها إلا كلمة واحدة من عبارة «مثل رع أبديًّا»، وقد مثل يقدم رغيفًا أبيض لوالده آمون ليمنحه الحياة، وأمامه آمون رع صاحب الجبل المقدس[٥٠] برأس كبش وأمامه خط أعلاه معوج ثم ينحني إلى الخلف فوق صورة آمون رع وجزؤه الأسفل عمودي، وهذا الخط يمثل جزءًا من الجبل المقدس؛ أي جبل «برقل» والإله القاطن في داخله، ولم يبقَ من لقبه «آمون رع القاطن في جبله المقدس» إلا كلمة «مقدس» أما الباقي فقد هشم، وخلفه نقش: «إني أمنحك كل الحياة والفلاح والصحة مثل رع أبديًّا.»

- **المتن الرئيسي:** يعد متن هذه اللوحة تكملة لسجل الهدايا التي بدئ بذكرها على لوحة «الكوة» الثالثة السالفة الذكر، وقد اتُّبعت فيها نفس طريقة التأريخ؛ فالسنون فيها معلمة بعلامات السنة، وهذه العلامات يوجد على سيقانها عدد من الشُّرَط يقابل عدد السنين، فالأعمدة من ١–٧ تشير إلى السنة العاشرة، وهي السنة التي أقيمت فيها هذه اللوحة، ومن السطر العاشر حتى نهاية النقش يكرر فقط التفاصيل الدالة على قدرة «تهرقا» على تموين المعبد بالخدم والبلدة بالنبيذ … إلخ، كما هي الحال في الجزء الختامي من اللوحة الثالثة السالفة الذكر.

- **ترجمة المتن:** السنة الثامنة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خو-رع-نفر-تم» ابن رع «تهرقا» ليته يعيش أبديًّا، لقد عمل بمثابة أثره لوالده «آمون رع» سيد «جمأتون»:

	١	مائدة قربان من البرنز.
	١١	(؟) إحدى عشرة آنية كا-حر-كا (؟) كل منهما تحمل قردين.
	١٠	…
(٢)	٥٤	…
	٥٠	خمسون آنية «ألف سنة» من البرنز «اسم جديد لم يعرف بعد».
	١٥	خمس عشرة آنية دنيت من البرنز.
	٥٠	خمسون سكينة من البرنز.
	٥	خمس أواني عش من البرنز «عش = إناء جعة».

	١	آنية عش طويلة من البرنز.
	٤	أربع أواني «قبى» كبيرة من البرنز.
	١٠	عشر أواني «إرس» من البرنز «هذا النوع من الأواني لم يذكر في قاموس اللغة».
	١	صناجة واحدة من البرنز.
	١	آنية ... (٣) من البرنز.
	٣	ثلاث أواني «شفد» من البرنز.
	٣	ثلاث أزواج مناقيش من البرنز.
	٧	سبع أواني «حست» من البرنز.
	١	آنية واحدة «زازات» من البرنز.
	٥	خمس أواني «جاش» من البرنز.
(٤)	١	عمود قاعدة موقد.
	١	موقد لصهر البرنز.
	٥	خمسة مصابيح من البرنز.
	٣	ثلاث أواني «خاوت» من البرنز.
	١	آنية واحدة (؟) «نحمت» من البرنز.
	١	حلقة قاعدة من البرنز.
	١	آنية «عا» من البرنز.
	١	حلقة قاعدة لمائدة من البرنز.
(٥)	١	آلة من النحاس للقطع.
	١	فأس من البرنز يبلغ زنتها ٢٨١ دبنا من البرنز.
	٧٨١٥ دبنا	«المجموع»
	٨	ثمانية حزم «خرد» من النسيج.

	٥٧	سبع وخمسون حزمة من نسيج «زات».
	٢	حزمتان من نسيج «ثتف» «هذه الكلمة لم تذكر في القاموس».
	١٥	(٦) خمس عشرة سارية من خشب النخيل.
	٤	أربع حزم من نسيج «إفد» (كتان فتلته مؤلفة من أربعة خطوط).
	١٠٤	مائة وأربعة خيوط غزل.
	٥٦	خمسون وستة قضبان من خشب الزيزفون «عناب؟»
	١٥	خمسة عشر … رتنج مجفف.
	١	ذراع واحد من الفضة لأجل أداء شعيرة رش الماء.
	٢	آنيتان «ست-منت» من البرنز، فيكون المجموع (٧) هو: ١٥١٥ دبنا.
	٥٥٠	دبنا من مادة حمراء «سم الفأر» وهي التي أهداها ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» ليته يعيش أبديًّا لوالده «آمون رع» سيد «جمأتون»؛ لأجل أن يمنح كل الحياة وكل الثبات والفلاح وكل الصحة وكل السعادة مثل «رع» أبد الآبدين.

(١٨) السنة التاسعة: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» ليته يعيش أبديًّا، لقد عمل بمثابة أثره لوالده آمون رع رب «جمأتون»:

٦٥١	واحد وخمسون وست مائة دبن من الذهب.
١	مروحة (؟) من الذهب تبلغ زنتها ٩ دبنات من الذهب.
٣٢٠٠	مئتان وثلاثة آلاف دبن من الفضة.
١	مقبض مروحة (؟) من الفضة (؟).
٢	آنيتان «شو» بحافات من الذهب «مكيال جعة؟»
١	حلية «تف» مشغولة بالذهب.
٢	مصباحان من الفضة.
١	منظار نجوم من الذهب من خشب النخيل «لأجل رصد النجوم».
١	(١٠) مروحة من الفضة والذهب.

١	آنية «شو» من البرنز.
١	آنية «قبي» من البرنز.
١٠	عشرة موائد قربان من البرنز.
١	آنية ماء.
١٠٠٠	ألف حبة من السرو.
١٣٤٥٦	ستة وخمسون وأربع مائة وثلاثة عشر ألف دبن (١١) من البرنز.
٢	إوزتان من الفضة يبلغ ثمنهما مائتي دبن من الفضة و ـ قدات.
١٠	عشر أواني خاوت من البرنز.
١	آنية لوتيس «أي محلاة بزهرة اللوتيس».
١٤٧	سبع وأربعون ومائة آنية «هنو» لأجل أن يمنح الحياة والثبات والفلاح مثل رع أبديًّا.

(١٢) السنة العاشرة: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» ليته يعيش سرمديًّا، لقد عمل بمثابة أثره لوالده آمون رع رب «جمأتون»:

١٥	خمسة عشر دبنا من الذهب.
٥٠٠	خمسمائة دبن من وشب «= خرز».
١٠٦	ست ومائة دبن من «قمنيت» «معدن يستعمل لصنع لون أصفر».
٢٠٠٠	ألفا دبن من حجر أزرق للتلوين.
٥٠٠	خمس مائة (١٣) دبن من الشمع.
١٠٠	مائة دبن «سشخ».
١٠	عشر أوانٍ من القاشاني.
١٠٠	مائة رداء من نسيج «أنسي».
٢٠٠	مئتا رداء من نسيج «إدمي».
٣٥	خمسة وثلاثون رداء مجدولًا بحواف مزركشة (؟)
٥	(١٤) خمسة أرغفة من اللادن.

٦٠	ستون ورقة من الذهب للحفر «أي لتغطية المسطحات المحفورة».
٣٠٠	ثلاث مائة دبن من الذهب من بلاده؛ أي من بلاد الذهب «هذا التعبير يشبه ما يقال الآن: وارد بلاده»، وكل خشب كثير لا يحصى من الأرز والعرعر والسنط.

وقد أصبحت كل مدينة تلمع (١٥) بكل أنواع الشجر، وقد عين له «أي للمعبد» بستانيون من أحسن من في الواحة البحرية ومثلهم من أهالي الوجه البحري، ولما كان معبده قد تداعى إلى الخراب فقد أقيم (١٦) بأحجار صلبة جميلة، وذلك بعد أن وجد جلالته أنه كان مقامًا باللبنات، وأن الرمال السافية قد وصلت إلى سقفه، فأقامه بالحجر بصناعة ممتازة (١٧) لم ير مثلها منذ زمن الآلهة حتى هذا اليوم.

وقد أقامه من حجر ممتاز جميل صلب، وقد رفعت العمد وغشيت بالذهب الجميل وطعمت بالفضة، وبوابته أقيمت (١٨) بصنعة جميلة، وركبت أبوابه من خشب أرز حقيقي، وعملت المزاليج من نحاس آسيوي، وحفر اسم جلالته العظيم بكل الكتَّاب أصحاب الأصابع الماهرة، ونقشت بصناع (١٩) حاذقين فاقوا ما صنعه الأقدمون، ومون مستودعه، وزودت موائد قربانه وملئت بموائد للشراب من الفضة والذهب والنحاس الآسيوي، وكل أنواع الأحجار الثمينة الحقيقية التي لا تحصى، وملأه بخدم عديدين وعين له خادمات[٥١] «كاهنات» من أزواج زعماء الوجه البحري،[٥٢] وعصر نبيذ كروم هذه المدينة (يقصد مدينة جمأتون = الكوة الحالية) وأنه أغزر من نبيذ «جس جس»،[٥٣] وعين بستانيين له ماهرين (٢١) من «منتيو» آسيا،[٥٤] وملأ هذا المعبد بالكهنة، وهم رجال كانوا يعرفون تعاويذهم، وهم أبناء العظماء من كل بلد، وحشد بيته بمغنيات ليغنوا أمام وجهه الجميل.

(٢٢) وقد عمل جلالته هذا؛ لأنه كان يحب والده آمون رع سيد جمأتون حبًّا جمًّا، ولأنه قد عرف أنه كان ممتازًا في رأيه سريع الخطا، فهو الذي قد أتى لمن دعاه بسبب المعجزة التي عملها لوالدته وهو في الفرج قبل أن تضعه؛ وذلك لأن أم أمه كانت قد وكلت إليه بوساطة أخيها الزعيم «آلارا» (٢٣) المرحوم بالكلمات التالية: «يا أيها الإله الممتاز السريع الخطا، يا من تأتي لمن يدعوك، ارْعَ من أجلى أختي؛ فإنها امرأة وُلدت معي من فرج واحد، اعمل لها كما عملت لمن عمل لك بمثابة معجزة لم تكن في الحسبان ولم يدبرها مدبر؛ لأنك جعلت من يدبر لي السوء يبوء بالفشل (٢٤) ونصبتني ملكًا، فافعل لأختي مثل ذلك، أشهر أولادها في هذه الأرض وامنحهم الوصول إلى الفلاح والظهور ملوكًا كما فعلت لي.»

وقد أصغى لكل ما قلت ولم يُدِرْ أذنه بعيدًا عن أية كلمة من كلماتي، فنصب ابن رع «تهرقا» (ليته يعيش سرمديًّا) ملكًا (٢٥) … وليخلد اسمه ويصلح آثاره ويحفظ تماثيله سليمة، ولينقش اسمه على المعبد ولينطق اسماء جداته، وليؤسس قرابين جنازية لهن، وليمنحهن كهنة أرواح كثيرين أغنياء في كل شيء، ليته يمنح الحياة مثل «رع» سرمديًّا.

تعليق: لا نزاع في أن محتويات هذه اللوحة تقدم لنا صورة واضحة عن ثراء مصر وبلاد النوبة في هذه الفترة من تاريخ وادي النيل، كما تضع أمامنا صورة عن الأدوات والمعدات التي كانت تقدم للمعابد العظيمة في ذلك العهد لإقامة الشعائر.

وتدل الأحوال على أن الملوك وقتئذٍ كانوا يجهزون المعابد بكل ما تحتاج إليه من مواد أولية كانت تزرع في حقول خاصة وحدائق غنية بجوار المعبد نفسه، ولذلك كانت الملوك على ما يظهر ينتخبون مواقع هذه المعابد بجوار الأرض الخصبة، ولا أدل على ذلك أكثر مما نحن بصدده الآن؛ فإن معبد الكوة قد أقيم في بقعة خصبة بجوار النيل العظيم.

ولكن أهم ما يلفت النظر في هذه اللوحة ما تحدث به «تهرقا» عن الأسباب التي أدت إلى اعتلائه عرش الملك بعد «شبتاكا» فالأساطير التي وردت لنا نقلًا عن كتاب الإغريق هو أنه قتل «شبتاكا» وتولى بعده الملك، ولكن «تهرقا» يحدثنا في لوحاته أنه كان محببًا لقلب أخيه «شبتاكا» أكثر من كل إخوته الذين وفدوا معه من بلاد النوبة بدعوة منه، وربما كانت هذه الدعوة للاشتراك في إخماد نار ثورة قامت في بلاد الدلتا التي كانت مصدر قلاقل لملوك «كوش» منذ أن استولوا عليها، فالأحوال إذن كانت مضطربة في مصر عندما وفد إليها «تهرقا» وهو في العشرين من عمره، وقد غالى «تهرقا» في وصف محبة «شبتاكا»، فقال إنه كان يحبه كذلك أكثر من أولاده، وكأنه كان بذلك يهيئ نفسه لتولي عرش الملك بعد وفاة «شبتاكا» في أعين الشعب وفي عين التاريخ.

كل هذا يُشعر بأنه كان هناك شيء خفي جعل «تهرقا» يحدثنا عن نفسه بهذه الصورة المريبة، ثم إنه لم يكتفِ بذلك، بل حدثنا بحديث آخر عن العرش ووراثته، فيقص علينا أن الزعيم «آلارا» «وهو شخصية لم تكن قد كشفت عنها النقوش بعد» كان على ما يظهر أول من تولى عرش ملك بلاد «كوش» وقد أراد أن يستمر الملك في نسل أولاد أخته فطلب إلى الإله آمون أن يستمع إلى ندائه ويجيب رغبته، وقد أصغى إليه آمون وأجاب دعاءه فولى «تهرقا» عرش الملك وهو من نسل هذه الملكة، وقد كان ذلك حافزًا لتهرقا على بناء معبد له وتجهيزه بكل أثاث فاخر، فماذا يا ترى سبب كل هذه البراهين والبينات التي قدمها لنا «تهرقا» عن توليه عرش الملك؟

لا نزاع في أن في الأمر شيئًا جد خطير، فنحن نعلم أنه كان على ما يظهر أصغر إخوته عندما ذهب إلى مصر ليكون مع أخيه «شبتاكا»، ونحن نعلم كذلك فيما بعد أن تولي عرش الملك لم يكن من الأب للابن، بل كان ينتقل من الأخ لأخيه، وإذا كان الأمر بالسن في هذه الحالة فإن «تهرقا» لم يكن هو الوارث الشرعي، بل كان هناك من هو أحق منه بالخلافة، وإذا كان هذا التقليد لم يكن شائعًا بعد فإن الملك كان لا بد أن يكون لأحد أبناء «شبتاكا»، وقد أخبرنا «تهرقا» في نقوشه أن «شبتاكا» كان له أولاد، ولكن كان يحب «تهرقا» أكثر منهم أيضًا.

ومن كل ذلك نرى أن «تهرقا» قد أحكم تدبيره للظهور أمام الشعب بأنه هو الوارث الشرعي المفضل من كل الوجوه كما شرحنا، ولكن هل هذه هي الحقيقة الناصعة؟

في الواقع تدل شواهد الأحوال على أن «تهرقا» لم يتسلم مقاليد الأمور في سهولة ويسر، بل إنه بعد تولي عرش الملك أخذ يبرر موقفه، وليست هذه هي المرة الأولى في تاريخ وادي النيل، بل نجد أن كل ملك اغتصب الملك كان يعمل جاهدًا بعد توليه العرش واستتباب الأحوال له على أن ينشر على الناس ما طاب له من البيانات، وليس هناك من يعارضه ما دام ينشرها على لسان الإله الذي آزره وعززه، وقد نوه «تهرقا» بذلك عندما خاطب في اللوحة السابعة الإله «آمون» قائلًا له: «لأنك جعلت من يدبر لي السوء يبوء بالفشل ونصبتني ملكًا»، هذا؛ وقصة تولي ملوك الأسرة الخامسة عرش الملك وهم من الكهنة قصة مختلقة،[٥٥] وقصة تولي «حتشبسوت» عرش الملك قصة موضوعة؛ لأنها كانت امرأة، وأرادت أن تبرر اعتلاءها العرش،[٥٦] وكذلك قصة تولي «تحتمس الثالث» الملك قد ألفها هو بعد تولي عرش الملك بسنين،[٥٧] وأخيرًا قصة اعتلاء «تحتمس الرابع»[٥٨] ملك أرض الكنانة والحلم الذي رآه في منامه ومساعدة «بولهول» له على تولي العرش قد ألفها هو بعد توليه العرش، وبعد أن قضى على إخوته الذين كانوا حجر عثرة في سبيل توليه الملك. ونحن لا نشك في أن «تهرقا» قد لعب دورًا هامًّا مثل الدور الذي لعبه «تحتمس الرابع» ولا يبعد إذا أن موضوع قتله «شبتاكا» الذي كان يحبه كما ذكرنا أكثر من كل إخوته وأولاده فيه شيء من الصحة، غير أن هذا موضوع غامض، وعلى أية حال يعزز نظريتنا في هذا الاغتيال ما جاء في قصة «تحتمس الرابع» عندما كان في صيده بجوار «بولهول» مع رفقائه، والحلم الذي رآه وهو لا يزال أميرًا بعيدًا عن الملك وما جاء في قصة «تهرقا» عندما كان في طريقه إلى مصر مارًّا بمعبد «جمأتون» وشاهد ما كان عليه المعبد من سوء حال فقد طغت عليه الرمال وغُطي بالطين، وهكذا كانت الحالة مع «بولهول» فقد كانت الرمال غطت معظمه، ومن ثم كان على «تهرقا» أن يختلق حيلة لتبرير اعتلائه العرش كالتي اختلقها «تحتمس الرابع» ونحن نرجح كما ذكرنا في غير هذا المكان أن «تحتمس الرابع» قضى على إخوته الذين كانوا يحولون بينه وبين الملك.

اللوحة رقم ٧: الخاصة بافتتاح المعبد الذي أقامه «تهرقا» في «جمأتون» في السنة العاشرة من حكمه

وجدت هذه اللوحة في المعبد T في الردهة الأولى، وقد وجدت مرتكزة على النصف الشمالي من الجدار الغربي على الجانب الجنوبي، وهي الآن بمتحف «ني كارلسبرج جليبتوتك» بمدينة كوبنهاجن.[٥٩]

وأبعاد هذه اللوحة هي ١٫٩٢٥ × ٠٫٨٣٩ × ٠٫٢٦٣ مترًا، وقد نحتت من الجرانيت الرمادي ونقشت من وجه واحد فقط، وتحتوي على سطر واحد أفقي وأربعة عشر سطرًا عموديًّا، وكتبت بحروف كبيرة منحوتة نحتًا جميلًا، ولكن مما يؤسف له جد الأسف أن جزءها الأعلى

المستدير قد أصبح أسود بفعل النار كما محي جزء كبير منها، والواقع أن المحفوظ من هذه اللوحة هو الجزء الأعلى المستدير والمنظر والمتن من الجهة اليمنى.

يحد الجزء الأعلى من اللوحة بعلامة السماء، وفي أسفل هذه العلامة يشاهد قرص الشمس المجنح والصِّلُّ، ونقش تحت قرص الشمس: «صاحب بحدت «أي حور» الإله الطيب» ويشاهد أسفل هذا منظران يفصلهما عمود من النقوش جاء فيه: «الذي يعطي الحياة والثبات والفلاح والسعادة مثل رع.»

وعلى الجانب الأيسر يشاهد الإله الطيب والسيد المنجز «تهرقا» معطي الحياة واقفًا يقدم رغيفًا أبيض لوالده «آمون رع» صاحب جمأتون ممثلًا برأس كبش واقفًا وممسكًا بيده علامتي السلطة والحياة ومرتديًا قرص الشمس والصِّلَّ.

ويشاهد على الجانب الأيمن الملك «تهرقا» واقفًا يقدم رغيف شعت لوالده «أي الإله آمون برأس إنسان» رب تيجان الأرضين، وبإحدى يديه علامة الحياة «عنخ» وبالأخرى علامة السلطة «واس»، ويرتدي على رأسه الريشتين، ونقش خلف الملك: حمايتي والحياة تكونان حوله مثلما هي حول رع، ثم يشاهد خلف ذلك السطر عمود من الرموز الهيروغليفية الخاصة بتأسيس المعبد عادة.

والمتن الرئيسي الذي يأتي بعد ذلك يتلخص في أنه سجل رسمي للاحتفال بافتتاح معبد «تهرقا» الذي أقامه في جمأتون في السنة العاشرة من حكمه حوالي عام ٦٧٩ق.م في يوم عيد رأس السنة المصرية، وتدل شواهد الأحوال على أن ما جاء ذكره في النقوش السابقة الخاصة بهذا الفرعون «أي ما جاء في اللوحات التي تحمل هنا الأرقام ٣، ٤، ٦ من نقوش الكوة» توحي على ما يظهر بأن المعبد كان قد تم في خلال السنين التي أقيمت فيها هذه اللوحات، غير أن ذلك لا يعني في الحقيقة أكثر من أن الأعمال كانت سائرة في مجراها في التقدم في إنجاز المعبد، وقد بدئ العمل في هذا المعبد في السنة السادسة، وعلى ذلك كان لا بد لإتمامه من أربعة أعوام.

ترجمة ما تبقى من متن هذه اللوحة: السنة العاشرة الشهر الأول من فصل الفيضان اليوم الأول من[٦٠] عهد جلالة حور المسمى «قا-خعو» والسيدتان المسمى «قا-خعو»، وحور الذهبي المسمى «خو-تاوي»، ملك الوجه القبلي والوجه البحري المسمى «خو-رع-نفر تم»، ابن «رع» المسمى «تهرقا» معطي الحياة، مثل رع أبديًّا.

(٢) إقامة ورش وتقديم بيت لصاحبه[٦١] ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» ليته يعيش سرمديًّا، لقد عمل بمثابة أثره معبد والده آمون العظيم الذي في جمأتون، وقد أقيم من (٣) الحجر بوصفه أثرًا باقيًا، وقد أقيمت الجدران ورفعت العمد ممكنة ومستمرة أبديًّا، وفضلًا عن ذلك أمر (٤) جلالته بإحضار خشب الأرز اللبناني الحقيقي جنوبًا لأجل أن تنصب أشجاره «يقصد هنا عمد الأعلام» في هذا المعبد الذي أقامه جلالته لوالده «آمون»، وقد أضيفت إلى بوابات المعبد «أي الأشجار التي تعني بها عمد الأعلام» التي عملها جلالته (٥)

وإنه هو الذي حفر «الأرض» لأجل الماء البارد الخاص بموائد القربان التي ترضي قلب «آمون» العظيم، وعمل مخزنًا لدخل المعبد الذي أهداه جلالته لوالده.

(٦) والآن فإن جلالته ملك شجاع نصائحه طيبة وأعماله سعيدة، وقد أنجبه والده آمون … وعندما (٧) عرف أن رغبته في بناء بيت للإله، وفي إصلاح المعبد، وآنذاك كان جلالته في البلد (؟) … رجال بلاطه، أما من جهة (٨) ما يعرفه جلالته عن معبد والدي «آمون رع» صاحب «جمأتون» … أن جلالته قد أقام (٩) ثانية بيت والدي آمون العظيم المكانة من حجر صلب باقٍ طيب (؟) … في عهد جلالته سيبقى (١٠) ويستمر المحبوب من «بتاح» سوف (؟) … هم ليعملوا مثل (١١) كما بدأ جلالته … ذهب … وقد جعل الإله يثوي فيه (١٢) … أبديًّا من اللبنات (١٣) … وهو بجانب ما كان باللبنات … (١٤) … ابن يحمي والده، وقد عمل لأجل من عمل له (١٥) … وقد ظهر ملكًا على الوجه القبلي والوجه البحري على عرش حور سرمديًّا.

وبهذه اللوحة تختم المتون التي عثر عليها في الكوة «جمأتون» للملك «تهرقا».

والظاهر أن معبد «الكوة» هذا، مما جاء من تلميحات في هذا المتن، أنه كان قد أقيم على أنقاض معبد آخر لم يتبقَ لنا منه شيء.

هذا؛ وليس لدينا من اللوحات التاريخية التي لها اتصال مباشر بعصر الملك «تهرقا» إلا لوحة واحدة وهي اللوحة التي عثر عليها مريت في مدفن السرابيوم «بمنف»، وسنتكلم عنها هنا قبل أن نتكلم عن آثاره الأخرى في بلاد النوبة ثم في أرض الكنانة نفسها.

لوحات الكوة وما تلقيه من ضوء على تاريخ «تهرقا» العام وعصره

لا نزاع في أن متون لوحات معبد «جمأتون» التي من عهد الملك «تهرقا» تلقي أضواء هامة على تاريخ وادي النيل وما جاوره من البلدان، من ذلك ما يلحظ من نقل سكان إلى «الكوة» كما جاء في اللوحة السادسة (السطر ١٥) وكذلك نقل أميرات من الوجه البحري كما جاء في نفس اللوحة في السطر العشرين، وهذا يجعلنا نظن أنه في خلال السنين الأولى من القرن السابع قبل الميلاد قد وقعت حروب بين ملك «كوش» وولايات الدلتا المستقلة، ويتساءل الإنسان هل كان سبب ذلك التدخل في شئون الدلتا واستعباد أهلها راجعًا في الأصل إلى هجوم قام به «شبتاكا» على هذه البلاد؟ هذا ما جاء ذكره في المتن الكبير الخاص بالفيضان في السنة السادسة (سطر ١٧)، وعلى ذلك يمكن أن نتساءل مرة أخرى أليست تهدئة الأحوال بإخماد نار الفتن في الدلتا وإعادة الرخاء في السنة السادسة من حكم «تهرقا» تضع أمامنا صفحة جديدة في تاريخ التسلط الكوشي على مصر؟

ومن أجل ذلك كان قد قرر «تهرقا» مجيء والدته إلى الديار المصرية كما كان قد أمر ببناء المعبد T بعد أن أصبح الجو صافيًا له، ويلفت النظر كذلك هنا أهمية مدينة «منف» في عهد الملك «تهرقا» فقد توج فيها، وعلى ذلك لا يبعد أنه قد اتخذها بعد ذلك مقرًّا لحكمه.

وليس ذلك بغريب؛ فإن لقب «تهرقا» «رع-حافظ نفر تم» يجوز أن يكون له اتصال بمنف، والإله «نفر تم» كما هو معلوم هو أحد أفراد ثالوث «منف» وهم «بتاح» والإلهة «سخمت» زوجه ثم «نفر تم» ابنه، يضاف إلى ذلك أن اسم «تهرقا» «محبوب بتاح» كان شائعًا في نقوشه.

ولا يفوتنا أنه كان يقلد في ذلك الملك «شبكا» الذي قيل عنه إنه هو الذي عثر على المتن الأصلي الخاص باللاهوت المنفي الذي تحدثنا عنه فيما سبق، فقد كان يدعى كذلك «محبوب بتاح» (Bull, Inst, LI, P. 28 No.3).

هذا؛ وتشير كذلك متون هذه اللوحات إلى امتداد مملكة «كوش» نحو الغرب، فقد جاء ذكر نقل أمراء التحنو إلى بلاد النوبة في اللوحة رقم ٣ سطر ٢٢، هذا بالإضافة إلى متن مماثل عثر عليه في «صنم أبو دوم» (راجع A.A.A, 9. Pl 26, 8) وأخيرًا وجد اسم «التحنو» في قائمة أصلها في الواقع قديمة خاصة بالبلاد المقهورة (Ibid Pl. 41,1).

وليس من شك في أن الإشارة هنا إلى لوبيي مرمريقا «برقة» الذين كان قد استخدمهم «تفنخت» لمحاربة «بيعنخي» (Urk, III, 8, 1. 11)، يضاف إلى ذلك وجود إشارة إلى أهالي الواحة البحرية كما جاء في متن اللوحة رقم ٦ سطر ٢٠ عن نبيذ الواحة البحرية.

ولدينا قائمة أسماء جغرافية عن البلاد التي غزاها «تهرقا» وقد جاء فيها ذكر الواحة (راجع A.A.A, 9. Pl 23, A)، وهذا يسمح لنا أن نظن أن الكوشيين منذ الأسرة الأولى كانوا قد مدوا سلطانهم على الواحات، وقد يؤكد ذلك الكشف حديثًا عن قطعة حجر عليها اسم «شبكا» في الواحة البحرية (راجع له Fakhry, A. S, 39, P. 64, & Bahria Oasis, II P. 730).

ولدينا حقائق كثيرة، بغض النظر عما شاهده «هردوت» (راجع Herodot, II, 42) عن وجود مستعمرة كوشية أقامها الآمونيون، قد تكون إلى حد ما محبذة للفكرة التي اعتنقها علماء مختلفون، وهم الذين ظنوا أن وحي سيوة يرجع إلى أصل كوشي: منها على رأي «ستيندورف» احتلال هذه الواحة بالملك «تهرقا» (راجع Steindorff, Durch die Libysche Wuste zur Amonoasis, P. 69-70) هذا وقد ذكر مكأدم أن «آمون» صاحب واحة «جس جس» (أي الواحة البحرية) قد مُثل في عهد الأسرة السادسة والعشرين برأس كبش مثل «آمون» بلاد النوبة (Macadam, Texts, P. 39 No. 53).

أما نشاط ملوك «كوش» الحربي على حدود فلسطين فله علاقة بعمال «منتيو آسيا» الذين كانوا يعملون في كروم «جمأتون» كما جاء ذكر ذلك في لوحة الفيضان الكبرى، هذا بالإضافة إلى أن استعمال اللازورد (اللوحة ٣ سطر ٩) والفيروز (اللوحة ٣ سطر ٩) والبرنز (اللوحة ٦ الأسطر ١٨، ١٩) وخشب عشى وخشب مرو (اللوحة ٣ سطر ٢١، واللوحة ٦ سطر ١٤، ١٨، واللوحة ٧ الأسطر ٣، ٤) يدل على وجود علاقات اقتصادية بين وادي النيل وآسيا في تلك الفترة.

لوحة السربيوم[٦٢] ونهاية عصر «تهرقا»

يوجد الآن بمتحف «اللوفر» لوحة نشرها الأثري «مريت»[٦٣] وغيره، وقد سجل على هذه اللوحة دفن عجل أبيس في «منف» في السنة الرابعة والعشرين من حكم الملك «تهرقا» وهي مهمة؛ لأنه من نقوشها نعرف أنه في عام ٦٦٤ق.م، قد عد كهنة «منف» أن الملك «تهرقا» لا يزال يحكم هناك على الرغم من أنه كان قد طرده «آشور بانيبال» على ما يظهر في عام ٦٦٧ أو ٦٦٦ق.م.

وسنورد هنا الترجمة أولًا ثم نعلق عليها:

> السنة الرابعة والعشرون الشهر الرابع من الفصل الثاني اليوم الثالث، لقد اقتيد الإله في سلام إلى الغرب الجميل «أي إلى مكان الدفن» بوساطة الأمير الوراثي، والكاهن سم «أي كاهن الإله بتاح»، رئيس كل الملابس «الملكية»، وكاهن بتاح ووالده، الإله المسمى «سنبف» ابن والد الإله، المنسوب إلى «سخت رع»، «عنخ وننفر»، الذي وضعته «ناعا-تايس نهتت»، وأخوه والد الإله المنسوب إلى «سخت رع» «بتاح حتب».

التعليق: ولا نزاع في أنه لدينا في نقوش هذه اللوحة مثال بدهي، إذا كان تسلسل تاريخ نهاية حكم الملك «تهرقا» أكثر تأكدًا مما نعرفه، والواقع أنه في السنة الرابعة والعشرين من حكم «تهرقا» دفن عجل أبيس في السربيوم بمنف. والتأريخ المصري يظهر وطيدًا لحد ما ليؤكد لنا أن هذا التاريخ يقابل السنة ٦٦٦ق.م تقريبًا، وقد اعتقد الأستاذ[٦٤] «برستد» أن «تهرقا» في هذه اللحظة لم يكن يحكم بعد في «منف» بل كان قد طرده «آشور بانيبال» منها، هذا ويرى في طريقة تأريخ هذه اللوحة التي كانت قد أخفيت في جوف دهليز تحت الأرض إثباتًا خفيًّا لولاء الكهنة للملك «تهرقا» على الرغم من أنه لم يكن يحكم البلاد فعلًا، وقد يكون لدينا هنا مثل مؤكد عن جهل المؤرخين المتأخرين بالوثائق الخاصة بالفتح الآشوري لمصر، وقد زاد الطين بلة أن تاريخ حملة «آشور بانيبال» على مصر غير مؤكد حتى الآن فيضعه بعض المؤخين على حسب الوثائق المسمارية في عام ٦٦٧ق.م،[٦٥] ويضعه بعضهم الآخر، على ما يظن على حسب لوحة السربيوم في عام (٦٦٦)،[٦٦] ومما يؤسف له جد

الأسف أن «آشور بانيبال» لم يترك لنا حوليات بالمعنى الصحيح، ولكن ترك لنا متونًا خاصة بمبانيه مسبوقة بمقدمة طويلة واصفة حملاته، ولكن لم تكن بالترتيب التاريخي، هذا ونجد في الطبعة الأخيرة لهذه المتون أنه قد عدد على التوالي حملتين على مصر وحملة على صور، وحملة على بلاد «ميديا»، وحملة على «عيلام»، وحملة على بلاد «بابل»، وحملتين أخريين على «عيلام»، وحملة على بلاد العرب،[٦٧] فإذا كانت هذه الحملات قد وقعت متتابعة سنة فسنة فإن الحملتين الأولى والثانية على مصر تقعان في السنتين ٦٦٨ و٦٦٧ق.م، والرابعة تقع في السنة ٦٦٥ق.م، والسادسة في السنة ٦٦٣ق.م، والتاسعة في السنة ٦٦٠ق.م.

والواقع أننا نعلم أن الحملة الرابعة على أكثر تقدير قد وقعت في عام ٦٦٩ق.م، إذا لم تكن قد وقعت في عام ٦٦٨ق.م،[٦٨] وإن الحملة السادسة وقعت في سنة ٦٤٨ق.م،[٦٩] والحملة التاسعة معاصرة للحملة السادسة أو قبلها،[٧٠] وعلى ذلك فليس لدينا ما يبرهن على أن الحملتين الأولى والثانية قد وقعتا في العامين ٦٦٨ق.م، و٦٦٧ق.م، بل على العكس نعلم أن «آشور بانيبال» كان يحارب في الحملة الثانية الملك «تانوت آمون» خلف «تهرقا» وقد امتطى عرش الملك عام ٦٦٤ق.م، فالحملة الثانية كانت تؤرخ إذن بهذه السنة، والحملة الثالثة قد وقعت بعدها على أكثر تقدير في السنة ٦٦٣ق.م؛ وذلك لأن «آشور بانيبال» يتحدث فيها عن الثورة التي قام بها عليه الملك «بسمتيك الأول»[٧١] الذي أرخ أول حكمه بهذه السنة.[٧٢]

بعد كل ذلك نعود إلى الحملة التي قادها «آشور بانيبال» على «تهرقا»، فإذا علمنا أنه في عام ٦٦٨ق.م لم يقم الآشوريون بأية حملة إلا التي قاموا بها على بلاد «ميديا»، وأنه في عام ٦٦٤ق.م قد تولى «تانوت آمون» عرش ملك مصر خلفًا لتهرقا فإنه يكون لدينا الخيار بين السنين ٦٦٧، ٦٦٦، و٦٦٥ق.م ليكون تاريخًا لهذه الحملة.

وعلى أية حال فإن الحل لهذه المسألة سيكون بالكشف عن متن لحوليات بابلية لهذا العصر؛ وذلك لأنه يوجد الآن في التاريخ البابلي ثغرة من ٦٦٨ إلى ٦٥٢ق.م، وكذلك نلحظ أن ما لدينا من تأريخ من ٦٥٢ إلى ٦٤٨ق.م مختصر لدرجة أن هذه الثغرة تمتد حتى ٦١٦ق.م.[٧٣]

ومن الجائز أنه بتاريخ دفن العجل أبيس الذي مات في السنة الرابعة والعشرين من حكم «تهرقا» قد أكد كهنة السربيوم ولاءهم للملك الذي طرده الغزاة الفاتحون الأجانب، غير أن هذا شيء ليس مؤكدًا، ولكنه من البدهي أن الآشوريين لم يعترف بهم ملوكًا على مصر، وعلى أية حال فإن ملوك آشور لم يفرضوا أنفسهم على المصريين بوصفهم فراعنة على وادي النيل، هذا؛ ولدينا لوحة بمتحف اللوفر نعلم من نقوشها أن عجلًا من عجول أبيس قد مات وعمره إحدى وعشرون سنة في عام ٦٤٣ق.م، وهذه السنة تقابل العشرين من حكم الملك «بسمتيك الأول»، وهذا العجل كان قد ولد في السنة السادسة والعشرين من حكم الملك «تهرقا»؛ أي في السنة ٦٦٤ق.م،[٧٤] ويستنبط من عرض هذه التواريخ أنه من وجهة ترتيب التواريخ ترتيبًا متتابعًا على حسب الحوادث المصرية لا يوجد للفتح الآشوري؛ أي مكان في القوائم التي خلفها لنا الأقدمون، والواقع أن ما استنبطه كل من «فنديه»

«ودريوتون» (Ibid, P. 529) من أن «تهرقا» كان لا يزال معترفًا به في منف عام ٦٦٤ق.م، ليس بالأمر الواضح تمامًا، هذا وقد ذهبا كذلك إلى أن «تهرقا» كان معترفًا به في طيبة، هذا إذا كانت صورة «تهرقا» التي نراها مشرفة على النقش الكبير الذي تركه لنا «متنومحات» تعد معاصرة لهذا المتن، غير أن التاريخ الذي نسب إلى متن «متنومحات» لا يرتكز إلا على بعض تلميحات في المتن مهشمة تشير إلى عصر مضطرب أراد بعض المؤرخين أن يستنبط منه تخريب مدينة طيبة على يد الآشوريين كما سنرى بعد.

(٧-٢) آثار «تهرقا» الأخرى ومخلفاته في بلاد النوبة

خلف الفرعون «تهرقا» آثارًا كثيرة أخرى غير التي ذكرناها فيما سبق في بلاد النوبة عامة، ولا نزاع في أنه يعد حتى الآن في طليعة الملوك الذين تركوا لنا آثارًا عدة في هذا الشق من وادي النيل، وهاك أهم ما عثر عليه حتى الآن.

- (١) خور حنوشية: عُثر للملك «تهرقا» على متن مكتوب على الصخر في خور حنوشية التي تقع بين كلابشة وبيت الوالي، وقد أرخ بالسنة التاسعة عشرة، ويلحظ أن هذا المتن قد هشم من اليسار وذكر عليه السنة التاسعة عشرة[٧٥] الشهر الثالث من فصل الفيضان، ثم ذكر بعد ذلك اسم الفرعون وألقابه الفرعونية المعروفة، ويقول «ويجول»: إنه على ما يظهر قد دون هذا النقش وهو في طريقه إلى عاصمة ملكه في الجنوب بعد أن هزمه «إسرحدون» ملك آشور، هذا ولدينا نقش آخر على صخر كذلك على مسافة كيلو متر من غربي طيفة مؤرخ بنفس السنة والفصل.

ويقول «ويجول» كذلك إنه كتب تخليدًا لسير «تهرقا» متقهقرًا إلى السودان حوالي عام ٦٦٩-٦٦٨ق.م، وذلك عندما دخل «إسرحدون» مصر من الشمال، والواقع أن هذا النقش يدل على محاولة «تهرقا» أن يظهر ما كان عليه من شجاعة وإقدام ودخوله بلاده دخول الملك المظفر، على الرغم من أن النقش يعد سجلًا دون فيه لحظة سيطر فيها «تهرقا» على جيشه وقاده بنظام في ساعة عصيبة من جراء هزيمته المنكرة التي هزم فيها على يد «إسرحدون»[٧٦] ولا غرابة في ذلك؛ فإن «تهرقا» لم يذكر لنا شيئًا قط عن حروبه مع «آشور».

- (٢) ووجد كذلك للملك «تهرقا» جزء من لوحة مصنوعة من الطين عليها طغراؤه،[٧٧] ويحتمل أنه وجد بالقرب من الكنيسة القبطية الواقعة قبالة «أبريم».
- (٣) قصر أبريم:[٧٨] وكذلك وجد في معبد قصر أبريم قطعة حجر عليها اسم «تهرقا» مثبتة بالجدار.
- (٤) بهين: وجد في معبد بهين الجنوبي صورة للملك «تهرقا» (؟) على سمك باب المحراب وقد مثل وهو داخل، كما وجدت كذلك صورته على قطعة من مقصورة راكعًا وفي يده إناء نبيذ وهو يتقبل علامة الحياة من الإله.[٧٩]
- (٥) سمنة – معبد تهرقا: كشف الأثري «بدج» عن معبد للملك «تهرقا» في أوائل القرن العشرين في سمنة، ويقع هذا المعبد جنوبي معبد الفرعون «تحتمس الثالث» الذي أقامه في هذه الجهة، ومعبد «تهرقا» مقامة جدرانه من اللبنات، وقد أقيم تكريمًا للملك «سنوسرت الثالث» فاتح السودان والذي كان يعد ضمن آلهة هذه البلاد، ولا نزاع في أن «تهرقا» كان يؤله «سنوسرت» تشبهًا بالفاتح العظيم «تحتمس الثالث» الذي أله «سنوسرت» من قبله ومثل وهو يقدم له القربان، ومن ثم كان «تهرقا» يعد نفسه من عظماء الفاتحين ويتشبه بهم، ولا غرابة إذن أن نجد سترابون قد وضعه في مصاف الفاتحين في العالم (راجع Strabon XV, I, 16 & Ibid I, 3:21).

وتدل شواهد الأحوال على ما يظن على أن هذا المعبد كان موجودًا من قبل، وأن «تهرقا» قد جدده، فقد وجد في داخله تمثال لأحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة يدعى «خوتاوى رع».

وقد وجد معبد «تهرقا» عند الكشف عنه سليمًا، ويبلغ طوله حوالي ثلاثة وعشرين مترًا وعرضه حوالي عشرين مترًا ونصف متر، وكان يحتوي على ردهة أمامية مقام فيها ستة عمد وعلى حجرة في داخلها محراب مستطيل طوله خمسة أمتار وثمانية وأربعون سنتيمترًا، والمسافة بينها وبين المحراب ١٫٩٥ من الأمتار، وتوجد في المحراب مائدة قربان نقش عليها طغراء «تهرقا» وكذلك طغراء «سنوسرت الثالث»، والنقش بأكمله هو: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» العائش سرمديًّا عمله بمثابة أثره لوالده الإله الطيب

«خع-كاو-رع» محبوبه، من هذا نفهم أن «تهرقا» قد أقام هذا المعبد ووهبه للملك المؤله «سنوسرت الثالث» وقد اعتبره بمثابة والده، وهذا النقش له أهمية ملحوظة لا تقتصر على أن «تهرقا» قد أقام معبدًا في سمنة وحسب بل لأنه قد عد «سنوسرت الثالث» وهو أول ملك استولى على السودان فعلًا بمثابة جد إلهي، وفي هذا ما يدل على أن ملوك الأسرة الخامسة والعشرين يعدون أنفسهم من أصل مصري، ومما يلفت النظر هنا أن «تهرقا» قد مر على ملوك مصر العظام أمثال «تحتمس الثالث» الذين أقاموا معابد في بلاد «كوش» واختار أول فاتح مصري لوطنه وإلهه.[٨٠]

(٦) جبل برقل: نحت الفرعون «تهرقا» معبدًا للإله «آمون» في الصخر في جبل برقل إلى عمق حوالي خمسين قدمًا، ويرى في خرائبه بقايا نقوش على جدران حجراته التي كانت فيما سبق في الجبل.

وعلى رأي كايو Caillaud كان هذا المعبد يحتوي على قاعة صغيرة تشمل أربعة أعمدة وحجرة صغيرة تشمل عمودين ومحرابًا، وتدل الظواهر على أنه كان لهذا المعبد ردهة أمامية مقامه على ستة أعمدة لا تزال بقاياه مبعثرة حتى الآن.

هذا؛ ولا تزال بقايا بوابته ظاهرة، وهذا المعبد يعرف عند الأثريين بالمعبد رقم B 200.[٨١]

(٧) معبد جبل برقل الكبير رقم B 300:[٨٢] وعلى مسافة قريبة من المعبد السابق معبد كبير سماه ريزنر المعبد رقم B 300 أقامه الملك «تهرقا» أو «ترهاقا» كما جاء ذكره في التوراة، وهذا المعبد كان في الأصل قد أقيم للإله «آمون» ولكن سماه كل من الرحالين «كايو» «وهسكنز» خطأ معبد «تيفون»؛ وذلك لأنهما وحدا صورة الإله «بس» التي حفرت على بعض أعمدة المعبد بالإله «تيفون»؛ أي الإله ست «إله الشر والخبث» وعلى أية حال فإن كلًّا من الإلهين «تيفون» «وبس» كان له صفات خاصة به تختلف عن صفات الإله الآخر.

ويواجه باب معبد «تهرقا» هذا نقطة البوصلة ١٤٣ للشمال الحقيقي، ويبلغ طول المعبد حوالي ١١٥ قدمًا وعرضه حوالي خمسين قدمًا، وكان عمق بوابته حوالي إحدى عشرة قدمًا وعرضها حوالي قدمين ونصف القدم، ومن المحتمل أنه كان يوجد أمام البوابة بعض مبانٍ خارجة عن البناء الأصلي ترتكز على أربعة أعمدة، وتوجد خلف البوابة ردهة نقش على إفريزها هذا المتن بمثابة اهداء المعبد: «تهرقا» العائش سرمديًّا، لقد عمله «أي المعبد» أثرًا له لأمه «موت» صاحبة «نباتا»، فقد أقام لها معبدًا من جديد من الحجر الرملي الأبيض الجميل، وكان جلالته قد وجد أن هذا المعبد قد أقامه الأجداد من الحجر بصورة رخيصة، فأمر جلالته بأن يقام هذا المعبد بمبانٍ ممتازة سرمديًّا[٨٣] ونقش في نفس الردهة متن كالسابق وهو: لقد عمله بمثابة أثره لوالدته «موت» سيدة السماء وملكة النوبة، وقد أقام بيتها وزاد في معبدها من جديد بالحجر الرملي الأبيض،[٨٤] وتحتوي هذه الردهة على ستة عشر عمودًا منظمة في صفوف مزدوجة، ويقع كل صف مزدوج على جانب الممر.

وخلف الردهة السابقة ردهة أخرى تحتوي على ثمانية عمد في صفين مزدوجين، ويرى الأثري «هسكنر» أن هاتين تؤلفان خارجة طولها ٥٩ قدمًا وعرضها ٥٠ قدمًا، وقد عثر كل من «كايو» «ولبسيوس» على آثار للجدار الذي يفصل الردهتين، وهذه الآثار لا تزال ظاهرة، والعمد التي أقيمت على كل من جانبي الممر كانت مستطيلة الشكل كما كانت مزينة بصورة الإله «بس» (إله الفرح والسرور) الذي يلبس ريشًا عاليًا، ويبلغ طول كل عمود سبع عشرة قدمًا وثلاث بوصات، والعمد التي نصبت بين عمد الإله «بس» كانت أعلى قليلًا، ولكن محيط العمود كان ثلاث أقدام وست بوصات فقط، وقد أقيمت على قواعد مستديرة بدلًا من مربعة، وكل عمود محلى بتاج على هيئة رأس البقرة حتحور، ومما تجدر بنا ملاحظته هنا أن أوجه البقرة حتحور كانت تتجه نحو جدران المعبد، فإذا كانت أوجه حتحور قد اتجهت إلى الشمال والجنوب من جوانب العمد فإن صورها كان يغطي عليها العمد التي رسمت عليها صور إله بس، وهي العمد التي كانت مقامة أمامها.

نصل بعد الردهة الثانية إلى حجرة صغيرة منحوتة في الصخر الأصم، وعلى جانبي الممر أقيم عمود مستطيل محلى بصورة الإله «بس» نقش عليه اسم الملك «تهرقا» وألقابه،

ويرى حتى يومنا هذا على أجزاء الكرنيش الباقية نقش ذكر فيه تقديس الملك للإله آمون الممثل برأس كبش والإلهة «موت» سيدة «تاستي» وألقاب كثيرة للملك، كما يشاهد على جدران المعبد بقايا نقوش وصور مثل فيها الملك يتعبد ويقدم القربان لآلهة الجبل المقدس؛ أي جبل «برقل» وبخاصة يقدم البخور للإله أنحور «أونوريس إله الحرب والنصر»، ونشاهد في إحدى هذه المناظر الملكة «تكاها تاماني» زوج «تهرقا» ترتل بالصناجات أمام الإله آمون، هذا ونجد في نقوش هذا المعبد ما يشير إلى أن الملك يقوم بتجديد المعبد؛ أي إنه لم يكن المؤسس الحقيقي له، ومن البدهي أن بقايا الألوان التي لا تزال ثابتة على الأحجار فيه تدل على أن هذا الجزء من المعبد الذي فيه الألوان كان ملونًا، وعلى الرغم من أنها تكشف عن سذاجة بالنسبة للذوق الحديث إلا أنها كانت من غير شك تروق في أعين أهل العصر الذي عملت فيه، والممر الأخير يوصل إلى المحراب الذي يبلغ طوله حوالي ثلاث وعشرين قدمًا وعرضه ثلاث عشرة قدمًا، وجدران هذا المحراب مزينة بسلسلة من المناظر يشاهد فيها الملك «تهرقا» يقدم قربانًا إلى عدة آلهة وإلهات، وبعض الآلهة يتبع مجموعة «آمون رع» وهو الإله الذي أهدت له الآلهة هذا المعبد كما ذكرنا آنفًا، ويوجد على اليسار حجرة في حجم المحراب غير أنها أقل منه بقليل جدًّا، ويشاهد على جدرانها الملك «تهرقا» يقدم قربانًا للآلهة ومن بينهم الإله «ددون» إله بلاد النوبة، ويوجد على يمين المحراب حجرتان إحداهما خلف الأخرى والأولى طولها سبع عشرة قدمًا وعرضها سبع أقدام وسبع بوصات، والأخرى طولها خمس أقدام وعرضها سبع أقدام، ويلحظ في الحجرة الكبيرة أن المناظر فيها تمثل الملك يقدم قربانًا لآلهة آخرين، أما الحجرة الصغيرة فليس فيها نقوش، والظاهر أنها لم تكن قد تمت بعد.

والواقع أن أهم منظر يلفت الأبصار في هذا المعبد هو المنظر الذي ظهر فيه الإله «ددون» إله بلاد النوبة الأصلي، وتدل الأحوال على أن هذا الإله قد بقي خامل الذكر في النقوش المصرية القديمة منذ عهد الملك «سيتي الأول» في بلاد النوبة حتى عهد الملك «تهرقا» فقد وجدناه مذكورًا بين آلهة معبد جبل «برقل» الذي نحن بصدده الآن، ففي الحجرة الغربية التابعة للمحراب؛ أي التي على يسار المحراب نرى «تهرقا» يقدم رغيفًا من الخبز

للإله «ددون» سيد بلاد النوبة، ومما يؤسف له أنه لم يبقَ من صورة الإله نفسه إلا تاجه، وهو يتألف من قرني «كبش» في وسطهما قرص الشمس تكنفه ريشتان عاليتان من ريش النعام، وهذه أول مرة نرى فيها الإله «ددون» يمثل بلباس رأس غير الكوفية التي كان يرى بها عادة، وعلى ذلك لا يجوز لنا أن نستنبط من هذا التجديد في تصويره أنه في خلال هذه المدة الطويلة التي اختفى فيها من الآثار قد وحد مع إله آخر مصري المنبت كان يلبس التاج الخاص به، غير أن هذا الموضوع يستلزم البحث والتدقيق، وإن كان في الواقع لا غرابة فيه؛ لأن بلاد السودان ومصر كادت تكون موحدة في كثير من مظاهر الحياة وبخاصة في الدين والعادات والنظم الاجتماعية، فنجد مثلًا أن «تهرقا» الكوشي الأصل قد أقام في الكرنك بالقرب من معبد «آمون» بالكرنك «ولكن خارج أسواره» معبدًا صغيرًا تخليدًا لتتويجه في طيبة، وهذا المعبد كان مهدى للإله «أوزير بتاح»،[٨٥] ويوجد في أحد مناظره أربعة آلهة محمولين في موكب يقف كل واحد منهم على حامل خاص، ويمسك كل واحد منهم بذراعيه المرفوعتين كاهنًا وأميرة، ويلقب الكاهن هنا بلقب «فاتح مصراعي باب السماء» وهو من أهم الشخصيات مقامًا في وظائف الكهنة في الكرنك واسمه «حور محب»، وتقوم الأميرة هنا بوظيفة الزوجة الإلهية والمتعبدة الإلهية لآمون، وتدعى «أبارا» أما أربعة الآلهة المحمولين باحتفال فهم على حسب ما يمكن استخلاصه من المتون المهشمة ما يأتي: الإله «ددون» والإله «سبد» (إله الشرق؛ أي آسيا) والإله «سبك» في صورة تمساح «وهو إله الغرب؛ أي «التحنو»؛ أي الليبيين» والإله «حور» محبوب والدته وقد مثل في صورة صقر، والإله «ددون» قد مثل هنا بلباس رأس بسيط وهو كوفية وله لحية طويلة مستعارة، ويزين رقبته قلادة كبيرة، ويغطي جسمه قميص ضيق يفصِّل أجزاء جسمه له حمالتان، ويتدلى من حزامه ذيل الحيوان المعروف الذي يلبسه الملوك والآلهة. والمتن الذي يتبع هذا الإله مهشم، ولكن يمكن أن نقرأ منه اسم هذا الإله ولقبه وهو «ددون» الذي على رأس بلاد النوبة، هذا وقد نقش تحت كل من هؤلاء الآلهة سطر عمودي جاء فيه: نطق: أن «ددون» قد نصب فوق حامله لأجل أن يعمل.

ومعنى هذا المتن أن إلهًا من هؤلاء الآلهة الأربعة كان يمثل الملك نفسه، وإذا كان «تهرقا» قد ظهر في صورة كل من الإله «ددون» والإلهة «سبد» والإله «سبك» والإله «حور محبوب والدته» فإن ذلك يرجع إلى أن هؤلاء الإلهة يمثلون الجهات الأربع الأصلية؛ أي الجنوب والشرق والغرب والشمال، وكان الملك يقصد من ذلك أنه سيحكم أركان العالم الأربعة.

وهذا الحفل يرجع تاريخه إلى عهد ذكريات تتويج «حور» بعد موت والده «أوزير»، ومن ثم نفهم أن «ددون» كان يمثل الجنوب؛ أي أعالي النيل في حين أن «سبد» كان يمثل الشرق؛ أي الصحراء الغربية وسيناء وسواحل البحر الأحمر ويمثل «سبك» الغرب؛ أي الصحراء اللوبية والواحات ولوبيا، ويمثل «حور محبوب والدته» الشمال؛ أي مصر نفسها، ومن ذلك نفهم أن الآلهة الأربعة كانوا يقدمون بكل تقديس للملك «تهرقا» في مناسبة عيد تتويجه في طيبة سيادتهم على الأقاليم التي يسيطرون عليها، هذا إلى أن أهل طيبة كانوا يعبرون في حضرة إلهم «آمون رع» عن قبولهم الأمير الذي يقدمه لهم آلهة أركان العالم الأربعة ملكًا عليهم.

ولا نزاع في أن معنى هذا المنظر مفهوم من تلقاء نفسه، ومع ذلك فقد أكده لنا منظر آخر في نفس المعبد حيث نجد الملكة «أبار» تشد قوسها وتُفَوِّق سهامها إلى الجنوب والشمال والغرب والشرق على الأعداء الذين سلمهم لها الإله «آمون»، ويلحظ هنا أن كلًّا من الأقاليم الأربعة قد خصص بالعلامة الهيروغليفية الدالة على البلد، وأن كلًّا منها قد أصيب بسهم، والواقع أننا هنا أمام الشعيرة التي كانت تصحب منظر إطلاق طيور في الجهات الأربعة للأفق في يوم تتويج الفرعون أو يوم الاحتفال بعيد تتويجه، ولدينا مثلان غير ما ذكرنا؛ واحد بالكرنك ويرجع لعهد الملك «تحتمس الثالث»،[٨٦] والآخر في نقوش إدفو من عهد أحد ملوك البطالمة.[٨٧]

نعود الآن بعد هذا الشرح المفصل إلى معبد جبل «برقل» فنقول: إن المناظر والمتون التي على جدران المعبد لا تحدثنا بشيء عن تاريخ «تهرقا» وحكمه، ولكن نفهم أن المبنى من أوله إلى آخره يكاد يكون نسخة «طبق الأصل» من المعابد الجنازية في مصر، ومن المدهش أن «تهرقا» لم يقلد عظماء ملوك مصر في نقش جدران معبديه الخارجية بتدوين

انتصاراته عليها كما فعل «رعمسيس الثاني» مثلًا، ومن المحتمل أنه لم يجد لنفسه انتصارات يدونها على هذه الجدران، على الرغم من أنه كان يعد في نظر الإغريق قائمًا كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد.

ويقول الأثري بدج:[٨٨] ومن الخاصيات التي تلفت النظر في هذا المعبد العمد المرسوم عليها صور الإله «بس»، ونجد نظائرها في «نجع» وفي أماكن أخرى في السودان، وهذا يحدو بنا إلى الاعتقاد بأن الإله «بس» كان إلهًا محليًّا، والمعتقد أنه هو إله مصري، ومن الجائز أن اسم «بس» قد أطلق على هذا الإله؛ لأنه يرتدي جلد الحيوان «بس» الذي وحد بالحيوان Filis Cyrailurus، وتمثيل هذا الإله لابسًا لباس رأس بريش يدل على أنه حيوان بري أو شبه بري، وأن خواصه أفريقية الأصل أكثر منها آسيوية، وصورة «بس» توحي بأن موطنه هو موطن الأقزام، هذا إلى أن علاقة اسم هذا الإله ببلاد «بنت» وأرض الأرواح تشير إلى وجود اعتقاد بأن عبادته كانت من إنتاج أقوام الجزء الشرقي من وسط أفريقيا، يضاف إلى ذلك أن الإله «بس» كان يعد إله الفرح والسرور والمرح، وهذه كلها سجايا يتصف بها أهل أواسط أفريقيا وبلاد السودان.

(٨-٢) آثار «تهرقا» في القطر المصري

(١) في معبد الفيلة: عثر في معبد الفيلة على قاعدة يجوز أنها كانت للسفينة المقدسة، وقد وجدت في نهاية قاعة العمد في الركن الجنوبي الشرقي من الردهة بين البوابة الأولى والثانية،[٨٩] وكرنيش هذه القاعدة بسيط، ولكن وجد في مربع أحد أوجه هذه القاعدة نقش للملك «تهرقا» جاء فيه: «محبوب آمون» صاحب «تاكمبس» ابن رع «تهرقا» معطي الحياة مثل رع، ملك الوجه القبلي والبحري «خو رع نفر تم» «محبوب آمون تاكمبس» معطي الحياة، ومن البدهي أن «آمون» كان هو الإله الرئيسي الذي يعبده «تهرقا»، غير أنه على ما يظهر لم يوجد أي أثر في «فيلة» يدل على عبادة هذا الإله أو على تقى «تهرقا» وورعه، وإذا كانت هذه القاعدة تابعة لمعبد «فيلة» حقًّا فلا بد أنها كانت قد أهديت لآمون قبل بناء معبد «إزيس»، ومما تجدر ملاحظته هنا وجود اسم «تاكمبس» الذي يُحيي نظرية الأستاذ

«زيتة» القائلة بأن جزيرة «تاكمبس» التي جاء ذكرها في هردوت[٩٠] هي فيلة، ومن المحتمل إذن أن فيلة في عهد «تهرقا» كانت تسمى «تاكمبس».

- (٢) معبد الكرنك: مقياس النيل: كان الملك «تهرقا» ضمن الملوك الذين دونوا مقاييس النيل على مرسى الكرنك.[٩١]

وهاك النص على حسب ما جاء في برستد:[٩٢]

(٣٤) السنة السادسة من عهد الملك «تهرقا» محبوب آمون العظيم.

(٣٥) النيل: السنة السادسة في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خو رع-نفر تم» ابن رع «تهرقا» العائش أبديًّا «نون» العظيم آمون العظيم، النيل والد الآلهة، والتاسوع «المقدس» على الفيضان «يحتمل أن كل هذه الأسماء اسم إله مركب النيل» الذي أعطاه إياه والد «آمون» لأجل أن يصير زمنه سعيدًا.

(٣٦) النيل: السنة السابعة في عهد جلالة الملك «تهرقا» العائش أبديًّا، محبوب «نون» العظيم، آمون العظيم، النيل والد الآلهة، والتاسوع المقدس فوق الفيضان «النيل» الذي أعطاه إياه والده آمون لأجل أن يصير زمنه سعيدًا.

(٣٧) النيل: السنة السابعة «هكذا»[٩٣] في عهد جلالة الملك «تهرقا» … «مثل رقم سبعة عدا الارتفاع فإنه يختلف، والسنة بلا شك هي خطأ، يجب أن تكون الثامنة؛ وذلك لأنها سبقت بالسنة السابعة وتبعت بالسنة التاسعة».

(٣٨) النيل: السنة التاسعة «وجاء بعدها السنة العاشرة» من عهد الملك «تهرقا» العائش أبديًّا محبوب «نون» العظيم، وآمون العظيم.

- (٣) قاعات العمد التي أقامها «تهرقا» في «الكرنك»: دلت الكشوف الحديثة على أن الفرعون «تهرقا» قد أقام قاعات عمد في جهات معبد الكرنك العظيم الأربع، فإذا اخترق

الإنسان السور العظيم لمعبد الكرنك من البوابة الضخمة الواقعة في الشرق «وهي المسماة بوابة نختنيف «نقطانب»» ثم اتجه في سيره من هذه البوابة مقتفيًا المحور الرئيسي[٩٤] نحو المحراب الشرقي[٩٥] فإنه يصادف قاعة عمد الملك «تهرقا»، وذلك قبل أن يصل إلى معبد «رعمسيس الثاني»، والمكان الذي كانت قد أقيمت فيه مسلة اللتران[٩٦] الوحيدة الموجودة الآن بمدينة روما، وهذا الجزء الشرقي من السور الشرقي لمعبد الكرنك كان مجهولًا إلى أن كشفت عنه الحفائر الحديثة، وقد كان أول من كشف النقاب بعض الشيء عن قاعة عمد «تهرقا» هذه هو الأثري العظيم «شمبليون»[٩٧] ثم «لبسيوس»،[٩٨] وأخيرًا قام بالكشف عنها جزئيًّا وبسرعة الأثري لجران عام ١٩٠٦-١٩٠٧، ومع كل ذلك فقد كانت كل الزاوية الشمالية القريبة من قاعة العمد هذه مطمورة تحت الأرض إلى أن كشف عنها المهندس شفربيه ونصب بعض عمدها ثانية.

وقاعة العمد هذه تحتوي على أربعة صفوف من العمد منحوتة في الحجر الرملي الرديء وقد زينت بصور بارزة بعض الشيء، ويلحظ أن بعض تفاصيل هذه الصور قد أهمل صنعها، وأسلوب رسمها ثقيل الظل، ومع ذلك فإننا نجد أن رسم عضلات الأشخاص فيها وهي المصورة على العمد قد أبرزت على حسب الأسلوب الشائع في هذا العهد بقوة وبخاصة في السيقان، يضاف إلى ذلك أن ملامح وجه الفرعون قد مثلت بصورة واضحة تدل على أنه قد أتى من بلاد الجنوب.

هذا؛ وقد كشفت أعمال الحفر التي قام بها المعهد الفرنسي في الجزء الشمالي من معبد الكرنك؛ أي بين خرائب معبد «آمون رع منتو» وبوابة البطالمة الشمالية عن بقايا قاعة عمد أخرى تشبه في شكلها القاعة السالفة، وتشغل المساحة التي بين بوابة «أمنحتب الثالث» وواجهة المعبد الأصلية، وهذا المبني يعد من مميزات العهد الإثيوبي.

هذا؛ ولدينا بقايا قاعة عمد ثالثة تقع بين معبد الإله «خنسو» وبوابة بطليموس «إفرجت» في الجهة الجنوبية من معبد الكرنك.[٩٩]

وأخيرًا أقام «تهرقا» قاعة عمده الضخمة الذائعة الصيت في الردهة الأولى لمعبد الكرنك في الغرب من الكرنك، وعمدها تشبه عمد القاعات الأخرى التي أقامها هذا الفرعون، ولكنها تمتاز بضخامة عمدها، ولم يبقَ من عمد هذه القاعة إلا عمود واحد، وقد عثر بجوار هذا العمود حديثًا على قائمة مدن استولى عليها «تهرقا»، وهذه القائمة كانت منقوشة على بوابة له، وهذه الأسماء يحتمل أنها نقلت عن قوائم قديمة، وبهذه المناسبة نذكر أنه يوجد على واجهة البوابة الثانية لمعبد قبالة «نباتا» نقشان[١٠٠] منحوتان في الصخر مُثِّل فيهما «تهرقا» يذبح الأسرى أمام الإله، وعلى البرج الجنوبي للبوابة لا يزال هذا المنظر محفوظًا، ويحتوي على قائمة طوبرغرافية تشمل اثني عشر اسمًا «وهم من الأفريقيين والأقواس التسعة» ولكن المنظر الذي على البرج الشمالي، وهو الذي كان من المحتمل أن يحتوي على قائمة أسماء آسيوية لم يبقَ منه إلا قطعة واحدة عليها اسم واحد.[١٠١]

والواقع أن القائمة الطوبوغرافية الوحيدة للملك «تهرقا» التي وجدت سليمة عن غربي «آسيا» هي التي عثر عليها في معبد الإلهة «موت» بالكرنك على قاعدة تمثال صغير كان ارتفاعه الأصلي حوالي خمسين سنتيمترًا، ولم يبقَ من هذا التمثال إلا قاعدته كما ذكرت من قبل وهي محفوظة بالمتحف المصري،[١٠٢] وقد كتبت هذه القائمة بالشكل العادي في حلقات، ولكن بدون صور أسرى أو كتابة فوقها، وقد نقش اسم «تهرقا» على قمة القاعدة، ويلحظ أن القائمة منقوشة حول جوانب القاعدة الأربعة، ولكن لم يكن من بينهم آسيويون إلا الذين على الجانب الأيمن؛ أي إنه وُجد اسمان على واجهة القاعدة وتسعة على الجهة اليمنى وثلاثة على الظهر، وقد نقل «مريت» القائمة الآسيوية.[١٠٣]

والقائمة كلها لا تخرج عن أنها نسخة لأربعة عشر اسمًا من قائمة الملك «حور محب» التي على الجانب الشرقي لتمثاله الضخم المنصوب أمام البوابة العاشرة بالكرنك، غير أنها أكثر حفظًا وبواسطتها يمكن أن تملأ بعض الفجوات في الأصل، وإن كانت كتابة بعض الأسماء قد غيرت أحيانًا في قائمة «تهرقا» عن قصد، وهاك القائمة:

(١) سنجار. (٢-٣) الأقواس التسعة. (٤) نهرين. (٥) الأقواس التسعة. (٦) شاس. (٧) خينا. (٨) إرث. (٩) أسسور (= آشور). (١٠) قادش. (١١) قدن. (١٢) إكريت = أوجاريت. (١٣)

تونب. (١٤) قادش.

والواقع أن هذه القائمة إذا صدقنا حوادث التاريخ التي في متناولنا حتى الآن تكشف لنا عن مقدار ما فيها من مبالغة، وبخاصة عندما نعلم أن «تهرقا» لم يغز هذه البلاد، وبخاصة آشور التي نعلم أن ملوكها هزموه شر هزيمة واستولوا على بلاده، وتحتوي القائمة الخاصة بأهل الشمال على بلاد أفريقية مثل التمحو وأكيتا وإبهت.[١٠٤]

ومما تجدر ملاحظته هنا أن التماثيل التي عثر عليها في قصر نينوة للملك «تهرقا» قد جاء عليها ذكر بلدة آسيوية تدعى «دجل»، مما يدل على اتصال هذا الفرعون ببلاد سوريا، وأنه كان بينه وبين أمرائها ود ومصافاة، وسنتحدث عن نقوش هذه التماثيل فيما بعد.

- (٤) ويوجد مبنى يقع في الشمال الغربي من البحيرة المقدسة أقامه «تهرقا» بأحجار من مبني للملك «شبكا»، وهذا المبني قد اغتصبه «بسمتيك الثاني» بدوره ونسبه لنفسه[١٠٥] فيما بعد.

- (٥) مقصورة أوزير رب الجبانة: كشف الأثري لجران عن هذه المقصورة عام ١٩٠٠[١٠٦] وكانت مغطاة بالأتربة في قاعة العمد الكبرى بالكرنك، وهي تتألف من حجرتين صغيرتين: ارتفاع الحجرة الأولى منهما ٢٫٢٦ مترًا وعرضها ٢٫١١ مترًا، وباب هذه الحجرة يؤدي إلى الحجرة الأخرى التي يبلغ ارتفاعها ١٫٢٤ من المتر، وأغلب الظن أن هذه المقصورة تعد أصغر أثر ديني في مصر، ولا شك في أن صغر حجمه قد جعله يضيع وسط معبد الكرنك الهائل، وتقع هذه المقصورة في شمالي قاعة العمد المذكورة على مسافة اثني عشر مترًا شمالي مقصورة «أحمس»، وتدل شواهد الأحوال على أن أحجار هذه المقصورة قد انتزعت من المباني المحيطة بها شأن معظم ملوك مصر في إقامة مبانيهم الموجودة في وسط مبانٍ ضخمة عفى عليها الدهر:

  - **الواجهة:** نقش في وسط عتب باب الحجرة الأولى طغراء الإله أوزير، وهو «أوزير رب الجبانة» يعلوه تاج مؤلف من ريشتين في وسطهما قرص الشمس، وفي الجهة اليسرى نشاهد أولًا «تهرقا بن رع معطي الحياة مثل رع» يقدم النبيذ للإله أوزير ورفيقته:

«إعطاء النبيذ لوالده الذي أنجبه، معطي الحياة»، ونقش أمام أوزير نطق: «إني أعطيك الحياة والسلطان.» ويلحظ أن الملك يلبس التاج المزدوج.

والمنظر الثاني نشاهد الإله الطيب «تهرقا» معطي الحياة يعانقه «حور» بن «إزيس» العظيمة ويقول له: «إني أعطيك كل الحياة والسلطان وكل انشراح القلب مثل رع سرمديًّا»، ويشاهد هنا أن «حور» بن «إزيس» قد مثل بجسم إنسان ورأس صقر كما مثل «تهرقا» مرتديًا ملابس الرأس الكوشية وبيده مقمعة والعصا الخاصة بوضع الأساس.

الجزء الأيمن من المنظر الأول وجد في أوله تهشيم … «بيعنخي» … «شبنوبت» العائشة تقدم اللبن للإله «بتاح» رب طيبة وإلى «حتحور» اللذين منحاه الحياة والسلطة، ثم يلي ذلك متن قربان: إعطاء اللبن لوالدها ليعطيها الحياة، وترتدي «شبنوبت» على رأسها تاج حتحور بريشتين وقرنين في وسطها قرص الشمس:

- **المنظر الثاني:** نشاهد في هذا المنظر الإلهة حتحور سيدة دندرة تعانق المتعبدة الإلهة «أمنردس» وبيدها عقد منات «وهو عقد ذو تأثير سحري» وتقول: إني أعطيك كل الحياة والسلطان والصحة وكل انشراح القلب مثل رع أبديًّا.

  هذا؛ ونقرأ خلف «أمنردس» … المتعبدة الإلهية «أمنردس» المرحومة المهيمنة على كل الأرواح العائشة عندما تظهر على عرش «وازيت» (= إلهة الوجه البحري).

- **على عارضة الباب اليسري:** المنظر السفلي: يشاهد في هذه الصورة إله النيل يحمل فوق رأسه نبات بردي ومعه المتن التالي: «إني أمنحك كل قرابين الغذاء»، ومع هذا منظر الخبز والماء والجعة.

- **المنظر العلوي:** نقرأ أولًا في نقوشه ما يأتي: ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» بن «رع» محبوبه من جده «خو-رع-نفر تم» يعانقه أوزير … ويلبس «تهرقا» هنا التاج المزدوج ويقبض بيده على مقمعة ومعه كذلك عصا وضع الأساس.

ونشاهد في هذا المنظر كذلك الإلهة «نخبيت» تحلق فوق الملك قابضة على خاتم الأبدية.

- **عارضة الباب اليسري:** المنظر الأسفل: يشاهد في هذا المنظر إله النيل يحمل الهدايا، وفي المنظر العلوي نرى المتعبدة الإلهية وزوج الإله ومحبوبة الإله المسماة «شبنوبت» ومعها أمها التي تبنتها يد الإلهة «أمنردس» المرحومة تعانقها «إزيس» العظيمة محبوبة الأم المقدسة، وترتدي هنا «شبنوبت» تاج «حتحور» وتقدم رمز الحياة إلى المتعبدة الإلهية «أمنردس».

- **الحجرة الأولى:** نشاهد فوق الباب في الوسط صورتين لإلهي النيل راكعين يربطان علامة الضم «أو بعبارة أخرى توحيد الوجه القبلي والوجه البحري» تحت طغراءي الملك «بينوزم الأول»، مما يدل على أن هذه المقصورة كانت أقدم من عهد الملك «تهرقا».

  وتحتوي سائر مناظر هذه الحجرة على صور تمثل «شبنوبت» «وتهرقا» يقدمان القربان للإله «أوزير» ومناظر أخرى تمثل شعائر دينية خاصة بالإله «أوزير» رب هذه المقصورة.

- **الحجرة الثانية:** هذه الحجرة صغيرة جدًّا وكذلك الباب الذي يؤدي إلى داخلها؛ إذ يبلغ طوله ١٫٣٢ مترًا وعرضه ٠٫٧٥ مترًا، ويشاهد على أحد جدرانها المتعبدة الإلهية «شبنوبت» تقدم البخور والماء للإله «أوزير».

- (٦) معبد أوزير «نب زت» (= رب الأبدية): كشف عن هذا المعبد الأثري «لجران» عام ١٩٠٢، وقد عثر عليه عن طريق السباخين الذين وجدوا فيه آثارًا باعوها لمحمد محسب شيخ تجار الآثار آنئذٍ في الأقصر، ويقع هذا المعبد على مسافة خمسة وعشرين مترًا غربي بوابة «تحتمس الثالث» ويلاصق كذلك السور الواقع غربي بوابة الإله «منتو» بالكرنك، ويصل الإنسان إلى هذا المعبد بسلم يتألف من ست درجات، وصدغا بابه مصنوعان من الحجر الرملي، والمعبد صغير الحجم جدًّا ومقام باللبنات، وسقف الحجرة الأولى يستند على

عمودين، هذا؛ وكان أمام مصراعي الباب قاعدتان لتمثالين صغيرين، وتدل شواهد الأحوال على أنه كان يوجد لهذا المعبد محراب، والمعبد أقيم «لأوزير» معطي الحياة أو «أوزير رب الأبدية».

ويرجع عهد إقامة هذا المعبد إلى الحكم المشترك لكل من الإله الطيب «خو رع نفر تم» رب الأرضين «تهرقا»، والزوجة الإلهية بنت الملك رب الأرضين «بيعنخي» المرحوم والمتعبدة الإلهية «شبنوبت»، وأمها المتعبدة الإلهية «أمنردس»، وتدل الظواهر على أن المعبد كما وجده لجران كان قديمًا، ولكنه أصلح في عهد الملك «تهرقا» كما يدل على ذلك النقوش التي فيه،[١٠٧] وقد وجد في هذا المعبد تمثال صغير محروق جدًّا يبلغ طوله حوالي أربعين سنتيمترًا، ويلحظ هنا أن جسمه كان موشى في كل أجزائه بصورة الإله أوزير، وكذلك نقش عليه متون تحدثنا عن وظائفه، فنعلم منها أنه كان يحمل لقب المدير العظيم للبيت، ورئيس التحنيط لأنوب في بيت التحنيط لسيدته الزوجة المقدسة «شبنوبت» المرحومة المسمى «حور».

وكذلك وجدت بعض قطع من تمثال من الجرانيت سرقت أجزاؤه الأخرى، وهو يمثل رجلًا يدعى «بس-شو-بر» راكعًا وممسكًا بيده لوحة، ويشاهد في اللوحة ما يأتي: رجلان راكعان، فالذي على اليمين يتعبد لأوزير «بدي عنخ» (= أوزير معطي الحياة) والذي على اليسار هو القاضي للمتعبدة الإلهية المسمى «بس-شو-بر»، وقد مثل راكعًا يقدم صورة المعبد لآمون المسمى «آمون باعشوت-نفر»، وتقص علينا اللوحة بناء معبد من الحجر الأبيض، ولكن ليس لدينا من المتن إلا نهاية أربعة أسطر، والظاهر من النقوش التي على التمثالين أنفسهما أنهما كانا على القاعدتين السالفتي الذكر أمام مصراعي الباب، وقد أهدى «بس-شو-بر» المعبد لأوزير معطي الحياة، ونقش اسم كل من «تهرقا» «وشبنوبت» عليه، وذلك على غرار ما فعل المدير العظيم للبيت المسمى «بدى نيت» عندما أهدى مقصورة أخرى في الكرنك لكل من الملك «بستميك الثالث» وللأميرة «عنخ-نس-نفر أب رع» المتعبدة الإلهية، وكما أهدى «شيشنق» بن «بدي نيت» مقصورة أخرى لنفس الأميرة كما سيأتي بعد.

و «بس-شو-بر» هذا معروف لدينا من نقوش علبة فاخرة ذات لويحات فاخرة محفوظة بمتحف اللوفر كان قد اشتراها الأثري «بنديت» ونشر محتوياتها منذ بضع سنين، ومن المحتمل أنها كانت ضمن أثاث معبد «أوزير عنخ» (= معطي الحياة) هذا ويضاف إلى ذلك أنه أقام بناء كبيرًا ملاصقًا للجدار الجنوبي لمعبد «آمون» بالقرب من البحيرة المقدسة، وقد نقش عليه مناظر طريفة للعيد الثلاثيني، وهو كما ذكرنا من قبل عيد تتويج الملك «تهرقا»، وقد مثل فيه موكب الأعلام كما هي الحال في كل الأعياد الثلاثينية، وكذلك مثل أربعة الآلهة بهذا الحفل أو حكام أركان العالم الأربعة وهم «ددون» رب الجنوب، «وسبد» رب الشرق «وسبك» رب الغرب، «وحور» رب مصر، وهؤلاء الآلهة قد حملهم عاليًا كاهن كل إله وكاهنته، وهذا يدل على أن الجنوب كان مركز التفكير، وقد ظهر «تهرقا» بوصفه الزعيم الوراثي للملكة: الواحد العظيم وشيخ الجنوب، وبعد ذلك يظهر «تهرقا» وهو يرمي بأقواس من حديد في جهات العالم الأربع في حين أن زوجه المقدسة كانت تُفَوِّق سهامها إلى أهداف تمثل أقسام العالم الأربعة … إلخ، وقد تحدثنا عن هذا المنظر باسهاب فيما مضى.

- (٧) معبد أوزير بتاح: يقع هذا المعبد في الجنوب الشرقي من البوابة العاشرة، وهو في الواقع عبارة عن مقصورة صغيرة «لأوزير بتاح»، ولا بد أنها كانت قد أقيمت في نهاية عهد الفرعون «تهرقا»؛ لأن جزءًا صغيرًا منها من صنعه، أما الجزء الأكبر فمن صنع الملك «تانوت آمون» خلفه، وقد مثل «تهرقا» في الحجرة الغربية منه في منظرين وهو يتعبد للإله «بتاح»، ولا غرابة في ذلك عندما نعلم أن «تهرقا» كان قد توج في «منف» وكانت له صِلات وثيقة بثالوثها وهو: «بتاح وسخمت ونفر تم».[١٠٨]

- (٨) مدينة «هابو»: عثر في مدينة «هابو» على لوحة باسم الملك «تهرقا» عام ١٩٠٢ وهي من الحجر الجيري[١٠٩] باسم الملك «تهرقا»، ويبلغ ارتفاعها ستين سنتيمترًا وعرضها ٣٦ سنتيمترًا، وجزؤها الأعلى مستدير صور عليه منظر يمثل الملك يقدم قربانًا للإله «آمون رع» قاعدًا على عرشه، والإلهة «موت» واقفة خلفه، وفوق هذا المنظر صورة السماء

المقببة ترتكز على صولجانين، ويتدلى من قرص الشمس الذي أسفل السماء الصِّلَّان الملكيان، وفي أسفل هذا المنظر ستة أسطر أفقية.

ومتن هذه اللوحة يعد وثيقة هامة عن مباني مدينة «هابو» الدينية؛ إذ تحدثنا أنه في السنة الثالثة من حكم «تهرقا» أقام أثرًا لآبائه وهم الآلهة الستة أسياد «آت ثموت» (= مدينة هابو) فجدد الجدار الذي كان مقامًا باللبنات ببناء من الحجر الصلب الرمادي؛ وذلك لأن جلالته كان قد وجد هذا الجدار آيلًا إلى الدمار لدرجة أن الإنسان كان يخرج ويدخل هذا المكان المقدس من جهته الشمالية، فقد أعاد قداسة المكان المقدس لسيده لأجل أن يمنحه الحياة أبديًّا.

والواقع أن الجهة الشمالية للسور المقام من اللبنات كانت قد خربت في خلال الحروب الكوشية فأمر «تهرقا» بإقامتها، ولا يزال جزء منها باقيًا حتى الآن، ولدينا منظر في مدينة «هابو» نشاهد فيه هذا الملك يضرب طائفة من القبائل من بينها «تبا» «ودشرت» وكوش الخاسئة، وهذا المنظر قد انتحله الملك «نقطانب» أحد ملوك الأسرة الثلاثين، وعلى أية حال فإن هذا المنظر كان منقولًا عن قائمة قديمة؛ إذ لا يعقل أن يصف «تهرقا» «كوش» بالخاسئة وهو نفسه كوشي الأصل.[١١٠]

هذا؛ وقد وجد اسم «تهرقا» في مدينة «هابو» على الجانب الداخلي للبوابة بجانب اسم «تحتمس الثالث» في واجهة المبنى.[١١١]

وكذلك نجد اسم هذا الفرعون على عتب بوابة الملك «شبكا» بمدينة «هابو» ونقشًا جاء فيه: يحيا ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» محبوب «آمون رع» رب تيجان الأرضين معطي الحياة.[١١٢]

وفي الدير البحري وجدت له بعض إصلاحات.[١١٣]

وفي طيبة وجد مخروط «لرعمسيس» عليه اسم الفرعون «تهرقا».[١١٤]

ويوجد في شرقي معبد الإلهة «موت» بالكرنك[١١٥] حجرة صغيرة يفتح بابها غربًا، وقد أقامها «تهرقا» لنفسه، وسنتحدث عن المتون التي على جدرانها، وهي خاصة بحياة الأمير «منتومحات» الذي يعد أعظم شخصية ظهرت في العهد الكوشي بعد ملوكها:

- **قفط:** ووجدت في قفط لوحة من الجرانيت مثل عليها «تهرقا» واقفًا أمام الإله «مين» والإله «إزيس»، وتحتوي على متن خاص بالفيضان في السنة السادسة من حكم «تهرقا» وقد تحدثنا عنه فيما سبق.

- **المطاعنة:** وفي المطاعنة عُثر كذلك على لوحة خاصة بالفيضان، وهي من الجرانيت الأحمر وعليها منظر مزدوج يشاهد فيه «تهرقا» يقدم رمز الحقل للإله «همن» إله الصحراء [١١٦] وتحتوي على متن مؤرخ بالسنة السادسة من حكم «تهرقا» خاص بالفيضان كذلك، وهي صورة طبق الأصل من لوحة «قفط»، وقد تحدثنا عنها فيما سبق.

- **الحمامات:** وجد اسم الملك «تهرقا» على صخور محاجر الحمامات مما يدل على نشاط جديد في هذه المحاجر.[١١٧]

- **السربيوم:** عُثر على لوحتين خاصتين بدفن عجلين من عجول أبيس في منطقة منف الأولى مؤرخة بالسنة العاشرة من عهد «تهرقا» وهي مكتوبة بالمداد الأسود، دوَّنها رجل يدعى «حتب حو آمن». أما الثانية فقد دُوِّن عليها: دُفن عجل أبيس في السنة الرابعة والعشرين من حكم «تهرقا». وقد تحدثنا عنها فيما سبق.

- **منف:** وجد لهذا الفرعون موازين من الجرانيت عليها طغراؤه، وهي محفوظة الآن بالمتحف المصري.[١١٨]

- **تانيس:** أقام الملك «تهرقا» لوحة في «تانيس» تخليدًا لذكرى مجيء والدته من نباتا لزيارته وعن فيضان النيل، وقد تحدثنا عنها فيما سبق.

(٢-٩) آثار أخرى للفرعون «تهرقا» في متاحف العالم والمتحف المصري

- (١) المتحف البريطاني:[١١٩] يوجد في المتحف البريطاني لوحتان من البرنز نقش عليهما متن يحتوي على ألقاب الفرعون «تهرقا» بوصفه ملك الوجهين القبلي والبحري «خو رع نفر تم» بن رع محبوب الإلهة «مسخنت» نزيلة العرابة (= جبانة العرابة المدفونة) معطي الحياة مثل رع، وهاتان اللوحتان تدلان على أن «تهرقا» كان صاحب هبات في معبد العرابة، ومن المحتمل أنه قد عثر عليهما في هذا المكان.

- (٢) وأشار الأثري «روزاليني» إلى وجود تابوت سيدة كانت مرضعة ابنة الملك «تهرقا»، وهذا التابوت محفوظ بمتحف فلورنسا.[١٢٠]
- (٣) متحف اللوفر: توجد عدة وثائق ديموطيقية مكتوبة على البردي من عهد الملك «تهرقا» محفوظة بمتحف اللوفر ومتحف القاهرة وبعضها مؤرخ بالسنة الثالثة وبعضها مؤرخ بالسنين الخامسة والسادسة عشرة.[١٢١]

وقبل أن نضع أمام القارئ ترجمة بعض هذه النصوص الديموطيقية يطيب لنا أن نضع أمام القارئ فكرة عن أصل نشأة هذه الكتابة وتطورها، وبخاصة في العهد الكوشي الذي ظهرت فيه.

(٣) بداية ظهور الكتابة الديموطيقية في عهد الأسرة الخامسة والعشرين

أشرنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة إلى وجود نوع من الكتابة يدعى الكتابة الديموطيقية؛ أي لغة الناس، (راجع مصر القديمة الجزء الأول) غير أننا لم نبحث في أصل نشأتها وزمن انتشارها، والواقع أن هذا النوع من الكتابة ليس إلا تطورًا طبعيًّا من الكتابة المصرية القديمة ظهرت بوادره في أوائل الأسرة الخامسة والعشرين؛ أي في عهد قيام الأسرة الكوشية في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، ولم تكن هذه الكتابة بالديموطيقية البحتة، بل كانت مزيجًا من الخط الهيراطيقي والخط الديموطيقي كما سنبين ذلك هنا.

ويرجع أول ذكر للخط الديموطيقي إلى المؤرخ «هردوت» الذي عاش في منتصف القرن الخامس ق.م، فقد قال: إن المصريين استعملوا نوعين من الكتابة أحدهما؛ يدعى الكتابة المقدسة، والثاني يدعى الكتابة العامية.[١٢٢]

وقد استعمل نفس التعبير الكاتب «هليودوروس»[١٢٣] الذي عاش في القرن الرابع، ومن ثم أخذ التعبير «ديموطيقي» للدلالة على الكتابة العامية المتداولة بين أفراد الشعب، وتدل الأحوال على حسب معلوماتنا أن الوثائق الديموطيقية قد أخذت تظهر بصورة واضحة حوالي عام ٦٥٠ق.م، ولا بد أنها قد سقطت من الاستعمال بسقوط الوثنية في خلال القرن الرابع بعد الميلاد، وذلك على الرغم من أن الأثري «بركش» واضع أصول اللغة الديموطيقية قد صادف بعض كتابات على الصخور في معبد الفيلة بالخط الديموطيقي.

وأقدم نقوش نعرفها في مصر هي الإشارات الهيروغليفية وهي التي توضح بالصور، وهذه الإشارات منذ ظهورها في الأسرة الأولى المصرية كانت قد بدأت تكتب باختصار، وعندما كانت تكتب بقلم من البوص مبري على الحجر كانت تأخذ الشكل المبسط الذي يعرف في عرفنا بالخط الهيراطيقي أو كتابة الكهنة، وكانت الكتابة منتشرة تمامًا منذ الأسرة السادسة، أما في عهد الدولة الوسطى فلدينا كل أنواع الخطوط المصرية؛ فلدينا الخط الهيروغليفي الفاخر المنمق الذي نقش على الآثار الضخمة، كما لدينا في الوقت ذاته الخط الهيراطيقي المختصر الذي اختفت منه كل آثار الصور الأصلية التي تمثلها في الأصل؛ أي المأخوذ عنها، وهذه الكتابات المتنوعة قد بقيت مستعملة في خلال الدولتين الوسطى والحديثة، غير أن الكتابة الخطية لكل عصر كانت تميز عن الأخرى بخواص ظاهرة يمكن بها معرفتها بسرعة، وقد كانت الكتابة الخطية العادية في هاتين الدولتين هي التي تعرف باسم الهيراطيقية، ولكن هذا الاسم لم يطلق عليها إلا فيما بعد، على أن الكتابة الهيراطيقية التي كتبت باختصار بسيط قد خصصت لنسخ الكتب المقدسة وما شابهها، وعُدَّت أنها صورة من الكتابة الهيروغليفية، في حين أن صورها المختصرة جدًّا قد تطورت إلى كتابة أخرى مميزة؛ أي الكتابة الديموطيقية، واستعملت للأغراض العادية اليومية، وبخاصة في كتابات العقود، على أن ذلك لا يعني أن المصري لم يستعمل الكتابة المختصرة في كتابة عقوده؛ إذ الواقع أننا نجد أنها قد كتبت كذلك منذ الدولة الوسطى حوالي ٢٠٠٠ق.م، بل ونجد أمثله قليلة كتبت في عهد الدولة القديمة، ولكن لم يكشف حتى الآن عن مجموعة وثائق قانونية ترجع إلى هذه العهود المصرية القديمة إلا ما تحدثنا عنه في تاريخ الأسرة العشرين وأسهبنا فيه القول حتى العهد الكوشي الذي نحن بصدده الآن؛ فقد بدأت تظهر فيه الأوراق البردية القانونية في مجاميع مُحَسَّة تخللتها فترات كانت تختفي فيها هذه الوثائق، غير أنها مع ذلك قد ألفت سلسلة متصلة الحلقات من الوثائق الديموطيقية والآرامية «من العصر الفارسي» والإغريقية والقبطية والعربية، وقد ظلت الحال كذلك حتى بطل استعمال الورق البردي في القرن التاسع بعد الميلاد.

على أن هذا التضاد البين لا بد أن يدل على بعض تغير قانوني أو تجاري في هذا الوقت الذي نحن بصدده، وعلى أية حال يمكننا أن نعترف بأن كل قرن في حياة بردية ما يسبب خطرًا في تلفها، حتى عندما تنجو من الأخطار الطبيعية التي ربما تلحق بها كالرطوبة والعثة والنار، وهذه عوامل قد سببت القضاء على ملايين من البرديات في كل ورقة نجت منها، غير أن عِظَم قدم هذه البرديات وحده لا يمكن أن يفسر قلة وجود الوثائق القانونية من العصور الأولى؛ وذلك لأنه يوجد لدينا عدد عظيم من البرديات التي تبحث في مواد أخرى غير القانونية.

ومن المحتمل أنه توجد عدة أسباب يمكن أن ندلل بها على كثرة الوثائق القانونية فجاءة في الأسرة الخامسة والعشرين؛ من ذلك أن ازدياد التجارة البحرية والبرية في الألف الأولى قبل الميلاد قد أوجدت حتمًا طائفة جديدة من التجار الأثرياء، مما سبب تبادل الملكية من

كل نوع بين أيدٍ عديدة، في حين أن الاتصال بالفينيقيين المهرة أصحاب الأعمال وغيرهم من الساميين قد فتح أعين المصريين إلى ضرورة الدقة في معاملاتهم.

وهذه المؤثرات يمكن أن تُحَسَّ على أغلب الظن في بلاد دلتا النيل، أما في الوجه القبلي فإن تأثير ذلك كان ثانويًا، ومن المحتمل أن ديدور الصقلي لم يكن بعيدًا عن الصواب عندما يحدثنا عن «بوكوريس»، وهو الضحية التسعة التي وقعت في يدي «شبكا» كما يقال، وهو الذي تذكره لنا التقاليد على الرغم من حكمه القصير بأنه كان مشرعًا وقاضيًا وصاحب فطنة منقطعة بما أدخله من دقة في موضوع العقود، فاستمع لما يقوله ديدور:[١٢٤] «ويقولون: إن الملك «بوكوريس» كان مشرعًا رائعًا، وهو رجل حكيم وبارز بسبب مهارته، وقد وضع كل القواعد التي حكمت الملوك بها، وأضفى دقة على القوانين الخاصة بالعقود، وقد بلغ من الحكمة في قراراته القانونية شأنًا عظيمًا لدرجة أن كثيرًا من أحكامه تُذكر لامتيازها حتى يومنا.»

وفي موضع آخر يقول ديدور:[١٢٥] «إنهم يقولون: إن القوانين الخاصة بالعقود هي «لبوكوريس»، وهذه تأمر بأن الأشخاص الذين اقترضوا دينًا دون اتفاق مكتوب، وينكرون أنهم استدانوه بعد حلف اليمين يصبحون معفين من هذا الدين.»

ونحن نعلم أن الملك «بوكوريس» كان من بلدة «سايس»، وسواء أكان حكمه قاصرًا على الوجه البحري أم لا، فإنه قد كسب تجاربه هناك، ومن المحتمل أن أقدم هذه العقود المتأخرة الباقية لنا يرجع تاريخها إلى عهد الملك «شبكا» وقد عثر عليه في طيبة، والواقع أن الأوراق التي من الوجه البحري نادرة جدًّا؛ وذلك لعدم ملاءمة الجو لحفظها، وإلا لكان من الطبعي أن نرى الوجه البحري هو المصدر الغزير لهذه الوثائق، وتدل الأحوال على أن المشروع الأصلي لهذه القوانين لم يكن كوشيًّا، ولكن على الرغم من ذلك لا بد أن نعترف أن نظامًا جديدًا للكتابة قد اخترع في «كوش» أو لأجلها بعد بضعة قرون فيما بعد.

وإذا رفضنا جدلًا بيان «ديدور» عن هذه القوانين واعتبرناه لا قيمة له، فإنه يمكن أن نقبل الملحوظة التي يقدمها لنا متنه هنا؛ وذلك لأنها تتفق مع الحقائق المعلومة لدينا، فإن تركنا التفاصيل جانبًا فإنه يمكن أن نعترف بأنه حوالي ٧٢٠ق.م كان عدم الدقة في طريقة تسجيل المعاملات القانونية عاديًا، وفي الوجه البحري كانت الاعترافات الرسمية والأيمان أمام الشهود والجمعيات وبخاصة أمام أعضاء المجالس المدنية والقروية والموظفين حتى هذا العهد هي الأداة الرئيسية للعقود القانونية ونقل الملكية، ومن ذلك العهد قد أصبح التسجيل كتابة يمثل مكانة أبرز ولا غنى عنه.

وهكذا نجد أن كثرة الوثائق القانونية نسبيًّا في خلال الأسرة الخامسة والعشرين وما بعدها قد أصبح مفهومًا سببه؛ وذلك لزيادة عدد المعاملات وعظم الحاجة للسجلات المدونة.

والآن نعود لبحث موضوع عمر الكتابة الديموطيقية، ولا يمكننا أن نحدد على وجه التأكيد عمر هذه الكتابة أو اللغة.

والواقع أن هذه الكتابة ليست إلا النمو الطبعي للخط الهيراطيقي المختصر «الذي يعد بدوره اختصارًا للخط الهيروغليفي الذي يكتب بالقلم»، وقد أخذ شيئًا فشيئًا يستقل عن الكتابة الهيروغليفية الأصلية، وأخيرًا تبلور في مجموعة رموز جديدة، فنجد في بعض الوثائق القانونية التي عُثر عليها في «طيبة» ويرجع عهدها إلى الأسرة العشرين، فقرات كتبت بخط مختصر يظهر فيه بعض خصائص الخط الديموطيقي. هذا؛ ونشاهد أن كلًّا من الكتابة واللغة المكتوبة قد استمرت في التغير حتى الأسرة الواحدة والعشرين، وذلك على الرغم من أن الأكثرية من المتون الباقية وهي ذات طابع ديني أو رسمي، كانت تحفظ اللغة القديمة والخط الهيروغليفي أو الخط الهيراطيقي الخشن، وأوراق البردي المكتوبة بحرية من الأسرة الواحدة والعشرين نادرة جدًّا، هذا ولا نجد أوراقًا بردية فيما عثر عليه تمثل العصر الذي يلي الأسرة السابقة الذكر.

وفي بداية العهد الكوشي «أي في نهاية القرن الثامن ق.م» نجد الكتابة العادية على البردي قد أخذت تظهر مع الوثائق القانونية الخاصة بالأسرة الخامسة والعشرين، ومن هذا الوقت أصبح يطلق على مثل هذه الأوراق تسهيلًا للأمور «ديموطيقية» في العرف الحديث، وذلك على الرغم من وجود صيغ ديموطيقية وأخرى هيراطيقية في وثيقة واحدة بعينها لمدة نحو خمسين سنة، والواقع أن أوراق البردي الطيبية حتى عهد الملك «أحمس الثاني» قد سارت على أسلوب خاص، ومع أنه لا يكاد يكون هيراطيقيًّا فإنه مع ذلك يتبع طريقًا مختلفًا في تطوره عن الخط الديموطيقي، ولا يمتزج مع الأخير إلا شيئًا فشيئًا، وهذا الأسلوب في الكتابة قد أطلق عليه اسم «الهيراطيقي الشاذ»، والخط الديموطيقي الحقيقي لا بد أنه كان قد نما واكتمل في مصر الوسطى والوجه البحري.

والواقع أن كل المتون التي كتبت بالخط الهيراطيقي الشاذ يمكن البرهنة على أنها من أصل طيبي، وذلك من نفس صلب المتون، ومن معرفة المكان الذي أتت منه، وليس لدينا براهين تدل على أنها أتت من أماكن أخرى، والواقع أن طيبة هي المصدر الوحيد للعقود حتى العصر البطلمي، وليس لدينا متن واحد مما نشر من طيبة ويرجع عهده إلى أقدم من عهد «أحمس الثاني» قد كتب بالخط العادي، ومن جهة أخرى نلحط أن كل المتون التي عثر عليها في «الحيبة» بمصر الوسطى حتى السنة العشرين من عهد «بسمتيك الأول» قد كتبت بالكتابة العادية، وذلك على الرغم من أن الكتابة الهيراطيقية كانت موجودة فعلًا، وعلى ذلك فإنه من الواضح أن الكتابة «الهيراطيقية الشاذة» سواء أكانت طيبية أم لا في أصلها فإنها متناسلة من هيراطيقي الأسرة الثانية والعشرين، وأنها قد استمرت طويلًا في إقليم طيبة المحافظ، في حين أن الأسلوب العادي كان يشق طريقه جنوبًا، ويحتمل أن قد أتى من الوجه البحري، وأنه كان قد حل محله في الإقليم الطيبي الخط الأخير في خلال حكم «أحمس الثاني» الطويل.

وهاك نص بعض الوثائق الديموطيقية التي من عهد «تهرقا»:

(١) عقد بيع عبد:[١٢٦] السنة الثالثة في العاشر (؟) من شهر طوبة من عهد الفرعون «تهرقا» بن «إزيس» محبوب آمون له الصحة والسلطان والعافية أبديًّا مثل رع (؟).

هذا اليوم: أعلن «باسمنأمون» بن «ستامنكو» وكذلك «ثبس» أخته أعلنت إلى مغنية آمون المسماة «تنسيجبس» ابنة «إتوروز» بما يأتي:

لقد أعطيناك يا «وزحور» (؟) يا رجل البلاد الشمالية لتدفن بوساطته (؟) «ستامنكو» وكذلك «حتب أسي» زوجه، وهما والدتنا ووالدنا.

وقد دفعنا لك دبنين وأربعة قدات من فضة خزانة «معبد» الإله حرشف مقابل ثمنه؛ لأجل أن يدفن بها (؟) «ستامنكو»، وكذلك «حتب أسي»، وليس لي أي مُدَّعٍ (؟) لفضة أو أي مُدَّعٍ لحنطة أو لأخ أو لأخت أو لابن أو لابنة أو لسيد أو لسيدة أو أي رجل في كل الأرض يخص «ستامنكو» يكون له أي ادعاء على «وزحور» بأية حالة ما.

وقد أعلنوا بحياة آمون، وبحياة الفرعون ما دام في صحة وآمون يمنحه النصر، والمتعبده الإلهية لآمون سيدتي تعيش وعمرها طويل، فإنه لن يكون في استطاعتي أن أسحب الوثيقة التي عُملت أعلاه.

الكاتب الشاهد: أتو …

في حضرة «بتأمنؤبي» بن «حربس»، للاعتراف بكل كتابة أعلاه، في السنة الثالثة عشرة (؟) «طوبة» ويلي ذلك ستة شهود يعترف كل منهم بصحة هذا العقد مع اقتباس ألفاظه على وجه عام.

ويلحظ في هذه الوثائق المكتوبة بالديموطيقية أن عبيد الشمال يمكن أن يكونوا من أتباع الملك «بوكوريس» وكان قد استولى عليهم الملك «شبكا» واشتراهم في الحال أفرادًا من أهل طيبة الذي كان ضلعهم مع الكوشيين في مناهضة أهل الوجه البحري.

ويلحظ كذلك في هذه الوثيقة أن خزانة الإله «حرشف» كانت عملتها بطبيعة الحال تعد معيارًا لنقاء الفضة، وكان هو المتبع في التعامل.

وقد جاء ذكر ذلك في برديات أخرى مؤرخة بالسنة ١٦ من حكم نفس هذا الملك وبالسنتين ٣٠ و٤٥ من حكم «بسمتيك الأول».

هذا؛ ونجد في بعض الأوراق بدلًا من معيار خزانة «حرشف» معيار خزانة «ني»؛ أي طيبة، أما في الأوراق التي من عهد الملك «دارا» فنجد معيار فضتها معلمة بفضة خزانة «بتاح»، ومن ثم نعرف أنه في عهد الملك «دارا» كان المعيار للفضة هو المعيار المنفي في خزانة «بتاح».

وقد ذكر أن «أرياندس» شطربة[١٢٧] مصر وهو الذي نصبه قمبيز في وظيفته هذه كان قد قتله «دارا»؛ لأنه حاول أن يناهض معياره الجديد الذي عمله من الذهب الخالص بدرجة عظيمة بآخر من الفضة على درجة عظيمة من النقاء في مصر، حتى إنه في عهد «هردوت» لم تكن توجد فضة تعادل فضة «إرياندس» في نقائها راجع (Herod, II. 166) ومن المحتمل أن الفضة في أيامه كانت تضرب مثل الذهب.

(٢) عقد مخالصة:[١٢٨] السنة الخامسة في ١٩ أبيب: يقرر «بدي خنوم» ابن «أنحور» إلى «بدي باستي» (؟) بن «بدي أمنؤبي» زميله بالنزول عن ثلاث إماء وعبد كانوا ملك «ستامنكو» «وحتبئيسي»، وذلك في مقابل توريد حاجيات الدفن لهذين الشخصين، هذا مع رضائه عن كل ما عملوه، وقد أسهم هو نفسه بمبلغ دبن و(؟) عبد لأجل الدفن، وليس له أي حق على «بدي باستي» فيما يخص المصاريف، وأنه يجد أنه «بدي باستي» قد أسهم بمبلغ سبع قدات من جيبه الخاص، ثم يلي ذلك اليمين واسم الكاتب وشهادة الشهود.

(٣) عقد مخالصة:[١٢٩] السنة السادسة الخامس من بؤنة. «المضمون»: كان «بدي خنوم» في نزاع مع زوجته الأولى على دبنين من الفضة، وهما جزء من ستة دبنات ادعاها «بدي خنوم» وأخته «حتبئيسي» بسبب عبد صانع من الشمال بيع له في السنة السابعة من حكم «شبكا»، وقد طلب إلى المحكمة العليا في «ني»؛ أي طيبة، هو والمشرف على

السجلات لأجل أن يعطي «بدي مين» خلاصة مكتوبة، وقد أعطى «بدي خنوم» الخلاصة بمبلغ ستة دبنات، وجعل تسعة أشخاص مسهمين في الموضوع بما فيهم هو وزوجه الأولى وزوجه الأخيرة دون دخول أخته، يحلفون أمام «آمون» بأن الدبنين قد دفعا عندما كانت زوجه الأولى في «طيبة»، ويلي ذلك اسم الكاتب وستة شهود، ومن المحتمل أن ما جاء في هذه الوثيقة عن المحكمة العليا التي كانت ذات شهرة عظيمة في عهد الدولة الحديثة هو أحدث إشارة لاجتماعها، وقد كان زوجتا «بدي خنوم» على قيد الحياة غير أنه من المحتمل أن واحدة منهما كانت مطلقة.

- (٤) عقد بيع خيوط نسيج:[١٣٠] السنة السادسة عشرة من شهر بشنس «بدون ذكر اسم ملك». ومضمون العقد أن امرأة تطالب سقاء بمبلغ ـ قدات من الفضة من خزانة «حرشف» ثمنًا لخيط بيع له لأجل نسجه، وتعلن أنها ليس لها حق عليه ثم تذيل الوثيقة باليمين المعتاد، بل نجد اسم الكاتب، أما الشهود فقد فقدت أسماؤهم.

ويلحظ هنا أن السقائين كانوا تابعين للقبور والجبانات، وكانوا في الوقت نفسه عادة مكلفين بحمل محاريب الآلهة في المعابد المجاورة، ويمكن أن نتصور على وجه التأكيد ما كانوا يقومون به من واجبات في خدمة الآلهة، غير أن ما نعرفه عنهم ضئيل، وكان أولئك الذين يتبعون المقابر يتقاضون أجورهم من الأراضي التي كانت محبوسة على هذه المقابر، وذلك بالإضافة إلى المكافآت والقربات التي كانوا يعطونها:

- **متحف القاهرة:** ويوجد في متحف القاهرة رأس تمثال للملك «تهرقا»[١٣١] اشتُري من الأقصر،[١٣٢] وكذلك عثر على رأس آخر من الجرانيت الأحمر لهذا الملك، محفوظ كذلك بالمتحف المصري.[١٣٣]

- **برمنجهام:** يوجد تمثال صغير من البرنز في مجموعة «ماك جريجور» في «نام ورث» في «برمنجهام»، وهذا التمثال ارتفاعه ١٤ سنتيمترًا، وهو يمثل الملك «تهرقا» راكعًا يقدم قربانًا، والظاهر أنه كان في يده آنية قربان أو صورة إله، والشيء الذي يلفت النظر في هذا التمثال هو القلادة التي حول رقبته؛ إذ تتألف من حلقة حول الرقبة يحليها رأس كبش يحمل قرص الشمس وَصِلَّان، ونجد لذلك نظائر في صورة الملوك التي عثر عليها في معبد

«برقل»، ووجه التمثال قد تآكل بعض الشيء غير أن ما تبقى منه يثبت أنه كان مستدير الوجه ومن ثم يختلف عن الوجه المصري العادي، والواقع أنه يذكرنا بوجه رأس التمثال الذي ذكرناه آنفًا، وهو محفوظ بالمتحف المصري، ويمثل وجه الملك «تهرقا»[١٣٤] يضاف إلى ذلك أن اسم «تهرقا» قد وجد منقوشًا على الجزء الأوسط من حزامه.[١٣٥]

- **باريس:** وأخيرًا يوجد «لتهرقا» تمثال في هيئة بولهول محفوظ بمتحف باريس.[١٣٦]

- **جعارين تهرقا:** وجد «لتهرقا» جعارين قليلة جدًّا.[١٣٧]

- **بالميرا:** وجد للملك «تهرقا» طابع خاتم بيضي الشكل في «بالميرا»، والظاهر من الكتابة التي على هذا الطابع لآمون «تهرقا» أنه أعطاك الحياة أبديًّا، ولما كان هذا الأثر قد وجد مع أشياء أخرى فإنه من الصعب التكهن بكيفية وصوله إلى هذا المكان، والطابع محفوظ الآن بالمتحف البريطاني.[١٣٨]

- **هرم «تهرقا»:** تحدثنا فيما سبق عن مدافن ملوك «كوش» الواقعة في بلدة «الكورو» غير أنه لم يعثر بين مقابر جبانة «الكورو» على قبر الملك «تهرقا»، وقد كشف عنه الدكتور «ريزنر» في بلدة «نوري»، والواقع أن المدافن الملكية الكوشية في عهد الأسرة الخامسة والعشرين كانت كلها تتجمع حول عاصمة الملك وقتئذٍ؛ وأعني بذلك مدينة «نباتا».

ولا نزاع في أن مدينة «نباتا» كانت تقع على ضفتي النيل، غير أن حدود المساحة التي كانت آهلة بالسكان قد انكمشت من عصر لعصر، ولذلك لا يمكن حصرها على وجه التأكيد، ومن المحتمل أن المركز الديني والسياسي كان بالقرب من جبل «برقل» أو الجبل المقدس، وتدل المعابد التي هناك على أنه كان آهلًا بالسكان منذ عهد الدولة الحديثة حتى العصر المروي.

ويلحظ أن الجبانات الملكية التي في «نوري» «وتنجاس» «وزوما» «والكورو» كانت بعيدة عن هذا الموقع، بل يحتمل أنها كانت مراكز تحمل أسماء مستقلة، ومع ذلك فإن «نباتا» لا بد كانت عاصمة الملك لكل هؤلاء الملوك الذين دفنوا في هذه الأماكن الأربعة، وكذلك الذين ثووا في «نباتا» نفسها.

وتقع مجموعة أهرام «نوري» أو «بلال» (كما كانت تسمى أحيانًا) في أقصى الشمال من خمس مجاميع الأهرام التابعة لنباتا، وتقع «نوري» نفسها على مسافة حوالي خمسة أميال

في أعلى النهر من بلدة «برقل»، ولكن على الشاطئ المقابل، أو بعبارة أخرى على الشاطئ الأيسر للنيل، وفي هذه البلدة تقع مجموعة الأهرام التي دفن فيها بعض ملوك «كوش» ومن بينهم «تهرقا».

وقد قام الدكتور «ريزنر» بعمل حفائر في منطقة أهرام «نوري» وكشف عن محتويات عدد عظيم منها وحقق معظم أسماء أصحابها، غير أنه مما يؤسف له جد الأسف أن معظم الأهرام كانت قد نهبت في الأزمان القديمة والحديثة أيضًا، كما أن بعضها كان قد نظف تمامًا على يد اللصوص فلم يتركوا فيها شيئًا قط، هذا إلى أن المعابد الجنازية التابعة لهذه الأهرام قد انتزعت أحجارها من أماكنها ووجدت إما ملقاة على الأرض أو مستعملة في إقامة مبانٍ حديثة، وقد أمكن الأستاذ «ريزنر» تحقيق أصحاب هذه الأهرام من الآثار التي وجدت داخل حجرة الدفن أو من الآثار الثقيلة الوزن التي لم يمكن حملها بسهولة إلى أماكن بعيدة عن مكانها الأصلي.

ففي الهرم رقم واحد وهو الذي دفن فيه «تهرقا» عثر في داخل الهرم وحوله على أكثر من ست مائة تمثال مجيب كتب عليها «أوزير» الملك «تهرقا»، ويلحظ أن هذه التماثيل كانت ترتدي لباس الرأس الملكي ونحتت في الحجر، وهي في أشكالها كالتماثيل المجيبة المصرية، وكذلك وجدت في قبره آنيتان من أواني الاحشاء باسم هذا الفرعون، وكذلك نقش عليها الصيغة المعتادة التي كانت من طراز الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين وهي: «حماية أوزير الملك «تهرقا» المرحوم: إن حابي يحمي «أوزير» «تهرقا» المرحوم بأنه «حابي» الذي يقول … «لنفتيس».»

وقد أظهرت عمليات الحفر في منطقة «نوري» أن الأهرام الملكية هناك كانت من طراز واحد وتمتاز بخواص ثلاث وهي؛ أولًا: الهرم نفسه الذي يتبعه مقصورة خارجية بنيت في جهة منه. ثانيًا: كان لكل هرم سور يحيط به وبالمقصورة. ثالثًا: كان لحجرة الدفن سلم مفتوح ينحدر من الغرب، ويؤدي إلى سلسلة حجرات مؤلفة إما من حجرتين أو ثلاث حجرات للدفن.

وكان جدار الهرم عاليًا وينحدر حوالي ٦٩ درجة وارتفاعه حوالي سبعة وأربعين مترًا وكسوته من الحجر الرمادي المحلي، أما أحجاره الأصلية فمن الحجر الأسمر المائل للصفرة، وتبلغ مساحة هذا الهرم حوالي ٥١٦٩ مترًا مربعًا.

وكان المعبد الجنازي أو المقصورة تتوسط الجدار الغربي للهرم وتلاصقه، وتحتوي على حجرة واحدة بابها في الجهة الغربية وفيها كوة في الجهة الشرقية مقابلة للباب،[١٣٩] وكانت في العادة تحتوي على لوحة من الجرانيت، أما الأشياء التي كانت توضع في هذه المقصورة فتتألف من مائدة قربان مرتكزة على عمود قصير موضوع في وسط الحجرة وعلى قاعدتين للقربان مجوفتين تكنفان مائدة القربان واللوحة.

أما الحجر التي تحت الأرض، وهي كما قلنا المخصصة للدفن، فكانت مرتبة الواحدة خلف الأخرى في محور الهرم، وقد كان عدد الحجرات في الأهرام التي بنيت في العهد المبكر اثنتين ثم زيدت فيما بعد إلى ثلاث، وكانت المومية توضع في الحجرة الثالثة، أما الحجرتان الأولى والثانية فكانتا مخصصتين للأثاث الجنازي.

وتدل شواهد الأحوال على أن أول ملك معروف لنا أقام هرمه في هذه الجهة هو «تهرقا»، وقد جاء بعده ملكًا على البلاد «تانوت آمون» كما سنرى بعد.[١٤٠]

(٤) أسرة الملك «تهرقا»

ذكرنا من قبل أن الملك «تهرقا» هو ابن الفرعون «بيعنخي» وأمه هي الملكة «أبار»، ولم يعرف المكان الذي دفنت فيه على وجه التأكيد، وقد ذهب الأستاذ «ريزنر» إلى أنها دفنت مع ابنها في جبانة «نوري» في القبر رقم ٣٥، غير أنه لم يوجد في هذا القبر إلا تماثيل مجيبة منوعة، ولكنها ليست من الصناعة الكوشية المبكرة كتماثيل «تهرقا» المجيبة، وكذلك فيها أواني أحشاء عارية عن الكتابة،[١٤١] وقد جاء ذكر هذه الملكة على لوحة «الكوة» رقم ٥، وكذلك جاء ذكرها في معبد جبل «برقل» رقم ٣٠٠ (B. 300).

(٤-١) زوجاته

تزوج «تهرقا» من عدة نساء نذكر منهن:

- (١) الملكة أتخباسكن Atakhebasken: ودفنت في هرمها بجبانة «نوري» في القبر رقم ٣٦، وقد عثر لها على خمسة تماثيل مجيبة مكتوب عليها اسمها بالمداد كما وجد لها آنيتان للأحشاء محفوظتان بمتحف بوسطون، ولها كذلك مائدة قربان في متحف «مروي».[١٤٢]
- (٢) الملكة تابكنأمون Tabekenamon: لم يُعرف قبرها بعد، وهي ابنه الملك «بيعنخي» ويُحتمل أنها تزوجت «تهرقا».[١٤٣]
- (٣) الملكة ناباري Naparye: وهي ابنه «بيعنخي» وأخت «تهرقا» وزوجه، دفنت في «الكورو» في المقبرة رقم ٣، وقد وجد هرمها مهشمًا، وعثر في قبرها على مائدة قربان نقش على حافتها اسم ناباري وألقابها،[١٤٤] وهذه المائدة محفوظة الآن بمتحف الخرطوم.[١٤٥]

(٤) الملكة تكاهاتاماني Tekahatamani: لم يُعرف قبرها بعد على وجه التأكيد، ويظن «ريزنر» أنها دفنت في المقبرة رقم ٢١ في «نوري»[١٤٦] وقد جاء اسمها في نقوش معبد جبل «برقل»[١٤٧] ومقبرة «نوري» التي دفنت فيها قد أرخت من الوجهة الأثرية بعهد الملك سنكامانيسكن Senkamnisken، وهذا يحتم أن هذه الملكة كان عمرها عند الوفاة سبعين عامًا إذا كان هذا القبر هو قبرها الحقيقي.[١٤٨]

(٥) ولدينا اسم ملكة لم يبقَ منه إلا جزء صغير «سالكا …» ويقال إنها تزوجت الملك «تهرقا»، وأنجبت منه ابنه الملك «أتلانرسا»، وقبرها لم يُعرف بعد، وقد وجد طغراء هذه الملكة مشهمًا على بوابة معبد «برقل» (B. 700).[١٤٩]

(٤-٢) أولاد «تهرقا»

(١) «أتلانرسا»: حكم هذا الملك بلاد «كوش» فقط بعد أن طرد الآشوريون ملوك «كوش» من مصر، ويحتمل أنه دفن في «نوري» في الهرم رقم ٢٠ وهو ابن «تهرقا»، وقد وجد اسمه على لوحة في «نوري» وهي محفوظة الآن بمتحف «بوستون»[١٥٠] وسنتحدث عنه فيما بعد.

(٢) إسانهورت Esanhuret: ابن «تهرقا» البكر، وقبره لم يعرف بعد، ويعرف باسم «أوشاناخودو».[١٥١]

(٤-٣) بنات «تهرقا»

(١) «يتورو»: ابنه «تهرقا» وأخت الملك «أتلانرسا» وزوجه ودفنت في جبانة «نوري» في المقبرة رقم ٥٣، وقد صورت على جدران حجرة دفنها، ووجد لها جعران قلب في «نوري»، وكذلك نقش اسمها على بوابة معبد «برقل» (B. 700).[١٥٢]

(٢) «يلتاسن»: يحتمل أن هذه المرأة كانت ابنة الملك «تهرقا» وأخت الملك «أتلانرسا» وقبرها لم يعرف، وقد وجد اسمها على بوابة معبد برقل (B. 700).[١٥٣]

(٣) «أمنردس الثانية»: وهي ابنة «تهرقا» وكانت تحمل لقب المتعبدة الإلهية،[١٥٤] وقد تحدثنا عنها فيما سبق وسنتحدث عنها بعد.

---

[١] راجع: Ungar, Chronologie des Manetho, p. 246.

[٢] راجع: L.R, IV. P. 31 No. 3.

[٣] راجع: Count Gleichen, The Anglo-Egyptian Sudan, Vol. I. P. 313.

[٤] وهذا التمثال موجود الآن بمتحف «مروي»، وقد رُكب فيه رأسه الذي عُثر عليه فيما بعد، راجع Merowe Museum No. 28, 492.

[٥] راجع: Brugsch, Thesanrus 1213 (upper).

[٦] ولكن شواهد الأحوال تدل على أنه قُتل في عقر داره في السنة التالية بسبب مؤامرة، (راجع J.E.A. 27 P. 2FF) وكذلك «الأدب المصري القديم»، الجزء الأول.

[٧] راجع A. Z, 69, P. 24 L. 33 وكذلك «مصر القديمة»، الجزء الرابع.

[٨] راجع: Ann. Arch. Anth, 9, 76.

[٩] راجع: Kawa, I, P. 4.

[١٠] راجع مصر القديمة الجزء الخامس.

[١١] هذه الحادثة تذكرنا بحادثتين مماثلتين لها، أولاهما للملك «تحتمس الرابع» عندما زار بولهول ورأى الرمال تغمره ولم يكن بعدُ مليكًا على البلاد، والأخرى للملك «أمنحتب الثاني» عندما زار الأهرام قبل تولي عرش الملك ووعد بإقامة لوحة تذكارية لزيارته عند اعتلاء عرش الملك كما سنشرح ذلك بعدُ.

[١٢] راجع: Ibid, Vol. I, P. P. 58, 73.

[١٣] راجع: J.E.A, Vol. 9, 72.

[١٤] راجع: Medinet Habu, Pl. 208.

[١٥] راجع: Kawa, Vol. I, Pl. 33.

[١٦] راجع: Strabo, Geography, XVII, No. 54.

[١٧] راجع: J.E.A, 4, P. 160.

[١٨] راجع: Ann. Arch. Studies, 7, 15–24.

[١٩] راجع: Griffith, The Great Stela of Prince Akinizaz, J.E.A, Ibid.

[٢٠] راجع: Strabo, XVII, 816.

[٢١] راجع: Strabo, XVII, 820; Milane, History of Egypt Under Roman Rule, P. P. 21–23.

[٢٢] راجع: J.E.A, 9, 73.

[٢٣] راجع: Ibid, P. 68, 74.

[٢٤] راجع: Maspero, Art in Egypt, English Ed, pp. 219-20.

[٢٥] راجع: Kawa II, Pls. XIVB, Xvb.

[٢٦] راجع: Borchadt, Das Grabdenkmal des Konigs Sa-hu-re, II, Pls. 1 and 8; Das Grabenkmal des Konigs Ne-user-re, Pls. 8, 9, 11.

[٢٧] إلهة الكتابة والحساب.

[٢٨] راجع «الأدب المصري القديم» الجزء الأول، ص٢٠٥.

[٢٩] يوجد بعض توافق بين مناظر هذا الموكب والمناظر العظيمة الممثلة على جدران معبد الأقصر الخاصة بمواكب القارب المقدس (راجع Kawa II, Text, P. 245).

[٣٠] راجع مصر القديمة الجزء العاشر.

[٣١] راجع: The Temple of Kawa, I, Insc. III, Pl. 4.

[٣٢] راجع: Ny Carlsberg Glyptotek Copenhagen.

[٣٣] راجع: Macadam, The Temple of Kawa, 1, P. 14 K Pls. 7, 8.

[٣٤] راجع: Merowe Museum No. 52.

[٣٥] «أخو الملك» كان لقبًا عاديًّا جدًّا بين الألقاب الملكية الكوشية، والظاهر أن وراثة العرش كان ينتخب لها دائمًا من بين إخوة الملك، وذلك غير ما كان يحدث في مصر؛ فقد كان ينتخب الملك من بين أولاد الفرعون، وهذا يدل على أن وراثة الملك في الأسرة الكوشية كانت عادة من الأخ للأخ لا من الأب للابن.

[٣٦] يجوز أن ذلك كان قد حدث بسبب حرب وقعت في مصر، وأراد الملك أن يقضي عليها فأرسل إلى إخوته ليشتركوا فيها، وهناك تعرف على «تهرقا» أخيه، ولحظ فطنته ومميزاته على إخوته فأحبه وقربه منه.

[٣٧] لا بد أن هذه الفقرة تشير إلى مباني وإصلاحات «تهرقا» التي عملها في مصر؛ لأنه لم يعد إلى بلاد النوبة بعد أن غادرها أول مرة حوالي عام ٦٨٨ق.م، أما عن آثار «تهرقا» في مصر فلا يمكن تأريخ واحد منها، غير أنه من المعروف أنه بدأها مبكرًا كما يدل على ذلك لوحة مدينة هابو التي جاء عليها ذكر إصلاحات له هناك في السنة الثالثة من حكمه (راجع A. S, IV, P. 179).

[٣٨] يقصد رجال الحاشية الذين يوجه إليهم «تهرقا» الكلام.

[٣٩] راجع: Ny Karlsberg Glyptotek, Copenhagen, The Temple of Kawa I, The Inscriptions Text. P. 22 Pls. 9, 10.

[٤٠] راجع: Griffith, Melanges Maspero I, 423–430.

[٤١] راجع: Vikintiev. La haute crue du Nil et l’averse de l’an 6 de Taharqa, La Caire 1930.

[٤٢] راجع: Kawa I: Kuenz. Mel. Maspero I. 430–432, Leclant et Yoyotte, Kemi, 10, 28–37 Pl. 2-3.

[٤٣] المتن الذي بين القوسين «» لا يوجد في متن الكوة، ولكنه وجد في متني قفط والمطاعنة.

[٤٤] نجد بدلًا من الكلمات ما بين «أ، ب» في متن المطاعنة: محبوب الإله «حمن» سيد «حفات» ولكن نجد في فقط كسرًا يمكن أن يصلح بما يأتي: محبوب «مين رب قفط».

[٤٥] عمل فنتر باشا Ventre Pasha على حساب أن الذراع في مقياس النيل هو ٠٫٥٢٧ من المتر عندما كان يتحدث عن المقاييس التي ذكرها الأثري لجران A. Z, 34 P. 100-1 عن منسوب النيل الذي حسب به ارتفاع النيل في عهد كل من الملوك «شبكا» «وشبتاكا»

«وبسمتيك الأول» في مناسيب النيل التي سجلت على مرمى الكرنك، وقد وجد أن هذا المنسوب هو ٦٣٫٩ مترًا عن سطح البحر في عهد الملكين الأولين و٦٣٫٨ مترًا في عهد الملك بسمتيك، هذا ولا يمكن عمل إحصاءات للقراءة صفر لعلامات المناسيب الأخرى للنيل؛ لأن هذه لم تكن مصحوبة بمقاييس معبر عنها بالأذرع والأشبار والأصابع على حسب النظام القديم، وكان ارتفاع النيل للسنة السادسة من عهد «تهرقا» عند مرسى الكرنك قد دون مرتين بارتفاعات تقابل على حسب رأي فنتر باشا ٧٠٫٠٢ مترًا و٧٥٫٠٢ مترًا، والرقم الأخير هو أعلى رقم سجل على المرسى، وكذلك أعلى رقم عرف في الأزمان القديمة، ولحسن الحظ أمدنا متن اللوحة التي نحن بصددها بالمقاييس المفقودة للمنسوب العلوي بالأذرع والأشبار والأصابع، وعلى أساس نفس هذا الذراع كالذي استعمله فنتر باشا فإنه يقدر لنا قراءته من صفر تبلغ ٦٣٫٩ مترًا، وهذه القراءة تقدم لنا ضابطًا مفيدًا، وعلى ذلك فإنه من المؤكد أن القراءة التي أوردناها هنا هي التي أخذت عند الكرنك ودونت على المرسى.

[٤٦] ترجم مكأدم: عمل له هذه المعجزات الأربع، وهذا ما لا يفهم من سياق المتن كما سنرى بعد في التعليق على هذا المتن.

[٤٧] المكان الذي ولد فيه حور وترعرع، وخميس هذه يظهر أنها كانت في الموقع الذي تقوم عليه قريه كوم الخبازة الحالية في شمال الدلتا.

[٤٨] راجع: Macadam, Kawa I text, P. 29 line 10.

[٤٩] راجع: Macadam, The Temple of Kawa, I, Insc. Text VI, P. 32.

[٥٠] يجب أن نذكر هنا أن المعبد B 300 في «نباتا» هو معبد «آمون رع» ويحتوي على محراب مقطوع فعلًا في قاعدة جبل «برقل» وقد أقامه «تهرقا».

[٥١] وكان الكهنة كذلك يجندون من قوم التحنو وقد سموا في اللوحة السادسة سطر ٢١ الرجال الذين يعرفون تعاويذهم، وهم أبناء عظماء من كل أرض، والواقع أن تعيين أولاد الأقوام المقهورين في وظائف في مصر هو صدى لسياسة عظماء الفاتحين خلال الدولة الحديثة، وقد كانوا بطبيعة الحال هنا قد تلقنوا تربية مصرية عندما عينوا في وظائفهم.

[٥٢] كان صغار ملوك الدلتا أعداء «بيعنخي»، وكانوا بلا نزاع أعداء لأسرته كذلك، وذلك على الرغم من أن تهرقا كان في حاجة لمساعدتهم على «إسرحدون» كما سنرى بعد.

[٥٣] «جس جس» هي بلا نزاع الواحة البحرية، وكانت مشهورة بنبيذها، ومما يطيب ذكره هنا أن «آمون» «جس جس» قد مثل في عهد الأسرة السادسة والعشرين برأس كبش مثل «آمون» بلاد النوبة.

[٥٤] وهؤلاء ليسوا بطبيعة الحال من أهل الصحراء، بل الواقع أن هذا تعبير يطلق على كل الآسيويين أعداء مصر (راجع Max Müller, Asien & Europa 17-18).

[٥٥] راجع مصر القديمة الجزء الأول.

[٥٦] راجع مصر القديمة الجزء الرابع.

[٥٧] راجع مصر القديمة الجزء الرابع.

[٥٨] راجع مصر القديمة الجزء الخامس.

[٥٩] راجع: Macadam, The Temple of Kawa I, The Inscriptions Pls. 13, 14. Text. P. 41.

[٦٠] التاريخ هو ٩ فبراير حسب تأريخ جوليان سنة ٦٨٠ق.م، ويلاحظ هنا أن هذا هو التاريخ الوحيد في متون «تهرقا» الذي جاء فيه ذكر اليوم بالتحديد، وتدل شواهد الأحوال على أن اليوم الأول من السنة الجديدة المصرية هو اليوم التقليدي الذي كان يحتفل فيه بالشعائر أو على الأقل آخر واحدة منها.

[٦١] لدينا في هذا المتن ثلاثة اصطلاحات خاصة بشعائر ترتبط بافتتاح معبد جديد وهي: (أ) إقامة المعبد. (ب) رش المعبد بالنطرون. وهذا الاحتفال الأخير كان يصحبه موكب يسير حول المعبد، وكان يُمثَّل فيه الملك وهو يرمي حبات النطرون على نموذج صغير لمبنى المعبد، وهذا الاحتفال كان لا يُعمل إلا بعد الانتهاء من بناء المعبد لا قبله، كما ذكر ذلك الأستاذ موريه راجع Roy, Phar, 137. Fig 30. (ج) والاحتفال الثالث هو تقديم البيت أو المعبد لصاحبه، وفي هذا الاحتفال يظهر الملك وهو يقدم نموذجًا صغيرًا للمعبد الذي أقامه للإله، ويحتمل أنه نفس النموذج الذي استعمل في الاحتفال السابق، وقد بقي جزء منه في مناظر معبد «تهرقا» على الجدار الشرقي لقاعة العمد.

[٦٢] راجع: Louvre, No. 121.

[٦٣] راجع: Le Serpeum de Memphis III, Pl. 35; Rev. Egyptologique, VII, P. 136; Chassinat, Rec. Trav, 22, p. 18.

[٦٤] راجع: Br, A. R. IV. § 917 ويؤرخ برستد السنة ٢٤ من حكم «تهرقا» بالسنة ٦٦٤ والحملة الثانية التي قام بها «آشور بانيبال» على مصر بالسنة ٦٦٨ق.م.

[٦٥] راجع: Weissbach, Assurpanpli, Reallexikon der Assyriologie. I, (Leipzig 1932), P. 203 L. Delaporte, Le Proche Orient Asiatique

(Paris 1938) P. 259.

[٦٦] راجع: A Moret, Histoire de l’Orient, II (Paris 1936) P. 694.

[٦٧] راجع: Chronique D’Egypte (1947), No. 241 note 3.

[٦٨] راجع: Ibid P. 241 note 5.

[٦٩] راجع: Ibid note 6.

[٧٠] راجع: Ibid note 7.

[٧١] راجع: Cylindre. A, II, 114-115.

[٧٢] راجع: J. Vandier et E. Drioton, L’Egypte, p. 542.

[٧٣] راجع: Fr. Delitzsch, Die Babylonische Chronik (Berlin 1906); S. Smith, Babylonian Texts (London, 1924); C. Gadd, The Fall of Nineveh (London 1923).

[٧٤] راجع: Louvre No. 190; Mariette; Le Serapeum de Memphis Paris 1857, Pl. 36; Chassinat, Rec. Trav. XXII, p. 19.

[٧٥] راجع: Roeder, Dabod bis Kalabsha, Pls, 94, 127 (a), pp, 215-16; Weigall, A Report on the Antiquites of Lower Nubia, Pl. XXVII (4) cf XXII (4) and p. 68.

[٧٦] راجع: A. S, IX. p. 105–16.

[٧٧] راجع: Emery and Kirwan, The Excavation and Survey between Wadi es Sabua and Adindan 1929–1931, Pl. 58 (34) cf. P. 532.

[٧٨] راجع: Porter & Moss VII, P. 94; L.D, V, Text P. 129.

[٧٩] راجع: Maciver, Buhen Pl. 24, cf. pp. 66 (90), 17; Power & Moss, VII, p. 137.

[٨٠] راجع: Budge, The Egyptian Sudan I, pp. 481–8; pp. 42, 45, plan, id, ib.; I, Fig on p. 489.

[٨١] راجع: The Egyptian Sudan (Budge) Vol. I. p. 132, Fig, P. 131; Porter & Moss, VII, 208.

[٨٢] راجع: Porter & Moss, VII. p,. 208 f.; Budge, The Egyptian Sudan, Vol. I, P. 132ff.

[٨٣] تدل شواهد الأحوال على أنه من المحتمل أن هذا المعبد قد أقيم على أنقاض معبد للملك رعمسيس الثاني راجع poter & Moss VII, P. 208 & L.D. V.P. 5.

[٨٤] راجع: L.D, V, P. 7 a.

[٨٥] راجع: E. De Rougé, Melanges Egypt. T. I, P. 14ff,; Budge, The Egyptian Sudan, Vol. II, p. 41–42.

[٨٦] راجع: Moret, Du Caractere Religieux de la Royauté Pharaonique, P. 106.

[٨٧] راجع: L. D, III, 36 b = Moret, Ibid. P. 105. Fig 21.

[٨٨] راجع: Budge, The Egyptian Sudan, I. p. 138.

[٨٩] راجع: B.I.F.A, Tom. XXX, P. 128; Weigall Report, p. 49.

[٩٠] راجع: Herodot II, 29.

[٩١] راجع: A. Z, 34, P. 116.

[٩٢] راجع: Br, A. R, IV, § 888.

[٩٣] راجع مثلا رقم ٣٦ A. Z, 34, p. 11.

[٩٤] راجع: A. S, L, p, 128.

[٩٥] راجع: Ibid, P. 137–172 & Pl. 41.

[٩٦] راجع: Ibid, P. 269–80.

[٩٧] راجع: Champolion, Notices Descriptives, II, p. 254–262.

[٩٨] راجع: L. D, Text, III. P. 36–39.

[٩٩] راجع: Bulletin De L’Institut Fr. D’Archeoleogie Orientale, Tome LIII. P. 114ff.

[١٠٠] راجع: Griffith, Annals of Archeology & Anthropology Liverpool 9, (1922) Pl. 41.

[١٠١] راجع: Mariette, Karnak Etudes p. 66.

[١٠٢] راجع: Borchardt, Statuen und Statuetten, III, P. 80–2. No. 770.

[١٠٣] راجع: Mariette, Karnak Atlas; J. de Rouge, Inscr. Hierog. etc. Pl. 299.

[١٠٤] راجع: J. Simona, Egyptian Topographical Lists Relating to Western Asia, P. 103, & p, 187.

[١٠٥] راجع: Bull. Instit. Fr. Ar. Tom. XLIX, p. 192.

[١٠٦] راجع: Rec. Trav, XXIV, P. 208.

[١٠٧] راجع: A. S, IV, P. 182.

[١٠٨] راجع: Porter & Moss, II, P. 95; Mariette, Mon. Divers, Pl. 79–87, Plan id. ib. Pl. 79; Jequier, L’Architecture, II, Pl. 76 (2-3).

[١٠٩] راجع: A, S, IV, P. 178–180.

[١١٠] راجع: L. D, V, Pl. IC; Maspero, The Passing of the Empires, P. 362. note 6.

[١١١] راجع: Transaction of the Society of Biblical Archeology Vol. VII P. 203.

[١١٢] راجع: L. D, Text, III, P. 153.

[١١٣] راجع: Ebers, Oberagypten, p. 237.

[١١٤] راجع: Mission Archeologique Francaise, VIII, P. 273, 2.

[١١٥] راجع: Rec. Trav, XXXVI. P. 57.

[١١٦] الإله «همن» هو إله قديم في صورة صقر، راجع Bonnet, Reallexekon der Aegyptisohen Religionsgeschichte, P. 285.

[١١٧] راجع: Gollenicheff, Hammamt IV, 2.

[١١٨] راجع: Maspero, Guide To the Egyptian Museum Translated by quibel. p. 327.

[١١٩] راجع: Transactions of The Society of Biblical Archaeology Vol. VII. P. 203.

[١٢٠] راجع: Ibid. P. 203.

[١٢١] راجع: Revillout, Quelques Textes Demotiques, p. 230–255; Deveria, Catalogues des Manuscrits Egyptiens 8 Paris 1875, P. 206; Griffith, Catalogue of the Demotic Papyri in the John Rylands Library, Manchester, Vol. III, p. 15,ff & 57.

[١٢٢] راجع: Herodot, II, 36.

[١٢٣] راجع: Heliodorus, IV, 8.

[١٢٤] راجع: Diodorus, I, 94, 5.

[١٢٥] راجع: Ibid, Cap. 79, 1–3.

[١٢٦] راجع: Catalogue of The Demotic Papyri in the John Rylands Library, Vol. III, P. 57.

[١٢٧] شطربة حاكم فارسي لمقاطعة أو مديرية من مديريات إمبراطورية فارس.

[١٢٨] راجع: Ibid, P. 15.

[١٢٩] راجع: Ibid, P. 15.

[١٣٠] راجع: Ibid, P. 16.

[١٣١] صورة رقم ١١

[١٣٢] راجع: A. Z, XXXIII, Pl. VII.

[١٣٣] راجع: Maspero, Guide, p. 183.

[١٣٤] راجع: A. Z, XXXIII, Pls. VII, VIII.

[١٣٥] راجع: Ibid, P. 115.

[١٣٦] راجع: Pierret, Catalogue, Salle Historique, P. 266.

[١٣٧] راجع: Petrie, History, Vol. III, p. 295.

[١٣٨] راجع: T.S.B.A, VIII, p. 208.

[١٣٩] راجع: Reisner Preliminary Report on the Harvard Excavationa at Nuri: The Kings of Ethiopia After Tirhaqa, p. 37.

[١٤٠] راجع: Ibid, P. 46.

[١٤١] راجع: Ibid, P. 13 No. XXXV.

[١٤٢] راجع: Reisner, Ibid, P. 13; J.E.A, Vol. 35, P. 143; L. R, Tom. IV. P. 61.

[١٤٣] راجع: A.S, 25, P. 25ff.

[١٤٤] راجع: El Kurru, No. 3, P. 28 and Pl. XXXI. B.

[١٤٥] راجع: Khartum Museum, No. 1911.

[١٤٦] راجع: Reisner, Ibid, P. 11 No. XXI.

[١٤٧] راجع: L. R, IV, P. 41 No. XLII.

[١٤٨] راجع: J.E.A, Vol. 35, p. 147.

[١٤٩] راجع: J.E.A, Vol. 15, Pl. 5.

[١٥٠] راجع: J.E.A, Vol. 4, Pl. 45; J.E.A, Vol. 35, p. 143; L. R, IV, P. 53.

[١٥١] راجع: Macadam, The Temple of Kawa. I, p. 124.

[١٥٢] راجع: J.E.A, Vol. 35, P. 148; J.E.A, Vol. 15, Pl. 5 and Ibid, 32, 62.

[١٥٣] راجع: J.E.A, Vol. 15, Pl. 5.

[١٥٤] راجع: L. R, IV, P. 42; J.E.A. Vol. 35, p. 147.

الملك «تانوت آمون»

تانوت آمون	باكارع

لم يذكر المؤرخ «مانيتون» الملك «تانوت آمون» في قائمة أسماء ملوك الأسرة الخامسة والعشرين، بل ختم ملوك هذه الأسرة بالملك «تهرقا»، ولكن من جهة أخرى نعترف بأن اسم هذا الملك قد حفظ لنا في الوثائق الآشورية باسم «تاندماني»،[١] وفي رواية أخرى «أوردماني».[٢]

وهو ابن الملك «شبتاكا» كما ذكرنا من قبل.

وقد دلت أعمال الحفر الحديثة حتى الآن على أن آخر سنة معروفة لحكم هذا الملك هي السنة الثامنة، غير أنه من الصعب التوفيق بين هذا التاريخ وبين ما جاء في لوحة «السربيوم» الخاصة بموت العجل أبيس في السنة العشرين من حكم الملك «بسمتيك الأول»،[٣] ومن هذه اللوحة نفهم أن «بسمتيك» قد عد سني حكمه من أول السنة التي مات فيها «تهرقا».

وعلى أية حال يجب علينا أن نعترف بأن «تانوت آمون» «وبسمتيك» قد حكما سويًّا مدة حوالي سبع سنوات، ولا غرابة في ذلك؛ لأنه عندما طرد الآشوريون الفاتحون ملك «كوش» «تانوت آمون» تقهقر من الدلتا نحو الجنوب في حين أن «آشور بانيبال» قد نصب «بسمتيك» الساوي الأصل على عرش والده «نكاو» على شرط أن يعمل على صد هجمات الملك المهزوم، وأن يخبره بأية محاولة يقوم بها ملك «كوش» لاسترجاع ملكه في الدلتا، وتدل شواهد الأحوال على أن «تانوت آمون» قد تراجع من الدلتا إما إلى عاصمة ملكه «نباتا» أو يحتمل أنه آوى إلى «طيبة»، والواقع أنه ليس لدينا أي أثر للملك «بسمتيك الأول» في «طيبة» قبل السنة العاشرة من حكمه، وهو التاريخ الذي يحتمل أن «تانوت آمون» مات فيه، ومن ثم يمكننا أن نفهم السبب الذي من أجله تجاهل «مانيتون» وجود الملك «تانوت آمون» بين ملوك الأسرة الخامسة والعشرين الذين حكموا مصر والسودان معًا.

وقد اشترك «تانوت آمون» في حكم البلاد مع «تهرقا» في نهاية حكمه كما سنرى بعد، ومن الغريب أن هذا الفرعون لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى حروبه مع ملك «آشور» المسمى «آشور بانيبال»، وكما قلت: إن كل ما نعرفه عن هذه الحروب كان من المتون الآشورية، وأهم آثار هذا الفرعون ما يأتي:

(١) اللوحة المسماة لوحة الحلم

هذه اللوحة مصنوعة من الجرانيت الرمادي وأعلاها مستدير، عثر عليها مع لوحة «بيعنخي» التي تحدثنا عنها، وهذه اللوحة محفوظة الآن بالمتحف المصري، ويبلغ ارتفاعها ١٫٣٢ من المتر وعرضها ٧٢ سنتيمترًا، وقد نشر منها عدة مرات أدقها المتن الذي نشره الأستاذ «شيفر» الألماني.[٤]

ومحتويات هذه اللوحة تشمل نهاية تاريخ العصر الكوشي في مصر، فقد كان الوجه القبلي في هذه الفترة في يد حكام معينين من قبل ملك «آشور»، وذلك بعد أن هُزم «تهرقا» على يد الملك «آشور بنيبال»؛ أي بعد تولية «تهرقا» بقليل عام ٦٦٨ق.م، وقد كشف أتباع «آشور بانيبال» في الدلتا أن المصريين كانوا يتآمرون مع «تهرقا» على الملك «آشور بانيبال»، غير أن مؤامرتهم كشف أمرها، وبعد أن أرسل «نكاو» أحد ملوك الدلتا إلى «نينوة» أسيرًا عفا عنه وأعيد إلى مقر حكمه في «سايس»، وكذلك نصب ابنه ملكًا على «أتريب» تابعًا «لآشور»، وفي هذه الفترة من حكم «آشور بانيبال» مات «تهرقا».

ولوحة «تانوت آمون» التي نحن بصددها تقص علينا سير الأحوال السياسية في مصر العليا خلال المدة الأخيرة من حكم «تهرقا» وخلال حكم «تانوت آمون» القصير.

وقد ظهر أن «تانوت آمون» كان مشتركًا في حكم البلاد مع «تهرقا» في السنة الأخيرة من حكمه حوالي عام ٦٦٣ق.م، وهي السنة الأولى من حكم «تانوت آمون» حيث توج فيها ملكًا على البلاد مصرها وسودانها منفردًا، وقد ادعى في رؤيا رآها في أثناء نومه قبل أن يذهب إلى «نباتا» أنه سيستولى كذلك على الأرض الشمالية «الدلتا» التي كانت وقتئذٍ في يد «الآشوريين».

وبعد أن عاد من «نباتا» أخذ في استرجاع بلاد الدلتا؛ فاستولى على «منف»، ومن المحتمل أنه ذبح «نكاو» أمير «سايس» في ساحة القتال، وقد جاء ذكر هذه الموقعة في لوحة «تانوت آمون» ولكن لم يأتِ فيها ذكر ذبح «نكاو»، غير أن هذا محتمل على حسب ملحوظة جاءت في «هردوت» وقد كان أول من فطن إلى معناها المؤرخ «أدوردمير»[٥] وهي أن «نكاو» قد ذبحه ملك كوش، ولكن «هردوت» ظنه الملك «شبكا» لا «تانوت آمون» غير أنه على حسب ما جاء في «مانيتون» نفهم أن موت «نكاو» لا بد كان قد حدث في عام ٦٦٣ق.م؛ أي في السنة التي قام فيها «تانوت آمون» بحملة على «منف».

وعلى الرغم من أنه لم يكن في مقدور «تانوت آمون» أن يخضع ملوك الدلتا فقد ادعى أنهم خضعوا له وقدموا بأنفسهم فروض الطاعة، ثم حكم بعد ذلك في منف بوصفه ملكًا اسميًّا على كل مصر، وعند هذه النقطة تختم قصة اللوحة، ومن الغريب أن وجود الآشوريين في البلاد قد تجوهل في متن اللوحة كلها، ثم إنه لم يعثر فيه كذلك على النهاية المحزنة لحكم

«تانوت آمون» في مصر عندما قام «آشور بنيبال» بحملته الثانية عام ٦٦١ق.م وضرب طيبة تمامًا كما سنتحدث عن ذلك بالتفصيل:

- **وصف اللوحة وترجمتها:** تشاهد في الجزء الأعلى من اللوحة منظرًا منحوتًا مثل في أعلاه قرص الشمس المجنح يحيط به صِلَّان، وفي أسفله نشاهد على اليمين آلهًا برأس كبش على رأس قرص وريشتان ويقبض بيديه على سيف، وهذا الإله هو «آمون رع» رب تيجان الأرضين في الجبل المقدس «أي جبل برقل» وهو يقول: «إني أعطيك كل الحياة والسلطة»، ويقف أمام الإله الملك «تانوت آمون» مرتديًا قميصًا ومعلقًا في حزامه ذيلًا طويلًا من جهة اليسار وينتعل حذاء، ويقدم تعويذة في صورة صدرية لوالده آمون وخلفه تقف زوجه الأخت الملكية سيدة «تاستي» «قلهاتا»، وهي تلعب بالصناجة بيدها اليمنى وتصب القربان بيدها اليسرى.

وعلى اليسار يشاهد إله في صورة إنسان على رأسه قرص الشمس وريشتان، ويقبض بإحدى يديه على الصولجان وبالأخري على رمز الحياة، وهو يلبس كالإله الآخر قميصًا يصل إلى ركبتيه، ومعلق في حزامه ذيلًا طويلًا، وهذا الإله هو «آمون رع» رب تيجان الأرضين القاطن في الكرنك يقول للملك: «إني أمنحك كل الحياة والسلطة»، وأمامه يقف «تانوت آمون» يقدم رمز العدالة لوالده آمون خالقه ومعطي الحياة، وخلفه تقف أخته وزوجه ملكة مصر «بيعنخي أرتي» التي تصب القربان بيدها اليمني وتلعب بالصناجة بيدها اليسرى.

وبين المنظرين السالفين سطر عمودي من النقوش، وتقرأ في السطر الذي يتبع المنظر الأيمن ما يأتي: نطق: إني أمنحك أن تظهر ملكًا للوجهين القبلي والبحري على عرش «حور» الأحياء مثل «رع» أبديًّا.

وفي السطر الذي على الجهة اليسرى نقرأ: نطق: إني أعطيك كل الأراضي وكل البلاد الأجنبية وأقوام الأقواس التسعة مجتمعة تحت قدميك أبديًّا.

- **الترجمة:** (١) إنه الإله الطيب (= الملك) في اليوم الذي ولد فيه، وإنه الإله «آتوم» للشعب، رب القرنين، وحاكم الأحياء، والأمير القابض على كل أرض، المظفر بالقوة في يوم المعركة، والذي يواجه المقدمة في يوم الطعان، ورب الشجاعة مثل «منتو» العظيم القوة مثل الأسد المفترس العينين، العادل القلب، مثل «حسرت» (تحوت)، ومن يعبر البحر في طلب قرنه ومطاردًا مؤخرة عدوه (؟)، لقد استولى على هذه الأرض ولا أحد يحاربه، ولا أحد يقف مواجهًا له، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «باكارع»، ابن الشمس «تانوت آمون»، محبوب آمون صاحب «نباتا».

- **الحلم:** في السنة الأولى التي توج فيها ملكًا … (٤) رأي جلالته حلمًا ليلًا، فرأى ثعبانين: واحد على يمينه والآخر على يساره.

- **تفسير الحلم:** واستيقظ بعد ذلك جلالته ولم يجدهما، فقال جلالته: من أين حدث لي هذا (؟)، وعندئذ أجابوه قائلين: إن أرض الجنوب ستكون لك، وستستولى على أرض الشمال، والإلهتان تضيئان على جبينك «أي الإلهة «نخبيت» والإلهة «وازيت»»، وتعطى الأرض طولًا وعرضًا، ولا يقاسمك إياها آخر.

- **الحلم يحقق:** وعندما توج جلالته على عرش «حور» في السنة الأولى خرج جلالته من المكان الذي كان فيه كما خرج «حور» من بلدة «خب» أو خميس، «وهي مكان كوم الخبيزة الحالية الواقعة في شمال الدلتا، وهو المكان الذي يقال إن «إزيس» ولدت فيه «حور»» وذهب من … في حين أنه (٧) أتى إليه ملايين ومئات الآلاف خلفه، فقال جلالته: تأمل إن الحلم صحيح، إنه «أي الحلم» مفيد لمن يضعه في قلبه وشر لمن لا يفهمه.

- **تأكيد تفسير الحلم على يد آمون «نباتا»:** ثم وصل جلالته إلى «نباتا» في حين لم يقف أمامه أحد «معارضًا له»، ووصل جلالته إلى معبد «آمون» صاحب «نباتا» القاطن في الجبل المقدس، وكان قلب جلالته فرحًا عندما رأى والده «آمون رع» رب طيبة القاطن في الجبل المقدس «برقل»، وأُحضرت الأكاليل لهذا الإله الطيب.

- **عيد «آمون» صاحب «نباتا»:** بعد ذلك أظهر بهاء جلالته «آمون» صاحب «نباتا»، وعمل له قربات عظيمة، وأسس له وقفًا يتألف من ستة وثلاثين ثورًا وأربعين آنية من جعة «عش» ومائة ريشة.

- **السفر إلى مصر:** ثم انحدر جلالته في النيل إلى أرض الشمال ليرى «آمون» الذي أخفى اسمه من الآلهة، ووصل جلالته إلى «الفنتين» (أسوان)، ثم عبر جلالته «الفنتين» ووصل إلى معبد «خنوم رع» رب الشمال، وأقام له قربات عظيمة فقدم خبزًا وجعة لآلهة الكهفين «اللذين ينبع منهما النيل»، وأرضى «نون» (أي النيل) في كهفه.

- **إقامته في «طيبة»:** ثم انحدر جلالته في النيل إلى «طيبة» وساح جلالته إلى داخل «طيبة» ودخل جلالته معبد «آمون رع» رب تيجان الأرضين، ثم أتى إلى جلالته الكاهن العظيم للتصميمات، والكهنة غير الرسميين لمعبد «آمون رع» رب تيجان الأرضين، وحملوا له أكاليل «لآمون» الخفي الاسم، وكان قلب جلالته منشرحًا عندما رأى هذا المعبد، وطلع «آمون رع رب طيبة» ببهاء وأقيم له عيد عظيم في كل الأرض.

- **السفر إلى «منف»:** ثم انحدر جلالته نحو الشمال، وكانت الابتهالات على اليمين وعلى الشمال «تبعث» من الشعب قائلين: مرحبًا بمقدمك، مرحبًا إن حضرتك في سلام لتحيي الأرضين ولتقيم المعابد التي تهدمت ولتنصب تماثيلها في محاريبها، ولتقدم قربانًا للآلهة والإلهات وقربات جنازية للمنعمين «المتوفين»، ولتضع الكاهن المطهر في مكانه، ولتعطي كل شيء من القربان المقدس، والذين في قلوبهم حرب قد صاروا في سرور.

- **الاستيلاء على «منف»:** وعندما وصل جلالته إلى «منف» خرج عليه هناك أولاد الثورة ليحاربوا جلالته، وعندئذ أوقع مذبحة عظيمة بينهم وعدد قتلاها لا يحصى، واستولى جلالته على منف، ودخل معبد «بتاح» (القاطن) جنوبي جداره، وقدم قربانًا «لبتاح سكر»، وأرضى الإلهة «سخمت» العظيمة التي تحبه.

- **إقامة مبانٍ «لآمون» في «نباتا» شكرًا على النصر الذي أحرزه:** وكان قلب جلالته فرحًا ليقيم آثارًا لوالده «آمون» صاحب «نباتا»، وأصدر جلالته أمرًا خاصًّا بذلك إلى النوبة ليقام

له قاعة جديدة لم يُبْنَ «مثلها» في عهد الأجداد، وأمر جلالته أن تقام بالأحجار المغشاة بالذهب، وألواحها من خشب الأرز ومعطرة بمر بلاد «بنت»، ومصراعا بابها من السام، وضبتها «مزلاجها» من القصدير، وأقام لنفسه قاعة أخرى في المخرج الخلفي لجمع لبن حيواناته التي تعد بعشرات الآلاف والآلاف والمئات والعشرات، ولم يعرف عدد العجول الصغيرة التي مع أمهاتها.

- **الذهاب إلى الدلتا ومقاومة مدنها:** والآن بعد هذه الأشياء ساح جلالته شمالًا ليحارب رؤساء أهل الشمال، وعندئذ دخلوا معاقلهم مثلما تزحف الحيوانات إلى أحجارها، ومضى جلالته عدة أيام أمامهم ولكن لم يخرج واحد منهم لمحاربة جلالته.

- **الملك يعود إلى «منف»:** والآن انحدر جلالته في النهر نحو البيت الأبيض «منف» وجلس في قصره يتشاور مع قلبه كيف يجعل جيشه يحيط بهم.

ثم قال جيشه: إن واحدًا أتى ليخبره قائلًا: إن هؤلاء العظماء قد أتوا إلى المكان الذي فيه جلالته، وقالوا: يا مليكنا، فقال جلالته: هل أتوا ليحاربوا؟ أو هل أتوا ليخضعوا؟ وإذن سيعيشون من هذه الساعة، فقالوا لجلالته: لقد أتوا ليخضعوا للملك سيدنا، فقال جلالته: أما عن سيدي هذا الإله الفاخر «آمون رع رب تيجان الأرضين» القاطن في الجبل المقدس، الإله العظيم الفاخر، ومن اسمه معروف، فإنه ساهر على من يحبه ويعطي القوة لمن يواليه، ومن يحمل مشاريعه «آراءه» لا يضل، ومن يرشده لا يخطئ، تأمل لقد أخبرنى بها ليلًا ورأيتها نهارًا، وقال جلالته: أين هم في هذه الساعة، فقالوا لجلالته: إنهم هنا منتظرون في القاعة.

- **الملك يقابل الأمراء على باب القصر:** وبعد ذلك خرج جلالته من قصره كما يضيء رع في مسكنه اللامع، فوجدهم منبطحين على بطونهم يقبلون الأرض أمام جلالته، وقال جلالته: تأمل إنه حق ما نطق به، وهو كلمة تدبيره، تأمل إنه يعلم ما سيحدث، إنه قرار الإله وعلى ذلك وقع، وإني أقسم بقدر حب الإله «رع» لي، وبقدر إكرام «آمون» لي في بيته، تأمل لقد رأيت هذا الإله الفاخر صاحب «نباتا» يقطن في الجبل المقدس، وعندما كان واقفًا بجانبي

قال لي: إني قائدك في كل طريق، ويمكن ألا تقول: ليت كان عندي … «يلحظ هنا أن خاتمة كلام «تانوت آمون» ممزقة وغامضة إلى حد بعيد، وما تبقى من كلامه فيه ما يكفي للدلالة على أنه كان لا يحتوي إلا على جمل تدل على النصر وليس لها أهمية تاريخية، ومن الواضح أنه يحدث الرؤساء الخاضعين لسلطانه بأن خضوعهم ما هو إلا إنجاز لوعد «آمون» له» … (٣٥) … وبعد ذلك أجابوه قائلين: تأمل إن هذا الإله قد كشف لك البداية وقد أنجز لك النهاية في سعادة، تأمل لا تفعل … ما يخرج من فمه يا أيها الملك يا سيدنا، وبعد ذلك قال الأمير الوراثي وحاكم «سبد» (صفط الحناء) العظيم «بكرور»: إنك تذبح من تريد وتدع من تريد يعيش … وقد أجابوه في نفَس واحد: أعطنا النفس يا رب الحياة ومن بدونه لا حياة، دعنا نخدمك مثل العبيد الذين هم رعايا لك كما تقول في الأول في اليوم الذي توجت فيه ملكًا، وقد انشرح قلب جلالته عندما سمع هذه الكلمة وأعطاهم خبزًا وجعة وكل شيء طيب.

- **صرف حكام الدلتا:** وبعد مضى بضعة أيام بعد هذه الحوادث ومنح كل شيء بكثرة … قالوا: لماذا لا نزال هنا يا أيها الملك يا سيدنا؟ فقال جلالته: إلى أين؟ فقالوا لجلالته: دعنا نذهب إلى مدننا حتى نأمر عبيدنا لتحضر جزيتنا إلى البلاط، فسمح لهم جلالته بالذهاب إلى مدنهم وأصبحوا رعاياه.

- **حكمه القصير في منف:** وقد ذهب الجنوبيون إلى الشمال وذهب الشماليون إلى الجنوب، إلى المكان الذي كان فيه جلالته، حاملين كل شيء طيب من أرض الجنوب، وكل مؤن أرض الشمال لإشباع قلب جلالته، وذلك عندما ظهر ملك الوجه القبلي والوجه البحري «باكارع» ابن «رع» «تانوت آمون» له الحياة والسلطة والصحة، على عرش «حور» سرمديًّا.

وهكذا ترى من محتويات هذه اللوحة أنها لا تشير إلى أي حرب قامت بين مصر «وآشور»، بل لا نجد في غيرها من نقوش هذا العصر في المتون المصرية ما يشير من قريب أو من بعيد إلى نشوب حرب بين «آشور» ومصر، ولا غرابة في ذلك؛ فإن ملوك مصر لم يتحدثوا قط عن أية حروب هُزموا فيها قط في كل أطوار تاريخهم، ولم يشذ بطبيعة الحال

«تانوت آمون» وأسلافه، وكل ما نعرفه عن الغزو الآشوري لمصر وصل إلينا من المتون الآشورية، وسنفرد لذلك بابًا خاصًّا كما ذكرنا من قبل.

(٢) ولدينا متن من عهد هذا الملك مؤرخ بالسنة الثالثة اليوم الثاني من أيام النسيء لكاهن يدعى «بدي خنسو» يتحدث فيه عن دخوله في زمرة كهنة «آمون»، وهذا الرجل كان يشغل وظائف كهانة أخرى، فكان كاهنًا للإله «خنسو» والإلهة «موت» والإله «منتو»، وهو من أسرة عريقة في الكهانة؛ إذ نجد أفرادها منذ سبعة عشر جيلًا يشغلون وظيفة الكهانة، وهذا المتن عثر عليه في الأقصر في مبنى الكنيسة القبطية القديمة، وقد نزع الحجر من مبنى الكنيسة ونقل إلى متحف برلين، وأهميته كما قلنا تنحصر في أنه مؤرخ بالسنة الثالثة من عهد الفرعون «تانوت آمون» وهو من الحجر الجيري الأبيض، وهاك النص الذي جاء عليه:

> (١) السنة الثالثة اليوم الثاني من أيام النسيء، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «با كارع» ابن رع «تانوت آمون» معطي الحياة أبديًّا وسرمديًّا، (٢) في هذا اليوم عين «في وظيفته» للإله «آمون» صاحب الأقصر الثور صاحب الساعد المرفوع (٣) منجب الآلهة، الكاهن والد الإله والكاهن سماتي «الذي يقوم بتحضير العقاقير للاحتفال بدفن الإله وإحيائه»، وثور أمه وكاهن الشهر لمعبد «آمون» الأقصر للطائفة الأولى (٤) وللطائفة الرابعة من الكهنة، وكاهن الشهر لبيت الإلهة «موت» العظيمة ربة «أشرو» للطائفة الرابعة، وكاهن (٥) الشهر لمعبد الإله «منتو» رب مدينة «أرمنت» للطائفة الثانية ولمعبد «خنسو» التابع لآمون الأقصر لأجل الطائفة الرابعة، المسمى «بدي خنسو ورسنب» ابن الكاهن والد الإله … وكاتم سر (٧) بيت «موت» العظيمة ربة «آشرو» لأجل مدة أربعة أشهر، وكاهن الشهر لهذا المعبد لأجل الطائفة الرابعة (٨) «بدي خنسو موت» المرحوم.

ثم يأتي ذكر سلسلة أفراد يجب أن تقرأ من أسفل إلى أعلى:

- (١) ابن مثيله «في الألقاب» مين مس المرحوم صاحب التبجيل.
- (٢) ابن مثيله «وننفر» المرحوم.
- (٣) ابن مثيله «عش خت» المرحوم.
- (٤) ابن مثيله «حور» المرحوم.
- (٥) ابن كاهن «آمون» الكرنك وكاهن «خنسو» باشري أمن مس المرحوم.
- (٦) ابن مثيله «نس حر عن» المرحوم.
- (٧) ابن مثيله «زت موت أوف عنخ» المرحوم.
- (٨) ابن مثيله «عنخ موت» المرحوم.
- (٩) ابن مثيله «حور» المرحوم.
- (١٠) ابن مثيله خادم بيت آمون «زت موت أوف عنخ» المرحوم.
- (١١) ابن كاهن «منتو» رب طيبة وكاهن «موت» ربة السماء «حور» المرحوم.
- (١٢) ابن مثيله «بدي موت» المرحوم.
- (١٣) ابن مثيله «نسر با حر عن» المرحوم.
- (١٤) ابن «بدي موت» المرحوم «ذكرت ألقابه فيما سبق».
- (١٥) «بدي خنسو ورسنب» (ذكرت ألقابه).

وسلسلة النسب هذه تؤكد لنا أن ما قاله «هردوت» عن توارث الوظائف في الأسرات صحيح، ويرجع إلى أزمان سحيقة إلى أن أصبحت تلك الوظائف حقًّا مكتسبًا يتوارثها الابن عن الأب،[٦] وسلسلة نسب هذا المكان ترجع به إلى الدولة الوسطى.

(٣) ويوجد بالمتحف المصري لوحة اشتراها «لجران» من أحد تجار الآثار بالأقصر عثر عليها إما في الكرنك أو في مدينة «هابو» في أثناء البحث عن السباخ كما في العادة.

وهذه اللوحة مصنوعة من الحجر الرملي الرديء النوع، ويبلغ ارتفاعها أربعين سنتيمترًا وعرضها اثنين وثلاثين سنتيمترًا، وهي مستديرة في أعلاها، والجزء الأسفل منها فُقِدَ، ويشمل ما تبقى منها أحد عشر سطرًا، وتنحصر أهمية اللوحة في أنها مؤرخة بالسنة الثامنة من عهد الملك «تانوت آمون» وهو آخر تاريخ معروف لنا عن حكمه.

وقد جاء في هذا المتن أن مغنية آمون المسماة «عنخنسا تفس» ابنة الساعي «بدي إزيس» قد سلمت عشرة أرورات من الأرض العالية من أملاك أناس فقراء من إقليم آمون، إلى الكاتب وتشريفاتي المتعبدة الإلهية المسمى «ني أمن تكنف نفو» ابن «قم-أمن»، الذي يعلن أنه تسلم الثمن، وهذا العقد قد كتبه فرد يدعى «خنسو» بن نوتي سفينة آمون المسمى «أريت حور رو» بن «بدو أوبت».

والظاهر أن هذا المتن ينتهي باللعنة على كل من يخل بشروط هذا العقد.[٧]

(٤) ومن أهم الآثار التي خلفها وراءه الجزء الذي أكمله في مقصورة معبد «أوزير بتاح» بالكرنك، فقد وجد اسمه مرات عدة على جدران هذه المقصورة.[٨]

(٥) ولدينا لوحة غريبة في بابها اشتريت من الأقصر[٩] باسم الملك «تانوت آمون»، وهذه اللوحة قطعة من الحجر الرملي طولها ٥٦ سنتيمترًا وعرضها ٣٦ سنتيمترًا، وقد مثل فيها الملك «تانوت آمون» يضمه إلى صدره الإله «أوزير بتاح» وخلف الإله عمود من الرموز الكبيرة، وهذه الرموز تشغل كل الجزء الأيمن من اللوحة، ومن ثم كان لها أهمية خاصة، ومثل هذه الرموز نشاهدها على آثار أخرى، ويكون حجمها دائمًا أكبر من الإشارات الهيروغليفية المعتادة، والواقع أنها ليست متنًا، بل تؤلف جزءًا من المنظر المرسوم نفسه لا تفسير له، وهذه الرموز لم نصادفها في المناظر الدينية للدولة القديمة، ولكن نجد أنها قد بدأت تظهر في عهد الدولة الوسطى في المناظر، ومنذ الأسرة الثامنة عشرة نجد سلسلة منها في المناظر، ثم بقيت مستعملة حتى العهد الروماني وهي رموز، فنجد في كل هذه

الآثار صور هذه الرموز في عمود كامل من النقوش على وجه عام مرسوم خلف الملك، وذلك في لحظة تؤدى فيها شعيرة اللف حول المحراب عند «تدشين» المعبد (تأسيس المعبد)، على أن هذه الرموز لم تكن مخصصة فقط لهذا الغرض، بل توجد على وجه عام في المتون السحرية، وقد درس هذه الرموز الأستاذ «جكييه»[١٠] واستخلص منها أنها تمثل السائل السحري الذي يحيط به الملك المعبد الجديد عند تأسيسه.

(٦) ووجد لهذا الفرعون في معبد آمون بجبل «برقل» (B. 500) في الشمال من البوابة الأولى تمثالان واحد منهما في متحف «بوستون»، والثاني في متحف مروي.[١١]

(٢) مقبرة الملك «تانوت آمون»[١٢]

عثر على مقبرة الملك «تانوت آمون» بن الملك «شبتاكا» في جبانة «الكورو».

ويحتمل أن المبنى الذي كان فوق حجرات الدفن هرمي الشكل؛ إذ في الواقع لم يوجد من آثار هذا البناء العلوي إلا خندق الأساس، وتبلغ مساحته حوالي ٨٫٢٥ من الأمتار المربعة.

أما السور الذي كان حول هذا القبر فكان مقامًا من الحجر الرملي ولم يبقَ منه إلا بعض أحجار من الجدار الجنوبي، كذلك بقي من المقصورة أو المعبد الجنازي التابع لهذا الهرم بعض قطع من الحجر الرملي من الجدار الشمالي، ومن المحتمل أن شكلها كان بسيطًا، ولم يعثر على أية ودائع أساس لهذه المقبرة.

أما حجرات الدفن السفلية فكان يصل إليها الإنسان بوساطة سلم أمام المقصورة، ويبلغ عدد درجاته أربعًا وثلاثين درجة، وقد وجد على كل درج في المتوسط تعويذتان «منات» في مكانها الأصلي وتعويذة منات كانت تنظم في عقد تلبسه الكاهنة في أثناء رقصها أمام الإلهة حتحور، وينتهي السلم إلى مكان مسطح يؤدي إلى باب بسيط مستدير أعلاه وجد أمامه الحجر الذي سد به،[١٣] وقد أزال منه اللصوص الحجر الأعلى، وهذا الباب يؤدي إلى حجرتين أولاهما مساحتها ٤ × ٣ مترًا وسقفها مسطح تقريبًا، ويصل إليها الإنسان بدرجة واحدة من المدخل وجدرانها ملونة ومنقوشة بكتابات[١٤] ورسوم جنازية.

أما الحجرة الثانية فمساحتها ٦ × ٤٫١٥ مترًا، وسقفها مقبب بعض الشيء، ويصل إليها بالنزول درجتين من باب الدخول، ولم يوجد فيها طوار لتابوت أو كوة، ويلحظ أن جدران هذه الحجرة قد وضعت عليها طبقة من الملاط لُوِّنت ورُسم عليها مناظر ونقوش، فعلى

الجدار الشرقي[١٥] نشاهد السماء بنجومها وفيها قرص الشمس تتعبد إليه القردة وأولاد آوى، وهي في سفينتها في رحلتها في أثناء النهار من الشرق إلى الغرب.

وعلى الجدار الغربي نشاهد نفس المنظر للشمس في رحلتها في أثناء الليل، وفي أسفل من هذا مناظر ونقوش خاصة بالروح والحساب على ما يُظن، وعلى[١٦] الجدار الشمالي،[١٧] متون لحماية المتوفى على لسان «أوزير» «وإزيس»، وفي أسفل من هذا مناظر من عالم الآخرة.

وعلى الجدار الجنوبي[١٨] نشاهد في أعلاه متونًا خاصة بإحياء المتوفى واستعادة أجزاء جسمه إليه، وفي أسفل هذا نشاهد جعرانا كان يطلب إليه المتوفى ألا يشهد عليه يوم الحساب، وهذا المتن كان يُكتب عادة على ظهر الجعران ويوضع في القبر على صدر المومية.

ومكان الدفن الأصلي وجد منهوبًا، وفيما بعد دفنت فيه امرأة ومعها ثلاث أوانٍ من الفخار، وقد وجدت عدة أشياء صغيرة من الذهب تركها اللصوص، وكذلك بعض أشياء نقش عليها اسم الملك «تانوت آمون» نذكر منها ما يأتي:

(١) ثلاثة نقوش على قطع من أواني الأحشاء،[١٩] وغطاء إناء أحشاء برأس قرد[٢٠] وآخر برأس صقر[٢١] وثالث برأس إنسان.[٢٢]

وكذلك وجدت تماثيل مجيبة من طرازين،[٢٣] بعضها مكتوب والبعض الآخر بدون كتابة، وقد وجد منها ما لا يقل عن ٣١٨ من الصنف الذي مثل في اللوحة.[٢٤]

هذا؛ وقد وجدت ثلاث قطع من الفخار المطلي من مائدة قربان نقش على حافاتها متن هيروغليفي، ونقش فيها كذلك طغراء «تانوت آمون»،[٢٥] هذا إلى أشياء أخرى كثيرة وجدت مبعثرة في أنحاء القبر مما تركه اللصوص[٢٦] ومن كل هذا نرى أن الدفن كان على الطريقة المصرية البحتة، ليس هناك فرق إلا في بناء المقابر الذي كان يختلف بعض الشيء.

(٣) جبانة خيل الملك «تانوت آمون»

وجد في جبانة «الكورو» الخاصة بالخيل مقبرتان لجوادين من جياد «تانوت آمون».

جواد «تانوت آمون»[٢٧] (١)

قبر هذا الجواد حفر في الجبل والصخر، وحفرته نهاياتها مستديرة، وقد وجد رأس الجواد متجهًا نحو الشمال الشرقي، ولم توجد سنادات داخلية لتحمي الجسم، وقد وجد هيكل الحصان بدون رأس ومزحزحًا من مكانه الأصلي، وقد وجدت معه بعض أشياء بالقرب من

مكان رأسه، وهي عين «وازيت» (أي تعويذة العين السليمة من الفخار الأزرق) هذا إلى خرزة كُرِيَّة من الفخار الأزرق، وكذلك إلى بقايا حامل ريشة من الذهب في صورة رأس صقر.[٢٨]

جواد «تانوت آمون»[٢٩] (٢)

تشبه الحفرة التي دفن فيها هذا الجواد حفرة الجواد السابق رقم ٢١٩ وقد وجد فيها عظام جواد مبعثرة عند مكان الرأس.

أما الأشياء التي وجدت في الحفرة فتنحصر في عين سليمة «وازيت» من الخزف المطلي الأزرق، وفي بعض خرزات على هيئة حلقات من الخزف الأزرق كذلك، ثم محارة للزينة مما نراه يستعمل ليزين حتى الآن سروج الخيل الحديثة عند العرب.

(٤) أسرة «تانوت آمون»

الملك «تانوت آمون» هو ابن الملك «شبتاكا» كما ذكرنا من قبل وأمه «قلهاتا».

قلهاتا

دفنت هذه الملكة في جنانة «الكورو» رقم ٥، وقبرها كومي الشكل، وقد وجد اسمها على جدران حجرة الدفن، كما وجد على تمثال مجيب، والمظنون أنها أخت «شبتاكا» وزوجه وأم (؟) «تانوت آمون».[٣٠]

زوجاته

(١) «بيعنخي أرتي»: وقبرها لم يعرف بعد، وهي أخت «تانوت آمون» وزوجه، ومن المحتمل أن اسم «أرتي» هو نفس اسم «بيعنخي أرتي»، وإذا كان الأمر كذلك فإن «أرتي» هذه تكون أخت «شبتاكا» وزوجه وقد تزوجت بعد موته ابن أخيها «تانوت آمون».

(٢) «مالاتاي»: يحتمل أنها زوج «تانوت آمون» وقد دفنت في جبانة «نوري» في المقبرة رقم ٥٩، ويوجد لها جعران قلب في متحف «بوستون» الآن.[٣١]

وبنهاية حكم «تانوت آمون» انتهى عصر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين في مصر؛ إذ في عهده استولى الآشوريون على مصر السفلى ومصر العليا، مما اضطر «تانوت آمون» إلى التقهقر إلى «نباتا» عاصمة ملكه القديمة، والواقع أننا نجد آثارًا لملوك العهد «الساوي»؛ أي الأسرة السادسة والعشرين على حسب ترتيب «مانيتون»، بعيدة جدًّا في الجنوب حتى

الشلال الأول، ومع ذلك بقي ملوك «كوش» يدعون أنفسهم بلقب ملك الوجه القبلي والوجه البحري فترة طويلة من الزمن على نقوشهم التي تركوها في بلادهم.

---

[١] راجع: Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Bablyonia Vol. II § 775.

[٢] راجع: James & Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, p. 297.

[٣] راجع: Mariette Serapeum Pl. 36.

[٤] راجع: Urkenden Der Alteren Athiopen Konige, p. 57.

[٥] راجع: Ed. Meyer, Geschichte des Alten Agyptens, p. 353.

[٦] راجع: Thesaurus, II, p. 1452–1454.

[٧] راجع: A.S.T, VII. P. 226.

[٨] راجع: De Rouge, Melange D. Archeologie Egyptienne, T. I, P. 14ff.

[٩] راجع: Rec. Trav, XXVII, P. 170-1; Ibid, XXIX, P. 5-6.

[١٠] راجع: Ibid,.

[١١] راجع: Reisner, J.E.A, Vol. VI. P. 251; A.Z, LXVI, P. 82.

[١٢] راجع: El Kurru, No. 16, P. 60.

[١٣] راجع: Ibid, Pl. XVII B.

[١٤] راجع: Ibid, Pl. XX.

[١٥] راجع: Ibid, Pl. XVIII A.

[١٦] راجع: Ibid, Pl. XV III B.

[١٧] راجع: Ibid, Pl. XIX.

[١٨] راجع: Ibid, XX.

[١٩] راجع: Ibid, Fig. 21 e.

[٢٠] راجع: Ibid, Pl. XXXVII E, 3.

[٢١] راجع: Ibid, Pl. XXXII E. 1.

[٢٢] راجع: Ibid, Pl. XXXVII E, 2.

[٢٣] راجع: Ibid, Pls. XLV, C; XLV, D.

[٢٤] راجع: Ibid, XLV, D.

[٢٥] راجع: Ibid, Pl. XXXII, B.

[٢٦] راجع: Ibid, P. 61-62.

[٢٧] راجع: El Kurru, 219 (6) Fig. 41.

[٢٨] راجع: Ibid, Fig, 41 b, P. 115.

[٢٩] راجع: El Kurru, 220 (6) Fig. 42.

[٣٠] راجع: J.E.A, Vol. 35, P. 144, No. 63.

[٣١] راجع: Ibid, P. 14 4, No. 391.

الشخصيات البارزة في عهد حكم الكوشيين لمصر

(١) منتومحات

تحدثنا في نهاية الجزء التاسع من مصر القديمة عن المتعبدات الإلهيات والدور الذي قمن به في تاريخ عهد الحكم الكوشي للبلاد المصرية في إقليم طيبة، كما تحدثنا عن مديري البيت لهؤلاء المتعبدات أمثال «حاروا» «وآخامون رو»[١] وهؤلاء المديرون للبيت كانوا في الواقع هم الحكام الإداريون لإقليم «طيبة» الذي كانت تسيطر عليه المتعبدة الإلهية بوصفها ملكة مستقلة في إقليمها، وكان يقوي ظهرها في إقليمها أنها كانت تنتخب دائمًا من الأسرة المالكة دون استثناء، وبذلك كانت لا تخاف على ضياع ملكها قط إلا إذا حدث انقلاب مفاجئ في أساس حكم البلاد، وقد أدى بها طمأنينتها إلى أنها كانت دائمًا تترك مقاليد الإدارة لمدير بيتها الذي كان دائمًا على ما يظهر ينتخب من بين أكفاء رجال الدولة، غير أننا نرى أن أبرز شخصية تولت حكومة إقليم طيبة عرفها التاريخ في العهد الكوشي هو «منتومحات» الذي كان يعد ملكًا تقريبًا.

وقد عاصر في العهد الكوشي الملكين «تهرقا» «وتانوت آمون» كما عاش في عهد الملك «بسمتيك الأول» حتى السنة التاسعة من حكمه، ولم نعثر بين ألقابه على ما يفيد أنه كان يلقب المدير العظيم للبيت للمتعبدة الإلهية، وعلى الرغم من أن ملامحه في تماثيله التي خلفها لنا تدل على أنه كان نوبيًّا إلا أنه في الواقع كان مصري المنبت، وقد شاءت الأقدار أن يلعب «منتومحات» دورًا هامًّا في تاريخ مصر وبلاد «كوش» قاطبة في تلك الفترة العصيبة من تاريخ وادي النيل، وذلك أنه عاش في فترة كانت مصر هدفًا لغارات الآشوريين الذين انتهى بهم الأمر إلى الاستيلاء عليها فترة وجيزة من الزمن، وقد قام «منتومحات» في تلك الفترة الحرجة من تاريخ أرض الكنانة بدور دقيق دل على فطنته وطول باعه في السياسة والإدارة، والواقع أن البلاد كانت تتنازعها في زمنه ثلاث سلطات مجتمعة، فالمصريون كانوا يريدون أن تبقى بلادهم حرة في أيديهم، والكوشيون كانوا يريدون السيطرة على مصر ويؤلفون منها مع بلاد «كوش» مملكة واحدة، والآشوريون كانوا يعملون على طرد الكوشيين من مصر والاستيلاء عليها لتكون جزءًا متممًا لإمبراطوريتهم التي أنشئوها في سوريا وفلسطين وبذلك لا تهددهم في ممتلكاتهم، وسنرى أن «منتومحات» الذي كان يعد حاكم إقليم طيبة ومصر العليا قاطبة في تلك الفترة قد قام بما أوتيه من مهارة وحسن سياسة بإرضاء هذه السلطات الثلاث كل في حينه على حسب الأحوال، لدرجة أنه كان أحيانًا يعد خائنًا لبلاده، ولكنا نرى أنه في النهاية قد خرج بالبلاد سالمة من بين تلك الدوامات المهلكة، وسار بها إلى بر السلام حاملة لواء الاستقلال فترة شيخوخته الشائخة؛ أي في عهد منقذها من الآشوريين، وأعني بذلك الملك «بسمتيك الأول» الذي عده الإغريق من بين عظماء

الفاتحين في العالم، ولا غرابة في ذلك؛ فقد دلت الكشوف الحديثة التي لا تزال تترى على أن «منتومحات» هذا ومعه أسرته قد لعبوا جميعًا دورًا عظيمًا في تاريخ البلاد في تلك الفترة، وسنحاول فيما يلي أن نضع سلسلة نسبه «في ذلك العصر الذي كان يهتم القوم فيه بتدوين أنسابهم» ومكانة كل فرد من أفراد أسرته الذين كانوا يشغلون أهم الوظائف في الدولة قبل نبوغه وبعده، ثم نستخلص بعد ذلك موجزًا عن حياة هذا البطل العظيم وما قام به هو وأفراد أسرته في إعلاء مكانة مصر.

(١-١) أسرة «منتومحات»

- **الوثيقة الأولى:** كان أول شخص عرف لنا من أسرة «منتومحات» هو جده «خامحور»، فقد وجد «لمنتومحات» هذا تمثال في خبيئة الكرنك عام ١٩٠٤م، وهذا التمثال منحوت في الجرانيت الرمادي، ويبلغ طوله مترًا وخمسة وخمسين سنتيمترًا، وهو يمثله ماشيًا، وتقاسيم وجهه ناطقة وتشبه تقاسيم السودانيين الحاليين بصورة تلفت النظر، ويرتدي شعرًا مستعارًا مموجًا ومقسمًا خصلات مضفرة ضفائر صغيرة أيضًا، ومن النقوش الكثيرة التي على التمثال وعلى قاعدته نعرف اسم والده واسم جده، كما نعرف منها كذلك الوظائف التي كان يشغلها.[٢]

وتتلخص نقوش هذا التمثال فيما يأتي:

عدَّد لنا أولًا «منتومحات» وظائفه ومناقبه الكثيرة التي كان يحملها، وهاك ترجمة بعض نقوش هذا التمثال كما نشرها الأثري لجران:[٣]

> (b) الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، والعظيم الحظوة، والعظيم المحبة، والذي يبعد الشر عن بيت الملك، والذي يدخل بقبول حسن في المكان الذي فيه الملك، والفم الذي يهدي في المدن والمقاطعات، والذي يسر حور «الملك» في بيته، والذي يرى المستقبل ويعرف حدود الزمن، والحارس الفريد لسيده في بيته، والعليم بكل أماكنه، والذي ينبغي أن يصعد إلى الإله، والممتاز فيما يخص عمل أصابعه (= أي الذي يديرها بامتياز) والكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة (= طيبة) «منتومحات» المبرأ.

كلام: لقد أنعشت الجائعين في مقاطعتي، ونجيت الذي ينام جوعًا، وأعطيت الخبز للجائع والماء للغرثان والملابس للعريان، يا كل كاهن مطهر أعطين ذراعك الماء والبخور عندما ترى تمثالي، ولا تفر مني ولا تذهب بعيدًا عني، وإن الماء وهواء الفم «أي الدعاء للمتوفى» أفيد لي من ملايين الأشياء الأخرى، وإنها مكسب لك في المستقبل … «غير مفهوم» والإنسان يفكر في مستقبله عندما يكون الميزان هنا «أي يحاسب في الآخرة».

قربان يقدمه الملك ويعطيه أوزير «خنتي أمنتي» الإله العظيم رب العرابة.

قربان من الثيران والطيور ومن كل شيء طيب وطاهر مما يأتي أمام الإله العظيم لأجل روح الكاهن الرابع لآمون المبرأ يقول: يا كهنة الساعة لمعبد آمون، وكل مواطن لكل مدينة، الذي سيمر بهذا التمثال، ليت آمون يكون عطوفًا عليك، وليت حبك يكون عظيمًا لدى الملك إذا قلت ألفًا من الخبز والجعة وألفًا من كل شيء طيب لأجل روح الكاهن الرابع لآمون، «منتومحات».

(h) إنه يقول يا أيها الكهنة وكل الكتاب الذين يمسكون المحبرة والمدربون في كلمات الإله، ليت إله مدينتكم يكون عطوفًا عليكم، وليت قلوبكم تكون مرتاحة مدة حياتكم في عطف مليككم عندما تقولون قربانًا يقدمه الملك ويعطيه آمون-رع رب عرش الأرضين من كل شيء في كل عيد للسماء والأرض، وليتك تتبع يوميًّا الإله وترى «آمون رع» في بهائه ومديحك يكون في فم الأحياء إلى أن تصل إلى التبجيل في سلام «الكلام هنا لا معنى له؛ لأن «منتومحات» كان قد مات وقتئذٍ»، وليت الإنسان يناديك لتأخذ القربان في المعبد.

(i) الكاهن الرابع وكاتب قربان معبد آمون «منتومحات» يقول: أنتم أيها الأحياء على الأرض اللذين سيمرون على هذا التمثال، قولوا قربانًا ملكيًّا يعطيه «منتو» رب طيبة، ليته يجعل تمثال هذا الكاهن الرابع «منتومحات» يبقى، وليته يمنح رأسه لعظامه، وعلى ذلك فقد قربت له، وليت اسمي يذكر حسنًا في المعبد فإن ذلك هو

> الحظوة من إله مدينته «أي الحظوة التي يلاقيها كل مرة الناس من إله المدينة»، وهذا الإله يفعل الطيب لمن يفعله، وإني أعرف أن مدحه هو الصدق، وإني فعلت ما هو مفيد للإله والطيب للناس.

التمثال رقم ٤٢٢٣٧: وهو للكاهن «منتومحات» كذلك، وهاك بعض ما جاء في نقوشه:

> الكاهن الرابع لآمون وحاكم الجنوب «منتومحات»: مرحبًا بك يا آمون الذي خلق الكل، والإله الذي برأ كل الكائنات والملك الممتاز وبداية الأرضين، والذي يعرف الأبدية التي أوجدها، والعظيم القوة والعظيم الرهبة، ومَن تماثيله متعددة أكثر من الآلهة الآخرين، والعظيم البطش والذي يطرد الشر، ومن قرنه ينطح المذنب، وإني أتكل على اسمك فإنه لي الطبيب الذي يطرد المرض من أعضائي والذي يبعد عني الألم المحرق … وإنه جعل حبي في قلوب الناس، وعلى ذلك فإن كل إنسان مال إلي، ومنحني وقتًا طيبًا في جبانة بلدي التي في قبضته، وجعل اسمي يبقى مثل نجوم السماء، وجعل تمثالي يبقى كأحد أتباعه، وروحي ستذكر في معبده نهارًا وليلًا، وشبابي سيجدد مثل القمر، واسمي لن يحذف بعد سنين أبد الآبدين بوصفي الكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة، «منتومحات» المنعم.

ومن نقوش هذين التمثالين أمكننا أن نعرف اسم والد «منتومحات» وجده: فهو «منتومحات» بن «نسبتاح» بن «خامحور».

وكان والده «نسبتاح» يحمل الألقاب التالية: كاهن آمون، وعمدة المدينة «طيبة».

أما جده «خامحور» فكان يلقب كاهن آمون، وعمدة المدينة، والوزير، وهاتان الوثيقتان كما سنرى تقدمان لنا ألقاب «منتومحات»، كما تضعان أمامنا اسمي والده وجده وألقابهما، ويلحظ هنا أن لقب الوزير الذي كان يحمله «خامحور» جد «منتومحات» لم يظهر أمامنا في أي وثيقة أخرى بصفة مؤكدة منسوبًا إليه، وعلى ذلك يجمل بنا أن نفحص الآثار

الأخرى التي نقش عليها اسم هذا الوزير «خامحور» حتى يمكن التعرف على أسماء أجداده، ولأجل الوصول إلى هذا الغرض لا بد أن نعرف أولًا أن اللقب «كاهن آمون» وحده كان لقبًا عاديًا جدًّا، ولكن من جهة أخرى نعرف أن اللقب «عمدة المدينة» «والوزير» كان لقبًا نادرًا جدًّا بالنسبة للقب «كاهن آمون»، وهذا يخول لنا إيجاد علاقات مؤكدة تقريبًا عند تتبعه، مثل العلاقة بين ألقاب الكاهن الأول والثاني والثالث والرابع لآمون.

وكذلك بين بعض الألقاب المدنية والدينية بالنسبة لحامليها وصلة بعضهم ببعض عند تتبع سلسلة نسب حامليها.

- **الوثيقة الثانية:** تمثال الوزير «خامحور»: لدينا تمثال لكاهن آمون والوزير «خامحور» جد «منتومحات» السالف الذكر، عثر على هذا التمثال في خبيئة الكرنك،[٤] وكان بطبيعة الحال منصوبًا في معبد الكرنك كغيره من التماثيل التي وجدت في هذه الخبيئة، وهو مصنوع من الجرانيت الرمادي، ويبلغ ارتفاعه خمسة وثلاثين سنتيمترًا، وقد مثل قاعدًا القرفصاء، وقد ذكر لنا «خامحور» هذا اسم والده «حورسا إزيس».

ويحمل «خامحور» الألقاب التالية: كاهن آمون، وعمدة المدينة، والوزير.

ويلقب «حورسا إزيس» والده بالألقاب التالية: كاهن آمون والكاهن الملقب أعظم الخمسة؛ أي الكاهن الأعظم للإله «تحوت» رب الأشمونين، والكاهن الملقب ابنه محبوبه، وهو لقب يطلق على الكاهن الأكبر للإله «حري شف» (حرسفيس) إله أهناسية المدينة،[٥] وهذان اللقبان النادران اللذان يحملهما «حورسا إزيس» والد «خامحور» يخولان لنا أن نقرر أن «حورسا إزيس» هذا هو صاحب التمثال رقم ٣٠٨ الذي عثر عليه في خبيئة الكرنك جنبًا لجنب مع تمثال «خامحور» رقم ٣٠٧ في ٨ مايو سنة[٦] ١٩٠٤.

- **الوثيقة الثالثة[٧]:** تمثال «حورسا إزيس»: هذا التمثال مصنوع من الجرانيت الأسود وارتفاعه ٥٠٥ ملليمترات، وقد مثل قاعدًا القرفصاء، ويقدم لنا المعلومات التالية: كان يحمل لقب كاهن آمون والكاهن الأكبر للإله «تحوت» والكاهن الأكبر للإله «حري شف» رب

أهناسية المدينة وكاهن آمون في الكرنك، أما والده المسمى «بدي أست» فكان يلقب كاهن آمون في الكرنك.

ويمكننا من الوثائق السابقة أن نضع سلسلة أجداد «منتومحات» بعد أن تأكدنا من كل فرد منهم ومن ألقابه البارزة أو النادرة:



- **الوثيقتان الرابعة والخامسة:** تمثالا «خامحور الثاني»[٨] «ورع ماخرو»:[٩] وجدت بعض هذه الأسماء السابقة على آثار أخرى، ونخص بالذكر هنا التمثالين السابقين، فنجد في نقوش التمثال الأول أسماء «خامحور» «وحورسا إزيس» «وبدي أست» وفي نقوش التمثال الثاني اسمي «خامحور» «وحورسا إزيس».
- **الوثيقة الرابعة**[١٠]**:** وتمثال «خامحور» الثاني ابن «رع ماخرو»: مصنوع من الجرانيت الرمادي وارتفاعه خمسة وثلاثون سنتيمترًا ومثل قاعدًا القرفصاء، ونستخلص من نقوشه سلسلة النسب والألقاب التالية:



- **الوثيقة الخامسة:** تمثال «رع ماخرو»: مصنوع من الجرانيت الأسود وارتفاعه ٢٦٥ ملليمترًا، وقد مثل قاعدًا القرفصاء، ومن نقوشه نستخلص سلسلة النسب والألقاب التالية:

خامحور الثاني (١) = الكاهن سما (محضر العقاقير للإله مين في طيبة؟).

|

رع ماخرو (٢) = خادم النور، كاتب معبد آمون وأوزير وعمدة المدينة
وكاهن «منتو» رب طيبة.

|

بهــرر (٣) = كاهن آمون وعمدة المدينة والوزير.

|

خامحور (٤) = كاهن آمون وعمدة المدينة والوزير.

|

حورسا إزيس (٥) = كاهن آمون وعمدة المدينة والكاهن الأعظم للإله تحوت والكاهن الأكبر
للإله حي شف رب أهناسية المدينة.

ونستخلص من الوثيقتين السالفتين؛ أي الرابعة والخامسة المعلومات التالية:

- (١) نلحظ: أولًا من نقوش تمثال «خامحور الثاني» وهو الوثيقة الرابعة أن سلسلة النسب «خامحور» «حورسا إزيس» «بدي أست» قد أضيف إليها اسم جديد وهو «عنخ وننفر»، ولما كان التمثالان الرابع والخامس قد صنعا بعد عهد «حورسا إزيس» بأربعة أجيال فإنه من المفهوم أن «خامحور» الذي صنعهما قد أضاف إلى ألقاب «حورسا إزيس» لقب الوزير، وهذا اللقب لم يكن موجودًا بين ألقابه في الوثيقتين الثانية والثالثة وهما اللتان يحتمل أنهما معاصرتان له، وسنرى في خلال بحثنا هذا ظهور بدعة منح المتوفين ألقابًا لم يكونوا يحملونها في مدة حياتهم الدنيوية، ولكن ذلك كان في بعض وثائق من نوع خاص وحسب، وكانت تمنح لهم تمجيدًا وتفاخرًا من الأحياء، وتلك عادة لا تزال موجودة في بلادنا حتى يومنا هذا.والواقع أن ما جاء في الوثيقتين الرابعة والخامسة يشير صراحة إلى سلسلة نسب فرعية لكل من «بهرر» «ورع ماخرو» «وخامحور الثاني». وسنفصل القول في هذا الفرع في فصل خاص هنا.

(٢) يلحظ أن الألقاب التي يحملها الجدان «بدي أست» «وعنخ ونفر» مبهمة جدًّا، مما لا يجعل أمامنا مجالًا لأن ننسب إليهما قرابة ما لأشخاص آخرين.

وكذلك الحال مع «حورسا إزيس».

ولكن لدينا لوحة من الخشب بالمتحف المصري لامرأة تدعى «تاباثات» (وهي الوثيقة رقم ٦٩ في هذا البحث) نجد في نقوشها أن الوزير «نسمين» كان والده يحمل اسم «حورسا إزيس» ويلقب كاهن آمون رع ملك الآلهة، وعمدة المدينة، والوزير.

ومن المحتمل أنه هو نفس والد «خامحور»، وعلى ذلك يكون الوزير «خامحور الثاني» بمثابة أخ للوزير «نسمين» بن «حورسا إزيس»، غير أنه لا يجب أن نخلط بينه وبين الوزير «نسمين الثاني» الذي يعد ابن «خامحور الأول» الأصلي.

أولاد «خامحور الأول» بن «حورسا إزيس»

جاء في الوثائق الأولى والرابعة والخامسة السالفة ذكر «منتومحات»، كما ذكر أن «بهرر» كان ابنًا «لخامحور الأول»، ومن جهة أخرى سنجد أن الوثائق الثامنة والعاشرة والحادية عشرة في هذا البحث تنسب إليه «نسمين الثاني» الذي كان يحمل لقبي عمدة المدينة والوزير، في حين أن الوثيقتين ٦٤ و٦٦ في هذا البحث تنسب إليه كاهن الإله «منتو» المسمى «بدي أمن» وسنحاول في الفصول التي خصصت هنا لدرس الأسرة التي كونها كل واحد منهم أن نضع البراهين التي حدت بنا إلى الاعتراف بأن أولاد «خامحور الأول» الأربعة جميعًا كانوا حقًّا أولاده، وسنذكر مع كل زوجه وأولاده.

وزيادة في الإيضاح يجب علينا قبل أن نبتدئ درس كل فرع من فروع الأسر التي أنشأها أولاد «خامحور الأول» أن نضع هنا قائمة مقارنة بالألقاب التي كان يحملها كل من هؤلاء الأربعة، وهذه القائمة ستجعل من السهل على الإنسان أن يعرف الوظائف والمكانة التي كان يحتلها كل منهم، فنلحظ لأول وهلة أن كلًّا من «بهرر» «ونسمين» قد شغل بالتوالي

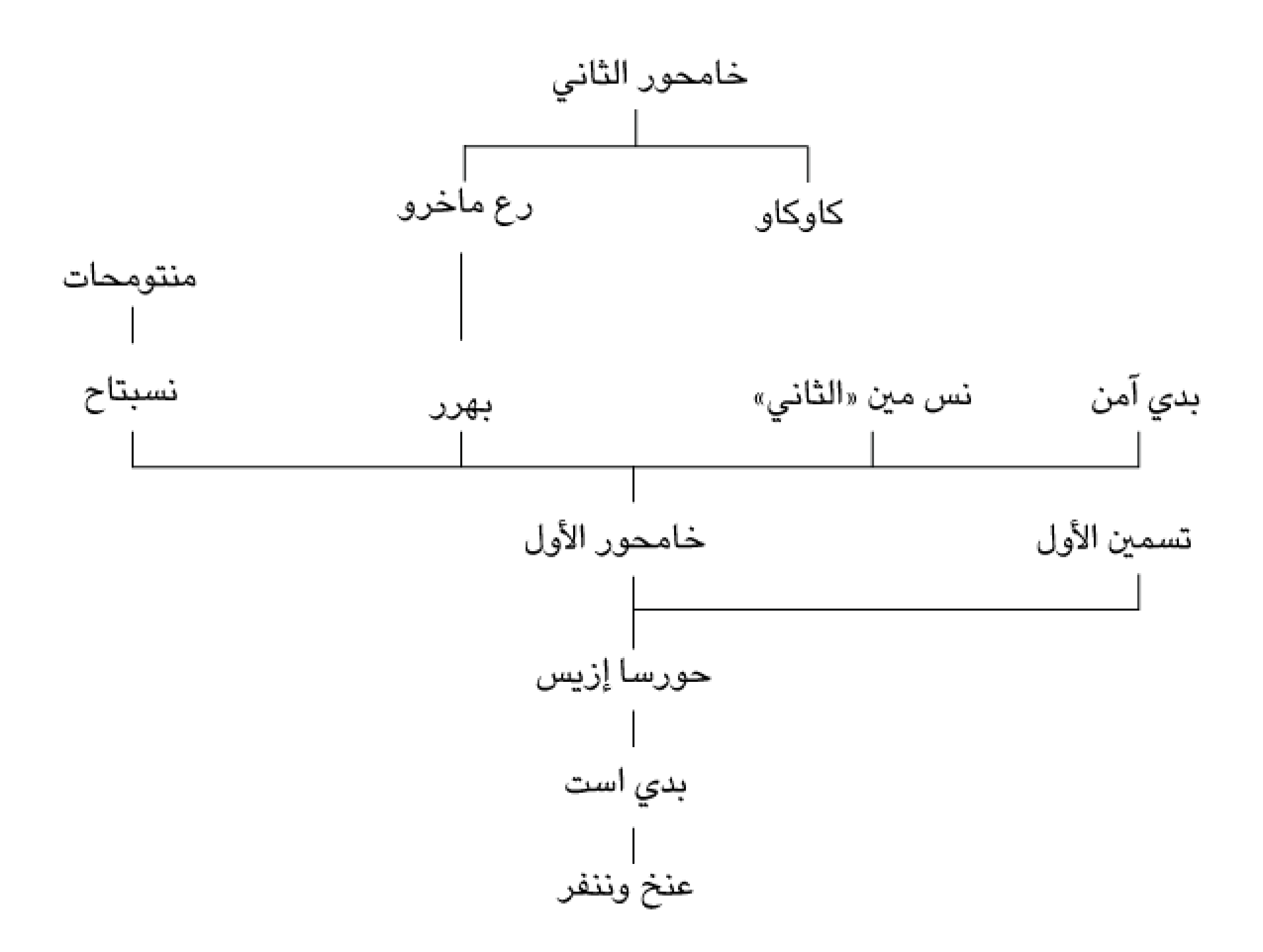
على ما يظن وظيفة وزير، وكذلك شغل كل منهما أعلى الوظائف التي كان يشغلها أفراد هذه الأسرة.

أما «نسبتاح» الذي سنرى أنه والد «منتومحات» فإنه يجيء بعدهم في المرتبة بوصفه عمدة المدينة «طيبة» وأخيرًا انخرط في سلك كهانة الإله «منتو» الذي لم يكن له على الأقل في هذه الفترة نفوذ كبير بالنسبة للإله «آمون رع».

هذه هي المعلومات المبهمة التي أسست عليها الفصول الأربعة الخاصة بهذا البحث المتعلق بالأسرة التي يؤلف منها جزءًا بطلنا «منتومحات» صاحب النفوذ العظيم في مصر في العهد الكوشي الذي نحن بصدده، ولكن يجب علينا أن نعترف هنا أنه ليس في استطاعتنا أن نقول على وجه التأكيد أي هؤلاء الأفراد الأربعة كان بكر «خامحور الأول» بن «حورسا إزيس» ومن الذي جاء بعده من أولاده من حيث السن.

وهاك القائمة الخاصة بأولاد «خامحور» الأربعة وألقاب كل منهم:

- (١) «بهرر»: كاهن آمون، وعمدة المدينة، والوزير، والأمير الوراثي، والحاكم، وكاهن آمون بالكرنك، وعمدة المدينة، والوزير، والقاضي، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد في الحب.
- (٢) «نسمين»: كاهن آمون، كاهن «آمون رع» ملك الآلهة، والأمير الوراثي، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، ومدير كل الملابس، وعمدة المدينة، والوزير، وكاتب الجيش، والنائب العظيم الذي يدخل المدينة (؟) ابن مثيله.
- (٣) «نسبتاح»: (أ) كاهن آمون، وعمدة المدينة، وكاتب قربان معبد آمون محبوبه والنائب العظيم. (ب) والأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، وكاهن الإله منتو رب طيبة، والنائب العظيم الذي يدخل المدينة.
- (٤) «بدي أمن»: (أ) كاهن الإله «منتو» رب طيبة، وكاتب أوقاف بيت آمون، والشاب (؟) وهاك سلسلة نسب الأسرة التي يؤلف منها «منتومحات» عضوًا:



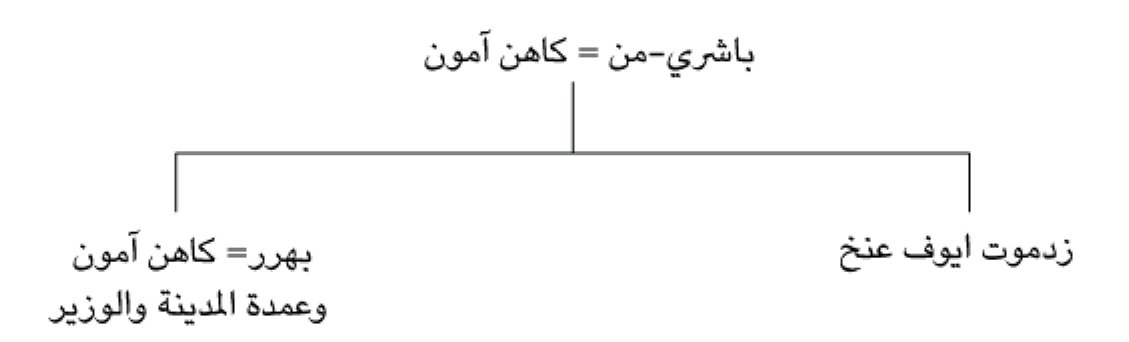
الجزء الثاني من البحث: «أولاد خامحور»

فرع «بهرر»: عرفنا من الوثائق الأولى والرابعة والخامسة أن كلًّا من «منتومحات» «وبهرر» «ورع ماخرو» «وخامحور الثاني» كانوا من أصل واحد، ولكن من فروع مختلفة ترجع للوزير «خامحور» الأول.

فنجد «بهرر» ومن بعده أخاه «نسمين» الثاني قد ورث كل منهما وظيفة «وزير» التي كان يشغلها «خامحور الأول»، غير أن نسل هذين الفرعين قد أخذ في النقصان شيئًا فشيئًا حتى اختفى، في حين نجد أن نسل فرع «نسبتاح» كان في بداية نشأته أكثر تواضعًا، ثم أخذ في الظهور وفي زيادة السلطان حتى أصبح في عهد «منتومحات» «ونسبتاح الثاني» عظيم السلطان ويتمتع بجاه كجاه الملك تقريبًا، أما أسرة «بهرر» فلا نعرف لها آثارًا خلافًا لتمثالي «رع ماخرو» «وخامحور الثاني»، وهما يمثلانهما قاعدين القرفصاء، إلا تابوتًا لأحد

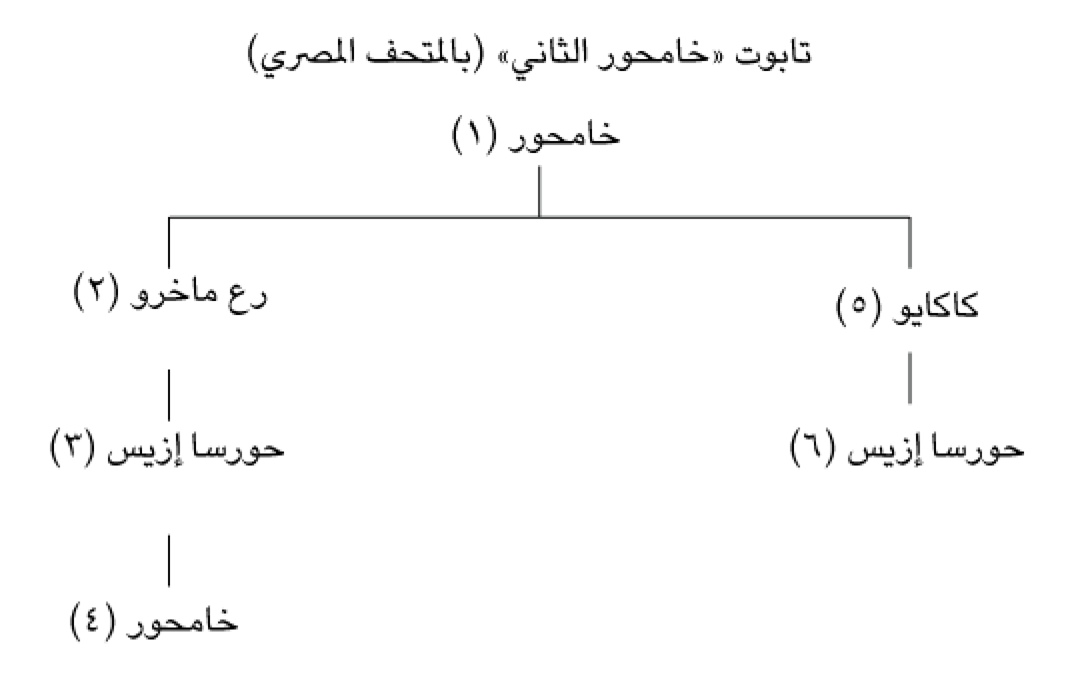
أولاد «بهرر»، هذا بالإضافة إلى غطاء تابوت، وهما ينسبان لخامحور الثاني صاحب التمثال الذي عثر عليه في الكرنك، وهو يؤلف الوثيقة الرابعة في بحثنا هذا.

- **الوثيقة السادسة:** تابوت «باشري-من»:[11] نجد اسم وألقاب «بهرر» وهي: كاهن آمون، وعمدة المدينة والوزير، وقد صادفناه في نقوش الوثيقتين الرابعة والخامسة، على تابوت «باشري-من» المحفوظ الآن بالمتحف المصري ونستخلص من نقوشه القائمة التالية:



- **الوثيقة السابعة:** دل درس متون الأنساب التي دونت على الآثار الجنازية الملونة، وبخاصة التوابيت واللوحات المصنوعة من الخشب من عهد الأسر من الثانية والعشرين حتى السادسة والعشرين، على أن المعلومات التي تقدمها لنا غالبًا تكون خاطئة ولو جزئيًّا بالنسبة للمعلومات التي نجدها على التماثيل واللوحات المنحوتة في الحجر، وهذه الظاهرة تفسر لنا دون عناء ما كان عليه ملون هذه التوابيت من سرعة وإهمال وحرية لإرضاء غرور أهل أصحاب التوابيت، فقد كان أقل تقليدًا من الحفار الذي كان عليه أن يعمل في مادة أكثر صلابة، كما كان عليه أن يخرج عملًا لم يكن مصيره أن يختفي في أعماق القبر، بل على العكس كان مآله أن يعرض في معبد أو في مكان عام فيراه كل الناس.

وغطاء تابوت «خامحور الثاني» يقدم لنا مثالًا حسنًا للأغلاط التي كان يرتكبها الملون الذي كان يلون الأثاث الجنازي:



وهاك ألقاب كل منهم على حسب ترتيبهم على هذا التابوت:

- (١) خامحور: الأمير الوراثي، والحاكم، وكاهن «منتو» رب طيبة والمعروف لدى الملك حقيقيًّا، والكاهن الباحث عن العين السليمة للإلهة «موت»[١٢] ربة السماء والكاهن سما (؟) في طيبة «وهو الكاهن الخاص بتحضير العقاقير كما يقول مونتيه لأجل تدليك الإله لإحيائه ثانية»، (راجع J.N.E.S, Vol. IX, P. 22ff) والنائب العظيم الذي يدخل المدينة، والكاهن والد الإله المحبوب ابن مثيله.
- (٢) رع ماخرو: مثل سابقه «في ألقابه» كاهن «منتو» رب طيبة، والحاكم، والأمير الوراثي، والحاكم، والكاهن المطهر العظيم الذي يعرف واجباته، والكاهن والد الإله محبوبه (؟)، والكاهن الذي يصب الماء، والكاهن الباحث عن العين السليمة للإلهة «موت».
- (٣) حورسا إزيس: الأمير الوراثي، والحاكم، وكاهن آمون في الكرنك، وعمدة المدينة، والوزير، وصاحب الستار، والمحترم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد في الحب.

- (٤) خامحور الأول: الأمير الوراثي، والحاكم، وكاهن آمون بالكرنك، وحاكم المدينة، وصاحب[١٣] الستار المحترم، وعمدة المدينة، والوزير.
- (٥) كاكايو: ربة البيت المحترمة المقربة من زوجها.
- (٦) حورسا إزيس: كاهن «آمون رع» ملك الآلهة.

والآن نعود لفحص الوثائق الرابعة والخامسة وغطاء تابوت «خامحور» الثاني، وهو الذي يؤلف الوثيقة السابعة، وعندما نقرن قائمة سلسلة النسب التي نستخلصها من نقوش غطاء تابوت «خامحور» الثاني «أي الوثيقة السابعة» بسلسلتي النسب اللتين استخلصناهما من نقوش تمثالي الوثيقتين الرابعة والخامسة، نجد خلافًا بينهما في نقطة هامة؛ إذ نشاهد في الوثيقتين الرابعة والخامسة أن «بهرر» بوصفه جد «خامحور» الثاني قد وضع ترتيبه الثالث في هاتين الوثيقتين، أما في الوثيقة السابعة فقد وضع مكانه «حورسا إزيس»، ومع ذلك فإن توحيد «خامحور» الذي جاء ذكره في الوثيقتين الرابعة والخامسة «بخامحور» الذي جاء ذكره في الوثيقة السابعة لا شك فيه، يضاف إلى ذلك أن السيدة «كاكايو» التي جاء ذكرها في الوثيقة السابعة هي نفس «كاو كاو» التي جاء ذكرها في الوثيقة الرابعة، على أنه كان يكفي أن يذكر في القائمة السابعة اسم كل من والد «خامحور الثاني» ووالدته لتتأكد من توحيد هاتين الشخصيتين مع اللتين ذكرتا في الوثيقة الرابعة، يضاف إلى ذلك أن اسم «رع ماخرو» هو اسم نادر، وأن هذه الحقيقة تتخذ حجة كذلك في توحيد هذين الاسمين، وفضلًا عن ذلك يبرز ثانية الوزير «خامحور الأول» بوصفه جدًّا بعيدًا «لخامحور الثاني» في الوثيقة السابعة كما هي الحال في الوثيقتين الرابعة والخامسة.

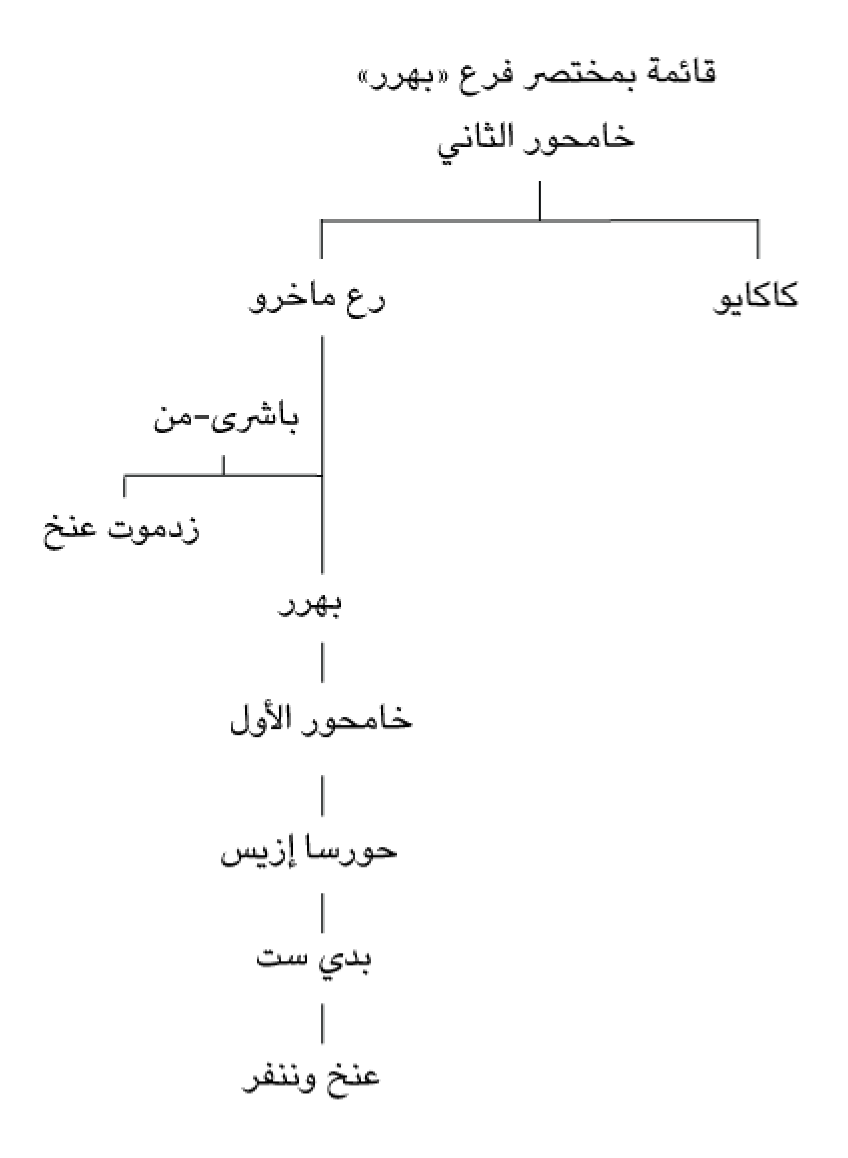
وأخيرًا نجد أن فحص الألقاب يدلنا على شيء قد يساعدنا في بحثنا هذا، ففي الوثيقتين الرابعة والخامسة نجد أن «بهرر» «وخامحور الأول» «وحورسا إزيس» يحملون لقب الوزير بعد لقب كاهن آمون، ومن جهة أخرى نجد أن كلًّا من «رع ماخرو» «وخامحور الثاني» لا يحمل هذين اللقبين بل يحمل لقب كاهن «منتو»، والواقع أنه يوجد في قائمة

غطاء التابوت؛ أي في الوثيقة السابعة، أن كلًّا من «خامحور الأول» «وحورسا إزيس» فقط يحمل اللقبين كاهن آمون والوزير.

وهذه الحقائق السابقة كلها تدفعنا إلى الاعتقاد بتوحيد القوائم الثلاثة؛ أي القوائم الرابعة والخامسة والسابعة، وأنه يجب علينا أن نبحث فيما إذا كان اسم «حورسا إزيس» يوجد بطريق الخطأ في مكان «بهرر» أو هو موحد معه.[١٤]

وأول فكرة تخطر على البال في هذا الموضوع هي أن «بهرر» هذا هو اسم ثانٍ كان يدعى به «حورسا إزيس»، وقد ذكرنا أمثلة على ذلك في مواضع مختلفة (راجع مصر القديمة الجزء الخامس).

ومن الجائز كذلك أن كاتب قائمة غطاء التابوت قد خلط بين أجداد «خامحور الثاني» فوضع «حورسا إزيس» الذي كان يجب أن يحتل الدرجة الرابعة في القائمة بين الأجداد فاحتل المكانة الثانية؛ أي مكان «بهرر».



على أنه من المحتمل أن هذا لم يكن له إلا أهمية نسبية، وأن ما كان قد طلبه نسلهم من الرسام الذي لون التابوت أو وضع شجرة النسب عليه، هو أن يعظم المتوفى وأجداده بألقاب فخمة عديدة أكثر من التي كانوا يحملونها في مدة حياتهم فعلًا، ولا شك في أن من يقرن القوائم الثلاث التي استخلصت من الوثائق الرابعة والخامسة والسابعة، يجد أن مؤلف متن غطاء تابوت «خامحور الثاني» قد قام بأداء ما طلب إليه خير قيام، ولا غرابة في ذلك؛ إذ إننا نجد في عهدنا الحالي هذا الاتجاه، فنجد حتى عند إعلان وفاة فرد على صفحات الجرائد أن أهله يضفون عليه ألقابًا لم يكن يتمتع بها في مدة حياته، فكم من مرة يعلن على صفحات الجرائد وفاة فلان بك وهو لا يحمل هذا اللقب رسميًّا، وقد جاءت

الجمهورية وأبطلت كل الألقاب، فأبطلت هذه العادة المتأصلة في نفوس الشعب من أقدم العهود.

الجزء الثاني: أولاد «خامحور»:[١٥] فرع «نسمين الثاني» ابن خامحور الأول.

قبل الخوض في هذا الموضوع تجب الإشارة إلى أن النتائج التي وصلنا إليها في هذا الفصل وفي الفصل الخاص بفرع «نسبتاح» لا تشبه النتائج التي استخلصها كل من «مسبرو» وبييه Baillet في بحثهما عن أخلاف «منتومحات»؛[١٦] وذلك لأن هذين الأثريين كانا يظنان أن «نسمين الثاني» ابن «خامحور»، هو والد «منتومحات» «وأمنردس» «وببيو»،[١٧] والآثار التي استعان بها هذان الأثريان لتقرير هذه الأبوة مستقاة من قاموس الأعلام الذي وضعه الأثري ليبلين (راجع Lieblein Dictionnaire de Noms Hieroglyphiques No. 1094 1105, 1119, 1120, 1189). غير أنه ليس من بين هذه الوثائق واحدة تدل على أن «منتومحات» كان ابن «نسمين» الثاني، والظاهر أن هذه النسبة يرجع أصلها إلى الأثري «دي روجيه» (راجع E. De Rouge, Etude Sur les Monuments de Régne de Taharka dans les Melanges I, p.17 note 4 et P. 20 Note 1).

والواقع أن «ببيو» كانت فعلًا ابنة لوزير يدعى «نسمين» ولكنه الوزير «نسمين» الأول ابن الوزير «حورسا إزيس» الذي ذكر في الوثيقتين الأولى والثانية وليس ابن الوزير «خامحور» الأول قط،[١٨] وأخيرًا لم يكن اسم الأم ولا اسم الجد من جهة الأب للسيدة «أمنردس» معروفًا، ولذلك لا يسع الإنسان إلا أن يتردد في الاعتراف بأن والدها هو «نسمين الثاني» ابن «خامحور الأول»، أو أنه «نسمين الأول»، وسنضع مؤقتًا «أمنردس» في فرع «نسمين الثاني»، ونضع «ببيو» في فرع «بدي-أمن» ونضع «منتومحات» في فرع «نسبتاح».

- **الوثيقة الثامنة:** تابوت «نسأمنأبت»: وجد على بعض الآثار ذكر كاهن «آمون» والوزير «خامحور» فمن هذه الآثار تابوت جنازي لفرد يدعى «نسأمنأبت» محفوظ بالمتحف

المصري، ويمدنا بالمعلومات التالية عن فرع جديد لنسل «خامحور الأول»، ونستخلص من الوثيقة سلسلة النسب التالية:

- (١) «نسأمنأبت» = كاهن «منتو رب طيبة»، والكاهن سما الطيبي «سبق شرحه».
- (٢) ابن «نسمين الثاني» = كاهن «آمون» وعمدة المدينة والوزير.
- (٣) ابن «خامحور» = كاهن «آمون»، وكاهن الإله «منتو» في طيبة، وعمدة المدينة، والوزير.

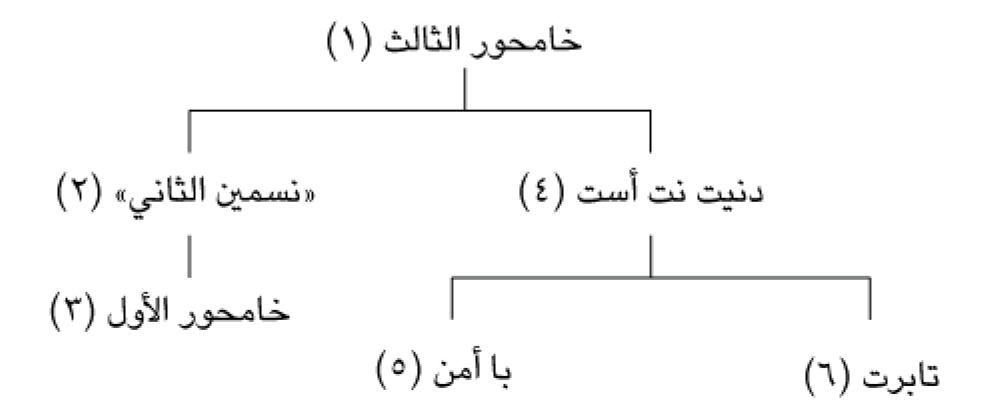
وهنا يلحظ أن «خامحور» كان يحمل لقب كاهن «منتو» رب طيبة، وسنرى أن هذه الشخصية تحمل هذا اللقب في كتابات تابوت «أستنخب» (الوثيقة ٢١) وهذا يؤكد على ما يظهر النظرية القائلة إن «أستنخب» كانت بحق أم «منتومحات».

- **الوثيقة التاسعة:** صندوق «نسأمنأبت» بن «نسمين»:[١٩] ونستخلص منها سلسلة النسب التالية:

(١) «نسأمنأبت» = كاهن الإله «منتو»، سيد طيبة.

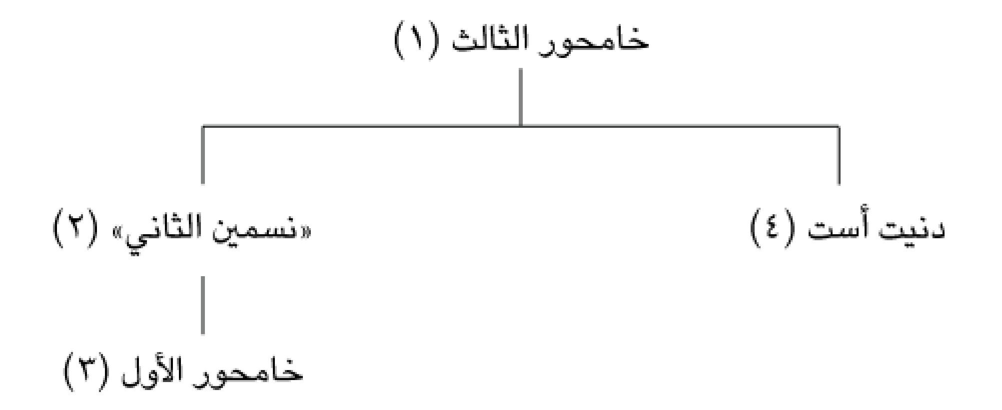
ابن «نسمين الثاني» = كاهن «آمون»، والكاهن سما الطيبي، وعمدة المدينة (؟).

- **الوثيقة العاشرة:** تابوت «خامحور» الثالث:[٢٠] عرفنا من تابوت «نسأمنأنت» أن «نسمين الثاني» هو ابن «خامحور الأول» وهاك ما استخلصناه من نقوش «خامحور الثالث» أخي «نسأمنأنت» الذي يكمل قائمة هذه الأسرة من جهة الأم:



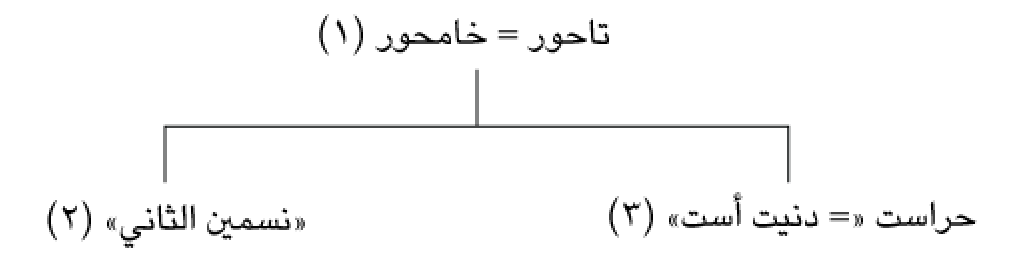
- (١) «خامحور الثالث» = كاهن «منتو» سيد طيبة، والكاهن فاتح بابي السماء في الكرنك «أي بابي قدس الأقداس» والكاهن الباحث عن العين السليمة للإلهة «موت» ربة السماء، والكاهن والد الإله محبوبه.
- (٢) «ابن نسمين الثاني» = كاهن آمون، وكاهن آمون رع ملك الآلهة، والأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، وعمدة المدينة، والوزير، وكاتب الجيش، والنائب العظيم الذي يدخل المدن.
- (٣) ابن خامحور الأول: مثيله في الألقاب.
- (٤) «دنيت نت أست»: اللاعبة بالصناجة لآمون رع.

- **الوثيقة الحادية عشرة:** التابوت الثاني لخامحور الثالث: سنلحظ أن الألقاب التي نجدها على هذا التابوت فيها بعض روايات مختلفة عما جاء في التابوت السابق:



- (١) خامحور الثالث: الكاهن، والد الإله وكاهن «منتو»، سيد مقاطعة طيبة، والكاهن فاتح باب السماء في الكرنك، والكاهن الباحث عن العين حور السليمة للإلهة «موت» ربة السماء.
- (٢) نسمين الثاني: الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، وكاتب المجندين، ومدير الملابس جميعًا، والوزير.
- (٣) خامحور الأول = الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، ومدير كل الملابس، وصاحب الستائر «الوزير»، والوزير المحترم.
- (٤) دنيت أست: ربة البيت واللاعبة بالصناجة لآمون رع.[٢١]

- **الوثيقة الثانية عشرة:** تابوت تاحور «= خامحور وقد كتب الاسم في الأصل خطأ»: يوجد في المتحف المصري تابوت جاء فيه الوثيقة التالية:

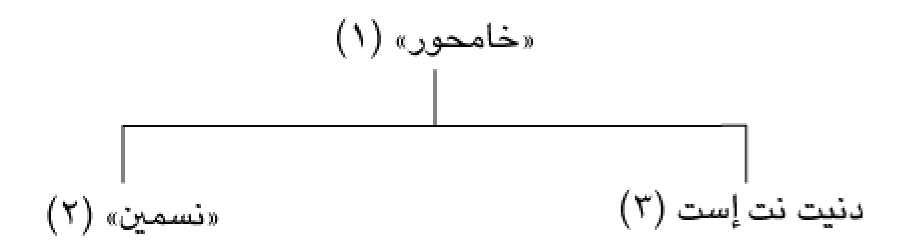


وهاك ألقاب كل من أفراد هذه الأسرة:

- (١) تاحور = كاهن منتو رب طيبة.
- (٢) نسمين = كاهن آمون رع، وعمدة المدينة، والوزير.
- (٣) حراست = ربة البيت المبجلة.

يلحظ أنه يوجد شخصان باسم «نسمين» ويحمل كل منهما لقبي كاهن آمون ووزير، أولهما هو ابن «حورسا إزيس» (الوثيقة ٦٩)، والثانى ابن «خامحور» (الوثيقة رقم ٨) وعلى ذلك فإنه من الصعب علينا أن نعرف أيهما كان والد «تاحور»، غير أننا نلحظ أن لفظة «تا» في اسم «تاحور» تدل على المؤنث، وعلى ذلك تكون النتيجة أن مؤلف متن التابوت قد أخطأ وكتب «تاحور» بدلًا من «خامحور»؛ وذلك لتشابه الحرفين الأولين في الكتابة المصرية، وهكذا حدث نفس الخطأ في كتابة «دنيت أست» فكتب بدلها «حراست» لتشابه الحرفين الأولين أيضًا، وعلى ذلك يكون هذا التابوت واحدًا من تابوتي «خامحورالثاني» ابن «نسمين الثاني» الذي ظهر في الوثيقة التالية.

- **الوثيقة الثالثة عشرة:** تابوت خامحور بن نسمين:



- (١) خامحور = كاهن «منتو رع» رب طيبة، والكاهن الباحث عن العين السليمة لموت، والكاهن فاتح باب السماء في كل الأماكن الرطبة في «بننت» (= معبد الإله خنسو بالكرنك).

- (٢) نسمين = كاهن آمون رع ملك الآلهة، وعمدة المدينة، والنائب العظيم الذي يدخل المدينة وكاتب المجندين والوزير.
- (٣) دنيت نت أست = ربة البيت.

- **الوثيقة الرابعة عشرة:** تابوت «دنيت نت أست»:[٢٢] يوجد في المتحف المصري بين سلسلة توابيت «خامحور» «ونسمين» صندوق جنازي، وتابوت برأس إنسان من نفس الطراز، وهو لامرأة تدعى «دنيت نت أست» والظاهر أنها كانت نساجة، وهي زوج «نسمين» الذي تقرب ألقابه كثيرًا من ألقاب «نسمين الثاني»، وهذه المرأة كانت ابنة رجل يدعى «أمنحتب»، فهل هي نفس والدة «خامحور الثالث» المسماة «دنيت نت أست» زوج «نسمين» وابنة «با أمن» وتابرت؟ هذا جائز، ولكن هذه الوثيقة لم ننشرها هنا إلا مع كل تحفظ، والغرض من ذلك أن هذا البحث يكون مستوفيًا بقدر الإمكان.

وهاك سلسلة النسب:

(١) نسمين = دنيت نت إست (٢)

|

أمنحتب (٣)

- (١) نسمين: الكاهن والد الإله ومحبوبه، وكاتب معبد آمون لما يتسلمه من الفرعون، والوزير القاضي صاحب الستار، وكاهن آمون، والأمير الوراثي، والحاكم، والسمير الوحيد.
- (٢) «دنيت نت أست»: نساجة «نسمين» وربة البيت.
- (٣) «أمنحتب»: الكاهن المطهر لآمون.

- **الوثيقة الخامسة عشرة:** تابوت «دنيت نت أست»: نجد في متون هذا التابوت الجميل للسيدة «دنيت نت أست» اللقب التالي: نساجة الكاهن والد الإله ومحبوبه في الكرنك والوزير «نسمين»، ويلحظ أنه لم يذكر في متن التابوت اسم الوالدين.

الوثائق الخاصة بمغنية آمون «أمنردس»: ذكر كل من الأثريين «دي روجيه» «ومسبرو» «وبيبه» أن مغنية آمون «أمنردس» هي ابنة «نسمين» بن «خامحور الأول»، ويظهر أن هذا رأي محتمل، ولكن نلحظ مرة أخرى أنه يوجد فردان باسم «نسمين» يحمل كل منهما لقبي كاهن آمون ووزير، وأحدهما هو ابن «خامحور» والآخر ابن «حورسا إزيس» ولكن لما كان جد «أمنردس» واسم أمها لم يذكرا في الوثائق التالية، فإنه ليس من المستطاع أن نعرف إذا كانت ابنة الوزير «نسمين» ابن «حورسا إزيس» أو ابنة الوزير «نسمين» بن «خامحور».

- **الوثيقة السادسة عشرة:** الصندوق الجنازي الخاص «بأمنردس»:



- (١) «أمنردس»: مغنية آمون.
- (٢) «نسمين»: الكاهن، وكاهن آمون، وعمدة المدينة، والوزير.

- **الوثيقة السابعة عشرة:** نفس البنوة السابقه:
- (١) أمنردس: مغنية آمون.
- (٢) نسمين: كاهن آمون، وعمدة المدينة، والوزير.

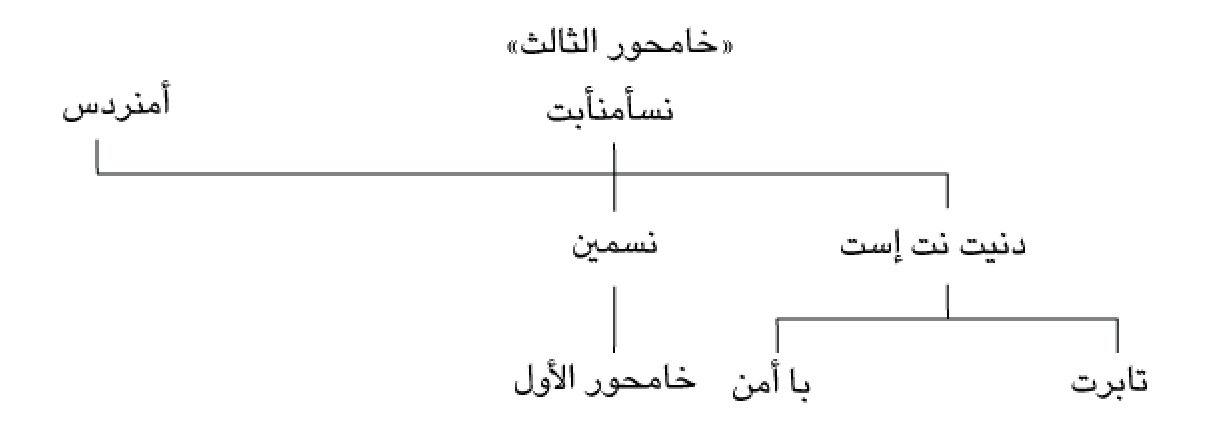
- **الوثيقة الثامنة عشرة:** التابوت الصغير لنفس السيدة: جاء عليه:

(١) «أمنردس»: مغنية آمون.

(٢) نسمين: عمدة المدينة والوزير.[٢٣]

- **الوثيقة التاسعة عشرة:** صندوق أمنردس ابنة نسمين: جاء فيه:
  - (١) أمنردس: مغنية آمون.
  - (٢) نسمين: كاهن آمون[٢٤] والوزير.

قائمة مختصرة لفرع نسمين بن «خامحور الأول»



أولاد «خامحور» (فرع نسبتاح): عرفنا من نقوش الوثيقة الأولى في هذا البحث أن والد «نسبتاح» وهو «خامحور الأول» كان يحمل الألقاب: كاهن «آمون»، وعمدة المدينة، والوزير.

ويلحظ في قائمة أولاد «خامحور» التي تشمل ألقابهم أن مركز «نسبتاح» كان أقل من إخوته «بهرر» «ونسمين الثاني»، ويحتمل كذلك من مركز أخيه «بدي أمن» من حيث الشهرة، ولم نجد في خبيئة الكرنك إلا تمثالًا واحدًا صغيرًا من الحجر الجيري، أهداه «منتومحات» إلى أبيه «نسبتاح» (الوثيقة رقم ٢٠)، هذا ولم يرد ذكر «نسبتاح» كتابة على

غير هذا التمثال إلا في مقصورة «منتومحات» التي أقامها في معبد «موت» بالكرنك حيث نجده هناك يتبع الملك «تهرقا» ويتقدم ابنه «منتومحات» وحفيده «نسبتاح الثاني».

وسنرى في الوثائق التي سنفحصها هنا أنه كان له ابنان وهما: «حورسا إزيس» «ومنتومحات»، هذا ولا تدع أية وثيقة من بينها مجالًا للشك في أن «نسبتاح» قد أنجب «منتومحات» لا «نسمين الثاني»، وقد حقق هذه النقطة بالذات الأثري «دارسي»،[٢٥] هذا وفي اعتقادنا أنه من الممكن نسبة ابنة إلى «نسبتاح» وتدعى «ديت أست حب».

- **الوثيقة العشرون:** تمثال «نسبتاح» الذي أهداه له «منتومحات»:[٢٦] وجد في خبيئة الكرنك تمثال صغير لعمدة المدينة «نسبتاح» ولم يبقَ منه إلا بعض أجزاء، وهو مصنوع من الحجر الجيري، ويبلغ ارتفاعه عشرين سنتيمترًا، وهو يمثل صاحبه قاعدًا القرفصاء وذراعاه متقاطعتان وفي جيده عقد مزين برمز العدالة (راجع مصر القديمة الجزء التاسع) والمتن الذي تبقى هو: عمله ابنه ليحيي اسمه … «منتومحات»، ويحمل «نسبتاح» لقب كاهن «آمون»، وعمدة المدينة … وكاهن «آمون»، وكاتب مائدة قربان بيت «آمون» … محبوبه، والنائب العظيم، وعمدة المدينة.

- **الوثيقة الواحدة والعشرون:** تابوت أستنخب: نجد في نقوش الوثيقة رقم واحد من هذا البحث أن جد «منتومحات» هو «خامحور» الأول، هذا ونجد أن سلسلة أسرة «نسبتاح» الأول ابن «خامحور» الأول قد وجدت ثانية على تابوت «أستنخب» المحفوظ بالمتحف المصري.

وستبرهن لنا الوثائق ٢٧ و٤١ و٦٠ التي سنوردها في هذا البحث على أن «منتومحات» كان ابن السيدة «أستنخب» وعلى ذلك فإن المتحف المصري يملك تابوت والدة «منتومحات».

ويطيب لنا أن نذكر هنا أن ألقاب «نسبتاح» التي على هذا التابوت قد دونت بالألوان بصورة أرفع من الألقاب التي نقشت على الآثار، وفضلًا عن ذلك نجد أن «خامحور» الأول كان يلقب كاهن «منتو» سيد «طيبة» على هذا التابوت المكتوب بالمداد، وهذا اللقب لم نجده له على الآثار المحفورة في الحجر، ونفس اللقب كما ذكرنا من قبل كان يحمله على

تابوت «نسأمنأبت» (الوثيقة ٨)، وهذا يدل على أنه يجب علينا أن نستعمل كتابات الآثار المكتوبة بالمداد بحذر وحيطة.

سلسلة النسب:

(١) أستنخب = (٢) نسبتاح

(٣) خامحور:

- (١) أستنخب: ربة البيت المعظمة المبجلة بجانب زوجها، زوج نسبتاح.
- (٢) «نسبتاح»: الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، وكاهن «منتو» سيد طيبة، والنائب العظيم الداخل «في» المدينة.
- (٣) «خامحور»: كاهن «منتو» سيد طيبة، وعمدة المدينة، والوزير.

فرع نسبتاح

«حورسا إزيس» الثاني بن «نسبتاح الأول» وأخو «منتومحات»

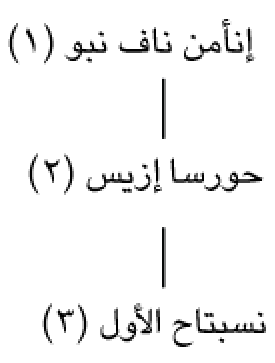
يمكننا أن نميز بين «نسبتاح الأول» ابن «خامحور» «ونسبتاح الثاني» بن «منتومحات» من الألقاب التي يحملها كل منهما.

فالألقاب التي يحملها «نسبتاح» الأول هي: كاهن آمون، وعمدة المدينة، وكاتب مائدة قربان بيت آمون، أما الألقاب التي يحملها «نسبتاح» الثاني فهي أرفع بكثير، والألقاب الرئيسية منها هي: الأمير الوراثي، والحاكم والمشرف على الجنوب «أو إقليم طيبة وقتئذٍ» وعلى ذلك فإن من الصعب الخلط بين الشخصيتين، ولذلك قد عرف «نسبتاح الأول» بوصفه والد «حورسا إزيس الثاني» من الوثائق ٢٢ و٢٣ و٢٤، وهذه تماثيل عثر عليها في خبيئة الكرنك.[٢٧]

وعلى ذلك كان حورسا إزيس الثاني أخا «لمنتومحات»، ولكنه لم يقم بأي دور هام تقريبًا في الحياة المصرية؛ إذ لم يشغل إلا وظيفة كاهن «منتو» هذا بالإضافة إلى وظيفة والده التي ورثها عنه، وهي كاتب مائدة قربان بيت آمون، وكان يلقب خادم النور أيضًا.

وتمثاله الصغير الجميل الذي يحمل رقم ١٨١ يكاد يعد من آيات الفن؛ إذ هو صورة ناطقة، أما التمثالان الآخران فهما صغيران وليس لهما أهمية تذكر، وفي مدة حياة ابن «حورسا إزيس» المسمى «إنأمن ناف نبو» نصل إلى عهد الملك «بسمتيك الأول» مؤسس الأسرة الساوية «الأسرة السادسة والعشرون».

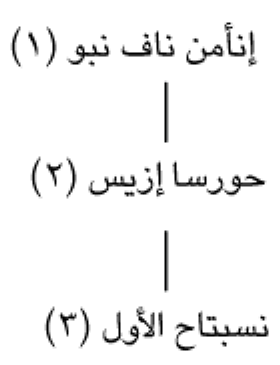
- **الوثيقة الثانية والعشرون:** تمثال حورسا إزيس بن نسبتاح، وهاك الألقاب التي وجدت عليه:
  - (١) حورسا إزيس: كاهن حور … وكاتب مائدة القربان لبيت آمون والقاضي.
  - (٢) نسبتاح = كاهن آمون بالكرنك، وعمدة المدينة.
- **الوثيقة الثالثة والعشرون**[٢٨]**:** تمثال حورسا إزيس الثاني: هذا التمثال مصنوع من الجرانيت الأحمر الجميل، ويبلغ ارتفاعه ٤٨ سنتيمترًا، عثر عليه في خبيئة الكرنك، وهو يمثل صاحبه في صورة رجل مسن راكع ويحمل بين يديه محرابًا صغيرًا فيه صورة الإله أوزير وشعره المستعار مستدير تبرز منه الأذنان ويلبس قميصًا مخططًا، والتمثال مصنوع صنعًا جميلًا، ويعد من أحسن ما أخرجه المفتن في عصر النهضة، فالرأس يمثل قوة الحياة؛ إذ قد مثله لنا النحات بصورة عجوز منهك أثقلته السنون، هذا إلى أنه أظهر بمهارة الغدة الصماء التي سببها كبر السن في الرقبة، والواقع أن هذا التمثال يعد صورة ممتازة لرجل طاعن في السن، ومن نقوش هذا التمثال نستخلص سلسلة النسب التالية:



- (١) «إنأمن ناف نبو»: ويلقب خادم النور وكاهن «منتو» رب طيبة وكاتب مائدة قربان بيت آمون.
- (٢) حورسا إزيس: ويلقب خادم النور وكاهن «منتو» رب طيبة وكاتب مائدة قربان بيت آمون.
- (٣) نسبتاح: ويلقب كاهن آمون، وعمدة المدينة، والمعروف للملك حقيقة.

- **الوثيقة الرابعة والعشرون:** تمثال حورسا إزيس الثاني:[٢٩] هذا التمثال وجد مهشمًا رأسه وكتفه وذراعه اليمنى وكذلك محيط القاعدة، وهو مصنوع من الحجر الجيري ويبلغ ارتفاعه ١٧ سنتيمترًا، وعثر عليه في خبيئة الكرنك.

ونستخلص من نقوشه سلسلة النسب والألقاب التالية:



- (١) «إنأمن ناف نبو» = كاهن «منتو» رب طيبة.

- (٢) «حورسا إزيس» = كاهن «منتو» رب طيبة وكاتب مائدة قربان بيت آمون.
- (٣) «نسبتاح» = كاهن آمون، وعمدة المدينة، وكاتب مائدة قربان بيت آمون.

فرع «نسبتاح»: «ديت أست[٣٠] حب سد» ابنة «نسبتاح» الأول: يوجد في معبد الكرنك الكبير شمالي معبد «آمون» غربي معبد «أوزير» حاكم الأبدية، معبد صغير مؤلف من حجرتين مخربتين جزئيًّا، وهذا المعبد كان قد أقيم في عهد حكم كل من المتعبدة الإلهية «أمنردس» الأولى والمتعبدة الإلهية «شبنوبت» الثانية.

ويلحظ في الصور التي تزين الحجرة الأولى خلف كل من «شبنوبت» الثانية والإلهة «موت» صورة امرأة تدعى «ديت-أست-حب-سد»، ووجود هذه الصور كما تدل شواهد الأحوال يوحي بأنها هي المؤسسة لهذا المعبد الصغير، وقد مثلت «ديت-أست-حب-سد» في أربعة أماكن على جدران المعبد.

ففي الحجرة الأولى على الجدار الغربي نشاهد «ديت أست حب سد» واقفة خلف «شبنوبت» الثانية التي تقدم بدورها إناءين من النبيذ إلى «أوزير» «وننقر» الساكن في شجرة البرسا «اللبخ»، وقد مثلت «ديت-أست-حب-سد» بحجم صغير، ونقرأ تحت صورتها ما يأتي: «مغنية معبد آمون ابنة كاهن آمون بالكرنك وكاتب مائدة قربان في معبد آمون المسمى «نسبتاح».» وعلى الجدار الشرقي من نفس الحجرة نشاهد «شبنوبت» تقدم أربعة ثيران مذبوحة لآمون وللإلهة «موت» وخلف «موت» نشاهد صورة صغيرة للمرأة «ديت-أست-حب-سد» رافعة يديها تعبدًا وفوقها المتن التالي: «مغنية معبد آمون «ديت-أست-حب-سد» المرحومة.»

وعلى الجدار الجنوبي من نفس الحجرة نشاهد «شبنوبت» تقدم مائدة قربان لآمون «وموت» وقد مثلت هنا «ديت-أست-حب-سد» بصورة صغيرة، وفوقها المتن التالي: «مغنية معبد آمون.»

وخلف «شبنوبت» نقش متن ولكنه مهشم، وهو يشبه الأول مع زيادة: عمدة المدينة …

ونشاهد على الجدار الجنوبي من الحجرة الثانية صورة «ديت-أست-حب-سد» بشكل أكبر عن الصورة السابقة التي مثلت بها، ولكنها مع ذلك أقل من نصف صورة الإله أوزير الذي تتعبد إليه، وقد مثلت واقفة ورافعة يديها ونقرأ أمامها:

> المرحومة ابنة الأمير الوراثي، والحاكم، وكاهن … في الكرنك وكاتب …

ومن هذه المتون الأربعة السالفة نستخلص النسب التالي:

- **الوثيقة الخامسة والعشرون:**

ديت–است–حب–سد (١)
|
نسبتاح (٢)

(١) ديت-أست-حب-سد: مغنية آمون «راهبة».

(٢) نسبتاح: الأمير الوراثي، وعمدة المدينة، وكاهن آمون بالكرنك، وكاتب مائدة قربان بيت «آمون».

ونلحظ هنا أن كل الألقاب التي يحملها نسبتاح والد «ديت-أست-حب-سد» هي نفس الألقاب التي يحملها «نسبتاح الأول»، وقد يكون توحيد هذه الألقاب أكثر بداهة إذا كانت قراءة عمدة المدينة ممكنة من الجزء المهشم في المتن الأخير الذي أوردناه هنا، ونستطيع أن نجد هذا اللقب «عمدة المدينة» على أثر آخر محفوظ بالمتحف المصري، وأعني بذلك قاعدة تمثال باسم «ديت-أست-حب-سد».[٣١]

- **وهو يؤلف الوثيقة السادسة والعشرين:** والمتن الذي على هذه القاعدة المصنوعة من الجرانيت يحتوي على دعاء لآمون رب عروش الأرضين الذي يعيش في الأقصر لأجل

«ديت-أست-حب-سد» ابنة … «ويحتمل أن في هذا التكسير اسم «نسبتاح» الذي يحمل لقبي كاهن آمون، وعمدة المدينة».

هذا؛ ونعرف مغنيتين لآمون باسم «ديت-أست-حب-سد» الأولى ابنة «نسبتاح» والأخرى تسمى «ديت-أست-حب-سد» مغنية بيت آمون وابنة حاكم المقاطعة عنخ حور، وألقابه لا تتفق مع الألقاب التي يحملها والد «ديت-أست-حب-سد» التي على قاعدة تمثالها، هذا بالإضافة إلى أنه لم يوجد أي أثر لاسم «عنخ حور» في الكسر الذي على هذه القاعدة، بل على العكس نجد آثارًا لاسم «نسبتاح»، وعلى أية حال فإنه في هذه الحالة «كما هي الحال في مقصورة الكرنك» نلحظ أن التهشيم في النقش يضطرنا ألا نوحد «ديت-أست-حب-سد» صاحبة مقصورة الكرنك بالأخرى التي على قاعدة التمثال بأنها ابنة «نسبتاح الأول» إلا مع التحفظ، على الرغم من أن هذا التوحيد يظهر أنه جائز جدًّا.

هذا؛ ويمكن تحديد زمن إقامة هذه المقصورة كما يمكن التأكد من وجود «نسبتاح» وابنته «ديت-أست-حب-سد».

فالمتون الرسمية التي على جدران المقصورة، وهي التي نشرها من قبل كل من «بوريان» «وليبلين» تذكر لنا من جهة اسم «أمنردس» الأولى ابنة الملك «كشتا» «وشبنوبت»، الثانية ابنة «بيعنخي»، ولم يظهر في هذه المتون اسم «أمنردس» الثانية ولا اسم الملك «تهرقا»، ومن ثم نفهم أن زمن كتابة أثر «ديت-أست-حب-سد» كان قبل وصول «تهرقا» وغزوات الآشوريين، وكذلك قبل إقامة مقصورة «منتومحات» في معبد الإلهة «موت» بالكرنك حيث نشاهد في نقوشها أن «منتومحات» يقص علينا كيف أنه حاول أن يعيد مجد طيبة بعد الخراب الذي حاق بها، ونحن نعلم من جهتنا أن «شبنوبت» الثانية بعد أن تبنت «أمنردس» الثانية ألغت هذا التبني وتبنت بدلًا من الأخيرة «نيتوكريس-شبنوبت» ابنة «بسمتيك الأول» مؤسس الأسرة السادسة والعشرين، وعندما وصلت «نيتوكريس» هذه إلى «طيبة» لتولي مهام وظيفتها الجديدة في السنة التاسعة من حكم «بسمتيك الأول» والدها، كان «منتومحات» الذي قد بلغ من العمر أرذله هو الذي استقبلها يحيط به كهنة

«طيبة» وقدم لها الهدايا المعتادة، والوثيقة التاسعة والخمسون تذكرنا بهذه الحقيقة كما سنرى بعد.

•••

كان همنا فيما سبق هو جمع الوثائق الخاصة بالكاهن «نسبتاح» وزوجه «أستنخب» وابنه «حورسا إزيس» وأخته «ديت-أست-حب-سد»، والآن سنجمع فيما يلي الوثائق الخاصة بالكاهن «منتومحات» وأسرته، وهو محور موضوعنا، «ومنتومحات» وأسرته يكوِّنون عدة مجاميع هي: (١) المجموعة الأولى يظهر فيها «نسبتاح» وحده. (٢) والمجموعة الثانية نجد فيها أن «منتومحات» يظهر وحده. والمجموعة الثالثة يظهر فيها أولاد «منتومحات». وهذا التقسيم الذي وضعته هنا اصطلاحي محض لتسهيل البحث وحسب.

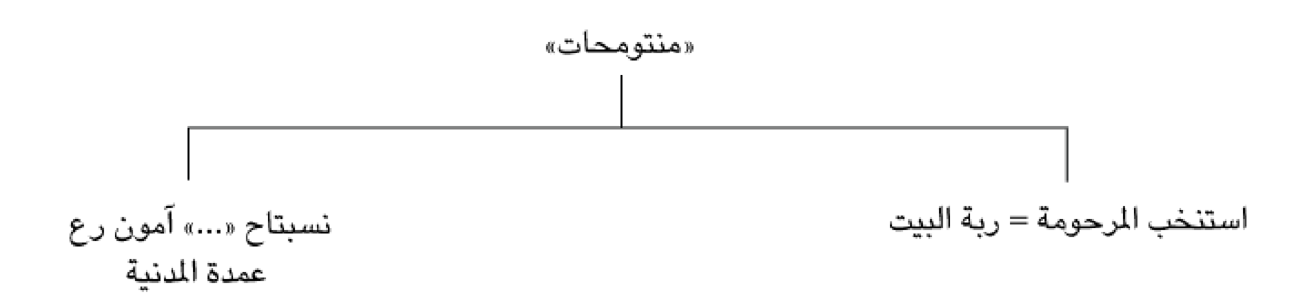
(٢-١) المجموعة الأولى «نسبتاح» «ومنتومحات»

يطيب لنا أن نذكر هنا أولًا الوثيقة الأولى التي تؤلف جزءًا من هذه المجموعة.

- **الوثيقة السابعة والعشرون:** قطعة من مائدة قربان: عثر «دارسي» على الجزء الأمامي من مائدة قربان[٣٢] في مدينة «هابو» نقش على إطارها متنان بأربع طغراءات تدلنا على تاريخها، والمهدي لهذه المائدة هو «منتومحات» ابن كاهن آمون رع عمدة المدينة المسمى «نسبتاح» الذي وضعته السيدة «أستنخب» المرحومة، ويدل وجود لفظة المرحومة بعد «أستنخب» على أنها كانت قد توفيت قبل زوجها الذي وجد مصورًا في مقصورة «منتومحات» خلف الملك «تهرقا»، وهذه المائدة يحتمل أنها أقيمت قبل زمن «تهرقا» ولكن قد يكون في ذلك شك؛ لأن كلمة المرحومة الموضوعة تحت طغراء «أمنردس الأولى» ابنة «كشتا» وتحت «شبنوبت» الأولى أمها التي تبنتها وهي نفسها ابنة الملك «أوسركون الثالث»، يجعل الإنسان يعتقد أن «منتومحات» قد أهدى هذه المائدة إلى المقاصير الجنازية للزوجات الإلهيات في مدينة هابو، وعلى أية حال توجد حالات نشاهد فيها شخصًا حيًّا يلقب بالمرحوم أو صادق القول، وعلى ذلك فإنه من المحتمل أننا الآن أمام حالة من هذا القبيل، فقد كان «منتومحات» وقتئذٍ صاحب السلطة الإدارية في طيبة

في عهد المتعبدتين الإلهيتين شبنوبت الأولى وأمنردس الأولى، وهذا جائز وبخاصة عندما نعلم أن «منتومحات» قد عاش دهرًا طويلًا حتى بلغ من العمر أرذله، وليس لدينا ما ينفي ذلك إلا أنه لم يكن في تلك الفترة من حكم هاتين المتعبدتين الإلهيتين يقوم بعمل وظيفة المدير العظيم للبيت للمتعبدة الإلهية، ومن ثم فإن النظرية الأولى؛ أي إن المائدة قد أهديت ووضعت في الحجرتين الجنازيتين لكل من شبنوبت الأولى وأمنردس الأولى بعد وفاتها بزمن طويل أو قصير هي على الأرجح النظرية المفضلة على النظرية الأخرى.

أما الطغراءات الأربع التي نقشت على المائدة فهي للملك «كشتا» والمتعبدة الإلهية «أمنردس» والزوجة الإلهية «شبنوبت» والملك «أوسركون الثالث»، ونستخلص من المتن الذي على إطار المائدة سلسلة النسب التالية:



الوثيقة الثامنة والعشرون: مائدة قربان «لمنتومحات»:[٣٢] نحتت هذه المائدة من الجرانيت الأسود وطولها ٥٢ سنتيمترًا وعرضها ٤٦ سنتيمترًا وسمكها ٨ سنتيمترات، وتحتوي على النقوش التالية:

(١) متن محفور على الوجه العلوي تحت صورة القربان التي تحتوي على إوزتين وإناء وأربعة رغفان وزهرة بشنين، والمتن الذي يصحب ذلك هو: أوزير، الكاهن والد الإله، والكاهن سما «محضر العقاقير في قفط للإله مين»، والكاهن الرابع لآمون في الكرنك، وعمدة المدينة، وحاكم الجنوب، «منتومحات» صادق القول، ابن نسبتاح صادق القول.

- (٢) وعلى حافة المائدة اليمنى نقش: قربان يقدمه الملك وهو: تسلم كثير من الخبز وست حزم من الخضر ويأتي إليك … سخمت وشو كل يوم طاهرًا على مائدة آمون العظيم، وتعيش روحك أبديًّا يا أوزير، والكاهن والد الإله، والكاهن سما «محضر العقاقير في «قفط» للإله مين»، والأمير الوراثي، وحاكم الجنوب «منتومحات»، صادق القول.

وعلى الحافة اليسرى نقش ما يأتي: قربان يقدمه الملك: ماء بارد لروحك بجوار آمون رع … يحضر … وتتلى قربانك أمام التماثيل على المائدة في مدينة هابو يا أوزير الكاهن الرابع لآمون بالكرنك «منتومحات» صادق القول.[٣٤]

- **الوثيقة التاسعة والعشرون:** قاعدة وقدما تمثال «لمنتومحات»: يوجد بمعبد الكرنك الكبير في معبد رعمسيس الثالث باب صغير يؤدي إلى الجهة الغربية، وبالقرب من عارضة هذا الباب في الشمال الشرقي توجد قاعدة تمثال كبيرة[٣٥] من الحجر الأحمر البنفسجي، وقد جاء على هذه القاعدة المتن التالي:

(١) الكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة «منتومحات».

(٢) كاهن آمون، وعمدة المدينة نسبتاح.

- **الوثيقة الثلاثون قاعدة تمثال آخر للكاهن «منتومحات»**[٣٦]**:** وجدت هذه القاعدة المصنوعة من الجرانيت في الكرنك، وقد سرقت، والنقش الذي عليها هو ما يأتي: الكاهن الرابع لآمون، حاكم إقليم الجنوب «منتومحات»، وابن كاهن آمون، وعمدة المدينة، نسبتاح صادق القول.

- **الوثيقة الواحدة والثلاثون:** قطعة من تمثال «لمنتومحات»: قطعة من تمثال[٣٧] للكاهن «منتومحات» من الجرانيت الأسود وجدت في الدير البحري نقش عليها ما يأتي: حاكم الجنوب «منتومحات» بن …

- **الوثيقة الثانية والثلاثون:** أنصاف أقراص «لمنتومحات» وأزواجه جمع الأثري «فيدمان» عددًا من أنصاف الأقراص، ثلاثة منها باسم «منتومحات» وهي:

- **الوثيقة الثالثة والثلاثون:** وتشمل النقش التالي: المشرف على الكهنة، والمشرف على باب البلاد الأجنبية، وعمدة المدينة، «منتومحات» ابن الكاهن، وعمدة المدينة نسبتاح، والمشرف على بيتي خدام الروح لمعبد هذا الحاكم.[٣٨]

- **الوثيقة الرابعة والثلاثون[٣٩]:** جاء على نصف القرص هذا النقش التالي: «منتومحات» الذي وضعته ربة البيت أستنخب، المشرف على خدام الروح لمعبد هذا الحاكم «أبديًّا» وكاهن منتو رب طيبة وكاتب القربان المقدسة لمعبد آمون حور … ابن مثيله «في الألقاب» «أرت بن حور» ابن الكاهن والد الإله والمشرف على الخزانة ومدير العدالة «حورما».

- **الوثيقة الخامسة والثلاثون:** وهي نصف قرص مسطح مصنوع من الخزف المطلي، عثر عليه في دمن معبد «موت» بالكرنك ونقش عليه المتن التالي: الأمير الوراثي، والحاكم والرئيس العظيم للملك (؟) والمشرف على الكهنة والكاهن وحاجب آمون في الكرنك والكاهن الرابع لآمون «منتومحات» ابن كاهن آمون.

(١-٣) المجموعة الثانية

آثار «منتومحات» بمفرده

يفهم من الآثار التي سنتحدث عنها فيما يلي أنها «لمنتومحات» وحده ولم يذكر فيها شيء لأسلافه أو لأخلافه، وتدل سلسلة الألقاب التي سنذكرها هنا أن هذه الآثار كانت ملك «منتومحات» الذي نسعى لوضع قائمة نسبه وليست لشخص آخر.

- **الوثيقة السادسة والثلاثون:** فمن بين هذه الآثار نذكر قطعة من تمثال صغير من الجرانيت الأسود موجودة بمتحف «أثينا» ضمن مجموعة «روستوفيتز» جاء عليها: كاهن آمون رع ملك الآلهة والكاهن سما محضر عقاقير آمون فقط … وقائد الجيش لمعبد آمون من الطائفة الرابعة «حور» ابن مثيله في الوظائف «منتومحات» بن الكاهن الرابع لآمون «نسمين»، ويجب أن نقرر هنا أن «منتومحات» بن «نسمين» ليس بينه وبين «منتومحات» بن «نسبتاح» أية علاقة، ولا توجد واحدة من الوثائق التالية يمكن نسبتها إليه.

- **الوثيقة السابعة والثلاثون:** التمثال العظيم «لمنتومحات»: الذي وجد بدون رأس في معبد الإلهة «موت» بالكرنك في الحفائر التي قامت بها الآنستان «بنسون» «وجورلي»[٤٠] ونقش عليه الألقاب التالية: «الحاكم الذي يراقب تنفيذ مباني معبد «موت»، والحاكم والمشرف على الجنوب، والرئيس العظيم لمعبد الإله، والمشرف على الكهنة في … والرئيس والكاهن الرابع لآمون، وكاتب معبد الإله آمون العظيم الآثار في … والذي يخترق مقاطعات الجنوب كلها، وعمدة المدينة، ورئيس الجنوب قاطبة، والكاهن الرابع لآمون، والحاكم … والمشرف على كل الكهنة، والأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، وممدوح سيده (؟) ومهدئ الجنوب كله، والكاهن الرابع لآمون، والملاحظ على الكهنة … والسمير الوحيد، والشريف … وحاكم الأقطار الأجنبية، والحاكم المشرف على باب البلاد الأجنبية، والمشرف على كهنة الآلهة كلهم للوجهين القبلي والبحري.»
- **الوثيقة الثامنة والثلاثون:** تمثال «منتومحات»: يوجد لهذا الكاهن تمثال بمتحف برلين من الجرانيت الأسود جاء عليه الألقاب التالية:

> الأمير الوراثي، والحاكم، والكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة، والمشرف على إقليم الجنوب قاطبة «منتومحات».[٤١]

- **الوثيقة التاسعة والثلاثون:** تمثال نصفي يحتمل أنه «لمنتومحات»: وهذا التمثال النصفي الجميل يحتمل أنه «لمنتومحات»، والألقاب التي عليه وكذلك مقارنة ملامحه بالتمثال الكبير الذي عثر عليه في الكرنك تدل على أنه لهذا الكاهن[٤٢] (وقد ذكر لنا كذلك الأثري «فيدمان»[٤٣] رأس تمثال «لمنتومحات» محفوظ الآن بمتحف «برن» وكذلك تمثال كان فيما مضى بالبيت الفرنسي بالأقصر) وقد جاء على هذا التمثال (الوثيقة ٣٩) الألقاب التالية: الأمير الوراثي، والحاكم، وكبير الكبراء وشريف السمراء و… عظيم الأرض كلها، والكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة، والمشرف على الجنوب.

- **الوثيقة الأربعون:** مائدة قربان «لمنتومحات»: توجد بالمتحف البريطاني مائدة قربان مستديرة محلاة برأس حتحور ومنقوشة نقشًا بارزًا، وكتب عليها صلوات جنازية للإلهة «موت» والإلهة حتحور، وقد أهداها «منتومحات» لمعبد الأقصر أو الكرنك ولقب عليها: الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل الخاتم، والسمير الوحيد، والكاهن الأول لإله والرابع لإله آخر.[٤٤]

- **الوثيقة الواحدة والأربعون:** لبنات باسم «منتومحات»: يوجد بالمتحف المصري لبنات طبع عليها اسم «منتومحات»، وقد وجد على واحدة منها النقش التالي: الكاهن الرابع «منتومحات»، والمشرف … «منتومحات»، وهذه اللبنات عثر عليها في العساسيف، ومن المحتمل جدًّا أنها من قبره الضخم الذي أقيم هناك.

- **الوثيقة الثانية والأربعون:** تماثيل مجيبة: ذكر الأثري ليبلين[٤٥] في قاموسه «أسماء الأعلام» الألقاب التالية التي وجدها على تمثال مُجيب محفوظ بالمتحف البريطاني: الكاهن الرابع لآمون ورئيس فرقة كهنة وعمدة المدينة «منتومحات»، ونجد كذلك هذه الألقاب على تمثال مجيب بمتحف اللوفر (E. 3512) وقد طبعه الأثري بيريه (Pierret, Recueil D'Inscriptions. Inedit, T. II, P. 130) هذا ويوجد في حيازة مس جورلي تمثال مجيب من الجرانيت (راجع Benson and Gourley, The Temple of Mut, p. 356) وعثر الأثري «ديفز» على تمثال مجيب في رديم مقبرة «بتاح حتب» بسقارة[٤٦] نقش عليه: عمل تذكارًا للكاهن الرابع لآمون «منتوحات» الذي وضعته أستنخب لأجل أن يعمل كل الأعمال التي تعمل في الجبانة، ومن المدهش حقًّا أن نجد مثل هذا التمثال المجيب لهذا العظيم بعيدًا عن قبره الذي يوجد في طيبة، وهذه الظاهرة تذكرنا بوجود تمثال مجيب للملك رعمسيس السابع في الكوة ببلاد النوبة.

- **الوثيقة الثالثة والأربعون:** الجن حراس «منتومحات»: نشر الأثري لجران[٤٧] نقوش تمثال محفوظ الآن بمتحف «أثينا» يمثل ملاكًا حارسًا إما لقبر «منتومحات» أو مقصورة صغيرة أقامها لنفسه بالقرب من مدينة «هابو» وهذا الجن الحارس لم يكن الوحيد من نوعه؛ وذلك

لأن المتحف المصري يشمل مجموعة مؤلفة من ملاكين من ملائكة العالم السفلي من نفس النوع السابق،[٤٨] وكذلك عثر «لجران» على مجموعة عند أحد تجار آثار القاهرة، كما وجدت مجموعة أخرى عند تاجر آثار بالأقصر جاء عليها: «الكاهن الرابع لآمون في الكرنك «منتومحات» المبرأ.»

- **الوثيقة الرابعة والأربعون:** مقبرة منتومحات: عندما كشف النقاب كل من الأثري أيزنلور[٤٩] وشيل عن جزء من مقبرة الأمير «منتومحات» ظنا أن هذا الجزء هو كل المقبرة، ولكن الكشوف الحديثة قد دلت على أن مثوى هذا العظيم يتألف من أكثر من إحدى عشرة حجرة أخرى، ومن ثم تعد مقبرته من أضخم المقابر التي كشف عنها في منطقة «العساسيف»، هذا فضلًا عن أنها من أجمل المقابر التي تنسب إلى العهدين الكوشي والساوي.

والجزء الذي حدثنا عنه «شيل» يحتوي على حجرة واحدة يبلغ طولها ٤٫٢٢ مترًا وعرضها ٢٫٦٤ مترًا وارتفاعها ٢٫٦٠ مترًا، وداخل هذه الحجرة كله منحوت في صخرة من الحجر الجيري الممتاز في جودته، ولذلك كان ملائمًا لإظهار المفتن مهارته في نحت صوره المتعددة التي نقشها على الجدران، ولا غرابة في ذلك؛ فقد كان صاحبه يعد تقريبًا ملكًا في إقليمه، وسنرى بعدُ ما كان له من مكانة في تاريخ هذا العهد في مصر والسودان:

- **باب الدخول:** يشاهد في داخل هذه الحجرة إطار محلى بعلامات تدل على الزينة مصورة حول كل الجزء الأعلى من الجدران، ونقش فوق باب الدخول: «الأمير الوراثي، والحاكم، والسمير العظيم، ومدير القصر، والكاهن الرابع لآمون في طيبة، والمشرف على الجنوب «منتومحات».»

وعلى الجهة اليسرى من الباب نقش: قربان يقدمه الملك لأوزير أول أهل الغرب ورب العرابة وللإله «حقت» (إله الولادة) والإلة «خنوم» وكل آلهة العرابة ليعطوا ألفًا من كل شيء طيب يخرج أمام الإله العظيم رب العرابة، وليمد له الذراع بالقربان في ساحة أعياد الجبانة وليجعله يعبر مع الإله العظيم في القارب المقدس إلى «بق»[٥٠] وليساعده في قارب

نشمت[٥١] على طريق الغرب وليجدف به في سفينة الشمس المسائية، وليسبح به سفينة النهار، وليقال له: أتيت في سلام بوساطة عظماء العرابة ويهلل له بفم أهل مقاطعة العرابة … إلى روح «منتومحات».

وفي الجهة اليمنى من الباب عند الدخول المتن التالي: قربان يقدمه الملك وبتاح القاطن جنوبي جداره، والإله «زد الفاخر» (زد شبسس) الذي يرأس معبد «تننت» «ونفرتوم» «وأوزير» أول أهل الغرب ليقدموا قربانًا وماء باردًا مما يخرج أمامهم وليرى آتون … إلخ، لروح الأمير الوراثي، والحاكم، والسمير الوحيد في الحب، والكاهن الرابع لآمون في طيبة، وعمدة المدينة، والمشرف على الجنوب قاطبة «منتومحات» المرحوم، رب الاحترام.

هذا؛ ويوجد في مواجهة الباب في نهاية الحجرة كوة يحفها من الجانبين أربعة مناظر الواحد فوق الآخر، مثل في كل منها حاملو قربان والجزء المقابل لعتب الباب نقش عليه المتن التالي: «الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، والحارس الذي يأتي إليه العظماء، والمنقطع القرين في … القصر، والذي يهدئ نفس من يأتي إليه، والعظيم في مكانته، والكبير في شرفه، والذي يعمل ما يحبه رب الأرضين، وملك الكلام، ومدير كل وظيفة مقدسة، ومدير الملك، ومدير بيوت التاجين الأحمر والأبيض، والمشرف على قصر الملك، والكاهن الرابع لآمون «منتومحات» سيد التبجيل».

ونقش على عارضتي الكوة ما يأتي:

- **الجهة اليمنى:** (١) الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، والكاهن المطهر الكبير، الذي يعرف واجبه، والحاكم والمشرف على الكهنة «منتومحات».

(٢) الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، ومدير العرشين في البيتين، والذي يعمل ما يمدحه إلهه، والحاكم ومدير الكهنة «منتومحات».

(٣) الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، وكاتم الأسرار العظيم في المعبد، والحاكم، ومدير الكهنة «منتومحات» المرحوم.

- **وعلى الجانب الأيسر النقش التالي:** (١) الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، المحبوب من الرفاق في بلده، والحاكم والمشرف …

(٢) الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، والمشرف على بعوث القربان المقدسة.

(٣) الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، والذي يملأ قلب الملك.

وهكذا نرى في كل سطر من هذه النقوش أنه قد أضيف نعت أو لقب جديد لهذا الأمير العظيم.

- **الجدار الأيسر من الحجرة:** يشاهد على هذا الجدار «منتومحات» جالسًا في نهاية الجدار، وكرسيه له سنادة منخفضة الارتفاع ومحلى بزهرة سوسن، وأرجل الكرسي في صورة مخالب طائر، ويرتدي جلد الفهد، ويحلي جيده حجران ثمينان، وفي يده اليسري منديل، ويده اليمنى ممتدة لتأخذ من الطعام الذي أمامه، ونقش فوق رأس منتومحات الألقاب التالية: الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد في الحب، وعينا الملك في كل الأرض قاطبة، وصديق سيده، وكاتم سر بيت الصباح، والكاهن الرابع لآمون في الكرنك (٤) وعمدة المدينة، والمشرف على الوجه القبلي «منتومحات». وقد نقش أمام «منتومحات» على هذا الجدار قائمة القربان المعروفة، كما نصبت مائدة قربان يعد ما عليها بالآلاف حسب النقوش المفسرة أسفلها، وكذلك رسمت عدة أنواع من المأكولات، وتحت كرسيه رسم منظر لذبح الثيران وتقطيع أجزائها، ويتبع ذلك متون في شكل محاورة بين الذين يقومون بهذه العملية.

- **الجدار الأيمن من الحجرة:** ويلاحظ أن توزيع النقوش والصور التي على هذا الجدار تطابق تمامًا مثيلاتها التي على الجدار الأيسر، فنجد أن «منتومحات» قاعدًا في نهاية الجدار لابسًا جلد الفهد وتحت كرسيه إناء ذو مقبض، والجدار في هذه الجهة مملوء بالملح، ولذلك فإن النقوش قد غُطي الكثير منها بهذه المادة، والألقاب التي فوق رأسه هي: الأمير الوراثي، والحاكم، والرئيس العظيم لكل الأرض قاطبة، والواحد العظيم الأعياد، والساكن قلب الملك «محبوبه»، والذي يهب ذكاءه لمدنه، محبوب الملك، والكاهن الرابع لآمون، والمشرف على الجنوب «منتومحات».

  ويشاهد أمام صورة «منتومحات» قائمة مائدة القربان العادية، ثم يشاهد بعدها على الجدار حاملو القربان في أشكال مختلفة، وفي أسفل يشاهد منظر ذبح الثيران الخاص باختيار الأجزاء الهامة منها، ومع هذا المنظر متون مفسرة لعمليات تقطيع أجزاء الثور واختيارها.

وقد دلت الحفائر التي عملت ما بين عامي (١٩٤٩) إلى (١٩٥١) ميلادية على وجود ردهة مكشوفة تابعة لمقبرة «منتومحات» وحجرات أخرى تربو على إحدى عشرة حجرة كلها مغطاة بنقوش من طراز جميل، غير أن العمل قد أوقف فيها[٥٢] وتدل النقوش التي على جدران هذه المقبرة وحجرها المختلفة العديدة الضخمة على أنها تحتوي على متون دينية مما لا نجد مثله إلا في مقابر الملوك، مثل متون كتاب ما يوجد في عالم الآخرة وكتاب البوابات … إلخ.

وقد وصف لنا الأثري «لكلان» أعمال الحفر التي أجريت في هذه المقبرة باختصار نلخصه فيما يأتي:

> في قصر «منتومحات» الجنازي رقم ٣٤ المقام بمنطقة «العساسيف» عملت حفائر تكميلية لتنطيف هذه المقبرة على يد زكريا غنيم، فقد أقيم في أسفل المنحدر العظيم الذي يتجه من الشمال إلى الجنوب جدار مؤقت من اللبنات لسد الممر الذي

بين الدهليز الذي يدخل منه الإنسان إلى المقبرة وبين القاعة الكبيرة الواقعة في الشرق من الردهة المكشوفة، وهذه القاعة الواقعة في الجهة الشرقية قد نظف جزء منها، وفتح في جانبها الجنوبي ثلاثة أبواب يمكن الإنسان أن ينزل منها إلى سلسلة حجرات عارية عن الزينة، ويشاهد على عتب الباب الأوسط من هذه الأبواب الثلاثة نقوش تشتمل على سلسلة نسب أولاد منتومحات.

أما الردهة المكشوفة فقد نظفت تمامًا، ويشاهد في شرقيها وغربيها سلم كبير يمكن الإنسان بوساطته النزول فيها، وأبواب الدخول «وهي التي تؤدي من جهة إلى القاعدة العظيمة الواقعة في الشرق وقد تحدثنا عنها الآن، ومن جهة أخرى تؤدي إلى الممر الذي يتصل بالردهة من الغرب» توجد في مستوى الطوار ذي الكرنيش الذي يلف حولها على ارتفاع ما يقرب من مترين، وفي خلال هذا التنظيف الحديث ظهرت موائد قربان جديدة مضافة إلى خمس موائد أخرى عثر عليها سابقًا وواحدة من هذه الأواني باسم «بيس يمن»، وقد عثر له على تمثال مكعب الشكل في مكان آخر في الحفائر التي عملت في شرقي معبد الكرنك وسنتحدث عنه فيما بعد، ويشغل وسط الردهة بئر مربعة لم يكشف عنها بعد، وقد كشف كذلك عن بئر تحت الخارجة التي تشغل الجهة الغربية من هذه الردهة العظيمة وتقع بين الباب الأوسط والسلم الذي زين بنقوش خاصة بمدائح للشمس.

وفوهة هذه البئر مربعة، ويبلغ طول كل جانب منها حوالي متر وعمقها حوالي عشرة أمتار تؤدي في نهايتها إلى حجرة خالية من الزخرف، وقد جمع منها عدة قطع من الفخار، والحاجز المقام من الحجر الجيري الذي يؤدي من الردهة الأولى إلى الردهة الثانية «وقد وضع في جهة الغرب» من صنع على هيئة قطعة خشب كبيرة مستديرة، وقد أدى درس النقوش التي على جدران الردهة الكبيرة إلى وجود خمسة عشر نقشًا باللغة الكارية (fig. 37, 38).

يضاف إلى ذلك أنه قد وجد في ردهة هذه المقبرة الضخمة عدة موائد قربان ملقاة في الرديم، وهذه الموائد هي البقية الباقية من الأشياء الأخرى النفيسة التي كانت تزين رحبة هذا القصر الجنازي العظيم، أما الآثار التي كان يحتويها هذا القبر الفخم فهي موجودة جزئيًّا مبعثرة في مختلف متاحف العالم، وقد أشرنا إلى بعضها فيما سبق خلال درس آثار هذه الأسرة، وسنتحدث هنا عن هذه الموائد الخاصة بمنتومحات[٥٣] وأقاربه.

مائدة القربان رقم (١): أهم هذه الموائد وأجملها هي التي تحمل اسم «منتومحات»، وقاعدة هذه المائدة منحوتة في قطعة حجر واحدة من الجرانيت الأسود ويبلغ ارتفاعها ٦٣ سنتيمترًا، وقد صورت المائدة على هيئة الكلمة المصرية القديمة الدالة على مائدة قربان، كما صور في وسطها بعض أنواع الخبز والإوز، ونقش حول صحن المائدة المتن التالي:

- **على اليسار:** يا أوزير الأمير الوراثي، والحاكم، والكاهن الرابع وكاتب معبد آمون ورئيس الوجه القبلي قاطبة «منتومحات» صادق القول، ليت رع الذي في السماء يرحمك حتى يجعل السيدتين تعطفان عليك، وليكون الليل بك رحيمًا وليكون النهار بك رحيمًا، ولتكون لك رحيمة القربان التي يقدمها الملك وهي التي تقدم لك.

- **وعلى اليمين:** يا أوزير الأمير الوراثي، والحاكم، والسمير العظيم، وحاكم القصر، والرئيس العظيم للمعبد، ورئيس كهنة كل آلهة الوجه القبلي، وملاحظ كهنة أملاك «آمون»، والأمير العظيم لإقليم طيبة[٥٤] «منتومحات» صادق القول، وقد حملت إليك القربان، فليتك ترى القربان، وليتك تسمع القربات التي أمامك والقربات التي خلفك والقربات التي بقربك.

مائدة القربان رقم (٢): المائدة الثانية هي لزوجة «منتومحات» وتسمى «وزارنس» ومصنوعة من الجرانيت الأسود في قطعة واحدة ويبلغ ارتفاعها ٧٢ سنتيمترًا وعرضها ٤٤ سنتيمترًا، والمتن منقسم قسمين كما هي الحال في المائدة السابقة:

- **المتن الذي على اليسار جاء فيه:** يا أوزير أيتها المبجلة الوحيدة الفريدة للملك السيدة «وزارنس» ابنة ابن الملك «بيعنخي-هار» صادقة القول، ليت «رع» يكون عطوفًا عليك في السماء لأجل أن يجعل السيدتين تعطفان عليك، وليت الليل يعطف عليك، وليت النهار يعطف عليك، وليت القربات التي يقدمها إليك تعطف عليك، وهي التي قدمت لك.

- **المتن الذي على اليمين:** يا أوزير الحظية الفريدة للملك وكاهنة حتحور ربة البيت «وزارنس» صادقة القول: «إن القربان قد حملت إليك، فليتك ترين القربان، وليتك تسمعين القربات التي أمامك والقربات التي خلفك والقربات التي بقربك.»

ولا نزاع في أن نقوش هذه المائدة تقدم لنا حقيقة هامة عن إحدى زوجات «منتومحات»، وهي الزوجة التي عاشت معه في أواخر أيام حياته واسمها «وزارنس»، وقد جاء ذكرها على لوحة المتعبدة الإلهية «نيتوكريس» المؤرخة بالسنة التاسعة من عهد «بسمتيك الأول»، ويلحظ في رسوم قبره بالعساسيف أن «وزارنس» هذه قد مثلت بجانب «منتومحات» الكاهن الرابع لآمون،[55] وتنسب «وزارنس» إلى الأسرة الكوشية الملكية وقد جاء ذكرها على آثار أخرى ذكرناها وسنذكرها فيما بعد.

ولما كان دفن «منتومحات» قد حدث في عهد الملك «بسمتيك الأول» فإن زوج هذه السيدة العريقة النسب جدًّا كان في استطاعته أن يفخر بنسبتها إلى أسرة الجنوب.

وهذا يدل على أن الأسرة الساوية والأسرة الكوشية كانا على وفاق إلى حد ما على الأقل.

مائدة القربان رقم (٣): هذه المائدة مصنوعة من الجرانيت الوردي وهي في حالة جيدة نسبيًّا، وهي للكاهن الرابع «منتومحات»، وشكلها بسيط وتوزيع نقوشها كالمائدتين السابقتين، هذا بالإضافة إلى متن على جوانب المائدة:

- **المتن الذي على اليمين:** كلام يقال: يا أوزير، الكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة، وكاتب معبد آمون المسمى «منتومحات»، امضِ كل الوقت «لتأتي» نحو آلافك من «الخبز

والعيش» وآلافك من رءوس الحيوان والطيور، وآلافك من البخور «كندر» وآلافك من كل شيء جميل وطاهر، لأجل روح الكاهن الرابع، وعمدة المدينة «منتومحات».

- **المتن الذي على اليسار:** كلام يقال: يا أوزير، الكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة، وكاتب معبد آمون «منتومحات»، لديك ماؤك ولديك خيراتك ولديك سائلاتك التي تخرج من أوزير، ولديك السوائل التي تخرج من «نفتيس»، أوزير الكاهن الرابع لآمون، «منتومحات» خذ لنفسك رغفانك.

- **المتن الذي على جانبي المائدة:** أوزير تعال، أربع مرات، الكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة منتومحات، تعالَ إلى آلافك من الخبز والجعة وآلافك من القربان ولآلافك من رءوس الأبقار والطيور والإوز «سر» «وست» «ورو»، وكل شيء طيب طاهر وحلو مما يعيش عليه إله، لأجل روحك أيها الكاهن الرابع لآمون يا منتومحات كن قويًّا «بها» وحيًّا «بها» وصحيحًا «بها» ومجهزًا «بها» وعظيمًا «بها» ومقدسًا «بها» ومنيرًا «بها» وبهجًا «بها» ومشرقًا «بها» ومرفوعًا «بها» وعاليًا «بها» أبديًّا وسرمديًّا.

والأمر الذي يلفت النظر في هذا المتن هو أن واضعه أخذ يقلد المتون القديمة وبخاصة متون الأهرام،[٥٦] وكذلك يشابه هذا التتابع في ذكر القربان ما وجد في متون التوابيت التي يرجع عهدها إلى الدولة الوسطى وما قبلها بقليل، ولا غرابة في ذلك؛ لأن عهد الأسرة الخامسة والعشرين يعد بحق بداية عصر النهضة الجديدة التي قامت في مصر وبلاد «كوش» معًا، فقد كان القوم وبخاصة الملوك والأشراف يقلدون كل ما هو قديم من أدب وفن،[٥٧] وكذلك نجد هذا التتابع في عهد الدولة الحديثة كما يلحظ ذلك في الشعائر الجنازية والقربات الخاصة بالملك «أمنحتب الأول»،[٥٨] ومن ثم نفهم جليًّا أن عصر النهضة لم يكن مقتصرًا في تقليده على الدولة القديمة أو الدولة الوسطى، بل كان كذلك يستقي من الدولة الحديثة من حيث اللغة والفن كما تحدثنا عن ذلك من قبل.

مائدة القربان رقم (٤): هذه المائدة مصنوعة من الجرانيت الوردي وليس لها قاعدة كالموائد السابقة، وتحتوي على لوحة صغيرة ارتفاعها ١٦ سنتيمترًا، وترتكز على مخدة

خشنة الصنع ومساحة مسطحها العلوي ٠٫٧٢٥ × ٠٫٤ مترًا، وصاحبها فرد يدعى «باشري-موت» ونقش عليها ما يأتي:

- **المتن الذي على اليسار:** يا أوزير كاهن آمون وكاهن حور «باشري-موت» إن هذا القربان المقدس قد قدم لك، وليت قلبك يهنأ به كل يوم: ألفك من الخبز والجعة، وألفك من رءوس البهائم والطيور، وألفك من كل شيء طيب وحلو، وألفك من أواني المرمر.
- **المتن الذي على اليمين:** يا أوزير كاهن آمون وكاهن حور «باشري-موت» لديك ماؤك ولديك خيراتك ولديك نطرونك، الذي يحمله لك ابنك، وهي التي ستبقى دون أن تبعد عنك أبديًّا.

وقد حُلِّي جانبَا المائدة كذلك بمتنين:

- **ففي الجهة اليسرى نقش:** قربان يقدمه الملك وأوزير الذي يشرف على الغرب آلاف من الخبز والجعة والبخور والعطور والملابس، وكل شيء طيب لروح الأمير الوراثي، والحاكم، وكاهن آمون في طيبة وكاهن حور الطفل المعروف لدى الملك «باشري-موت».
- **وفي الجهة اليمنى نقش:** قربان يقدمه الملك «وأنوبيس» الذي على جبل الثعبان والذي في «أون» وسيد الأرض المقدسة، قربان من الخبز والجعة ورءوس البهائم والطيور والملابس والبخور والعطور، وكل شيء طيب وطاهر تمنحه السماء وتوجده الأرض من الذي يحيا منه إله لأجل روح الأمير الوراثي، والحاكم، وكاهن آمون المعروف لدى الملك «باشري-موت» صادق القول.

يلحظ في متون هذه المائدة أن علاقة «باشري-موت» بالنسبة لمنتومحات لم تحدد، ولكن ما لدينا من نقوش أخرى تثبت بدهيًّا أنه ابن «منتومحات» والسيدة «وزارنس» كما سنرى في الوثيقة (٥٢) في هذا البحث والوثيقة (٤٧) والوثيقة (٦٦) … إلخ.

وإذا كنا نجد في جهات متعددة من نقوش هذا القبر أن الشعائر كان يقيمها «نسبتاح» وهو الابن الأكبر للمتوفى وللسيدة «نسخنسو»، فإن «باشري-موت» هو الذي كان يقوم بأداء

الشعائر على جدران الكوة الجنوبية من الجهة الشرقية للردهة الكبيرة، حيث نجد أمه «وزارنس» قاعدة إلى جانب «منتومحات»، وهذا أمر طبعي بالنسبة لأمه.

مائدة القربان رقم (٥): هذه المائدة مصنوعة من الجرانيت الأسود وهي كالسابقة؛ أي إنها لوحة صغيرة سمكها عشرة سنتيمترات وترتكز على سنادة ويحيط بإطارها متنان:

- **المتن الذي على اليسار:** أوزير «بيس ديمن»، لديك ماؤك، ولديك خيراتك، ولديك نطرونك، ولديك قربانك لكل يوم، يا أوزير رفيع الأتباع، «بيس ديمن» إن ذلك لن يبعد عنك.

- **المتن الذي على الجانب الأيمن:** أوزير «بيس ديمن» إن القربان المقدس قد قدم لك: خبز وجعة ورءوس بهائم وطيور، وهي التي هناك يوميًّا، ليتك تصير حيًّا بها ومشرقًا بها وقويًّا «بها» ومنتعشًا «بها» ومتينًا «بها».

والمتن التالي نقش على الجانبين الصغيرين للمائدة.

كلام يقال: أوزير حارس ضياع «موت» المسمى «بيس ديمن» خذ لك مرطباتك هذه، ارفع صولجانك الذي تحت العرش العظيم، المرطبات التي تخرج من الفنتين لأجل أن يرطب قلبك بها باسمك الذي يخرج منعشًا، أوزير رفيع الأتباع الخاصة بأملاك «موت» «بيس ديمن» خذ لك عين حور التي تضم لك الماء الذي فيها، أنت يا من صار منعشًا وممدوحًا ومحبوبًا.

ويلفت النظر هنا أن «بيس ديمن» حارس ضياع موت كان من شخصيات العهد الكوشي عثر له حديثًا على تمثال مكعب في شرقي معبد «آمون» العظيم[٥٩] يخبرنا أن ابنه «باكش» وأمه «تاهينيمن» ونسبته إلى بطلنا «منتومحات» ليست معروفة لنا، وهو بذلك يكون مثله كمثل «عاكي» أو «إرى حب ياوت» اللذين لهما مقصورتان باسميهما في الردهة العظيمة التي في مقبرة «منتومحات».[٦٠]

ويلحظ أن خمس الموائد التي وصفناها يوجد بينها تشابه لدرجة أنه في استطاعتنا أن نقول عنها إنها من طراز خاص بالعصر الكوشي، يضاف إلى ذلك مائدة قربان الزوجة الإلهية «أمنردس» المحفوظة الآن بالمتحف المصري،[٦١] وكذلك مائدة قربان الزوجة الإلهية «شبنوبت» الموجودة الآن بمدينة «هابو» (راجع A.S.L.I.P. 506-7 Pl. VII A b VIII A b) ومائدة قربان المتعبدة الإلهية «نيتوكريس» التي في «المدمود»،[٦٢] ومائدة قربان «حاروا» من «دير المدينة»، كل هذه الموائد هي من نفس الطراز، هذا بالإضافة إلى مائدة قربان بالمتحف البريطاني تحمل أسماء «أمنردس» «وشبنوبت» «وكشتا».[٦٣]

ومما يلفت النظر هنا بوجه خاص أن نظام صنع موائد القربان التي وجدناها في هذه المقبرة كان هو النظام الشائع في صنع موائد القربان في هذا العصر؛ مما جعل لها طابعًا خاصًّا تتميز به وتحدد العصر الذي عملت فيه بصفة عامة.[٦٤]

وخلاصة القول عن قبر هذا العظيم الذي لم يتم الكشف عن محتوياته تمامًا حتى الآن أن ما عرفناه حتى الآن عنه يقدم لنا معلومات هامة عن وظائفه ونعوته وعن بعض أفراد أسرته، هذا بالإضافة إلى أن كثيرًا من الآثار التي نجدها مبعثرة في متاحف العالم باسم هذا الأمير لا بد أنها قد أتت من هذه المقبرة الضخمة، وذلك على حسب طبيعتها ووظيفتها.

- **الوثيقة الخامسة والأربعون:** فمن ذلك أنه يوجد في متحف «فلورنسا» قطعة حجر عليها نقوش (No 1590 du Catalogue General) تمثل منظر صيد في الأحراج، ويقول «بتري»:[٦٥] إن هذه القطعة أتت من مقبرة «منتومحات» وقد جاء عليها: الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، مدير … المشرف على حكام الجنوب، والكاهن الرابع لآمون، وكاتب معبد بيت آمون، وعمدة المدينة «منتومحات».

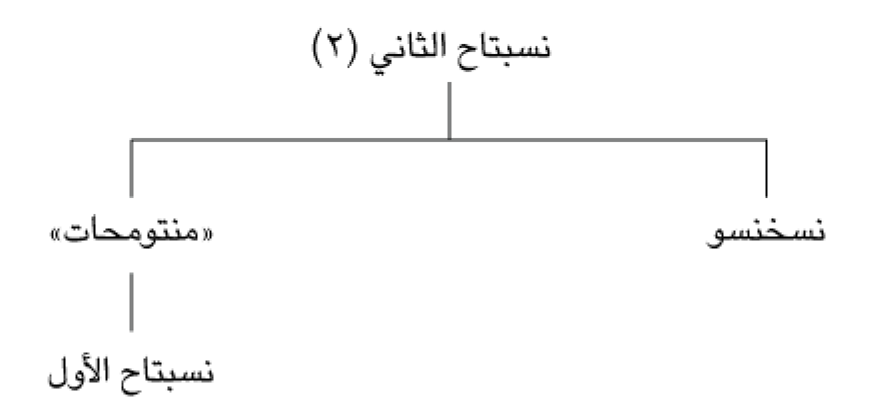
- **الوثيقة السادسة والأربعون:** مقصورة «تهرقا» في معبد الإلهة «موت»: يوجد في شرقي معبد الإلهة «موت» بالكرنك حجرة صغيرة جدًّا يفتح بابها غربًا، وقد نقش على جدرانها

الجانبية متنان غير كاملين ذكر عليهما «منتومحات» الأعمال الهامة التي قام بأعبائها في طيبة لإعادة بناء ما خرب منها على يد الآشوريين في عهد الملك «آشور بنيبال».

ومما يلفت النظر أنه توجد صورة في نهاية هذه المقصورة مثل في الجزء الأعلى منها عدة صور إلهية، وفي الجزء الأسفل من الصورة يشاهد الملك «تهرقا» يتعبد فيه للإلهة «موت» ويتبعه «نسبتاح الأول» ثم «منتومحات» ابنه وأخيرًا «نسبتاح» حفيده.

وهذا المنظر يقدم لنا سلسلة النسب التالية كما جاءت في النقوش.

(١) «خو رع نفر تم» «تهرقا»



وهاك ألقاب كل منهم:

(٢) نسبتاح الثاني: كاهن آمون في الكرنك ورئيس فرقة من الكهنة ابن …

(٣) «منتومحات»: الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري … والكاهن الرابع لآمون، الإله العظيم وكاهن آمون في الكرنك «وحاكم» الجنوب ابن …

(٤) «نسبتاح الأول» … في الكرنك، وكاتب القربان في معبد آمون، وعمدة المدينة وأمه …

(٥) «نسخنسو» ربة البيت.

ويدل وجود اسم «تهرقا على هذا الأثر على أن «نسبتاح الأول» كان لا يزال عائشًا في هذا العهد؛ أي بعد غزو الآشوريين لمدينة طيبة، وتدل المتون الجانبية على أن «منتومحات» لا والده كان مكلفًا بإصلاح المعابد المخربة، وتقدم لنا هذه المتون فضلًا عن ذلك بعض ألقاب «منتومحات» ووالده».

ألقاب «منتومحات» … كل الآلهة والكاهن الرابع لآمون والمشرف على مقاطعات الجنوب كلها.

نسبتاح: كاهن آمون، وعمدة المدينة.

وأخيرًا نجد في سطر أن «نسبتاح الثاني» كان يحمل لقبي ملاحظ الكهنة في طيبة ورئيس فرقة كهنة.[٦٦]

والنقوش التي على جدران هذه المقصورة من الأهمية بمكان؛ وذلك لأنها تقدم لنا معلومات عن إمارة طيبة في عهد المتعبدات الإلهيات، وكان تاريخها قد بقي مجهولًا منذ منتصف الأسرة الثانية والعشرين حتى الجزء الأخير من العهد الكوشي في مصر، فقد رأيناها في قبضة «بيعنخي» حوالي نهاية الأسرة الثالثة والعشرين، غير أن تاريخها المحلي كان لا يزال غامضًا كلية حتى عهد «تهرقا»، وذلك عندما نشاهد «نسبتاح» السالف الذكر الملقب كاهن آمون، وعمدة طيبة يحكم فيها، ثم ورثه من بعده ابنه «منتومحات» الذي بقي في منصبه هذا خلال حكم «تهرقا» متمتعًا بسلطان عظيم وببسطة في الرزق، وعلى الرغم من أنه كان حاكم إمارة طيبة فإنه كان يحمل لقب الكاهن الرابع، كما كان في الوقت نفسه يحمل لقب رئيس كهنة كل الآلهة في الجنوب وفي الشمال، وعلى ذلك كان يحتل المكانة الأولى الدينية دون أن يحمل لقب الكاهن الأول لآمون، ومن ثم نفهم أن الكاهن الأول لآمون كانت قد نُزعت منه آنئذٍ كل سلطته الدنيوية بوصفه أمير إقليم طيبة، كما كان قد فقد سلطانه الديني الذي كانت تتولاه المتعبدة الإلهية، ويؤكد لنا ذلك ما كان

«لمنتومحات» من مكانة بالنسبة للكاهن الأول لآمون في لوحة التبني التي خلفتها لنا «نيتوكريس».

ولما كان والد «منتومحات» أميرًا على طيبة قبله فإن هذه التغيرات لا بد كانت قد حدثت قبل بداية حكم الأسرة الكوشية في عهد «شبكا».

وكان النشاط الذي أظهره «منتومحات» في إقامة المباني وإصلاح الآثار في طيبة سببًا في جعل مدة حكمه لولاية طيبة بارزة ملموسة، والظاهر من نقوشه المهشمة أن كل أعمال البناء والإصلاحات الأخرى التي قام بها كانت قبل وفاة «تهرقا»، يضاف إلى ذلك أن التجديدات العدة التي قام بها وإعادة تماثيل العبادة الثمينة للآلهة، والإشارات الخاصة بتطهير كل المعابد في الجنوب والتلميحات المبهمة الجارحة الكثيرة قد حدت بنا إلى أن نرجح جدًّا أن الاستيلاء على طيبة وتخريبها كان حوالي عام ٦٦٧ق.م، على يد الملك «آشور بنيبال» الآشوري في أثناء حملته الأولى، وإن كان ذلك غير مؤكد كما يستخلص من سجلاته المرتبكة، ولا بد أن الإصلاحات التي قام بها «منتومحات» قد حدثت ما بين عامي ٦٦٧–٦٦١ق.م، وتدل شواهد الأحوال على أن الثروة التي أنفقها «منتومحات» في إصلاح مدينة طيبة المخربة كانت عظيمة جدًّا، ولكنها على ما يظهر قد وقعت فريسة في يد الآشوريين حوالي عام ٦٦٠ق.م، في حملته الثانية التي استولى فيها على طيبة تمامًا وذلك عندما خربها تخريبًا بشعًا، ولم نسمع عن «منتومحات» أنه قام كرة أخرى محاولًا إصلاح ما ارتكبه الآشوريون من تخريب شامل لهذه المدينة. وتدل النقوش على أنه استمر حاكمًا لإمارة طيبة متمشيًا مع السياسة الآشورية، وقد عاش حتى بداية حكم الأسرة السادسة والعشرين، وبقي محافظًا على مركزه في عهد «بسمتيك الأول» بما فطر عليه من دهاء وحنكة، غير أن ابنه «نسبتاح الثاني» لم يخلفه في وظيفته، وعلى أية حال لم يكن من المستطاع حتى الآن تتبع سلسلة نسب أسرته بعد ذلك العهد.

والسجل لذي تركه لنا «منتومحات» في (الوثيقة التي نحن بصددها كما قلنا) منظر صور على الجدار الخلفي لحجرة مقصورته، ويشغل هذا المنظر الجدارين الجانبيين، وعلى

يمين هذا المنظر يبتدئ المتن الذي تركه «منتومحات»، وعلى الرغم من تهشمه فإنه من الأهمية بمكان.

وهاك ما تبقى منه:

> الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد … كل الآلهة، والكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة، والمشرف على كل مصر العليا «منتومحات» العائش، ابن كاهن آمون، وعمدة المدينة المسمى «نسبتاح»، والمبرأ، يقول: لقد بنيت «قارب أوزير»، طوله ثمانون ذراعًا من خشب الأرز الحقيقي من أحسن خشب لبنان، ومقصورته من الذهب مرصعة بكل أنواع الأحجار الثمينة الحرة … وطهرت معابد كل الآلهة في كل مقاطعات الوجه القبلي على حسب تعليمات تطهير المعبد … وبعد أن كان قد حدث … في الوجه القبلي … وكل هذه الأشياء التي أحدثك عنها ليس فيها مبالغة ولا مفاخرة «لأن ما أمقت هو» عدم الصدق، وليس في فمي أي كذب، وإن سيدتي تعرف كل ما أوجدت «وكذلك» خارج طيبة مدينة «آمون رنف» (اسم آمون) عين رع وسيدة «كل المدن» … ولقد أرضيت سيدها بما يحبه قلبه من ثيران عدة وعجول طيبة، ونظمت حريم سيدي حسنًا … بوساطة خبزي وقرباني الإلهي كما كان ينبغي أن تقدم في الأيام المحددة لعيد باكورة الفصول، وضاعفت أسطوله (؟) … وكانت شونته حبلى بباكورة حقوله، والسفن السائحة في أوقات معلومة شمالًا وجنوبًا كانت في عيد … في زمنه المحدد لتجعل هذا البيت في عيد بطعامه. وللكهنة، وللكهنة المطهرين يشكرون الإله، وكهنة الساعة للمعبد «يقومون بواجباتهم» … بوساطة المقاطعات، والعظماء والصغار «كانوا فرحين» بالذي فعلته، وهو نيل لمدينتي، فقد سقيت الأرض، والمدن والمقاطعات صارت دسمة «حتى إن الناس قالوا» إنه واحد قد علمه الإله.

لقد جعلت مصر العليا تسير في طريق الإله في حين كانت كل البلاد عقبًا على رأس بسبب عظم «المصيبة» … بوساطة عظم تفوقي «لسيدي» الذي أتى من الجنوب [٦٧] وقد هدأت … بمثابة ملجأ لمدينتي وأقصيت المجرم من مقاطعات الوجه القبلي [٦٨] … وتبع إلهه دون توانٍ، وفتحت المعبد وشاهدت ما فيه وأغلقت كل مقصورة بختمي … وقد قمت بواجبي في المعبد باستمرار على حسب خطوات سيدي عندما كان ابني معي … طاهرة لروحي، وكيل المشرف على الكهنة في طيبة ورئيس طائفة الكهنة المسمى «نسبتاح» وأولادي في صحة … والكهنة يعرفون التعليمات وقد أمضيت الوقت عندما كنت أبحث عن الصالح، وسهرت الليل عندما كنت أبحث عما يفيد … عندما كنت أجمع التعليمات التي كانت على وشك أن تنسى … لأني عرفت أن الله يحب الذي يعمل العدل، وقد عملت ذلك بقوة ساعدي … ولم يكن هناك من هو مثلي عدا ابني الذي يكون في مكاني وهو وريثي الفاخر الذي يأخذ بتعاليمي … ليت ضيعته تكون مقدسة وقومه وكل إنسان … وهذا هو الجزاء أمام سيد الآلهة آمون العظيم والحاكم … وبوساطة «موت» سيدة السماء وعين «رع»، «وخنسو» الإله العظيم الذي خرج من «نون» وبوساطة «منتو» رب طيبة والتاسوع العظيم … وبوساطة سيدتنا والآلهة التابعين لجلالتها وبوساطة التاسوع الإلهي الذي في معبد «موت» (أي ما يأتي) حياة طيبة بغير مرض، والسرور … ودفن جميل وعمر مديد ووارثون ممتازون يمكثون في مكانهم عندما نصل «إلى الغرب» … وأن تقوم كل أعضائنا بوظائفها «ويبقى» اسمنا «في فم الأحياء» … وحظوتنا … وأنه يبقى هنا في بيتك، ونفكر.

الكاهن الرابع لآمون بالكرنك، وعمدة المدينة، والمشرف على الوجه القبلي «منتومحات» … هنا في معبد «موت» … الكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة، والمشرف على كل الوجه القبلي «منتومحات» … سيدتنا «موت» سيدة السماء وعين «رع» التي في جبينه … وبذلك تحني ذراعك بالقربان عندما تقدم القربان لآمون.[٦٩]

وعلى الجانب الآخر من المنظر نقرأ تعداد المباني والأعمال الأخرى التي أنجزت من أجل المعابد.

الأعمال التي عملت للإله مين-آمون: أحضرت الإله «مين-آمون» لسلمه في البيت الجنوبي «الأقصر» في عيده الجميل … كثرة، وقدمت القرابين الخاصة بثمانية الآلهة في الشهر الثاني من الفصل الثالث واليوم الثامن والثامن والعشرين لأجل أن … من السام «إلكتروم» وكل حجر فاخر ثمين، وسويت صورة «خنسو باخرد» الفاخرة مغشاة بالذهب «وتسمى» كل ظهور له يكون … تيجان وضعت عرشًا لهذا الإله أرجله من الفضة الخالصة وصور مرصعة (٦) … من شروطه … بعد مدة طويلة من السنين بدأت تتداعى (٧) …

معبد موت (؟): وأقمت معبدًا من الحجر (٨) … «والأبواب كانت» من الأرز الجديد، وخشب «قدت» مغشى بالنحاس، والأشكال المرصعة فيه كانت من السام، والمزاليج والأربطة (٩) … ذهب مرصع بكل حجر ثمين، وأقمت لها قاعة ذات أربعة وثلاثين عمودًا[٧٠] من الحجر الرملي الأبيض الجميل … (١٠) … وبنيت بحيرتها الطاهرة الجميلة من الحجر الرملي الأبيض الجميل، وأقمت لها مستودعها لأجل أن تخزن فيه قربانها المقدسة، وضاعفت موائد القربان (١١) …

أعمال للإله «خنسو»: وأصلحت التمثال الفاخر للإله «خنسو-في طيبة المأوى الجميل» «الذي يسمى» لابس التاج المقدس بالذهب وكل حجر حر ثمين، وضاعفت موائد قربانهم المصنوعة من الفضة والذهب والنحاس (١٢) … وألبست «خنسو» المسمى «واضع التصميم بوصفه انبثاقًا إلهيًا» بالسام كما كان من قبل.

أعمال للإله «منتو»: وأقمت البحيرة الطاهرة الخاصة بالإله «منتو» رب طيبة من الحجر الرملي الأبيض الجميل مثل (١٣) … مضيئًا بيته العظيم الفاخر بها، وضاعفت موائد قربانه المصنوعة من الفضة والذهب والبرنز.

الآلهة الطيبيون: وقد صنعت أواني فردية وجهزت الإله «وس»[٧١] والإلهة «وست»؛ أي طيبة المنتصرة سيدة القوة بوصفها انبثاقًا إلهيًا (١٤) …

صورة الإلهة «باست»: وضعت صورة الإلهة «باست» الفاخرة القاطنة في طيبة بقضبان «لحملها» من السام وكل حجر حر ثمين.

أعمال للإله «بتاح»: وصنعت تمثال «بتاح» الفاخر المسمى «طيبة لامعة عند طلوعه»، من الذهب (١٥) … وموائد قربانهم أكثر جمالًا من ذي قبل.

صور الإلهة «حتحور»: وصنعت «صورة» الإلهة «حتحور» سيدة الوادي «المسماة» … لامعة، مثل انبثاقهم الفاخر على حسب ما يتبقى أن يعمل بفحص تام (١٦) … وكل واحد هناك له قضيبان.

صور آمون: وصنعت صورة «آمون» الفاخرة، رب طيبة القاطن في طيبة، وصورة «خنسو» الفاخرة المسماة «حاسب الحياة»، وصورة «آمون» الفاخرة سيد طيبة (١٧) … وكل واحد منهم له قضيبان «يحمل عليهما».

تمثال أمنحتب الأول «المؤله»: وصنعت تمثال «جسر كارع» (أمنحتب الأول) المنتصر من السام وكل حجر ثمين بقضيبين كما كان من قبل (١٨) …

«خنسو» صاحب «ثمت» (مدينة هابو): وسويت تمثال «خنسو» القاطن في ثمت … من السام بقضيبين.

صورة الواحدة العظيمة: وصنعت صورة الواحدة العظيمة صاحبة الحديثة مثل انبثاقها الفاخر، وأصلحت معابدها لتكون كما كانت من قبل.

جدار الكرنك: (١٩) … وهي من حجر رملي أبيض، لأجل أن تبعد فيضان النهر منها «عندما يأتي» ونخت (٢٠) … في عيده الجميل للشهر الرابع من الفصل الأول اليوم الخامس والعشرين، وأصلحت جدار معبد «آمون» في الكرنك … (٢١) … وأقمت … من اللبنات على حسب ما وجد صالحًا لأجل الأجداد (٢٢) …

الأعمال الخاصة بالثور المقدس: «وسويت» تمثال ثور «ماد» (حرم مقدس بالقرب من الكرنك) بوصفه انبثاقه الفاخر وأقمت بيته، فكان أكثر جمالًا عما كان هناك (٢٣) من قبل …

معبد الإله «منتو»: وأقمت معبد الإله «منتو» سيد … وبواباته لمعت بجمال (٢٤) …

أعمال لآلهة لم يعرف اسمها: «وسويت صورة» على سلمه المسمى … للحقل في «طيبة»، من الذهب أكثر جمالًا عما كانت من قبل (٢٥) … الذي هو سيد الإقليم الجبلي، القاطن في «خمخم» …

صورة الإله «حور»

وسويت الصورة الفاخرة «لحور» المسمى الإله يسكن (٢٦) …

صورة «مين»؟: وسويت صورة «مين» المسمى رئيس السماء بوصفها انبثاقه الفاخر، مغشاة (٢٧) …

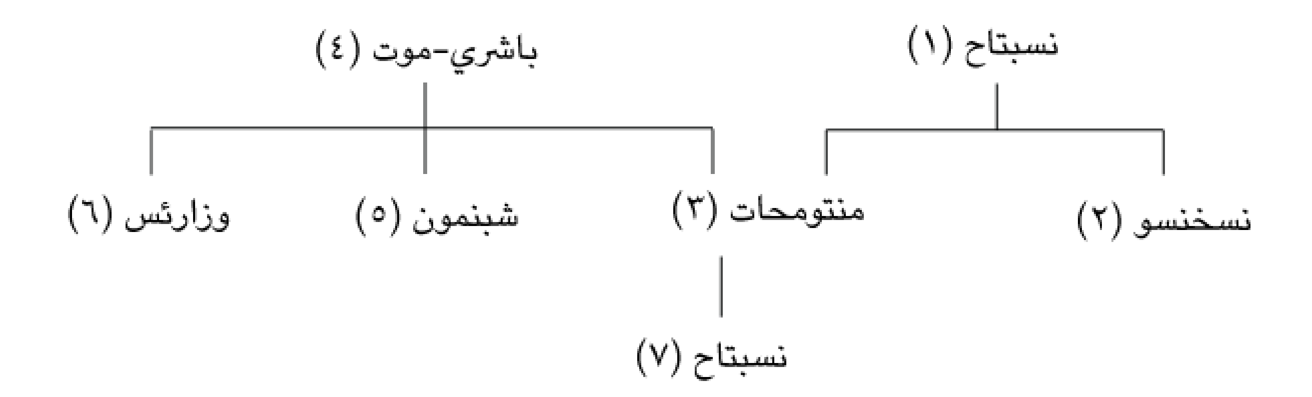
صوة الإله «تحوت»: وسويت صورة «تحوت» الفاخرة المشرف على «حان إبتي» والقاطن في …

أعمال للإلهة «إزيس»: (٢٨) … أنا … انبثاق إزيس «مظهرها» وسويت … عليهم … كل مدينتي … (٢٩) … أكثر جمالًا عن ذي قبل، وأقمت بحيرة مقدسة لمعبد «إزيس» …

أعمال للإله «أوزير»: صنعت قارب «أوزير» في هذا الإقليم … ذراعًا … من خشب الأرز الجديد على حسب الشروط المعتادة «بعد أن كنت» قد وجدتها من خشب السنط … (٣١) … من اللبنات بعد أن كنت قد وجدتها أخذت تئول إلى الخراب.[٧٢]

- **الوثيقة السابعة والأربعون:** يوجد في مجموعة جرانت[٧٣] تمثال خاص بفرع «نسبتاح»-«منتومحات» وهو معروف منذ زمن طويل غير أنه مهشم.

ونستخلص منه سلسلة النسب التالية:



وهاك ألقاب كل منهم:

- (١) نسبتاح = الابن الأكبر وكاهن آمون المعروف لدى الملك.
- (٢) نسخنسو = ربة البيت.
- (٣) «منتومحات» = الكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة.
- (٤) باشري-موت = كاهن آمون وقريب الملك.
- (٥) شبنموت = زوجة «منتومحات» وربة البيت.
- (٦) وزارنس = ربة البيت.
- (٧) نسبتاح = كاهن آمون، وكاتب مائدة بيت آمون، وعمدة المدينة.

المخاريط الجنازية الخاصة بمنتومحات: يوجد في المتاحف المختلفة عشرة طرز من المخاريط الجنازية من متاع «منتومحات»، وقد فحص هذه المخاريط كل من «مسبرو» «وفيدمان» «وبتري» «ودارسي»، وتقدم لنا الوثائق التالية:

- **الوثيقة الثامنة والأربعون**[٧٤]**:** (١) جاء على مخروط ما يأتي: الكاهن الرابع لآمون ملك الآلهة «منتومحات» المبرأ وابنه البكر من صلبه، هو كاهن آمون المعروف لدى الملك «نسبتاح» الذي وضعته ربة البيت «نسخنسو» المبرأة.

- **الوثيقة التاسعة والأربعون**[٧٥]**:** (٢) جاء على هذا المخروط ما يأتي: الكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة «منتومحات» المبرأ، ابن كاهن آمون، وكاتب مائدة بيت آمون، وعمدة المدينة «نسبتاح» المبرأ.

- **الوثيقة الخمسون**[٧٦]**:** (٣) نقش على هذا المخروط ما يأتي: الأمير الوراثي، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، والكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة «منتومحات».

- **الوثيقة الحادية والخمسون**[٧٧]**:** (٤) نقش على المخروط ما يأتي: أوزير، الأمير الوراثي، والكاهن الرابع لآمون، وكاتب معبد آمون، وملاحظ الكهنة في المعابد، «منتومحات» المبرأ.

- **الوثيقة الثانية والخمسون**[٧٨]**:** (٥) جاء فيها: أوزير الكاهن الرابع لآمون «منتومحات» المبرأ ابنه من صلبه كاهن آمون وقريب الملك «باشري-موت» الذي وضعته ربة البيت «وزارنس» المبرأة.

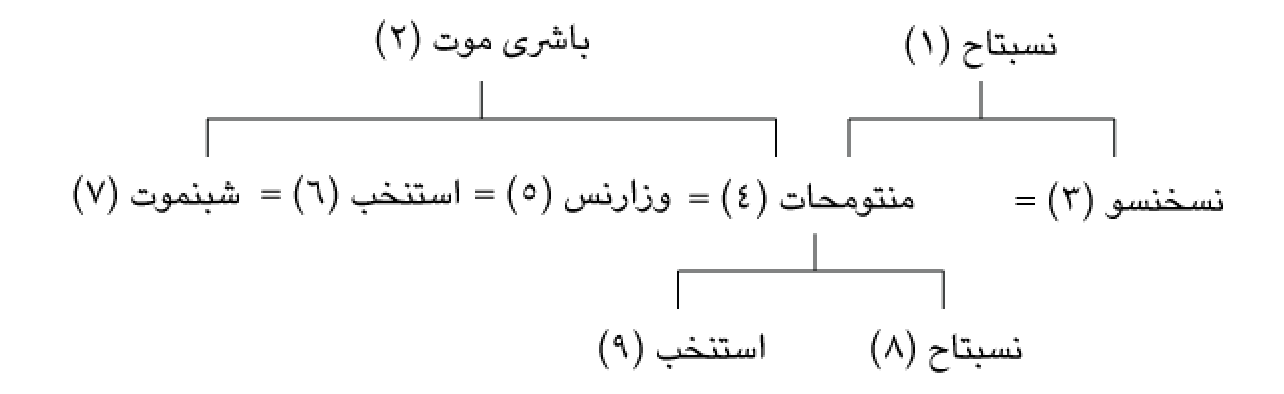
- **الوثيقة الثالثة والخمسون**[٧٩]**:** (٦) جاء فيها: المقرب من أوزير الأمير الوراثي، والحاكم، والكاهن الرابع لآمون «منتومحات» صادق القول، أمه ربة البيت «أستنخب» المبرأ.

- **الوثيقة الرابعة والخمسون**[٨٠]**:** (٧) جاء فيها: المقرب من أوزير الكاهن الرابع لآمون «منتومحات» المبرأ وزوجه محبوبته المعروفة لدى الملك «وزارنس» المبرأة.

- **الوثيقة الخامسة والخمسون**[٨١]**:** (٨) نقش على هذا المخروط المتن التالي: المقرب من أوزير الكاهن الرابع لآمون «منتومحات» وزوجه محبوبته المعروفة لدى الملك وربة البيت «شبنموت» المبرأة.

- **الوثيقة السادسة والخمسون**[٨٢]: (٩) جاء فيها: المقرب من أوزير الأمير الوراثي، والحاكم «منتومحات» المبرأ وزوجه ربة البيت «أستنخب» المبرأة.
- **الوثيقة السابعة والخمسون:** (١٠) جاء فيها: المقرب من أوزير، الأمير الوراثي «منتومحات» المبرأ، وزوجه محبوبته وقريبة الملك، ربة البيت «نسخنسو».
- **الوثيقة الثامنة والخمسون**[٨٣]: (١١) جاء فيها: أوزير الحاكم المشرف على الوجه القبلي «منتومحات» المبرأ، أوزير الكاهن الرابع لآمون «منتومحات» المبرأ.
- **الوثيقة التاسعة والخمسون**[٨٤]: هذا المخروط محفوظ بمتحف تورين، وقد جاء عليه النص التالي: «أوزير الحاكم والمشرف على نخن «منتومحات» المبرأ.»

ونستخلص من وثائق المخاريط السابقة سلسلة النسب التالية:



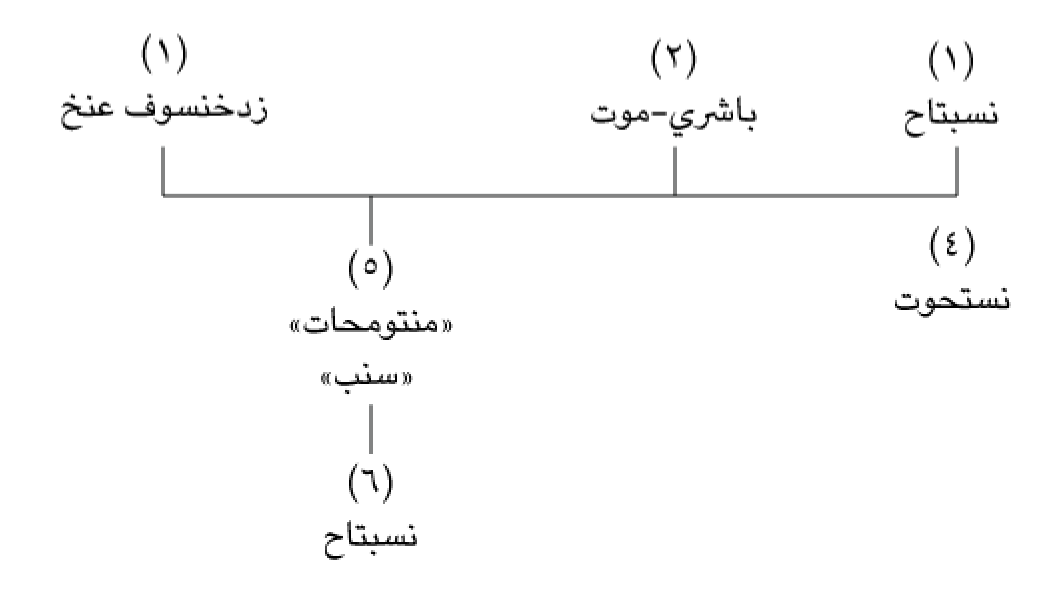
وهاك ألقاب كل منهم:

- (١) نسبتاح: بِكر أولاده من صلبه، وكاهن آمون والمعروف لدى الملك.
- (٢) باشري موت: ابنه من صلبه (أي ابن «منتومحات») وكاهن آمون والمعروف لدى الملك.
- (٣) نسخنسو: زوجه (أي زوج «منتومحات») والمعروفة لدى الملك وربة البيت.

- (٤) منتومحات: الكاهن الرابع لآمون ملك الآلهة، وعمدة المدينة، والحاكم، والأمير الوراثي، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد، وكاتب معبد آمون، وملاحظ الكهنة في المعابد، والمقرب من أوزير، والمشرف على الجنوب، والمشرف على نخن «الكاب».
- (٥) وزارنس: زوجه محبوبته، والمعروفة لدى الملك وربة البيت.
- (٦) أستنخب: زوجه وربة البيت.
- (٧) شبنموت: زوجه ومحبوبته، والمعروفة لدى الملك وربة البيت.
- (٨) نسبتاح: كاهن آمون، وكاتب مائدة بيت آمون، وعمدة المدينة.
- (٩) أستنخب: أم «منتومحات» وزوج «نسبتاح».

- **الوثيقة الستون:** قاعدة تمثال من الجرانيت الأسود وجدت في خبيئة الكرنك نقش عليها أسماء ثلاثة من أولاد «منتومحات» كما يظهر أنه نقش عليها اسم أحد إخوته المسمى «نستحوت».[٨٥]

وهاك سلسلة النسب التي استخلصت من نقوش هذه القاعدة:



وهاك ألقاب كل منهم:

- (١) نسبتاح: ابنه الأكبر ووريثه الماهر وسيد كل أملاكه وكاهن آمون ورئيس فرقة الكهنة.
- (٢) باشري موت: ابنه من صلبه وكاهن آمون الذي يرى الإله (؟).
- (٣) زدخنسوف عنخ: ابنه من صلبه كاهن آمون والمعروف لدى الملك.
- (٤) نستحوت: أخوه.
- (٥) … حامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، وعظيم العظماء، ونبيل النبلاء، وملاحظ الكهنة، والمشرف على الكهنة في المعابد، والكاهن الرابع لآمون، وحاجب الإله، وكاتب معبد بيت آمون … في طيبة «نفر حتب»، وكاهن الإله «سكر» نزيل الكرنك، وحاكم مقاطعة طيبة، والمشرف على الجنوب …
- (٦) نسبتاح المبرأ: كاهن آمون، وعمدة المدينة.

ومما يؤسف له أن لم يبقَ لنا من اسم «منتومحات» في هذه الوثيقة شيء قط، بل نستخلص من باب الحدس والتخمين أنه هو المقصود هنا كما تدل على ذلك معظم النقوش التي في متناولنا.

- **الوثيقة الحادية والستون:** لوحة التبني الخاصة بالأميرة «نيتوكريس»:[٨٦] هذه الوثيقة كتبت في عهد الملك «بسمتيك الأول»، وقد جاء فيها أنه في السنة التاسعة، الشهر الثاني من الفصل الأول، اليوم الرابع عشر من حكم الملك «بسمتيك الأول» وصلت إلى طيبة «نيتوكريس» ابنته لتصبح ابنة للمتعبدة الإلهية «شبنوبت الثانية» وتسمى «شبنوبت الثالثة»، وعلى ذلك تخلفها فيما بعد بوصفها زوج الإله آمون، وفي الوقت نفسه تكون قد حلت محل «أمنردس» الثانية ابنة «تهرقا» التي أعفيت من هذا التبني بسبب انتقال

الحكم من يد الكوشيين إلى يد «بسمتيك الأول» المصري مؤسس الأسرة السادسة والعشرين الساوية.

وفي نقوش هذه اللوحة التي سنتحدث عنها طويلًا فيما بعد نجد أنه خلافًا لما منحته هذه المتعبدة الإلهية «نيتوكريس» من أراض ودخل من محاصيل عينية في بقاع عدة في أنحاء مصر قد قدم لها كبار الشخصيات أصحاب الجاه في طيبة وغيرها الذين استقبلوها عند وصولها الهبات التالية:

فقد منحت خبزًا وجعة لمعبد آمون:

- (١) فأعطاها الكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة، والمشرف على الجنوب كله «منتومحات» يوميًّا مائتي دبن من الخبز وخمسة هنات من النبيذ وفطيرة «شع» وحزمة خضر، كما أعطاها شهريًّا ثلاثة ثيران وخمس أوزات.
- (٢) ومنحتها ابنة أكبر الملاحظين للكهنة في طيبة المسمى «نسبتاح» يوميًّا دبنًا من الخبز وهنين من النبيذ وحزمة خضر.كما منحتها شهريًّا خمس عشرة فطيرة شعت وعشر هنات من الجعة «جرار» وحقولًا من إقليم «قعحت» التابع لواوات مساحتها مائة ستات «أرورا».
- (٣) ومنحتها زوج الكاهن الرابع لآمون «منتومحات» المسماة «وزارنس» يوميًّا مائة دبن من الخبز.
- (٤) ومنحها الكاهن الأكبر لآمون «حور إم أخبيت» يوميًّا مائة دبن من الخبز وهنين من النبيذ، كما أعطاها شهريًّا عشر فطائر شعت وعشر حزم من الخضر.
- (٥) ومنحها الكاهن الثالث لآمون المسمى «بدي آمون نب نستاوي» يوميًّا مائة دبن من الخبز وهنين من النبيذ، كما أعطاها شهريًّا خمسين جرة من الجعة وعشر فطائر شعت وعشر حزم خضر.

أي إن مجموع ما مُنِحته المتعبدة الإلهية هو ست مائة دبن من الخبز وأحد عشر هنًّا من النبيذ وـ فطير شعت وـ حزم خضر كل يوم، وثلاثة ثيران وخمس أوزات و٢٠ جرة جعة ومائة ستات «= أرورا» من الأرض شهريًّا.

وهذه الوثيقة التي اقتبسناها من لوحة التبني للمتعبدة الإلهية «نيتوكوريس» تظهر عجيبة من وجوه عدة، فنجد أولًا أن «منتومحات» وابنه وزوجه كان لهم الأولوية على الكاهن الأول لآمون المسمى «حور إم أخبيت»، والواقع أن امتياز «منتومحات» وزوجه على الكاهن الأول يعد دليلًا على أن «منتومحات» كانت له سيادة معترف بها، ويلحظ فضلًا عن ذلك أنه عند قرن الهدايا التي قدمها كل من هؤلاء، نجد أن هدايا «منتومحات» وابنه كانت أعظم من التي قدمها «حور إم أخبيت» الكاهن الأكبر لآمون، وكذلك يلحظ أن الهدايا التي قدمها «حور إم أخبيت» تعادل الهدايا التي قدمها الكاهن الثالث المسمى «بدي-أمن-نستاوي» وهذا دليل على أن نفوذ «حور إم أخبيت» كان قليلًا نسبيًّا على الرغم من عظم الوظيفة التي كان يتقلدها.

ومن النقط التي يجب الاهتمام بها هنا بالنسبة لتاريخ أسرة «منتومحات» أنه كان مصحوبًا بابنه ووريثه الشرعي المسيطر على كل ممتلكاته وهو «نسبتاح» الذي وضعته السيدة «نسخنسو»، ولا بد أن هذه السيدة كانت قد ماتت وقتئذٍ؛ وذلك لأن الزوجة التي كانت بجانب «منتومحات» وقتئذٍ هي «وزارنس» والدة ابنه الثاني المسمى «باشري موت» ويظهر من الوثيقة السادسة والستين التي سنتحدث عنها فيما بعد أن «نسخنسو» قد ماتت صغيرة أو طلقت.

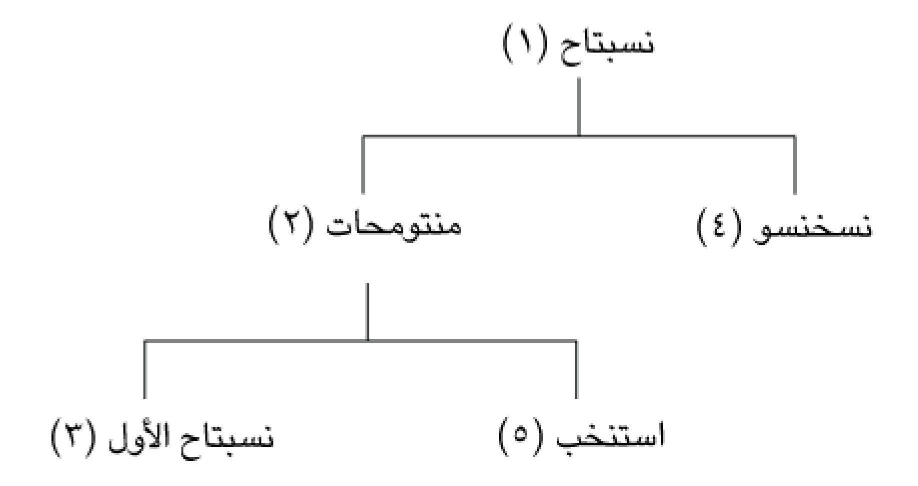
نسبتاح الثاني ابن «منتومحات»: تقدم لنا كل من مقصورة الملك «تهرقا» التي أقيمت في معبد الإلهة موت بالكرنك (الوثيقة رقم ٤٦) ولوحة التبني التي أقامتها المتعبدة الإلهية «نيتوكريس» (الوثيقة ٦١) ومخروط جنازي للأمير «منتومحات» (الوثيقة ٤٨) وتمثال مجموعة جرانت (الوثيقة ٤٧) معلومات نستخلص منها أن «نسبتاح الثاني» هو ابن «منتومحات» والسيدة «نسخنسو».

وكان عند وصول المتعبدة الإلهية «نيتوكريس» إلى طيبة في السنة التاسعة من حكم الملك «بسمتيك الأول» من حيث المكانة يأتي بعد والده مباشرة وقبل «وزارنس» زوج والده، وقبل الكاهن الأكبر لآمون «حور إم أخبيت» والكاهن الثالث لآمون «بدي أمن-نستاوي» ومن بين العظماء الذين كانوا في استقبال «نيتوكريس» التي كانت ستتبناها الزوج الإلهية لآمون المسماة شبنوبت الثانية، وقد اتخذ مكانته في الاحتفال في المكان الذي أشرنا إليه من قبل، ويلحظ أن «منتومحات» كان يحتل مكانة تكاد تعادل مكانة ملك، وكان ابنه البكر يحمل لقب ملاحظ الكهنة في طيبة، والهدايا التي قدمها ابن «منتومحات» للمتعبدة الإلهية الجديدة ضخمة، فقد كان يقدم لها يوميًّا مائة دبن من الخبز وهنين من النبيذ، هذا فضلًا عن الخضر، كما كان يقدم لها شهريًّا خمس عشرة فطيرة شعت وعشر جرار من الجعة، هذا عدا مائة أرور من الأرض من إقليم واوات، وذلك أكثر مما كان يقدمه الكاهن الأول والكاهن «حور إم أخبيت» والكاهن الثالث «بدي-أمن-نستاوي» مجتمعين.

- **الوثيقة الثانية والستون:** توجد مجموعة جميلة من الجرانيت الأسود تمثل «نسبتاح الثاني» جالسًا وبجواره والده «منتومحات» على كرسي ذي ظهر عالٍ مرتديًا ملابسه مثله، ويتحلى بجلد الفهد ورمز العدالة، وهذه المجموعة عثر عليها في خبيئة الكرنك.[٨٧]

- **الوثيقة الثالثة والستون:**

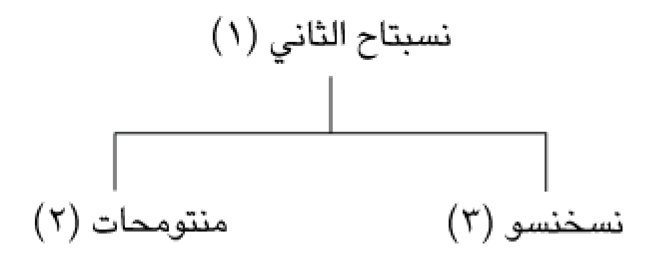
مجموعة تمثل «منتومحات» وابنه «نسبتاح الثاني»



وهاك ألقاب كل من هؤلاء التي في النقوش:

- (١) نسبتاح الثاني: الأمير الوراثي، والحاكم، وكاهن الإله «بتاح»، والكاهن الرابع لآمون في طيبة، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد في الحب، وملاحظ الحقول، والمشرف على الجنوب، والحاكم المشرف على الجنوب.
- (٢) منتومحات: الأمير الوراثي، والحاكم، والكاهن الرابع لآمون، والحاكم المشرف على الجنوب، وحامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد في الحب، والكاهن الرابع لآمون في طيبة، وكاتب معبد آمون.
- (٣) نسبتاح الأول: كاهن آمون.
- (٤) نسخنسو: ربة البيت.
- (٥) أستنخب: ربة البيت.

- **الوثيقة الرابعة والستون:** مائدة قربان نسبتاح الثاني: هذه المائدة محفوظة الآن بالمتحف البريطاني[٨٨] وتقدم لنا سلسلة النسب التالية:



وهاك ألقاب كل منهم:

- (١) نسبتاح سنب: الأمير الوراثي، والحاكم، وحامل خاتم الوجه البحري، والسمير الوحيد، ومدير القصر، ورئيس الأرضين قاطبة، والمشرف على الجنوب كله، وملاحظ الكهنة في طيبة، والمشرف على كهنة كل الآلهة.
- (٢) منتومحات: الأمير الوراثي، والحاكم والمشرف … المدن والمشرف على الجنوب.
- (٣) نسخنسو: المبرأة كاهنة «حتحور» وربة البيت.

ويلحظ هنا أن هذه المائدة ليست على ما يظهر نفس التي ذكرت في الوثيقة الأربعين من هذا البحث.

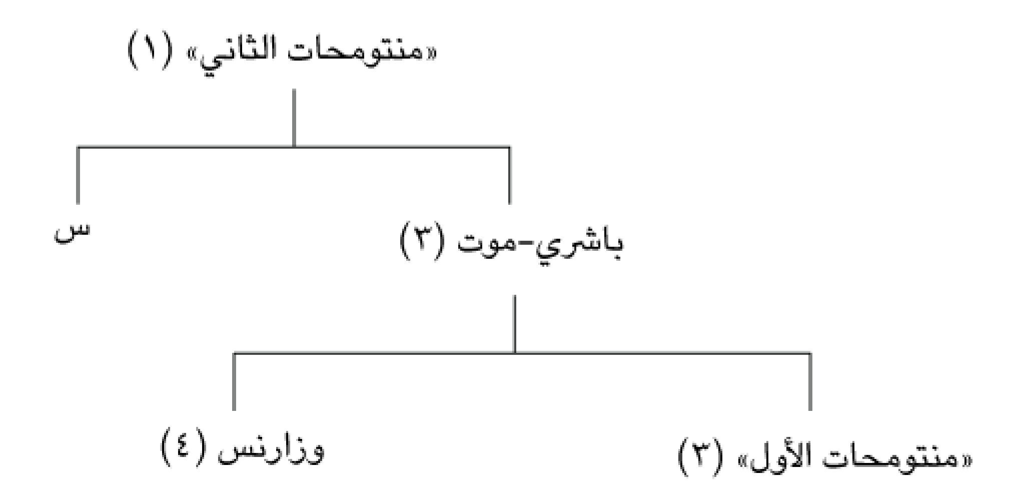
- **الوثيقة الخامسة والستون:** وجد في خبيئة الكرنك تمثال غاية في الجمال (No. 47) لم يمس بعد بأي سوء للكاهن «نسبتاح الثاني» وهو مصنوع من الحجر الأخضر وارتفاعه ٢٤ سنتيمترًا، وقد مثل واقفًا يرتدي قميصًا ذا ثنيات ويقبض أمامه على صورة الإله «أوزير». والمتن الذي نقش على ظهره يقدم لنا المعلومات التالية:

نسبتاح الثاني: الأمير الوراثي، والحاكم، وكاهن آمون والمشرف على الجنوب.

«باشري-موت» بن «منتومحات» «ووزارنس»: نعلم من المخروط الجنازي رقم ١٩٣ (الوثيقة ٥٢) ومن تمثال مجموعة جرانت (الوثيقة ٤٧) أن «منتومحات» كان له ابن يلقب ابنه من صلبه كاهن آمون المعروف لدى الملك «باشري موت» الذي وضعته «وزارنس»

المبرأة، ولدينا مخروط جنازي آخر (الوثيقة ٥٤) يقدم لنا الألقاب الأخرى لباشري موت وهي: زوجه محبوبته المعروفة لدى الملك وربة البيت «وزارنس».

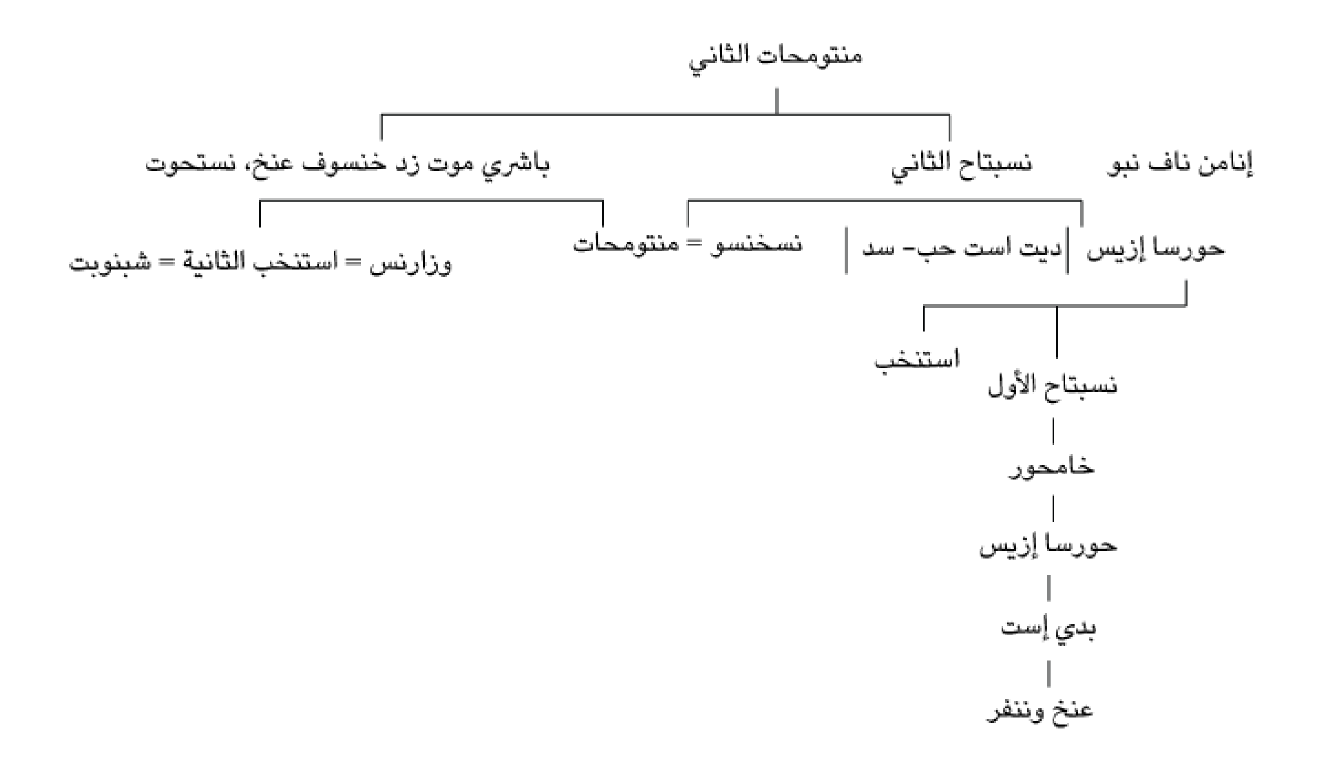
- **الوثيقة السادسة والستون:** أُهدي التمثال رقم ١٢٩ الذي عثر عليه في الكرنك للكاهن «باشري-موت» من ابنه «منتومحات الثاني»، وقد مثل «باشري-موت» مرتديًا قميصًا بسيطًا ماشيًا بذراعيه متدليتين، وفي كل يد شيء أسطواني يحتمل أنه خاتم، والرأس حليق، ويبلغ ارتفاعه ١٫٢٥ مترًا، والمتن الذي على التمثال يقدم لنا سلسلة النسب التالية:



وهاك ألقاب كل منهم:

- (١) منتومحات الثاني: الكاهن والد الإله لآمون.
- (٢) باشري-موت: كاهن آمون في الكرنك … والمعروف لدى الملك محبوبه حقًّا.
- (٣) منتومحات الأول: الكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة.
- (٤) وزارنس: ربة البيت.

سلسلة نسب ملخصة لفرع «نسبتاح» والد «منتومحات»:



تقدم لنا الوثائق التي فحصناها فيما سبق الدلائل التاريخية التالية:

أهدت السيدة «ديت-أست-حب-سد» ابنة «نسبتاح» مقصورة الكرنك في أثناء تولي كل من «أمنردس» «وشبنوبت» وظيفة المتعبدة الإلهية، والأخيرة هي بنت «بيعنخي»، ويحتمل أن ذلك قد حدث قبل عهد الملك «تهرقا»، وبعد الغزوات الآشورية نشاهد مصورًا في مقصورة معبد «موت» خلف «تهرقا» «نسبتاح الأول» «ومنتومحات» «ونسبتاح الثاني»، وأخيرًا نفهم من متن لوحة التبني للأميرة «نيتوكريس» أن كلًّا من «منتومحات» «ونسبتاح الثاني» وزوجه الثانية «وزارنس» كانوا على قيد الحياة في السنة التاسعة من حكم «بسمتيك الأول»، وسلسلة نسب أسرة «باشري موت» يمكن ربطها بأسرة «منتومحات»، ومن ثم نستطيع أن نرى فيها أن «عنحف خنسو الثاني» كان معاصرًا «لنسبتاح الثاني» «وعنحف خنسو» هذا كان والد «بسنموت الثالث» الذي ولد في السنة الثامنة والعشرين من عهد «بسمتيك الأول».

ولا بد أن نلحظ هنا أنه يوجد في المتحف المصري صورة باب من البرنز (راجع Livre d’Entrée 43775) نقش عليه المتن التالي: مغنية بيت آمون «ديت-أست حب-سد» ابنة الكاهن الرابع لآمون، وعمدة المدينة «منتومحات» المبرأ.

ومن ثم نفهم أن «ديت-أست-حب-سد» ابنة «منتومحات» لا ينبغي أن نخلط بينها وبين «ديت-أست-حب-سد» ابنة «نسبتاح الأول» التي جاء ذكرها في الوثيقتين ٢٥ و٢٦ من هذا البحث.

فرع أسرة «بدي أمن»: كان ثلاثة من أولاد الوزير «خامحور» يؤلفون جزءًا من كهنة آمون بوصفهم خدام الإله «حم نتر» وهؤلاء هم «بهرر» «ونسمين» «ونسبتاح»، ولدينا رابع يدعى «بدي أمن» وهو لا يتصل بكهنة آمون إلا بأنه كان كاتب أوقاف معبد آمون، ولكن من جهة أخرى كان ضمن كهنة الإله «منتو»؛ إذ كان يحمل لقب كاهن «منتو» ومنذ ذلك العهد كان هو وأسرته تابعين لخدمة هذا الإله، فكان أقاربه في زمرة كهنة «منتو»، وقد تزوجت ابنته «تاباثات» من بسنموت ابن «عنخف خنسو» كاهن «منتو» وخادم الساعة من الطبقة الثانية في معبد آمون، وقد ورث عنه هذا اللقب فيما بعد الابن الذي أنجبه من «تاباثات»، وقد كانت هذه الرابطة بين أسرة «خامحور» وأسرة «بسنموت» ذات أهمية تاريخية عظيمة؛ إذ بها يمكن وضع تاريخ مؤكد لأعضاء هذه الأسرة الكثيرة العدد، هذا ولم تفلت هذه النقطة من يد الأثري ليبلين؛ إذ إنه عندما نشر متون تابوت متحف «سنت بطرس برج» في وثائق هذا المتحف[٨٩] قد وحد «تاباثات» التي وجدت على هذا الأثر بالتي وجدت على التوابيت الأخرى المحفوظة بالمتحف المصري، وهي التي نعدها جزءًا من أسرة «خامحور» وقد انضم الأثري بييه Baillet إلى هذا الرأي وكذلك حبذه الأثري لجران.[٩٠]

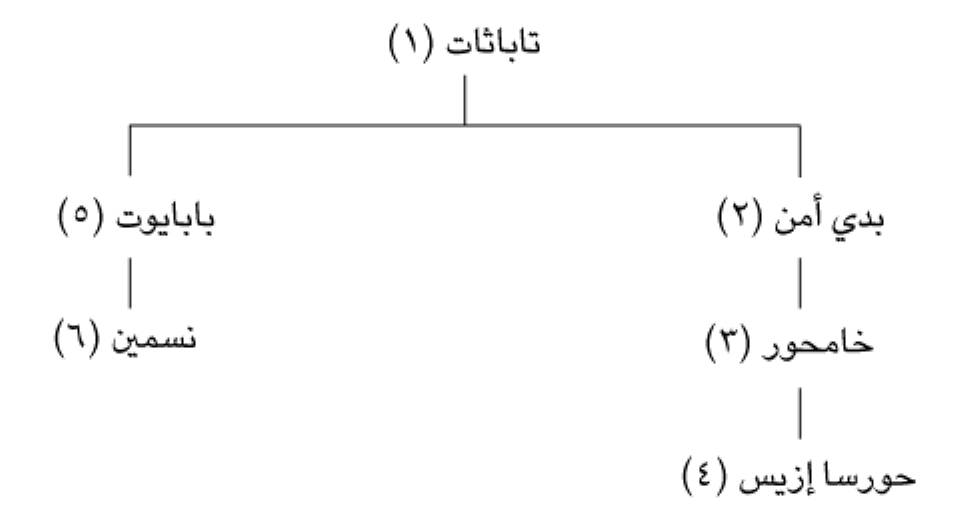
توابيت «تاباثات»: أشرنا من قبل إلى أن «حورسا إزيس» الأول لم يكن على أغلب الظن يحمل لقب وزير في مدة حياته، وأنه لقب بهذا اللقب فيما بعد على تماثيل نسله من الجيلين الثالث والرابع من بعده، وقد أشرنا من قبل إلى ألقاب من هذا النوع كان يحملها

أفراد لم يكونوا يحملونها قط مدة حياتهم، وسواء أكان «حورسا إزيس» وزيرًا أم لا، فإنه على أية حال كان يحمل هذا اللقب على التمثالين اللذين يمثلان الوثيقتين الرابعة والخامسة من هذا البحث، وكان يحمله كذلك على توابيت «تاباثات» المحفوظة الآن بالمتحف المصري، ومنها نستخلص سلسلة النسب التالية:

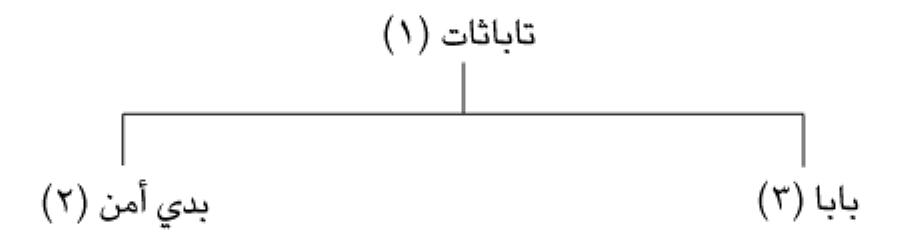
- **الوثيقة السابعة والستون:** تابوت تاباثات:

وهاك ألقاب كل منهم:

- (١) تاباثات = ربة البيت المبجلة.
- (٢) بدي أمن = كاهن «منتو» رب طيبة وكاتب قربان بيت آمون وخادم النور.
- (٣) خامحور: كاهن آمون والمشرف على المدينة والوزير.
- (٤) حورسا إزيس: كاهن آمون والمشرف على المدينة والوزير.
- (٥) بابايوت = ربة البيت.
- (٦) نسمين: كاهن آمون والمشرف على المدينة والوزير.



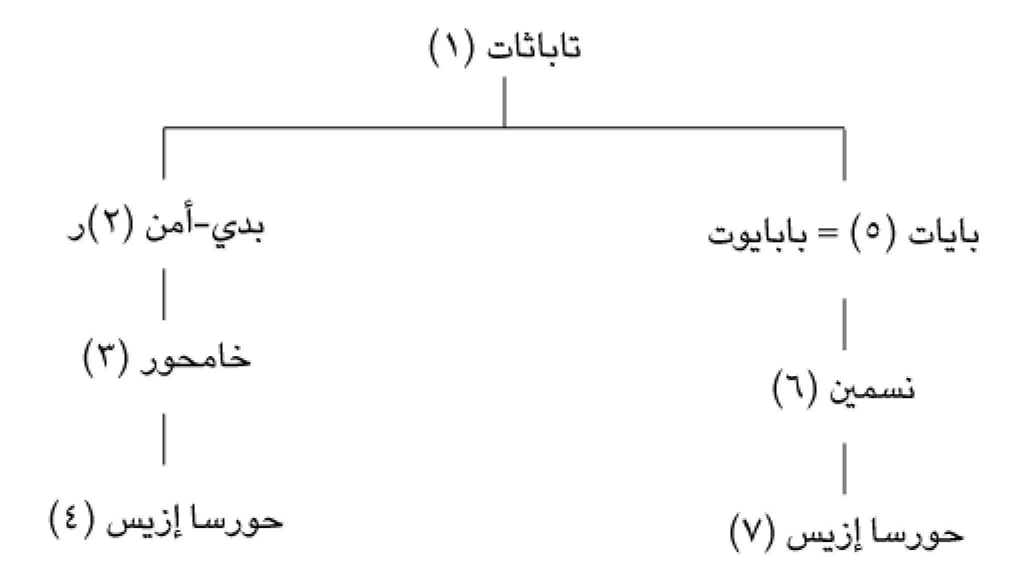
- **الوثيقة الثامنة والستون:** قعر تابوت تاباثات: نستخلص من متون هذا الجزء من التابوت سلسلة النسب التالية:



(١) تاباثات = ربة البيت.

(٢) بدي أمن = خادم النور والكاهن سما محضر العقاقير في طيبة (؟)،[٩١] ولدينا تابوت آخر جميل غير أنه لا يقدم لنا معلومات جديدة.

- **الوثيقة التاسعة والستون:** لوحة من الخشب للسيدة تاباثات: هذه اللوحة موجودة بالمتحف المصري وهي من الخشب وملونة وتحمل اسم ربة البيت «تاباثات» وتقدم لنا بعض قراءات منوعة مفيدة، ونجد فيها فضلًا عن ذلك اسم جدها الثاني من جهة الأم وهو حورسا إزيس، وهو بدوره كان وزيرًا، ومن المحتمل أنه هو نفس «حورسا إزيس» والد «خامحور الأول» «الرابع في سلسلة النسب التالية»:



وهاك ألقاب كل منهم:

- (١) تاباثات = ربة البيت المفخمة.
- (٢) بدي أمن = كاهن «منتو» رب طيبة.
- (٣) خامحور = كاهن «آمون رع» ملك الآلهة والمشرف على المدينة والوزير.
- (٤) حورسا إزيس = كاهن «آمون رع» ملك الآلهة والمشرف على المدينة والوزير.
- (٥) بابات = ربة البيت.
- (٦) نسمين = كاهن «آمون رع» ملك الآلهة والمشرف على المدينة والوزير.
- (٧) حورسا إزيس = كاهن «آمون رع» ملك الآلهة، وعمدة المدينة.

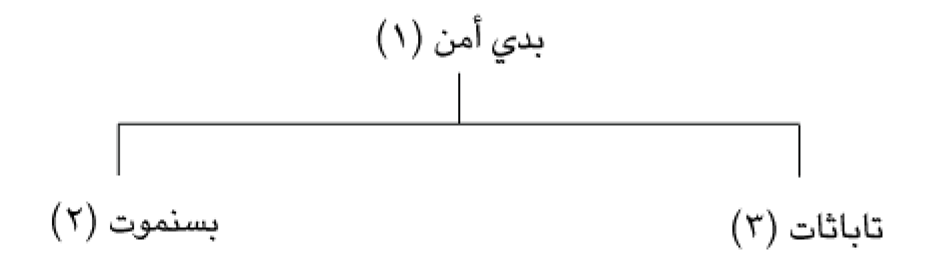
- **الوثيقة السبعون:** ويوجد كذلك لوح كبير من الخشب مستطيل الشكل مخروم في زواياه، وهو لهذه السيدة «تاباثات» ويقدم لنا اسم والدها واسم والدتها.

ويحمل والدها «بدي أمن» لقبي كاهن «منتو» رب طيبة وكاتب قربان معبد «آمون» والمعروف للملك حقيقيًّا (؟).

- **الوثيقة الواحدة والسبعون:** صندوق بابايوت: يوجد في مجموعة سابتييه Sabattier رقم مائة صندوق للتماثيل المجيبة ملك ربة البيت المفخمة «بابايوت» وهذه المجموعة تحتوي على أشياء كثيرة ملك أسرة «باشري موت» التي ترتبط بها «تاباثات» ابنة «بابايو»، ومن المحتمل أن هذا الصندوق كان ملك والدة «تاباثات».

«تابوت بدي أمن» الثاني: تدل المتون التي على توابيت ولوحة «بدي أمن» الموجودة بالمتحف المصري على أن كاهن «منتو» هذا كان ابن عنخف خنسو.

- **الوثيقة الثانية والسبعون:** تابوت بدي أمن:



وهاك ألقاب كل منهم:

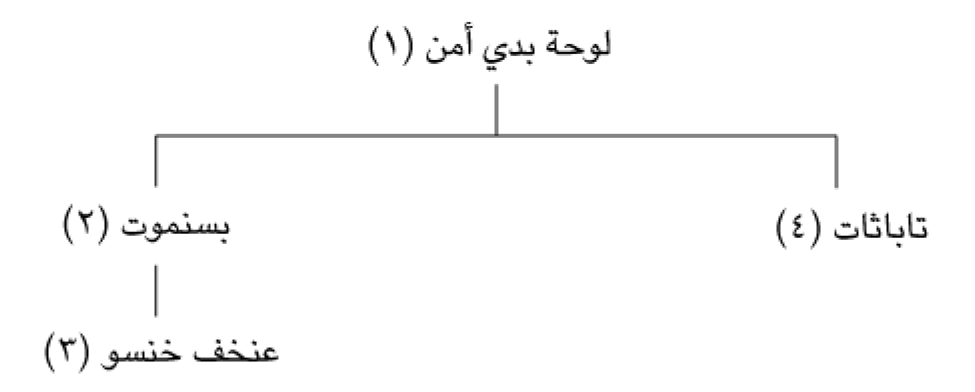
- (١) بدي أمن = كاهن «منتو» رب طيبة.
- (٢) بسنموت = كاهن «منتو» رب طيبة.
- (٣) تاباثات = ربة البيت.

- **الوثيقة الثالثة والسبعون:** التابوت الثاني للكاهن «بدي أمن»: هذا التابوت يقدم لنا سلسلة البنوة التالية:

- (١) بدي أمن = كاهن «منتو» رب طيبة.
- (٢) بسنموت = كاهن «منتو» رب طيبة.

- (٣) عنخف خنسو = كاهن «منتو» رب طيبة.

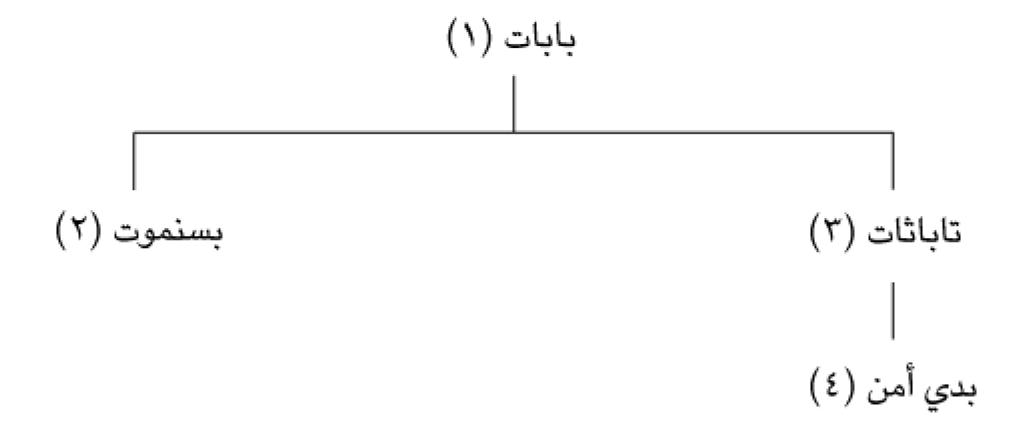
- **الوثيقة الرابعة والسبعون:**



وهاك ألقاب كل منهم:[٩٢]

- (١) بدي أمن = كاهن الإله «منتو» رب طيبة وكاهن الشهر لمعبد «آمون» من طبقة الكهنة الثانية.
- (٢) بسنموت = كاهن «منتو» رب طيبة ابن مثيله «في الألقاب».
- (٣) عنخف خنسو = مثيل سابقه في الألقاب.
- (٤) تاباثات = ربة البيت.

- **الوثيقة الخامسة والسبعون:** ذكر الأثري «ليبلين» في قاموسه تابوتًا من الخشب قال عنه إنه محفوظ بمتحف سنت بطرس[٩٣] برج، ومتون هذا التابوت تقدم لنا المعلومات التالية:



وهاك ألقاب كلٍّ:

- (١) بابات = ربة البيت المفخمة.
- (٢) بسنموت = كاهن «منتو» رب طيبة وكاهن الشهر لبيت آمون من الطبقة الثانية.
- (٣) تاباثات = ربة البيت المفخمة.
- (٤) بدي أمن = كاهن الإله «منتو» رب طيبة.

وهذه الوثيقة هامة؛ لأنها أكدت لنا أن والد «تاباثات» هو «بدي أمن» صاحب الوثائق ٦٤، ٦٥، ٦٦ وبذلك أصبح من المؤكد توحيد «تاباثات» زوج «بسنموت» بتلك التي جاء ذكرها في فرع «خامحور» في الوثائق السابقة في هذا البحث، وبذلك جعل من البدهي ارتباط هذه الأسرة بأسرة بسنموت.

ملاحظات إضافية: عثر في «الحمامات» على نقوش للكاهن «نسبتاح» المعاصر للملك «بسمتيك الأول» وقد نشرها كل من مونتيه وكوا.[٩٤]

•••

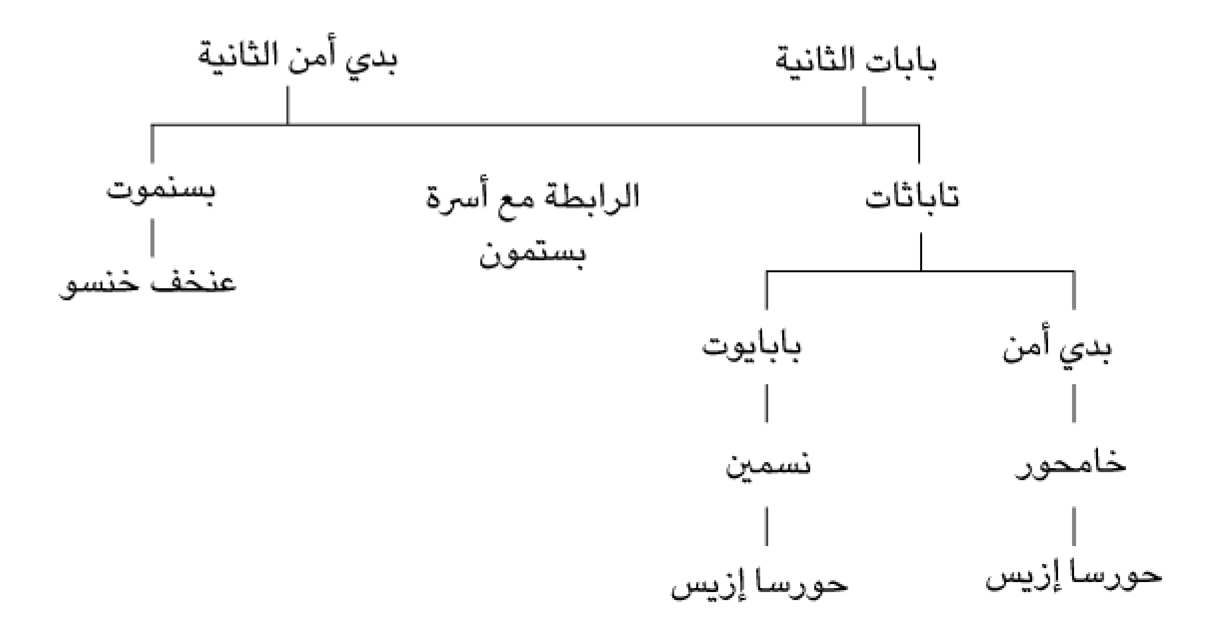
النقش رقم ٢: مثل هذا النقش شخصًا راكعًا ورافعًا الذراعين أمام طغراءات ملكية في ثلاثة أسطر عمودية.

ملك الوجه القبلي والوجه البحري «واح أب رع» ابن رع «بسمتيك» «له» الحياة والسلطان مثل رع سرمديًّا.

وعلى الجهة اليمنى نجد فوق هذا الشخص نقشًا مؤلفًا من ستة أسطر أفقية.

وقد نزعت نهاية السطرين الأخيرين بالكشط من الصخر: (١) الكاهن الرابع لآمون ملك الآلهة، وعمدة المدينة، (٢) وكاهن الإله «سكر» في الكرنك «نسبتاح» (٣) ابن الكاهن الرابع (٤) لآمون، والمشرف على الجنوب طرا «منتومحات». (٥) … (٦) … والمقصود هنا هو «نسبتاح الثاني».

قائمة تلخص فرع «بدي أمن» بن خامحور الأول



النقش رقم ٥١: وهو لكاهن آمون المسمى «نسبتاح»، ورئيس الأعمال «بدي أست» المعاصر للملك «بسمتيك الأول».

نشاهد في هذا النقش شخصًا راكعًا برأس حليق مرتديًا جلد فهد وقميصًا، وحول جيده عقد، ورافعًا ذراعيه أمام الإله مين بصورته المعتادة، ويقف على قاعدة، وله لحية، وفي

رقبته قلادة وفي يده درة.

وقد دون فوق هذا الشخص وعلى يمينه سطران أفقيان يتبعهما سطران عموديان جاء فيهما: «الكاهن الرابع لآمون رع ملك الآلهة وكاتب بيت آمون والمشرف على الجنوب طرا «منتومحات» المرحوم ابن كاهن آمون في الكرنك «نسبتاح»، عمله خادمه رئيس أعمال بيت آمون المسمى «بدي أست» ابن مثيله «قررف-آمون» المرحوم.»

والمقصود هنا ليس «نسبتاح» الثاني الذي ذكر في النقش السابق رقم ٢، بل المقصود «منتومحات» بن «نسبتاح الأول»، وقد رأينا في الوثائق التي جمعت في هذا البحث أن «منتومحات» قد عاش حتى السنة التاسعة من عهد الملك «بسمتيك» الأول وربما بعد ذلك.

تمثال آخر للكاهن الرابع «منتومحات»: عثر حديثًا على تمثال للكاهن الرابع «منتومحات»، فقد وجد بين الأحجار المستعملة ثانية في شمالي مدخل معبد الملك «تهرقا» بالكرنك الشمالي، وهو مصنوع من الجرانيت القائم، وقد طلي طلاء جميلًا، ومثل على نمط تماثيل هذا العصر في هيئة مكعب، وقد عثر عليه مفقود الرأس، ويبلغ ارتفاع الجزء الباقي ٤٨ سنتيمترًا، وقد مثل قاعدًا على قاعدة.

ونقش على الجزء الأمامي منه المتن التالي:

(١) الكاهن الرابع لآمون، وكاتب ضياع آمون، وعمدة المدينة «منتومحات».

(٢) ونقش أسفل هذا ما يأتي: المبجل في حضرة «منتو» رب طيبة، الكاهن الرابع لآمون رع ملك الآلهة، وكاتب ضياع آمون، وعمدة المدينة «منتومحات»، ابن كاهن «آمون رع»، وعمدة المدينة، المعروف لدى الملك «نسبتاح» المبرأ.

ونقش على العمود الذي خلف التمثال ما يأتي: يا أيها الإله المحلي للكاهن الرابع، وعمدة المدينة «منتومحات» … خلفه في حين أن روحه تكون أمامه، إنه هليوبوليتي.

ونقش على قاعدة التمثال ما يأتي: قربان يقدمه الملك لآمون رع رب عروش الأرضين ليته يمنح رقة القلب والفرح يوميًا لروح الكاهن الرابع لآمون عمدة المدينة «منتومحات» ابن كاهن آمون عمدة المدينة «نسبتاح». قربان يقدمه الملك للإله «منتو» رب طيبة ليته يمنح القوة والنعيم والبراءة لروح الكاهن الرابع لآمون، عمدة المدينة «منتومحات»، ابن كاهن آمون، وعمدة المدينة «نسبتاح» المبرأ.

(١-٤) نظرة عامة في مكان «منتومحات» في العهدين الكوشي والساوي

لقد حاولنا فيما سبق جمع كل ما يمكن جمعه من الآثار والوثائق الخاصة بالأمير «منتومحات» وأسرته المتشعبة الأطراف، والتي تضرب بأعراقها إلى أجيال بعيدة خلت لا تقل على حسب ما وصلت إليه معلوماتنا عن خمسة أجيال مضت.

ولا نزاع في أن «منتومحات» هذا يعد أبرز شخصية سياسية في طيبة في عهد التسلط الكوشي على أرض الكنانة، وكذلك في عهد الاحتلال الآشوري المؤقت لها، هذا، وتدل تماثيل هذا العظيم التي بلغت القمة في الإتقان من حيث الصدق في التعبير على الحجر على أن فن النحت قد وصل غايته في النهضة الجديدة التي قامت في تلك الفترة من تاريخ البلاد، فتماثيله بالنسبة للتماثيل العدة التي ترجع إلى العهد اللوبي تعد بحق من القطع الممتازة الصنع في تماثيل رجل تملأ إهابه العظمة ويظلله الوقار في سن الشيخوخة الفانية، وأكبر دليل على ذلك تمثاله المحفوظ الآن بالمتحف المصري.[٩٥]

وقد فصلنا القول عن أسرة «منتومحات» فيما سبق، وقد أثبتنا أنه من أسرة كان معظم أفرادها موظفين منذ عدة أجيال، وكانت موضع احترام ونفوذ طوال العهد الكوشي في البلاد الذي امتد إلى أكثر من سبعين عامًا، وتنحصر سلسلة نسبه على ما نعلم فيما يلي: فهو «منتومحات» بن «نسبتاح» بن «خامحور» بن «حورسا إزيس» بن «بدي أست» بن «عنخ ونفر» هذا؛ وتدل ألقاب هؤلاء الشخصيات على أنهم كانوا يحملون أرقى الألقاب ويشغلون أهم المناصب، فنعلم مثلًا أن جده «خامحور» كان يحمل لقب وزير ويحتمل أن أخاه «بدي أست» كان كذلك وزيرًا، أما جده الأكبر «حورسا إزيس» فكان فعلًا يشغل منصب وزير.

يضاف إلى ذلك أن عميه «حورسا إزيس» «ونسمين» كانا كذلك وزيرين، وكان والد «منتومحات» نفسه المسمى «نسبتاح» يشغل منصب عمدة المدينة، ومن ثم كان يلقب الوكيل العظيم الذي يسيطر «يدخل» على المدينة، يضاف إلى ذلك أن كلًّا من «خامحور» جد «منتومحات» وعمه الوزير «نسمين» كان يحمل لقب كاتب الجيش، ومن ثم نعلم أنهما كانا قد بدءا حياتيهما في الجيش، ومع ذلك فإن كلًّا منهما كان يحمل لقب كاهن آمون، ولكن

على الرغم من ذلك لم يكن واحد منهما يشغل منصبًا من مناصب الكهانة العالية، وكان أول من لقب بالكاهن الرابع لآمون في هذه الأسرة هو «منتومحات»، وتدل شواهد الأحوال على أن هذه الوظيفة كانت من الوظائف الممتازة في الدولة.

ولا جدال في أن أهمية أسرة «منتومحات» لم تكن محصورة فيما يحمله أفرادها من وظائف كهنة لآمون، ولكن كانت أهميتهم في أنهم كانوا موضع ثقة عند ملوك «كوش» في تلك الفترة وبخاصة في إدارة الحكومة الإلهية التي كانت على رأسها المتعبدة الإلهية، ويعد «منتومحات» في مصاف عظماء الأسر الطيبية التي تنسب إلى العهد البوبسطي، والواقع أن من يدرس آثار «منتومحات» هذا يجد من وقت لآخر ما يدهش بالنسبة لمكانته السياسية المتفوقة، وذلك على الرغم من المكانة الدينية المتواضعة التي كان يشغلها وقتئذٍ، ولا نزاع في أن قوة هذا الرجل وعظمته لم تأت عن طريق الوظائف الدينية العالية بل كانت الوظيفة الدينية تعد لقب شرف قد يساعد على الحصول على السلطة الدنيوية، وذلك بتقلد وظيفة كهانة من التي كانت تخلعها الحكومة الدينية على الرجال أصحاب النفوذ على غرار الألقاب الدنيوية مثل لقب الحاكم أو الأمير، وكذلك لقب المشرف على الكهنة التي كان يحملها رجال الإقطاع في العهود القديمة، والواقع أننا نجد أن كلًّا من وظيفة الكاهن الثالث والرابع لآمون كانت وقفًا في تلك الفترة على كبار الموظفين، أما الوظائف الدينية التي كانت فوق ذلك فكانت تمنح لرجال البيت المالك وحسب.

ولا نعلم على وجه التأكيد إذا كان لقب «أعظم الخمسة» وهو لقب كان يحمله الكاهن الأعظم لمدينة الأشمونين بوصفه كاهن الإله «تحوت»، وكذلك لقب الكاهن «ابنه محبوبه» وهو لقب كان يحمله الكاهن الأعظم للإله «حرسفيس» الإله الأعظم لمدينة «أهناسيا المدينة»، وكان يحملهما جده «حورسا إزيس» هما لقبان موروثان في الأسرة أو كانتا وظيفتين حقيقيتين؛ وذلك لأننا نجد أن هاتين الوظيفتين كانتا منفصلتين عن الوظائف الأخرى التي كان يحملها رجال هذه الأسرة ولم يحملها إلا نفر قليل من أفرادها، وتدل شواهد الأحوال على أنهما كانت تمنحان كألقاب شرف عن أعمال عامة يقوم بها الشخص الذي يحملهما، ولا بد أن «حورسا إزيس» هذا كان قد بلغ سن التقاعد عندما أتى إلى مصر «بيعنخي» غازيًا وطرد أتباع «تفنخت» صاحب «سايس» من مصر الوسطى حوالي عام ٧٣٠ق.م، وكما ذكرنا من قبل كان بعض أفراد أسرة «منتومحات» يشغل وظيفة الوزير في زمن حكم الأسرة الكوشية حتى عهد الملك «تهرقا» وكذلك كان «منتومحات» على غرار والده يشغل وظيفة عمدة العاصمة ثم رقي إلى وظيفة المشرف على الوجه القبلي كله، ويطيب أن نذكر هنا أن عم «منتومحات» كان يشغل وظيفة عمدة المدينة، وهو ابن الوزير «حورسا إزيس» (الذي كان يسمى أحيانًا «بهرر»).

وتدل النقوش التي وجدت على صخور وادي «جاسوس» الواقعة على البحر الأحمر على أن حكومة طيبة الإلهية كانت مستقلة سياسيًّا، يؤكد لنا ذلك الألقاب التي كان يحملها «منتومحات»، فقد كان يلقب الأمير حاكم الصحراء والمشرف على أبواب البلاد الأجنبية، ولا نزاع فيما كان يتمتع به حامل هذين اللقبين من سلطان عظيم، غير أنه لم يكن الوحيد الذي

كان يحمل هذه الألقاب؛ إذ نجد أن كبار موظفي الزوجة الإلهية لآمون كانوا يحملون مثل هذه الألقاب، مثال ذلك المدير العظيم لبيت المتعبدة الإلهية المسمى «ببسا» والمدير العظيم لبيت زوجة آمون «بدي حورزسنت» فقد كان كل منهما يحمل لقب المشرف على الوجه القبلي، والأخير منهما كان يحمل لقب حاكم الصحراء في طيبة.

والواقع أن هذه الألقاب كانت ألقاب شرف تُعطى على غرار ما كان متبعًا في العهد الإقطاعي القديم غير أنها أصبحت الآن مليئة بالتزامات جديدة ذات أهمية عظيمة، وقد كان من جراء تمتع «منتومحات» بمثل هذا السلطان الواسع والنفوذ العظيم أن وجدنا أنه في النقوش الخاصة بتاريخ حياته كان يفخر بالإصلاحات العدة التي قام بإنجازها في طيبة وكذلك في معبد الأشمونين، ويلحظ هنا أنه يتحدث أولًا عن الحصول على المواد الثمينة لصنع تماثيل الآلهة المقدسة، وبنوع خاص الأخشاب اللازمة للسفن المقدسة، هذا بالإضافة إلى قطع الأحجار اللازمة لإقامة المعابد المهدمة؛ إذ يقول: «لقد طهرت معابد كل الآلهة في كل مقاطعات الوجه القبلي على حسب تعليمات تطهير المعابد.»

وكان من جراء هذه الإصلاحات أن أقيم ما كان قد خرب من معابد في أزمان الاضطرابات والحروب التي وقعت في عهد الآشوريين، وأن من يقرأ ما قام به «منتومحات» من إصلاحات يجد فيه نغمة حكام الإقطاع الأقدمين التي كانت تنطوي على المبالغة، ولكن «منتومحات» كان يتحدث هنا عن أعمال أنجزها دون أية مبالغة، هذا ويلحظ في نقوشه أنه كان حفيد وزير وقائد جيش، وذلك عندما يقول: «لقد جعلت مصر العليا تسير في طريق الإله «أي طريق العدالة» في حين كانت البلاد عقبًا على رأس بسبب عظم المصيبة … بوساطة عظم تفوقي «لسيدي» الذي أتى من «الجنوب». ويقصد بهذا السيد بطبيعة الحال الملك «تهرقا» الذي أتى من جنوب الوادي لطرد الآشوريين، وقد استمر في خدمة إلهه دون انقطاع، كما دخل بيت الإله ورأى ما فيه، ومن ثم ختم كل مقصورة فيه بخاتمه.»

وهذه النجدة التي قام بها «تهرقا» ملك «كوش» وهو تحرير مقاطعة «طيبة» من غزو الآشوريين على يد مليكهم «آشور بنيبال» يرجع الفضل الأعظم فيها للأمير «منتومحات» الذي كان يحمل لقب المشرف على كهنة الوجه القبلي والوجه البحري، وهذا اللقب لم يكن قد حمله من قبله إلا القليل من عظماء كهنة «آمون» وبعض كبار الموظفين في عهد الدولة الحديثة مثل الوزراء.

وفضلًا عن ذلك كان يحمل «منتومحات» لقب كاتب ضياع معبد آمون فعلًا، وهذا اللقب كان لقب شرف، فكان مثل لقب الكاهن الرابع لآمون يمنح بمثابة معاش لما قام به حامله من خدمات لمعبد آمون.

ولا نزاع في أن «منتومحات» كان يعمل بوصفه حاكمًا في دائرة طيبة كما كان عظيمًا من عظماء الأسر الطيبية، وهو من دم مصري صريح، وليس لدينا من النقوش والكتابات الخاصة «بمنتومحات» ما يبرهن على أنه كان كوشي الأصل كما ادعى ذلك كل من «دريتون»

«وفندييه»،[٩٦] ومن المحتمل أن هذا الخطأ قد جاء عن طريق صورة له في شيخوخته، وهذه الصورة عثر عليها في معبد موت كما ذكرنا من قبل، حقًّا قد وفد إلى مصر بعض الموظفين من الجنوب في عهد ملوك «كوش» وعملوا في خدمة الحكومة الإلهية في عهد المتعبدات الإلهيات، غير أن «منتومحات» لا يعد واحدًا منهم، ويمكننا أن نذكر من بين هؤلاء الكوشيين الحقيقيين الذين وفدوا إلى مصر: (١) ابن تهرقا من صلبه من زوجه الملكية الأولى المسمى نسشو تفنوت[٩٧] وهو الكاهن الثاني لآمون بالكرنك، ومثل هذا الأمير كان غالبًا يشغل وظيفة عالية. (٢) وكذلك عمدة المدينة «كلباسكن»[٩٨] وقد كان يحمل لقب الكاهن الرابع وهو زميل للأمير «منتومحات»، يضاف إلى ذلك أنه كان يشغل وظيفة كاهن متقاعد للإلهة «خنسو نفر حتب». (٣) وأخيرًا رجل البلاط البدين المسمى «أرجاديجانن»، وقد عثر له على تمثال محفوظ بمتحف القاهرة، وهو يعد من القطع الفنية الممتازة، ولا نزاع في أنه كان يوجد في مصر عدد كبير من الكوشيين في ذلك العهد مختبئين تحت أسماء مصرية، ولكن عددهم على أية حال لم يكن كبيرًا.

ومهما يكن من أمر فإن «وزارنس» آخر زوجات «منتومحات» وهي التي صورت معه على جدران قبره مع ابنها كانت أميرة نوبية، ويحتمل أنها كانت حفيدة الملك «بيعنخي» وأن زواجها من «منتومحات» كان زواجًا سياسيًّا أراده «تهرقا» لما كان يعرفه عن «منتومحات» من مهارة، وبخاصة نفوذه وسلطانه وحسن سياسته في الوجه القبلي بنوع خاص.

أما ما نفهمه من أمر صور «منتومحات» التي كانت في ظاهرها تدل على تقاطيع نوبية فقد ترجع إلى طراز خاص بهذا العصر له نظيره في التاريخ المصري، والواقع أن «منتومحات» كان مصري المَحْتِد يجري في عروقه الدم المصري الخالص كما ذكرنا من قبل، ولكنه وفقًا لسياسة التقرب للملك الكوشي صور نفسه بتقاطيع نوبية تشبه تقاطيع «تهرقا» وقتئذٍ، وذلك على غرار ما فعله عظماء القوم في عهد الفرعون «إخناتون»، فقد رسموا رءوسهم شبيهة برأس الملك «إخناتون» وأسرته، ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن ملوك «كوش» قد قاموا بعصر نهضة جديدة تقلد العهد الفني الماضي الرفيع كما كانت تقلد كل ما هو قديم ينم على العظمة، وإذا رجعنا إلى صور تماثيل أسرة «منتومحات» التي خلفوها وراءهم، وهي التي تحدثنا عنها من قبل نجد أنها كانت كلها تدل على أن أصحابها كانوا من دم مصري خالص وطراز مصري أكيد، وتدل شواهد الأحوال على أن «منتومحات» هو الذي أمر بصنع هذه التماثيل لأسرته التي يرجع تاريخها إلى عدة أجيال، وأنها ليست من صنع أصحابها، والواقع أن مظهرها يدل على أنها من صنع مفتنٍّ واحد بعينه. وقد كان غرض «منتومحات»[٩٩] من ذلك إحياء ذكرى أجداده والتفاخر بما كان لهم من مجد قديم ومكانة رفيعة.

هذا؛ وكان، «منتومحات» صاحب ثروة ضخمة وجاه عريض وسلطان قوي لدرجة أنه كان في عظمته ملكًا ولا ينقصه إلا الاسم، وينم عن ثرائه وعظمته أولًا قبره الضخم الذي خلفه وراءه في جبانة طيبة «بالعساسيف» بجوار الدير البحري، وهذا القبر لم يكشف عنه بعد تمامًا، غير أن ما كشف عنه منه حتى الآن يدل على أنه كان يضارع قبور الملوك في

ضخامته، بل يفوقها، ومن الغريب أنه كان يتمثل في أعماله بالملوك، حتى إنه كان أول موظف نقش اسمه على حزامه كما ذكرنا من قبل، ويدل على مقدار ثروته بالنسبة لعظماء الشعب ورجال البلاط ما قدمه للمتعبدة الإلهية «نيتوكريس» عندما وفدت إلى طيبة مقر «منتومحات» لتتسلم وظيفتها، بمثابة دخل ثابت لها، بوصفها زوج الإله آمون، وذلك على حسب ما جاء على لوحة «نيتوكريس» نفسها، فقد منحها «منتومحات» هو وابنه «نسبتاح» وزوجه ـ ما يلزم لها من الخبز «وهو ما يعادل ٤٠٠ من ٦٠٠ دبن» وذلك في حين أن الكاهن الأكبر لآمون المسمى «حور أخبيت» والكاهن الثالث «بدي-أمن-نب نستاوي» قد منحاها ما يعادل ١٠٠ دبن فقط، ويلحظ أن «منتومحات» لم يقدم شيئًا للزوجة الإلهية «نيتوكريس» من دخل وظيفته بوصفه الكاهن الرابع لآمون؛ إذ كانت وظيفته السياسية في الواقع تغطي على وظائفه الأخرى.

(٢) في عهد الملك «تهرقا»: «بيسد يمن» بن «بكوسن» وآثاره في «طيبة»

(١) من بين التماثيل العدة التي عثر عليها المهندس «هنري شفرييه» في خلال السنين الأخيرة في القطاع الشمالي الشرقي من سور معبد الكرنك، تمثال مكعب الشكل قطع من الجرانيت الرمادي الذي تختلط بجزئياته بعض عروق بيضاء، ويبلغ طوله حوالي ٢٥ سنتيمترًا ورأسه مفقود، والجزء الأسفل قد أصابه عطب، وتدل شواهد الأحوال على أنه كان من المحتمل يرتكز على قاعدة جالسًا القرفصاء.

وهذا التمثال مكعب الشكل ويدخل ضمن مجموعة يشاهد فيها عدم وضوح أعضاء الجسم وبخاصة الساقين فإنهما لا يميزان عن مجموع الجسم، ولكن من جهة أخرى نلحظ أن اليدين قد نحتتا نحتًا بارزًا على الجزء الأعلى من التمثال وصورتا منسبطتين.

ويمكن تمييز منظرين على الوجه الأعلى للتمثال، فعلى الجهة اليسرى مثل الإله خنسو بيده اليمنى في فمه.

وعلى الجهة اليمنى مثل الإله «حور» واقفًا وفي يده اليمنى طائر وهو يتقدم نحو الإله «أوزير» تتبعه «إزيس» واقفة.

وعلى الجهة اليمنى من هذا المنظر الأخير نقش في سطر عمودي اسم ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهرقا» عائشًا أبديًا، وقد نقش كل من هذين المنظرين بحروف دقيقة الصنع.

وعلى الوجه الأمامي نشاهد الإلهة «موت» ونقوشًا هيروغليفية على جانبيها، وهاك النص الذي جاء على هذا الجزء من التمثال: «قربان يقدمه الملك للإلهة «موت» العظيمة سيدة «أشرو» ربة السماء، نائبة كل الآلهة: قربان من الخبز والجعة ورءوس الماشية والطيور والملابس والمرمر «أي أوانٍ من المرمر» يشم … المر والبخور، وقربات سائلة من النبيذ واللبن، والدخول والخروج من الجبانة دون أن تمتع روحه … بإتمام شعيرة القربان لأجل روح رئيس التابعين، القيم على أملاك «موت»، المسمى «بيسيد يمن» المرحوم ابن القيم على أملاك «موت» المسمى «بكوش»، والذي وضعته تابعة «موت» المسماة «تاحنأمون»، يقول: يا أيها الكهنة خدام الإله، والكهنة أبناء الآلهة، والكهنة المطهرون «وعب» والكهنة المرتلون الذين يدخلون في المعبد لإقامة الشعائر «التي ينبغي أن تقام» في المعبد، وإن إلهكم سيكافئكم عندما تحنون نحوي أيديكم حاملين البخور والقربات السائلة، في الوقت الذي تمرون بالقرب مني لأجل روح رئيس التابعين لأملاك «موت» المسمى «بيسيد يمن» المرحوم، قولوا ذلك لروح هذا الرجل، أما ذلك الذي سيعمل السوء للذي سيؤديها؛ أي القربات، فإنه سيمضي الليل …»

وجاء على الجهة اليسرى من التمثال ما يأتي: قربان يقدمه الملك للآلهة «بتاح سكر-أوزير» سيد «شتيت»[١٠٠] ليته يعطي كل القربات والمأكولات لروح «أوزير» المقيم على أملاك «موت» الرئيس الأعلى للتابعين للأملاك المذكورة، المسمى «بيسيد يمن» المرحوم.

هذا؛ وقد نقش على جانبي القارب اسم «إزيس» العظيمة «الأم المقدسة» في السماء وولية عهد الأرضين، ونقش فوق الصقر الذي يمثل الإله: «سوكر» في «خنو»، «سوكر» في «شتيت»، «وسوكر» في «حرت إيب».[١٠١]

ويوجد على الصف الأسفل من هذا المنظر الذي كسر جزؤه الأسفل حاملان للقربان يحمل كل منهما مائدة قربان، وقد جاء مع الأولى النقش التالي:

> نطق: إني أحمل إليك القربان.
> نطق: إني أحمل إليك المأكولات.

وجاء مع المائدة الأخرى:

> نطق: إني أحمل إليك الهدايا.
> نطق: إني أحمل إليك كل أنواع الأشياء الطيبة.

ولا نزاع في أن هذا الكلام موجه إلى الإلهة «موت» المنقوشة في المنظر نقشًا بارزًا.

أما على الجهة اليمنى فلم يبقَ من نقوشها إلا النصف، والمنظر كان في الأصل يمثل عبادة الرمز المقدس «للعرابة المدفونة».

وقد بقي من النقوش التي على يمين رمز «العرابة» خمسة أسطر: واحد منهم خاص «بأوزير» جاء فيه: … «أوزير» الذي يقطن الغرب، الإله العظيم.

أما الأسطر الأربعة الأخرى فقد جاء فيها: «قربان يقدمه الملك» «لإزيس» العظيمة، الأم الإلهية، «ولتحوت» العظيم سيد النطق المقدس، لأجل أن يمنحا قربانًا من الخبز والجعة والبخور على النار، والنسيم الحلو من هواء الشمال للأنف لأجل روح «أوزير» رئيس التابعين المسمى «بيسيد يمن»:

- **ظهر التمثال:** هذا الجزء قد أصابه عطب كبير، وهو يتألف من عمود قليل النتوء، وقد نقش عليه ثلاثة أعمدة من الكتابة يلحظ فيها تطور صيغة القربان التي سنتحدث عنها فيما بعد، وقد جاء فيها: يا أيها الإله المحلي الخاص بالقيم على «أملاك «موت»» … الرئيس الأعلى للتابعين للأملاك المذكورة المسمى «بيسيد يمن» ابن القيم على أملاك الإلهة «موت» المسمى «بكوش» المرحوم، ليته يوضع خلفه «أي الإله»، في حين ما تكون روحه أمامه أنه «أوني» (يشير إلى صاحب التمثال وكلمة «أوني» نعت من نعوت الإله «أوزير»).
١٠٢

(٢) وقد عثر لصاحب التمثال السابق الذكر حديثًا على مائدة قربان وجدت في ساحة مقبرة العظيم «منتومحات» في أثناء الكشف الذي قام به الأستاذ «زكريا غنيم» في هذه الجهة، وقد تحدثنا عنها فيما سبق عند الكلام على مقبرة العظيم «منتومحات» وما وجد فيها من آثار.

- **الخلاصة:** إن اسم «بيسيد يمن» يمكن ترجمته: «ليت هديته تبقى» ومن المحتمل أن اسم هذا الرجل يرجع إلى أصل كوشي.

ولوحة قربان هذا المقيم التي عثر عليها في ساحة «منتومحات» لم تقدم لنا شيئًا من سلسلة نسبه، ولكن جاء فيها نفس الألقاب التي جاءت على تمثال «بيسيد يمن» هذا، وهي «القيم على أملاك الإلهة «موت» والرئيس الأعلى للتابعين»، وهؤلاء التابعون كما يقول الأثري «جوتييه» Le Personnel du Dieu Min هم أتباع الإله «مين» الذين كانوا يكلفون بتأليف موكب تمثال الإله منذ خروجه على الناس، وإذا كانت نظرية «جوتييه»

صحيحة فإن الرئيس الأعلى لهؤلاء التابعين لا بد كان رجلًا صاحب مكانة عليا، وذلك على الرغم من أنه قد حافظ على الوظيفة المتواضعة التي ورثها على أبيه وهي «القيم على أملاك الإلهة «موت»، ولكن يمكن ألا يعني بلفظ التابعين كل أولئك الذي يشتركون في خدمة الآلهة ويظلون حولهم.»

إن التشابه في الألقاب وفي اسم العلم الذي نجده على مائدة القربان وعلى التمثال الخاص بهذا الرجل يدل على أن الأثرين لفرد واحد بصورة واضحة.

غير أنه من الغريب مع ذلك أن نرى تمثال «الكرنك»، هذا الذي تم صنعه في عهد حياة الملك «تهرقا» ما بين عامي ٦٨٩ و٦٦٤ق.م يكون صاحبه «بيسيد يمن» مذكورًا في النقوش أنه «متوفى» ومنعوتًا بأنه «أوزير» (أي في عالم الآخرة)، في حين أنه قد ذكر على مائدة القربان بأنه «أوزير»، ومصدرها مقبرة «منتومحات»؛ أي إنه قد دفن قبل السنة التاسعة للملك «بسمتيك الأول»؛ أي حوالي عام ٦٥٤ق.م، ولا بد من أن نعترف بأن وجود هذا الأثر في مقبرة «منتومحات» يضع أمامنا مسائل تحتاج إلى فحص وحل كالتي تعترضنا في وجود شخصيات أخرى أقل أهمية معه لهم مقاصير أقيمت في قبره «منتومحات هذا».[١٠٣]

والواقع أننا لا نعرف عن والدي «بيسيد يمن» إلا أنهما تابعان لكهنة الإلهة «موت» فتمثال «الكرنك» المكعب الشكل يقدم لنا اسم والدته «تاحتأمون»، وقد كانت تابعة للإلهة «موت»، وعلى ذلك كانت عضوًا من بين الكهنة الذين سيكون ابنها عضوًا منهم، ونعرف من نفس هذا الأثر اسم والده، وقد كان كذلك قيمًا على أملاك الإلهة «موت» ويدعى «بكوش» (ومعناها النوبي أو الحبشي).

وتدل الظواهر على أن جد هذا الاسم يرجع إلى الدولة الوسطى في تركيبه مع لفظة «كوش»، وتجد هذا الاسم في العصر المتأخر خلافًا لما جاء على تمثال «بيسيد يمن» قد ذكر بالرسوم الآتية «بيكش»، «بكش» «وباكاشاي» وقد استمر هذا الاسم فيما بعد في الإغريقية والقبطية في صورة المذكر والمؤنث، فالمذكر كتب «بكوش»، والمؤنث «تاكوشيت»، واسم «بكوش» كان يطلق على كثير من الرهبان القبط، وهو الاسم الذي ترجم إلى العربية بكلمة «حبشي» وهو علم يطلق الآن على عدد عظيم من الأفراد في أيامنا هذه مثل «بانوب حبشي» «ولبيب حبشي» فهل بعد ذلك يمكننا أن نستخلص أن «بيسيد يمن» وأسرته كانوا من أصل نوبي؟

ولنذكر هنا أن «مسبرو» قد كتب عن أسماء الأعلام التي من طراز «بكوش» قائلًا: «إني أعتبر أن الأفراد الذين يدعون «باخاروي» (السوري) «نحسى» (الأسود) «تاشاوي» (البدوي) لا يعدون الآن غرباء عن مصر»؛[١٠٤] إذ هي في الواقع كما عندنا (Le Lallemand, les Langlais, les Suisse)، وعلى أية حال فإن الموازنة التي أتى بها «مسبرو» ليست مقنعة تمامًا؛ إذ الواقع أن في مصر لا ينتقل الاسم نفسه حتمًا من الأب للابن، وذلك على عكس ما هو سائد في الغرب الحديث حيث نجده متصلًا ومستمرًا في الأسرة، ومن جهة

أخرى يمكن أن نفرض أن اسمًا مثل النوبي «بكوش» أو غيره كان يُعطى أحيانًا لطفل من فرع مصري أصيل بسبب لون بشرته المائلة إلى السواد أو بسبب خاصية جسمية أيًّا كانت جعلته يشبه السوداني، وعلى ذلك فإن الموضوع لا يزال معلقًا، غير أنه من المستحيل أن «بيسيد يمن» بن «بكوش» كان من أصل نوبي بعيد إذا كان أهله قد هاجروا إلى مصر منذ زمن بعيد أو قريب، وربما كان في مقدورنا أن نتأكد من أصل «بيسيد يمن» النوبي إذا كانت سلسلة نسبه ترجع إلى الجيل الذي قبل ذلك أو إذا كنا قد وجدنا مثلًا أفرادًا يدعون «بكوش» في أجداده أو وجدنا كذلك أفرادًا يحملون أسماء نوبية مماثلة في كتابتها باللغة المصرية القديمة.

(٣) تمثال الكاهن «إتي» وأسرته في عهد الملك «شبكا»

يوجد بالمتحف البريطاني تمثال يحمل رقم ٢٤٤٢٩ وهو تمثال مكعب الشكل من الحجر الجيري في حالة حفظ تامة، ولم ينشر المتن الذي نقش عليه بأكمله، وكل ما نشر منه هو التاريخ الذي دون عليه وقد ذكرناه فيما سبق، وقد بقي موضع خلاف إلى عهد قريب جدًّا.

وهذا التمثال يقدم لنا سلسلة نسب لطائفة من الكهنة الطيبيين، وتفاصيل نحت هذا التمثال وبخاصة الرأس تستوقف الأنظار بدقتها.[١٠٥]

والواقع أن هذا التمثال قد بلغ درجة الكمال، ولكنه الكمال الذي يعتوره بعض الجمود، فتفاصيل نحته ممتازة قد عُني بها إلى درجة عظيمة، ويبلغ ارتفاع هذا التمثال ٢٤ سنتيمترًا و٥ ملليمترات، وعرض القاعدة يبلغ ٢١ سنتيمترًا وثمانية ملليمترات، وجسم هذا التمثال المكعب الشكل قد مثل في صندوقه بصورة مزملة فلم يميز في تمثيله الساقان أو القدمان، ولكن من جهة أخرى نلحظ أن الذراعين قد مثلتا واليد اليسرى قد مثلت منبسطة في حين أن اليد اليمنى قد مثلت بصورة بارزة خارجة من الثوب الذي يلبسه قابضة على شجرة أو نبات.

ويرتدي «إتي» شعرًا مستعارًا يحتوي على عنصرين، فالعنصر الأملس منهما قد بقي فيه بقايا لون أسود وقد أسدل حتى الكتفين، وقد ظهرت منه الأذنان، أما الجزء الأسفل من ذلك الذي فوق الخدين فقد نحت فيه نوع من الرباط يتصل بلحية مربعة، وأنف هذا التمثال مدبب لدرجة ملحوظة والفم صغير ينم عن قوة الإرادة والسيطرة.

وهذا التمثال ليس له عمود يرتكز عليه، ولكن الجزء الذي أمام جسم التمثال نقش عليه بعناية متن يحتوي على ثلاثة عشر سطرًا، وهاك النص:

السنة الخامسة عشرة اليوم الحادي عشر من شهر بئونة في عهد جلالة ملك الوجه القبلي والوجه البحري «شبكا» عائشًا مثل «رع» أبديًّا. نطق يقول: ليت «رع حور أختي» الإله العظيم وسيد السماء، وآتوم سيد الأرضين الهليوبوليتي «أوزير» الذي يشرف على الغرب الإله العظيم،[١٠٦] يعطي القربان والأغذية، ورءوس الماشية والدواجن والبخور والملابس والمرمر وكل شيء جميل وطاهر، وكل شيء لذيذ وحلو، وكل شيء تعطيه السماء وكل شيء تخلقه الأرض، وكل النباتات ذات الرائحة الذكية، والنبيذ واللبن لأوزير الكاهن والد الإله المتفوق النشاط والصحة، ورئيس الأسرار لأملاك «آمون»، المعروف لدى الملك عظيم المنصة الخاصة بالملك «بيعنخي» ابن «إزيس» محبوب «آمون» عائشًا أبديًّا، رئيس الحريم والذي في شهره «= كاهن الشهر» والرئيس لطائفتي الكهنة الثانية والثالثة لأملاك «خنسو الطفل» (شبه هنا خنسو بحور الطفل) «إتي» ابن المحبوب من الإله، الكاهن «حيت وزارت»[١٠٧] الخاص بالإلهة «موت» سيدة السماء ورئيس الحريم للإله «خنسو الطفل» «أرعاخنسو» المرحوم ابن الكاهن والد الإله «لآمون» ورئيس الحريم «إتي» ابن محبوب الإله، والفلكي في «الكرنك» ورئيس الحريم للإله «خنسو الطفل»، والمعروف لدى الملك «عنخفنموت» المرحوم ابن كاهن «آمون» «حورسا إزيس» المرحوم ابن رئيس النشاط والصحة لأملاك «آمون» وكاهن «آمون» في «الكرنك» إتي المحترم.

ومما سبق يتضح أن نقوش هذا التمثال الذي يرجع تاريخه إلى السنة الخامسة عشرة من عهد الملك «شبكا» قد وضعت أمامنا سلسلة نسب من الكهنة التابعين للاهوت «طيبة» ويمكن تلخيصها فيما يأتي:

رقم	الاسم	الألقاب
(١)	إتي	رئيس النشاط والصحة لبيت «آمون» وكاهن «آمون» في الكرنك.
(٢)	«حورسا إزيس»	كاهن «آمون».
(٣)	«عنخفنموت»	محبوب الإله والفلكي في «الكرنك» والمعروف لدى الملك ورئيس الحريم للإله «خنسو الطفل».
(٤)	«إتي»	الكاهن والد الإله «لآمون» ورئيس الحريم.
(٥)	«إرعا خنسو»	محبوب الإله والكاهن «حبت وزات» للإلهة «موت» سيدة السماء ورئيس حريم الإله «خنسو الطفل».

رقم	الاسم	الألقاب
(٦)	«إتي»	رئيس النشاط بالصحة لبيت «آمون» والمعروف لدى الملك وعظيم المنصة الخاصة بابن «إزيس» «بيعنخي» محبوب «آمون» العائش أبديًّا، والمشرف على الحريم، والذي في شهره، والكاهن رئيس الطائفتين الثانية والثالثة لبيت «خنسو الطفل».

وإذا فرضنا في المتوسط خمسًا وعشرين سنة لكل جيل، ومع العلم أن «إتي» رقم ٦ كان موظفًا في بلاط «شبكا» حوالي عام ٧٠٠ق.م، فإنا نصل إلى أن «إتي» رقم واحد كان يعيش حوالي عام ٨٢٥ق.م؛ أي في قلب الأسرة الثانية والعشرين.

والواقع أن غموض بعض الألقاب مثل لقب رئيس النشاط والصحة الذي يحمله «إني» رقم (١) «وإتي» رقم (٦)، وكذلك اللقب «محبوب الإله» الذي يحمله كل من «عنخفنموت» رقم (٣) «وإتي» رقم (٦) تجعل من الصعب الحكم بوجه التأكيد على مركز هذه الأسرة، ومع ذلك نرى أن أعضاءها يشغلون مراكز بين كهنة «آمون» مثل «إتي» رقم (١) «وعنخفنموت» رقم (٣) «وإتي» رقم (٤) «وإتي» رقم (٦)، كما كان بعضهم يشغل مراكز في كهنة كل من «موت» «وخنسو» وهما المكملان لثالوث «طيبة»، ويدل استمرار وظائفهم في كهنة «طيبة» على أن هذه الأسرة تابعة لجماعة الموالين الذين أيدهم الإثيوبيون في أماكنهم في «طيبة» عند الفتح الكوشي، وفضلًا عن ذلك فإن آخر متن لفرد معروف لدينا من سلسلة نسل «إتي» كان مكلفًا بإقامة الشعائر الاحتفالية لأحد الملوك المؤسسين لهذه الأسرة وهو «بيعنخي» العظيم.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن ذكر عبادة «بيعنخي» في عهد «شبكا» يعد دليلًا قاطعًا على إثبات عدم قيام منافسة، ومن باب أولى عدم وجود كراهية في قلب الأسرة الكوشية التي حكمت في عهد الأسرة الخامسة والعشرين.[١٠٨]

(٤) تمثال «باكنبتاح» من عهد «شبكا»

كان من بين العظماء الذين كانوا في خدمة المتعبدة الإلهية: وهي التي كانت تعتبر أميرة من دم ملكي ووهبت نفسها للرهبنة وجندت نفسها بالتبني لأجل أن تكون زوجة «آمون» الطيبي على الأرض المشرف العظيم للبيت، وقد تحدثنا عن بعض هؤلاء الرؤساء العظام للبيت في الجزء العاشر من هذه المجموعة، وقد تناولنا الكلام عن المشرف العظيم للبيت «آخآمون رو» الذي كان في خدمة المتعبدة الإلهية «شبنوبت» الثانية ابنة «بيعنخي» وأخت الملك «تهرقا» بشيء من التفصيل، وتكملة لما أوردناه هناك عثرنا حديثًا على بعض وثائق جديدة من بينها تمثال لفرد يدعى «باكنبتاح»، وكان الأثري «لجران» قد تعرف عليه من قبل

[١٠٩] وهو يضع أمامنا سلسلة نسب المشرف الأعظم للبيت «آخآمون رو» وقد دون هذا النسب فيما سبق غير أننا لم نورد ما جاء على تمثاله «باكنبتاح» من نقوش.

وأهمية هذا التمثال قد وضحت من أن فردًا يدعى «بكيري» وآخر يدعى «باكنبتاح» قد ذكرا كذلك على بردية مؤرخة بالسنة الرابعة عشرة من عهد الملك «بسمتيك الأول» بالكتابة الهيراطيقية والهيراطيقية الشاذة، وهذه الورقة محفوظة الآن بمتحف «بروكلين»، وقد تحدث عنها الأثري «باركر» في مؤتمر المستشرقين الثالث والعشرين في كمبردج «من ٢٤ أغسطس سنة ١٩٥٤.»

وتمثال «باكنبتاح» هذا محفوظ بمتحف القاهرة[١١٠] ويبلغ ارتفاعه ٢٦ سنتيمترًا وهو منحوت في الجرانيت الرمادي المبقع، وقد أصاب النقوش التي عليه بعض العطب.

مُثِّل «باكنتباح» (= خادم الإله «بتاح») جد «آخآمون رو» جالسًا على مقعد يرتكز على قاعدة، ويلبس على رأسه شعرًا مستعارًا ذا فروق عمودية، وعيناه تنظران إلى الأمام، وجسمه مزمل في ثوب في كل أجزائه، ولم يظهر منه إلا جزء من تحت الرقبة والقدمان واليدان، وهذه هي الصورة الشعيرية للمتوفى الذي يمثل في صورة الإله «أوزير»، ونقرأ على مقدمة ثوبه في الوسط النقش التالي: «قربان يقدمه الملك «لآمون» سيد عروش الأرضين، ليته يعطي قربانًا من الخبز والجعة والماشية والدواجن لروح كاهن «آمون» ورئيس كتبة الوثائق.»

هذا؛ ويشاهد تحت قدمي التمثال من أمام القاعدة البداية المزدوجة لنقش يلف حول القاعدة.

ويشاهد على الجهة اليمنى من التمثال في الجزء الأسفل سطر من النقوش يحلي القاعدة، كما يشاهد في الجزء الأعلى ستة أسطر من النقوش وصورة شخص ماشٍ برأس عارٍ ويرتدي جلد فهد.

وهاك النص: «إنه ابن كاهن «آمون» في «الكرنك»، ورئيس كتبة الوثائق، وكاهن الإلهة «ماعت» ابنة «رع»: «بكيري» الذي عملها له لأجل أن يجعل اسمه يحيا في بلدته …»

وعلى الجهة اليسرى نشاهد شخصًا ماشيًا رأسه عارٍ ويقدم على ما يظن مبخرة ومعه النقش التالي: «ابنه البكر من صلبه الذي يحبه، والمالك لكل ممتلكاته، كاهن «آمون» ورئيس الوثائق وكاهن الإلهة «ماعت» ابنة «رع» «بكيري» الذي وضعته السيدة «أرت باستت رو» عمله لأجل أن يحيا اسمه.»

وجاء على الجزء الخلفي من التمثال الذي يتألف من عمود لحماية التمثال ما يأتي:

> يا أيها الإله المحلي لكاهن «آمون رع» ورئيس كتبة الوثائق، وكاهن الإلهة «ماعت» ابنة «رع» المسمى «باكنبتاح» المرحوم ابن كاهن «آمون» ورئيس كتبة الوثائق المسمى «عنخ باخرد»، ليته يوضع خلفه في حين تكون روحه أمامه أنه «أويوني» (= لقب للإله أوزير) وقد نقش حول القاعدة المتن التالي من جهة اليمين: قربان يقدمه «منتو» رب «طيبة»، ليته يمنح كل شيء طيب وطاهر ولذيذ وأن يكون له قربان كل يوم، وأن يخرج عند الصوت «أي سماع الصوت» عندما ينادي «أي المتوفى» لأجل روح كاهن «آمون» «باكنبتاح» المرحوم.

وجاء على الجهة اليسرى: قربان يقدمه الملك «لآمون رع» رب عروش الأرضين، ليته يعمل على أن يصل الخبز «ستنو» في قاعة «جب» العظيمة في حضرة أسياد «هليوبوليس» لأجل روح كاهن «آمون» رئيس كتبة الوثائق وكاهن «ماعت» ابنة «رع» المسمى «باكنبتاح».

ولا نزاع في أن أهمية نقوش «باكنبتاح» تسمح لنا أن نضع سلسلة نسب لعدة أجيال «على الأقل من جهة فرع الذكور» لأسرة كهنة، والمعلومات التي نحصل عليها من ذلك تتفق مع المعلومات التي لدينا عن آباء المدير العظيم للبيت «آخآمون رو» الذي فصلنا القول عنه في الجزء السالف من هذه الموسوعة، فوالد «آخآمون رو» هذا يدعى «بكيري»، ولما كانت الألقاب التي يحملها «بكيري» في وثائق «آخآمون رو» وعلى هذا التمثال فإنه مما لا شك فيه أن الأخير كان والد «آخآمون رو» كما أوضحنا ذلك في الجزء التاسع من هذه المجموعة.

هذا؛ ويخول لنا وجود اسم «بكيري» الذي دون بين الذين وقعوا ورقة «بروكلين» المؤرخة بالسنة الرابعة عشرة من عهد «بسمتيك الأول» أن نحدد من حيث التأريخ سلسلة نسب هذه الأسرة، وعلى ذلك فإنه من الجائز أن «عنخ باخرد» يصعد في نسبه إلى عهد المتعبدة الإلهية «شبنوبت الأولى» وأن نرى فيه طيبيًّا مواليًا للحزب الإثيوبي «أو لكوش» يضاف إلى ذلك أن «بكيري» كان كذلك في السنة الرابعة عشرة من عهد «بسمتيك الأول» لا يزال على قيد الحياة ويشغل وظيفته، وقد ورث عن جده ووالده ألقاب كاهن «آمون» ورئيس كتبة الوثائق، وقد استبقى لابنه «أخآمون رو» تولية الوظيفة العالية بين عظماء رجال المتعبدة الإلهية وأعني بذلك وظيفة المشرف العظيم للبيت.

(٥) إصلاح المحاريب المصرية في عهد الملك «شبكا» في «دندرة» وغيرها

توجد في المتحف المصري لوحة تحمل رقم ٤٤٦٦٥ في دفتر السجل، عُثر على هذا الأثر في خرائب «دندرة»، وهو عبارة عن لوحة جزؤها الأعلى مستدير ومصنوعة من الجرانيت

الأسود، ويبلغ ارتفاعها ٤٩ سنتيمترًا وعرضها ٣٠ سنتيمترًا وسمكها ١٠ سنتيمترات، وتدل حالتها على أنها قد نُزعت من مجموعة آثار كانت ضمنها، ومن المحتمل أنها كانت جزءًا من تمثال يقدم نقشًا وهو راكع.

وفي الجزء الأعلى منها مثل منظر يعلوه علامة السماء، وفي الجهة اليمنى منه مثل الملك بتاج آتف واقفًا في هيئة إنسان يمشي، ويرتدي القميص المثلث الشكل المحلى بذيل الثور الطويل العادي، ونشاهد يده اليسرى مرفوعة ويده اليمنى تحمل الرغيف المخروطي الشكل، وهذا الوضع يمثل لنا حالتين من الحالات الشعيرية، فتقديم الرغيف بيده اليمنى يمثل القربان ورفع اليد اليسرى يمثل التعبد.

ويُرى خلف الفرعون سلسلة رموز واقية قد جمعت هنا لحفظ صورة الملك التي كانت تعد عائشة؛ فنشاهد مروحتين وعتبتي باب وتغطيتها، وعقربًا «يمثل الإلهة «سلكت»» مشبوكًا مع العلامة ، وأخيرًا في أسفل يوجد الرمز «زد» (= الثبات) الذي له ذراعان في صورة

الرمز كا مُثِّل قابضًا على المجموعة التي يتألف منها اسم «آمون»، فالرمز الدال على

الجزيرة والعلامة الدالة على الماء التي تحتوي عليها قد مثلت هنا بشرطة بسيطة أفقية، وكل هذه العناصر الواقية قد حفرت حفرًا غائرًا، ويواجه الملك الإلهة «حتحور» سيدة «دندرة»، وقد مثلت واقفة وبيدها اليسرى علامة «واس» وفي يدها اليمنى علامة الحياة، وخلف «حتحور» يقف الإله «حور سماتاوي» برأس صقر، وفي يده اليسرى الصولجان «واس» وفي اليمنى رمز الحياة.

وعنوان المنظر هو: نذر الرغيف الأبيض لوالدته لأجل أن يمنح الحياة أبديًّا، وقد كتب هذا النقش بين الملك والإلهة «حتحور» ونقش فوق الملك: «حور … سيد الأرضين … معطي الحياة والثبات أبديًّا». ونقش أمامه: نطق: «إني أعطيك كل الحياة والسعادة «هكذا تقول» «حتحور» سيدة «دندرة»، وقد صحب اسمها الصيغة: ليتها تعطي الحياة السعادة مثل «رع»، نطق: إني أعطيك كل الحياة والسعادة وكل الصحة أبديًّا «هكذا يقول» حور سماتاوي».

واسم الملك الذي عمل في عهده هذا الأثر في محي ولم يبقَ منه إلا جزء بسيط، والأسماء الخمسة التي يتألف منها لقب الملك قد ذكرت في السطرين الأول والثاني من النقش الرئيسي الذي يوجد تحت منظر القربان الذي وصفناه، ويمكن أن نقرأ في التكسير بعد التكملة أسماء الملك «شبكا»، وهذا التكسير كان قد عمله الملك «بسمتيك الثاني» في عهد الأسرة السادسة والعشرين لأجل أن يكون هذا الأثر باسمه هو، والواقع أنه يكفي لتحويل لقب الملك «شبكا» وهو «نفر كارع» إلى لقب الملك «بسمتيك الثاني» وهو «نفر إب رع» تغيير علامة واحدة، وبذلك يكون لدينا طغراء «بسمتيك الثاني» الذي في عهده غزيت بلاد كوش وهزمت هزيمة منكرة كما سنرى بعد، هذا؛ وقد حدث بعض تغيير آخر في النقوش ليلتئم مع التغير الذي حدث.

وهاك الترجمة للمتن الرئيسي: «حور» … صاحب السيدتين … حور الذهبي … ملك الوجه القبلي والوجه البحري … ابن «رع» … عائشًا أبديًّا، محبوب «حتحور سيدة دندرة»، أمر لرئيس العمائر للوجه القبلي والوجه البحري، الباني لقصور الملك في كل مكان يرغب فيه، المسمى «باودي نحور» ابن «باووا حامن» إقامة جدار حول معابد آلهة الوجه القبلي والوجه البحري لأجل أن تقوم الكهنة خدام الإله والخدمة «العاديون» بتأدية الشعائر لهم وهم مطهرون، حتى تأتي الآلهة نحو محاريبهم ويتصرفوا في القربات المقدسة التي عملها ملك الوجه القبلي والوجه البحري «تهشم جزئي «نفر كارع»» المحبوب من «حور سماتاوي». ويقول الخادم لسيده: لقد حمل في «دندرة» وفيها ولدت، وإنه لحسن لجلالتك أن تأمر «كذلك» بإقامة آثار لأمك «حتحور» سيدة «دندرة»، وهاك جلالته قد أمر بعمل آثار لوالدته «حتحور» سيدة «دندرة» من الفضة والذهب، ولم يعمل شيء مثلها منذ الأجداد، فليتهم يعطونه مكافأة على ذلك ملايين السنين، ملك الوجه القبلي والوجه البحري سيد الأرضين … ابن رع … محبوب «حتحور» سيدة «دندرة» معطي الحياة مثل «رع» أبديًّا.

تعليق: يدل متن هذه اللوحة على أن الموعز بتأليفها وإقامتها فرد من أفراد الرعية من كبار الموظفين، وقد كان غرضه على ما يظهر أن يتحدث فيها عن نفسه وعن أصله كما هي العادة، ثم لتكون بمثابة مرسوم ملكي حرره هو بيده على ما يظهر، فنقرأ في الجزء الأول صورة المرسوم الصادر من مركز السلطة العليا؛ أي الملك، وقد وصف فيه الأعمال التي لا بد من تنفيذها في المعابد المصرية، فنشاهد منها حبًّا ضخمًا لإصلاح المعابد، وهذا على ما يظهر كان عنصرًا من عناصر أساس النهضة الكوشية التي قامت في البلاد، ففي عهد هذه الأسرة الجنوبية رأت مصر إصلاح آثارها ومضاعفة النذور للآلهة، ولأجل أن تفيد هذه الآثار من القربان كان من المرغوب فيه أن تحقق بعض شروط الشعائر، ومن أجل ذلك نرى الإشارة في هذا المتن إلى الصلة بين إقامة الأسوار من جديد وحالة الطهارة التي يجب أن يكون عليها أولئك الكهنة الذين كان عليهم أن يقوموا بواجباتهم في داخل هذا السور.

ويلحظ أن «باودي نحور» رئيس الأعمال عندما أراد أن ينقل متن المرسوم الملكي لم يفته أن يحشر اسمه، فشوَّه بذلك وحدة هذه الوثيقة.

ونشاهد كذلك في الجزء الأخير من المرسوم أن نفس هذه الشخصية قد حشرت جزءًا من ترجمة حياتها، وفيها نشاهد تعلق صاحبها بأرض الوطن الذي حملته أمه فيها والتي وضعته فيها، ويلحظ هنا أن الرابطة بالمتن الأصلي ليست ظاهرة تمامًا، غير أنه يمكننا أن نعترف بأنه لما كان «باودي نحور» قد كلف بتنفيذ ما جاء في المنشور الملكي، وهو الذي كان يمتد إلى كل الإقليم فإنه انتهز الفرصة لجذب نظر الفرعون إلى «دندرة» مسقط رأسه، وقد تقبل الفرعون قبولًا حسنًا ملتمسه، ومن أجل ذلك دعا له «باودي نحور» بطور العمر والسعادة الأبدية.

وقد بقيت عبادة «حتحور» التي رأيناها موضحة بالمنظر المنحوت في الجزء المستدير من هذه اللوحة التي نحن بصددها على أية حال عند الفراعنة الكوشيين فيما بعد، فمن عهد

الملك «أمتالقا»[١١١] بن الملك «أسبلتا» بقيت لدينا لوحة صغيرة من الذهب نشاهد فيها هذا الملك الذي ينسب إلى الأسرة الأولى النباتية يقوم بدوره الذي يدل على ولائه لتلك الإلهة العزيزة لدى «باودي نحور»، وقد ذكر بأنه في الواقع محبوب «حتحور» سيدة «دندرة» ونائبة الآلهة، ومن ثم نشاهد أن المبادرة التي قام بها رئيس الأعمال الذي نحن بصدده قد رسمت بمقتضى تأثيرات شعيرية متبعة، ولا نزاع في أن الأهمية الخاصة بعبادة الإلهة «حتحور» صاحبة «دندرة» في الأرض النوبية تعد من العناصر التي تسهل علينا فهم صياغة أسطورة الإلهة القاسية.[١١٢]

ومن ثم نرى أن هذه اللوحة رقم ٤٤٦٦٥ الموجودة بالمتحف المصري تقدم لنا سلسلة معلومات ذات أهمية خاصة عن الحياة الدينية في «دندرة» في عهد الأسرة الخامسة والعشرين، وبخاصة عندما نعلم أنه قد وجدت في «دندرة» تماثيل عدة شخصيات من هذا العهد.[١١٣]

وهذا؛ ولسنا في حاجة إلى ذكر ما كان عليه ملوك الأسرة الخامسة والعشرين من تقى وصلاح وتدين عميق وورع خالص، وقد أشرنا إلى ذلك في مواضع عدة فيما سبق.

---

[١] راجع مصر القديمة الجزء التاسع.

[٢] راجع: Legrain, Catalogue General des Antiquites, Egyptiennes Statues et Statuettes De Rois et de Particuliés, Tome III, P. 85 No. 42236 & 42237.

[٣] راجع: Rec. Trav, 28, P. 181.

[٤] راجع: Legrain, Ibid, P. 102 No. 42234.

[٥] راجع عن هذا الإله (مصر القديمة، الجزء التاسع).

[٦] راجع: Rec. Trav, Ibid, p. 183.

[٧] راجع: Legrain, Ibid, P. 81, No. 42233, Pl. XLII.

[٨] راجع: Legrain, Ibid, P. 102 No. 42250, Pl. LIII.

[٩] راجع: Legrain, Ibid, P. 101 No, 42249. Pl. LII.

[١٠] هذا التمثال يرجع تاريخه إلى الأسرة السادسة والعشرين Legrain, Ibid. P. 103.

[١١] راجع: Rec. Trav, 38, P. 189.

[١٢] هذا اللقب ينطق بالمصرية «حيت وزات» وينطقه آخرون «سخن وزات» ومعناه غامض، (راجع Lechant, Enquetes. P. 24).

[١٣] صاحب الستار لقب من الألقاب الوزير.

[١٤] يعتقد الدكتور كيس أن «حورسا إزيس» يحمل اسمًا آخر وهو «بهرر».

[١٥] راجع: Rec. Trav, 34, P. 97 etc.

[١٦] راجع: Maspero, Les Momies Royales de Deir-el Bahari, P. 762-763.

[١٧] راجع: Aug Baillet, Une Famille Sacerdotale et Rec. Trav. XXVII, P. 192.

[١٨] راجع: Lieplein, Ibid No. 1094.

[١٩] راجع: Ancient Catalogue Maspero No. 1562; No. 1457.

[٢٠] راجع: Rec. Trav, P. 98ff.

[٢١] راجع: Lieblein, Dictionnaire de nome Hieroglyphiques, 1102.

[٢٢] راجع: Lieblein, Ibid, No. 1131.

[٢٣] راجع: Lieblein, Dictionnaire de Nome Hierog. No. 1119, 1120, 1121; et Etudes Egyptologiques IX, 50.

[٢٤] هذا الصندوق يحمل الأرقام: ٣٩٤، ١٦٧٧، وفي دليل المتحف المصري العام (١٩٠٦) الرقم ٧٩٢.

[٢٥] راجع: Daressy, Recueil du Cones Funeraires, P. 311, No. 174.

[٢٦] راجع: Legrain. Cat. Gen. II 1, p. 84.

[٢٧] راجع: Legrain. Cat. Gen. III, p. 96–100.

[٢٨] راجع: Legrain, Ibid No. 42244.

[٢٩] راجع: Legrain, Ibid, P. 99 No. 42247.

[٣٠] يعني إزيس تمنح أعيادًا ثلاثينية.

[٣١] راجع: Borchardt, Stat. I, No. 1219.

[٣٢] راجع: Rec. Trav. XXXV. p. 207.

[٣٣] راجع: Rec. Trav, Ibid, p. 208.

[٣٤] راجع: Rec. Trav, Tome 35, p. 208.

[٣٥] راجع: Rec. Trav, Ibid, p. 208.

[٣٦] راجع: A. S, V, P. 39.

[٣٧] راجع: Rec. Trav, Tom. XXII, p. 141.

[٣٨] راجع: Rec, Trav, Tom. XVII, P. 14; Piehl, Rec. Trav, Tom. I. P. 201.

[٣٩] راجع: Rec. Trav, Tom, XVII, P. 14; Proceedings of the Society of Biblical Archeology, Vol. XXIII, p. 259.

[٤٠] راجع: Benson and Gourlay, The Temple of Mut, p. 350; & Newberry, Rec, Trav, XX, p. 190.

[٤١] راجع: Rec. Trav, Tom. XXXV. p. 212.

[٤٢] راجع: Benson and Gourlay, The Temple of Mut, P. 65, 262, 357 and Pl. 24; Rec. Tray, 1898, p. 192.

[٤٣] راجع: Rec. Trav, VIII, p. 69.

[٤٤] راجع: British Museum, A Guide of the Egyptian Galleries. Sculpture, 1909, P. 228 No. 821.

[٤٥] راجع: Lieblein, Ibid No. 1354.

[٤٦] راجع: Davies, Ptahhetep II, p. 6.

[٤٧] راجع: A. S, VIII, P. 122.

[٤٨] راجع: Daressy, Catalogue Gen. de Statues de Divinites No. 39273 et 39274.

[٤٩] راجع: A. Z, 1885. P. 55; Scheil. Memoires de la Mission Archeologiques Francaises du Caire T. V, P. 613; H. Von Zeisel, Athiopen and Assyrer In Agypten (1944) p. 78-79.

[٥٠] المكان الذي دفن فيه رأس أوزير على ما يقال.

[٥١] القارب الذي كان يوضع فيه جثمان المتوفى ليزور العرابة المدفونة قبل دفنه في مكانه الأصلي.

[٥٢] راجع: Orientala, 19 (1950) P. 370–372 fig. 28–30 (Pl. LI–LII); Ibid 20 (1951) P. 473-474, fig. 35–38 (Pl. LXIII–LXIV).

[٥٣] راجع: A. S, LI, p, 491ff.

[٥٤] هذا اللقب وجد كذلك على قاعدة تمثال من الجرانيت في متحف بروكلين، راجع Brooklyn Museum, 16, 580, 185 إذ لقب «نسبتاح» ابن الأمير العظيم لإقليم طيبة منتومحات صادق القول.

[٥٥] راجع: Orientala, 19 (1950) fig. 29 Pl. LI.

[٥٦] راجع: Sethe, Ubersetzung und Kommntar II, P. 25, III, P. 150-151, and 342.

[٥٧] راجع: De Buck, Coffin Texts I, 81 and 299 a-b.

[٥٨] راجع: A. S, XVII, P. 99; A. S, LI. P. 496 No. 3.

[٥٩] راجع: Orientalia, 20 (1951) p. 371.

[٦٠] راجع: Orientalia, 19 (1950). p. 371.

[٦١] راجع: Ahmed Bey Kamal, Tables D’offandes p. 85-86.

[٦٢] راجع: F. Bisson, De La Roque. Rapport sur les Fouilles de Medamoud 1929, I.F.A. O, VII (1930) P. 7 et 47, n. 4314.

[٦٣] راجع: British Museum No. 1959. cf. L. R, IV, P. 7 no. 2 et P. 9 no 1.

[٦٤] راجع: A.S, LI. P. 501 tf.

[٦٥] راجع: Petrie, Hist, III, p. 305.

[٦٦] راجع: Marriette, Karnak L. 51, planche 44.

[٦٧] إن أسلوب هذه الفقرة من النقش يذكرنا بوضوح بأدب باكورة الدولة الوسطى؛ فعبارة «البلاد كانت عقبًا على رأس»، أي عاليها أصبح سافلها، لها نظير في تحذيرات نبي، حيث يقول: أليست هذه الأرض قد قلبت مثل ما يعمل صانع الفخار (راجع: Pap. Leiden 344, recto II 8, Gardiner, The Admonition of an Egyptian Sage).

[٦٨] يقصد هنا «تهرقا» الكوشي الذي خلص مصر من أول هجوم انقض به الآشوريون على مصر، وكذلك فإن هذه الفقرة ترن في الآذان كأنها تردد ذكرى الأدب القديم، أي تنبؤات نفر رهو (راجع «الأدب مصري القديم» الجزء الأول، ص٣١٨) وهو كتاب ينبئ يقرب حكم «أمنمحات الأول» بعد الاضطرابات التي قامت في العهد الأهناسي، وقد قيل عن هذا الملك: وسيأتي من الجنوب رجل يدعى أميني أي «أمنمحات الأول».

[٦٩] راجع: Biographischen Inschriften der Agyptischen Spatzeit Ihre Geistesgeschichte und Literarische Bedeutung Von Eberhard Otto. p. 159–161.

[٧٠] لا توجد قاعة كهذه للإلهة «موت» في معبدها مما كشف حتى الآن.

[٧١] اسم إله يمثل طيبة مذكر كما أن «واست» هو اسمها المؤنث، غير أنه ليس معروفًا لنا في غير هذه المناسبة.

[٧٢] راجع Breasted, Ancient Records of Egypt Vol. IV. 88 904. 915 ويلحظ أن ترجمة الأستاذ برستد تختلف عن الترجمة التي أوردناها هنا، وقد اعترف برستد نفسه أن ترجمته تحتاج إلى تدقيق؛ لأنه نقلها عن أصول ليست مؤكدة.

[٧٣] راجع: Wiedmann, Rec. Trav, VIII, P. 69; Lieblein, Dle. de Noms Hieroglyphiques no. 2284.

[٧٤] راجع: Rec. Trav, 36, P. 59.

[٧٥] راجع: Ibid, P. 59.

[٧٦] راجع: Ibid, P. 59.

[٧٧] راجع: Ibid, P. 59.

[٧٨] راجع: Ibid, P. 60.

[٧٩] راجع: Ibid, P. 60.

[٨٠] راجع: Ibid, P. 60.

[٨١] راجع: Ibid. P. 60.

[٨٢] راجع: Ibid. P. 60.

[٨٣] راجع: Ibid. P. 60.

[٨٤] راجع: Ibid, P. 61.

[٨٥] راجع: Rec. Trav, 36, P. 62.

[٨٦] راجع: Legrain. A. Z, XXXV, P. 12 et 19; Br, A. R, Vol. IV (1935) ff.

[٨٧] راجع: Rec. Trav, 36, P. 64.

[٨٨] راجع: Sharpe, Egyptian Inscriptions, Part 2, Pl. 37.

[٨٩] راجع: Die Agyptische Dmkmaler in Saint Petersburg P. 36. Pl. VII, 22; Lieblein, Dictionnaire de Noms Hieroglyphiques No. 2303.

[٩٠] راجع: Rec. Trav, 36, P. 146.

[٩١] لا يزال السير ألن جاردنر يترجم هذا اللقب الكاهن «سما» وراجع A. Z. 79 Band zweite IIeft, p. 96.

[٩٢] راجع: Lieblein, Dictionnaire de noms heiroglyphiques No. 1105.

[٩٣] راجع: Die Agyptische Denkmaler in Saint Petersbourg P. 36 et Pl. VII, 22; Dictionnaire de Noms Heiroglyphiques No. 2303.

[٩٤] راجع: Memoires de l’Institut Français D’Archeologie Orientale die Caire les Inscriptions Heiroglyphiques et Heiratiques du Ouady Hammamat.

[٩٥] راجع: Legrain, Cat. gen, III, Pl. XLIV, XLV No, 42236.

[٩٦] راجع: Drioton–Vandier, L’Egypte, p. 526.

[٩٧] راجع: Legrain, Cat Gen, III, p. II.

[٩٨] راجع: L.D, Text; III, P. 289.

[٩٩] صورة رقم ١٤.

[١٠٠] شتيت هو المحراب الذي يوضع فيه هذا الإله في القارب الذي يُحمل على الأعناق.

[١٠١] حرت إيب هي قاعة للعبادة توجد في المعابد منذ الدولة الحديثة.

[١٠٢] راجع: Kirwan, Melanges Maspero, I, (1934) P. 375–377.

[١٠٣] راجع: Leclant, Enquetes Sur Les Sacerdoces et les Sanctuaires Egyptiens a L’Epoque Dite Ethiopienne. 1.

[١٠٤] راجع: Maspero, Etudes de Mythologie and D’Archeologie Egyptienne, VII, P. 140 No, 1.

[١٠٥] راجع عن المصادر الخاصة بهذا التمثال Leclant, Enquetes Sur les Sacerdoces et les Sanctuaires Egyptiens à L’Epoque Dite Ethiopienne, P. 15ff.

[١٠٦] المقصود هنا إله واحد وهو «رع حور أختي-آتوم-أوزير»، وكان الإله الشمسي في هذا الوقت يميل إلى تحقيق دوره في الشعائر الجنازية، ومن ثم نجد أن الأناشيد الخاصة بالتماثيل التي صور عليها لوحات كانت على ما يظهر موزعة عند مدخل مقبرة العظيم «منتومحات» وتشيد باسم إله الشمس في مظهريه عند الشروق «رع حور أختي» وعند الغروب «آتوم» بوصفه ضمانًا للحياة السعيدة في عالم الآخرة، وبصفة عامة نجد أن اسم

«رع حور أختي» قد ظهر كثيرًا مصحوبًا باسم «أوزير»، ومن المحتمل بصفة أدق في عدد محدود من المناظر ذات النوازن، إذ نجد أن الإله الجنازي يظهر في صورتين، في صورة «أوزير» وفي صورة «رع حور أختي»، فمثلًا في لوحة محفوظة الآن في متحف «أدنبرة» وتحمل اسم شبكا، راجع Miss M. A. Murray, Catalogue Edinburgh, P. 29, 55 and 56 No. 444 وقد مثل في جزئها الأعلى المستدير الإله «أوزير» «ورع حور أختي» مسندين على عمود من النقوش جاء فيه: «أوزير» رب الحياة، وكذلك صيغة القربان وجدت في حالة المفرد، وهذا يدل على توحيد المقدمة، راجع كذلك أمثلة أخرى في Lcelant, Enqutes, P. 19.

[١٠٧] راجع عن هذا اللقب الخاص بعبادة الإلهة «موت» في «طيبة» Leclant, Enquetes. P. 24 وينطقه بعض اللغويين «سخن وزات».

[١٠٨] راجع: J. Yoyotte, Rev. D’Eg, 8 (1951), p. 225.

[١٠٩] راجع: A.S, VII, P. 191.

[١١٠] راجع: J. E, 37866 = Cachette de Karnak No. 608.

[١١١] راجع: Dows Dunham and Laming Macadam, J.E.A, Vol. 35, p. 142, No. 12.

[١١٢] راجع: Junker, Der Auszug der Hathor-Tefnut aus Nubien, Vienne-Berlin, 1911.

[١١٣] راجع: Porter and Moss, V, P. 116.

المدنية في العهد الكوشي

مقدمة

ظل الاعتقاد السائد عن عصر النهضة الأخيرة أنه بدأ بقيام الأسرة السادسة والعشرين التي وضع أساسها الملك «بسمتيك الأول» حوالي عام ٦٦٤ق.م، غير أن الكشوف الحديثة التي عملت في مصر وبلاد النوبة العليا في خلال الربع الأول من القرن العشرين قد برهنت على أن هذه النهضة تضرب بأعراقها إلى أوائل الأسرة الخامسة والعشرين التي أسسها وأقام صرحها الملوك الكوشيون الذين بسطوا سلطانهم على مصر وبلاد السودان معًا حوالي قرن من الزمان ٧٦٠–٦٥٣ق.م، وفي خلال تلك المدة قام ملوك هذه الأسرة الكوشية بنهضة جديدة عمت بلاد السودان ومصر جميعًا، غير أن مصدر هذه المدنية وما قامت به من تجديد يرجع في أصله إلى الحضارة المصرية القديمة في عهود ازدهارها وبهجتها وعنفوانها.

ولا غرابة في ذلك؛ فإن الذين قاموا بهذه النهضة المباركة كانوا على ما يظن من أصل مصري عريق، هذا بالإضافة إلى أن كلًّا من مملكة مصر وبلاد السودان كانت في معظم تاريخها تسير على نهج وثقافة موحدة، فمصر كانت الأم التي تغذي بلاد السودان بمعارفها وعلومها وفنونها وصناعاتها كما كان كل من البلدين يدين بالولاء والطاعة لآلهة موحدة تعبد في كلتا البلدين منذ أقدم العهود، وسنحاول هنا بعد الاستعراض الذي دوناه في الفصول السابقة عن ملوك هذه الأسرة، وما قاموا به من أعمال تجديد في جنوب الوادي وشماله أن نضع صورة مختصرة عن الحياة الدينية في تلك الفترة من تاريخ البلدين.

المعتقدات الدينية في هذا العصر

لا نزاع في أن الدولة الكوشية التي قامت في بلاد كوش في مدينتي «الكورو» «ونباتا» وغيرهما من مدن السودان كان أساسها على ما يقال نزوح طائفة كهنة «آمون رع» الذين هاجروا من مصر إلى «نباتا» واعتصموا في معبدها القديم في جبل «برقل» المقدس الذي يرجع عهده إلى زمن ملوك الأسرة الثامنة عشرة وبخاصة التحامسة، وقد كانت هجرتهم أو فرارهم خوفًا من عدوان «شيشنق الأول» الذي استولى على ملكهم في «طيبة» عنوة حوالي ٩٥٠ق.م، ونصب ابنه كاهنًا أكبر هناك، وبذلك هدم سلطانهم وقوض عرشهم الذي كان حصنهم الحصين طوال عهد الدولة الحديثة.

أسس هؤلاء الكهنة الفارون لهم سلطانًا في إقليم «نباتا» ثم أخذ سلطانهم يعظم في هذه الجهة وغيرها من بلاد كوش، وظلوا بمعزل عن مصر، لم نسمع عنهم شيئًا حتى طالعتنا الكشوف الحديثة بقيام دولة في هذه الأصقاع كان لهم فيها شأن عظيم، وتدل شواهد الأحوال على أن حكامها كانوا يرقبون عن كثب سير الحوادث في مصر في العهد اللوبي حتى حانت الفرصة ولمسوا جانب الضعف في تلك الدولة الهرمة في مصر؛ فانقضوا عليها وعلى رأسهم ملكهم «كشتا» واستولوا على إقليم «طيبة» مقر عبادة الإله «آمون رع» الذي كانوا يعظمونه ويتعبدون إليه بقلوب ملؤها الورع والخشية والتقى العميق في معبد «جبل برقل»، ولا غرابة في ذلك؛ فقد شاهدنا أن أفراد هذه الأسرة قد أقاموا له المعابد والمحاريب في طول بلادهم وعرضها وبخاصة في «نباتا» «وصنم» «ومروي».

وقد كان أول عمل قام به «كشتا» بعد فتح إقليم «طيبة» أن نصب ابنته «أمنردس» متعبدة إلهية «أي بمثابة كاهنة عظمى لطيبة» وبذلك استرد «كشتا» ما كان قد فقده كهنة «آمون» من سلطان في هذه البلدة، وقد لعبت المتعبدات الإلهيات أو زوجات «آمون» في «طيبة» دورًا هامًّا في خلال هذه الأسرة والتي تلتها، وكان لهن من النفوذ والسلطان ما خول لهن حمل لقب الملك ومميزاته، والواقع أنهن كن ملكات متوجات في إقليم «طيبة» وذلك بفضل ما كان لهن من مكانة دينية عظيمة، وقد فصلنا القول في ذلك فيما سبق.[١]

وتدل النقوش التي تركها لنا ملوك الأسرة الكوشية على أن دولتهم في مصر قد قامت بالدعوة إلى عبادة «آمون رع» والتمسك بعقائدها وشعائرها، يشد عضدهم في ذلك حماس رجال دولة فتية لم تكن المدنية قد أفسدت أخلاق رجالها، وذلك في وقت كانت الحالة فيه في شبه فوضى؛ أي العهد اللوبي الذي انتهى به الأمر أن قسمت البلاد فيه عدة مقاطعات يقوم على رأس كل واحدة منها أمير يدين بديانة معبود مقاطعته ويعده الحامي لذمارها والمدافع عنها.

هذا؛ ونشاهد التفاف الكوشيين حول عبادة «آمون رع» وتمسكهم بها وعلى رأسهم مليكهم فيما نجده في الكلمات التي حث بها «بيعنخي» جنوده على حرب الأمير «تفنخت»، عندما أراد الأخير أن يطرد الكوشيين من مصر عنوة، وكان صاحب قوة وعزم، ولكن «بيعنخي» تغلب عليه بما كان يتصف به هو ورجال جيشه من حماس ديني واعتقاد راسخ في قوة «آمون» الذي يمنح النصر لمن يشاء، لدرجة أنه أمر قواده أن يعطوا العدو اختيار الزمان والمكان لأجل الحرب وكل الفرص الملائمة، وقد كان السر في ذلك ما فاه به لقائده: «عليك أن تعرف أن «آمون» هو الإله الذي أرسلنا، فهو كفيل بالنصر». ولعمري فإن ذلك يذكرنا بالحماس الديني الذي كان يتصف به المسلمون في بادئ أمرهم، وقد كفل لهم الظفر والنصر في كل الميادين أو الجنة، وكلاهما مغنم.

وكذلك نجد «بيعنخي» يأمر جنوده عند الاقتراب من «طيبة» التي يقيم فيها «آمون» إلهه العظيم بقوله: وعندما تصلون إلى «طيبة» قبالة «الكرنك» فانزلوا إلى الماء وطهروا أنفسكم في النهر، وأظهروا أنفسكم في ملابس كتان نظيفة، وشدوا القوس وارموا بالسهم، ولا

تفخروا بأنكم أرباب القوة؛ لأنه بدونه (أي «آمون») لا تكون لشجاع قوة؛ إذ قد يجعل القوي ضعيفًا، وبذلك تفرُّ الكثرة أمام القلة (كَمْ من فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ)، وإن رجلًا واحدًا قد يستولى على ألف رجل، اغسلوا أنفسكم بماء قربانه، وقبلوا الأرض قبل محياه وقولوا له: «امنحنا سواء السبيل حتى نستطيع أن نحارب تحت ظل سيفك القوي … إلخ.» وهذا لا يحتاج إلى تعليق. ولا غرابة بعد ذلك في أن نرى «بيعنخي» كان كلما فتح مدينة من مدن مصر الوسطى أو السفلى كان يسلم ما فيها من مخازن وغلال قربانًا للإله «آمون رع» رب «طيبة» وإله «بيعنخي» الأعظم وصاحب «الكرنك».

وعندما حاصر «بيعنخي» «منف» واستعصت عليه جمع مجلسه الحربي غير أنه لم يأخذ برأيه، بل اتبع رأيه هو الذي كان ينحصر في الاستيلاء عليها بالهجوم متكلًا في ذلك على الإله «آمون» الذي كان يناصره في كل المواطن (وهو في ذلك شبه «تحتمس الثالث» أمام «مجدو»)، ولذلك قال: «إني أقسم بحب «آمون رع» لي وبحظوة والدي «آمون» الذي أوجدني أن ذلك لا بد أن يصيبها على حسب ما أمر به «آمون»، وهذا ما سيقوله الناس بعد، إن الأرض الشمالية ومقاطعات الجنوب قد فتحت له أبوابها من بعيد؛ لأنهم لم يضعوا «آمون» في قلوبهم ولم يعرفوا ما الذي أمر به، فإن «آمون» قد جعله يظهر شهرته كما جعله يرى جبروته وسأستولي عليها كالفيضان …»

والواقع أنه يمكن تشبيه هذه الفترة من تاريخ مصر بأنها كانت عصر انحلال ديني صارخ، كما يمكن تشبيه ملوك كوش في نهضتهم بملوك الوهابيين في خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في حماسهم الديني والتمسك بأهداب العقائد الدينية القديمة مع بعض الفروق.

وعلى الرغم من أن «بيعنخي» وأخلافه كانوا يميلون كل الميل لعبادة «آمون» فإنهم كانوا في الوقت نفسه يمجدون آلهة المصريين الآخرين كما كانت الحال في عصر الإمبراطورية، ولا ريب في أن ما جاء في لوحة «بيعنخي» قد أوضح لنا تمامًا كيف كان ملوك كوش يتبعون بكل دقة شعائر الدين المصري، فقد عمل «بيعنخي» كل ما في وسعه ليظهر تمسكه بالعقيدة الشمسية القديمة في «هليوبوليس» وإنه بدون اتباعها ومراعاة ما جاء فيها لن يكون ملكًا على مصر، كما وجدناه في مشهد آخر من مشاهد هذه اللوحة قد رفض التسليم التام لأولئك الأمراء المصريين الأنجاس الذين كانوا يسمحون لأنفسهم بأكل السمك الذي كان في عقيدته محرمًا.

وقد اتخذ «بيعنخي» سياسة حكيمة في غزوه لمصر، فقد كان من دأبه أن يزور معابد الآلهة المحليين في كل بلدة يخضعها، ويقدم للآلهة القرابين في كل الأحوال، وقد فعل ذلك في «الأشمونين» «وأهناسية المدينة» «والفيوم» وسائر مدن المقاطعات الأخرى فضرب بذلك مثالًا رائعًا في السماحة وحسن السياسة، وتلك كانت السياسة الرشيدة لكل من كان يريد السيطرة على نفوس الشعب المصري في كل أطواره القديمة والحديثة.

هذا؛ ولا ننسى أن «بيعنخي» وغيره من ملوك كوش كانوا يستعينون كذلك بآلهة آخرين في جلب رضى الشعب ونيل النصر، فقد رأيناه يستميل أهالي «منف» للتسليم دون سفك الدماء، وقد وعدهم بأنه سيقرب القربان للإله «بتاح» القاطن جنوبي جداره وللإله «سكر» في مكانه السري (انظر فصل الملك بيعنخي) كما أغدق على آلهة المدينة جميعًا مع الإله «آمون» كل ثروتها بعد فتحها، وسنرى بعد أن الإله «بتاح» كان له مكانة خاصة عند ملوك كوش.

ومما يلفت النظر كذلك أن «بيعنخي» قد وصف في هذه اللوحة بأنه استمد قوته من قوة الإله «ست» الذي كان يعبد في بلدة «برسخم خبر رع» الواقعة بجوار «اللاهون» الحالية، ومن ثم نفهم أن الإله «ست» كان لا يزال حتى الآن ينظر إليه بأنه إله شديد القوى ويشبه به الملوك لا إله شر وحسب، ولكن يجوز أنه كان ينظر إليه بهذه الصفة في البلدة التي كان يعبد فيها وحدها (انظر فصل الملك بيعنخي)، كذلك نشاهد في نفس اللوحة أن «تفنخت» بعد هزيمته عندما أراد أن يطنب في قوة «بيعنخي» وشدة بطشه وصفه بقوله: «حقًّا أنك الإله «ست» (نوبتي) المسيطر على الأراضي الجنوبية وفي آن واحد الإله «منتو» ذلك الثور صاحب الساعد القوي، في حومة الوغى.» وهذا يؤكد لنا أن الإله «ست» كان وقتئذٍ مثله كمثل الإله «منتو» إله الحرب العظيم لا إله شر وحسب.

وتدل النقوش والآثار على أن الإله «آمون رع» كان يعبد في صورة بولهول برأس كبش، ولم يكتف «بيعنخي» بصنع تماثيل إلهه هذا على هذه الصورة، بل اغتصب بعض التماثيل الجميلة التي صنعها ووضعها «أمنحتب الثالث» في معبده بمدينة «صلب» (انظر فصل الملك بيعنخي)، ولا يزال منها اثنان في مكانهما الأصلي، وكان بطبيعة الحال يمثل مع «آمون» أحيانًا الإلهة «موت» زوجه والإله «خنسو» ابنهما وهما المكملان لثالوثه العظيم، هذا؛ ونجد «لبيعنخي» منظرًا في معبد الإلهة «موت» ربة «أشرو» «بالكرنك» غير أنه تذكاري على ما يظن (انظر فصل الملك بيعنخي).

وكذلك نشاهد «بيعنخي» في لوحة له عثر عليها في معبده العظيم بجبل «برقل» وقد مثل مع ثالوثه (انظر فصل الملك بيعنخي)، وتدل نقوش هذه اللوحة على أن «بيعنخي» كان في حرج عند بداية ملكه وأن «آمون» وثالوثه قد ثبتاه على العرش.

وفي عهد الملك «شبكا» الذي تولى الملك بعد «بيعنخي» حوالي ٧١٦ق.م، تكشف لنا النقوش عن صفحة جديدة في تاريخ الحياة الدينية في عهد هذه الأسرة الكوشية، وأول ما يلحظ هنا عن هذا الملك أنه كان أول من اتخذ مقر ملكه بمصر في مدينة «طيبة» بدلًا من «نباتا» التي كانت العاصمة الكوشية لسلفه، ولذلك نجده اهتم بالآثار الدينية القائمة في «طيبة» باسم والده «آمون»، فقد أصلح البوابة الرابعة «بالكرنك» وزينها بالذهب والفضة؛ وذلك اعترافًا منه بالجميل لوالده «آمون» الذي أمده بنصر من عنده على الأعداء (انظر فصل الملك شبكا) وكذلك أقام آثارًا له بمعبد «الكوة»، غير أنه بجانب ذلك نراه قد اهتم اهتمامًا بالغًا بإحياء ما كان قد عفا عليه الدهر ودثر من معالم الآثار الدينية في العهود السابقة

لعصره، هذا بالإضافة لما قام به من إصلاحات ونهضة في النواحي الأخرى من نواحي الحياة المصرية.

والواقع أنه وصل إلينا من عهده المتن الحقيقي لوثيقة يقال إنها دونت في عهد بداية الاتحاد الثنائي للمملكة المصرية من عهد الملك «مينا»، وقد وصلت إلينا نسخة من هذه الوثيقة منقوشة على حجر أسود محفوظ الآن بالمتحف المصري، غير أنه قد أصاب بعض أجزائه الكثير من العطب، ويدعي الملك «شبكا» أنه نسخ هذا الحجر عن بردية كانت قد أكلها الدود وبذلك أنقذ المتن من العدم، ويدل ما جاء في المتن على أنه نقل من جديد في بيت والده «بتاح» القاطن في «منف»، وهي المدينة التي كان يقطنها وقتئذٍ «شبكا» بوصفها عاصمة ملكه، وقد قال عنه إنه من تأليف الأجداد، ومن ثم نفهم اهتمام هذا الفرعون بإحياء الآثار القديمة، وفي الوقت نفسه ينسب نفسه إلى السلالة المصرية، والواقع أن ذلك العصر كان الفترة التي قامت فيها نهضة جديدة لإحياء مجد مصر القديم في شمالها وجنوبها من كل النواحي (انظر فصل الملك شبكا «سبكون» … إلخ) ولا غرابة في ذلك فإن المصريين والكوشيين هم من أصل حامي واحد.

ومتن الوثيقة يشبه كل الشبه القصص المقدسة التي مثلت في المسرحيات الرمزية في القرون الوسطى، والمسرحية المنفية التي نحن بصددها (انظر فصل الملك شبكا «سبكون» … إلخ) تعد أقدم سلف لها، وقد وجدنا أن الإله «بتاح» إله «منف» يقوم في كل من الجزء المسرحي والجزء الفلسفي الذي يحتويه هذا المتن بدور إله الشمس الذي يعد إله مصر الأعلى، وذلك يفسر لنا ما كان يرمى إليه «شبكا» من جعل «بتاح» هذا الإله المحلي يحصل على عظمة إله الشمس «رع» وما كان له من سلطان، وذلك بأن يتقلد سلطته العالمية، ويستولي على الدور الذي لعبه في تاريخ مصر الأسطوري.

وتدل شواهد الأحوال على أن هذه المسرحية الفلسفية هي من تأليف كهنة «منف»، وأن الذي أمر بإنشائها هو «شبكا» حينما اتخذ هذه المدينة عاصمة له، مريدًا بذلك أن يجعل إلهها المحلي في القمة مشرفًا على الآلهة المصريين جميعًا بما فيهم الإله «رع» نفسه، ويمكن تلخيص محتويات هذه المسرحية بأنها محاولة لتفسير الأشياء على حسب نظرية كهنة «منف»، ويدخل في ذلك نظام العالم الخلقي، وكذلك لتدل على أن أصلها يرجع إلى «بتاح» إله «منف»، أما كل العوامل التي ساعدت على خلق العالم أو المخلوقات التي كان لها نصيب في ذلك فلم تكن إلا مجرد صور أو مظاهر «لبتاح» إله «منف» المحلي المسيطر على أصحاب الحرف والصناعات، والذي يعد إله كل حرفة، وأنه هو الإله الأحد الفرد الصمد وخالق «رع» نفسه الذي كان يعد على حسب نظرية كهنة «عين شمس» هو الإله خالق العالم كله، وقد أسهبنا في هذا الموضوع في مكانه.[٢]

على أن ما قام به «شبكا» من تعظيم «بتاح» والرفع من شأنه للدرجة القصوى لم يجعله يغفل أمر إله بلاده العظيم «آمون»، فقد رأيناه ينصب أحد أبنائه وهو «حورمأخت» كاهنًا أكبر «لآمون» في «طيبة» على الرغم من وجود المتعبدة الإلهية التي كانت تسيطر فعلًا على

شئون إقليم «طيبة»، غير أن الكاهن الأعظم «لآمون طيبة» وقتئذٍ كان لقبًا يكاد يكون فخريًّا وحسب؛ إذ لم يكن لحامله أي سلطان في تلك الفترة من تاريخ البلاد «فصل الملك شبكا «سبكون» … إلخ»؛ لأن كل السلطان كان في يد المتعبدة الإلهية أو زوجة «آمون» أو يد الإله.

هذا وقد استمر تمجيد عبادة «بتاح» في عهد الملوك الذين خلفوا «شبكا» حتى في بلاد النوبة، فقد وجد له تمثال في بلدة «جمأتون» (الكوة) بوصفه إلهها (انظر فصل الملك تهرقا) وسمى «بتاح»، رب «جمأتون» (الكوة).

ولما استقر الملك للملك «تهرقا» في مصر وبلاد السودان أخذ أولًا في إصلاح المعابد القديمة وإقامة أخرى جديدة، وقد حبا الإله «آمون» صاحب «جمأتون» بإقامة معبد فاخر (انظر فصل الملك تهرقا) وزينه بصور للإله «آمون» على هيئة كباش، وأقام معبدًا آخر لهذا الإله في بلدة «صنم» على غرار المعبد السابق، وهذا المعبد الأخير كان يسمى معبد «آمون رع» ثور أرض القوس «النوبة».

ولم ينسَ «تهرقا» أن يزين نقوش معبده في «الكوة» بصور آلهة نوبية، فنقش صورة الإلهة «عنقت» إحدى آلهة ثالوث «الشلال» بشكلين مختلفين فكان تجديدًا طريفًا (انظر فصل الملك تهرقا).

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الإله «آمون» قد مثل في معبد «الكوة» في المحراب مع الإلهتين «ساتيس» «وعنقت» مكونًا معهما ثالوثًا، وبذلك يكون قد حل محل الإله «خنوم» الذي كان يمثل في صورة كبش وكان يعتبر الإله الحارس لإقليم «الشلال»، وهاتان الإلهتان هما زوجتاه، وقد كان الإله «خنوم» منذ زمن بعيد الإله الحارس للمستعمرات المصرية التي في أقصى الجنوب، ولا نزاع في أن التغير هو من فعل كهنة «آمون» الذين كانوا يقصدون من وراء ذلك سيادة إلههم العظيم «آمون»، هذا ويلحظ أن في كل من معبدي «الكوة» «وصنم» قد أقام «تهرقا» محرابًا صغيرًا خاصًّا أو مقصورة للإله «آمون» داخل أربعة أعمدة في الجنوب الشمالي لقاعة العمد، وقد قلده فيما بعد الملك «أسبلتا» أحد ملوك كوش المتأخرين بإقامة محراب في الجنوب الشرقي من القاعة نفسها.

هذا؛ ونجد أن «تهرقا» كذلك قد اهتم بمدينة «منف» وإلهها «بتاح»، ولا غرابة في ذلك؛ فقد توج فيها ملكًا على البلاد، ومن المرجح أنه قد اتخذها عاصمة لملكه، وفي لقبه إشارة إلى ذلك، فقد لقب «رع حافظ نفر تم»؛ وذلك لأن الإله «نفر تم» كما هو معلوم أحد أفراد ثالوث مدينة «منف» وهم «بتاح» «وسخمت» زوجه ثم ابنهما «نفر تم»، هذا بالإضافة إلى أن اسم «تهرقا» محبوب «بتاح» كان شائعًا في نقوشه، ومن ثم نفهم أن أعظم إلهين كانا يعبدان في العهد الكوشي هما الإله «آمون» أولًا ثم الإله «بتاح» ثانيًا، وقد أقام «تهرقا» للأخير معبدًا خاصًّا «بالكرنك» ولكن خارج أسواره وأهداه له باسمه «أوزير بتاح» (انظر فصل الملك تهرقا).

ومما يلفت النظر أن الإله «آمون» كان يسمى «آمون نباتا» في بلاد السودان، وكذلك كانت تسمى «موت» زوجه «موت صاحبة نباتا»، وقد أقام «تهرقا» لها ولزوجها «آمون» معبدًا في جبل «برقل»، وقد جاء في إهدائه: لقد عمله «أي المعبد» أثرًا له لأمه «موت صاحبة نباتا»، فقد أقام لها معبدًا من جديد من الحجر الرملي الجميل … إلخ (انظر فصل الملك تهرقا).

وكذلك يشاهد في هذا المعبد أن الملك يقدم البخور للإله «أنحور» (أونوريس) إله الحرب، والظاهر أن هذا الإله قد لعب دورًا هامًّا في حياة الملك «تهرقا» بوصفه ملكًا محاربًا، وكذلك في حياة غيره من ملوك كوش، والواقع أننا نجد أن الملوك في هذا العهد كانوا يرتدون ملابس هذا الإله بوصفه إله حرب، وقد كان الملك يدعى في هذه الحالة ابن «رع» مثل الإله «أونوريس» كما جاء على اللوحة الرابعة السطر الثالث، وهذا المنظر يوحي إلينا اعتقاد وجود عبادة لهذا الإله في بلاد النوبة، وهذه العبادة على أية حال قد شوهدت في معابد «جبل برقل»، من ذلك أن هذا الإله «أونوريس» قد مثل في مناظر عدة في معبد «جبل برقل» رقم ٣٠٠،[٣] وكذلك مثل على عمود في قاعة العمد العظيمة في المعبد رقم (٥٠٠ب)[٤] حيث نجد ذكر الإلهين «شو» «وتفنت»، وكذلك نجد في نقوش الملك «حرسيوتف»[٥] أن الإله «أونوريس» كان يعبد في مدينة «أرتيناي»، وفضلًا عن ذلك نشاهد عبادة هذا الإله على تعاويذ وجدت في معبد «صنم»[٦] وتدل الكشوف الحديثة على أن الإله «أونوريس» كان يرافق الملك «تهرقا» في حروبه الخارجية، كما تدل على ذلك النقوش التي وجدت على تماثيله التي عثر عليها حديثًا في خرائب «الموصل» (نينوة).

الإله «ددون»: ومن أهم التجديدات الدينية التي نشاهدها في معبد «جبل برقل» الكبير إعادة الإله «ددون» الذي ينسب إلى أصل نوبي محض، بل هو الإله القومي لبلاد النوبة، فقد جاء ذكره في متون الأهرام بوصفه إله النوبة، وهذا الإله قد بقي يُذكر في النقوش المصرية القديمة حتى عهد الملك «سيتي الأول» في بلاد النوبة، حتى جاء عهد «تهرقا» فوجدناه مذكورًا بين آلهة معبد «جبل برقل»، غير أن المنظر وجد مهشمًا، وقد شرحنا هذا المنظر شرحًا وافيًا (انظر فصل الملك تهرقا).

وخلاصة القول إن الآلهة المصرية كانت تعبد في بلاد النوبة بصورة بارزة، وبخاصة الإله «آمون» الذي كان يظهر بوصفه الإله الرئيسي في العواصم الدينية الأربع في بلاد النوبة، فقد وجدنا في النقوش أن الملك «أنلاماني» قد وهب أخواته البنات الأربع للإله «آمون» القومي الذي ظهر في العواصم الأربع بصور مختلفة، وهي «نباتا» «وبنوبس» «وصنم» الذي ظهر فيها «آمون» بوصفه ثور النوبة وأخيرًا «الكوة» (جمأتون) وقد تحدثنا عنها طويلًا ولدينا له آثار عدة، وخاصيات «آمون جمأتون» هي جزئيًّا كخاصيات «آمون طيبة» «وآمون نباتا» فنجده ممثلًا في صورة أسد ومتوجًا بقرص الشمس وكذلك بالريشتين، ومعبده مزين بالكباش،[٧] وكان يقدم له أوانٍ وتعاويذ،[٨] ومحلى برءوس كباش، وكذلك كان ينذر له صورة الإوزة وهي مظهر من مظاهر هذا الإله، وقد كان «آمون» منذ الدولة الحديثة يحمل النعت الخاص «الأسد» كما كان ينادي بوصفه «الذي يتعرف على الموالين له، ومَن قربُه عُلو، ومَن يأتي إلى من يدعوه» وكذلك كان يدعى «آمون العظيم أو القديم».

وكان القيام على خدمته مضمونًا بأعطيات عدة ملكية في «جمأتون»، فقد كان له كهنة يتقاضون أجورًا، كما كان له مغنيات عديدات، وكانت تقام له الأحفال الرهيبة في خلال الزيارات الملكية تصحبها قربات من الأطعمة، وتدل الهبات التي قدمها «تهرقا» لهذا الإله في «جمأتون» على ما كانت عليه البلاد في عهده من رخاء وثراء يذكرنا بعهد ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

ومما يلفت النظر في مناظر معبد «بتاح» الذي أقامه «تهرقا» خارج أسوار معبد «الكرنك» (انظر فصل الملك تهرقا) المنظر الذي مثل فيه أربعة الآلهة الذين في الجهات الأربع أو أركان العالم الأربعة وهم: «ددون» ويمثل الجنوب، والإله «سيد»؛ أي إله الشرق «آسيا»، والإله «سبك» في صورة تمساح وهو إله الغرب «أي التحنو أو الليبيين»، والإله «حور» محبوب والدته، وقد مثل في صورة صقر ويمثل مصر، ويلحظ أن الإله «ددون» قد مثل هنا بلباس رأس بسيط وهو كوفية ولحية طويلة مستعارة ويزين رقبته قلادة كبيرة، ويغطي جسمه قميص ضيق ويتدلى من حزامه ذيل الحيوان المعروف الذي يلبسه الملوك.

والمتن الذي يتبع هذا الإله مهشم، ولكن يمكن أن نقرأ منه اسم هذا الإله وهو «ددون» الذي على رأس بلاد النوبة، هذا؛ وقد نقش تحت كل من هؤلاء الآلهة سطر جاء فيه مثلًا: «نطق: إن الإله «ددون» قد نصب فوق حامله لأجل أن يعمل …» ومعنى هذا المتن أن إلهًا من هؤلاء الآلهة الأربعة كان يمثل الملك نفسه، وإذا كان «تهرقا» قد ظهر في صورة كل من هؤلاء الآلهة وهم «ددون» «وسبد» «وسبك» «وحور محبوب والدته» فإن ذلك يرجع إلى أن هؤلاء الآلهة كانوا يمثلون الجهات الأربع الأصلية؛ أي الجنوب والشرق والغرب والشمال، وبعبارة أخرى العالم المعروف للمصري وقتئذٍ ويحتوي بلاد كوش وآسيا ولوبيا ومصر، وكان «تهرقا» يقصد من ذلك أنه سيحكم أركان العالم الأربعة بوصفه متقمصًا صور هؤلاء الآلهة الذين يحكمون هذه الجهات، ولا غرابة في ذلك؛ فإن هذا يتفق وأطماع الملك «تهرقا» الذي عُدَّ من أقطاب العالم الفاتحين في نظر الكتاب الإغريق.

وخلاصة القول في هذا المنظر أنه يدل على اتساع أفق هذا الملك، وما كان يرمى إلى الوصول إليه عن طريق الآلهة والدين، ولكن على الرغم من كل ذلك كان الإله «آمون رع» هو الإله الأعظم في نظر الدولة (انظر فصل الملك تهرقا)، وتدل شواهد الأحوال على أن «تهرقا» كان يقلد في ذلك الملوك الفاتحين أمثال «تحتمس الثالث» وغيره (انظر فصل الملك تهرقا).

وتدلنا الآثار الباقية على أن «تهرقا» قد عُني عناية خاصة بعبادة الإله «أوزير»، فأقام له المحاريب في معبد «الكرنك»، فلدينا معبد «أوزير نب زت» (أي أوزير رب الأبدية) (انظر فصل الملك تهرقا) كما أقام مقصورة لنفس هذا الإله في نفس المعبد، وأطلق عليها اسم مقصورة «أوزير رب الجبانة»، وقد آزره في إقامة هذين المعبدين المتعبدات الإلهيات اللائي كن قد اتخذن «طيبة» عاصمة لملكهن.

أما عن كيفية إقامة الشعائر في هذا العهد فكانت تقام في معابد أقيمت على غرار معابد الدولة الحديثة، غير أنها زينت ببعض المناظر المستعارة من مناظر الدولة القديمة؛ وذلك لأن ملوك هذه الأسرة كانوا قد أرادوا إحياء مجد البلاد القديم من كل الوجوه، ولكن المناظر الهامة الخاصة بإقامة الشعائر الدينية لا تختلف كثيرًا عن مناظر الدولة الحديثة في جملتها من حيث الشكل (انظر وصف معبد «جمأتون» فصل الملك تهرقا) هذا؛ وقد تحدثنا في الجزء العاشر عن التغيرات التي حدثت في التعابير الشعيرية وفي الصيغ الجنازية «انظر الجزء العاشر».

أما طرق الدفن في هذا العهد فقد قدمت لنا المقابر التي كشف عنها في جبانتي «الكورو» «ونوري» عن صفحة جديدة في طرق الدفن، وبخاصة تطور المصاطب إلى أهرام في تلك الفترة، وتتميز بخاصيات معينة عن الأهرام المصرية بعض الشيء، وقد فصلنا القول فيها فيما سبق، ولكن يجب أن نفهم أن الشعائر الدينية كانت مصرية محضة، ولا غرابة في ذلك؛ فإن الذين قاموا بأدائها كانوا من المهاجرين من مصر في بداية العهد اللوبي.

حالة البلاد الاقتصادية والثقافية في العهد الكوشي

تعد لوحة «بيعنخي» أكبر مصدر لدينا عن حالة البلاد المصرية إبان الفتح الكوشي للبلاد، كما أن جبانة «الكورو» وجبانة «نوري» تعدان من أهم المصادر التي يمكن استخلاص شيء عما كانت عليه البلاد الكوشية في تلك الفترة من رخاء ورغد في العيش، وتقدم في الصناعات والفنون.

فإذا أخذنا الحقائق التي وردت في هذه اللوحة على ظاهرها تمثلت لنا البلاد المصرية في عهد «بيعنخي» في صورة بلاد تزخر بالغنى والثراء، ولكن إذا فحصنا الأمور من أصولها وجدنا أن هذه الثروة كانت منحصرة في طائفة خاصة من أفراد الشعب، وأعني بهم حكام الإقطاع، كما هي العادة في كل بلد يسود فيها الحكم الإقطاعي، والواقع أننا نفهم من لوحة «بيعنخي» أن البلاد كانت مقسمة إقطاعات عدة، على رأس كل منها أمير من الأمراء اللوبيين الذين كانوا مسيطرين على البلاد أكثر من مائتي عام، فكان معظم ثروة البلاد في أيديهم كما كانوا هم المتصرفين في أرزاق الشعب الذي كانوا يُعتبر أفراده عبيدًا لهم، والواقع أن كل واحد من هؤلاء الأمراء كان يعد نفسه ملكًا له جيشه وخدمه وحشمه وحكومته وماليته، ولا ريب في أن أمراء مصر في كل أحوالهم وقتئذٍ يكادون يمثلون صورة مطابقة لأمراء المماليك البحرية والبرجية في التاريخ المصري الحديث من حيث الغنى والبذخ واستعباد أفراد الشعب، ولسنا ندري إذا كان هؤلاء الأمراء قد ورثوا هذا الثراء وهذا الغنى عن أجدادهم الذين سبقوهم أم كان مما كسبت أيديهم، ومما قاموا به من إصلاح، كلٌّ في مقاطعته، والنقوش التي لدينا تكاد تكون صامته عن هذا الموضوع تمامًا، كما أن الهدايا التي كان يقدمها كل أمير مقاطعة تنم عن مقدار ثراء هذا الأمير، غير أنها لا تضع أمامنا

صورة واضحة عن حالة المقاطعة نفسها، فتجد أن «نمروت» أمير «الأشمونين» بعد أن هزمه «بيعنخي» وسلم مدينته يقدم له الهدايا الكثيرة من الفضة والذهب واللازورد والفيروز والبرنز وكل الأحجار الثمينة، فملأ الخزينة بهذه الجزية، وأحضر له جوادًا في يده اليمنى وصناجة في يده اليسرى من الذهب واللازورد، ولعمري فإن هذه الأشياء تنم عن ثراء فاحش، غير أن شواهد الأحوال تدل على أنها كانت كنوزًا مدخرة منذ أجيال، وإلا فكيف كان يمكنه أن يجلب هذه الأشياء من بلاد السودان أو من آسيا وهي مغلقة في وجهه، اللهم إلا إذا كان ذلك من باب التجارة والتبادل السلعي، ولكن ليس لدينا ما يحدثنا عن ذلك.

ولدينا صورة صادقة عن مقدار ثروة «تفنخت» العدو الألد الذي قاوم «بيعنخي» مقاومة جبارة حينما كان يتحدث لجنوده ليدافعوا عن «منف» فيقول: «تأملوا! إن «منف» قد اكتظت بالجنود من خيرة من في أرض الشمال ومخازنها تفيض بالشعير والبر وبكل أنواع الأسلحة، وأنها محصنة بجدار … ويوجد فيها حظائر للماشية مملوءة بالثيران، والخزانة مجهزة بكل شيء من ذهب وفضة ونحاس وملابس وبخور وشهد.»

ولا نزاع في أن هذا البيان يدل دلالة واضحة على تقدم الزراعة والصناعة وتربية الماشية في البلاد آنذاك، كما أن جيش كل مقاطعة كان مجهزًا تمامًا بكل ما يلزمه (انظر فصل الملك بيعنخي) من عدة وعتاد.

وقد قبل «بيعنخي» رجاء «بدي باست» حاكم «أتريب» (بنها الحالية) لزيارة بلده بعد أن أغراه بما لديه من ثراء، فقد قال له: «إن بيت مالي مفتوح لك، فابسط يدك على أملاك والدي «أي التي ورثتها من أبي»، وإني سأقدم لك ذهبًا بقدر ما يرغب فيه قلبك، أما الفيروز فإنه سيكون أمامك، وكذلك جياد عدة من أحسن ما في الإصطبل وخيرة ما في الحظيرة»، وهكذا نفهم من ذلك أن تلك الثروة أو على الأقل جزءًا منها كانت موروثة، وعندما دخل «بيعنخي» قصر هذا الأمير قدم له فضة وذهبًا ولازوردًا وفيروزًا بمقدار عظيم من كل شيء، وملابس من الكتان الملكي المتنوع النسج وسررًا محلاة بالكتان الجميل والعطور والمسوح في أوانٍ جميلة الصنع، وجيادًا من أحسن ما في إصطبله، ثم نرى نفس الأمير يبرئ نفسه من أنه أخفى شيئًا من غناه الموروث أمام حكام المقاطعات الأخرى فيكشف لنا عن محتويات خزائنه مرة أخرى، فيقول لرفاقه (انظر فصل الملك بيعنخي): «إذا كنت قد أخفيت أي شيء عن جلالته من كل متاع بيت والدي من ذهب وفضة وأحجار ثمينة من كل أنواع الأواني ومن الأساور الذهبية والعقود والقلائد المرصعة بالأحجار الغالية، ومن التعاويذ الخاصة بكل عضو وأكاليل الرأس وأقراط الآذان وكل زينات خاصة بملك، وكل الأواني الخاصة بطهور الملك من ذهب وأحجار ثمينة فإن كل هذه قد قدمتها إلى حضرته الملكية وملابس من الكتان الملكي بالآلاف من أحسن ما في بيتي … إلخ.»

وهذه الصورة تكشف لنا عما كان في هذه المقاطعة من صناعات وحرف وفن، هذا إذا لم تكن كلها أو جزء منها كان موروثًا من أجيال مضت.

والظاهر أن الحرف والصناعات لم تكن قد ماتت في مصر في تلك الفترة من تاريخها، بل كانت مزدهرة مستمرة منذ أقدم العهود، فقد وجدنا أن الملك «تهرقا» عندما أراد أن يقيم المباني الدينية في بلاد النوبة وبخاصة في معبدي «الكوة» (جمأتون) «وصنم» أحضر العمال والفنانين وأصحاب الحرف من «منف» ومن أنحاء القطر والبلاد المجاورة، هذا؛ ونجد فيما جاء في وصف معبد «الكوة» الذي أقامه «تهرقا» في «الكوة» (جمأتون) ما فيه الكفاية للدلالة على ما كانت عليه بلاد السودان وقتئذٍ من ثراء يفوق الوصف، هذا بالإضافة إلى ما حبسه هذا الفرعون وأهداه لهذا المعبد من عقار ومتاع، وبخاصة أن بلاد النوبة والسودان كانا المصدر الرئيسي للذهب، فاستمع إلى ما جاء في وصف هذا المعبد (انظر فصل الملك تهرقا): «وقد أقامه من حجر ممتاز جميل صلب، وقد رفعت العمد وحشيت بالذهب الجميل وطعمت بالفضة، وبوابته أقيمت بصنعة جميلة، وركبت أبوابه من خشب أرز حقيقي، وعملت المزاليج من نحاس آسيوي، وحفر اسم جلالته العظيم بكل الكتاب وأصحاب الأصابع الماهرة، ونقشت بصناع حاذقين فاقوا ما صنعه الأقدمون، ومون مستودعه وزودت موائد قربانه وملئت بموائد الشراب من الفضة والذهب والنحاس الآسيوي، وكل أنواع الأشجار الثمينة الحقيقية التي لا تحصى، وملأه بخدم عديدين، وعين له خادمات «كاهنات» من أزواج زعماء الوجه البحري، وعصر نبيذ كروم هذه المدينة «يقصد مدينة «جمأتون» وهي «الكوة الحالية»» وأنه أغزر من نبيذ «جس جس» وعين بستانيين ماهرين من منتو آسيا، وملأ هذا المعبد بالكهنة وهم رجال كانوا يعرفون تعاويذهم وهم أبناء العظماء من كل بلد، وحشد بيته بمغنيات ليغنوا أمام وجهه الجميل.

والواقع أن هذا الوصف لا يضع أمامنا ما كانت عليه البلاد من ثروة وتقدم في الفن والزراعة والحرف والصنائع فقط، بل كذلك يشير من بعيد إلى ما كان لملوك كوش وقتئذٍ من سلطان على بلاد مصر، وما كان لها من نفوذ في لوبيا وبلاد آسيا المجاورة لها، وقد شرحنا ذلك في غير هذا المكان (انظر فصل الملك تهرقا).

على أن أعظم وثيقة تحدثنا عما كانت عليه المملكة الكوشية من رخاء وعزة على الرغم مما أصابها من أضرار فادحة من جراء الحروب الطاحنة التي وقعت بينها وبين بلاد آشور، تلك الوثيقة التي دونها «منتومحات» على جدران مقصورة «تهرقا» التي أقامها في معبد الإلهة «موت» بالكرنك، والواقع أن الإصلاحات التي قام بها هذا الأمير العظيم الذي كان يعد أقوى وأعظم شخصية في البلاد في عهد الأسرة الخامسة والعشرين تدل دلالة صريحة على أن البلاد المصرية على الرغم من التخريب والدمار الذي لحقها في عهد الآشوريين كانت لا تزال تفيض بالثراء، وأن هذا الغزو لم يؤثر فيها تأثيرًا اقتصاديًّا أو فنيًّا بصورة مُحَسَّة، فنجد أنه أحضر خشب الأرز من بلاد لبنان لبناء السفن الإلهية، بلغ طول الواحدة منها ثمانين ذراعًا، وصاغ مقصورتها من الذهب ورصعها بكل أنواع الأحجار الثمينة، كما طهر كل معابد الآلهة في كل المقاطعات على حسب القواعد المتبعة، هذا فضلًا عن الإصلاحات التي عملها في «طيبة»، يضاف إلى ذلك أنه أعاد أوقاف وقربان كل إله، كما أعاد له حريمه وضاعف أسطوله، كما ملأ مخازن الغلال بباكورة الحقول، وجعل السفن التي تجلب الخيرات «لآمون»

تروح وتغدو في أوقاتها المعلومة، وجعل كل كاهن يقوم بعمله، يضاف إلى ذلك أنه تناول الإصلاحات في المعابد والمقاصير الخاصة بكل آلهة الكرنك، فلم يترك واحدة منها إلا أصلحها وأعاد دخلها، ولا نزاع في أن كل ذلك كان يتطلب أموالًا طائلة لا يمكن لبلد فقير أن يقوم بأعبائها، هذا؛ وتنم هذه الإصلاحات عن وجود طائفة كبيرة من أصحاب الحرف والفنانين قاموا بإصلاح ما أفسده الآشوريون من تماثيل ولوحات وأدوات عبادة، وهؤلاء هم الذين نزح جزء منهم لإقامة المعابد في السودان، ويدل ما تبقى من محتويات مقابر جبانة «الكورو» وجبانة «نوري» على أن هؤلاء الملوك كانوا يكنزون معهم الأدوات الفاخرة التي تدل على مهارة في الفن وثراء جم، فقد عثر فيها على بعض أشياء صغيرة مما أخطأ اللصوص حمله تحدثنا بما كان في هذه المدافن من خيرات وضعها الملوك لتكون معهم في عالم الآخرة، كما كان يفعل أجدادهم المصريون، يضاف إلى ذلك أن خيلهم التي كانت تدفن بجوارهم قد جهزت بعُددها وسُرجها ولُجمها وتعاويذها بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ مصر، وهذا دليل قاطع على حبهم الخيل وتربيتها والعناية والرفق بها، فقد وجدنا في صورة من الصور التي تركها لنا «تهرقا» أن عنايتهم ورفقهم بالخيل كانت تفوق الوصف، فقد وجدنا صورة جواد على رأسه قبعة تقيه شر حرارة الصيف.

الكتابة الديموطيقية والدور الذي لعبته في تنمية المعاملات التجارية والاقتصادية

ومما يلحظ في العهد الكوشي تطور الكتابة الهيراطيقية باختصار إشاراتها اختصارًا ظاهرًا مميزًا أطلق عليها اسم الكتابة الديموطيقية أو كتابة الشعب، واستعملت للأغراض العادية اليومية، وبخاصة في كتابات العقود وغيرها من الوثائق الكثيرة التداول، وقد سهلت هذه الكتابة المختصرة التي كتبت بلغة الشعب المعاملات التجارية والمالية والعقود وغيرها مما هو متداول بين أفراد عامة الشعب.

ومما يلفت النظر في هذه الفترة من تاريخ البلاد أننا عثرنا على مجاميع مُحَسَّة من الأوراق البردية القانونية من هذا الصنف، وقد استمرت بصفة عامة كسلسلة متصلة الحلقات بالديموطيقية فالآرامية «في كل من عهد العصر الفارسي والإغريقي والقبطي وأخيرًا العصر العربي» ومن المحتمل أنه توجد عدة أسباب يمكن التدليل بها على كثرة الوثائق القانونية فجأة في الأسرة الخامسة والعشرين، ولعل أبرز هذه الأسباب ازدياد التجارة البرية والبحرية في الألف الأولى قبل الميلاد، مما أوجد طائفة جديدة من التجار الأثرياء الذين نشطوا تبادل الملكية من كل نوع بين أيد عدة، هذا بالإضافة إلى أن الاتصال بالفينيقيين المهرة أصحاب الأعمال التجارية العظيمة في ذلك العهد وغيرهم من الساميين قد فتح أعين المصريين إلى ضرورة الدقة في معاملاتهم، وهذه المؤثرات يمكن ملاحظتها على أغلب الظن في بلاد الدلتا القريبة من آسيا.

ولا غرابة في ذلك؛ فقد ذكر لنا «ديدور الصقلي» أن «بوكوريس» أحد ملوك مصر في الدلتا «سايس» في العهد الكوشي كان مشرعًا عظيمًا وقاضيًا ممتازًا بما أدخله من دقة في صياغة العقود، وقد قال عنه هذا المؤرخ اليوناني: «ويقولون إن الملك «بوكوريس» كان مشرعًا رائعًا، وهو رجل حكيم وبارز بسبب مهارته، وقد وضع كل القواعد التي حكمت الملوك بها … إلخ»، وفي موضع آخر يقول «ديدور»: «إنهم يقولون: إن القوانين الخاصة بالعقود هي من صنع «بوكوريس» … إلخ.»

ومما يؤسف له جد الأسف أن الموطن الأصلي الذي كان لا بد أن توجد فيه أمثال هذه الوثائق القانونية والتجارية والمالية وهو الدلتا لم يعثر فيه على شيء يذكر؛ وذلك لعدم ملائمة الجو هناك لحفظها، وتدل الأحوال على أن المشرع الأصلي لهذه القوانين لم يكن كوشيًّا، بل أخذه الكوشيون عن المصريين، ومن المحتمل أن أقدم هذه الوثائق بقدر ما وصلت إليه معلوماتنا يرجع إلى عهد الملك «شبكا».

والواقع أنه قبل عهد هذا الملك كان عدم الدقة في طريق تسجيل المعاملات القانونية عاديًّا، وفي الوجه البحري كانت الاعترافات الرسمية والأيمان أمام الشهود والجمعيات، وبخاصة أمام أعضاء المجالس الدينية والقروية والموظفين حتى هذا العهد هي الإداة الرئيسية للعقود القانونية ونقل الملكية، ولكن منذ ذلك العهد أصبح التسجيل كتابة يمثل مكانة أبرز ولا غنى عنها، ومن ثم أصبح من السهل لدينا فهم سبب كثرة الوثائق القانونية نسبيًّا في عهد الأسرة الخامسة والعشرين وما بعدها، وهذا السبب هو بلا شك زيادة عدد المعاملات وضرورة الحاجة للسجلات المدونة التي يطبق بمقتضاها القانون.

ومما يطيب ذكره هنا في هذا الصدد أن معظم الأوراق الديموطيقية التي عثر عليها في هذا العهد لم تكن مكتوبة بالخط الديموطيقي العادي الذي عرف فيما بعد، بل كانت مكتوبة بخط وسط بين الهيراطيقية والديموطيقية، ولذلك عرفت الكتابة التي من هذا الصنف عند علماء الآثار الحاليين بالخط الديموطيقي الشاذ، وقد دلت الكشوف على أن معظم الأوراق التي من هذا الصنف قد عثر عليها في «طيبة» كما يفهم ذلك من متن الوثائق نفسها، على أن ذلك لا يعني أن هذا النوع من الكتابة كان هو الوحيد في القطر، ولكن الواقع أنه كانت توجد أوراق أخرى كتبت بالخط الديموطيقي العادي مثل المتون التي عثر عليها في «الحيبة» بمصر الوسطى.

هذا وقد وصل إلينا بعض وثائق بالديموطيقية من عهد «تهرقا» منها عقد بيع عبد (انظر فصل الملك تهرقا) وعقد مخالصة (انظر فصل الملك تهرقا) وعقد بيع خيوط نسيج (انظر فصل الملك تهرقا).

وهكذا نرى في هذا العهد الكوشي بداية عصر تحول في الحياة الاجتماعية من كل الوجوه، وذلك بفضل الخطوات الجريئة التي خطاها ملوك كوش في سبيل النهضة بمصر، والسير بها نحو حياة رفيعة أساسها إحياء ذكرى عصور مصر المجيدة ومسايرة التقدم العمراني في كل

نواحيه وعدم التشبث بما هو قديم وحسب، كما سنرى ذلك في عهد الأسرة السادسة والعشرين.

لغة العصر الكوشي: وفي حين نجد أنه في مصر السفلى قد ظهرت كتابة جديدة بالخط الديموطيقي الشاذ تسهيلًا للمعاملات وتمشيًا مع قانون التطور الشعبي، نجد من جهة أخرى أن ملوك كوش كانوا قد نزعوا إلى إحياء الكتابات القديمة وأساليبها، وبخاصة في عهد الدولة الوسطى والدولة الحديثة، ولا أدل على ذلك من متن لوحة الملك «شبكا» التي عثر عليها في «منف» وقد كتبت باللغة الكلاسيكية، وتحتوي على متن فلسفي رفيع، وكذلك لوحة الملك «بيعنخي» التي ألفها باللغة الاتباعية أو «الكلاسيكية»، وهذه اللغة كانت هي اللغة السائدة الاستعمال في عهد الدولة الوسطى وما بعدها حتى عهد «إخناتون» عندما بدأت بوادر اللغة العامية تظهر في المتون، ولغة هاتين اللوحتين تعد بوجه خاص من الطراز الأول في أسلوب اللغة الكلاسيكية.

هذا؛ وقد ترك لنا «تهرقا» عدة لوحات عثر عليها في معبد «الكوة» (انظر فصل الملك تهرقا) ومتون هذه اللوحات تعد أمثلة خاصة بالإنشاء المتكلف الذي تظهر فيه الصناعة، والواقع أنها متون دونت للدعاية وألفت بعناية ظهر فيها تقعر الكاتب الذي يريد الرجوع إلى القديم، ولكنه كان يخطئ الهدف بعدم حذقه؛ وذلك لأن التعابير على الرغم من رشاقتها فإنها في الوقت نفسه قد ظهر فيها أنها منقولة عن أصل قديم، والمقاصد السياسية الأكيدة لهذه المتون كما يظهر كان من الصعب تحديدها، هذا إلى أن غموض بعض التعابير يجعل في غالب الأحيان من العسير ترجمة بعض أجزاء المتن بصفة أكيدة.[٩]

هذا؛ ويدل نقل عناصر خاصة من الكلمات والتعابير من متن لآخر منذ الأسرة الخامسة والعشرين حتى نهاية العصر المروي على أنه كان يوجد في «جمأتون» طبقة تقليدية من الكتاب محلية يأخذ الواحد منهم عن الآخر على مر الأيام.

وهذه المتون تمدنا بوثائق هامة لدرس الهيروغليفي المصري في بلاد كوش، وتضع أمامنا خاصيات هامة هجائية ونحوية ولغوية، هذا مع إضافة كلمات عدة جديدة لم تكن معروفة من قبل بقدر ما وصل إلينا[١٠] من نتائج الكشوف الحديثة.

والخلاصة يمكننا القول إن العهد الكوشي كان بداية عهد جديد لأسرة فتية قامت بنهضة ترمى إلى إحياء التراث القديم المجيد في بلادها، والسير قدمًا بما وصلت إليه البلاد المصرية من حضارة في تلك الفترة، والعمل على تنشيط سبل الحياة في كل النواحي الإنسانية، وبذلك مهدت الطريق لملوك الأسرة السادسة والعشرين للسير بالبلاد إلى طريق المجد والعزة كما سنرى، والأخذ بعناصر النهضة الجديدة التي وضع أسسها الكوشيون.

[١] راجع مصر القديمة الجزء التاسع.

[٢] راجع فصل الملك شبكا «سبكون».

[٣] راجع: L.D, Text. V, 259; Ibid, 261.

[٤] راجع: L. D, Text. V, 271.

[٥] راجع: Urk, III, 136, 7.

[٦] راجع: A.A.A, 9 Pl. 62 (10); P. 124; Ibid, 10, Pl. 26 (25) cf. P. 121.

[٧] راجع: Ibid, Pl. XXXVIII–XLI.

[٨] راجع: Ibid, Pl. III, XII, XIII.

[٩] راجع: Macadam, Ibid, I, Text P. 37.

[١٠] راجع: Bulletin De L’Instit. Fr. Tome LI, p. 7.

لمحة في تاريخ آشور وعلاقتها بمصر

كانت مملكة «آشور»[١] في بادئ أمرها مدينة كسائر المدن البابلية العظيمة؛ لها حكومة قائمة بذاتها، ثم أخذت تقوى شيئًا فشيئًا، ولم تلبث أن ضمت إليها المدن المجاورة، ثم امتدت فتوحها حتى احتوت «إربل» «ونينوة»، غير أننا لا نعرف بالضبط الوقت الذي أخذت تستولي فيه على ما حولها من بلدان، ولكن تدل شواهد الأحوال على أن «آشور» وما حولها من بلدان قد تحالفت على صد عدو مشترك لها جميعًا، وكانت مدينة «آشور» في حد ذاتها حصنًا طبعيًّا ومأوى قويًّا لمقاومة المغيرين عليها بما كان لديهم وقتئذٍ من آلات حرب بدائية.
[٢]

(١) حدود بلاد «آشور»

امتدت حدود بلاد «آشور» في عز سلطانها إلى شمالي «بابل»، وتبتدئ بسهل «مسوبوتاميا» المرتفع فوق ملتقى نهر «أدهم» ونهر «دجلة»، وتحتل الجزء الأوسط من حوض هذا النهر حتى «كرنيب»، ويفصلها من الشرق عن بلاد الكاسيين مجرى نهر «الزاب» وجبال «زجروس»، وتُحد من الشمال بجبل «مسيوس»، أما في الغرب فكانت حدودها لا تصل إلى نهر «الخابور» أو «الفرات». وهي على شكل مثلث تقريبًا، ويلاحظ أن هذه البلاد كانت تنقصها الوحدة الجغرافية التي نجدها في بلاد «بابل»، ففي الجزء الغربي منها وهو الذي يقع في «مسوبوتاميا» نشاهد هضبة شاسعة متماوجة تشمل بعض تلال جيرية، ونرى في شرقيها بعيدًا عن نهر «دجلة» عدة تلال ذات غابات ووديان، تجري فيها أنهر صغيرة هامة نخص بالذكر منها نهر «كرنيب» «والزاب» الأعلى «والزاب» الأسفل ونهر «أدهم»، وهذا الإقليم غني بالمعادن، وأرضه خصبة بما تنتجه من حبوب وفاكهة، وحدها الطبيعي من الشرق جبال «زجروس» التي لا يوجد فيها إلا ممران أو ثلاثة، وهذه تظل مدة من السنة غير صالحة للمرور بسبب الثلوج.

ويشاهد في شمال «آشور» مدرجات جبلية متتابعة ترتكز على هضبة «أرمينيا»، وفي الجنوب من «آشور» يسكن البابليون السهل الغريني، ولا توجد «لآشور» في الغرب حدود طبعية قط، ومن هذه الجهة أخذ «الآشوريون» بوجه خاص يمدون فتوحهم نحو البحر الأبيض المتوسط ونحو مصر، ومساحة «آشور» تماثل مساحة «بريطانيا» العظمى تقريبًا؛ أي حوالي ٣١٤٣٨٠ كيلو مترًا.

ويمتاز تاريخ «آشور» إلى حد بعيد عن معظم تواريخ البلاد العظمى؛ وذلك لأنه محدود بطبيعة مصادره بصورة تجعله يكاد يكون نسيج وحده، فإذا استثنينا بعض الملحوظات

العابرة التي جاءت في المؤلفات القديمة وبعض الإشارات التي وردت في التوراة فإن تاريخها لا يخرج عما حصلنا عليه من نتائج الحفائر والأبحاث الحديثة.

(٢) أقدم الآثار «الآشورية»

كانت أقدم وثائق عثر عليها في الحفائر التي عملت في خرائب «آشور» العاصمة الأولى للمملكة الآشورية هي التي وجدت تحت معبد الإلهة «إشتار»، وهي قطع محفورة تشبه النقوش «السومرية» وأهمها تمثال رجل قاعد، غير أنه مما يؤسف له جد الأسف وجد مهشمًا وبدون رأس، يضاف إلى ذلك تمثال آخر مثل واقفًا بعينين مجوفتين ورأس حليق، أما ذقنه فكان مغطى بالشعر، وهذا على عكس ما نشاهده في التماثيل السومرية، وقد وُجد في الحفائر التي عُملت في قلعة «تبة» القريبة من «كارايوك»، وهو تل على مسافة ثمانية عشر كيلو مترًا من الشمال الشرقي لبلدة «قيصرية» في إقليم «كابادوشيا»، لوحات صغيرة مكتوبة باللغة السامية دوِّن فيها أسماء مركبة مع اسم الإله «آشور» رب بلدة «آشور» نذكر منها: «إتي-آشور»، «وتابا-آشور»، «وآشور-مليك» ثم «آشور-موتابيل»، ولا غرابة في وجود قوم يعبدون الإله «آشور» في القرن الرابع والعشرين ق.م، في هذا الإقليم البعيد جدًّا عن بلاد «آشور»، وبخاصة بعد نشر لوحة من هذه المجموعة كان مطبوعًا على غلافها خاتم أسطوانة «سومرية» باسم خادم الملك «إبي-سن» آخر ملوك بلدة «أور»، وهذا الخاتم نقش عليه موضوعات مستعارة من فن النحت «السومري» الخاص بهذا العصر، ولكن بطراز مختلف تمامًا يرى فيه غالبًا الصبغة التي كانت سائدة في الفن «المسوبوتامي» وهي ترك رسم الأشكال وعمل زينة خارجية بدلًا منها بوجه خاص، ونلحظ فيها كذلك أنه قد أضيف إلى التفاصيل التي تمدنا بها العبادة والاستعمالات المحلية عادة حفر الكتابة على الأسطوانة نفسها في اتجاه القراءة مباشرة، وهذه المتون تكشف لنا عن مدنية متطورة فعلًا مستقاة من المدينة «السومرية الآكادية»، فهي تمثل نظامًا وصيغًا مميزة بقيت في «آشور» حتى عهد سقوط «نينوة»، ونجد فيها أنه قد ابتدئ على الغلاف بذكر الأختام المطبوعة لأجل إثبات صحة الوثيقة.

غير أن الشهود هنا كانوا يضعون أختامهم بجانب اسم صاحب الصك، ونجد في «نينوة» في أثناء عهد ملوك السراجنة نفس هؤلاء الشهود يذكرون بعد صيغة العقد، هذا؛ ونجد كذلك السنين مذكورة كما في «آشور» بأسماء رجال سميت بأسمائهم لا بأسماء الحوادث البارزة على حسب العادة «السومرية» أو «الآكادية» دون أن يكون في مقدور الإنسان أن يقرر إذا كان الرجل الذي سميت باسمه السنة هو نفسه الذي كان في «آشور».

ونجد أسماء الأشهر موحدة في كل من «كابادوشيا» «وآشور»، وعلى ذلك فمن المحتمل جدًّا أنه كانت توجد تجارة منظمة في المنسوجات المنوعة وفي المعادن المستخرجة من جبال «يولجارداغ»؛ فكانت القوافل تسير في مجرى نهر الفرات حتى ملتقى نهر «الخابور»،

وتخترق بلاد «هانا» التي كانت مدنيتها خاضعة لنفس التأثيرات، وحيث كانت صناعة الغزل تشغل جزءًا كبيرًا من السكان.[٣]

وهذه المجموعة الخاصة «بآسيا الصغرى» وهذه الشواهد عن المدينة «السومرية» التي وجدت في «آشور» تبرهن على أنه في القرن الخامس والعشرين ق.م، كان الآشوريون يؤلفون فعلًا قومًا مميزين لهم علاقة «بالسومريين الآكاديين» خضعوا لتأثيرهم، ولكن في الوقت نفسه كانوا مميزين تمييزًا واضحًا بشخصيتهم الخاصة بهم.

والواقع أننا لا نعلم حتى الآن على وجه التأكيد أصل «الآشوريين»، والظاهر أنهم كانوا منتشرين في الألف الثالثة ق.م في إقليم شاسع ساقهم منه نحو «آشور» الأصلية قوم من الآريين، ويحتمل أنهم هم قوم «المتني»، ونجد في خلال الألف الثانية ق.م، في شرقي «نينوة» على مقربة من بلدة «كوركوك» كذلك آريين من عباد الإله «تشوب» أحد آلهة بلاد «الخيتا»، وهناك ميل إلى القول بأن الكاسيين المتوطنين في جبال «زجروس» من نفس الجنس.

(٣) الأمير «زار يكوم»

وأقدم أمير آشوري تحدثنا عنه الوثائق المدونة هو الأمير «زار يكوم» الذي حكم حوالي عام ٢٤٠٠ق.م، وقد عاصر ملك «أور» المسمى «يورسن» كما كان من أتباعه، ونعلم أنه كان يوجد قبله أمير يدعى «أوشبيا»[٤] وهو الذي ينسب إليه بناء سور «آشور» وكذلك الأمير «كيكيا»[٥] المؤسس لمعبد «آشور»، يضاف إلى ذلك أمير آخر يدعى «كايكابو»، وقد قال عنه الملك «إيداد فيراري» إنه كان ملكًا قبل حكم الملك «سوليلو»، غير أن «سوليلو» نفسه لا يكاد يُعرف عنه شيء في أية نقوش أخرى.

(٤) الأمير «يوزور أشير»

وحوالي ٢٢٥٠ق.م ظهر «يوزور أشير الأول» تقريبًا، ومنذ عهد هذا الأمير نجد أن قائمة ملوك «آشور» لا يوجد فيها فجوات تقريبًا حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية.

وتحدثنا الوثائق البابلية أن «سومو آبوم» مؤسس الأسرة الأولى البابلية قد هاجمه ملك «آشور» المسمى «إللوشوما» ويحتمل أنه هزمه أيضًا، «وإللوشوما» هذا قد أقام معبدًا للإلهة «إشتار»، وأقام ابنه وخليفته «إيريشوم» من جديد محراب الإله القومي الذي أقامه فيما سبق، كما حفر قناة عند سفح «زقورات»، يضاف إلى ذلك أن ابنه «إيكونوم» قد أقام من جديد جدران المدينة، كما أهدى معبدًا «للإله ننكيجال»، ويحتمل أنه أقامه في «نينوة».

وقد أصلح «سرجون الأول» الذي خلفه محراب الإلهة «إشتار».

(٥) الملك شاماشي أداد الأول ١٧٤٩–١٧١٧ق.م

وقد دلت النقوش المكشوفة حديثًا على أن الملك «شاماشي-أداد الأول» كان معاصرًا للملك «حمورابي» وأنه ساعده في حروبه التي شنها على عيلامي مدينة «لارسا».[٦]

ونحن نعلم الآن أن «حمورابي» كان يحكم حوالي عام ١٧٩١–١٧٤٩ق.م، بل لقد ذهب بعض المؤرخين إلى أنه حكم من حوالي عام ١٧٢٨–١٦٨٦ق.م أو ١٧٠٤–١٦٦٢ق.م، هذا؛ وكان التاريخ المتفق عليه لحكم «حمورابي» عند جمهرة المؤرخين هو من ٢٠٠٣–١٩٦١ق.م، وعلى ذلك فإن الفجوة التي كانت ترى في تاريخ «آشور» وتقدر بنحو مائتي سنة لا أصل لها تقريبًا، وتدل الآثار على أنه كانت توجد في بلدة «آشور» حامية بابلية، وكان على أمير المدينة أن يساعد مليكه طوعًا أو كرهًا في حروبه التي شنها على مدينة «لارسا» ويوجد في متحف جامعة «بنسلفانيا» عقد ذكر فيه اسم «شاماشي-أداد» في صيغة يمين، وقد كتب اسمه بالقرب من اسم «حمورابي»، يضاف إلى ذلك أن اسم «شاماشي أداد» هذا قد جاء في نقوش كثيرة من أسطوانة ذات طابع بابلي.[٧]

وبعد ذلك ندخل في عصر مظلم تام من تاريخ «آشور» حتى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وأول ما نجد اسم «آشور» في هذا العهد في حكم الملك «تحتمس الثالث»؛ إذ نجده بعد أن عاد من حملته المظفرة على بلاد النهرين في السنة الرابعة والعشرين من حكمه إلى مصر كان يستقبل رسولًا من «آشور»[٨] يحمل إليه اللازورد والهدايا الأخرى، ويحتمل أن الملك الآشوري الذي كان يحكم وقتئذٍ هو الملك «أشير-رابي» أو «أشير-نيراري»[٩] وتكشف لنا خطابات «تل العمارنة» عن مركز بلاد الشرق الدولي في نهاية القرن الخامس عشر ق.م، هذا بالإضافة إلى أن الوثائق التي كشف عنها في «بوغاز كوى» وهي التي أقيمت على أنقاض عاصمة بلاد «خيتا» القديمة تمدنا بمعلومات ثمينة في هذا الموضوع، وقد تحدثنا عن ذلك بإسهاب في الجزء الخامس من مصر القديمة، ويتلخص الموقف فيما يأتي:

كان «أمنحتب الثالث» يحكم وقتئذٍ مصر وكان ساحل «سوريا» تحت سيطرته وكان ينقسم إقليمين: القسم الأول وهو الجنوبي كان يشمل بلاد «كنعان»، والقسم الشمالي ويحتوي بلاد «عامور» وكان يجاور بلاد «عامور» مملكة «خيتا» التي امتدت حدودها وقتئذٍ في آسيا الصغرى إلى ما بعد جبال «توروس»، ومن الشرق امتدت على نهر «الفرات» حيث اتصلت بمملكة متني التي كانت تمدها من الشرق بلاد «آشور» المسيطرة عليها.

ولا نعرف على وجه التأكيد أصل قومي «خيتا» «ومتني» وكان سكانهما يعبدون الآلهة «أندرا» «وفارونا» «ومترا»، وكان قوم «خيتا» يقومون منذ زمن بعيد بدور هام في التاريخ منذ القرن العشرين، فقد غزوا بلاد «مسوبوتاميا» واستولوا على «بابل» وقضوا على أول

أسرة في هذه المدينة، وكان الملك الخيتي المعاصر «لأمنحتب» الثالث يدعى «شوبيلوليوما» أما ملك المتني فكان يدعى «دوشرتا» وهو صهر ملك مصر وقتئذٍ؛ إذ قد تزوج من إحدى أخواته، وكان ملك «خيتا» قد هاجم ملك «المتني» هذا ولكنه لحسن الحظ صده وغنم منه غنيمة كبيرة أرسل منها عربة وجيادًا لملك مصر، كما أرسل للملكة أخته التي كانت في البلاط المصري أدوات زينة محلاة بالصور، وقد امتد سلطانه على «نينوة»، والظاهر أن الإلهة «إشتار» معبودة كل من البابليين والآشوريين كانت في الأصل إلهة متنية، وهذه الإلهة كانت فيما مضى قد قامت برحلة إلى بلاد «مصر»، وقد بقيت في نفسها أحسن الذكريات لهذه الزيارة بسبب الاستقبال العظيم الذي استقبلت به في أرض الكنانة، وقد اقترحت أن تعود إلى مصر مرة أخرى وأعلنت ذلك لملك «المتني»، وقد أهدى الفرعون في مناسبة من المناسبات للملك «دوشرتا» عشرين «تلنتا» (التلنت = ٢٥ كيلو جرام من الذهب أو الفضة) من الذهب، وقد أوقد هذا العمل نار الغيرة في نفس ملك «آشور» المسمى «آشور أوباليت» ١٣٦٣–١٣٢٨ق.م حتى إنه طلب في الحال إلى ملك مصر أن يهديه مثل هذه الهدية، وكان ملك «بابل» المسمى «بورنابورباش» وقتئذٍ يدعي السيادة على «آشور»، ومن أجل ذلك اشتكى واحتج على ملك مصر بقوله: «إن الآشوريين هم من رعاياي وليس لهم الحق في أن يتعاملوا مباشرة مع الفرعون.»

والواقع أن كل هؤلاء الأقوام كانوا يتنازعون السلطة على ساحل سوريا الذي كان سوق التجارة المشتركة وكانت أقوى منازع بينهم هي بلاد «الخيتا»، وقد عملت «خيتا» على إيقاظ نار الفتنة بين «الأمراء العاموريين» الذين كانوا يسكنون في هذه الجهة كما عملت جهدها لفصلهم عن مصر التي كانت تسيطر عليهم وقتئذٍ، وقد وصل ملك «خيتا» بمجهوداته هذه إلى تثبيت قدمه في وادي «الأرنت» (نهر العاصي) ولكن «أمنحتب الثالث» أرسل إليه جيشًا وانتصر عليه وطرده من هذه الجهة، ولكن «شوبيلوليوما» انتقم لنفسه من «دوشرتا» ملك «المتني» بتخريب حدود بلاده ثم عاد إلى «سوريا» واستولى على «حلب».

ولما تولى «إخناتون» عرش مصر لم يظهر أي اهتمام بالحروب الداخلية التي كانت منتشرة في كل أنحاء «سوريا»، ولذلك نجد أن أحد أمراء العاموريين المسمى «أزيرو» قام بحملة مظفرة على الإمارات المجاورة له فبسط بذلك سلطانه على جزء من سوريا، ولكنه مع ذلك كان يعترف بالسيادة المصرية على بلاده، وقد ذهب إلى مصر ليقدم فروض الطاعة لفرعونها، ولكن ملك خيتا «شوبيلوليوما» عده خائنًا وهاجمه وهزمه واستولى على «سوريا» وقضى بذلك على النفوذ المصري هناك جملة، وفي أثناء ذلك هبت نار ثورة في بلاد «المتني» قتل في خلالها ملكها «دوشرتا»، وتولى الحكم من بعده ابنه «ماتيوز»، وعقد معاهدة مع ملك «الخيتا»، ولم تلبث «آشور» أن أسرعت في تخريب بلاد «متني» ولكن «شوبيلوليوما» رد على ذلك بتزويج أخته من الملك «ماتيوزا» وأقره ثانية في ملكه غير أنه عامله معاملة التابع، وبعد ذلك بزمن قليل تولى «مورسيل» عرش بلاد «خيتا» وكان وقتئذٍ يحكم إمبراطورية تمتد حتى بلاد «آشور» من جهة الشرق وحتى جبال الكرمل والجليلي من الجنوب، ولكن هذا الملك الشاسع لم يدم طويلًا فقد هزم «مورسيل» الملك «سيتي

الأول» في موقعة في إقليم قادش على نهر «الأرنت» ثم حاربه بعد ذلك «رعمسيس الثاني»، وبعد موته أخذ ملكه يتناقص شيئًا فشيئًا في عهد ولديه «موتالو» «وخنوسيل» حتى اضطر الأخير إلى عقد صلح في السنة الواحدة والعشرين من حكم «رعمسيس الثاني» حوالي عام ١٢٧٩ق.م، ولم تلبث مصر نفسها أن أخذت في التدهور كما فقدت بابل كل نفوذها في الشرق، وهذه هي اللحظة التي اقتنصها «العبرانيون» ليستوطنوا فيها بلاد «كنعان»، كما انتهزت طوائف أخرى من الآراميين هذه الفترة ليتسربوا إلى حدود «آشور» «وبابل».

وكان على الملك «آشور أوباليت» أن يصلح عاصمة ملكه «آشور» التي كان جدارها قد تهدم حديثًا، ومن المحتمل أن ذلك كان أثر حصار ضرب حولها، كما كان عليه أن يقيم معبدًا في «نينوة»، وتحدثنا النقوش أن هذا الملك قد حارب «السوباريين» في الشمال الغربي من مملكته ومد في حدود بلاده من هذه الجهة، أما في «بابل» فإنه تدخل في حرب على الحزب الكاسي الذي كان قد قتل حفيده «كارا إنداش» وضمن العرش لحفيده وهو «كوريجا لزو الثالث».

(٦) أنليل ناراري ١٣٢٧–١٣١٨

وقد تولى من بعده ابنه «أنليل ناراري» الحكم، ومد حدود بلاده على حساب بلاد الكاسيين نفسها، وبعد أن أوقع مذبحة عظيمة بين البابليين في «سوجاجي» استولى من بعده ابن أخته «كوريجالزو» على أقاليم جديدة ضمها لبلاده.[١٠]

(٧) الملك إيريك-دنيلو (١٣٠٥–١٢٧٤)

تدل الآثار على أن هذا الملك قد قام بما لا يقل عن خمس حملات حربية كانت كلها مظفرة، وكانت رابعتها موجهة نحو بلاد «الخابور» تجاه بلدة «حاران»، وقد استولى في خلال هذه الحروب على غنائم عظيمة، وبخاصة الأغنام والماشية التي أحضرها إلى «آشور»، وقد ذكر لنا في حملة من حملاته العدد ٢٥٠٠٠ نسمة يحتمل أنهم كانوا أسرى.

(٨) الملك أداد نيراري الأول ١٣٠٥–١٢٧٤ق.م

وقد تولى الملك وهو صغير السن، وتحدثنا آثاره عن الحملات التي قام بها أسلافه؛ إذ بدأ بقصة فتوحاتهم ثم ذكر فتوحاته هو، وقد سار في غزواته حتى «لولومي» في الشرق، ثم

حارب «بابل» في الجنوب وأملى عليها تعديلًا لحدوده، وأصلح القصر الملكى كما أصلح آثارًا أخرى في «آشور» وفي «نينوة».

(٩) الملك شلمنصر الأول ١٢٧٣–١٢٤٤ق.م

وقد استمر «شلمنصر» بن «أداد نيراري» في سياسة الفتح، والواقع أن «آشور» منذ ذلك العهد قد بدأت مجالًا جديدًا في الفتح من جهة الغرب؛ إذ قام «شلمنصر» هذا بثلاث غزوات في إقليم «ديار بكر» فهزم «ساتوراي» ملك «خنيجالبات» وهي المتني القديمة التي أصبحت خليفة «الخيتا الآراميين» (أخلامي)، ووصل سلطانه حتى بلدة «كركميش» الواقعة على نهر الفرات، هذا؛ وقد اضطر قوم «لولومي» في الشرق أن يدفعوا له الجزية أيضًا، وبعد أن مد «شلمنصر» نفوذ «آشور» على كل بلاد «مسوبوتاميا» عقد العزم على أن ينقل عاصمة ملكه السياسية من «آشور»، وكانت مدينة «آشور» تقع على الشاطئ الأيمن لنهر دجلة تحت ملتقى نهر «الزاب» الأعلى بدجلة، فاختار «شلمنصر» موقع عاصمته الجديدة في مدينة «كالح» على الشاطئ الأيسر لدجلة فوق ملتقى نهر الزاب بقليل، ويرجع السبب في تغيير العاصمة إلى امتداد فتوحات «شلمنصر» نحو الشمال والشمال الغربي، فصار من الصعب عليه أن يحكم مملكته من العاصمة القديمة الواقعة بعيدًا في الجنوب، مما كان يضطره على الدوام إلى عبور نهر الفرات، وعلى ذلك بنى قصرًا في «كالح»، وأنشأ مدينة عظيمة هناك على مسافة أربعين ميلًا من أعلى دجلة، في التفرع الذي بينه وبين نهر «الزاب الأعلى»، ومن المحتمل أنه في بداية حكم هذا العاهل أحرق معبد «آشور» الكبير، ويرجع السبب الظاهري في ذلك إلى حدوث زلزال، وقد أعاد بناءه كما أصلح معبد الإلهة «إشتار» في «نينوة»، وهو الذي كان قد تهدم بنفس السبب السالف الذكر.

(١٠) الملك توكولتي نينورتا حوالي ١٢٤٣–١٢٠٧ق.م

تولى هذا الملك بعد والده «شلمنصر الأول»، وقد كان من حسن الحظ أن عثر على كل تواريخ هذا العاهل كاملة، ومن المحتمل أن حملاته لم تذكر بالترتيب التاريخي في نقوشه، بل جمعت بوجه عام على حسب موقعها الجغرافي، ففي حملته الأولى يحدثنا أنه فتح الأراضي الرئيسية الشمالية والشمالية الشرقية التي أخذت تدفع له الجزية منذ ذلك الوقت، وهذه الجهات هي «قوتو» «وشوباري»، ثم نهب وأخضع الأقاليم الشمالية الغربية في «مسوبوتاميا» حتى إقليم «كمجين»، وقد أُلِّف حلف لمناهضة هذا الملك في إقليم «بحيرة وان»، ولكن بعد قتال مرير اضطر ملوك هذا الحلف البالغ عددهم أربعين إلى الخضوع ودفع الجزية، وبعد أن تم له النصر على هؤلاء ولى وجهه شطر «بابل» لمحاربة ملكها «كاشتلياش الثاني» فحاصر «بابل» وجيشها واضطر ملكها إلى منازلته في موقعة أخذ فيها «كاشتلياش»

نفسه أسيرًا وسيق في السلاسل والأغلال إلى «آشور»، وقد مكث «توكولتي نينورتا» يحكم «بابل» مدة سبع سنين بعد أن فتح كل بلادها، كما سيطر على كل «سومر» «وأكاد» حتى أرض البحر. ومما يذكر عن هذا العاهل أنه حمل معه إلى بلاده الإله القومي «لبابل» المسمى «مردوك»، كما نهب معبد «إساجيل» في «بابل»، وفي أثناء ذلك سنحت له فكرة لإقامة مدينة جديدة كاملة وتسميتها باسمه؛ أي «كار-توكولتي نينورتا»، ومعناها مدينة «توكولتي نينورتا» وقد أتمها وأقام فيها معبدًا للإله «آشور» وآلهته العظام وأمدها بقناة، مما يدل على أنها لم تكن بعيدة عن النهر، وأقام هناك طوارًا من الطين كساه باللبنات وبنى عليه قصره الضخم ثم أحاط هذه المدينة العظيمة بسور.

وبعد انقضاء سبع سنين على حكمه «لبابل» ثار أشراف بلاد «أكاد» وأشراف «كاردونياش» (بابل) ونصبوا عليهم ملكًا يدعى «أداد-شوم-أدسو»، وكذلك ثار عليه في «آشور» ابنه المسمى «آشور نادين أبلي» بتعضيد الأشراف فحاصروا الملك في قصره المسمى «كار توكولتي نينورتا» وقتلوه ذبحًا.

وليس لدينا ما ينفي أن هذا الابن السفاح قد خلف والده على العرش، ولكن ليس لدينا حتى الآن أي أثر من حكمه.

ومن الغريب أنه منذ هذه اللحظة نجد فجوة في تاريخ «آشور» استمرت مدة قرن من الزمان لا نكاد نعرف في خلاله شيئًا عن تاريخ الآشوريين إلا بعض حوادث قليلة يمكننا أن نتحدث عنها بشيء من التأكيد.

ويحدثنا التاريخ البابلي أنه بعد قتل «توكولتي نينورتا» بستة أعوام أعيد تمثال الإله «مردوك» إلى «بابل»، ومن المحتمل أن هذا العمل كان قد تم بنفوذ طائفة الكهنة لا بالحرب، وقد عزت الأساطير ضعف بيت الملك «الآشوري» ومتاعبه إلى ما ارتكبه «توكولتي نينورتا» من إثم في حق الإله «مردوك»، وقد بقيت «آشور» هكذا تتجاذبها الممالك القوية التي تحيط بها مدة قرن من الزمان أخذت بعده تفيق مما حل بها من مصائب.

(١١) الملك آشور دان الأول حوالي ١١٧٨–١١٣٣ق.م

وأول ملك بارز بعد هذه الفترة هو الملك «آشور دان»، ويحتمل أنه الخلف الرابع للملك «آشور نادين أبلى» ففتح ثانية إقليم «الزاب» الذي كان عليه أن ينزل عنه إلى «بابل»، ثم هاجم الأخيرة وعاد منها بغنيمة عظيمة.

وكان حكم ابنه وخلفه «متاكيل نوسكو» قصيرًا وهادئًا.

أما ابنه «آشور ريشيش»[١١] حوالي ١١٣٠–١١١٣ق.م: فقد ظهر فيه الروح الحربي الآشوري وقام بحملة على القبائل الشمالية وبخاصة قوم «إخلامي» وقوم «لولومي» وقوم «قوتا»، وهم الذين قد حاربهم أسلافه مرات عدة، كما أعلن الحرب على الملك «نابو خودو رسور الأول» عاهل «بابل» وانتصر عليه، وكان من أعماله إعادة بناء معبدي الإلهين «آشور» «وإشتار».

(١٢) الملك تجلات بليزر ١١١٢–١٠٧٤ق.م

تولى الملك «تجلات بليزر» بن الملك «آشور ريشيشي» وفي زمنه أخذت «آشور» تمد فتوحها حتى البحر الأبيض المتوسط.

وتحدثنا نقوش المخاريط التي عملها من أربع نسخ ووضعها ودائع أساس لكل من الإلهين «إنو» «وإداد» في «آشور» عن الحملات التي قام بها في سني حكمه الخمس، وفيها يقول إنه هاجم أولًا «الموسكيين»[١٢] وهم من سكان الجبال في شمالي «كومجين»، وهذا الإقليم كان يدفع فيما مضى في عهد الملك «توكولتي نينورتا» الجزية لبلاد «آشور»، ولكنهم كانوا قد استردوا استقلالهم التام منذ ستين سنة، وقد نزل عشرون ألف رجل يقودهم خمسة ملوك في «كومجين» لمحاربة «آشور»، فجمع لذلك ملك «آشور» حشوده واخترق تلال «كاشياري» الواقعة فوق «نصبين»، وانقض على «الكومجيين» وأسر منهم ستة آلاف، واستولى على غنيمة هائلة وقطع رءوس القتلى وحلى بها شرفات المدينة، وبعد أن فتح «كومجين» ضمها إلى إمبراطوريته، وفي السنة التالية سار على حسب أمر آلهة «آشور» نحو جبال «أرمينيا» في الوقت الذي كانت فيه جماعات من جنوده يقومون بهجمات على «كردستان» في غابات وعرة المسالك لم يكن قد اقتحمها ملك من قبل، وكانت العربات في هذا الإقليم الوعر لا يمكن استعمالها، فاعتمد في الطليعة على جنود المشاة، وقد خرب بلاد «كرهي» وبلاد «هريا» واستولى على الآلهة ونفى كل الأهلين وأخذ كل أمتعتهم ثم أشعل في مدنهم النيران.

وبعد ذلك بدأت الحروب مع قوم «نا إيري» فتحالف ثلاثة وعشرون ملكًا منهم على مقاومة الفتح الآشوري، ولكنهم هزموا واقتفى هذا العاهل أثرهم حتى بحيرة «وان»، واضطروا في نهاية الأمر أن يقبلوا الحماية «الآشورية» عليهم وأن يقدموا أولادهم رهائن على ولائهم، وكذلك فرض عليهم أن يقدموا ألفين ومائتي جواد وألفي رأس من الماشية.

وقد غادر «تجلال بليزر» آشور في السنة الخامسة من حكمه بعد أن حدد لنفسه يومًا سعيد الطالع على حسب رؤيا رآها في منام، وانقض على بلاد «سوهي» ثم صعد في نهر الفرات إلى أن وصل إلى «إيرام» التي كان يحتلها قوم «الأخلامي» وخربها، ثم واصل زحفه إلى «كركميش» (جرابيس) وهي حصن خيتي على نهر الفرات، ثم عبر النهر وأخضع بلاد «موتوسورو» التي تمتد بين جبال «طوروس»[١٣] وما وراءها، وقد امتدت فتوحات هذا العاهل

حتى بلاد «عامور» وهناك أخذ يصطاد الجاموس في سفح لبنان، ونزل في سفينة إلى «أرواد» وقتل «دلفينًا» في البحر الأبيض المتوسط[١٤] وقد أصبح ساحل سوريا خاضعًا «لآشور»؛ إذ لم تجسر بعد على مهاجمة ممالك الآراميين ودمشق ولا مهاجمة إمارتي «صور» «وصيدا» اللتين استردتا استقلالهما.

وبعد مضي خمسة أعوام من حكمه أخذ «تجلات بليزر» يفاخر بأنه فتح بلاد اثنين وأربعين قومًا وأخضع ملوكهم، وسنرى بعد أن أخلافه المباشرين لم يكن في مقدورهم المحافظة على تلك الإمبراطورية الفسيحة الأرجاء، وأنه في خلال قرنين من الزمان كان في مقدور أقصى هذه البلاد الخاضعة لحكم «آشور» أن تخلع عن عاتقها الواحدة بعد الأخرى النير الأجنبي.

وقد قام «تجلات بليزر» بأعمال عظيمة سلمية في «آشور»، فأعاد بناء معبد الإلهين «آنو» «وأداد» الذي كان قد أقامه «شامشي أداد» قبل ذلك العهد بما يقرب من ستة قرون ونصف قرن، ثم خرب في عهد الملك «آشور دان» الذي كان قد وضع مشروع إعادة بنائه غير أنه لم ينفذ ما شرع فيه، وكذلك أصلح المعابد الأخرى الآشورية والقصور الملكية، وأقام من جديد جدران المدن، وجلب من البلاد المقهورة خيلًا وحميرًا وماشية، كما أحضر للصيد الملكي قطعانًا من الماعز الوحشي، وأمر بإحضار النباتات غير المعروفة في «آشور» لتزرع في بساتين ومزارع الملك كما فعل «تحتمس الثالث» في مصر (راجع مصر القديمة الجزء الرابع).

وقد شن «تجلات بليزر» في الجزء الأخير من حكمه حربين على بلاد «بابل» وانتصر في النهاية على ملكها «مردوك-نادين-آهى».

وقد خصص «تجلات بليزر» في نقوشه مكانًا للحملات التي قام بها للصيد والقنص، ولا يخفي على المطلع عليها ما فيها من مبالغات حيث يقول:[١٥] «إن الإلهين «أورتا» «ونرجال» قد وضعا في قبضتي الملكية أسلحتهما المريعة وقوسهما الفاخر، وقد قتلت بأمر الإله «أورتا» الذي يحبني أربعة ثيران عظيمة وضخمة في حجمها في الصحراء في بلاد «متني» بالقرب من مدينة «أرزيكي»، وهي قبالة أرض «خاتي»، وذلك بقوسي الجبار وبحربتي المصنوعة من الحديد وبسهامي الحادة، وقد أحضرت جلودها وقرونها إلى «آشور» مدينتي، وذبحت عشرة فيلة في إقليم «حاران» وفي مركز نهر «الخابور»، وقبضت على خمسة فيلة أحياء وأحضرت جلودها وأسنانها مع الفيلة الأحياء إلى مدينة «آشور».

وكذلك ذبحت بأمر الإله «أورتا» الذي يحبني عشرين ومائة أسد بشجاعة الجَسور وبهجوم الجبار وأنا على قدمي، وكذلك قضيت على ثمان مائة أسد وأنا في عربتي بالحراب، وكذلك أحضرت أنواع حيوان الحقل وطيور السماء مما اصطدته.»

وهذا المتن يذكرنا بحملات الصيد التي قام بها ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وبخاصة الملوك «تحتمس الثالث» وابنه «أمنحتب الثاني» ثم «أمنحتب الثالث»، وكلهم كانوا معروفين

بحبهم للصيد والقنص (راجع مصر القديمة الجزء الرابع، والجزء الخامس).

(١٣) أخلاف الملك «تجلات بليزر الأول»

تدل الأحوال على أن تاريخ «آشور» عند موت عاهلها العظيم «تجلات بليزر الأول» كان يحوطه الغموض؛ إذ تدل النقوش التي في متناولنا على أن العرش قد اغتصبه ملك يدعى «أشارير-أبال-أكور»، ومن المحتمل أنه بعد صراع طويل استولى على عرش الملك ابن «تجلات بليزر» المسمى «آشور-بل-كالا»، وكل ما لدينا من نقوش من عهده هو متن على جذع تمثال امرأة محفوظ بالمتحف البريطاني، والظاهر أن الغرض من هذا التمثال ونقوشه هو إشعار حكام المدينة بولائهم لهذا الملك،[١٦] يضاف إلى ذلك أن هذا الملك قد عقد مع ملك «بابل» حلفًا وتزوج من ابنته.

(١٤) الملك شماش أداد الرابع ١٠٥١–١٠٤٨ق.م

وخلفه على العرش أخوه «شماش أداد الرابع»، ولم يترك لنا شيئًا من آثاره تستحق الذكر، والواقع أن «آشور» قد أفل نجمها واضمحل حالها وخبا مصباحها بعد حكم «تجلات بليزر»؛ فقد بقي تاريخها غامضًا لا نعرف عنه شيئًا مدة قرنين من الزمان، اللهم إلا بعض نتف صغيرة لا تشفي غُلَّة، وقد اتفق على أن الحياة قد أخذت تدب من جديد في أوصال مملكة «آشور» في الوقت الذي كانت فيه المملكة اليهودية قد انقسمت على نفسها وأخذت الحروب الداخلية تفت في عضدها (راجع مصر القديمة الجزء التاسع).

(١٥) أداد نيراري الثاني: ٩٠٩–٨٨٩ق.م

يعد تولى «أداد نيراري الثاني» عرش ملك «آشور» فاتحة عصر جديد في تاريخ «آشور» وفي تاريخ العالم أجمع؛ وذلك لسبب آخر: إذا اتفق أنه منذ عهده قد بدأت قائمة[١٧] اللمو أو الحكام السنويين تحفظ في سجلات في سنين متتالية دون حذف حتى نهاية «الإمبراطورية الآشورية»، وبوساطة هذه القائمة استطاع الباحثون أن يحددوا دون الوقوع في خطأ التاريخ المضبوط للحوادث الهامة في تاريخ «آشور»، وتفسير ذلك أن هذه القوائم هي سلسلة أسماء من الموظفين يدعون «لمو»، وكانوا يحتفلون بعيد رأس السنة في عاصمة الملك، وكانوا يقومون في هذه الأحفال بدور الإله في التمثيلية الدينية التي كانت تمثل وقتئذٍ، وهذا الواجب يقوم به في «آشور» بالتناوب الملك وحكام أقاليمه، وكان تقديم واحد

من هؤلاء الحكام على الآخر يدل على ترتيبهم من حيث الأهمية في المكانة، وكانت الوثائق تدون باسم «لمو» كل بدوره على تتابع السنين، وبعبارة أخرى كانت هذه الوظيفة كثيرة الشبه بوظيفة «أوركون» في حكومة «أثينا»، وقوائم هؤلاء «اللمو» التي وجدت في «قبو نيق» تحدد لنا التاريخ في «آشور» عن العهد الذي يبتدئ من ٨٩٢–٦٦٢ق.م وقوائم «اللمو» هذه تحدد لنا تاريخ ملوك «آشور» من أول عهد الملك «ناصير بال» وما بعده مع احتمال خطأ قد لا يزيد عن أكثر من عشرات سنوات.

(١٦) الملك آشور-رابي: حوالي ١٠٠١ق.م

والظاهر أن الملك «آشور-رابي» أسس أسرة جديدة أخذت تعالج أمور «آشور» من جديد، وذكر لنا «أداد نيراري» قصة الحملات القديمة التي كانت قد نسيت والتي يرجع عهدها إلى مائتي سنة مضت، وكان قد قام بها «توكولتي الأول» «وتجلات بليزر الأول» ومنها نعرف إلى أي حد انكمشت حدود «آشور» نفسها، والواقع أن الملك «أداد نيراري» قد شرع فعلًا في إحياء مجد «آشور» ثانية، ولما مات عام ٨٨٩ق.م تولى بعده عرش الملك ابنه.

(١٧) توكولتي نينورتا الثاني ٨٨٨–٨٨٤ق.م

وقد ترك له دولة منتصرة على «بابل» في الحروب التي شنها عليها مستردًا «لآشور» كل حدودها القديمة، ومن ثم كان في مقدورها أن ترسل الجيوش لفتح أقاليمها القديمة من جديد، ومنذ الآن يمكننا أن نتتبع الجيوش الآشورية وهي تغزو وتفتح البلدان أكثر من ستين سنة، وهذ الغزوات لها أهمية عظيمة؛ إذ نجد فيها البرهان القاطع عن قصد ملوك «آشور» ومراميهم، فقد كان جُلُّ همِّهم تمكين سلطانهم وتدعيم ملكهم على تخوم «آشور» الشمالية والأقاليم الغربية حتى البحر الأبيض المتوسط، هذا بالإضافة إلى الرغبة في إعلان سيادتهم على الممالك المجاورة لحدودهم الجديدة، وبعبارة أخرى كان هدف ملوك «آشور» منذ ذلك العهد هو تأسيس «إمبراطورية آشورية» مترامية الأطراف تسيطر على العالم المتمدين أجمع، وهذه السياسة قد نفذها بإخلاص سلسلة ملوك لم يكن النصر دائمًا حليفهم في كل المواطن، ولكنهم كانوا مع ذلك مثابرين جادين في تنفيذ خطتهم المرسومة بدرجة عظيمة تلفت نظر المطلع على تاريخ آسيا الغربية، ولا نزاع في أن ضمان سلامة «آشور» وملكها كان يتطلب وقتئذٍ إخضاع الأقوام الذين على حدودها الشرقية الشمالية.

كما كان من المهم لفلاح «آشور» وبلوغ مأربها أن تسيطر على الطريق المؤدية إلى إقليمي «الخابور» «وبليخ» شمالًا حتى جبال «طوروس»، وإلى «كابودشيا» غربًا حتى البحر، وقد دلت تجارب قرون مضت على أن مثل هذه السيطرة كان لا يمكن الحصول عليها إلا إذا

فتحت هذه البلاد بطريقة منظمة ثم احتُلت وحافظ عليها الآشوريون بقوة عظيمة، من أجل ذلك كان لزامًا أن يصبح الإقليم الذي يمتد حتى غربي «كركميش» جزءًا لا يتجزأ من دولة «آشور»، وقد حتم ذلك أن تكون «آشور» صاحبة السيادة على ممالك حدودها الجديدة، ومن ثم اقتضت هذه السياسة ضم الأقوام الخاضعين لسلطان «آشور» وأصبحوا جزءًا منها.

وكانت الجهود الجرئية التي بذلها «توكولتي نينورتا الثاني» في تثبيت ملكه تنحصر في أمرين: الأول إخضاع أقوام جبال «نا إيري». والآخر تمكين السيادة الآشورية على تخوم بلاده. والواقع أن هذا الملك كان جنديًّا عظيمًا، ولو مد في أجله لقرنت فتوحه وأعماله العظيمة بما قام به «تجلات بليزر الأول»، غير أن المنية عاجلته وهو في بداية حكمه القصير عام ٨٨٤ق.م بعد عودته من حملة مظفرة على حدود بلاده الشمالية.

(١٨) الملك آشور-ناصير-بال الثاني ٨٨٣–٨٥٩ق.م

وخلفه على عرش الملك «آشور ناصير بال الثاني» وقد جدد هذا الملك النشاط الحربي في «آشور» في مدة الأربعة والعشرين سنة التي مكثها على عرش الملك، مما جعل بلاده تنطلق من حدودها بقوة لا تقاوم في جهة «سوريا»، من أجل ذلك لم تنقض إلا مدة قصيرة حتى أعاد إلى بلاده ما كان قد أحرزه «تجلات بليزر» في هذه الجهة من فتوح عظيمة، وبذلك وضع الأساس لإمبراطورية السراجنة، وقد جمع «آشور ناصير بال» بين العبقرية الحربية وغلاظة القلب وفظاظة النفس وكأن قلبه قد قُدَّ من حديد؛ إذ كان يقضي على كل من يقاومه بطرق وحشية يندى لها جبين الإنسانية، ولم يكن قلبه يتذوق الشفقة، فقد كانت آلام الناس الذين هزمهم وعذابهم بكل ألوان العذاب في نظره متعة ينعم بها، وكان الناس في نظره كالنمل تداس بالأقدام بل أقل من ذلك، وهذا الوحش الإنساني كان يفخر ويتمتع بأنواع العذاب الذي كان يصبه على أجسام كل من وقف أمام إرادته، فكانت العادة المتبعة عنده بعد الاستيلاء على مدينة ما أن يذيقها عذاب الحريق، ثم يشوه أجسام الأسرى بتقطيع أيديهم وآذانهم وسمل أعينهم ثم تكديسهم بعد ذلك في كومة عظيمة ليقضوا نحبهم بلهيب الشمس المحرقة وبنهش الطيور الجارحة أشلاءهم أو بالاختناق، أما أطفالهم ذكورًا وإناثًا فكانوا يحرقون أحياء وهم على خوازيق، وناهيك برئيس القوم، فكان يحمل إلى آشور عاصمة ملكه ليُسلخ جلده حيًّا لأجل أن يدخل على نفس الملكة السرور، وهذه الوحشية لم تكن غير معروفة عند «تجلات بليزر الأول» مثلًا، غير أنها قد أصبحت لسوء الحظ منذ عهد «آشور ناصير بال» مقياس سلوك في الحروب في الجيش الآشوري، فقد سار على نهجها الملوك الذين جاءوا من بعده ولكن بدرجات تختلف في الشدة، غير أنه من المعلوم أن «آشور ناصير بال» قد بَزَّ كل أخلافه في إحراق الأطفال أحياء، وعلى أية حال لم نجد أحدًا قد فخر بهذا العمل كما فخر به هذا المخلوق الذي فاقت وحشيته كل وصف حتى في أظلم العصور وأفظعها همجية وقسوة، وعلى الرغم من أن غير هؤلاء الملوك كانوا قساة

على الشباب إلا أننا لا نعرف بقدر ما وصلت إليه معلوماتنا من جاراهم من الحكام في وحشيتهم إلا النزر اليسير، ولا نزاع في أن الفاتحين المصريين الذين سابقوهم في إقامة الإمبراطوريات كانوا يعدون بالنسبة إليهم دائمًا رحماء، ولذلك فإنه لمما ترتعد له النفس وتقشعر منه الأبدان أن يستعرض الإنسان الآلام الجسمية الهائلة التي كانت تنصب على البشر من ملوك «آشور» وجنودهم طوال القرنين ونصف القرن التي جاءت على أعقاب حكم «آشور ناصير بال» ٨٨٣–٨٥٩ق.م، ولا نزاع في أن «بيعنخي» ملك «مصر» وبلاد «كوش» الذي عاصر هؤلاء الملوك الآشوريين كان يعد ملكًا رحيمًا بالنسبة لهم.

ويرجع الفضل إلى «آشور ناصير بال» وخلفه «شلمنصر الثالث» ٨٥٨–٨٢٤ق.م في وضع النظام الحربي الذي قام في دولة «آشور» مما جعلها في مدة قصيرة سيدة غربي «آسيا».

والواقع أننا لا نعلم إلا القليل عن النظام الفعلي الذي كان سائدًا في «آشور» وكل ما نعلمه أنه كان يوجد جيش ثابت صغير من الجنود الملكيين، وكان هذا الجيش يزداد في أوقات الحرب بتجنيد كل الرجال الذين يعتمد عليهم في ساحة القتال من الفلاحين الأشداء وأصحاب الأملاك، وكانت تتألف قوة جيش «المشاة الآشوري» من هؤلاء الفلاحين الأقوياء، وكان أهم سلاح يستعملونه بوجه عام هو «القوس»، وقد نمَّى «ملوك آشور» جيشهم من المشاة بدرجة عظيمة مما جعلهم قوة هائلة يرجع إليهم الفضل في الانتصار على أعدائهم، وبخاصة رماتهم الذين كان في مقدورهم أن يفوقوا سهامهم من مسافات بعيدة على فرسان عربات العدو وخيالتهم فيصيبوهم في مقاتلهم، وقد أخذت قوة الخيالة وقتئذٍ تتضاءل، وأصبحت العربة قليلة الاستعمال في الحروب، يضاف إلى ذلك أن «الآشوريين» قد أدخلوا تحسينات كثيرة في فن الحصار، ومن المحتمل أنهم هم الذين اخترعوا الهندسة الحربية، والواقع أن هذا رأي ضعيف؛ لأن المصريين كانوا قد برعوا في هذا الفن كما جاء في بردية من عهد «رعمسيس الثاني» (راجع «الأدب المصري القديم» الجزء الأول، ص٣٧٦ … إلخ) ولا نزاع في أن النصر كان يأتي طواعية بمثل هذه العدة الحربية المنظمة، أو على الأقل كان حليفها، وإن لم يكن ذلك يتأتى بسهولة كنا سنرى بعد مدة قرنين من الزمان.

وكان القائد الأعلى الذي يلي الملك يدعى «ترتان» ويليه في المرتبة قائد يدعى «راب-شاكه» (رئيس السقاة).

ويلحظ أنه كان من جراء حملة «توكولتي نينورتا» على البلاد الواقعة شمال «آشور» أن انتهت بنصر عظيم له، وقد كان من الضروري أولًا بعد ذلك إعادة النفوذ الآشوري بين قبائل الجبال الخارجة وضمان الهدوء بينهم قبل القيام بفتح البلاد الواقعة غربي «آشور»، وهذا ما قام به «آشور ناصير بال»؛ إذ لم يمضِ أكثر من سبع سنين من حكمه حتى ثبت حكمه تمامًا وأصبح السيد المطلق في وادي «الخابور» وفي أواسط نهري «دجلة» «والفرات»، وقد بدأ فتوحه بإخضاع قبائل جبال «زاجروس» غربي «آشور»، وذلك بأن زحف بنظام على وديانهم وجبالهم في حركة مستديرة منقضًّا عليهم انقضاض المحشة حول جنوب «أرمينيا» حتى بلاد «كومجين» «وسيليسيا»، وكان بعد ذلك على استعداد لعبور الفرات غير

أن بيت «خالوبي» وهي ولاية آرامية «يحتمل أن تكون بيت خلف» ثارت على الحاكم الآشوري فطار إليها الملك على جناح السرعة مع جيشه، وقبض على المغتصب وعدوه من العصاة وذبحهم، وعمل من جلودهم فراشًا لأثر أقامه أمام بوابة المدينة، وقطع رءوسهم ووضع أجسامهم على خوازيق، وساق مدعي الملك إلى «نينوة» وسلخه حيًّا وصلبه على جدار المدينة، وفي تلك الفترة قامت «بابل» بثورة بعد أن كانت هادئة منذ أن هزمها الملك «أداد نيراري الثاني»، وذلك لادعائها السيطرة على الأراضي الواقعة في وسط مجرى نهر الفرات، وتلك الأراضي هي التي كانت تسير فيها طرق القوافل بالتجارة إلى «سوريا»، ولم تقبل قط طواعية أن تعترف برقابة «آشور» أو غيرها عليها، ومن ثم ساعد ملك بابل المسمى «ناتو-بال-إدين» ملك أرض «سوخي» لمقاومة «آشور ناصير بال»، وكانت النتيجة أن فقدت حكومات بلاد «نهرين» استقلالها.

وهذه البلاد كانت قد أخذت في الظهور منذ عهد الملك «تجلات-بليزر»، فمن ذلك أن مملكة الآراميين في «بيت أديني» الواقعة على الشاطئ الأيسر لنهر الفرات قد هزمت وخربت نهائيًّا.

ولم يكن أمام «آشور ناصير بال» إلا أن يزحف بجيوشه إلى البلاد القريبة من حدوده لإخضاعها والسيطرة عليها، فقام عام ٨٧٦ق.م بحملة عظيمة متجهًا شطر البحر الأبيض المتوسط، وزحف بجيشه في بلاد لم يكن قد فتحها الآشوريون من قبل، فلم يجد أية مقاومة، والواقع أن ذلك كان يبدو في ظاهره غريبًا، وذلك أنه على الرغم مما كان يوجد من تنافس وبغضاء بين أمراء سوريا الذين كانوا من سلالة واحدة، وهي السلالة السامية فإنه يكاد يكون من الصعب علينا أن نفهم السبب الذي جعل في مقدور «آشور ناصير بال» أن يقوم بأعماله العظيمة التي كانت في الواقع تقليدًا لما قام بها سلفه العظيم «تجلات بليزر»، اللهم إلا إذا كان في بلاد سوريا حزب يعمل لحساب «آشور»، وقد دلت فيما بعد الحوادث على أن السياسة الآشورية كانت ترضى عن وجود حزب سوري يكون صاحب الغلبة في البلاد ويعمل لحسابها، ومن ذلك نعلم أنه في «بيت زماني» الواقع في الشمال قد فقد «أمي بعلي» حياته في الدفاع عن مصالح «آشور»، وعلى ذلك فإنه ليس من باب الخيال أن نقرن علاقات «آشور ناصير بال» «بسوريا» كما نقرن العلاقات التي كانت بين فليب المقدوني وبلاد الإغريق؛ أي إنه كان لكل منهما حزب في البلاد التي كان يغزوها.

وسار «آشور ناصير بال» بجيشه من كالح عاصمة ملكه في شهر أيلول متجهًا نحو «كركميش» عاصمة بلاد «خيتا» الجنوبية، وهذه المدينة كانت على ما يظهر قد بدأت تظهر عند تمزق دولة «شوبيليوليوما».

وتدل شواهد الأحوال على أنها كانت قد بلغت مقدارًا عظيمًا من القوة خلال مدة تدهور بلاد «خيتا»، وقد أخضعها «آشور ناصير بال» واستولى عليها، كما أخضع مملكة «سنجار» عام ٨٧٦ق.م، واضطر ملكها إلى دفع الجزية لملك «آشور» وتجنيد جيش لمساعدته في حروبه، وكانت الطريق الموصلة إلى بلاد «لبنان» تخترق أملاك «ديبارنا» ملك «خيتا»، فلم يسَع

الأخير إلا الخضوع وتقديم الجزية لملك «آشور»، وبعد أن زاد الأخير في جيشه مرة أخرى عبر نهر «الأرنت» ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط وإلى المواني الفينيقية العظيمة، وقد أرسلت إليه الهدايا كل من بلاد «صور» «وصيدا» «وجبيل» «وطرابلس» «وأرباد».

وفي هذا يقول «آشور ناصير بال»: «لقد سرت في لبنان وذهبت إلى النهر العظيم لأرض عامور، وغسلت في البحر العظيم أسلحتي وضحيت أمام آلهتي.» غير أننا نعرف أن «دمشق» والبلاد الجنوبية لم تمس، وقد قلد هذا العاهل الآشوري عند جبال أماتوس أجداده في إقامة تذكار هناك، ثم قطع من هذه الجهة الأشجار التي كانت لازمة لسقف مبانيه.

والظاهر أن «آشور ناصير بال» قد أخلد للراحة بعد هذه الحملة؛ إذ لم تُذكر لنا في نقوشه حملات حربية إلا بعد مضي عشر سنوات، فقد قام بحملة على جزء في أقصى الشمال، فبدأ من «كوماجين» متجهًا إلى «أداني»، فوصل في زحفه إلى نقطة في شمالي «آشور»، وقد كان من نتائج هذه الحملة أن خضع كل الأشراف الذين يسكنون الفرات الأعلى وصاروا يدينون لسلطانه.

(١-١٨) نقل العاصمة من نينوة إلى «كالح»

منذ تولي «آشور ناصير بال» عرش الملك قرر نقل عاصمة ملكه من «نينوة» إلى «كالح»، وكان من جراء ذلك إعادة بناء تلك المدينة المخربة، وهي التي كانت عاصمة ملك العاهل «شلمنصر الأول» سابقًا، والظاهر أنه اتخذ مقره هناك منذ عام ٨٨٠ق.م تقريبًا، وعلى ذلك فإن معظم الإصلاحات التي عملت فيها كانت في السنين الخمس الأولى من حكمه، وأهم تجديد عمله «آشور ناصير بال» في هذه المدينة هو حفر قناة جزء منها تحت الأرض، وكانت تأخذ مياهها من نهر الزاب الأعلى، وكذلك أقام لها سورًا وبنى لنفسه قصرًا من اللبنات وكساه حجرًا، وقد عثر الباحثون الأحداث في قصره هذا على سلسلة من المناظر التي تمثل الأحفال الدينية والمواقع الحربية ومناظر الصيد والقنص.

ومن المدهش حقًّا عندما نريد أن نبدي رأيًا عن أخلاق هذا الرجل وما أتاه من أعمال عظيمة لبلاده أن نجد المتناقضات العجيبة؛ ففي أول حكمه ارتكب من أعمال الوحشية ما يجمد القلم عند وصفها، وفي نهاية حياته أتى من الأعمال الجليلة ما كاد ينسينا غلظته وفظاظته، ففي خمس السنين الأخيرة من حكمه لم يقم إلا بحملة واحدة قادها بنفسه، ومع ذلك كان الجيش الآشوري على أحسن ما يكون من حسن النظام والقوة عندما تولى ابنه من بعده عرش الملك، ومن ثم نفهم أن مثل هذا النظام المتين الثابت لا يقوم إلا إذا كانت تشد أزره إدارة قوية في مختلف أنحاء الإمبراطورية، وتكون مستعدة لكبح جماح أية ثورة أو عصيان، يضاف إلى ذلك أنه كان لا بد من وجود يد قادرة على معالجة إدارة الجيش وتسيير أموره بحزم في أوقات السلم.

هذا؛ وقد قيل أحيانًا إن بلاد آشور كانت دولة سلب ونهب، وإنها كانت تستولي على الجزية دون أن تسعى لحكم البلاد التي كانت تبتز منها هذه الأموال، والواقع أن إقامة المدن الملكية في جهات مختلفة من إمبراطورية «آشور» مضافًا إلى ذلك المدة الطويلة التي قضتها البلاد دون حرب نسبيًّا يعطينا نتيجة عكسية. ومما يؤسف له أنه ليس لدينا مادة رسمية تقدم لنا معلومات عن حالة إدارة هذا العاهل، غير أنه مما لا شك فيه أنه كان كالبرق الخاطف في سرعة إطفاء أية ثورة أو إخماد أي عصيان في الأقاليم الخاضعة له، ولا أدل على ذلك مما حدث في «بيت زاماني»، ومما يجدر ذكره هنا من الحقائق الهامة أن الآراميين الذين صب عليهم جام غضبه ووحشيته كانوا هم الذين وقع عليهم اختياره لسوقهم إلى «كالح» عاصمته، وهذا يدل على سداد في الرأي؛ لأن الآراميين كانوا مشهورين بالصناعة والحرف والتجارة مما جعلهم رعايا منتجين، فكان يهدف بنقلهم إلى عاصمة ملكه أن يُهضموا في الأمة الآشورية، ومن جهة أخرى يصبحون من أهل البلاد نفسها فلا يقومون بثورات عليه.

ومما يلفت النظر أن هذا العاهل لم يشرع في عمل من الأعمال العظيمة إلا إذا كان متأكدًا من نجاحه.

فمن ذلك أنه لما سار بجيشه المظفر إلى البحر الأبيض المتوسط لم يدخل إلا البلاد التي لا تبدي مقاومة، وكانت «دمشق» بلدة قوية معادية له خارجة على سلطانه فتحاشى دخولها، ومن ثم نرى أن «آشور ناصير بال» كان حازمًا في مشروعاته، بصيرًا بتوسيع ممتلكاته، عاملًا على أن تكون قوة متماسكة، كما أظهر صلابة في تأييد سلطانه بعد تثبيت أركان ملكه.

ولا شك في أنه كان راعيًا قديرًا لقومه على الرغم مما اتصف به من شراسة وقسوة وغلظة، ومن المحتمل أنه كان يتبع المثل القائل: كن قاسيًا في البداية لتكون لين الجانب في النهاية.

(١٩) الملك شلمنصر الثالث ٨٥٩–٨٢٤ق.م[١٨]

تولى الملك «شلمنصر الثالث» بعد والده «آشور ناصير بال»، وقد صار على نهج والده في فتوحه ومد حدود بلاده شمالًا وغربًا، وبخاصة في البلاد التي كانت متاخمة لملكه مباشرة وتقع على خطوط التجارة، وقد اعترضه في تنفيذ تلك السياسة عقبات؛ من ذلك أن «بيت أداني» كانت تقع على طريق تجارة «آشور»، وكان ملكها «أخيوني» لا يزال ملكًا عليها على الرغم من أنه كان تابعًا لملك «آشور»، وكان الاستيلاء على هذه البلدة أمرًا ضروريًّا لأجل أن يكون كل وادي الفرات من أول هذه البلدة حتى «بابل» تحت السلطة المركزية الآشورية، يضاف إلى ذلك احتمال تدخل أمير طموح مثل «أداد إدري» ملك «دمشق» في المشروعات الآشورية في أرض الغرب الغنية، وكان لا بد من بسط نفوذ «شلمنصر» وإخضاعه إذا أمكن لسلطانه، وتدل الأحوال على أن ملوك «آشور» قد أخذوا عن مصر عادة إعلان الحرب على عدد من أعدائهم أثر اعتلاء العرش مباشرة؛ إظهارًا لقوتهم وعظمتهم حتى يبعث الرعب

والهلع في نفوس الأقوام الآخرين المعادين، وليظهروا أنهم ليسوا أقل شأنًا ممن سبقوهم في الإقدام وشدة البأس.

ففي السنة الأولى من حكمه سار هذا العاهل بجيشه إلى «بيت أداني»، وكان ملكها «أخيوني» وكذلك ملك دمشق «أداد-إدري» يخافان على تجارتهما مع الشمال بعد أن رأيا قوة «آشور» هناك، فألف حلفًا مكونًا من اثني عشر أميرًا صغيرًا يمتد نفوذهم من أول بلاد «قوى» (سيليسيا) في الشمال حتى بلاد إسرائيل «وعمون» في الجنوب لمحاربة «آشور»، وقد قابل «شلمنصر» هذا الحلف عام ٨٥٣ق.م بعد أن ضرب مدينة «قرقار» في معركة خارجها، وكان عدد رجال العدو حوالي ٦٣٠٠٠ من المشاة وألفين من الخيالة الخفيفة وأربعة آلاف عربة وألف جمل، فخسر الحلف حوالي ١٤٠٠ مقاتل، ولكن كانت خسائر الآشوريين عظيمة أيضًا؛ لأنهم لم يتابعوا العدو بل تنحوا عن القتال بعد المعركة، وعلى ذلك بقيت «دمشق» خارجة عن قبضة الآشوريين.

أخذ الآشوريون بعد ذلك يولون وجوههم نحو «بابل» التي كانت قد بدأت تناصب ملكهم العداء، وبعد أن قضى على هذه الثورة عاد لمحاربة «حماة» «ودمشق»، وقد استولى في طريقه إلى هذين البلدين على «كركميش»، وقد دامت المناوشات بين الطرفين حتى عام ٨٤٥ق.م عندما صمم «شلمنصر» على كسر شوكة جيشي «حماة» «ودمشق» فسار إليهما بجيش قوامه ١٢٠٠٠ مقاتل، غير أنه لم يفلح في إخضاع «دمشق» وبقيت خارجة عليه.

ويرجع الفضل إلى مقدرة رجال إدارة «شلمنصر» في أنه كان في استطاعته أن يؤجل مؤقتًا موضوع إرهاب أقوام الشمال والشرق الذين على حدود بلاده، ولكنه بعد مضي ثلاث سنوات حتمت عليه الأحوال أن يسير بجيشه حتى منابع «دجلة» «والفرات» في عام ٨٤٤ق.م فاستولى على «نمري» الواقعة على حدوده الشرقية وطرد منها ملكها «مردوك خوداميك» عام ٨٤٣ق.م، ويُحتمل أنه مخاطر بابلي، وقد نصب مكانه حاكمًا من أهل البلاد.

وفي خلال تلك الأحداث كان الحلف الذي ألفه ملك «حماة» «ودمشق» لمقاومة هذا العاهل قد تمزق شمله؛ وذلك لأن «حماة» كانت قد تلقت كل صدمات الحملات السابقة حتى أصبحت ضعيفة، أما ملك «دمشق» «أداد-إدري» فكان قد مات، وكذلك ملك إسرائيل «أخاب» كان قد قضى نحبه، وكان يحكم «دمشق» في ذلك الوقت ملك يدعى «حازائيل» بدلًا من سيده الذي قتل، وقد اضطر لمواجهة «شلمنصر» منفردًا في جبل «ساتيرو» (هرمون) في عام ٨٤١ق.م، فهزم في موقعة عظيمة خسر فيها ١٦٠٠٠ مقاتل، ولكنه وقف للعدو في «دمشق» بقلب شجاع، غير أنه في النهاية وهنت قوته لدرجة أن «يهو» ملك «إسرائيل» وملكا «صور» «وصيدا» ذهبوا إلى «شلمنصر» لدفع الجزية خوفًا منه، وقد ترك لنا منظر دفع هذه الجزية في نقش على صخور «نهر» الكلب «ومن الجائز أن «مصر» التي كانت دائمًا مهتمة بشئون «سوريا» قد قدمت جملين من الجمال ذوات السنامين وفرس بحر وحيوانات أخرى ليست معروفة في «آشور» لهذا الفاتح، على أن ذلك ليس محققًا؛ إذ من المحتمل أن كلمة مصر تعني إقليمًا من بلاد العرب».

وعلى الرغم من أن «شلمنصر» لم يحطم قوة «دمشق» «وذلك أهم غرض له في هذه الحملة» فإنه وصل إلى نشر سيادة «آشور» حتى البحر الأبيض المتوسط كما تدل على ذلك حملاته التي تلت تلك الحملة، ففي عام ٨٣٩ق.م سار بجيشه في إقليم «قوى» (سيليسيا) وكان غرضه من ذلك تأمين طريق القوافل، وفي عام ٨٣٧ق.م استولى على أربع مدن من «خازائيل» ملك «دمشق» كما تسلم جزية من «صور» «وصيدا» «وجبيل».

وكذلك خضع له ملك «توبال» في العالم التالي وزار «شلمنصر» مناجم «كابودشيا» ثم استمر في محاربة الجهات الأخرى حتى عام ٨٣٢ق.م عندما هاجم «قوى» (سيليسيا) كرة أخرى فهزمها وأصبحت تابعة له، ثم فتحت «طرسوس» أبوابها لهذا العاهل، وبذلك سقطت أول حليفة حاربت في جانب «أداد إدرى» ملك «دمشق» «وأرخوني» ملك «حماة»، وهذا الفتح الأخير الذي قام به «شلمنصر» في الغرب كان النتيجة المنطقية للمجهودات الحربية التي قام بها «الآشوريون» مدة ستين سنة؛ إذ قد أصبحت كل طرق القوافل من «كابودشيا» حتى مدينة «آشور» في أيديهم، واعترفت بلاد ساحل البحر الأبيض المتوسط من «جبيل» حتى «طرسوس» بسيادتهم، هذا؛ ولم تكن إدارة «شلمنصر» لممتلكاته الجديدة أقل حزمًا وثباتًا عن إدارة «آشور ناصير بال» في أقاليمه المحددة، وقد ختمت حياة هذا العاهل بقيام ثورة وحروب داخلية في أواسط «آشور»، وذلك أن «آشور-دائن بال» أحد أبناء «شلمنصر» كان قد جمع حوله حصنًا ليساعده على تولي العرش، وقام بثورة في عام ٨٢٧ق.م، والظاهر أن الملك «شلمنصر» مات وقتئذٍ، فأفلح هذا المدعي في جمع معظم المدن الهامة حوله، ونخص بالذكر منها «نينوة» «وآشور» «وأربلا»، كما استمال إلى جانبه كثيرًا من المديريات الآشورية، وأخذ في محاربة «شماشي أداد» الذي اختاره «شلمنصر» خلفًا له، غير أن تلك السحابة التي سودت آخر أيام «شلمنصر» لم تؤثر على ما كسبه من فخار في أعين أخلافه، ولا بد أن ما أتاه من جليل الأعمال يعد الأساس لبناء قوة إمبراطورية «آشور»، ففي الجنوب ثبت النظام في «بابل»، وفي الغرب أخضع كل شمال سوريا لسلطانه، وفي الشرق خلع ملوكًا ونصب غيرهم بما يكفل قيام السيادة الآشورية، وفي الشمال رأى أنه لا يمكن تأمين الطرق والقبض على ناصيتها إلا بعد مهاجمة بلاد «أوراوتو» (= أرارات؛ أي بلاد أرمينيا) وهزيمتها، وعلى الرغم من أن حملاته في مراكز «أورارتو» الجنوبية لم تصل إلى هدفها فإن المشاغبات التي كانت تحدث بين سكان القبائل الجبلية قد قلت حدتها عما كانت عليه أيام أسلافه.

ولم يعرف من مباني «شلمنصر» إلا ما تركه لنا في مدينة «آشور» نفسها، وبقايا هذه المباني هامة؛ لأنها تكشف لنا عن طريقة جديدة في إقامة الحصون، وهي التي اتبعت دائمًا فيما بعد، فقد أقيم على خط خندق المدينة جدار كثيف وضعت فيها أبراج يبعد الواحد منها عن الآخر مائة قدم.

وعند بوابة صناع المعدن التي كانت مزينة بلبنات منمقة بُني الجدار بصورة جعلت البوابة كأنها تؤلف نقطة دفاع قوية، وعلى مسافة ٦٥ قدمًا من البوابة أقيم جدار داخلي سمكه ثلاث وعشرون قدمًا، وبه أبراج ربما كانت تشرف على الجدار الخارجي.

وقد ترك لنا «شلمنصر» قطعتين من أحسن ما أخرجه الفن الآشوري وهما المسلة السوداء والشرائط المصنوعة من البرنز التي وجدت في «بالاوات»، وهذه الشرائط كانت تؤلف أربع بوابات وعليها زركشة مضغوطة تمثل مناظر من أهم حملات «شلمنصر»، كما مثلت عليها الجمال والماشية التي جاءت لملك «آشور» بجزية من «جيلزان»، والصور التي مثلت على المسلة السوداء تشبه في شكلها المناظر التي على شرائط البرنز.

وقد كشف لهذا الملك أخيرًا عن لوحة جميلة تلخص لنا مدة حكمه في الست عشرة سنة الأولى،[١٩] والواقع أن تاريخ «شلمنصر» الرسمي ممتع في قراءته، فقد كان من أولئك الملوك الذين يؤمنون بالإمبراطورية، ولذلك كان فخورًا بها؛ لأن الإمبراطورية في نظره كانت تعني الحرب وسفك الدماء، ولم يرَ مبررًا للحد من هذه الأغراض أو الإقلاع عن التفاخر بأعماله في التحدث عن الحرب وإباحة الدماء، كما أنه لم يكن متواضعًا في أمور أخرى، فقد كان فخورًا بما قام به من قطع الأشجار في جبال «أمنوس» وأنه وصل إلى بحر «نيري» (بحيرة وان) وبحر الشمس الغاربة «البحر الأبيض المتوسط» والبحر الذي يسمونه المر «الخليج الفارسي»، وقد كان كثير الزهو بركوبه السفن، وقد فاخر بحق بأنه وصل إلى منابع الفرات ودجلة … إلخ.

(٢٠) شماشي أداد

تولى الحكم «شماشي أداد الخامس» ٨٢٣–٨١٠ق.م بعد والده «شلمنصر»، ولكنه كان مثله قبل موته مشغولًا بالحروب بالتي قام بها على السبع والعشرين مدينة التي قامت لمساعدة أخيه العاصي «آشور دائن بال»، وقد بقيت الحرب بينهما حتى عام ٨٢٢ق.م إلى أن انتصر «شماشي أداد» عليه عام ٨٢١ق.م بمساعدة «ماردوك-نادين-شوم» ملك «بابل» الذي اعترف بسيادة «شماشي أداد» في معاهدة رسمية بقي لنا جزء منها.

وبعد هذه الحروب الداخلية كان عليه أن يخضع الثورات التي قامت في أنحاء البلاد، ولذلك حارب بلاد «نيري» حيث شن عليها ثلاث حملات، وكذلك حارب «بابل» وهزم «مردوك-بلاتسو-إقبي» وفيما بعد هزم «بابا-أخخي-أدمينا» خلف «مردك-بلاتسو-إقبي» ملك «بابل».

ومن ثم نجد أن امتداد حدود «آشور» قد استمر مدة ثلاث عشرة السنة التي حكمها «شماشي أداد» من جهة الشرق والجنوب الشرقي.

ومن الواضح أن الملك «أداد نيراري الثالث» قد تولى الحكم بعد والده عام ٨١١ق.م، ولم يتأثر سلطانه بالحروب الداخلية التي حدثت في السنين الأخيرة من حكم «شلمنصر».

(٢١) الملكة سميراميس

وكانت حكومة «آشور» من السنة الحادية عشرة بعد الثمان مائة حتى السنة التاسعة بعد الثمان مائة ق.م في يد أم «أداد نيراري الثالث» المسماة «سامو-رامات»، وهي بابلية الأصل، ولدينا نقش نفهم منه أنها كانت لها منزلة ممتازة في تاريخ «آشور»، فقد عثر على لوحة في ركن من أركان جدار في مدينة «آشور» حيث كان منصوبًا صفان من الألوح سجل فيها اسمها بوصفها زوج الملك «شماشي أداد» ووالدة الملك «أداد نيراري الثالث» وربيبة «شلمنصر»، وكذلك كشف للإله «نابو» عن تمثالين مهشمين في خرائب معبد «نينورتا» بمدينة «كالح» والظاهر من نقوشهما أنهما مهديان من حاكم المدينة المسمى «بل-ترنسي-ألوما» وكتب عليهما تضرعًا راجيًا حفظ الملك «أداد نيراري» والملكة «سامو-رامات» وكذلك حفظ نفسه. هذا ولدينا نقش آخر بعد هذا التاريخ عن «أداد نيراري» يدل على أن السنين الثلاث الأولى من عهده لم تحسب جزءًا من حكمه، ويعتقد المؤرخون بحق أن الاسم «سامو-رمات» هو الاسم الأصلي الذي أخذ عنه اسم «سميراميس» في الأساطير الإغريقية، ولذلك فإن صدى القصص الخرافية المبالغ فيها عن الأعمال العظيمة التي قامت بها «سميراميس» «وتينس» يرجع إلى الزمن الذي كانت فيه «سامو-رامات» وصية على عرش ابنها «أداد نيراري».[٢٠]

(٢٢) أداد نيراري الثالث ٨١١–٧٨٢ق.م

عندما استتب أمر الملك للعاهل «أداد نيراري» أخذ في معاقبة قبائل «الكرد» الذين كانوا خاضعين لآشور منذ عهد الملك «آشور ناصير بال»، وبعد ذلك وجه همه نحو بلاد «سوريا»، فخضعت له «حماة»، وأخذت مدن ساحل «فينيقيا» تدفع الجزية ثانية، ثم أتى دور «دمشق» فحاصر ملكها المسمى «بنهدد الثالث»، وهو الذي يسميه الآشوريون «ماري بن حازئيل» في عاصمة بلاده واضطره لدفع جزية ٨٠٣-٨٠٢ق.م، وقد رحب «بوأحاز» ملك إسرائيل الذي كان قد خضع مدة طويلة هو وقومه للآشوريين، وأرسلوا لملكهم الجزية، وذلك عندما رأوا أن ملك «دمشق» قد خضع لسلطان الآشوريين، ومن المحتمل أن «أداد نيراري» قد زحف بجيوشه نحو الجنوب في فلسطين؛ وذلك لأن السجلات التي بقيت لنا من عهده تقول: إن دفع الجزية لم يقتصر على بيت «خمري» (بيت عمري أو إسرائيل)، بل كذلك خضعت «أودوم» «وفلسطين» ودفعت الجزية، ولم يذكر في متون هذا الملك قوم «يهودا»، ومن المحتمل أنهم كانوا وقتئذٍ تابعين لقوم إسرائيل، وقد حافظت «أودوم» على استقلالها بعد هزيمة «أمصيا»، ولذلك فإن إخضاعها جاء ذكره على انفراد.

والواقع أن هذا الخضوع من جانب أقوام «فلسطين» يعد استرجاعًا لاستقلال دويلات «فلسطين» أو بعبارة أدق لبني إسرائيل الذين كانوا يعدون بلاد «يهودا» حليفة تابعة لهم،

وتحدثنا التوراة (راجع «سفر الملوك الثانى» الإصحاح ١٤) أن «يوآش» ملك «يهودا» الذي بقي على قيد الحياة من مذبحة بيت «داود» على يد «أتاليا» وهو الذي أقامه الكاهن الأكبر «يهوديا داع» ملكًا، كان عليه أن يخضع «لحازائيل» هو ومولاه «يهوى»؛ والواقع أن أورشليم قد نجت من الاحتلال السوري بدفع رشوة ضخمة، وقد أحرز «أمصيا» بن بواش نصرًا على «أودوم» وهو الذي تولى الملك بعد قتل والده، وقد داخله الزهو بسبب ذلك، حتى إنه طلب محاربة «يهوآش» ملك «إسرائيل» ابن «بوأحاز» وخلفه، وقد كان جواب «يهوآش» على طلب الحرب هذا كما هو مدون في كتاب (الملوك الثاني الإصحاح الرابع عشر سطر ١٣ … إلخ) محققًا لما أسفرت عنه الحرب بينهما، فقد هزم «إمصيا» شر هزيمة، واستولى على «أورشليم» وهُدمت جدرانها، وحُمل كل ما فيها من الأواني الذهبية إلى السامرة حوالي ٧٩٣ق.م.

هذا؛ وقد شجع «يهوآش» هذا النصر فسار بجيشه إلى «سوريا»، وفي خلال ثلاث حملات قام بها على «بنهدد الثالث» بن «حازئيل» أمكنه أن يعيد كل إقليم إسرائيل الأصلي الواقع شرقي «الأردن»، وقد تابع ابنه «يربعام الثاني» ٧٨٢–٧٤٣ق.م الحرب على سوريا حتى نجح في نهاية الأمر في الاستيلاء على «دمشق» «وحماة»، وليس ببعيد أن هذه الانتصارات قد أحرزت بالتحالف مع الملك آشور «شلمنصر الرابع» ٧٨٢–٧٧٢ق.م والملك «آشور-دان» ٧٧١–٧٥٤ق.م وقد حارب «دمشق» «وأرواد» وإمارة «هدراح».[٢١]

وعلى الرغم من أن «دمشق» اضمحلت مقاومتها من كثرة الحروب حتى سلمت في النهاية فإنها كانت لا تزال مصدر ثورات، ولم يكن في مقدور الآشوريين إخضاعها إلا بالحملات التأديبية المتصلة.

والواقع أن الآشوريين لم يحاولوا قط أن يجعلوا من إمبراطوريتهم وحدة متماسكة الأطراف كما كان المصريون يحاولون ذلك دائمًا؛ وذلك لأنهم على ما يظهر كانوا يقومون بالغزوات لأجل الجزية ولنشر السلام حتى لا تتأثر تجارة «بابل» طالما بقيت «بابل» خاضعة لهم.

(٢٣) الملك شلمنصر الرابع ٨٧٢–٧٧٢ق.م

كانت معظم حروب «شلمنصر الرابع» على بلاد «أورارتو» أو «أرارات» (أرمينيا الحالية) وقد أطلق عليها الآشوريون هذا الاسم؛ لأنها كانت تقع حول الجبال العظيمة التي لا تزال تحمل اسم جبال «أرارات»، وكان أهل «أورارتو» يسمون مملكتهم «خلاديا» تيمنًا باسم إلههم الرئيسي «خالاديس»، والظاهر أنهم كانوا قبيلة حربية زحفوا إما غربًا من «هليسينت» أو جنوبًا من «القوقاز»، وعلى سواحل «بحر قزوين» حتى «أرمينيا» مستولين في طريقهم على أراضي قبائل أخرى أو ضامين إياها إلى ملكهم، إلى أن أصبحت بلادهم تصل إلى

مشارف بلاد «آشور»، وقد أخذت الثقافة المسوبوتامية تتسرب شيئًا فشيئًا إلى أعالي نهري «دجلة» «والفرات» في هضاب «أرمينيا»، وكانت قبائل «خالاديس» قد تشبعت بالحضارة البابلية لدرجة أن ملوكهم استعملوا الكتابة المسمارية في كتابة لغة أقوام «أورارتو» نفسها التي تدعى لغة «فانيك» نسبة لآثارها الرئيسية، وقد كان أول مكان استوطنوه حول بحيرة «وان» حيث كانت تقع بلدة «توروشيا» التي أصبحت عاصمة البلاد فيما بعد، وقد كشفت لنا رموز نقوش لغة «فانيك» بعد حلها كل تاريخ مملكة «خلديا» (أرمينيا)، ويرجع الفضل في الكشف عن هذه اللغة للأستاذ «سايس» الذي نشر نتائج أبحاثه في عام ١٨٨٢م.[٢٢]

وكانت عاصمة هذه البلاد في الأصل تدعى «أرزا شكون» وكانت تقع في وادي «أراكسيز»، وأول ملوكها الذين ذكروا في النقوش هما «لوتبريس» «وساردوريس»، والأخير كان معاصرًا للملك «آشور ناصير بال»، ولم نجد في أخبار الحروب الجارفة التي اجتاح بها الأقاليم الشمالية من أولها إلى آخرها ذكر بلدة «ساردوريس»، ولكن يغلب على الظن أن بلاد «أورارتو» قد نالها شيء من سيف «آشور ناصير بال» الجبار.

وأول ملك آشوري يحدثنا عن منازلته لبلاد «أورارتو» الذي كان يحكمها وقتئذٍ آرامي هو الملك «شلمنصر الثالث»، والواقع أن هذا الملك قد خرب بلاد الملك آرامي في السنين ٨٥٩ و٨٥٦ و٨٤٤ق.م في خلال غزوات قام بها على «أوراتو»، وأخيرًا خرب عاصمته «آرزاشكوت»، ولما خلفه الملك «ساردوريس» هاجمه القائد الآشوري المسمى «آشور دايان» في عامي ٨٣١ و٨٢٨ق.م، هذا؛ وبعد مضي بضع سنين قام أحد قواد الملك «شماشي أداد» بحملة على الملك «إشبونيس» خليفة الملك «ساردوريس الثاني»، على أن هذه الهجمات المتوالية كانت على ما يظهر مقوية لا مضعفة لتلك البلاد الجبلية الصلبة، في حين أن الآشوريين لم يجنوا من ورائها أية فائدة حقيقية، وقد تحالف في خلال تلك الحروب ظاهرًا مع «الأورارتو» قوم يُدعون «ماني»، وهم سلالة ميديان والميديون الأُول الذين يسمون «ماداي»، وقد ظهروا للمرة الأولى في التاريخ في البلاد الواقعة شرقي بحيرة «أورميا»، وقد شن عليهم الملك «أداد نيراري» عدة حملات، والمفروض أنه قد وصل في خلال إحدى هذه الحملات حتى البحر الكسي «بحر قزوين» وفي خلال هذه الفترة كان الملك «متواس» بن «ساردوريس الثاني» قد مد أملاك «أورارتو» حتى بحيرة أورميا الغربية، وقد فتح ابنه «أرجستيس الأول» كل بلاد «كردستان» «وأرمينيا» حتى غربي «ملتين» (ملاتيا) وكانت فتوح «آشور ناصير بال» قد فقدت على الرغم من المجهودات المتعددة التي قام بها «شلمنصر الثالث» لاسترجاعها، ولا نزاع في أن متاخمة إقليم «أورارتو» لمراكز «آشور» القوية قد أصبح خطرًا مباشرًا على تلك الإمبراطورية؛ إذ لم يمضِ طويل زمن حتى أصبح الحد الفعلي بين البلدين (أي «أورارتو» وآشور) هو سلسلة الجبال المعروفة الآن باسم «يودي زاغ»؛ أي على مسافة أقل من مائة ميل من «نينوة» نفسها، غير أن ملوك «أورارتو» لم يجسروا على محاربة الآشوريين في موقعة فاصلة في سهل نهر الفرات، وعلى أية حال كانت آخر حملة قام بها «شلمنصر» على بلاد «أورتو» في عام ٧٧٤ق.م، وقد باءت بالفشل كسابقاتها، والواقع أن

آشور كانت قد فقدت عدة نقط هامة في الأقاليم التي كانت ضرورية لسلامتها وقتئذٍ من الوجهة الحربية.

وقد أعقب الهزائم التي حاقت بآشور شمالًا قيام ثورات في الغرب، ففي عامي ٧٧٣ و٧٧٢ق.م أرسلت آشور حملتين تأديبيتين إلى «خنتريكا» في شمال سوريا «وهي بلدة هادراح المذكورة في التوراة» إلى دمشق.

(٢٤) الملك آشور دان الثالث ٧٧١–٧٥٤ق.م

كان حكم هذا الملك الذي امتد أمده سلسلة نكبات على البلاد، فقد هاجم «خنريكا» في عام ٧٦٥ق.م ثم في عام ٧٥٥ق.م، كما هاجم «إرباد» عام ٧٥٤ق.م، وتدل الأحوال على أن هذه الولايات كانت من أنصار مملكة «أورارتو»، وتدل النقوش على أنه في عهد ملك «أورارتو» المسمى «ساردوريس الثاني» الذي خلفه «أرجستيس» قد أصبحت «قوى» (سيليسيا) «وجرجوم» «وشمعات» «وأتقي» «وكركميش» تحت سلطان «أورارتو»، فكانت بذلك مسيطرة على تجارة المعادن، ومن ثم نجد أن «آشور» أصبحت مرة أخرى مهددة بالخراب، وهذه كانت بلا نزاع النتيجة المحتومة لسد المواصلات مع الغرب ومع «كابادوشيا»، ولا يبعد أن البؤس الذي حل بالسكان أصحاب الصناعات نتيجة لذلك قد أدى إلى الثورات التي قامت في مدينة «آشور» ٧٦٣-٧٦٢ق.م وأرباخا ٧٦١-٧٦٠ق.م وغوزان ٧٥٩ق.م.

هذا؛ ولم يكن في مقدور الملك «آشور دان» إخضاعها وكبح جماح الثورات فيها حتى عام ٧٥٨ق.م، ولقد ساءت الحال حتى إنه لم يتمكن من حفظ النظام حتى على حدوده الجنوبية بعد السنين الأولى من حكمه، وقد ترك «آشور دان» بلاد «آشور» فقيرة يسودها سوء النظام، وقد انكمشت حدودها إلى ما كانت عليه في عهد الملك «آشورابي».

(٢٥) الملك آشور نيراري الخامس ٧٥٣–٧٤٦ق.م

هذا الملك هو آخر سلسلة طويلة من الملوك الآشوريين كان غاية في الضعف وانحلال العزيمة، فقد قام بحملتين في بلاد «نامري» لم يكن لهما أي شيء يذكر، وأخيرًا في عام ٧٤٦ق.م ثارت عليه عاصمة الملك نفسها «كالح»، وكان من جراء ذلك أنه مات هو وكل أعضاء أسرته.

ولا نزاع في أن سبب ضعف «آشور» خلال الأعوام من ٧٨٢–٧٤٦ق.م يرجع إلى وهن عزيمة الممثلين للبيت المالك لا إلى تصدع في القوة الحربية، فقد حاقت بالبلاد ثلاث هزائم عظيمة

متتالية انتصر فيها ثلاثة ملوك من حكام «أورارتو»، وهم: «منواس» «وأرجستيس الأول» ثم «ساردوريس الثاني».

وقد فطن ملوك «آشور» إلى أنه من الصعب أن يسيطروا على القبائل الجبلية القاطنة حول بحيرة «أورميا»، وكانت بلاد «آسيا الصغرى» تحتاج إلى قيام سلسلة حملات من جهتهم، والواقع أنه لو كان في «آشور» ملوك أقدر من الذين كانوا يحكمونها وقتئذٍ لعرفوا كيف يستفيدون من هذا الموقف، يضاف إلى ذلك أن ضياع سلطان «آشور» في «سوريا» يعد أكبر مصيبة حاقت بملكهم، وكان هذا أكبر دليل على ضعف كل من الملكين «أداد نيراري» «وآشور نيراري»؛ إذ لم يكن في مقدورهما مواجهة الموقف على الرغم من أن «أورارتو» لم يكن في استطاعتها حماية بلاد الغرب أمام هجمة منظمة تقوم بها «آشور» لو استطاعت إلى ذلك سبيلًا.

ومع ذلك فإن فتوح «آشور ناصير بال» وأخلافه لم تذهب كلها عبثًا على أية حال؛ لأن المستعمرات الآشورية التي غرستها هذه الفتوح، والنظام الذي أدخله حكام «آشور» قد بقي في البلاد التي ضمتها «آشور» فعلًا إلى ممتلكاتها، وعلى ذلك فإنه لو كان في آشور وقتئذٍ حاكم قدير لوقف في وجه جيوش «أورارتو» وصدها وجعلها تنكص على أعقابها مولية الأدبار.

وفي الوقت نفسه نجد أن الحكام الآشوريين كانوا على ما يظهر يقومون بنشاط عظيم لتأمين رفاهية البلاد التي كانت تحت إشرافهم، وأخذوا يستقلون في أقاليمهم التي كانوا يحكمونها عندما رأوا ما كان عليه مليكهم من استكانة وضعف وخور في العزيمة واستسلام مشين، فمثلًا نجد أن حاكم بلدة «ماري» وبلاد «سوخي» المسمى «شاماشي-وش-أوصور» قد أخضع قبيلة «تومانو» التي هاجمت عاصمته «ريبانيش»، وأقام هناك أثرًا سجل عليه أعماله العظيمة، ومما يلفت النظر أن هذا الحاكم كان يؤرخ سجلاته بسني حكمه هو كأنه كان ملكًا مستقلًّا، وهذا يذكرنا بما كان يحدث في عهد الدولة الوسطى في عهد الإقطاع في مصر عندما كان الأمراء في «بني حسن» وغيرها يؤرخون أعمالهم بسني حكمهم (راجع مصر القديمة الجزء الثالث).

وقد كان هذا الحاكم الآشوري يتحدث بزهو عن إدخاله تربية النحل في مقاطعته فيقول: «إن النحل يجمع الشهد والشمع، وإني أفهم تحضير الشهد والشمع كما يفهمه البستانيون.»

(٢٦) عصر سيادة آشور

(٢٦-١) أعمال «تجلات بليزر الثالث» ٧٤٥–٧٢٧ق.م

كانت قوة آشور الحقيقية في كل عصور تاريخها تتمثل في أخلاق سكانها، وهؤلاء قد ظلوا لا يُمسون بسوء في عددهم أو في قوتهم، ولذلك كان في مقدور دولة «آشور» أن تنهض بسرعة من الضربة التي صوبتها لها بلاد «أورارتو» التي كانت بدورها متأرجحة في مركزها، والواقع أن «تجلات بليزر» الذي قبض على مقاليد الأمور في عام ٧٤٥ق.م كان في استطاعته أن يعيد إلى «آشور» مجدها الغابر، بل كان في استطاعته أن يفعل أكثر من ذلك؛ إذ استرد لها ما كانت تسيطر عليه من ممتلكات في عهد كل من «شلمنصر الثالث» «وأداد نيراري الثالث».

ومما يلفت النظر هنا أن «تجلات بليزر الثالث» لم يلمح أبدًا إلى أحوال توليه عرش الملك، ولذلك يغلب على الظن أنه لم يكن وارثًا شرعيًّا للملك، بل أخذه بحد السيف، وبخاصة عندما نعلم أن البيت المالك قد هلك عن آخره في ثورة «كالح» التي مات فيها «آشور نيرارى الخامس» وكل أعضاء أسرته.

وقد كان أول عمل لهذا العاهل الجديد له مغزاه وأهميته، فقد أطلق على نفسه اسم «تجلات بليزر» تيمنًا باسم أعظم ملك محارب مد سلطان «نينوة» على أقاليم لم تعرفها من قبل ولا من بعد، وفي عهده وصلت «آشور» لمدة قصيرة إلى مكانة سامية لم تصل إليها قط إمبراطورية «آشور ناصير بال» أو «شلمنصر الثالث»، والواقع أن اسم «تجلات بليزر الثالث» كان في نظر الآشوريين مرادفًا لتجديد شباب الإمبراطورية ومجدها وعزتها، وكان حكمه وعدًا للعودة السريعة للأيام الخالدات القديمة التي اتسمت بالشجاعة والبطولة.[٢٣]

وقد دلت نتائج أعماله على ما كان منتظرًا، فقد لوحظ أن الدم الملكي الجديد الذي كان يحمله في عروقه هذا العاهل قد سرى في عروق كل الإمبراطورية، وأعاد لها شبابها في لمحة عين، وانتعش روحها الحربي كأنما تلا عليها عزيمة سحرية، ففي حين أنه وقف زحف ملوك «أورارتو» نرى من جهة أخرى أن الثوار في سوريا قد جبنوا وعادت إسرائيل إلى موقفها المعتاد الذي ينطوي على الذلة والمسكنة والتضرع والتوسل كما نجد أن آمال حزب بابل الذي كان يريد الانفصال عن «آشور» قد تحطمت وقُضي عليها.

وقد كان أول عمل قام به «تجلات بليزر» أنه أخذ يشعر أهل «بابل» بأنهم خاضعون «لآشور»، ولم يسعَ في خلع ملكهم «نابو-ناصير» أو العمل على إذلاله، بل اكتفى بالقيام بمظاهرة حربية في الجزء الشمالي من تلك البلاد الثائرة، وفي الوقت نفسه عاقب القبائل الآرامية المغيرة التي كانت قد احتلت المجرى الأوسط لنهر الفرات، وكانت بطبيعة الحال تتدخل في سبل التجارة، وفي الوقت نفسه أظهر للبابليين ما كان له من قوة حربية، وما كانوا يجنونه من فوائد تجارية بمهادنته ومصادقته.

والواقع أن عمله الحقيقي لحفظ كيان دولته كان متوقفًا على نفوذه في الأقاليم الغربية من بلاده، وبعبارة أخرى استرجاع الإمبراطورية السورية التي كان قد أقامها «آشور ناصير بال» هناك، ولكن قبل أن يقوم بهذا العمل وجه ضربة مفاجئة للأقطار الواقعة في الشمال الشرقي

من بلاده، فاخترق جبال «يود داغ» وردَّ أهل القبائل الذين اقتربوا جدًّا من وسط مملكته، وبهذه الكيفية تلافى كل خطر في مؤخرته من جهة «بابل» أو من جهة «مديا»، ثم أخذ بعد ذلك «تجلات بليزر» يزحف في عام ٧٤٣ق.م بجيشه إلى نهر الفرات قاصدًا غزو بلاد سوريا، وقد أخذ الفزع يستولي على الزعماء السوريين عندما علموا بزحفه عليهم، ولذلك ألفوا حلفًا بقيادة «متبي اللو» زعيم «إرباد» وهي مدينة تقع في شمال حلب لمقاومته، وفضلًا عن ذلك طلبوا إلى ملك «أورارتو» المسمى «ساردوريس الثالث» مساعدتهم، وكانت ممتلكات الأخير تشمل «كوموخ» (كومجين)، وعلى ذلك وصلت حتى حدود «سوريا»، وقد أزعج هذا الزحف الملك «ساردوريس» فعزم على أن يضرب ضربته بسرعة خاطفة، فزحف فجأة على مضيق نهر «الفرات» لمهاجمة الآشوريين، وقد انقض «تجلات بليزر» لصد هذا الخطر، وهزم «ساردوريس» هزيمة ساحقة، وبذلك أصبحت سوريا عرضة لهجوم الجيش الآشوري بدون كبير عناء، وحوالي عام ٧٤٠ق.م استولى الآشوريون على «إرباد»، وخضع بعدها كل بلاد الغرب.

وفي هذا الوقت كان الرعب قد ملأ كل بلاد سوريا وفلسطين، وأصبح استقلال الممالك المختلفة فيها يتهدده الخطر.

وكان «يربعام الثاني» ملك إسرائيل قد مات منذ فترة قصيرة حوالي عام ٧٤٣ق.م، وكان موته نذيرًا بقيام الفوضى في الممالك الشمالية وقتل ابنه «زكريا» بيد «شالوم» الذي قتل بدوره بيد «منحيم» (راجع «سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٥»)، والظاهر أن هذه الفوضى قد هيأت فرصة مواتية لملك اليهود المسن «عزريا» ليبسط مؤقتًا سيادة «يهوا» ربه على الممالك الشمالية «ودمشق» «وحماة» التابعين لها، ولا نعرف السبب الذي من أجله لم نسمع في سفر الملوك (راجع «سفر الملوك الأول الإصحاح ٥») شيئًا عن «عزريا» إلا أنه أصبح في نهاية أمره أبرص، ومن جهة أخرى نجد في تواريخ الأيام قصصًا تحدثنا عن نشاطه بأنه حارب فلسطين والعرب (راجع كتاب أخبار الأيام الثاني الإصحاح ٢٦) وفي هذه الحالة نجد أن قصص كتاب أخبار الأيام التي لا يُعتمد عليها كثيرًا في نظر المؤرخين قد أكدت الحقائق التاريخية التي وردت في الآثار الآشورية، فثبت بذلك صحتها، والواقع أننا إذا فحصنا هذه الحقيقة فحصًا مجردًا عن العاطفة وجدنا أنه يكاد يكون «عزريا» صاحب «بلويدي» الذي ظهر بوصفه المحرض على مقاومة «آشور» في جنوب «سوريا» ليس إلا ملك «يهودا»، ونحن نعلم علمًا أكيدًا بوجود أرض تدعى «يلودا» ذكرت في هذا الوقت بالذات، وتحمل نفس الاسم الذي كان يحمله ملك بلاد «يهودا» الذي كان يحكم فعلًا في هذا الوقت، فليس لدينا إلا أن نقرر بأنه هو هذا الملك وأن «عزريا» صاحب «يلودا» هو «عزريا» ملك «يهودا»، غير أن بعض المؤرخين لا يأخذون بهذا القول،[٢٤] ويعتقد آخرون أن الموضوع لا يزال يحيط به الغموض.[٢٥]

وإذا فرضنا صحة وجود «عزريا» هذا فإنه يكون هو السيد المشرف على الولايات الإسرائيلية التي فتحها «ياربعام الثاني»، وأن الآشوريين كانوا يعدونه المحرض على المقاومة التي كانوا يلاقونها وقتئذٍ في جنوب «سوريا».

والواقع أنه في عام ٧٣٩ق.م استدعى «تجلات بليزر» من حملة في جبال «أرمينيا» بسبب تهديد «عزريا» وأتباعه أو حلفائه لممتلكاته، وكان أبرز هؤلاء الحلفاء هو «يانامو» حاكم «سامال»، وقد زحف على هذا الحلف ملك آشور في عامي ٧٣٩ و٧٣٨ق.م في حملتين، فهزم هذا الحلف، وبذلك قضى على الحلم الذي كان يرمي إلى إحياء إمبراطورية «سليمان» فقد سقطت بلدة «كولاني» (كالنو) وسلمت بعدها «حماة»، ولم تلبث أن أصبحت «سامال» (شمأل = الشام) تحت حكم «آشور» مباشرة، ومن ثم كان يدفع الجزية كل من «رزين» ملك «دمشق» «وحيرام» ملك «صور» «ومنحيم» ملك إسرائيل لآشور[٢٦] (راجع سفر الملوك الإصحاح ١٥ سطر ٢٠)، وفي هذا الوقت مات «عزريا» وخلفه «يوثام» سنة ٧٣٩ق.م.

هذا ولم يأتِ في النصوص الآشورية ذكر جزية جُمعت من «يهودا»، ويحتمل أن سبب ذلك يرجع إلى أن «تجلات بليزر» كان مكتفيًا بالقضاء على الحلف، وكان في الوقت نفسه يتوق إلى العودة إلى آشور ليصفي حسابه مع بلاد «أورارتو»، ذلك الحساب الذي كان قد بدأ في السنة السابعة من حكمه، ولكنه أُوقف بسبب زحفه لمعاقبة «عزريا» وحلفه.

قام «تجلات بليزر» من أجل ذلك بثلاث حملات اخترق خلالها «مديا» حتى سفح دمافند Demavend ودخل «أورارتو» وأوغل فيها حتى بحيرة «وان» حيث تقع «توروشيا» عاصمة الملك «ساردوريس»، ولكن «تجلات بليزر» لم يكن في مقدوره الاستيلاء على هذه المدينة لمناعة قلعتها الصخرية «وهي قلعة وان الحالية»، ولكن على الرغم من ذلك كسر شوكة «أورارتو» لمدة سنين عدة ٧٣٥ق.م.

وفي أثناء غياب «تجلات بليزر» في حرب «أورارتو» أخذ أمراء فلسطين يعلنون الثورة، ولم يكونوا بعد قد خضعوا مثل أمراء شمال «سوريا» وعرفوا ألا فائدة من المقاومة، وذلك أن «فقحيا» بن «منحيم» قد قتله «فقح» بن «رمليا» الذي انضم وقتئذٍ إلى «رزين» ملك دمشق وزعماء فلسطين وأمراء «أودوم» لمهاجمة «يونام» ملك «يهودا» وخليفة «عزريا»، وكان السبب الذي دعا إلى هذا الهجوم هو حب الانتقام من أجل السيادة المؤقتة التي كان قد نالها «عزريا»، وقد حقد عليه من أجل ذلك كل الحلفاء حقدًا عظيمًا، والواقع أنه كان مما لا يتفق مع مجريات الأحوال أن تسيطر على هذا الحلف مملكة «يهودا» الصغيرة لمدة ما، غير أن مقتضيات الأحوال هي التي أدت إلى ذلك.

وفي خلال فترة هذا الارتباك مات «يوثام» وخلفه «آحاز» الذي ظن أن خلاصه الوحيد المباشر في أن يلتجئ إلى آشور على الرغم من معارضة النبي «أشعيا» لهذه الفكرة؛ إذ رأى نتيجة ذلك هو أن «يهودا» ستكون تابعة لآشور، غير أن ملك يهودا كان مستعدًّا لقبول هذه التبعية ثمنًا لخلاصه. وعندما التجأ إلى «تجلات بليزر» أجاره، إذ في عام ٧٣٤ق.م ظهر هذا العاهل بجيشه في «سوريا» على أثر تخريب بلاد «أورارتو». ومما يلفت النظر أن «تجلات بليزر» لم يهاجم بلاد الحلف من الخلف، وربما كان قد نهج هذه السبيل ليجعل الفلسطينيين يشعرون أن بعد المسافة بينهم وبين بلاده لم يكن ليقدم لهم أمانًا من نار حربه. وقد سار على الساحل حتى بلاد فلسطين التي لم تكن حتى الآن قد غزيت أو فتحت، إذ إنها قد

حافظت على استقلالها من إسرائيل حتى في أيام سليمان، وفي خلال القرنين اللذين أعقبا ذلك لم تعترف قط بسيادة إسرائيل في عهد «عمري» الذي كان مليئًا بالحروب كما لم تعترف بسيادة «يهودا» في عهد «عزريا» الذي لم يمضِ على موته فترة طويلة. والواقع أن الدم الكريتي الذي يجري في عروق السكان الكريتيين الأجانب الذين وفدوا إلى فلسطين منذ زمنٍ قد بعث في نفوس الكنعانيين الذين يقطنون الساحل روح الاستقلال والشهامة الحربية.

وقد كان الهدف الرئيسي لزحف الآشوريين هو القضاء على «حانو» ملك «غزة» عام ٧٣٤ق.م وهاك المتن الذي ذكر[٢٧] عنه: «أما عن «حانو» صاحب «غزة» الذي هرب أمام جيشي وفر إلى مصر فقد فتحت بلده «غزة» … ومتاعه الخاص وصوره، لقد وضعت (؟) صور … آلهتي وتمثالي الملكي في قصر بلدته «الإلهة» وأعلنت أنها ستكون من الآن فصاعدًا إلهة بلادهم وفرضت عليهم الضرائب.»

والمقصود من هذا المتن أن حاكم «غزة» «حانو» قد هرب واختفى في مصر، ثم نصب «تجلات بليزر» تمثاله هو في قصره وقدمت الضحايا للإله «آشور» في معبد آلهته الذين حملوا مع الكنوز الملكية إلى «آشور»، وقد تأخر استعباد إسرائيل في تلك الفترة، وذلك بسبب موت «فقح» على يد «هوشع» الذي قدم خضوعه في الحال لملك «آشور» «تجلات بليزر»، وقد سمح له هذا أن يبقى ملكًا على إسرائيل بعد أن فقد نصف ممتلكاتها، إذ قد ضمت كل البلاد الواقعة شرقي نهر الأردن أي الجليلي «ونفتالي»، هذا بالإضافة إلى مدن «خازور» «وقادش» وإيون Iyon «ويبنوم» وغيرها إلى آشور، وقد حمل ملك آشور معه أهل قبائل «روين» «وجاد» ونصف قبيلة «منشة» أسرى. وبعد ذلك تفرغ ملك آشور إلى ملك «دمشق» المسمى «رزين»، فاستولى على «دمشق» وقتل ملكها وضم بلاده إلى ملكه وساق أهلها أسرى إلى «قر» عام ٧٣٢ق.م.

وتدل الأحوال على أن الفلسطينيين لم يقبلوا في الحال الاستعباد الذي فرضه عليهم «تجلات بليزر»، ولذلك حاول ملك «عسقلان» أن يقوم بثورة في أثناء حصار الآشوريين لمدينة «دمشق»، غير أنه عندما أعلن سقوط «دمشق»، الأمر الذي لم يكن في الحسبان، جن جنون ملك «عسقلان» خوفًا ورعبًا مما عساه يكون نتيجة عصيانه، من أجل ذلك أسرع «روقبتي» في تقديم خضوعه للفاتح «الآشوري»، ثم قفا أثره «متنا» ملك «صور»، وذلك على أثر موت «رزين» ملك «دمشق». وقد فرض «تجلات بليزر» جزية كبيرة على «صور». ومن ثم أرسلت البلاد المجاورة وهي «عامورة» «ومؤاب» «وأودوم» جزية لملك «آشور» صاحب السلطان العظيم، وكذلك قدمت له الملكة «شمش» ملكة بلاد العرب الجزية وأصبحت خاضعة لسلطانه، وقد نصبت آشور في كل بلاطِ أميرٍ من البلاد التابعة لها موظفًا أو مقيمًا يدعى، «قبي»، ووضعت حدود مصر تحت ملاحظة مقيم يدعى «إدبي-إلو». والظاهر أنه كان هو زعيمًا بدويًا أطلق عليه لقب «قبوموصور» (مصر)؛ أما عن المراكز التي ضمت إلى «آشور» فعلًا وتشمل «فلستيا» وكل «فلسطين» «وسوريا» شمالي جليلي وشرقي

الأردن ما عدا بلاد «فينيقيا» فكان يعين فيها حكام يلقبون «شوت رش» (قائد حربي) أو «يل-بيجاتي» (رئيس مركز).

وتحدثنا النقوش عن أن ما يقرب من نصف السكان في كل مملكة فتحت كانوا يؤخذون أسرى يحل محلهم أسرى أجانب من «أرمينيا» وغيرها ومستعمرين من «بابل» إلخ، هذا وكان السكان الأصليون في كل حالة تضعف حالتهم لدرجة خطيرة، في حين أن الأجانب الدخلاء كانوا مكروهين من الأهالي بقدر ما كان الآشوريون ممقوتين منهم أيضًا، من أجل ذلك اتحد الأجانب مع الآشوريين النزلاء وعضدوا الحكم الآشوري، والواقع أن ملوك «آشور» السابقين كانوا يأخذون الأسرى المقهورين إلى بلادهم غير أن «تجلات بليزر» كان أول من وضع هذه السياسة المعقولة التي ذكرناها هنا.

وعلى إثر الانتهاء من إخضاع كل البلاد الغربية كانت الأحوال في «مسوبوتاميا» قد سادها الاضطراب، مما دعا «تجلات بليزر» إلى قيامه بحملته الأخيرة هناك؛ وذلك لأن النظام الحسن الذي وضعه في «بابل» نتيجة لحملة ٧٤٥ق.م، كان قد انتقض بموت «نابو ناصير» في عام ٧٣٤ق.م؛ إذ كان ابنه «نابو-نادين-زري» قد قتل في ثورة، واغتصب الملك «أوكين زر» زعيم قبيلة «كالدو» التابعة «لبيت أموقاني»، وكان معنى ذلك قيام اضطراب عام في تلك البلاد، ولذلك قام «تجلات بليزر» بجيشه عام ٧٣١ق.م متجهًا نحو ذلك الغاصب وحاصره في «سابيا» عاصمة «بيت أموقاني»، ولكنه لم يفلح في الاستيلاء عليها، وفي عام ٧٢٩ق.م انتهت هذه الحروب بخضوع قبيلة «كلداني» وهي مملكة «أو كيزير» «وبيت يكن» وهي أرض البحر، وكان ملكها هو «مروداخ-بلادان».

والواقع أن خضوع «مروداخ بلادان» كان من الأهمية بمكان؛ لأنه كان ملك أرض البحر «الذي لم يأتِ إلى حضرته واحد من الملوك آبائي وإنهم لم يقبلوا قدمي» كما يقول ملك «آشور».

عاد بعد ذلك «تجلات بليزر» إلى بلاد آشور من آخر حملة له بعد أن نصب حكامًا على البلاد المقهورة، وقد انتهى حكمه عام ٧٣٠ق.م دون وقوع حوادث تذكر، غير أن «بابل» كان لا يمكن أن تُترك دون تنصيب ملك عليها؛ ولذلك نجد «تجلات بليزر» في عامي ٧٢٩، ٧٢٨ق.م قد أخذ بنفسه يدي الإله «بل» كما كان المعتاد، وبذلك أصبح ملكًا على «بابل» بالاسم والفعل، فكان يعد أول عاهل آشوري حمل هذا اللقب منذ عهد الملك «توكولتي نينورتا الأول».

وبعد ذلك بقليل تُوفي «تجلات بليزر» بعد حكم كله مفاخر له، وتولى بعده الملك «شلمنصر الخامس».

أما عن أعمال «تجلات بليزر» الفنية فلا نعرف عنها إلا اليسير، والألواح القليلة التي تركها لنا منقوشة تصور مناظر الحرب العادية التي قام بها، غير أن شواهد الأحوال تدل على أن قصره كان أفخم مسكن أقامه ملك في بلاد «مسوبوتاميا»، فقد كان أعظم ملوك «آشور»

يتخذونه نموذجًا يحذون حذوه، فقد قلده الملك «سنخرب» عندما أعاد بناء قصر «نينوة» كما سنرى بعد.

وعندما نذكر أن أعمال «تجلات بليزر» العظيمة قد أنجزت كلها في مدة حكمه التي لا تتجاوز ثماني عشرة سنة، وأنه حوالي عام ٧٢٨ق.م بسط سلطانه ووطد نفوذه من أول مياه «بيت يكن» الملحة حتى جبال «بكيني» (دمافند) في الشرق، ومن البحر الغربي حتى مصر، ومن أفق السماء حتى سمتها، نقرر بحق أنه أعظم شخصية بارزة في تاريخ «آشور».

ولا يفوتنا بحال أن نذكر هنا بعض حقائق بارزة عن هذه الإمبراطورية في عهد هذا العاهل لنستطيع تقدير استمرار قوة «آشور» في النمو والتطور من أول عهد عاهلها «آشور ناصير بال»، فنلحظ أن إخضاع شمال سوريا في مدة لم تتجاوز ثلاث سنوات كان ممكنًا فقط بسبب أن أسس قوة «آشور» كانت قد وضعت بذورها بحكمة ودراية في عهد أسلافه، أما أقاليم «قوى» (سيليسيا) «وتابال» فقد سقطت في يديه دون حرب؛ لأن «شلمنصر» كان قد أخضعها تمامًا في خمس حملات قام بها في تلك الجهات، يضاف إلى ذلك أن الاعتراف به ملكًا على «بابل» نفسها يجب أن يُعزى إلى أتباع «شلمنصر الثالث» «وأداد نيراري الثالث» ومساعدة السلطة المركزية في «بابل» على «الآراميين» «والكالدو».

أما استيلاؤه على عرش ملك «بابل» والقيام بتأدية واجباتها في مدنية «بابل» نفسها، وهي تلك الواجبات التي اقتضتها ضرورات الموقف فيظهر أنه كان إجراء خارجًا عن هذه السياسة لم يكن مقصودًا، وكان أكبر تقدم قام به «تجلات بليزر» في فتوحه هو بلا نزاع ما أحرزه في الغرب من بلاده من فتوح، وهنا نرى أنه اتبع بكل أمانة سنن أسلافه، هذا إلى أن فكرته بأن «سوريا» يمكن القبض على ناصيتها بقوة يكون في استطاعتها السيطرة تمامًا على مدن «فينيقيا» «وفلسطين» مما يجعله يمد الممتلكات الآشورية الواقعة في طريقه، كانت هي السياسة التي اتبعها أخلافه من ملوك آشور.

والواقع أن بسط السيادة على فينيقيا وإسرائيل لتكون حماية للأقاليم السومرية لم تلبث أن تحولت إلى التسلط المباشر على هذه البلاد، وبالاختصار نجد أن «تجلات بليزر» عندما أراد تنفيذ مرامي «آشور ناصير بال» «وشلمنصر» السياسية قد اتخذ طريقًا لا تؤدي إلا إلى الحملات التي قام بها فيما بعد كل من «إسرحدون» «وآشور بنيبال» كما سنرى.

تحدث بعض المؤرخين عن طريقة نقل هذا الملك لسكان البلاد المقهورة بالجملة، وقد رأى بعض الكتاب أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن «الآشوريين» أن يحكموا بها البلاد التي استولوا عليها بالقوة وحسب، وقد رأى آخرون أن هذا الإجراء كان فيه بذور الضعف في المستقبل؛ لتمزيق روابط الوطنية والدين، ومهما يكن من أمر فإنه ينبغي أن نلحظ هنا أن نقل السكان المفاجئ لم يكن بالأمر الغريب في الشرق القديم، حيث نجد أن قبائل كانت تهجر من تلقاء نفسها بلادها في طلب مساكن جديدة؛ كما حدث مع قبائل «اللوبيين» في عهد «رعمسيس الثالث»، وكما حدث مع قوم «الهكسوس» في مصر في نهاية الأسرة الثالثة

عشرة، هذا إلى أن «تجلات بليزر» قد سار على نهج أسلافه في هذا الأمر، وكان رائده في ذلك خطة سياسية لها بعض الأهمية في إدارة الأقاليم الجديدة التي ضمها إلى ملكه، فنجد أن السكان الآراميين التابعين لمملكة «دمشق» كانوا قد نُقلوا إلى القبائل الآرامية الساكنة على حدود «عيلام»، ونُقل أهل «كالدو» إلى وادي «نهر الأرنت» (العاصي)، ونقل «الإسرائيليون» إلى «آشور»، ومن ثم لا نجد في أية حالة أن السكان الجدد كانوا يختلفون كلية في اللغة والعادات عن القوم الذين سكنوا معهم، وبذلك تخلص الحكام المحليون في المستعمرات الآشورية من الصعوبات التي قد تحدث من وجود أجانب بين أهلهم أنفسهم، هذا إلى أنه كان في مقدورهم أن يوردوا عددًا مُحَسًّا من العمال لأشغال السخرة والخدمة العسكرية في الجيش الآشوري.

(٢٦-٢) الملك شلمنصر الخامس ٧٢٧–٧٢٢ق.م

ليس لدينا سجلات تاريخية الآن عن حكم «شلمنصر الخامس» الذي لم يدم إلا مدة قصيرة، وتدل قائمة ملوك «بابل» على أنه اتبع «تجلات بليزر الثالث» في حكم «بابل» باسم «أولولالي»، وأهم حوادث حكمه تتصل ببلاد فلسطين، فنجد أنه بعد أن دفع «هوشع» الجزية بوصفه تابعًا مخلصًا لملك «آشور» دخل في مؤامرة مع مصر، كما جاء ذكر ذلك في كتاب (الملوك الثاني الإصحاح ١٧)، فثار على سيده ملك «آشور» الذي هاجمه وحاصره في بلدة «السامرة» مدة ثلاث سنوات، والواقع أن ترتيب تاريخ «هوشع» مرتبك، وعلى ذلك نجد أن الأعداد التي ذُكرت في (سفر الملوك الإصحاح ١٨ سطر ٩–١١) لا بد أنها خاطئة؛ وذلك لأن المؤرخ البابلي يقول: إن «شلمنصر» ضرب «شايار إت» (وهي سبرائم المذكورة في التوراة، راجع حزقائيل الإصحاح ٤٧ سطر ١٦).

وهذه الحادثة يمكن أن تكون تابعة لعهد الحصار، ويقول المؤرخ «جوسيفس» نقلًا عن «ميتاندور الصوري» عندما كان يتكلم عن الحصار الذي ضربه «شلمنصر» حول بلدة «صور» وتخريبه لكل بلاد «فينيقيا»، ومن الواضح أن «شلمنصر» قد مات قبل أن تسقط «السامرة» فعلًا، وعلى ذلك فإن الحصار كان قد ابتدئ عام ٧٢٤ق.م ومات الملك في شهر شباط وتسلم زمام الملك من بعد أسرة جديدة.

(٢٦-٣) الملك «سرجون الثاني» وتوطيد الإمبراطورية في عهده ٧٢٢–٧٠٥ق.م

لم يمضِ على موت «شلمنصر الخامس» أكثر من بضعة أيام حتى تولى بعده عرش الملك «سرجون الثاني» (ومعنى سرجون الملك الحقيقي)، ولم تحدثنا الآثار عن أصله، ولكن تدل شواهد الأحوال على أنه كان من فرع بعيد عن بيت الملك.

وبتولي هذا العاهل عرش البلاد أخذ الاهتمام بتاريخ «آشور» يتغير في شكله وفي اتجاهاته، ولا بد لنا هنا من أن نفحص المادة التي في أيدينا للحصول على الخطوط الرئيسية التي كان لها أثر في التطورات الاجتماعية والسياسية في هذا الوقت، مضافًا إلى ذلك القوائم التاريخية والسجلات الحربية التي يمكن الاعتماد عليها في عهود الملوك السابقين، على أن العهد الذي يبتدئ من حوالي عام ٧٢٠ق.م حتى عام ٦٤٠ق.م قد دعم بوثائق كافية كأي عصر من عصور التاريخ القديم لا يجعلنا نميز عهد أسرة سرجون عن عصور الملوك السابقين، والواقع أن التغيير في أهمية هذا العصر يرجع إلى سبب آخر، وذلك أنه إلى عهد هذا العاهل كان تاريخ «آشور» هو قصة أقوام مؤلفة من قبائل اندمج بعضها في بعض، وألفت دولة كان لا بد لها إذا أرادت الأمن والفلاح أن تصبح دولة حربية مسيطرة، وقد أدت الهجرات الغامضة للأقوام المختلفين، وهي تلك الهجرات التي حدثت في خلال القرن الحادي عشر ق.م إلى انهيار المجهود الذي عمل لإقامة إمبراطورية بسرعة يمتد سلطانها على إقليم شاسع أكثر من المعتاد، والواقع أنه منذ القرن التاسع حتى نهاية القرن الثامن كانت عملية النهوض البطيئة من هذا الانهيار وتأسيس نظام إمبراطوري من الأمور التي اقتفى أثرها المؤرخون، فنجد أن «تجلات بليزر» كان بداية سلسلة طويلة من الملوك الفاتحين والحكام الآشوريين الذين وطدوا أركان الدولة الآشورية بقدر ما تستطيعه طاقة بشرية، وإذا استعرضنا تاريخ ملوك «آشور» وجدنا أن الوضع في «آشور» منذ عهد الملك «سرجون الثاني» وما بعده قد تغير تغيرًا محسًّا، فقد واجهت الدولة الآشورية وقتئذٍ ممالك مماثلة لها في القوة مستقلة وهزمتها في كل الجهات المتاخمة لها أو البعيدة عنها، وبالفعل نجد أن الإمبراطورية الآشورية التي اعتلى «سرجون» عرشها قد اصطدمت مع أمم ودول عظمى ذات قوة لا تقل عن قوتها، ففي شرقي نهر الفرات نجد أن القبائل الإيرانية التي هاجرت حديثًا كانت تقوم بمعارضة قوية وتؤلف جبهة موحدة صلبة أكثر من القبائل الأصلية التي كانت تعيش في «ميديا»، وعلى ذلك فإن الحكام الآشوريين على الحدود الشرقية كانوا دائمًا في خطر من أن يهزموا بما لدى العدو من جموع ضخمة، وفي الشمال نجد أن الخوف من خطر مملكة «الأورارتو» (أرمينيا) الذي كان يهدد البلاد باستمرار قد انقلب على حين غفلة إلى رعب من جموع الأقوام المتوحشين الذين كانوا قد أخذوا يدخلون هذه الجهات.

وفي الشمال الغربي ظهرت ممالك وأقوام جديدة في السجلات الآشورية التاريخية، مما يظهر لنا أن «سيليسيا» وهي الإقليم الذي كان الآشوريون يتكلون عليه بوجه خاص في تجارة المعادن الهامة لهم، قد اغتصبه قوم آخرون ليسوا بأقل من «آشور» في المقدرة الحربية.

أما في الغرب فقد تصادمت آشور في فلسطين مع المصالح المصرية، مما أدى حتمًا إلى غزو مصر أو قيام مصر بغزو هذه الجهات دفاعًا عن نفسها.

وفي الجنوب نجد أن قوة بلاد «كالديا» التي كانت آخذة في النمو كان يديرها أمراء لهم سياستهم الماكرة التي كانت ترمي إلى ضم «عيلام» في الجنوب الشرقي إلى أهالي

فلسطين في الجنوب الغربي لمقاومة الحكم الآشوري، مما أدى إلى حدوث مواقع حربية أشد من أية مواقع أخرى واجهها الجيش الآشوري في أية حروب قام بها.

والواقع أن كل حرب قام بها الآشوريون في خلال القرن الأخير من حكمهم في غربي آسيا ٧٢٠–٦٢٠ق.م كانت للدفاع عن كيانهم حتى لو كان الغرض المباشر لها أنها حرب هجومية، وهذا الموقف الدفاعي في تاريخ آشور له ما يماثله بشكل غريب في تاريخ الإمبراطورية الرومانية من أول عهد الإمبراطور «تيبريوس» وما بعده.

ولقد كان من المعتاد عند المؤرخين عند فحص أسباب تدهور وسقوط الدولة الآشورية أن يعلقوا على السرعة التي هوت بها هذه البلاد، ويشيرون إلى أسباب الضعف الداخلية في ذلك البناء الفخم في ظاهره، وهذا النقد على ما يظهر محق، غير أنه لا يحمل كل الحقيقة في ثناياه؛ إذ الواقع أن آشور كانت منهمكة في القيام بمجهود سياسي لم يسبق له مثيل بقدر ما وصلت إليه معلوماتنا.

وقد ذكرنا من قبل أن نظام ضم البلاد المتاخمة وغيرها وحكم المديريات الذي نفذ بكل دقة في آسيا الغربية يميز السيادة الآشورية في شكلها عن أي نظام نفذ سابقًا في «بابل» أو «خيتا» أو في مصر، وهذا يشهد بمقدرة الآشوريين السياسية، فقد كانت ممتلكاتها تهاجم من جهات متعددة بأعداء أقوياء في داخل نفوذهم، وكذلك كانت تهاجم بأمم مهاجرة، ومع ذلك قد بقيت مدة قرن لم تنتقص أطرافها، بل مدت حدودها أكثر من أي وقت آخر، هذا فضلًا عن أنها في السنين الثلاثين الأخيرة من حياتها قد هزمت أعداءها الواحد تلو الآخر إلى أن سقطت هي على يد مملكة قد أخذت معظم فنونها الحربية والسياسية عن آشور نفسها، هذا؛ ونعلم أنه قد نبعت من آشور نفسها مباشرة صورة من صور النظام الدولي الباقي حتى الآن، وأعني بذلك نظام الملكية المعروف بالملكية الشرقية، وعلى ذلك فإن كثيرًا من الانتقادات التي توجه إلى نظام الملكية الشرقية يمكن أن يوجه إلى الحكومة الآشورية تمامًا؛ فهي ركنه الركين.

ومما تطيب الإشارة إليه هنا وتعم فائدته أن نتحدث عن الأعمال الفنية التي نشأت في هذه البلاد وتوحي بنمو وتطور في المستقبل، ونترك جانبًا الأخطاء التي ارتكبها نظام هذه البلاد، وكذلك مما له ثمرة مفيدة أن نذكر من صفات الحكم الآشوري ما أسبغ عليه القوة والثبات مما لم تصل إليه دولة فيما سبق، ونترك جانبًا الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة في بيئة كانت الدول تقوم وتختفي فيها بسرعة في كل عهود التاريخ.

(٤-٢٦) حروب «سرجون»

وعلى الرغم من أن تولي «سرجون الثاني» عرش الملك لم يعارضه فيه أحد فإنه قد اعترضته مشاكل ومصاعب في مختلف أقاليم إمبراطوريته في أوائل حكمه، فقد قام بعدة حملات في مختلف بقاع الإمبراطورية كان بعضها يحدث في وقت واحد في أماكن مختلفة.

وتدل النقوش التي تركها لنا «سرجون» أن مصدر الثورات التي كانت تقوم عليه ينحصر في أربع جهات وهي:

- (١) اتحاد كل من «كالديا» «وعيلام» في جنوب إمبراطوريته لمناهضته.
- (٢) قيام عدة أقوام عليه في الشمال والشمال الشرقي.
- (٣) مناهضة مملكة فرجيا الناشئة في الشمال الغربي من بلاده.
- (٤) انتقاض سوريا وفلسطين على حكمه ومساعدة مصر لهما في الجنوب الغربي.

وقد كان أول ما شغل بال «سرجون» هو بلاد «بابل»، وكان «مروداخ-بلادان الثاني» الحاكم المطلق فيها عام ٧٢١ق.م، ولما كان «سرجون» يرغب في أن يكون هو الحاكم الشرعي لبابل كان لزامًا عليه أن يستولي عليها، فقام بحملة في أول شهر نيسان عام ٧٢١ق.م، ولكن «مروداخ-بلادان» كانت تعاضده بلاد عيلام، وقد زحف فعلًا ملكها على حدود «آشور» واحتل بلدة «دور إيلو» الواقعة على الفرات السفلي، وكان جيش «سرجون» في تلك اللحظة لا يزال يحارب فلسطين لإخضاع بلدة «السامرة» ولكنه زحف بما استطاع جمعه من جيوش في سرعة خاطفة نحو الشاطئ الشرقي للفرات ونازل العدو هناك في موقعة لم تكن فاصلة، إلا أن العيلاميين تقهقروا، وكان في مقدور «سرجون» أن يعاقب الآراميين الذين انحازوا مع «مروداخ-بلادان»، إلا أن الأخير اعترف بسرجون ملكًا على بابل فتركه في هذا الموقف مدة اثنتي عشرة سنة تقريبًا.

وقد كان في مقدور ملك «بابل» في هذه الفترة أن يغير الحياة الاجتماعية في «كالديا»، ولا نزاع في أن الحزب الآشوري في هذه البلاد قد فقد أرضه وسلعه، وكانت القبائل المنضمة إليه تنتظر بطبيعة الحال أن تنال غنائم من هذه البلدان، وإلا فإن التغير كان لا يمكن ملاحظته؛ وذلك لأن الكلدانيين كانوا يعبدون الإله «مردوك» والإله «نابو» وهم في ذلك على السواء مع البابليين، هذا إلى أن لغتهم ومدنيتهم كانت واحدة أيضًا، وعلى أية حال فإنه كان من المؤكد أن المدن الكبيرة قد قاست الأمرين من عسف «مروداخ بلادان» مدة الاثنتي عشرة سنة التي حكمها، وربما كان ذلك هو السبب في شغف القوم «بسرجون» آشور الذي كان لا يهمه إلا تشجيع التجارة ويمقت النهب والسلب، وعلى أية حال فإن حكم «مروداخ-بلادان» في تلك المدة لم يقوَ مركزه على الآشوريين.

ويلحظ أن «عيلام» حليفة «بابل» قد أُهمل سير الأحوال فيها، وفي عام ٧١٧ق.م مات ملك «عيلام» المسمى «خومبابيجاش» وخلفه على عرش الملك آخر يدعى «شونروك-ناخخوتي»، والظاهر أنه كان منهمكًا بأحوال بلاده؛ لأنه عندما بدأ الملك سرجون يوجه نشاطه إلى حدوده الجنوبية لم تتدخل عيلام في زحفه، وكانت خطة الآشوريين في هذا

الزحف حكيمة، فقد كان رجال القبائل الآرامية في شرق دجلة متسلطين على أقصر طريق بين آشور «وبيت يكن»، وهذه الطريق في الوقت نفسه هي طريق المواصلات بين «سوس» «وبابل»، وعلى ذلك وجه «سرجون» ضربة مزدوجة نحو هذه القبائل، فكان غرض إحدى هاتين الحملتين القبائل الآرامية الواقعة على الحدود الشمالية لعيلام، والأخرى القبائل الواقعة بين «سوس» ومصب نهر دجلة، وقد استولى «سرجون» في هاتين الحملتين على مدن عيلامية، كما اشتركت جنود عيلامية في هذه الحرب، غير أن ملك عيلام لم يحرك ساكنًا وقتئذٍ، وعندما استعد «سرجون» عام ٧١٠ق.م للقيام بهجومه الشامل على «مروداخ-بلادان» العاصي أخذ الرعب يدب في نفسه، وقد حاول أن يضم ملك عيلام إليه بالرشوة، ولكنه لم يفلح قط، وعلى ذلك اضطر الجيش الكلدي الذي كان زاحفًا نحو دجلة للانضمام إلى جيش عيلام إلى التقهقر، وكان ذلك نذيرًا بالتسليم العام في كل البلاد الشمالية للملك «سرجون»، وبعد أن اقتحم «سرجون» طريقه في عيلام عسكر بجيشه في قلعة «دور لادينا» الواقعة في بلاد «بيت دا كوري» القريبة من «بابل»، وهناك جاء رسل «بابل» للترحيب بهذا الفاتح، وقد سار «سرجون» في «بابل» على نهج أسلافه مع تغيير طفيف، فقد أخذ يدي الإله «بل» بما يليق من الاحتفال، غير أنه لم يحمل لقب ملك «بابل» مفضلًا أن يحمل اللقب القديم «شاك كانو كو».

ولم تحدث بعد ذلك أية اضطرابات في الجنوب طوال مدة حياة «سرجون»، والواقع أن سياسته كانت حكيمة ناجحة؛ إذ وجدناه في بادئ الأمر منطويًا على نفسه أمام عدو قوي لم يكن في الحسبان ملاقاته دون أن يهزم، ثم انتظر حتى انفصمت عرى التحالف بين كلديا وعيلام، ودبر حملة بمهارة أسفرت عن إخضاع كلديا، وبذلك استولى على بابل غنيمة له في مقابل ذلك، هذا إلى أنه أحاط إقليم عيلام من الشمال بحاميات وأقاليم آشورية فجعلها حبيسة في عقر دارها.

(أ) «أورارتو» (أرمينيا)

كانت مسألة الحدود الشمالية الشرقية والشرقية أهم مسألة حربية تشغل بال «سرجون» طوال مدة حكمه، وكانت الأحوال تدعوه إلى الالتفات إليها، وكانت «أورارتو» يحكمها أمير نشط وهو «روسا» بن «ساردور» منذ سنة ٧٣٣ق.م، ومن المحتمل أنه كان قد مد سلطانه في السنين الأولى من حكمه كثيرًا نحو الشمال والشرق، ففاق بذلك غيره من الملوك الذين سبقوه على عرش هذه البلاد، وقد اضطرته الحوادث التي وقعت في الإقليم الواقع جنوبي بحيرة «أورميا» أن يتخذ سياسة الدس والمخاتلة على الملك «سرجون»؛ وذلك لأن قبائل ميديس Medes كانت تزحف باستمرار نحو الغرب، ولم يكن في مقدوره أن يقضي عليها في حملة واحدة، فحرض رؤساء القبائل على عصيان الملك «سرجون» الذي كان أهم قصد له هو المحافظة على أملاكه في هذا الإقليم، وقد قامت فعلًا الاضطرابات في إقليم «ماناي» عام ٧١٩ق.م، وهذا الإقليم يقع في الجنوب الشرقي من بحيرة «أورميا»، وكان «أرانزو» ملك بلاد «ماناي» تابعًا مواليًا لدولة آشور.

وقد اقتضت سياسته إثارة العصيان بين حكام المديريات الشرقية من مملكته وهاجموا «إرانزو» في بلاده، فلم يلبث أن أرسل عليهم «سرجون» جيشًا هزمهم هزيمة منكرة، واستولى على مدنهم ونقل سكانها إلى الغرب، وبعد ذلك بعامين هدد «إزا» بن «إرانزو» بخطر أشد من السابق، وذلك أن «روسا» ملك «أورارتو» وغيرها من البلاد الموالية له هزموا جنود «إزا» في سفح جبل يقع شرقي بحيرة «أورميا» مباشرة وتركوا جثة «إزا» على الأرض، فسار عليهم «سرجون» على جناح السرعة لنجدة جيش «إزا» فهزم الأعداء في نفس المكان الذي كانت فيه جثة «إزا».

وفي عام ٧١٥ق.م أغرى «روسا» ملك «أورارتو» ملك ماناي المسمى «دايوكو» على الثورة، فجاء إليه «سرجون» في الحال وهزم العدو ونفى «دايوكو» مع أسرته إلى «حماة»، ونهب المراكز التي على حدود «أورارتو»، كما فرض على رؤساء المدن المجاورة الجزية، هذا؛ وكانت الموقعة الحاسمة مع «روسا» في عام ٧١٤ق.م، وقد ظلت «أورارتو» في حرب مع «آشور» حتى تضعضعت في عهد ملكها «أرجيستي» فهزمه «سرجون» غير أنه بقي حاكمًا عليها.

وفي الشمال الغربي وجه «سرجون» عنايته إلى الأراضي التي حول خليج «أيسوس»، ففي أوائل حكمه لم يكن لبلاد سيليسيا حاكمًا قويًّا عليها من قبله وهو «أمباريس»، وكان يسكن على الحد الغربي من مقاطعة «خيلاكو» قوم «موشكي»، وهم قوم «الفريجيون» فيما بعد، وكان «ميتا» ملك هذه البلاد يحرض على قيام الثورة على «سرجون»، وقد اتخذ معه «بيسيريس» ملك «كركميش» وقام بثورة عام ٧١٧ق.م، فزحف عليهم «سرجون» واستولى على «كركميش» وأصبحت ولاية آشورية، وفي عام ٧١٥ق.م قامت مظاهرة على «ميتا» ملك «موشكي» من إقليم «سيليسيا»، وكان «ميتا» هذا قد استولى منذ زمن على اثنتين وعشرين مدينة من مدنها فاسترجعها «سرجون»، وبعد ذلك قام «أمباريس» بن «خولو» بثورة على «سرجون»، وكان «خولو» هذا قد نصبه «تجلات بليزر» ملكًا على بلاد «تابال»، وعلى الرغم مما فعله بيت الملك له ولأبيه، وعلى الرغم من زواجه من ابنة «سرجون» فإنه تحالف مع «ميتا» ملك «موشكي» ومع «روسا» ملك «أورارتو» مما اضطر «سرجون» للقيام بحملة على بلاد «تابال» في عام ٧١٣ق.م.

وقد أخذ «سرجون» بعد ذلك يصرف النظر عن محاولته تنصيب أمراء تابعين له، بل حول هذا الإقليم الهام إلى مديرية آشورية، وفي السنة التالية لذلك جاء دور معاقبة بلاد «ميليد» بسبب الثورة التي قامت بها وغزو ملكها لمديرية «كمانو»، فهزمت ونُفي ملكها وأسرته، وكذلك رؤساء السكان، واستعمرت البلاد بقوم «سوتي»، ثم أقام «سرجون» حصونًا لمقاومة بلاد «موشكو» «وأورارتو» وضمت بلادهما جزئيًّا لملك بلاد «كوماجين» الذي كان مواليًا لسرجون.

وفي عام ٧١١ق.م انتهز «سرجون» فرصة قتل ملك «جمجوم» على يد ابنه واستيلائه على الملك، فغزا بلاده ونفى سكانها ونصب عليها حاكمًا «آشوريًّا» في «مرقاس» (وهي مرعش

الحالية)، ومن المحتمل أن «سرجون» بعد أن لاحظ هذه الاضطرابات في الشمال الشرقي من ممتلكاته صمم على أن يتخذ خطة حازمة مع بلاده «موشكي» التي كان يرى أن ملكها هو السبب في قيام تلك الفتن، وعلى ذلك أمر حاكم مديرية «قوى» بالسير على «ميتا» ملك «موشكي» عام ٧٠٩ق.م، فهزم «ميتا» هزيمة منكرة، ولم يرَ بعد ذلك بدًا من الاعتراف بسيادة «سرجون» ودفع الضرائب له، وبذلك أصبحت مديريات الحدود الآشورية من هذه الناحية آمنة، وقضى على كل مقاومة في الشمال الغربي من «آشور»، وتحدثنا النقوش كذلك أن ملوك «قبرص» السبعة أرسلوا جزيتهم «لسرجون» وأعلنوا تبعيتهم لآشور؛ وذلك لأن كل المواني التي كان هؤلاء الملوك يحملون تجارتهم إليها إلى اليابسة كانت في يد «آشور»، ومن المحتمل كذلك أنه كانت تعسكر حاميات من الجنود الآشوريين في الجزيرة نفسها، هذا ويدل وجود لوحة باسم «سرجون» في بلدة «سيتيوم» بقبرص على سيادة الآشوريين وسيطرتهم على هذه الجزيرة.

وفي عام ٧٠٨ق.م قضي على آخر الأمراء التابعين «لآشور» في هذه الجهة، وذلك أن «ماتلو» ملك «كموخ» قد حرضه «إرجستي» ملك «أورارتو» على الامتناع عن دفع الجزية «لآشور»، فحاصر «سرجون» عاصمة بلاده واستولى عليها، ولكن ملكها هرب أمامه، فحول «سرجون» بلاده إلى مديرية آشورية بدلًا من مديرية تابعة.

والواقع أن الأهمية الرئيسية في التحول الذي جرى في المديريات الشمالية الغربية هو ما نلحظه من تغير تام في سياسة «سرجون» منذ سنة ٧١٣ق.م، وذلك أنه رأى أن سياسة إقامة أقاليم تابعة له على حدود مملكته قد أدت إلى الفشل في كل عهد التاريخ «الآشوري»، وبخاصة في الأقاليم التي يمكن للثوار أن يعتمدوا فيها على مساعدة بلاد «موشكي» ومملكة «أورارتو» في الخفاء دون أن تمد الثوار بجنود، مما يدل على خوفهما من سلطان «آشور»، ومن أجل ذلك صمم «سرجون» على ضم كل هذه الأقاليم المجاورة لبلاده وجعلها تحت حكمه مباشرة، وبذلك يمكنه أن يعتمد على حاكمه فيها لقمع أية ثورة تشب في أية ناحية من نواحيها.

(ب) حروب «سرجون» في «سوريا» «وفلسطين» ومساعدة مصر لهما

كان أول بدء المناوشات بين آشور ومصر في عهد الملك «سرجون» وذلك خلال حروبه في سوريا وفلسطين، ومن ثم أخذ الاحتكاك بين الدولتين يزداد شيئًا فشيئًا إلى أن انتهى الأمر بغزو آشور بلاد مصر والاستيلاء عليها مدة من الزمان، وقد كانت المناوشات التي قامت بين الدولتين أمرًا طبعيًّا؛ وذلك لأن مصر كانت ترى أن استيلاء آشور على سوريا وفلسطين يهدد كيانها.

هذا فضلًا عن أنها هي الدولة الوحيدة التي لها حق السيطرة على بلاد فلسطين وسوريا؛ لأنها كانت من ممتلكاتها منذ أزمان سحيقة، ولم تنفصل عنها تقريبًا إلا في فترات تكاد لا تذكر، فلما بدأت آشور في تثمير هذه البلاد أخذت مصر في مساعدة هذه البلاد سرًّا أحيانًا، وبالتحريض والدس إلى أن أعلنت الحرب بين مصر وآشور جهارًا لهذا السبب.

وقد كان ملوك آشور يعطون عناية خاصة للأقاليم الواقعة غربي بلادهم، فكانوا يرسلون الحملات على سوريا وفلسطين ومدن ساحل البحر الأبيض المتوسط كلما قامت ثورة هناك، فلما تولى «سرجون» الملك وقعت في سوريا وفلسطين حادثة من الأهمية بمكان بعد توليته مباشرة، وذلك أن «شلمنصر الخامس» مات قبل أن ينتهي الحصار الذي أقامه على السامرة بعد انتصار الآشوريين عام ٧٢٢ق.م، ولا نعلم على وجه التأكيد إذا كان قد حدث في تلك الآونة نفي السكان الأسرى من هذه الجهة، وجلب سكان أسرى من قوميات مختلفة مكانهم، وأنه كان من بين هؤلاء أسرى من العرب في السامرة في عام ٧٢٢-٧٢١ق.م أو كان وفودهم إلى السامرة قد حدث فيما بعد، ومن المحتمل أن هذا الإجراء الذي جعل السامرة مقاطعة آشورية لم يكن قد فُرض على أهلها إلا بعد أن انضمت البقية الباقية من إسرائيل إلى الحلف العظيم الذي أُلِّف لمقاومة «سرجون» عام ٧٢٠ق.م، وقد كان المحرض على تأليف هذا الحلف ملك «حماة» المسمى «ياوبيدي» (وكذلك يسمى المولياوبيدي)، ومن المعلوم أن «حماة» كانت قد خضعت للملك «شلمنصر الثالث»، والظاهر أنها ظلت إمارة تابعة لآشور منذ ذلك الوقت، ومن المحتمل أن «ياوبيدي» هذا كان يأمل في أن ينال نجاحًا بحلفه هذا على غرار النجاح الذي ناله «مروداخ-بلادان»، أو يجوز أن الأخير قد تآمر معه ليضمن نجاح هذا العصيان في الغرب.

وهي سياسة اتبعها فيما بعد، والحلف الذي ألفه «ياوبيدي» كان من طراز خاص؛ إذ لم يكن تابعًا لآشور إلا هو وأمير آخر هو «هنونو» أو «خنو» أمير غزة، أما البلاد الأخرى التي انضمت إلى هذا الحلف فكانت أقاليم آشورية وهي «إرباد»، «وسميرا»، «ودمشق»، ثم «ساميرينا»، ولم تذكر لنا النقوش الأسباب التي أدت إلى انضمام هذه المديريات لهذا الحلف والقيام بعصيان على آشور، وإذا كان الحكام الآشوريون قد اشتركوا في هذه المؤامرة فقد كان من الطبيعي ومن الأمور المنتظرة أن يعلن «سرجون» ما وقعه عليهم من عقوبات في نقوشه، من أجل ذلك ينبغي أن نعزو هذا العصيان إلى السكان أنفسهم، وأنه حدث في الأماكن التي اشترك سكانها في الثورة، وهذا بلا شك هو سبب الاضطراب في «حماة» لأم ملكها «ياوبيدي» على ما يظهر كان قد قتل أميرها «إني إيل» الحاكم على «حماة» وعزله، ثم رفع راية العصيان بعد ذلك، وقد كان في مقدوره هو وحلفاؤه أن يؤلفوا جيشًا عظيمًا لمحاربة سرجون في مدينة «قرقار»، وقد انتصر سرجون على هذا الحلف انتصارًا ساحقًا كان من نتائجه أسر «ياوبيدي» وإخضاع «حماة» وجعلها ضمن أقاليم آشور، وقد كان ذلك من مصلحة الآشوريين بدرجة عظيمة؛ إذ بذلك أصبح الأمير الوحيد المستقل في سوريا ضمن كتلة الأقاليم الغربية التابعة لآشور، وبعد هذا النصر زحف «سرجون» بجيشه لمقابلة «حنونو» ملك غزة الذي كان جيشه قد تأخر لسبب ما عن الاشتراك في الموقعة التي هزم

فيها ملك «حماة»، ومن المحتمل أن هذا التأخير كان سببه انتظار مدد عسكري من مصر، وكان أمير غزة هذا على ود ومصافاة مع الدولة المصرية، فقد هرب إليها كما نعلم في عهد «تجلات بليزر الثالث»، وفي هذا الموقف الحرج أتى لنجدته «سبا» (شباكا) قائد الجيش المصري الأعلى في هذه اللحظة.

وقد قامت مناقشات عدة عن «سبا» أو «سبو» هذا، فقد وحده كثير من المؤرخين بملك مصر «شبكا» كما جاء في التوراة (راجع كتاب الملوك الثاني الإصحاح ١٧ سطر ٤ وما بعده) حيث يقول: «ووجد ملك آشور في «هوشع» خيانة؛ لأنه أرسل رسلًا إلى «سو» ملك مصر، ولم تؤد جزية إلى ملك آشور على حسب كل سنة، فقبض عليه ملك «آشور» وأوثقه في السجن، وصعد ملك «آشور» على كل الأرض، وصعد إلى الساحرة وحاصرها ثلاث سنين، في السنة التاسعة «لهوشع» أخذ ملك آشور الساحرة، وسبى إسرائيل إلى آشور، وأسكنهم في «كالح» «وخابور» نهر جوزان وفي مدن «مادي».»

غير أنه من الواضح تمامًا من السجلات الآشورية أن «سبا» لم يكن فرعون مصر وقتئذٍ، وأن توحيده بهذه الكيفية فيه شك، ويقول المؤرخ «هول» في هذا الصدد ما يأتي: لما كانت نظرية وجود أرض لم تُعرف حتى الآن تحمل نفس الاسم الذي تسمى به مصر وهو «موصور» في شمال بلاد العرب ينسب إليها «سيف» وهو «سبو» كما يسميه «الآشوريون»، «وبرعو موسري» قد ذكر كذلك في النقوش الأثرية الآشورية، قد أصبحت غير مقبولة بوجه عام فقد رجعنا إلى الأصول فاتضح منها توحيد اسم «سبو» أو «سيبو» باسم «شبكا» (وهو الذي يسمى عند الإغريق «سبيكس») «وبرعوموسري» بفرعون مصر، ومن المحتمل أن ذكر الملك «سيف» في التوراة بمناسبة «هوشع» في عام ٧٢٥ق.م يعد وضعًا خاطئًا لهذا التاريخ بالنسبة لانتصار «سرجون» في موقعة «رفح» في عام ٧٢٠ق.م، عندما ذكر «سيبو» بوصفه قائد فرعون الأعلى «تورتان» وأنه هزم على يد الآشوريين ولم يذكر في عام ٧٢٥ق.م، ولا بد أن نفرض أن «سيبو» «وسبو» هما شخص واحد، وعلى ذلك لا بد أن نتبع ما جاء في الوثائق الآشورية المعاصرة ونعد تاريخ حرب «سيبو» وقع في عام ٧٢٠ق.م، بدلًا من ٧٢٥ق.م كما جاء في التوراة، وعلى ذلك فإن احتمال توحيد «سيبو» «وسو» بالملك «شبكا» يكون واضحًا.

ومن الطبعي أن الملك «بيعنخي» عندما ترك مصر إلى عاصمة ملكه في «نباتا» قد ولى «شبكا» الذي لم يكن بعدُ ملكًا على مصر قائدًا لجيش الدلتا في مصر، ثم يقول المؤرخ «هول» في ملاحظة: إن موضوع الكشف عن اسم «سيبو» بوصفه ملكًا موضوعًا في طغراء على تمثال مجيب في برلين لم يُعرف تاريخه بالضبط من الأمور المشكوك فيها، وهذا الاسم هو «خو-توي-رع-سب»، ولا يمكن أن نقبل هذه القراءة إلا إذا نشرت نقوش هذا التمثال نشرًا علميًّا واضحًا.

(ج) المتون الآشورية التي وصلت إلينا عن حروب «سرجون الثاني» مع بلاد سوريا وساحل البحر الأبيض

تحدثنا باختصار عن الحروب التي قام بها «سرجون الثاني» في مملكته الغربية؛ أي في «سوريا» «وفلسطين» وموانئ البحر الأبيض المتوسط وقبرص، ومساعدة مصر لهما خفية، وسنحاول هنا أن نستعرض المتون الآشورية التي وصلت إلينا حتى الآن عن هذه الحروب؛ لأهميتها في تاريخ الشرق الأدبي، وبخاصة عندما نعلم أن هذه البلاد كانت تؤلف أحلافًا فيما بينها عندما كانت تشعر أن الخطر الأجنبي كان يهدد كيانها فتفسد عليه خططه، وكانت مصر دائمًا هي السند العظيم لهذه البلاد تساعدها، لا حماية لها وحسب، بل لحفظ كيانها نفسها.

وهاك النصوص التي وصلت إلينا حتى الآن عن حروب «سرجون الثاني» في هذه الجهات:

أولًا: نقش وصفي عام.[٢٨]

- (١) «سرجون» ملك آشور ... إلخ فاتح «سماريا» وكل «بلاد» «إسرائيل» (بيت عمري)، والذي ضرب «أشدد» «وشنوهتي»، والذي اصطاد الإغريق الذين «يسكنون على الجزر» في البحر مثل السمك، والذي قضى على «كاسكو» وجميع بلاد «تبالي» «وسيليسيا» (خيلاكو) والذي طارد «ميداس» (ميتا) ملك «موسكو»، وهزم «موصور» (= مصر) في «رفح»، والذي أعلن أن «هانو» ملك غزة بمثابة غنيمة، والذي أخضع سبعة الملوك الحاكمين لبلاد «يا»، وهو إقليم في جزيرة قبرص، وهم الذين يسكنون «جزيرة» في البحر «على مسافة» مسيرة سبعة أيام.

- (٢) وكذلك من لوحة تدعى لوحة قبرص نقرأ ما يأتي: «لقد حطمت كالفيضان العاصف بلاد «حماة» جميعًا، وقد أحضرت ملكها «ياوبيدي» وأسرته ومحاربيه في الأغلال أسرى من بلاده إلى «آشور» وقد ألفت من هؤلاء الأسرى فرقة تتكون من ثلثمائة عربة وستمائة فارس مجهزين بدروع من الجلد وحراب وأضفتهم إلى حرسي الملكي، وقد أسكنت ٦٣٠٠ آشوريًّا ممن يعتمد عليهم في بلاد «حماة» ونصبت ضابطًا من رجالي حاكمًا عليهم وفرضت عليهم جزية.

أما سبعة الملوك أصحاب «يا» وهو إقليم في جزيرة قبرص يقع في وسط البحر الغربي على مسافة مسيرة سبعة أيام، فقد كانت بلادهم بعيدة جدًّا، لدرجة أنه لم يسمع واحد من الملوك أجدادي بأسماء بلادهم تذكر منذ الأيام البعيدة جدًا، فقد عرفوا وهم بعيدون جدًّا

في وسط البحر، الأعمال العظيمة التي أحرزتها في «كالديا» وفي بلاد «خيتا»، وقلوبهم بدأت تدق وانصب عليهم الرعب، وقد أرسلوا إليَّ في بابل ذهبًا وفضة وأشياء مصنوعة من الأبنوس وخشب البقس، وهي كنوز بلادهم، وقبلوا قدمي.»

(٣) ومن التقارير الحولية نقرأ ما يأتي[٢٩] من السنة الأولى من حكمه:

في بداية حكم الملك أنا … بلد السامريين حاصرتها وفتحتها «يلي ذلك سطران مهشمان»، «لأجل الإله … الذي» جعلني أحرز هذا النصر … وقد سقت سجناء ٢٧٩٠٠ من سكانها، وجهزت من بينهم جنودًا ليقودوا خمسين عربة لأجل حرسي الملكي … وقد أعدت بناء المدينة بأحسن مما كانت عليه من قبل، وأسكنت فيها أناسًا من ممالك فتحتها «أنا» نفسي، ونصبت ضابطًا من ضباطي حاكمًا عليهم، وفرضت عليهم ضرائب كما «هي العادة» للمواطنين الآشوريين.

(٤) من نقش استعراضي:[٣٠] نقش ما يأتي: «لقد حاصرت وفتحت «سماريا» وسقت غنيمة ٢٧٢٩٠ نسمة من سكانها، وقد ألفت من بينهم فرقة لخمسن عربة، وجعلت السكان الباقين يأخذون أماكنهم «الاجتماعية»، وقد نصبت عليهم ضابطًا من ضباطي، وفرضت عليهم ضرائب الملك السابق، أما «هانو» ملك غزة وكذلك «سبا» (شبكا) قائد مصر وحاكمها فقد سار من «رفح» علي، فقابلتهما في موقعة فاصلة فقهرتهما، وقد فر «سبا» (شبكا) خائفًا بمجرد أن سمع ضوضاء جيشي الزاحف، ولم يُرَ بعدُ ثانية، أما «هانو» فقد قبضت عليه شخصيًّا، وتسلمت جزية من فرعون مصر، وكذلك تسلمت من «سماس» ملكة العرب ومن «إتامار السبئي» ذهبًا في صورة تبر وخيلًا وجمالًا.»

الاستيلاء على «أشدد»:[٣١] وعندما خاف «أماني» ملك «أشدد» قوتي المسلحة ترك زوجه وأولاده وفر إلى حدود مصر التي كانت تابعة «لملوخا» (إثيوبيا أو كوش)، وبقي هناك كاللص، فنصبت ضابطًا من ضباطي حاكمًا على كل بلاده الواسعة وأهلها الموسرين، وبذلك وسعت ثانية الإقليم التابع لآشور ملك الآلهة.

وعلى أية حال فإن فخار «آشور» سيدي الذي يبعث الفزع قد تغلب على ملك «ملوخا» (بلاد كوش)، فألقى به «أي إماني» في الأغلال في يديه وفي قدميه وأرسله إلى بلاد «آشور»، وقد

فتحت ونهبت بلاد «شينوهتي» «وسماريا» وكل «إسرائيل» (حرفيًّا أرض عمري)، وقبضت على الإغريق «أهل أيونيا» الذين يسكنون في وسط البحر الغربي.

تحالف غزة مع مصر: «السنة الثانية من حكم سرجون»:[٣٢] «وفي السنة الثانية من حكمي «الوبيدي» (من حماة) ... أحضر جيشًا كبيرًا عند بلدة «قرقار» (ناسين) الأيمان «التي عقدوها» ... مدائن «أرباد» «وسميرا» «ودمشق» «وسماريا» ثاروا على «يأتي بعد ذلك فجوة في المتن لا يُعرف مقدارها» وقد عقد «هانو صاحب غزة» معه «أي فرعون مصر» اتفاقًا، وقد دعا (الفرعون «سبا») «شبكا» قائده «تورتان» لمساعدته «أي مساعدة هانو»، وزحف «شبكا» للنزال في موقعة فاصلة، وقد حاقت بهما «أي هانو وشبكا» هزيمة، وذلك على حسب أمر وحي أعطاه سيدي آشور، وقد اختفى «سبا» (شبكا) كالراعي الذي سرق قطيعه وفر وحده واختفى، أما «هانو» فقد قبضت عليه شخصيًّا وأحضرته معي في الأغلال إلى بلدتي «آشور»، وقد ضربت «رفح» وهدمت جدرانها وأحرقتها، وسقت ٩٠٣٣ أسيرًا من سكانها بأمتعتهم العديدة.»

الاستيلاء على «حماة»: وعلى حسب نقش استعراضي آخر[٣٣] نقرأ ما يأتي عن الاستيلاء على «حماة»: «لقد دبر «ياوبيدي» صاحب «حماة» وهو فرد من العامة ليس له حق في العرش وخيتى ملعون ليصير ملكًا على «حماة»، وحرض مدن «أرواد» «وسميرا» «ودمشق» «وسماريا» على أن تتنحى عني، وجعلها تتعاون وتؤلف جيشًا، فجمعت جموع جنود «آشور» وحاصرته هو وجنوده في «قرقار»، وهي مدينته المحببة إليه، ففتحها وأحرقتها، وقررت السلام والوئام ثانية، وقد ألفت فرقة من خمسين عربة وستمائة فارس من بين سكان «حماة» وأضفتهم لحرسي الملكي.»

محاربة «قرقميش»: في السنة الخامسة من حكم «سرجون الثاني»:[٣٤] «وفي السنة الخامسة من حكمي نقض «بيزيري» حاكم «قرقميش» الميثاق الذي أخذه على نفسه مع الآلهة العظام، وكتب رسائل إلى «ميداس» ملك «موشكي» مفعمة بالخطط العدائية لآشور، فرفعت يدي «تضرعًا» لربي «آشور» «فقد أدى ذلك إلى» أن جعلته هو وأسرته يخضعون بسرعة «أي يخرجون» من «قرقميش» وكلهم في الأغلال، ومعه الذهب والفضة ومتاعه الخاص، أما سكان «قرقميش» الثائرون الذين كانوا يعضدونه فقد سقتهم أسرى وأحضرتهم إلى «آشور»، وقد ألفت من بينهم فرقة من خمسين عربة ومائتي فارس وثلاثة آلاف جندي من المشاة وأضفتهم إلى حرسي الخاص، وقد أسكنت في مدينة «قرقميش» مواطنين من آشور وجعلت على عاتقهم «نير آشور» ربي».

إخضاع ثمود وغيرها في السنة السابعة من حكم «سرجون الثاني»:[٣٥] «وعلى حسب وحي صادق مشجع أوحى به ربي «آشور» وطئت قبائل «ثمود» «وأباديدي» «ومارسيمانو» «وهيابا»، وهم العرب الذين يقطنون بعيدًا في الصحراء والذين لا يعرفون رؤساء عليهم ولا موظفين، وهم الذين كانوا حتى الآن لا يحضرون جزية لأي ملك، فنقلت أحياءهم وأسكنتهم في «سماريا».

وتسلمت من فرعون ملك مصر ومن «سامسي» ملكة بلاد العرب «وإتامر السبئي» «وهؤلاء هم ملوك الشاطئ» ومن الصحراء هدايا تبر من الذهب وأحجارًا كريمة وعاجًا وحبوبًا وأبنوسًا «هذه الحبوب من عقاقير «مسوبوتاميا»» وكل أنواع المواد العطرية، وتسلمت كذلك خيلًا وجمالًا.»

ثورة «أزوري» ملك «أشدد» وخلعه عن الملك السنة الحادية عشرة[٣٦] من عهد «سرجون الثاني»: «صمم «أزوري» ملك «أشدد» على عدم دفع ضريبة، وأرسل رسائل مفعمة بالعداء لآشور إلى الملوك الذين كانوا يقطنون بجواره، وبسبب هذا الإثم الذي ارتكبه عزلته عن حكم سكان بلاده، ونصبت بدلًا منه «أهيميتي» أخاه الأصغر ملكًا عليهم، غير أن هؤلاء الخيتيين الذين كانوا دائمًا يدبرون الغدر قد كرهوا حكم «أهيميتي» ونصبوا بدلًا منه في الحكم إغريقيًا لم يكن له أي حق في العرش، وقد كانوا لا يعرفون أي احترام للسلطة، «وفي حالة غضب مفاجئ» سرت بسرعة في عربتي الملكية، ولم يكن معي إلا خيالتي الذين لم يفارقوا جانبي حتى في البلاد المهادنة إلى «أشدد» مقره الملكي، فحاصرت وفتحت مدن «أشدد» «وجات» (جيمتو) «وأشدوديمو»، وأعلنت أن الآلهة القاطنين فيها وهو نفسه وكذلك سكان بلاده والذهب والفضة ومتاعه الخاص غنيمة، وأعدت نظام هذه المدن، ونصبت ضباطًا من ضباطي حكامًا عليهم، وأعلنت أنهم مواطنون آشوريون، وبذلك أصبحوا تحت نيري.»

ولدينا نقش آخر احتفالي يصف لنا نفس الموضوع السابق مع بعض إيضاحات جديدة عن مصر.[٣٧]

إن «أزوري» ملك «أشدد» قد صمم على عدم دفع الجزية وأرسل رسائل مفعمة بالعداء «لآشور» إلى الملوك الذين يعيشون بجواره، وقد كان من جراء هذا العمل الذي ارتكبه أني محوت حكمه على قوم مملكته، ونصبت «أهيميتي» أخاه الأصغر ملكًا عليهم غير أن هؤلاء الخيتيين الذين كانوا دائمًا يدبرون أعمال السوء كرهوا حكمه ونصبوا إغريقيًا حاكمًا عليهم، وعلى الرغم من عدم وجود أي حق له في إدعاء العرش لم يكن يكنُّ أي احترام للسلطة، فكان في ذلك مثلهم، وفي حالة غضب مفاجئة لم أنتظر حتى أجمع كل جيشي أو لأجهز معدات المعسكر، ولكن سرت نحو «أشدد» ولم يكن معي غير محاربيَّ الذين كانوا حتى في الأماكن المسالمة لا يفارقون جانبي، ولكن هذا الإغريقي سمع عن تقدم حملتي من بعيد وهرب إلى مصر، وهي التي كانت الآن ملك «إثيوبيا» (ولم يمكن الكشف عن المكان الذي اختبأ فيه) وقد حاصرت وهزمت مدن «أشدد» «وجات» «وأشدوديموا»، وقد أعلنت أن صوره وزوجه وأولاده وكل متاعه وكنوز قصره وكذلك كل سكان بلاده غنيمة، وأعدت نظام إدارة هذه المدن وأسكنت فيها أناسًا من أقطار الشرق التي فتحتها شخصيًا، ونصبت ضباطًا من ضباطي عليهم، وأعلنت أنهم مواطنون آشوريون، وبهذه الصفة جروا سيور نيري «أي أصبحوا تحت سلطاني»، وملك «إثيوبيا» الذي يسكن «في مملكة بعيدة» في إقليم لا يمكن الاقتراب منه؛ إذ كانت الطريق إليه … ومَن آباؤهم لم يرسلوا رسلًا من أزمان بعيدة حتى الآن عن صحة أجداد الملوك، فقد سمع على الرغم من بعد المسافة بقوة الآلهة «آشور»، «ونبو»، «ومردوك»، وقد أعماه ما يبعثه رهبة فخار ملكي واستولى عليه الفزع، من أجل ذلك

ألقي به «أي الإغريقي الحاكم المغتصب لملك أشدد» في السلاسل والأغلال ومقابض من حديد وأحضروه إلى «آشور»، وهو سفر طويل.

ولدينا متن مهشم على مكعب[٣٨] جاء فيه ذكر مصر:

> ... في إقليم بلدة «نخال موسور» (ومعناه حرفيًّا بلدة نهير مصر، وموقع هذا النهير غير مؤكد، وقد وُحّد بالخليج الذي بين مصر وفلسطين)، وقد جعلت جيشي يقطع الطريق عند الغروب ... شيخ بلدة «لابات» ... «شلكاني» أو «شلهيني» ملك مصر الذي ... سخر آشور، سيدي الذي يبعث الفزع، قد تغلب عليه فأحضر هدايا اثني عشر جوادًا عظيمًا من مصر ليس لها مثيل في هذه البلاد.

ولدينا نقش آخر من مكعب مهشم خاص بملك أشدد وما حدث له، جاء فيه ذكر مصر.[٣٩]

وهاك النص:

> «أزيرو» ملك أشدد ... بسبب هذه الجريمة من ... «أهيميتي» ... أخاه الأصغر «عليهم ...» وجعلته حاكمًا ... جزية ... مثل الملوك السابقين فرضتها عليه «ولكن هؤلاء» «الخيتا» الملعونين قد فكروا في عدم دفع الضرائب، وبدءوا بثورة على حاكمهم فطردوه ... «أمانو» وهو إغريقي من عامة الشعب وليس له حق في إدعاء العرش ليكون ملكًا عليهم، وقد جعلوه يجلس على نفس العرش الذي كان عليه سيده السابق، «وهم ...» بلدهم للهجوم؟ «يأتي بعد ذلك فجوة قدرها ثلاثة أسطر» ... في جوارها وجهزوا خندقًا عمقه عشرون + س ذراعًا، وقد وصل عمقه حتى الماء السفلي لأجل أن ... وبعد ذلك نشر أكاذيب لا حصر لها عند حكام فلسطين «ويودا» «ومواب» وعند سكان الجزائر، وأحضروا جزية وهدايا لرب «آشور»، وقد نشر أكاذيب لا حصر لها ليقصيهم عني، وكذلك أرسل رشوة لفرعون ملك مصر وهو مستبد عاجز عن خلاصهم وسأله أن يكون حليفًا، ولكني أنا «سرجون» الحاكم الشرعي المخلص لما ينطق به «نبو» «ومردوك» قد حافظت على أوامر الإله «آشور» وسرت بجيش إلى دجلة والفرات في وقت قمة فيضانهما؛ أي فيضان الربيع كأنه أرض جافة، وعلى أية حال فإن هذا الإغريقي ملكهم الذي وضع ثقته في قوته نفسه فلم يخضع لحكمي «المنزل من عند الإله» قد سمع باقتراب حملتي وأنا لا أزال بعيدًا فتغلب عليه بهاء رب «آشور» ... فر ...

ولا نزاع في أن هذه النقوش التي ترجع كلها إلى عصر «سرجون الثاني» تكشف لنا عن عدة حقائق عن مصر في تلك الفترة، فنرى أولًا أنها كانت تساعد فعلًا مدن فلسطين وسوريا على

التخلص من النير الآشوري، فقد تحالفت مع غزة وحاربت آشور في موقعة هزم فيها جيش مصر وجيش غزة عند «رفح» وهرب قائد الجيش «شبكا»، وكذلك نجد أن مصر كانت تحمي الفارين من حكام البلاد الذين تحت السيطرة الآشورية، غير أنها كانت تسلمهم ثانية إلى ملك آشور، مما يدل على قوة هذا الملك وخوف ملك مصر وكوش منه، فقد أعاد إليه حاكم أشدد، هذا ونجد ملك مصر يقدم الهدايا إلى ملك آشور، كل هذا يدل على خوف ملك مصر والسودان من ملك آشور، ولكن هذه الحقائق التي نثبتها هنا هي من جانب واحد وهو الجانب الآشوري وحده، ومما يؤسف له جد الأسف أنه لم يصل إلينا حتى الآن أية وثيقة مصرية عن علاقة مصر ببلاد آشور في هذا العهد، ولذلك سيبقى مصدرنا الوحيد عن هذا العصر من جانب واحد وهو الجانب الآشوري، وفيه من المبالغة ما فيه، حتى قيل إن ملك مصر والسودان في ذلك العهد كان يقدم جزية لملك «آشور».

(د) خاتمة حياة «سرجون»

كانت آخر حملة قادها «سرجون» في الشمال الغربي من إمبراطوريته، ولا نزاع في أن تدبير هذه الحملة ونتيجتها يمكن اعتبارها مقياسًا لقدرة «سرجون الثاني» بوصفه رجل سياسة وقائد حرب، فقد كانت الهزيمة التي حاقت بملك «أورارتو» (أرمينيا) المسمى «أرجستي» في عام ٧٠٧ق.م بمثابة نذير لملك «آشور» بخطر جموع قوم السميريين على حدوده الشمالية، وقد صمم «سرجون» على مقابلة هؤلاء القوم المتوحشين في الحال عند النقطة التي كانوا يزحفون منها على حدوده، فسار بجيشه عام ٧٠٦ق.م إلى «تابال» وقابلهم في موقعة عام ٧٠٥ق.م، وعلى الرغم من سقوط سرجون قتيلًا في ميدان الحرب في هذه الموقعة فإن سياسته كانت قد حققت أكثر مما كان ينتظر، وذلك بما وصل إليه من نتيجة، فلم نعد نسمع بعدُ بتقدم هام من ناحية هؤلاء السميريين المتوحشين في خلال مدة حكم خلفه الملك «سنخرب»، وليس من السهل علينا أن نقدر هذا العمل الذي قام به «سرجون» أكثر مما يجب؛ إذ لا نزاع في أن «سوريا» بل ومن الجائز كل غربي آسيا كانت مدينةً بخلاصها من الغزو في هذا الوقت للحملة التي فقد فيها «سرجون» حياته؛ وذلك لأن قوم السميريين كانوا قد أصبحوا في زوايا النسيان لمدة عدة سنين انقضت بعد هذه الموقعة، وقد تُركوا يهيمون على وجوههم في الأراضي المجهولة في داخل آسيا الصغرى، أما جثمان «سرجون» الذي ظل في ميدان الموقعة فقد عثر عليه بين القتلى وحمل إلى آشور.

ولا ريب في أنه يظهر لنا مما ذكرناه سابقًا عن حكم «سرجون» في أقاليم إمبراطوريته المختلفة البرهان المبين عن نشاطه ومقدرته، ومع ذلك فقد كان من البشر، عرضة لارتكاب أخطاء، وأظهر هذه الأخطاء اختياره لموقع عاصمته الجديدة التي سماها باسمه «دور-شاروكين» (أي بيت سرجون) تعظيمًا لنفسه، وتقع في الشمال من «نينوة» على شاطئ مجرى صغير يصب في دجلة من الشرق، وهي المعروفة الآن باسم «خورسباد»، ولا غرابة إذا وجدنا أن أخلافه قد هجروها، غير أنها بقيت بمثابة حصن، وعلى أية حال ينبغي أن نلحظ هنا أن السبب في اختيار «سرجون» لهذا الموقع يرجع على الأرجح إلى انهماكه في

المسائل المتعلقة بحدوده الشمالية الشرقية، فمن بلدة «دور شاروكين» (خورسباد) كان يمكنه أن يجمع ويرسل بطريقة أسهل معلومات إلى حكامه على هذه الحدود، والواقع أن هذه المدينة وما أنفق عليها من أموال طائلة كان لإشباع شهوة شخص واحد، وهو الملك الذي هُجرت على أثر وفاته؛ أي «سرجون الثاني»، وهذا العمل يتناقض مع ما كان عليه كل من «شلمنصر الثالث» والملك «سنخرب» من حسن اختياره لعاصمته، فإن كلا منهما كان ينظر في اختياره بمنظار الحقائق المفيدة، فقد صرف كل منهما مجهوده وأمواله على تحسين مدن «آشور» «وكالح» «ونينوة» عواصم البلاد الطبيعية، مراعيًا في ذلك الفوائد الحقيقية التي كانت تعود على الإمبراطورية.

ويمتاز فن النحت في عصر «سرجون الثاني» بإبرازه باتساع وجلال، وبخاصة نحت الأشكال البشرية، أما في الفن عامة فليس هناك تقدم يذكر على وجه عام.

أما في الأدب فنجد أن المعلومات التي جمعها تبعث فينا حب الاستطلاع أكثر مما تمدنا به من معلومات عن التطورات التي حدثت في عهده، فمن الجائز أن هذا الملك كان يدير بنفسه نسخ متون منوعة خاصة بالأعمال العظيمة التي قام بها «سرجون أجادي الأول»، أما ما خصصه من عناية للتفاصيل الجغرافية فكان في الواقع سببه اهتمام «سرجون» شخصيًّا بالفنون الحربية.

وعلى أية حال فإن «سرجون» لم يكن ملكًا عظيمًا وحسب، بل كان كذلك رجلًا مثقفًا نحس فيه نفس الذوق الفني والمجهود الأدبي اللذين يمتاز بهما أخلافه من الملوك العظام.

(٥-٢٦) عصر الملك «سنخرب»[٤٠] ٧٠٥–٦٨١ق.م

خلف «سنخرب» والده «سرجون الثاني» على عرش الملك عام ٧٠٥ق.م، وتحدثنا النقوش بأن والده قد دربه على أساليب الحكم وفنون الحرب، وتدل رسائله التي كتبها لوالده عن شئون الحدود الشمالية للدولة على أن واجباته باعتباره وليًّا للعرش كانت تحتم عليه أن يقوم بنصيب وافر في مهام الحكم، والظاهر أنه قد اتبع نفس السياسة التي اختطها والده لنفسه في إدارة شئون الملك، ومن الغريب أن بعض المؤرخين قد نسب إلى «سنخرب» أن توليته العرش كانت نذيرًا باندلاع ثورة في الأقاليم، والظاهر أن هذا الخطأ قد جاء عن طريق ذكر حوادث عهد هذا العاهل باختصار فأدى ذلك إلى سوء فهم المتون.

والواقع أن الجيش الآشوري قد مكث عدة سنين لا عمل له قط، وكان «سنخرب» في خلالها مشغولًا في أفخم عمل قام به مدة حكمه وهو إعادة بناء مدينة «نينوة»، ولا نزاع في أن هذه الفترة التي كان لا عمل فيها للجيش تدل على ما كانت عليه الإمبراطورية الآشورية من أسس ثابتة، كما كانت تدل على أن الإدارة كانت مكينة في عهد «سرجون» العظيم.

كان أول من ناهض حكم «سنخرب» عبد مُدَّعٍ اغتصب عرش «بابل»، وذلك في الوقت الذي كان يدبر فيه «مروداخ-بلدان» مؤامرة على «سنخرب» مع من حوله من الممالك القوية،

وبخاصة مملكه «عيلام» وبلاد العرب للاستيلاء على عرش «بابل»، فلم يكد يعلم «مروداخ بلدان» بهذه المؤامرة التي قام بها هذا المدعي حتى زحف بجيشه وهزمه واستولى على ملك «بابل»، واتخذ «بور-سبا» عاصمة له، وعندما علم «سنخرب» بذلك زحف بجيشه بدوره وقضى على جيش «مروداخ بلدان» وأحلافه من العيلاميين والعرب في «كوتا» ثم في «كيش»، وبعد ذلك سار «سنخرب» إلى «بابل» حيث قابله الأهوان بالترحاب، ثم قام بتخريب معاقل «الكلدانيين» واستولى على ثمانية وثمانين مدينة محصنة، والظاهر أن الملك «سنخرب» قد ولى رجلًا عظيمًا من أهل «بابل» كان قد تربى في بلاط «آشور» في حداثة سنه ملكًا على «سومر» «وأكاد» «كما كان يفعل ملوك مصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة، فقد كانوا يربون أولاد الأمراء التابعين لهم ثم ينصبونهم ملوكًا بعد آبائهم»، وجعل بجانبه موظفين حكامًا لأقاليم «كلديا»، ولكن لم يلبث أن عاد «مروداخ بلدان» الذي كان قد هرب إلى بلاده «بيت يكن» وأخذ يستعد لمهاجمة «بابل» ثانية.

دُعي «سنخرب» بعد حادث «بابل» بعامين إلى الزحف نحو حدوده الغربية وذلك لقيام معارضات وثوارت على الحكم الآشوري، ولا يبعد أن ذلك كان بتحريض رسل «مروداخ بلدان» عندما أراد الاستيلاء على «بابل» ثانية، وكذلك بتحريض من مصر التي كانت تخاف شر «آشور» وتوغلها في أراضي فلسطين التي كانت في سالف الزمان تسيطر عليها، وكان أقوى ملك في فلسطين عند تولية «سنخرب» الملك هو «حزقيا» ملك «يهودا» الذي كان قد قام بمحاولة جرئية لتحسين مركزه الحربي، وذلك بتوسيع رقعة بلاده، على الرغم من أنها كانت محاولة خطرة، فبعد أن هزم الفلسطينيين جعل نفسه بصورةٍ ما المسيطر عليهم (راجع سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٨، سطر ٨) ولا نعلم على وجه التأكيد إذا كان الغرض من حروبه مع فلسطين هو كسر شوكة الدويلات التي كانت تنتمي إلى الآشوريين مثل «بادي» «وإكرون» أو لاسترجاع المدن التي كان قد استولى عليها «سنخرب»، وقد جعل «حزقيا» مدينة «أورشليم» منيعة لتدافع عن نفسها، وذلك ببناء مجرى ماء تحت الأرض ليصبح جلب الماء إليها يسيرًا إذا حوصر، ومن المحتمل أن هزيمة «مروداخ بلدان» قد جعلت «حزقيا» يحجم عن مهاجمة الآشوريين، ولكنه كان مع ذلك قد توسط في إعلان الثورة هو وممالك أخرى كان غرضها تدبير مؤامرة على آشور، وهذه المؤامرة التي أشير إليها في التوراة (في كتاب إشعيا الإصحاح ٣٠، سطر من ١–٥) لا بد أنها ترجع إلى عامي ٧٠٢-٧٠١ق.م، عندما شاعت خيبة ثورة «مروداخ بلدان» ملك «كالديا»، أما المصريون الذين قاموا بهذه المؤامرة فهم ملوك الدلتا الإقطاعيون الذين كانو يعملون بعلم من «شبكا» الكوشي فرعون مصر في ذلك العهد، وهذه المؤامرة الجديدة التي تورطت فيها معظم مدن جنوب فلسطين قد اشتركت فيها «صور» «وصيدا»، وهما أهم مدينتين في «فينيقيا»، ومما يلفت النظر هنا أن هذه كانت أول مرة يشترك فيها ملوك «فينيقيا» في مقاومة مباشرة لبلاد آشور، وبذلك يكونون قد خرجوا عن عادتهم المتبعة، وهي الاعتراف بأي دولة تكون لها السيادة في الشرق، والواقع أننا لا نعرف السبب في موقفهم الجديد، ولكن يحتمل أن حكام آشور كانوا يستعملون نفوذهم على حساب التجارة والتجار «الفينيقيين»، وواضح مما ذكرنا

عن الحملة الآشورية أن «حزقيا» «ولولي» ملك «صيدا» كانا يخفيان المشروع الذي تورطا فيه، وكان مصير المؤامرة المصرية إلى الفشل قبل أن يواجههم «سنخرب» بجيشه.

وقد بدأت الثورة التي كان يرأسها «حزقيا» بطرد الملوك والأمراء الذين عينهم الآشوريون في المدن الجنوبية الفلسطينية، فطُرد ملك «عسقلان» المسمى «شارولو داري» (وهو الذي قد خلف «روكبتو» الذي نصبه «سرجون») على يد «صيدقا» ملك عسقلان، وطُرد «ميتيني» حاكم أشدد من قبل الآشوريين، وفي «أمقارونا» (إكرون) قامت ثورة طرد من جرائها «بادي» الذي كان قد بقي على ولائه للحكم الآشوري، وسُلِّم مكبَّلًا في السلاسل والأغلال لحزقيا ملك «يهودا»، وهذا العمل الذي تورط فيه حزقيا بما أعلنه من تردد في إعلان الثورة قد جعل سنخرب يسير إلى ساحة القتال في عام ٧٠٠ق.م، فزحف أولًا على إقليم «صور» ثم على «صيدا»، غير أن «لولي» ملك الأخيرة لم ينتظر هجوم «سنخرب» وهرب إلى جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، فنصب «سنخرب» مكانه «إتبعل» (توبعلو) على «العرش»، وأضاف إليه عدة مدن هامة تشمل مدينة «عكا»، وقد كان من جراء ظهور الجيش الآشوري أن خضع في الحال عدد عظيم من أعضاء الحلف الذي ألفه حزقيا للملك «سنخرب»، وحضر جماعة من الأمراء لتقديم الجزية في بلدة لجيش ومن بينهم «منحيم» ملك «ساميورون» وعبد اللاتي ملك «أرواد» «وأرو ملكي» ملك «جبيد» وميشينتي ملك «إشدودو» (أشدد) «وبادوئيل» ملك «بيت عمون» «وكموسونادبي» ملك «مواب» «وآي-رمو» ملك «أدوم»، أما «صيدقا» ملك «عسقلان» فقد حوصر وأُسر، وكذلك خضعت بعدها المعاقل التي حول «عسقلان» قبل أن يزحف «سنخرب» إلى «إكرون».

والواقع أن السرعة الخاطفة التي قام بها «سنخرب» في حملته هذه قد جعلت كل الاستعدادات التي جهزها الثوار عديمة الجدوى، فقد كان «حزقيا» على غير استعداد، هذا إلى أن المصريين كانوا قد تأخروا جدًّا في الوصول إلى «إكرون»، وكان ملوك الدلتا في مصر قد حصلوا وقتئذٍ على مدد من بلاد النوبة أرسله إليهم الفرعون، ومع ذلك فإنهم لم يكونوا في موقف يمكنهم من مواجهة الآشوريين بدون مساعدة حلفائهم كما اضطروا أن يفعلوا في «التاقو» (التقة).

والواقع أن المعركة التي دارت بين الفريقين لم تمكث طويلًا كما أنها لم تكن عنيفة، فقد سلم عدد عظيم من الجنود المصريين من بينهم قائد العربات المصري وبعض صغار الأمراء المصريين هذا إلى قائد عربات الملك «شبكا»، وبعد المعركة سار الملك «سنخرب» للاستيلاء على «إكرون» فعاقب قواد الثورة بقسوة وقوَّى مركز الحزب الموالي لآشور، وأعاد «بادي» حاكم «إكرون» إلى منصبه بعد أن فك أسره من «أورشليم».

ويصف لنا «سنخرب» حملته هذه وهي الحملة الثالثة كما يأتي وهي الخاصة بحصار «أورشليم»:[٤١] «وفي حملتي الثالثة زحفت على ختي «بلاد خيتا»، وقد هرب «لولي» ملك «صيدا» الذي حرقه سحر سيادتي الذي يبعث الرهبة إلى بعيد على البحار ومات.

وقد هزم بهاء سلاح «الإله آشور» الذي يبعث في الرهبة في مدنه القوية، مثل: «صيدا» الكبيرة «وصيدا» الصغيرة «وبيت ريتي» «وزاربتو» «وماهالليبا» «وأوشو» (أي الأراضي التي على بر بلدة صور) «وأكزيب» «وعكا» وكل البلاد ذات الحصون المسورة والحسنة التموين بالطعام والماء لحامياته، وقد انحنت خضوعًا عند قدمي، وقد وضعت «إتبعل» (توبعلو) على العرش ليكون ملكًا عليهم، وفرضت عليه جزية مستحقة «لي» بوصفي سيده الأعلى لتُدفع سنويًّا بدون انقطاع، أما عن ملوك «عامور» وهم «مناهم» صاحب «سامسيمورونا» «وتوبعلو» صاحب «صيدا» «وعبد بيليتي» صاحب «أرواد» «وأورومليكي» صاحب «جبيل» «وميتنتي» صاحب «أشدد» «وبودويلي» من بيت «عامون» «وخاموسو-نادبي» صاحب «مواب» «وأيرامو» من «إيدوم»، فقد أحضروا هدايا فاخرة، وقدموا أربعة أضعاف هداياهم الباهظة إليَّ وقبلوا قدمي، أما «صدقيا» ملك «عسقلان» الذي لم يخضع لنيري فإني نفيته وأرسلت إلى بلاد «آشور» آلهة أسرته، وهو نفسه وزوجه وأولاده وإخوته وكل نسل أسرته الذكور، ونصبت «شارولو داري» بن «روكبتو» ملكهم السابق حاكمًا على سكان عسقلان، وفرضت عليه دفع الضرائب والهدايا المستحقة لي بوصفي سيدًا، وهو الآن يجر سيور نيري، واستمرارًا لحملتي حاصرت «بيت دجون» «ويافا» «وبناي برقا» «وأزورو»، وهي مدن تابعة «لصدقيا» الذي لم ينحنِ إلى قدمي بسرعة كافية، وفتحتها وحملت غنائمها، أما الموظفون والأعيان وعامة الشعب من أهل «إكرون» — وهم الذين وضعوا «بادي» ملكهم في الأغلال؛ لأنه كان بارًّا بيمينه المقدس الذي حلفه «بالإله آشور» وسلموه إلى حزقيا اليهودي الذي حجزه في السجن بدون حق كأنه «أي بادي» عدو — فقد أصبحوا خائفين وطلبوا النجدة من ملك مصر «موصوري» ومن رماة وعربات وخيالة ملك «إثيوبيا» (ملوخا)، وهو جيش لا يُحصى، وقد حضروا فعلًا لمساعدتهم، وقد صفت المعركة في سهلي «التقة»[٤٢] لمحاربتي، وقد أرهفوا أسلحتهم، وقد حاربت على حسب وحي أمين أوحى به إليَّ «الإله آشور» سيدي، فأوقعت بينهم هزيمة وفي وسط المعمعة، أسرت بنفسي جنود العربات المصريين أحياء ومعهم أمراؤهم، وكذلك قواعد عربة ملك «إثيوبيا»، وحاصرت «التقة» «وتمناه» وفتحتهما وحملت غنائمهما، وقد هاجمت «إكرون» وقتلت الموظفين والأعيان الذين ارتكبوا الجريمة، وعلقت أجسامهم على عُمُد محيطة بالمدينة، أما العامة الذين ارتكبوا جرائم صغيرة فقد اعتبرتهم أسرى حرب، أما سائرهم؛ أي الذين لم يُتهموا بجرائم وسوء سلوك فقد سرحتهم، وجعلت «بادي» ملكهم يعود من «أورشليم»، ووضعته على العرش سيدًا عليهم، وفرضت عليه الجزية المستحقة لي بوصفي السيد الأعلى.

أما حزقيا «اليهودي» فإنه لم يخضع لنيري، وقد وضعت الحصار على ست وأربعين من مدنه القوية وحصونه المسورة، وعلى القرى الصغيرة المجاورة التي لا حصر لها، وفتحتها بوساطة بناء منحدرات من الطين مكينة ومنجنيقات نصبت بالقرب من الجدران، هذا بالإضافة إلى هجوم المشاة الذين كانوا يستعملون الألغام والنقب والتقويض، وقد سقت منها ٢٠٠١٥٠ نسمة صغارًا ومسنين وإناثًا، وكذلك خيلًا وبغالًا وحميرًا وجمالًا وماشية صغيرة وكبيرة يخطئها العدُّ، واعتبرتها غنيمة، أما هو «حزقيا» فقد جعلته سجينًا في «أورشليم» مقره الملكي

كالطائر في القفص، وقد أحطتها بمتاريس لأجل أن أضايق أولئك الذين يطرقون باب مدينته.

أما مدنه التي نهبتها فقد انتزعتها من بلاده وأعطيتها «متينتي» ملك «أشدد» وبادي ملك «إكرون» «وسيليبل» ملك «غزة»، وبذلك انتقصت بلاده، ولكني زدت في الجزية والهدايا المستحقة «لي» بوصفي سيده الأعلى، وهي التي فرضتها عليه «فيما بعد خلافًا للجزية السالفة لتدفع سنويًّا.»

أما «حزقيا» نفسه الذي استولى عليه بهاء سيادتي الذي يبعث الرهبة فقد هجره جنوده غير النظاميين المختارون، وهم الذين جلبهم إلى «أورشليم» مقره الملكي لأجل أن يقووها، وقد أرسل إليَّ فيما بعد في «نينوة» مدينتي المسورة خلافًا لثلاثين تلنتا من الذهب وثمان مائة تلنتا من الفضة والأحجار الكريمة والتوتية، وقطعًا كبيرة من حجر أحمر ومتكآت مطعمة بالعاج، وكراسي مطعمة بالعاج، وجلود فيلة وخشب أبنوس وخشب بقس وكل أنواع الكنوز الثمينة، بناته وحظيات وموسيقارين ذكورًا وإناثًا، كما أرسل رسوله الخاص لأجل أن يسلم الجزية ويقدم فروض الطاعة.»

هذا ولدينا متن[٤٣] آخر جاء فيه: «وكان «لولي» ملك صيدا خائفًا من محاربتي وهرب إلى بلاد «قبرص» (يادنانا)، وهي جزيرة في وسط البحر، وطلب الالتجاء هناك، ولكنه حتى في هذه الأرض قد لاقى موتًا مخزيًا أمام بهاء سلاح ربي آشور الذي يبعث الهيبة «وقد نصبت إتبال على العرش الملكي، وفرضت عليه الجزية المستحقة «لي» بوصفي سيده الأعلى»، وضربت إقليم «يودا» (يهودا) الواسع، وجعلت «حزقيا» ملكه القاهر المتكبر ينحني خضوعًا.»

وأخيرًا لدينا متن ثالث[٤٤] وهو:

> «وقد حرمت «لولي» ملك «صيدا» مملكته، ونصبت «إتبال» (تابولا) على عرشه، وفرضت عليه الجزية «المستحقة» «لي» بوصفي سيده الأعلى، وخربت إقليم «يودا» الواسع، ووضعت النير على عاتق «حزقيا» ملكها.»

ومن مضمون المتن السابق نرى أن «سنخرب» على الرغم من انتصاراته على مصر وحلفائها، وعلى الرغم من إخضاع جزء كبير من أملاك حزقيا ملك يهودا، فإنه لم يمكنه التغلب على «أورشليم» بكل ما أوتي من قوة لمناعتها، فحاصرها، والظاهر أن حصارها كان غاية في الأهمية؛ إذ قد خلده هذا العاهل على جدران قصره في «نينوة»، وقد بقي «حزقيا» حبيسًا داخل جدرانها كعصفور محبوس في قفص، كما عبر عن ذلك «سنخرب» في نقوشه، أما باقي إقليم «يهودا» فقد ضرب كما ذكر لنا ذلك هو بنفسه واستولى على ٢٠٠١٥٠ نسمة، ويحتمل أنه يقصد بذلك العدد أن سكان يهودا كانوا أسرى حرب في نظره؛ وذلك لأن نقل مثل هذا العدد الضخم من الأسرى الذي يعادل عشرة أمثال عدد الأسرى الذين استولى

عليهم سرجون من إسرائيل يكاد يكون مستحيلًا، هذا فضلًا عن أننا لم نقرأ أية إشارة عن نفي مثل هذا العدد في التاريخ اليهودي.

هذا إلى أن النقوش لم تذكر لنا أنهم نُفوا من ديارهم، وبعد حصار «أورشليم» يظهر أن «سنخرب» لم يرغب في البقاء كثيرًا في الجهة الغربية من أملاكه لحصار قلعة لم يكن في استطاعته اختراق جدرانها؛ ولذلك عاد إلى آشور تاركًا حصار المدينة يدبر أمره قائد جيوشه ورئيس سقاته «ريبشاقي» ورئيس حصيه «ريبساريس»، وقد بقي لنا في سفر الملوك وصف حي عن سعي «حزقيا» للمفاوضة مع هؤلاء الضباط، وعن توبيخاتهم الوقحة لنواب اليهود الذين ذهبوا لمفاوضتهم، وبخاصة الألفاظ التي فاه بها «ريبشاقي» بالعبرية لأجل أن يجعل كل المحصورين في المدينة يسمعونه، على الرغم من أن التضرعات الملتهبة التي فاه بها نواب «حزقيا» طالبين إليهم أن يتكلموا بالآرامية بدلًا من التكلم بالعبرية على مرأى من الناس الذين كانوا على جدار المدينة يسترقون السمع (راجع سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٨ سطر ١٧ … إلخ)، وهاك النص فاستمع لما جاء فيه:

> وأرسل ملك آشور «ترتان» «وربساريس» «وربشاقي» من الجيش إلى الملك «حزقيا» بجيش عظيم إلى «أورشليم» فصعدوا وأتوا إلى «أورشليم»، ولما صعدوا جاءوا ووقفوا عند قناة البركة العليا التي في طريق حقل القصار (١٨) ودعوا الملك فخرج إليهم «الياقيم بن حلقيا» الذي على البيت «وشبنة» الكاتب «ويواخ بن آساف» المسجل، فقال لهم «ريبشاقي»: قولوا «لحزقيا»: هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور، ما الاتكال الذي اتكلت؟ قلت إنما كلام الشفتين هو مشورة وبأس للحرب، والآن على من اتكلت حتى عصيت عليَّ؟ فالآن هو ذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المردودة، على مصر التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه وثقبتها، هكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه، وإذا قلتم لي على الرب إلهنا اتكلنا، أفليس هو الذي أزال «حزقيا» مرتفعاته ومذابحه وقال «ليهودا» «ولأورشليم» أمام هذا المذبح تسجدون في «أورشليم»، والآن راهن سيدي ملك آشور فأعطيك ألفي فرس إن كنت تقدر أن تجعل عليها راكبين، فكيف (٢٤) ترد وجه والٍ واحد من عبيد سيدي الصغار، وتتكل على مصر لأجل مركبات وفرسان (٢٥) والآن هل بدون الرب صعدت على هذا الموضع لأخربه، الرب قال لي: اصعد على هذه الأرض وخربها، فقال «الياقيم» بن «حلقيا» «وشبنة» «ويواخ» «لريبشاقي» كلم عبيدك بالآرامي؛ لأننا نفهمه، ولا تكلمنا باليهودي في مسامع الشعب الذي على السور (٢٧) فقال لهم «ريبشاقي»: هل إلى سيدك وإليك أرسلني سيدي لكي أتكلم بهذا الكلام، أليس إلى الرجال الجالسين على السور ليأكلوا عذيرتهم ويشربوا بولهم معكم (٢٨) ثم وقف «ريبشاقي» ونادى بصوت عظيم باليهودية وتكلم قائلًا: اسمعوا كلام الملك العظيم ملك آشور (٢٩)، هكذا يقول الملك، لا يخدعكم «حزقيا»؛ لأنه لا يقدر أن ينقذكم من يده، ولا يجعلكم «حزقيا» تتكلون على الرب قائلًا إنقاذا ينقذنا الرب، ولا تدفع هذه المدينة إلى يد ملك آشور (٣١) لا

تسمعوا «لحزقيا»؛ لأنه هكذا يقول ملك «آشور» اعقدوا معي صلحًا واخرجوا إليَّ وكلوا كل واحد من جفنته وكل واحد من تينته واشربوا كل واحد ماء بئره (٣٢) حتى آتي وآخذكم إلى أرض كأرضكم، أرض حنطة وخمر، أرض خبز وكروم، أرض زيتون وعسل وحيوان، ولا تموتوا ولا تسمعوا لحزقيا؛ لأنه يغركم قائلًا الرب ينقذنا (٣٣) هل أنقذ آلهة الأمم كل واحد أرضه من يد ملك آشور؟ أين آلهة «حماة» «وأرواد»؟ أين آلهة سفرا ويم «وهينع» «وعيوا»؟ هل انقذوا الساحرة من يدي؟ مَن مِن كل آلهة الأراضي أنقذوا أرضهم من يدي حتى ينقذ الرب «أورشليم» من يدي؟ (٣٦) فسكت الشعب ولم يجيبوه بكلمة؛ لأن أمر الملك كان قائلًا لا تجيبوه، فجاء «الياقيم بن حلقيا» الذي على البيت «وشبنة» الكاتب «ويواخ بن أساف» المسجل إلى «حزقيا» وثيابهم ممزقة فأخبروه بكلام «ربشاقي».

وهذا الخطاب لا يبعد عن الحقيقة؛ لما نعرفه من روح هذا العصر في مملكة «آشور»، فقد كان الآشوريون قومًا لا يختلفون عن قوم «الهون» المتوحشين، وهذا هو ما نلحظه في صلاة «حزقيا» عندما قال في السطر السابع عشر من الإصحاح نفسه: «حقا يا ربي إن ملوك «آشور» قد خربوا الأمم وأراضيهم، ودفعوا آلهتهم إلى النار؛ لأنهم ليسوا آلهة، بل صنعة أيدي الناس، خشب وحجر.» كل ذلك لم يكن من وضع مؤرخ يحتمل أنه قد عاش بعد هذا الحادث بزمن طويل بعد انتهاء عهد الإرهاب الآشوري، بل الواقع أن قصة حصار «أورشليم» كما نقرؤها في سفر الملوك كانت معاصرة للنقوش التي نقشها «سنخرب» عن هذا العهد، ولا نشك إذن في أن مقال «ربشاقي» الذي جاء في التوراة قد قص على حقيقته، ولا بد أنه كان يختمر في ذهن كل من سمع.

ولكن كلام النبي «إشعيا» قد شجع «حزقيا» وأدخل عليه السرور بعد سماعه لما قاله «ربشاقي»، ولذلك دافع عن المدينة إلى أن اضطر بعد تخلي جنوده المختارة عنه، وهم الذين كانوا يؤلفون جزءًا من القوة المدافعة إلى فرض شروط تسليم غير التي أملوها عليه أولًا، وقد قبل الآشوريون شروطه؛ إذ كان قد أنهكهم طول الحصار وهم مرابطون أمام المدينة، وبعد ذلك أرسل «حزقيا» جزيته إلى آشور.

أما المدن الفلسطينية التي كان يحتلها فقد أعطيت «بادي» ملك «إكرون»، ولما كان «حزقيا» يعتقد أن «يهوى» وحده هو الذي خلصه من شر الآشوريين فإنه أعلن عودة السلام، وتمسك بحرارة وحماس بعقيدة التوحيد، وأتلف «نحشتان»؛ أي الثعبان النحاس، وهو الذي على حسب ما جاء في الأساطير كان قد نصبه موسى في الصحراء، ومن المرجح أنه كان تمثالًا قديمًا جدًّا قد أتى به أجداد الإسرائيليين من مصر (راجع سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٨ سطر ٤): هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى؛ لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها وعدوها «ناحشتان». على الرب إله إسرائيل اتكل، وبعده لم يكن مثله في جميع ملوك «يهودا» ولا في الذين كانوا قبله.»

والواقع أن «حزقيا» كان متعبدًا مخلصًا غير أنه لم يكن سياسيًّا؛ لأنه بعد خلاص «أورشليم» مباشرة وصل به الحمق أن استقبل رسلًا من «مروداخ بلادان» ملك «كلديا» الذي قام مرة أخرى يطالب بعرش «بابل»، وقد وبخه على هذه الحماقة النبي «أشعيا» الذي رأى أن معنى الصداقة مع «مروداخ بلادان» هو زحف «سنخرب» بجيشه مرة أخرى على «أوشليم» التي لم يصبها إلا ما أصاب السامرة (راجع سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٠)، ولكن الظاهر هنا أن هذا الرسول الذي جاء من قبل «مروداخ بلادان» كان قد جاء إلى «حزقيا» في بداية حكم «سنخرب» يقصد بث الثورة في غرب أملاك آشور.

والواقع أن «مروداخ بلادان» قد انتهز فرصة غياب «سنخرب» في الجهة الغربية من أملاكه وقام بغزو «بابل» كرة أخرى، وقد زحف عليه «سنخرب» بجيشه بعد أن عاد من «أورشليم» في الحال، وقضى على هذا الأمير الكلدي الثائر قضاء تامًّا؛ لأنه لم يكتفِ بطرده من «بابل» فقط، بل أقصاه عن مسقط رأسه «بيت يكن»، وقد استقل «مروداخ بلادان» سفينة من هناك وهرب إلى إقليم «ناجيتو» في عيلام بالقرب من بوشير الحالية، وقد نصب «سنخرب» مكانه «إسرحدون» ابنه ملكًا على «بابل» بدلًا من ملكها الأسمى المسمى «بل-إبني».

وتقدم لنا تواريخ الحملات التي قام بها بعد ذلك «سنخرب» مثالًا غريبًا من غرور الملوك وزهوهم، ففي عام ٦٩٩ق.م قام «سنخرب» نفسه بعدة هجمات على القرى الجبلية في جبال نيبور «يودي داغ» الواقعة في الشمال الشرقي من نينوة، فحمل في محفته في معظم الطريق، ولكنه كان يضطر أحيانًا لوعورة السبل إلى النزول من محفته والسير على قدميه، وأحيانًا كان يقود المعركة بشخصه على قدميه، وقد بالغ مؤرخو البلاط في تضخيم هذا العمل، فقالوا: إنه من الأمور العجيبة، وتحدثوا عن غزو هذه القرى ووصفوها بأنها «الحملة الخامسة الملكية»، وهذا أقل ما يمكن أن يقال في تعظيم هؤلاء الملوك وتفخيم أي عمل يقومون به مهما كان صغيرًا، وبخاصة في ممالك الشرق قديمها وحديثها، ومن جهة أخرى نجد أن الحملة الخطيرة جدًّا التي وقعت في بلاد «سيليسيا» في السنة التالية للحملة الخامسة لم تدون بمثابة حملة ملكية؛ لأن الملك لم يشترك فيها بنفسه، بل حذفت من سجلاته المتأخرة ولا نعلم عنها شيئًا إلا من أسطوانة كشف عنها[٤٥] حديثًا، وقد أهديت في سنة الحاكم «اللواتيا» ٦٩٤ق.م ودفنت على أنها وديعة أساس في أحد جدران البوابات الجديدة لمدينة «نينوة» التي أقامها «سنخرب» في هذه السنة، ونقشت على هذه الأسطوانات سجلات عن حملات هامة حديثة على الرغم من أن الملك لم يقدها بنفسه، ونجد على أسطوانات من أواخر حكمه أن مثل هذه الحملات على الرغم من أهميتها قد حُذفت وذُكرت بمثابة غزوات صغيرة كالتي قام بها عام ٦٩٩ق.م مثلًا، فقد دونت في السجلات الرسمية لأن الملك هو الذي قام بها، في حين الحملة التي أرسلها عام ٦٩٨ق.م قد أهملت، وجاء فيها كما هي أسماء القواد الذين قادوها، وذكر فيها اسم الملك «سنخرب» فقط بأنه أرسل جيشه لحرب في هذا العام.

والحرب التي نشبت عام ٦٩٨ق.م لها أهمية خاصة عند المؤرخين؛ لأنها وصلت إلينا بعض أحداثها عن طريق الرواية من المصادر البابلية التي نقلها المؤرخون الإغريق، ومن المرجح

أن هذه الحرب تشير إلى أول تصادم وقع بين إغريق العالم الجديد والإمبراطوريات الشرقية العظيمة،[٤٦] ففي عام ٧٢٠ق.م يظهر أن إغريقيًّا واحدًا قد استولى على «أشدد» ونصب نفسه ملكًا مطلقًا عليها، وبقي كذلك إلى أن أقصاه عنها الملك «سرجون الثاني»، وفي عام ٧٠٩ق.م نجد أن أمراء قبرص كان يوجد بينهم بطبيعة الحال إغريق خضعوا لحكم هذا الملك الذي تحدث إلينا أنه سحب أهل «أيونيا» مثل السمك من البحر، وكذلك منح الهدوء إلى بلاده «قوى» (سيليسيا) وصور، ولا نزاع في أن هذا العاهل العظيم يشير في جملة سحب أهل «أيونيا» مثل السمك من البحر إلى قرصان البحر الذين كانوا يعيثون فسادًا على سواحل البحر.

ولم تحدث حرب على اليابسة بين الإغريق والآشوريين على ما نعلم حتى عام ٦٩٨ق.م، وقد حدثنا الملك «سنخرب» أنه في هذا العام ثار «كيروا» حاكم «قوى» (سيليسيا) يعاضده القوم الذين كانوا يسكنون «أنجيرا» «وطرسوس» واستولوا على الطريق التجاري العظيم الذي يمر ببوابات «سيليسيا» من سوريا إلى بلاد الأناضول، وبذلك تعطلت كل التجارة، وقد قامت آشور بحملة قاسية غاية في الخطورة على بلاد «سيليسيا» هُزم فيها ملكها وأحلافه هزيمة منكرة، وقد غنم منها الآشوريون غنائم كثيرة حملت إلى «نينوة»، وبعد ذلك سار «سنخرب» في حفل عظيم إلى المكان الذي انتصر فيه قواده على الرغم من أنه لم يشترك في المعركة، وأقام هناك تذكارًا من المرمر تخليدًا لهذا النصر في مدينة «اللوبرو».

وقد وصف لنا المؤرخ البابلي «بروسس» حملة عظيمة قام بها «سنخرب» في «سيليسيا» على الإغريق، غير أن الوصف الذي حفظه لنا كل من المؤرخين «ألكسندر بوليهستور» «وأبيدنوس» ونقله عنهما «يوزيب» يختلف كل منهما عن الآخر؛ فقد ذكر أحدهما أن الموقعة التي كانت مع الإغريق كانت برًّا، وذكر الآخر أنها كانت بحرية، فيقول «بوليهستور»: إن «سنخرب» قد وصله تقرير بأن الإغريق قاموا بهجوم على «سيليسيا» وأنه زحف عليهم وهزمهم وتكبد خسائر فادحة، ثم يستمر متن المؤرخ «يوزيب» قائلًا: إن «سنخرب» قد أقام تمثالًا لنفسه ليخلد هذا النصر في المكان الذي وقعت فيه الواقعة، وأمر أن يدون هذا النصر عليه بحروف كلدانية ليراه الخلف، ثم يضيف «بوليهستور» إلى ذلك أن «سنخرب» قد أقام مدينة «طرسوس» على غرار مدينة «بابل».

أما رواية «بروسس» فتجعل «سنخرب» يهزم أسطولًا من السفن الإغريقية في حرب بعيدة عن ساحل «سيليسيا»، وكذلك يقول: إن «سنخرب» أسس معبدًا في «أثينا» له عمد من البرنز حفرت عليها أعماله العظيمة، ويفسر ما قاله «بوليهستور» عن التشابه الذي بين «طرسوس» «وبابل» بقوله: إن «سنخرب» جعل نهر «كدنس» يخترق وسط المدينة كما يخترق الفرات مدينة «بابل»، والواقع أننا لا نعرف إلا حملة واحدة حدثت في حكم «سنخرب» وهي التي قام بها في عام ٦٩٨ق.م على بلاد «كيروا». هذا ولم يذكر شيء عن حروب «سيليسيا» قبل الكشف عن الأسطوانة الجديدة السالفة الذكر، إلا في وثيقة واحدة أخرى، وقد اختلط ما جاء فيها بالحملة الخامسة، فقد ظن أن جبال «تيبور» هي «طرسوس»

وأن الهجمات التي وقعت في عام ٦٩٩م والتي حدثت فعلًا في «يودي داغ» وهي التي لا تبعد أكثر من خمسين ميلًا عن «نينوة» في أنها «سيليسيا».

ولكنا نعرف الآن كيف كانت الأحوال تسير، فقد كانت الحملة على «كيروا» وقوم أنجيرا وطرسوس وهم الذين استولوا على طريق تجارة «سيليسيا»، ولا يمكن أن تكون إلا الحملة التي أرسلت على الإغريق في «سيليسيا»، وهي التي وصفها «بروسوس»، ويمكننا أن نفهم كيف أنه على الرغم من انتقام الملك «سرجون الثاني» من قرصان البحر الوثنيين، وهم الذين أصبحوا فيما بعد المستعمرين لهذه الجزر والساحل فيما بعد قد نزلوا في نهاية الأمر إلى ساحل «سيليسيا»، ومن المحتمل أنهم اختلطوا بسهولة بسكان «طرسوس» والسهل المجاور لها، وهؤلاء هم الذين على حسب التقاليد فيما بعد كانوا يرجعون إلى أصل إغريقي، وكانوا يتناسلون من هؤلاء القوم الذين تبعوا البطل موبسوس Mopsos[٤٧] إلى هنا بعد حروب طروادة، وبعد أن هزم الغزاة والحاكم الثائر على يد «سنخرب» في معركة عنيفة سار ملك آشور في حفل هائل واحتفل بإقامة لوحة النصر في وسط خرائب «اللويرو»، كما جاء ذلك على لسانه ولسان «بروسوس» هذا؛ ونعلم من هذا المؤرخ البابلي أنه أعاد بناء مدينة «طرسوس» بعد أن كانت قد أخذت أساليب بنائها من الوافدين الجدد على غرار بناء مدينة «بابل»[٤٨] وكذلك أقام معبدًا يحتمل أنه كان للإله «آشور»، وكانت عمده من البرنز العمد التي كان يقيمها في نفس الوقت تقريبًا في «نينوة».

وقد أمضى سنخرب عدة سنين منهمكًا في إقامة جدرانه وقصوره في «نينوة» ولم يقم بأية حملة أخرى بعد التي قام بها أخيرًا.

وفي عام ٦٩٥ق.م استولى قواد الملك «سنخرب» الذين لم يُذكروا بأسمائهم على بلدة «تلجاريمو»، وهي التي جاء ذكرها في التوراة باسم «توجرمة»، عاصمة بلاد «تابال» (توبال)، وأهلها هم الذين يسمون تبارني Tibareni عند الإغريق، وتقع في جبال شمالي «ملاطيا» «والبستان» الحديثة، وقد جاء ذكر «تابال» فيما سبق.

ولم يلبث أن قام الجيش الآشوري في عام (٦٩٢) بحملة سادسة، فعزم «سنخرب» على أن يضرب «مروداخ بلدان» في المكان الذي كان قد تقهقر إليه على ساحل عيلام عند الخليج الفارسي، وقد اتخذ العدة لتنفيذ مشروعه هذا، فبنى سفنًا كبيرة على غرار السفن الفينيقية في تل يرسيب «وهي الآن التل الأحمر القريبة من جرابيس» الواقعة على أعالي نهر الفرات، وجهزها ببحارة من أهالي صيدا، وبعد أن استعد أسطوله نزل في النهر حتى الخليج الفارسي فعبر بجيشه إلى ساحل عيلام، وكان الإله «يا» إله المحيط يرعاه بحظوته، وكان قد استجلب رضاءه بالقرابين التي تحتوي على سفينة من النضار وسمكة من الذهب وأشياء أخرى كانت قد ألقى بها في البحر، وذلك على غرار ما كان يفعله المصريون؛ إذ كانوا يلقون القرابين المؤلفة من تماثيل وحلي في النيل جلبًا لرضاء «حعبي» إله الفيضان.

وقد ضرب بهذا الجيش ساحل «عيلام»، وحمل قواده مئات الكلدانيين من الأسرى وآلهتهم، كما ساقوا أسرى من «عيلام» إلى «بابل»، حيث كان ينتظر «سنخرب» الذي لم يسلم نفسه إلى حظوة إله البحر «يا» الذي لم تكن حظوته مضمونة، ولا نعرف إذا كان «مروداخ بلدان» قد قُتل في هذه الحرب أم لا، وكل ما نعلمه أنه لم يظهر في التاريخ بعد هذه الحرب.

وهذه الحملة في الواقع كانت بمثابة إعلان حرب على عيلام وملكها «حالو-شو»، فقد أهاجه تخريب ساحل بلاده، ولذلك رد في الحال على هذا التخريب بغزو «بابل»، واستولى على مدينة «سبار»، كما أسر «آشور نادين شوم» ملكها ابن «سنخرب»، وولى مكانه على عرش «بابل» رجلًا يدعى «نرجال-أوشريب»، ثم عاد إلى عيلام حاملًا معه «آشور نادين شوم» في ركابه، وبذلك أصبحت طريق «سنخرب» مسدودة في وجهه إلى «آشور»، غير أن «برجال-أوشريت» ملك بابل الجديد لم يكن في مقدوره مقاومة زحفه الجارف من الجنوب، فهزم في «نبور» وسيق إلى «آشور» سنة ٦٩٣ق.م، وبعد ذلك هاجم سنخرب عيلام، غير أن ملكها «كودور تحخونت» الذي خلف «حالو-شو» في تلك الغزوة تقهقر أمامه واعتصم بالجبال، ولذلك لم يحصل الآشوريون على أي نصر، وفي النهاية عادوا إلى نينوة، وعلى أثر مغادرة الآشوريين للبلاد نصب البابليون عليهم ملكًا يدعى «موشزيب مردوك» عام ٦٩٢ق.م، وفي السنة التالية زحف سنخرب عليه، فطلب هذا الملك الذي استحوذ على قلبه الرعب إلى خلف كودور تحخونت المسمى «أومان مينانو» أن يساعده، ورشاه بكنوز معبد الإله «مردوك» الذي أخذه من بينهم وأرسله إلى عيلام، وقد قبل «أومان مينانو» وأرسل الجيش العيلامي لمقابلة «سنخرب» عند «خالولي» على نهر دجلة، وقد نشبت بينهم معركة وصفها مؤرخ «سنخرب» وصفًا رائعًا، فاستمع إلى بعض ما جاء في هذا الوصف: «ومشوا نحوي منقضين انقضاض أرجال الجراد العظيمة في وقت الربيع، في استعراض حربي للمعركة، وقد ارتفع مثار نفع أقدامهم أمامي كالعاصفة الهوجاء، وقد انتشرت عند مدينة «خالولي» قوتهم على شاطئ نهر الفرات، فاستولوا على الأماكن التي أستسقي منها وأرهفوا أسلحتهم، ولكني تضرعت للآلهة «آشور» «وسن» «وشماشي» «ووبل» «ونبو» «ونرجال» «وإشتار» إلهة «نينوة» «وإشتار» إلهة «أربلا»، وهم الآلهة الذين وضعت ثقتي فيهم لأهزم العدو الجبار، وقد استجابوا لتضرعاتي وأتوا للآخذ بناصري.»

وباقي المتن يصف شجاعة الملك نفسه بلغة ملؤها الزهو والإعجاب، وهي تلك اللغة التي كانت محببة بلا شك لأذني الملك، ولا نزاع في أن هذا الوصف يذكرنا بما جاء في ملحمة «قادش» التي شنها «رعمسيس الثاني» على الخيتا عند وصفه لما قام به من ضروب الشجاعة والإقدام. هذا مع الفارق أن «رعمسيس الثاني» كان في وسط المعمعة وقد نادى الإله آمون لينصره ويعزه، ولكنه قد انتصر على العدو نصرًا غير مؤزر، والواقع أننا لا نعرف إلى أي حد يتفق وصف المعركة الذي نحن بصدده الآن والتي خاضها «سنخرب» مع الحقيقة.

والمطلع على هذا الوصف يجد أنه يكاد يكون أغاني انتصار، مع أنه من الجائز مع ذلك أن النصر كان في جانب العدو؛ لأن «سنخرب» كان مضطرًا في هذه الحملة إلى أن يتقهقر تاركًا

العيلاميين مسيطرين على ساحة القتال، كما كان «موشزيب» لا يزال ملكًا على بابل، وإذا كان هذا هو الواقع فإن وجه الشبه بين موقعة قادش المصرية وموقعة «خالولي» يكاد يلتقي في كثير من النقط؛ وذلك لأنه على الرغم مما ادعاه «رمسيس الثاني» من انتصار لم يحققه الواقع؛ إذ قد ترك قادش في يد العدو، بل خسر معها بعض أملاكه عند تقهقره[٤٩] إلى مصر، فإن في موقعة «خالولي» نجد أن «خمبا نوداشا» القائد العيلامي قد قتل، وكذلك قبض على «مروداخ بلدان» الذي كان متغيبًا في «عيلام»، ومن المحتمل أن هذا مضافًا إليه الخسائر الفادحة التي خسرها الجيش العيلامي قد جعل الآشوريين يدَّعون النصر في هذه الموقعة.

وقد مكث «سنخرب» عامًا دون حرب إلى أن مات «أومان مينانو» في عام ٦٨٩ق.م، وقد كان ذلك فرصة لتنفيذ خطة انتقام من «بابل» ينبغي أن تكون حاسمة ودائمة، فزحف على حين غفلة واستولى على المدينة، وأسر «موشزيت مردوك» ومعه تمثال الإله «مردوك» نفسه، ثم خرب بابل عن قصد، فطرد سكانها وأحرقها، ثم أطلق قناة «أرختو» على خرائبها، وبعد أن فرغ سنخرب من تخريب مدينة بابل عاد إلى مدينة «نينوة» ودخلها ظافرًا، ولم تحدثنا آثاره التي عثر عليها حتى الآن عن ثمانية السنين التي بقيت من حياته؛ إذ يحتمل أن تواريخه قد انتهت عند هذا الحد، ويجوز أن هذا الصمت في تلك المدة من تاريخه يحمل في طياته مصيبة كبرى قد وقعت له في ممتلكاته القريبة نلحظ منها لمحات خاطفة من المصادر الأخرى.

ونحن نعلم من جانبنا أن الهزيمة التي أوقعها بحلف الغرب في أنتقة عام ٧٠ق.م قد أعقبها في الحال موت الملك «شبكا» فرعون مصر والسودان، وخلفه «شبتاكا» ملكًا على هذه البلاد، وهذا الملك الأخير لا نعرف عنه شيئًا كثيرًا إلا ما جاء تلميحًا عنه في نقوش «تهرقا»، وقبل موت هذا العاهل عقد معاهدة مع «سنخرب»، وقد وجد الخاتم الذي ختم به هذه المعاهدة في خرائب «نينوة».[٥٠]

وفي عام ٦٨٩ق.م اعتلى مصر والسودان الملك «تهرقا» بعد موت عمه «شبتاكا»، وهو أخ أصغر للملك «شبكا» وابن الملك «بيعنخي» الفاتح العظيم. ومن المحتمل أن «تهرقا» أخذ يبعث القلاقل في الغرب؛ أي في «فلسطين» «وسوريا» وكان يسودهما السلام أكثر من عشرة أعوام، وكان «حزقيا» يميل إلى الثورة على «آشور»، فنصحه النبي «أشعيا» بعدم الاشتراك في تلك الثورة.

وتدل شواهد الأحوال على أن «سنخرب» وصل إلى الغرب مرة أخرى حوالي ٦٨٧-٦٨٦ق.م واستولى على «لينة» التي كانت قد قامت بثورة، وقد سمع هناك «سنخرب» أن «تهرقا» كان يستعد للزحف عليه، ولذلك سبقه وقطع الصحراء وحاصر مدينة «بليزيوم»، ولقد حال بينه وبين بلوغ مأربه انتشار الوباء في جيشه مما اضطر للعودة بكل سرعة إلى آشور، هذه هي قصة تلك الحملة التي مر عليها المؤرخ الآشوري دون أن يشير إليها، ولكن دونها لنا «هردوت»[٥١] وكذلك ذكرها المؤرخون اليهود (راجع سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٩ سطر ٣٥)،

ومن المرجح أن «سنخرب» لم يذكرها لأنها لم تكن نصرًا له، بل كانت خيبة أمل، وهذا ديدن كل ملوك الشرق لا يذكرون موقعة أو حربًا هُزموا فيها.

والظاهر أن الرواية اليهودية مرتبكة كما وصلت إلينا عن الحملة التي قام بها «سنخرب» عام ٧٠٠ق.م، ففي قصة سفر الملوك الثاني ذكر «تهرقا» بأنه ملك مصر في تلك السنة؛ أي سنة ٧٠٠ق.م، والواقع أنه لم يكن قد تولى ملك مصر والسودان حتى عام ٦٨٩ق.م على أحدث تقدير، وأنه من المؤكد كذلك أن «حزقيا» بعد أن فك حصار «أورشليم» عام ٧٠٠ق.م قد أرسل جزية فادحة إلى «نينوة»، وعلى ذلك فإنه من المرجح ألا يكون «تهرقا» قد قام بالانتقاض على «آشور» في هذه السنة إذا كانت هي السنة التي اجتاح فيها الوباء جيش «سنخرب» الذي أجبر بعدها على العودة إلى آشور، والظاهر أن ذكر هذه الكارثة على لسان «هردوت» كما جاءت على لسان المصريين بعد حدوثها بأكثر من قرنين من الزمان وكذلك ورود اسمها في التوراة قد يبرر عدم ذكرها بطبيعة الحال في الوثائق الآشورية بوصفها كارثة حلت بهم، والواقع أن «تهرقا» كان ملكًا على مصر والسودان منذ عام ٦٨٩ق.م ومن المعقول أن نفرض حدوث حملة أخرى مر على ذكرها الآشوريون مر الكرام دون الإشارة إليها، وهي تلك الحملة التي يُعزى إليها حصار «بليزيوم» والكارثة التي ذكرت في التقاليد المصرية وذكر «تهرقا» وحصار «لبنة» والمصيبة التي حلت بمملكة يهودا المستقلة، أما باقي قصة التوراة فخاصة بحرب عام ٧٠٠ق.م، ومن المحتمل أن هاتين الحملتين قد اختلط أمرهما في رواية متأخرة، وقد سهل ذلك الخلط أن «تهرقا» كان على ما يُرجح يعمل قائدًا «ترتان» في جيش «شبكا» عام ٧٠٠ق.م، ولما كنا نعلم أنه رافق أخاه شمالًا عام ٧١٢ق.م وكان ضمن رجال بلاطه فإنه يحتمل أنه قاد الحرب في موقعة «التقة» عام ٧٠٠ق.م، وعلى ذلك فإن ظهوره مرتين «وكان في أخراهما ملكًا» يمكن أن يُقدر كأنهما مرة واحدة.

وليس لدينا وثيقة رسمية عن الكارثة التي حاقت «بسنخرب» وجيشه، غير أن التقاليد العامة التي حفظها لنا «هردوت» قد دون فيها اسم الملك المصري الذي حدثت في زمنه تلك الكارثة وهو ستوس Sethos غير أن ذلك لا يعد برهانًا على أنه ليس الملك «تهرقا»؛ وذلك لأن الاسم الحقيقي للملك الذي حدثت في أيامه تلك الكارثة قد اختفى ليحل محله اسم الملك العظيم «سيتي»، ويحتمل أن ذلك يرجع إلى العلاقة الأسطورية الخاصة بالملك «سيتي الأول» وحروبه الفلسطينية في «بلزيوم»، وكذلك من اختلاط اسم الملك الكوشي (الذي ذكره المؤرخ «مانيتون» باسم «زت») وهو الذي يمكن أن يوحد باسم الملك «كشتا» جد «تهرقا» بالاسم المعروف تمامًا «سيتي».

وقد حكم بلاد كوش في ذلك الوقت ملك يدعى «زت» (كشتا)، وقد كان معروفًا تمامًا باسم «زت» على ألسنة الناس وكانت التقاليد تربطه ببلدة «بلزيوم»، ومن ثم فإن «سيتي» الذي جاء ذكره في «هردوت» هو «زت» الكوشي «كشتا»، وعلى أية حال فإنه من المستحيل أن نعزو كل القصة إلى عهد «سيتي» الحقيقي؛ وذلك لذكر «سنخرب» مباشرة هنا، مما يجعل من البدهي توحيد كارثة جيشه في القصة المصرية بكارثة جيشه كما ذكرت في التوراة.

ومهما يكن من أمر فإن السيادة الآشورية على الرغم من أنها فرضت ضرائب فادحة على قوم «يهودا» فإنها لا بد كانت من بعض الوجوه ذات فائدة عظمى له، ويمكننا أن نستنبط من تنبؤات النبي «إشعيا» أن بلاد «أودوم» وبلاد «مواب» وهما المملكتان اللتان على حدود «يهودا» الشرقية كانتا منهمكتين في القيام بغارات على بلاد «يهودا» الجميلة المعمورة، والظاهر أن «حزقيا» لم يكن في مقدوره مقاومتهما مقاومة فعالة.

وقد ذكر لنا «إسرحدون» بن الملك «سنخرب» أنه قام بحملة في خلال عهد والده إلى بلاد العرب «وأدومو»، ويحتمل أن ذلك كان في عام ٦٩٠ق.م، وإقليم «أودومو» هو بلا نزاع «أدوم» الذي جاء ذكره في التوراة، وإن كان بعض الحكام يوحده بإقليم «دوماتا» وهو المعروف الآن باسم دومة الجندل، وقد جاءت إشارة في التلمود[٥٢] عن أسر العامونيين والمؤامبيين في عهد «سنخرب»، مما يدل على أن معاملة الآشوريين لهؤلاء القوم المغيرين كانت قاسية، وقد بقوا تابعين لآشور في عهد «إسرحدون» ولا بد أن إخضاعهم كان ذا فائدة عظمى لفلاح «يهودا»، وقد هزم «حازيل» ملك العرب لذلك هزيمة نكراء خلال نفس الحملة.

(أ) أعمال «سنخرب» الداخلية

لا ريب في أن اسم «سنخرب» سيبقى مقرونًا باسم بلدة «نينوة» التي تدين بشهرتها له كمدينة، وإنها أهم ممثلة لبلاد آشور في أعين المؤرخين الذين أتوا فيما بعد، وذلك لاختياره لها عاصمة فأحسن الاختيار، حقًّا إنه وجدها مدينة قديمة مذكورة في التاريخ منذ عهد «حمورابي»، غير أنها كانت قد انحطت من حيث الشهرة، كما أنها كانت عرضة للفيضانات، وقد كان شغل «سنخرب» نفسه الشاغل طوال مدة حكمه هو إعادة بنائها وتنسيقها حتى حولها في حياته إلى عاصمة عظيمة فخمة خليقة بإمبراطوريته المترامية الأطراف، وقد قصد من بنائها أن يجعل مدينة بابل العظيمة تتضاءل بجانبها، وهو يحدثنا في نقوشه عنها وكيف أن أجداده لم يفكروا قط في تجميلها واستقامة شوارعها وغرس الأشجار فيها وإقامة سور مناسب لها، وكان هو أول من نفذ تصميمًا تامًّا لإعادة بناء هذه العاصمة فاستمع لما يقول تنفيذًا لخطته: لقد حملت أهل «كلديا» والآراميين وأهل «مناي» ورجال «قو» «وسيليسيا» والفينيقيين وأهل «صور» الذين خضعوا لنيري وجعلتهم يقومون بأعمال السخرة فصنعوا اللبنات، وقد وسعت التل العظيم الذي أقيمت عليه مباني القصر الملكي، وهو المعروف الآن باسم «كويوجيك»، وذلك بتحويل نهر «خوسور»، وهناك أقيم قصر فاخر سماه المنقطع النظير، ووصف هذا القصر يدل على أن مهندسي العمارة في هذا العهد كانوا أكثر تقدمًا مما كان يظنه الإنسان، فقد جهز السقف بِكُوَّات للنور، كما كانت العمد التي يرتكز عليها البناء مغطاة بأشرطة من الفضة والنحاس، مما أفاض الضوء على كُوَّات القاعات.

هذا؛ وقد فحصت الجبال للكشف عن موارد جديدة لأحجار البناء، فجلب المرمر من جبال «أمنانا» «والبرشيا» من إقليم تل «برسيب» (تل أحمر) والحجر الجيري الأبيض بكميات كبيرة من «بلتاي» الغربية من «نينوة» (إسكي موصل) وقد قطعت التماثيل الضخمة من

هذه المحاجر لإتمام البناء الجديد، وقد مثلت صناعة المعادن في القصر الجديد بقطع فريدة في بابها، فقد صب تماثيل اثني عشر أسدًا واثني عشر ثورًا بأحجام هائلة، مما يدل على أن هذه الصناعة كانت نامية في هذه البلاد قبل عصر هذا العاهل، ومن الطريف أن «سنخرب» قد شبه صب هذه التماثيل الهائلة في نظره بصب قطع من النقود التي تساوي نصف شكل، وهذا يدل دلالة واضحة على أن العملة كانت معروفة في ذلك العهد.

هذا؛ وقد سهل توريد المياه إلى «نينوة» من الآبار بإدخال طرق أحسن للري والتصفية، فقد حل محل الفسقية القديمة مبانٍ من المعدن أو من الخشب، وأنشئت حديقة تشمل بستان فاكهة بجوار القصر الجديد، أما مساحة المدينة نفسها فقد أصبحت ضعفي ما كانت عليه في الأصل، ووضعت أسس الجدران الخارجية في مجرى النهر، وأضيفت مساحات واسعة مكشوفة إلى شوارعها المزدحمة، وأتي بالماء إلى المدينة من عيون جديدة عثر عليها في التلال الشرقية بوساطة قنوات، وهذه المياه كانت مفيدة لري الأراضي المزروعة حول المدينة عندما يكون الجو باردًا، وكذلك أسست مزرعة كبيرة في شمالي المدينة وقسمت بين سكانها، وفي هذه المزرعة جلبت نباتات جديدة منها القطن، وقد أدى جلب زراعة القطن إلى تأسيس صناعة مثمرة بقيت عدة قرون، فذكر الجغرافي المتوفى (حوالي ١٣٤٠ ميلادية) محصول القطن الطيب حول مدينة «إربل» وليس من شك في أنه لا يوجد إلا القليل من ملوك الشرق الذين أظهروا اهتمامًا بصالح مدنهم أكثر من «سنخرب» كما يدل على ذلك إقامته «لنينوة».

وقد يطول بنا المقام إذا أخذنا في سرد مباني «سنخرب»، ويكفي أن نذكر هنا إصطبلاته ومخازن أسلحته التي تقع الآن في سفح التل المسمى «النبي يونس» وغير ذلك، وليس من شك في أن فكرة إصلاح «نينوة» وما ابتدعه فيها سنخرب كان من عبقريته، وفوق ذلك فإن فخامة المدينة لم يكن راجعًا إلى الثروة التي نالها من فتوحه وما اغتصبه من الأهلين وحسب، بل كذلك يرجع إلى فحص حكيم لمنابع ثروة البلاد الطبعية واستعمالها في وجوهها مما لم يكن يتأتى من أي إنسان، بَلْهَ من شخص منح مواهب تفُوق المعتاد.

ومما يؤسف له أن أفاريز عصر «سنخرب» التي بقيت لنا وجدت مهمشة تهشيمًا مشينًا، ومع ذلك فإنه من الممكن أن نرى فيها الصناعة الفنية الدالة على هذا العصر، وما أحرزه البناءون من إتقان فائق في التفاصيل والقدرة على تركيب الأشكال التي دُرست بصورة فائقة فيما بعد، وأجمل تمثال من هذه الصور صنع في الحجر هو الذي ظهر فيه «سنخرب» في معسكره في «لجيش»، وكذلك صورة نقل التماثيل الضخمة، وقد يكون من الغريب حقًّا ألا تظهر الانطباعات الأجنبية بصورة واضحة جلية في هذا العصر، ففي العمارة نجد أن الخارجة أو قاعة العمد كانت مجلوبة إلى آشور من الغرب، ومن المحتمل كذلك وجود تفاصيل أخرى قد استعيرت من بلاد «خيتا»، أما في الصناعات الصغيرة فلدينا ما يثبت التأثير المصري فيها في ذلك العهد، فمن ذلك آنية من الزجاج تحمل اسم «سرجون»، وكذلك وعاء عليه نقش باسم «سنخرب»، وهذان الإناءان كان شكلهما عاديًّا في مصر في ذلك الوقت، ولا بد أن نشير

هنا إلى أن الإفريز الآشوري بقي على أية حال آشوري الأصل خالصًا، فلم يتأثر بصناعة أجنبية، وينسب إلى عهد «سنخرب» أنه كان بداية أرفع عصر للفن.

هذا؛ وقد تقدمت اللغة في عصر هذا العاهل كما سنرى بعد، والواقع أنه على الرغم من نهاية هذا العاهل المفجعة؛ إذ قد اغتيل بيد أثيمة في القصر، فإن ما قام به من مجهود جبار لحماية إمبراطوريته التي خلفها له أسلافه وبخاصة إدارته في داخل البلاد يكاد يرفعه إلى المرتبة الأولى بين ملوك الأسرة التي ينتمي إليها.

ومع ذلك فإنه حتى الآن وإلى أن تصل إلينا معلومات جديدة مغايرة لا بد أن نعده قائدًا قديرًا مثل والده وحاكمًا حذرًا وأعظم إداري حدثتنا عنه الوثائق الآشورية، يضاف إلى ذلك أنه أظهر ميلًا إلى الفن واللغة بصورة لم يضارعه فيها إلا حفيده «آشور بنيبال» كما سنرى بعد.

(٢٦-٦) عصر الملك «إسرحدون» ٦٨٠–٦٦٩ق.م

كان إسرحدون غائبًا في أثناء قتل والده، وتحدثنا الوثائق الآشورية على أنه قتل في ٢٠ شباط يناير سنة ٦٨١ق.م وقاتله هو ابنه الذي كان أكبر سنًا من «إسرحدون» الذي نصبه والده وارثًا على العرش، ولدينا متن عن حرب «إسرحدون» من أجل العرش جاء فيه صفة «إسرحدون» الملك العظيم والملك الشرعي وملك العالم وملك آشور ووصي بابل وملك «سومر» «وأكاد» وملك جهات العالم الأربع والراعي الحقيقي وحظي الآلهة العظام ومَن أعلنه كل من الآلهة «آشور» «وشماش» «وبل» «ونبو» «وإشتار» صاحبة «نينوة» «وإشتار» صاحبة «أربلا» ملكًا على بلاد «آشور» منذ أن كل طفلًا، قال:

وقد كنت أصغر إخوتي الكبار، ولكن والدي على حسب أمر الآلهة «آشور» «وشماش» «وبل» «ونبو» «وإشتار» صاحبة نينوة «وإشتار» صاحبة «أربلا» قد اختاروني عن طيب خاطر وفي حضرة كل إخوتي، قائلين: إن هذا هو الابن الذي سيرقى إلى منصب وارث «لي»، وبعد ذلك وضع هذا السؤال أمام الإله «شماش» والإله «أداد» بوساطة وحي وقد أجاباه: إنه حقًّا هو الذي يحل محلك، وقد أصغى «سنخرب» إلى نطقهما الهامِّ، وجمع أهل «آشور» صغيرًا وكبيرًا وإخوتي وكل الذكور من نسل أسرة والدي، وجعلهم يعقدون يمينًا مقدسًا أمام «صور» آلهة بلاد آشور، وهم «آشور» «وسن» «وشماش» «ونبو» «ومردوك» وكل الآلهة الآخرين القاطنين في السماء وفي العالم السفلي لأجل أن تضمن وراثتي «الملك».

وفي شهر مناسب في يوم موافق دخلت بسعادة «على حسب أمر وحيهم الموقر» قصر ولي العهد، وهو هذا المكان الذي يسكن فيه من كان مقدرًا لهم تولي الملك.

وعندما انبثق الفجر الحقيقي لهذا العمل على إخوتي نبذوا القداسة ووضعوا ثقتهم في القيام بأعمال جرئية مدبرين مؤامرة آثمة فاختلقوا على النميمة، والاتهامات الباطلة وكل ما هو ممقوت من الآلهة دائمًا، يطلقون الإشاعات الخبيثة الكاذبة والمعادية من وراء ظهري

وعلى ذلك باعدوا عني «على غير إرادة الآلهة» قلب والدي الذي كان من قبل على مصافاة «لي»، على الرغم من أنه كان في قرارة قلبه دائمًا يكن لي الحب، وكانت ميوله دائمًا أن أصبح ملكًا، وقد أصبحت خائفًا، وسألت نفسي بما يأتي: هل هناك أعمال عنف مبنية على ثقة في آرائهم أو أنهم قد ارتكبوا هذا الإثم على غير إرادة الآلهة؟ وقد تضرعت إلى الإله «آشور» ملك الآلهة وإلى «مردوك» الرحيم، وهما اللذان كانا يعدان الدناءة لعنة، بالصلوات والعويل والسجود، وقد اتفق أن يعطي الوحي جوابًا على أن الإخوة «قد عملوا» على حسب قرار الآلهة العظام «أربابي»، وقد جعلني «الآلهة» انتظر في مكان خفي في وجه هذه الدساس الآثمة ناشرين ظل حمايتهم الطيبة فوقي، وبذلك حفظ لي الملك.

وعندئذ خرج إخوتي عن شعورهم مرتكبين كل شيء أثيم في أعين الآلهة وبني الإنسان، واستمروا في دسائسهم الخبيثة؛ لدرجة أنهم استلوا السلاح في وسط «نينوة» وهذا ضد إرادة الآلهة، وتناطحوا فيما بينهم كالجديان لينالوا الملك، وقد نظر «آشور» «وسن» «وشماش» «وبل» «ونبو» وإشتار صاحبة «نينوة» «وإشتار» صاحبة «أربلا» بعدم الرضا لأعمال هؤلاء المغتصبين ولم يساعدوهم، «وعلى العكس» أحالوا من قوتهم ضعفًا، وجعلوهم في النهاية ينحنون تحتي، «يضاف إلى ذلك» أن أهالي بلاد «آشور» الذين أقسموا يمين الآلهة العظام بوساطة الماء والزيت على ألا يحموا أعدائي للملك ولا يأتوا لمساعدتهم، ولكني أنا «إسرحدون» الذي لم يُولِّ ظهره للمعركة معتمدًا على الآلهة العظام أربابه قد سمعت بسرعة عن هذه الأحداث المحزنة، وصحت قائلًا: الويل! ومزقت حلة الإمارة وأخذت في العويل بصوت عالٍ، وقد صرت مثل أسد مجنون، وكان روحي مشتعلًا، وناديت الآلهة بالتصفيق على يدي بقصد تولي الملك وهو وصية والدي، وقد صليت إلى الآلهة «آشور» «وسن» «وشماش» «وبل» «ونبو» «ونرجال» وإلى «إشتار» صاحبة «نينوة» «وإشتار» صاحبة «أربلا»، وقد اتفقوا على أن يوحى إليَّ بوحي، وقد أرسلوا إليَّ بجوابهم الصحيح المؤكد للوحي الأمين التالي: سر «إلى الأمام» ولا تتوانَ، ونحن سنسير معك، اقتل أعداءك! فلم أنتظر حتى اليوم التالي ولا جيشي، ولم ألتفت إلى الوراء لحظة، ولم أجمع فرق الخيل المخصصة للعربات أو معدات الموقعة، وحتى لم أجمع مؤنًا للحملة، ولم أكن أهاب الثلج وبرد شهر شباط الذي يكون فيه الشتاء على أشده، ولكن نشرت جناحي مثل طائر عاصفة سريع للقضاء على أعدائي، فسرت في الطريق المؤدية إلى «نينوة»، وقد كانت وعرة المسلك إلا أنها كانت قصيرة، وقد كان أمامي في إقليم «خاتي جالبات» كل أحسن جنودهم «أي جنود إخوتي» يعترضون تقدم جيش حملتي، وقد أرهفوا أسلحتهم استعدادًا للموقعة، غير أن الفزع الذي كان يبعثه منظر الآلهة العظام «أربابي» هزمهم، وانقلبوا إلى مجانين عندما رأوا هجوم جنودي القوي في المعركة، وقد وقفت بجانبي «إشتار» سيدة المعركة، وهي التي تحب أن أكون كاهنها الأعظم، كاسرة أقواسهم ومشتتة شمل جموعهم، وعندئذ تحدثوا فيما بينهم: «هذا هو مليكنا (؟)» وقد ساروا إليَّ على حسب أمرها السامي في كتل بشرية، وتجمعوا خلفي، وقد كانوا يقفزون كالخراف الصغيرة، واعترفوا بي بوصفي سيدهم بتضرعهم إليَّ.

أما أهل آشور الذين عقدوا يمينًا بحياة الآلهة العظام من أجلي فقد أتوا لمقابلتي وقبلوا قدمي، وأما الغاصبون الذين بدءوا بالثورة فقد هجروا أخلص جنودهم عندما سمعوا بجنود حملتي وفروا إلى بلاد مجهولة.

وقد وصلت إلى شاطئ دجلة وجعلت كل جنودي يقفزون من فوقه كأنه حفرة صغيرة، وذلك على حسب ما أوحى به الإلهان «سن» «وشماش» وهما بالشاطئ السماوي.

وقد دخلت بفرح مدينة «نينوة» في شهر «أزار»، وهو شهر حسن «الطالع»، في اليوم الثامن منه، وهو يوم عيد الإله «نبو»، «وهي البلدة التي كنت أبسط فيها سيادتي، وجلست بسرور على عرش والدي وقد هبت ريح الجنوب، وهو النسيم الذي أزجته «يا»» في هذه اللحظة «وهذا الريح هو الذي يبشر هبوبه بالخير لتولي الملك قد أتى في الوقت المناسب من أجلي، وقد حدثت تطهيرات حسنة في السماء وفي الأرض» وتفسيرها على حسب تفسير المنجم كانت رسائل من الآلهة والإلهات باستمرار لي وجعلت قلبي واثقًا.

أما الجنود المذنبون الذين تآمروا على الاستيلاء على ملك آشور لإخوتي فقد حسبتهم في مجموعهم مجرمين وأوقعت بهم عقابًا صارمًا، بل قضيت على نسلهم من الذكور.

وأظن أنه لا يخفى على قارئ هذه الأحداث وما أتاه «إسرحدون» من الأعمال ما يدل على أنه لا بد كان مشتركًا في قتل والده، وأنه في هذا المتن كان يريد أن يبرئ نفسه من هذه التهمة الشنعاء.

وعلى أية حال نعرف من تواريخ الملك «آشور بانيبال» أن أهل «بابل» كانوا مشتركين في مؤامرة قتل «سنخرب»، وقد وقع الاعتداء على «سنخرب» كما قلنا في «نينوة»، ويقول «إسرحدون»[٥٣] عن دخوله في «نينوة» بعد قتله والده في شهر آزار «وهو شهر يمن»: في اليوم الثامن وهو يوم عيد الإله «نبو» دخلت نينوة مدينتي الملكية بفرح، وتسلمت مكاني على عرش والدي في سلام.

وتذكر لنا التوراة في (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٩ سطر ٣٧) أن «سنخرب» قتل في بيت نسروخ: وفيما هو ساجد في بيت نسروخ إلهه ضربه «أدرملك» «وشرآصر» ابناه بالسيف ونجوا إلى أرض أرراط وملك «إسرحدون» ابنه عوضًا عنه.

غير أن هذين الاسمين لم يمكن توحيدهما بأي اسم من أسماء أولاد «سنخرب»، ويمكن فقط القول إن نسروخ هو تحريف لاسم «نيتورتا».

وعلى أية حال فإن هذه الجريمة كانت إعلانًا لقيام ثورة، غير أن «إسرحدون» لم يجد عناءً كبيرًا في إخضاعها وتولي العرش كما شرح لنا ذلك في الوثيقة التي أوردناها فيما سبق.

وأول عمل قام به «إسرحدون» كان عملًا سلميًّا على خلاف ما كان يتبعه كل أسلافه، فقد أراد أن يقوم بإصلاح مدينة «بابل» إرضاءً للبابليين، فهدم الجدران والأبراج والبوابات وأخذ

في إصلاحها، فلم يأتِ عام ٦٨٠-٦٧٩ق.م حتى كانت قد أصلحت كلها من جديد، وقد طرد الكلدانيين الذين كانوا قد احتلوا مكان المدينة ودعا أهلها الأصليين ليسكنوا في مساكنهم الأصلية، وبعد ذلك بثلاث سنوات كانت المدينة كلها قد عمرت، وبهذا العمل أرضى البابليين.

وفي هذا الوقت أراد أحد أبناء «مروداخ-بلادان» أن يجعل الكلدانيين يقومون بثورة فعومل بقسوة، مما اضطره إلى الهرب إلى عيلام، هذا؛ وقد انتهز العيلاميون فرصة غياب «إسرحدون» في الأقاليم الغربية في عام ٦٧٥ق.م فقاموا بحملة لغزو «بابل» واستولوا فعلًا على «سيار»، ولكن كان نصيبهم التقهقر أمام غضب الشعب العام، ولم يمضِ طويل زمن حتى أعيدت آلهة «أجادي» الذين كان قد أخذهم المغتصبون من «سيار» في سلام للملك «إسرحدون»، وقد كان عدم قيام «إسرحدون» بحملة للانتقام سببًا في اكتساب صداقتهم أيضًا، ومن ثم نرى اختلافًا ظاهرًا في أخلاقه عن أخلاق والده «سنخرب» الذي كان مفطورًا على الوحشية والغرور والتصرفات الإجرامية مما لا يمكن أن يتصوره الإنسان. والواقع أن «إسرحدون» كان سياسيًّا عظيمًا، رائده العقل والحزم، فقد أخذ يسير بتبصر وروية على نهج سياسة سليمة في ممتلكاته الجنوبية، ليصبح متفرغًا لمشروعه العظيم الذي عزم على تنفيذه، وأعني بذلك فتح البلاد المصرية، وكذلك ليكون لديه في الوقت نفسه من الحرية والاستعداد ما يجعله قادرًا على الضرب على أيدي قبائل جبال الشمال الذين كانوا يهددون بالزحف من حدودهم على بلاده تحت ضغط قبائل «جميري» وهؤلاء هم قبائل «جور» التي جاء ذكرها في التوراة، وهم الذين أطلق عليهم الإغريق اسم كميري Kimmerians، وقد وفدوا من المراعي الشمالية من مضايق جبال «القوقاز» وهم المعاصرين لقبيلة تررس Treres المنتسبة لهم، وقد جاءوا عن طريق موسيا Moesia وعبروا الهلسبونت Hellespont وكانوا الآن يحتلون تمامًا الجزء الشمالي من «آسيا الصغرى»، وكانوا يفكرون في الانقضاض على «مسوبوتاميا»، وقد اخترقت جماعة منهم فعلًا مضيق الفرات في عام ٦٧٨ق.م، ولكن الآشوريين ردوهم على أعقابهم إلى الأناضول، وهنا بقي الكميريون مدة من الزمن وحلفاؤهم «التررس» يسطون على الأهلين دون أن يصدهم أحد، فكانوا سوط عذاب ينصب على السكان المتحضرين كما كانت قبائل الهون في العهد الروماني، على أن انشغال قبائل الكميري في الشمال الغربي من بلاد آشور لم يخلص الآشوريين على أية حال من خوفهم منهم وتعرضهم لغزوهم، يضاف إلى ذلك أنه في تلك الفترة كانت تتجمع قبائل أخرى في الشمال الغربي من «آشور» مهددين بلاد «أورارتو» «أرمينيا» بالخراب كما كانوا خطرًا على آشور نفسها.

وفي هذا الوقت ألف «كاشتريت» صاحب بلاد «كاسكاششي» حلفًا لمحاربة آشور، وكان هذا الحلف يتألف من ميديا، وبلاد «مانان» وجموع من السيثيين Seythians الذين كان يحكمهم ملك يدعى «سباكا»، وقد خاف «إسرحدون» بأس هذا الحلف لدرجة أنه استشار الوحي والعرافين في أمره، وبعد ذلك حاربهم، وقد استمر ينازل جموع هذا الحلف عدة سنين إلى أن انتهت الحرب عام ٦٧٢ق.م، وأصبحت «ماناي» إقليمًا آشوريًّا، والظاهر أن الفضل في هزيمة هذا الحلف الهمج أن «إسرحدون» قد استعمل معه سياسة إثارة البغضاء

والمنافسة فيما بين أعضائه، فنجد أنه قد استمال إلى جانبه أحد رؤساء السيثيين بأن زوجه من إحدى بناته ليساعد الجيش الآشوري على «سباكا» (إسباكا) «وكاشتاريت»، واسم هذا الزعيم السيثي هو «بارتاتو»، وقد جاء ذكره في تاريخ «هردوت» باسم بروتوثيس Protothyes والد ماديس Madyes وهو الذي خرب فيما بعد بلاد سوريا، ولم يبقَ أمام «إسرحدون» بعد هزيمة هذا الحلف وتشتيت شمله إلا الالتفات إلى مصر.

تدبير الحملة على مصر: والواقع أن مصر كانت خلال عشر السنوات الأولى من حكم «إسرحدون» قد اتخذت بلاد فلسطين آله لتكون مصدر اضطرابات وثورات تحركها بيد خفية على «آشور»، وقد قضى «إسرحدون» عليها جميعًا. هذا؛ وقد كان منظر استعراض اثنين وعشرين ملكًا من الملوك الذين هزمهم «إسرحدون» في سوريا وفلسطين عند تأسيس قلعة «إسرحدون» التي أقامها بالقرب من «صيدا» بعد هدم جدرانها من المناظر الرائعة في التاريخ، فقد كان من بينهم ملوك المدن والأراضي التي لها علاقة وثيقة بمصر، نذكر منها كل موانئ خليج إنطاكية وساحل فينيقيا التي كانت في أيدي الآشوريين إلا «صور»، وقد أعلن ملكها المسمى «بعلو» خضوعه لإسرحدون بحضوره في «كار آشور آخ إدبن»، وكان في هذا الحفل على ما يظن منسة ملك «أورشليم» (راجع سفر أخبار الأيام الثاني الإصحاح ٣٣ سطر ١١) فجلب الرب عليهم رؤساء الجند الذين لملك آشور، فأخذوا منه بحزامه وقيدوه بسلاسل نحاس وذهبوا به إلى بابل، وأمراء فلسطين هذا إلى إغريق وفينيقيين من «قبرص».

وقد كان من الأمور الهامة تمكين السيادة الآشورية في قبرص، ولا أدل على ذلك من تسليم ملكها «عبد ملكوتي» بسرعة، ولا نزاع في أن السيادة الآشورية في هذه الجزيرة كانت تعني بطبيعة الحال خسارة فادحة للتجارة في الدلتا، على أن إثارة الفتن فيها كانت سهلة كما كانت من قبل، وذلك لوجود فرق آشورية في كل مدينة لتستطيع أن تكشف بسرعة عن رسل مصر وتمنع قيام أية فتن متفق عليها في الخفاء، وكانت «صيدا» وقتئذٍ لا نصير لها؛ لوقوعها تحت رحمة حاكم الإقليم الآشوري، وكان «بعلو» ملك «صور» الذي زاد «إسرحدون» في حدود ممتلكاته هو الوحيد الذي كان في استطاعته أن يقوم بمؤامرة على «آشور»، ولذلك انتهز «تارقو» (تهرقا) فرعون مصر هذه الفرصة وفاوضه في القيام بحملة على «إسرحدون»، ويحتمل أن ذلك كان في عام ٦٧٦-٦٧٥ق.م، ولا نعرف سبب الإغراء الحقيقي الذي جعل «بعلو» ينصاع لعروض «تهرقا» للقيام بثورة، ولكن الأمير الفينيقي كان يثق بنفسه وقوته، وهذا ما حققته الحوادث بعد، هذا وكان «إسرحدون» دائمًا على علم بمجريات الأمور وما كانت تحوكه مصر له من دسائس منذ سنين مضت، مما جعله يعقد العزم على القضاء على أرض الكنانة وإبادتها، والواقع أن «إسرحدون» كان يجمع في شخصه سياسة «سرجون» وتهور «سنخرب»، ولا ينبغي أن نرجع باللائمة على «إسرحدون» لعدم فطنته من جهة استحالة ضمه مصر لبلاده ضمًّا نهائيًّا دائمًا، ومن المحتمل أن الآشوريين كانوا على علم خاطئ جدًّا في فهم خاصيات سكان وادي النيل؛ إذ لم يفقهوا تمامًا الفرق الهائل بين المصريين وإخوانهم الساميين الذين كانوا يسيطرون عليهم عدة قرون، وكذلك لم يفهموا

أنهم كانوا قادمين على فتح بلاد قوم وحكمهم بالسيف بعيدين عن بلادهم كل البعد من كل الوجوه؛ إذ كانوا يعبدون آلهة تختلف كل الاختلاف عن آلهتهم، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا قومًا لا يزال متأصلًا في نفوسهم ذكريات استعباد الآسيويين لهم منذ ألف سنة مضت، وأعني بذلك قوم الهكسوس الذين استعمروا مصر حوالي قرن ونصف قرن من الزمان، والواقع أن الآشوريين كان في استطاعتهم أن يجدوا أصدقاء أو أعداء بين الآسيويين، ولكن كل مصري كان مفطورًا بكل طبعه أن يكون عدوهم الألد وتمتلئ كل جزئيات نفسه بالكره والبغضاء لهم، ولا ريب في أن البلاد والناس الذين كانوا بهذه النفسية لا يمكن أن يسيطر عليهم مدة طويلة قوم يكرهونهم، وعلى الرغم من أن الحيوية المصرية المتأججة التي كنا نشاهدها في عهد الدولة الحديثة، عندما كان على رأس البلاد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة العظام، أمثال «أحمس الأول» «وتحتمس الثالث» «وأمنحتب الثاني»، قد خبا سناها وخفت مصباحها، فإنه كان مع ذلك لا يزال يوجد وميض نار تحت هذا التراب يصرفه الخوف من احتلال الآشوريين الذين كانوا في الواقع أقسى قلوبًا وأكثر فتكًا بالبشرية من الهكسوس، ولا نزاع في أن نتيجة الاحتلال الآشوري كانت النهضة المصرية التي قامت في العهد الساوي بعد طرد هؤلاء المستعمرين، كما كان من قبل طرد الهكسوس والقضاء عليهم على يد «أحمس الأول» بداية لنهضة جديدة.

والواقع أن كلًّا من «إسرحدون» «وآشور بنيبال» ضل السبيل الوحيدة التي كان بها يمكن الحصول على ولاء مصر وخضوعها لهم، وذلك أنهم عندما فتحوا مصر لم يعتلوا عرش الفراعنة بوصفهم ملوكًا لمصر، ولو أنهم كانوا قد فعلوا ذلك وتلقبوا بالألقاب بالفرعونية وقدموا طاعتهم للإله «آمون» ودخلوا حجرة «بنبن» المقدسة للإله «رع» في معبد «هليوبوليس» (عين شمس) وخرجوا منها حاملين لقب أبناء «رع»، فإنه عندئذ فقط كان من المحتمل أن قصة نهاية الدولة الآشورية قد تكون مختلفة عما كانت عليه، ولكن ملك آشور لم يكن في استطاعته أن يفعل ذلك، كما لم يكن في مقدور ملك مصري أن يأخذ بيد الإله «بل» في «بابل» ويصبح بعد ذلك ملكًا على «سومر» «وآكاد» لو أتيح له فتح بلاد «بابل»، ولا ريب في أن الهوة التي تقع بين نفسية الشعبين وتكوينهما كانت جد عميقة، ولسنا في حاجة إلى القول بأن مجرد مثل هذه الفكرة كانت لا بد أن تقابل بالرفض في الحال إذا ما عُرضت على «إسرحدون»، ومن أجل ذلك كان جعل مصر إقليمًا آشوريًّا أمرًا مقضيًّا عليه بالفشل، وفي مقابل ذلك نشاهد أن «قمبيز» ملك الفرس الذي لا يضره أمر الدين ما دام ذلك يسهل له تنفيذ سياسته لم يتردد في إعلان نفسه فرعونًا على مصر واعتناق الديانة المصرية ولو ظاهريًّا، ولذلك لما تولى «دارا الأول» بعده وكان يتصف بالحكمة وسداد الرأى فطن إلى أن السياسة التي تورط فيها «قمبيز» كانت السياسة الوحيدة التي بها يمكنه ضم مصر لإمبراطوريته، وبتولي «دارا» عرش الفراعنة على هذا النمط عُبِّد الطريق للأسرتين المقدونية والرومانية لحكم مصر قرونًا طويلة؛ إذ قد اتبعوا السياسة التي رسمها الفرس لهم.

وعلى ذلك فإن «إسرحدون» على جهل منه بكل هذه الأمور وباعتباره المصريين دساسين جبناء وعباد قطط وكلاب خاضعين لحكم قوم سود أخذ يستعد لفتح مصر، وكأنه بذلك كان

يجهز نفسه للخطوة الأولى التي أدت إلى إضعاف إمبراطوريته وسببت سقوطها نهائيًّا.

زحف «إسرحدون» على مصر: ففي عام ٧٧٥ق.م زحف إسرحدون بمعظم جيشه على مصر واخترق الحدود المصرية، غير أن جيشه اضطر للتقهقر بسبب قيام عاصفة (ويظن المؤرخ «سدني سمث» أن هذا الحادث هو أصل الكارثة التي تعزوها التقاليد للملك «سنخرب»).

والمظنون أن الهجوم الذي وقع عام ٦٧٤ق.م لم يكن بقيادة الملك شخصيًّا؛ لأنه في ذلك الوقت كان يحارب «كاشتريت» «وسباكا»[٥٤] «كما ذكرنا من قبل» وعلى ذلك فإن هذه الموقعة يمكن أن تكون هي التي أشير إليها في التوراة (كتاب الملوك الثاني الإصحاح ١٩ سطر ٧، ٣٥)، ولكن في عام ٦٧٤ق.م كان الآشوريون منهمكين في حصار الدلتا، وأهمها على حسب النقوش الآشورية كانت تدعى «شا أملي»، ويحتمل أنها «آندروبوليس» وهي «خرباتا»[٥٥] بمديرية البحيرة مركز كوم حمادة.

وهاتان الحملتان كانتا الأساس لإخضاع مصر، وكان حصار «صور» الذي كان قد بدأ في باكورة عام ٦٧٣ق.م يعد شيئًا ثانويًّا من الوجهة الحربية، ومع ذلك فقد اتضح أن الاستيلاء على المدينة كان صعب المنال جدًّا؛ وذلك لأن الآشوريين لم يكن في مقدورهم أن يستولوا عليها بالهجوم المباشر، ولم يكونوا يأملون في الوقت نفسه وضع حصار عليها، غير أن ملك «بعلو» ضايقه وجود الجنود الآشوريين خارج أسوار المدينة، ففضل تسليمها بشروطه هو ولم يقبل شروط «إسرحدون» الذي كان يريد تملك حصونها التي على اليابسة ووضع حكام آشوريين فيها، وعلى ذلك بقي «بعلو» يقاوم هجوم «الآشوريين» بنجاح، غير أنه لم يكن في مقدوره التدخل في صد مرور الجنود الآشوريين وهم في طريقهم إلى مصر.

وعندما قام «إسرحدون» بمشروع غزو مصر وجه له كل عنايته وقوته، وقد كان نفوذ «آشور» وشدتها في هذا الموقف يتطلب ذلك بسرعة؛ لأن ما كانت عليه مصر من سؤدد وفخار في الماضي كان دائمًا عالقًا بأذهان أقوام «فلسطين» «وسوريا»، وأن آشور لو فشلت في مشروعها فإن هذا الفشل يكون إعلانًالقيام الثورات في الأقاليم التي تحت سلطانها في هذه الجهات، وعلى ذلك فإنه عندما انسحب الجيش الآشوري من مصر لم يكن إلا لإعادة تنظيمه وتجهيزه للقيام بحملة أخرى عظيمة، وقد أمضى «إسرحدون» عام ٦٧٢ق.م في الاستعداد لهذه الحملة، وفي عام ٦٧١ق.م انقض بسرعة خاطفة على مصر، وقد ظهر أن الجيش الآشوري كان يفوق بدرجة هائلة أي عدد من الجنود تضعه مصر في ساحة القتال، فقبل اجتياز الحدود المصرية وقعت واقعة عند مكان يدعى «سنجرى» أسفرت عن تشتيت شمل جيش «تهرقا»، وبعد مضي خمسة عشر يومًا على هذه الموقعة تقدم الجيش الآشوري وحاصر «منف» التي سقطت بعد زمن قليل، وقد هرب الفرعون «تهرقا» نحو الجنوب ولكن أسرته أسرت، وخربت «منف»، وقد أدى هذا النصر المبين إلى استسلام الوجه القبلي، وأخذ «إسرحدون» في الحال ينظم حكومة البلاد كلها، ونصب حاكمًا وطنيًّا على كل مقاطعة، وعين حكامًا آشوريين على حسب المعتاد، وأطلق أسماء آشورية على أمهات المدن في مصر، وهاك النصوص الآشورية التي وصلت إلينا عن حروب «إسرحدون» في مصر.

(١) تقرير عن الحملة العاشرة من المتون الحولية (راجع Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, P. 292, Luckenbell, Ibid, II, Par. 554–9).

في هذا المتن يحدثنا «إسرحدون» عن حملته في مصر فاستمع لما يقول في حملته العاشرة من حروبه، وهي التي خصصها لغزو مصر:

> في حملتي العاشرة وجهت سيري «على ... وأمرت ...» نحو بلاد ... وهي التي تسمى في لغة شعب بلاد النوبة «كوسو» ومصر «موصور» ... وجمعت جيش «آشور» العديد الذي كان معسكرًا في ... وفي شهر نيسان، وهو الشهر الأول من السنة، رحلت من مدينتي «آشور»، وعبرت دجلة والفرات في زمن فيضانهما، وتقدمت في الإقليم الصعب من طريقي مسرع الخطا كالثور الوحشي، وأقمت في أثناء حملتي جسورًا لمحاصرة «بعلو» ملك مصر الذي وضع ثقته في صاحبه «ترهاقة» (تركو) ملك نوبيا (كوسو)، وعلى ذلك خلع عن نفسه نير ربي «آشور»، وقد أجاب على تحذيراتي بوقاحة، فمنعت عنهم «أي سكان صور المحاصرين» الطعام والماء العذب اللذين يُبقيان على الحياة، وبعد ذلك نقلت معسكري من «موصور» وسرت مباشرة نحو «ملوها»[٥٦] وهي مسافة تبلغ مسيرة ستين ساعة من بلدة «أبكو» الواقعة في إقليم «سماريا» حتى بلدة «رفح» في الإقليم المجاور لنهر مصر، ولم يكن يوجد نهر «في كل الطريق!» وقد كان عليَّ أن أمد جيشي بالماء بوساطة حبال وسلاسل ودلاء لمتحها من الآبار.
>
> وعندما أتى أمر الوحي الذي أمر به ربي «آشور» إلى عقلي «في وسط هذه المصيبة» فرح روحي ووضعت «زجاجات ماء» ... على الجمال التي أحضرها لي كل ملوك العرب ... مسافة أربعين ساعة في سفرة مدتها خمسة عشر يومًا في ... وتقدمت، وسرت ثماني ساعات في إقليم مغطى بالشبة[٥٧] وحجر «سو»، وعلى مسافة ثماني ساعات في سفرة طولها يومان كانت توجد ثعابين ذات رأسين، وكان هجومها يعني الموت، ولكن دستها وسرت إلى الأمام، وفي مسافة ثماني ساعات في سفرة يومين كانت توجد «حيوانات» خضر أجنحتها ترفرف، وفي مسافة ثماني ساعات في سفرة يومين ... الأعلى ... وفي مسافة ثلاثين ساعة في سفرة طولها ثمانية أيام تقدمت في ... وبعد ذلك أتى «مردوك» الإله العظيم لمساعدتي «ففعل ... وعلى ذلك» حفظت جنودي أحياء، ولمدة عشرين يومًا وأربعة عشر ميلًا «بلدًا وإقليم» على حدود ... «ماجان» مصر.
>
> «في ...» مضيت الليل، وتقدمت من بلدة «مجدالي» نحو بلدة ... مسافة ثمانين ساعة قيست ... وهذا الإقليم كان مثل حجر «كا ...» «ربما يقصد هنا حجر السيديان» «... حادًّا» مثل رأس السهم أو الحربة ... الدم والقيح ... العدو الشقي حتى ... إلى بلدة أشهو بري.

وقد نسب هذا المتن الأثري لاندسبرجر بور Landsberger Bauer إلى إقليم في بلاد فارس، ولكن نجد أن اسم بلدة أشهو بري المحلي يربط هذا المتن مباشرة بالمتن الذي سيلي هنا، وهو يحدثنا صراحة عن الحملة الآشورية على مصر.

والمتن التالي من قطعة منقوشة محفوظة بالمتحف البريطاني (راجع H. Winckler Untersuchungen zur Altorientalischer Geschichte Leipzig 1889. P. 98) وهاك ما جاء عليها:

> وقد شتت شمل قوة موقعتهم المرتبة ترتيبًا حسنًا … وأخوه وحكامه «… من» «أشهو بري» حتى «منف» قد قُضي عليهم.

وعلى الرغم مما جاء من تهشيم وتمزيق في هذا المتن فإنه يصف لنا بصورة رائعة مشاق السفر في الصحراء، وما كان يلاقيه المسافر من مخاطر ومصاعب وصفها لنا «إسرحدون» بوضوح.

لوحة سنجيرلي:[٥٨] ومن أهم الآثار التي خلفها إلينا «إسرحدون» وتتحدث عن حملته على مصر لوحة النصر التي نصبها في شمال «سوريا»، وهذا الأثر عُثر عليه في «سنجيرلي» «عام ١٨٨٨م»، ويمثل «إسرحدون» وبيده اليمنى كأس يصب منها القربان للآلهة الذين مثلوا في أعلى اللوحة، وفي يده اليسرى مقمعة، ويمتد من يده اليسرى أعنة تمر بشفاة صورتين عند قدميه، والصورة الأولى تمثل «تهرقا» مرسومًا بملامح زنجية واضحة «ويجوز أن الصورة تمثل ابن «تهرقا» المسمى «يوشانهوروا» الذي كان قد أسر وسيق إلى بلاد آشور» ويداه ورجلاه قد غلت، وهو راكع بيديه المرفوعتين تضرعًا، أما الصورة الثانية فقد مثل صاحبها واقفًا، ومن المحتمل أنها صورة «بعلو» وقد رفع كذلك يديه المغلولتين تضرعًا.

وهاك المتن: «إلى «آشور» ملك الآلهة المحب لرجال كهانتي، والإله «آنو» القوي الممتاز الذي يدعونني باسمي، «وبعل» الإله المفخم مثبت أسرتي، «ويا» العاقل العليم بكل شيء والذي يحدد مصيري، «وسن» (إله القمر) النور الساطع الذي يمنحني تفاؤلًا حسنًا، «وشماش» قاضي السماوات والأرض الذي يقرر قراراتي، «وأداد» السيد الجبار الذي يجعل جيوشي ناجحة، «ومردوك» الملك السيد صاحب «إجيجي»، «وأنوناكي» الذي يجعل ملكي عظيمًا، «وإشتار» ربة الواقعة والحرب التي تسير بجانبي، وسبعة الآلهة المحاربين الذين يهزمون أعدائي، والآلهة العظام كلهم الذين يحددون مصيري، والذين يمنحون ملكهم وقوتهم المحببة وبطشهم، «إسرحدون» الملك العظيم، والملك الجبار، ملك العالم، وملك آشور، ونائب «بابل»، وملك «صور» «وآكاد»، وملك «كاردونياش» كلها «مملكة بابل»، وملك ملوك مصر «وباتوريس» «وكوش» (الوجه البحري والوجه القبلي وكوش) الذين يخافون قوة

آلهتهم، والمسيطر المفخم من آشور «وشماش» «ونابو» «ومردوك»، ملك الملوك القاسي الذي يفتك بالخبيث ويلقي الرعب في القلوب، والذي لا يخاف في المعركة، والشجاع تمامًا، والذي لا يألو جهدًا في القتال، الأمير المهيمن بقوته، والقابض على أعنة الأمراء، والكلب المفترس، والمنتقم للوالد الذي أنجبه، والملك الذي بمساعدة الآلهة «آشور» «وشماش» «ونابو» «ومردوك» (وهم الآلهة أحلافه) يمشي على الصراط السوي ويصل إلى أغراضه، وكل الذين لم يطيعوه والأمراء الذين لم يخضعوا له قصفهم وداسهم تحت قدميه كبوصة المدقة، وهو الذي يورد قربانًا غزيرة للآلهة العظام، ومن فكره هو خوف الآلهة والإلهات …

… باني معبد آشور ومن أتم زينته، وهو مصلح «إزاجيل» «وبابل»، والذي نفذ كل تفاصيل خاصة بعبادته، والذي أعاد أسرى الأراضي من … إلى أوطانهم، والملك الذي تحب الآلهة العظام ضحايا قربانه، ومن كهنته في المعابد قد ثبتتها لكل الآباد، ومن قدموا أسلحتهم الكثيرة له بمثابة هدية ملكية، والملك الذي أصبحت سيادته عظيمة بوساطة «مردوك» رب الأرباب، أكثر من تلك التي في يد ملوك الأقاليم الأربعة «للعالم»، ومن جعل كل الأراضي خاضعة تحت قدميه، ومن فرض جزية وضرائب عليها، قاهر أعدائه، ومهلك أقرانه، والملك الذي مشيته هي العاصفة، وأعماله كأعمال الذئب العقور، وأمامه عاصفة وخلفه سيل، ومن هجمة موقعته جبارة، وأنه نار ملتهمة ولهيب لا يخمد، ابن «سنخرب» ملك العالم وملك «آشور» وحفيد «سرجون»، ملك العالم وملك «آشور» ونائب «بابل» وملك «سومر» «وأكاد»، ومن بذرة الكهانة الأبدية من نسل «بلباني» بن «أداسي» الذي أسس مملكة آشور، ومن بأمر آشور «وشماش» «ونابو» «ومردوك» الآلهة العظام أربابه قضى على عبودية «مدينة آشور» (أنا هو).

وإني قوي، وإني كل القوة، وإني بطل، وإني ضخم، وإني هائل، وإني معظم، وإني منقطع النظير بين كل الملوك، والواحد المختار من «آشور» «ونابو» «ومردوك»، ومن يناديه «سن» (إله القمر) وحظي «آنو» ومحبوب الملكة إشتار إلهة كل «العالم»، والسلاح القاسي الذي يهلك كلية عدو الأرض «أنا هو».

الملك الجبار في الموقعة والحرب، مخرب مساكن أعدائه، ومن يقتل أعداءه ويفني أضداده، ومن يجعل من لم يكونوا خاضعين له صاغرين، ومن قد جعل تحت سلطانه مجموع كل الأقوام، ومن اختار له منذ الأزل «آشور» «وشماش» «ونابو» «ومردوك» أسيادي المفخمين، من لا تغير كلمتهم مملكة لا نظير لها، في حين أن «إشتار» السيدة محبة كهانتي قد جعلت يدي تقبض على قوس قوي وحربة جبارة تطيح بالخائن، وقد جعلتني أصل إلى ما يرغب فيه قلبي وأحضرت عند قدمي كل الأمراء الذين لم يكونوا خاضعين.

وعندما أراد «آشور» السيد العظيم أن يرى الناس ضخامة أعماله الجبارة جعل ملكي قويًّا على كل ملوك أركان العالم الأربعة وجعل اسمي عظيمًا، وعندما جعل يدي تحملان سيفًا بتارًا للقضاء على أعدائي، أثمت الأرض «يقصد المديريات الغربية من ممتلكاته بما فيها مصر» في حق «آشور» وعاملوه باحتقار وثاروا، وقد شجعني الآلهة على أن أسرق وأنهب وأمد

حدود آشور بعد أن أمرني «آشور» والآلهة العظام أسيادي أن أسير في طرق بعيدة وجبال وعرة وصحراء شاسعة وأقاليم قاحلة، فإني بقلب واثق سرت في أمان.

ففي مسافة مسيرة خمسة عشر يومًا من بلدة «أشهو بري» حتى مدينة «منف» عاصمة ملكه، وهي مسيرة خمسة عشر يومًا، قد حاربت يوميًّا باستمرار في مواقع دموية ضد «تهرقا» ملك «مصر» «وكوش»، وهو الفرد الذي تمقته كل الآلهة العظام، وقد أصبته خمس مرات بظبي سهامي محدثًا جراحًا لم يكن ليشفى منها، وبعد ذلك قدت حصارًا على «منف» مقره الملكي، وفتحتها في نصف يوم بالألغام والنقب والهجوم بالسلالم، وخربتها ومزقت جدرانها وأحرقتها، أما الملكة ونساء قصره «ويوشانهورو» ولي عهده وأولاده وممتلكاته وخيله وحيواناته الكبيرة والصغيرة التي يخطئها العد فإني استوليت عليها غنيمة لبلاد «آشور»، ونفيت كل الكوشيين من مصر دون أن أترك واحدًا ليقدم لي فروض الطاعة، وقد نصبت في كل مكان في مصر ملوكًا محليين وحكامًا وضباطًا ومشرفين على الميناء وموظفين ورجال إدارة، وقد خصصت ضرائب منتظمة لقربان الإله آشور والآلهة الآخرين العظام أربابي لكل زمان، وفرضت عليهم ضرائب لي بوصفي السيد الأعلى تدفع سنويًّا دون انقطاع، وقد أقمت كذلك هذه اللوحة وهي تحمل اسمي، وقد دونت عليها مديح شجاعة ربي «آشور» وأعمالي العظيمة عندما كنت زاحفًا على العدو على حسب الوحي الأمين من ربي «آشور»، كما دونت أعمالي العظيمة المظفرة وأقمتها لكل الأزمان المقبلة حتى تراها كل بلاد العدو.

وإن كل من سيحطم هذه اللوحة من مكانها أو يمحو اسمي المدون عليها ويكتب اسمه بدلًا منه أو يغطيها بالتراب أو يلقي بها في الماء أو يحرقها في النار أو يضعها في مكان لا يمكن رؤيتها منه، فإني أرجو من «إشتار» ربة الحرب والموقعة أن تقضي على حيويته «رجولته» حتى يصبح كالمرأة، وتجعله يرسف في الأغلال تحت أقدام أعدائه، وليت أمير المستقبل يحفظ اللوحة التي باسمي وليتهم يقرءونها أمامه، وليته يعطرها بالزيت، وليته يصب الماء عليها قربانًا، وليته يعظم اسم «آشور» ربي.»

لوحة نهر الكلب:[٥٩] كان ثاني أثر عُثر عليه يشيد بذكرى النصر الذي انتصره «إسرحدون» على الملك «تهرقا» هو المتن الذي حفر على جدران صخرة في نهر الكلب بالقرب من بيروت، وهي اللوحة الوحيدة من بين ست لوحات آشورية وجدت هناك يمكن قراءة نقوشها، وقد دحض الأثري «فيسباخ»[٦٠] الفكرة القائلة إن لوحة نهر الكلب هي في معظمها صورة من لوحة «سنجيرلي» التي ترجمناها فيما سبق.

ونقرأ بعد الديباجة ما يأتي: دخلت منف «ميمبي» مقره الملكي في وسط ابتهاجات عامة وفرح … على الشدالوم الذي كان مرصعًا بالذهب، وجلست في سعادة … أسلحة … كورناناتي من الذهب والفضة ولوحات «من» … وبعد ذلك … «دخلت» ومتاعه الشخصي «قصره» وآلهة وإلهات «تهرقا» ملك «كوش» وأمتعتهم … أعلنتها بمثابة غنيمة، وملكته، وإماء بلاطه «وبوشانهورو» الوارث لعرشه … وموظفو بلاطه … وأملاكه … مرصعة بأحجار «كور» والعاج و… خشبية وترصيعها كان بالذهب وفتحاتها من … وأدوات أخرى

من الذهب والفضة، ... حجر ... وأي شيء كان في القصر لم يكن له مثيل في «آشور»، وكان مصنوعًا بمهارة، وكذلك فتحت الصناديق والسلات و... التي كانت مخزونة فيها ضرائب مملكته، وفعلت ... ملك ... فقد تركوها خلفهم، هذا بالإضافة إلى ستة عشر إكليلًا وثلاثين لباس رأس للملكات ... حجر ... ألواحًا من الحجر ... بكميات كبيرة، وخزانات المال كانت ملأى بالذهب والفضة والفيروزج ... والكتاب الجميل ... والباتبات الذي يشبه ... والنحاس والقصدير ومعدن «آبارو» والعاج ... من أهل سوتى ... أصهاره وأسرته ... أمراء ... وأطباء ومنجمين ... وصياغ ونجارين مهرة ... ابن ننروقي ... التي عملها «تهرقا» لمعاقلهم.

وقد نشر الأثري «فنلكر» قطعًا من مكعب بالمتحف البريطاني، وهذا المتن يحتوي على عمودين، وقد وضعه الأستاذ برتشرد[٦١] في المتون الخاصة بعهد الملك «إسرحدون»، ويقول من المحتمل أنه يشير إلى حملته على مصر، والعمود الأول يحدد رجال الحرف والأخصائيين الذين نُقلوا من مصر كما جاء على لوحة نهر الكلب المهشمة، والعمود الثاني يحتوي على قوائم موظفين وضعهم الآشوريون الفاتحون في سلسلة مدن ذكرت كلها بأسماء آشورية، وضحايا القربان المنظمة التي فرضت عليها:

العمود الأول

... أحجار كريمة يخطئها العد ... التي ... نسل أسرة والده ... ثالث رجال على العربات، وسائقو عربات ... «وسائقون» ورماة وحاملو دروع ... «رجال» وأطباء بيطريون ... وكتاب ... ومصانع نسيج كتان ومغنون وخبازون شرحه ... صانعو الجعة ... شرحه ... رجال وسماكون ... رجال شرحه ... وصناع مركبات العجلات وصناع سفن ... شرحه ... وحدادون ...

العمود الثاني

... «على المدينة ...» «موكن-بالو-كوسو-أبيشو»، ... على المدينة «ماهري-جار-سري»، سا ... وعلى المدينة «آشور-ماتسو-أورابيش»، سك ... وعلى المدينة «آشور-نا كامتي-لال» وبوديمي ... على المدينة «ليمير إشاك آشور»، ديمو ... وعلى المدينة «كاربنيت»، وسن ... على المدينة بيت مردوك، والمدينة «شا-آشور-تارو»، والمدينة ... «أراد-نانا»، وضابطي «مور ككيسو» ... أواربيس في المدينة ... «وكيزير إشتار» في بلدة «شا-إموق-آشور» ... بمثابة قربان تضحية منظمة لآشور والآلهة العظام» تسعة تلنت وتسعة عشر مينا من الذهب وثلاث مائة ... و١٥٨٥ لباسا ... وخشب

> أبنوس «أو شجر» و١٩٩ جلد ١٠٠٠ … ٤٠ حصانًا … ٤١٨ و٣٠ كبشًا … ٣٢٣ و١٩ حمارًا … بمثابة جزية تدفع لحكم بلاد آشور … آشور …

هذه هي المتون التي وصلت إلينا عن غزو «إسرحدون» الآشوري لمصر في حملته العاشرة، كما تحدثنا الوثائق الآشورية، ومما يؤسف له جد الأسف أن المتون المصرية التي كشف عنها حتى الآن لم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى هذا الغزو قط؛ لأنه كان على ما يظهر سلسلة هزائم للمصريين.

وعلى الرغم مما جاء في هذه المتون من مبالغات، فإن شواهد الأحوال تدل على أن الآشوريين قد لاقوا صعابًا قليلة في فتحهم لمصر والاستيلاء على الدلتا، وقد كان ذلك من الأمور الهينة عليهم، وبخاصة عندما نعلم أن بلاد الوجه البحري كانت مقسمة إلى مقاطعات أو دويلات صغيرة لم يستطع الفتح الكوشي أن يصهرها ويؤلف منها وحدة متماسكة، فلما دخل جيش «إسرحدون» أفاد من الانقسام الذي كان بين حكام الدلتا، واتبع السياسة المشهورة «فرق تسد»، وقد أراد «إسرحدون» أن يجعل من أرض الدلتا مقاطعة آشورية، فأخذ يغير أسماء البلدان التي فتحها بأسماء آشورية، بل تغالى في آشوريته فغير بعض أسماء الحكام المصريين بأسماء آشورية ظنًّا منه أن يستطيع بذلك قلب أرض الكنانة إلى أرض آشورية، ولكن سنرى أن هدفه لم يصب المرمى، يضاف إلى ذلك أنه سار على نهج أسلافه فأخذ ينقل الكثير من أهل الحرف والصناعات الدقيقة إلى بلاده، كما استولى على كل ما في البلاد من كنوز ونقلها إلى بلاده، ورتب القربان لآلهته «آشور» والآلهة العظام بفرض ضرائب من الذهب والفضة والملابس والماشية ومن كل ما تنتجه أرض مصر.

والواقع أن هذه الغزوة كانت أول غزوة أجنبية حقيقية أحس مرارتها المصريون منذ احتلال الهكسوس بلادهم، ولذلك لم يصبروا كثيرًا على مضض الحكم الآشوري، عاد بعد هذه الغزوة «إسرحدون» إلى «آشور»، وفي طريقه أقام لوحة في «سامالا» وأخرى عند نهر الكلب في فينيقيا كما ذكرنا من قبل.

ومن العجيب أننا نراه مرسومًا في هذه اللوحة واقفًا كما قلنا بجلال، في حين أن «بعلو» ملك صور «وتهرقا» ملك مصر الذي رسم بتقاطيع زنجية قد صُوِّرا بصورة هزلية راكعين وهما يرسفان في السلاسل والأغلال ليقبِّلا طرف ثوب هذا العاهل، ومن سخرية القدر اللاذعة أننا نجد هذا الأثر الآشوري منصوبًا جنبًا إلى جنب بجوار اللوحة التي أقامها «رعمسيس الثاني» عندما أخضع هذه البلاد (راجع مصر القديمة الجزء السادس)، غير أن هذا الرسم الرمزي لانتصار ملك آشور لا يمثل الحقيقة الواقعة بل هو من نسج خياله؛ وذلك لأن «بعلو» ملك «صور» لم يقبل شروط الصلح التي أملاها عليه «إسرحدون» كما أن «تهرقا» لم يوضع قط في الأغلال، ولم يكن في حاجة لتقبيل طرف ثوب «إسرحدون»؛ إذ نجده بعد رحيل هذا العاهل مقيمًا في الوجه القبلي، وقد طلب إلى السكان مساعدته فلبوا نداءه؛ لأنهم كانوا غير راضين عن تصرفات «إسرحدون» التي أفاد منها أمير من الدلتا،

وفعلًا هبوا مرة أخرى في وجه الحكم الآشوري مما اضطر عاهله إلى أن يدبر الأمر للزحف على مصر كرة أخرى حوالي عام ٦٦٩ق.م، غير أن الحملة قد أوقفت فجأة قبل أن تصل إلى الحدود المصرية؛ وذلك لأن «إسرحدون» أصيب بمرض ومات في الشهر الثامن من هذه السنة، ومن أجل ذلك رجع الجيش الآشوري أدراجه إلى بلاده دون أن ينجز مأموريته.

ويميز مشروع حملة «إسرحدون» إلى مصر بطابع فريد، فقد ذكرنا من قبل أن كل الحملات التي قام بها الآشوريون منذ عهد «سرجون الثاني» وأخلافه كانت حملات دفاعية، فنجد أن الأعمال العظيمة التي أحرزها كل من «سرجون» «وسنخرب» كانت مركزة في تمكين الحكم الآشوري في داخل الأقاليم الواسعة التي اعترفت بسلطان «تجلات بليزر الثالث»، ولكن نجد أن «إسرحدون» قد شغل نفسه بتدبير فتح بلاد لم يكن سلفه قد دخلها من قبل، وتفسير سلوكه في اتخاذ هذا السبيل ليس بالأمر الصعب، فقد كانت مصر كما ذكرنا من قبل منذ أكثر من عشرين عامًا تعمل على بث الفتن والقلاقل ضد آشور في الممتلكات المتاخمة لها، ومن المحتمل أنها كانت لها يد في تحريض «مروداخ بلدان» على القيام في وجه «آشور»، ولكن مما لا ريب فيه أنها تحالفت مع «حزقيا» وبلا شك كانت المحرضة لفينيقيا على القيام بثورة على آشور.

وعلى ذلك كان ينظر إلى الفرعون في نينوة بأنه العدو الأول لملكها، وقد كانت الطريقة الطبعية المثلى للقضاء على نشاطه الطبعي أبديًّا هو غزو مصر والاستيلاء عليها جملة، ومع ذلك فإن السعي لابتلاع أرض الكنانة في جوف الإمبراطورية الآشورية كان على الرغم من نجاحه مؤقتًا مصدر داء عياء لآشور، فقد كان الخطر الرئيسي في كل الأزمان السالفة على «آشور» ينبعث من حدودها الشمالية أو الشرقية، فإذا كان «إسرحدون» قد وجه عنايته الشخصية إلى مجريات الأحوال في «ميديا» «وآسيا الصغرى» فإنه لم يكن في حاجة للإقدام على غزو في ظاهره سهل كان سينكشف لأخلافه في الحال أنه من المستحيل عليهم المحافظة عليه أو البقاء فيه مدة طويلة كما ذكرنا من قبل.

وعلى أية حال فإن مدة حكم «إسرحدون» قد بلغت القمة في العزة والفخار، فإنه فضلًا عن ألقابه الوراثية الضخمة قد تحلى بلقب ملك ملوك مصر، وهو لم يكن لقبًا أجوف.

وتدل الوثائق على أن سير الأحوال في داخل بلاده في آخر حكمه أصبح صعبًا بسبب المنازعات في البلاط من أجل وراثة العرش من بعده، فقد كان بِكر أولاده الذي يدعى «شماش-رشوم-أوكن» ليس بالمرغوب فيه ليكون وليًّا للعهد؛ إذ كان هناك حزب قوي يعارض في ذلك، وكان قصد «إسرحدون» الأصلي تنصيب ابن آخر يدعى «سن-إدينا-أبولو» غير أن رغبته لم تنفذ؛ لأن هذا الأمير كان قد مات، أو لأن الملك عندما استشير في تعيينه وصيًّا كان جوابه بالنفي، وفي عام ٦٧٠ق.م عندما كان «إسرحدون» عائدًا من مصر كانت آشور مهددة بحرب داخلية؛ لأن رجال البلاط كانوا منشقين، بعضهم خارج على بعض، فريق منهم يعاضد «شماش – شوم-أوكن» والآخر يناصر «آشور بنيبال»، وكانت كفة الأخير هي الراجحة، وقد حل «إسرحدون» هذا النزاع ببعض الصعوبة، فعين «آشور بنيبال» الوارث لعرش آشور، أما

«شماس-شوم-أوكن» فقد عين ولي عهد «لإسرحدون» في «بابل» على شرط أن يعترف بسلطان أخيه عليه بوصفه ملك آشور، غير أن بعض الأشراف لم يرضوا بذلك وشرعوا في القيام بثورة، ولكن «إسرحدون» أخضعها وقضى على مثيريها «والواقع أن حل «إسرحدون» لهذه المسألة كان موفقًا؛ لأنه لم يحدث أي اضطراب بعد وفاته».

(أ) حروب «إسرحدون» التي شنها على بلاد العرب

تدل النقوش التي تركها لنا إسرحدون على أن والده «سنخرب» كان قد شن حربًا على بلاد العرب لخروجها عن طاعته، وأن هذه البلاد في عهد «إسرحدون» قد خضعت له وقدمت له الجزية، ثم لم تلبث أن ثارت على «إسرحدون» كرة أخرى فأخضعها ثانية، وهاك المتون التي وصلت إلينا من عهد «إسرحدون» لما لها من أهمية في تاريخ الشرق.[٦٢]

جاء على مخروط[٦٣] ما يأتي: ومن «أدوماتو» حصن العرب القوي الذي فتحه «سنخرب» ملك «آشور» والدي، والذي منه أخذ أمتعته وتماثيله، وكذلك «أسكالاتو» ملكة العرب، وأحضر كل هذه الأشياء إلى آشور، وقد أتى هزيل ملك العرب بهدايا ذات وزن إلى «نينوة»، وهي البلدة التي أحكم فيها، وقبَّل قدمي، وقد تضرع إليَّ أن أعيد تماثيله، وأخذتني الشفقة به، وقد أصلحت الأضرار التي في أصنام «أتارسامين» «وداي»، «نوهاي» «ورولدايو» «وأبيريلو» «وأتارقوروما» آلهة العرب، وأعدتها له بعد أن كتبت عليها نقشًا معلنًا سموَّ قوة آشور ربي واسمي، وقد جعلت «تاربوا» التي نشئت في قصر والدي ملكة عليهم، وأعدتها إلى وطنها ومعها آلهتها، وقد فرضت عليه جزية إضافية دفع خمسة وستين جملًا وعشرة مهارى أكثر من قبل، وعندما حمل القدر «هزيل» (مات) نصبت «ياتا» ابنه على عرشه، وفرضت عليه جزية إضافية قدرها عشرة مينات من الذهب و١٠٠٠ حجر بيروتي و٥٠ جملًا و١٠٠ كيس «جلد كونزو» فيها مادة عطرية أكثر مما كان يدفع والده، وقد أغرى فيما بعد «وهب» (وابو) كل العرب على الثورة على «ياتا»؛ لأنه أراد أن يصبح ملكًا، ولكني أنا «إسرحدون» ملك «آشور» وملك أطراف العالم الأربعة الذي يحب العدالة ويلعن الالتواء أرسلت جيشًا لمساعدة «ياتا»، وقد هزم كل العرب، وقد ألقوا «وهبًا» والجنود الذين كانوا حوله في السلاسل وأحضر إليَّ، وقد وضعت أطواقًا حول رقبتهم وربطتهم في أعمدة بوابتي.

ومن قطعة منقوشة بالمتحف البريطاني نقرأ ما يأتي:[٦٤]

> «وارزاني» الواقعة على نهر مصر وصلت إليه … وضربت … وأحضرت «فلان ومعه غنيمة ضخمة» إلى بلاد «آشور»، وقد ربطته كالخنزير في بوابة … «أما هزيل ملك بلاد العرب» فإن بهائي الذي يبعث الرهبة قد تغلب عليه، وأحضر إليَّ ذهبًا وفضة وأحجارًا كريمة «و …» وقبَّل قدمي، وفرضت عليه خمسة وستين جملًا أكثر من الجزية التي كان قد فرضها والدي، وبعد ذلك مات «هزيل» «وابنه ياتا» جلس على

> عرشه، وقد فرضت ثانية عليه جزية إضافية قدرها عشرة مينات من الذهب و١٠٠ حجر «بيروتي» وخمسين جملًا فوق الضرائب التي كان يدفعها والده، وعلى أية حال أغرى «وهب» كل العرب على أن يقوموا بثورة على «ياتا» و… «ولكني» أنا «إسرحدون» الذي … الالتواء لعنة أرسلت فرقة من الرماة ممتطين صهوة الجياد من جيشي وهدأت العرب وجعلتهم يخضعون له «أي إلى ياتا»، وقد أحضروا «وهبًا» ومعه القواد الآخرون إلى بلاد «آشور»، وقد ربطوه في الجانب الأيسر «لبوابة عامل المعدن» في «نينوة» وجعلوه يحرس «عبدي ميلكوتي» ملك «صيدا» (وساندواري) ملك كوندي وسيزو …

ولم يميز عصر «إسرحدون» بأي طابع فني جديد، ولكن المباني في عهده سارت على قدم وساق في كل من «بابل» «ونينوة»، وقد ارتكب في حياته حادث تخريب يعد فريدًا في بابه في التاريخ الآشوري، لو حدث في عهد أي ملك من ملوك مصر القديمة في عهد الدولة الحديثة لعد أمرًا عاديًّا، وذلك أنه خرب بعض مباني مدينة «كالح» فقد وُجدت أحجار منقوشة عليها تواريخ الملك «تجلات بليزر الثالث» قد نزعت من مكانها ووضعت في جدران قصر جديد كان يقوم ببنائه «إسرحدون» بعد أن محا ما عليها من الكتابة جزئيًّا وكتبها من جديد باسمه، والواقع أن احترام آثار الأجداد والمحافظة عليها كان من الأمور التي يمتاز بها ملوك «آشور» «وبابل» على السواء، وإنه لمن المهم جدًّا أن نصل إلى سبب البغض الذي حرض «إسرحدون» على ارتكاب مثل هذا العمل الشائن ضد ملك خدم بلاده خدمة صادقة.

وعلى أية حال فإن أهمية عهد «إسرحدون» كانت بوجه خاص منحصرة في سياسته، فإنه كان في كل جهة من جهات إمبراطوريته ثابت القدم موطد الأركان، إلا في الشمال الغربي فكان مهددًا بقوى عظيمة متزايدة لم تكن معروفة من قبل؛ إذ الواقع أنه بالبدء في فتح مصر قد خلق مشاكل وصار ذلك مصدر داء عياء لم تُشْفَ منه إمبراطوريته.

(٧-٢٦) عصر «آشور بنيبال» ٦٦٩–٦٢٦ق.م

يمتاز الملك «آشور بنيبال» بأنه نشئ تنشئة أدبية علمية راقية دون أن يترك جانبًا التفوق في فنون الحرب التي كانت ضرورية لرجل يجري في عروقه الدم الملكي الآشوري، غير أن أهم ما كان يفخر به ويعتز سيطرته على فن كتابة اللوحات المسمارية «أي فن الإنشاء»، هذا بالإضافة إلى إتقان صناعة الكتابة وتجديد الخط المسماري، وقد جاء مصداقًا لما ادعاه من إتقان هذا الفن المكتبتان الفاخرتان اللتان جمع وثائقهما بنفسه في مدينة نينوة، حقًّا إن بعض من سبقه من الملوك مثل «سرجون الثاني» قد جمع مؤلفات عظيمة، ولكن «آشور بنيبال» قد تخطاه في ذلك بدرجة ممتازة، فنعرف من بعض إمضاءات على بضع لوحات من المؤلفات التي احتوتها مكتبته أن بعض المتون قد قرئت له ليوافق عليها بنفسه، وليس من باب الخيال أننا نجد سلسلة السجلات التاريخية التي ترجع إلى بداية حكمه كانت من عمل «آشور بنيبال» نفسه، هذا؛ وكان ولعه بالفن عظيمًا كما كانت الحال مع «سنخرب» جده، فقد

كشف في قصره عن مناظر متقنة الصنعة ستبقى دائمًا أجمل أمثلة للفن الآشوري، ولا نزاع في ذلك؛ فإن عصر «آشور بنيبال» في نظر المفتنين الأحداث يعد من العصور الممتازة في تاريخ الفن والثقافة، والتعبير الحديث الذي يربط اسم هذا الملك بالثقافة التي أوجدها يمكن قرنه بعصر ثقافة الإمبراطورية الرومانية التي ازدهرت باسم «أغسطس» العاهل الروماني العظيم، وإنه لمن المستحيل الآن أن نزن بميزان العدل هذه الثقافة، وبخاصة لأن المدن الآشورية لم تكشف للأثريين إلا عن القليل من البقايا المعمارية والسجلات المكتوبة بالخط المسماري، والواقع أن الأشياء التي كان يستعملها هؤلاء القوم القدماء سواء أكانت مصنوعة من المعدن أم من الخشب لم يبقَ منها إلا القليل، هذا بالإضافة إلى الكنوز النادرة التي كانوا يكنزونها في معابدهم وقصورهم ومقابرهم، فقد نهبت وأصبحت كأن لم تغنَ بالأمس في كثير من الأحوال، ولما كان من الضروري وجود شواهد مادية مقنعة من هذه الأشياء فإنا نضطر عند البحث والاستقراء إلى اللجوء للمواد المكتوبة لنبني منها ثانية مدنية هؤلاء القوم وثقافتهم.

ولا نزاع في أن هذه الاستنباطات التي تأتي بهذه الصورة لا يمكن أن تكون كاملة، بل تكون أحيانًا خاطئة، فمن ذلك ما يظن عادة أن النظام الجماعي والسياسي في مملكة «بابل» وفي مملكة «آشور» يتشابهان كثيرًا بوجه خاص؛ لأن التفاصيل التي نعرفها عن أحد البلدين قد استعملت لتتمم معلوماتنا عن الأخرى، ولكن البحوث الحديثة قد أظهرت أن مدنية البلدين كانت تختلف الواحدة عن الأخرى كاختلاف المدنية الإغريقية عن المدنية الرومانية.

(أ) مقدمة لحروب «آشور بنيبال» وفتح مصر

يرجع المستوى الراقي الذي نراه في الثقافة الآشورية في عهد «آشور بنيبال» إلى أن السيادة الآشورية ظلت مستمرة بنجاح عدة قرون من الزمان، ولم يكن في باكورة حكمه أية بادرة تشير إلى أن السيادة الآشورية يمكن مهاجمتها والتغلب عليها، ولا ريب في أن السنين الأولى من حكم هذا العاهل كانت مفعمة بالمشاريع الحربية الموجهة إلى أجزاء مختلفة من حدود إمبراطوريته، وكان يقوم هو بنفسه على رأس جيشه ويقوده، غير أن هذه الحروب كانت من طراز الحروب العادية التي لم يكن فيها أمور معقدة إلا نادرًا.

ولدينا عدة نسخ من تواريخ «آشور بنيبال» تحتوي على بيانات عن حملاته المختلفة، ومما تطيب الإشارة إليه هنا أن كتابة نسخ هذه التواريخ في كل عهود ملوك «آشور» كانت تدون بالطريقة التالية بوجه عام: فكانت أول نسخة تكتب في باكورة حكم الملك، وما يكتب فيها لا يبعد عن الحقيقة كما كانت معروفة للمعاصرين، ولكن فيما بعد عندما يقوم الملك بفتح جديد هام أو يشرع في إقامة عمارة هامة، فإنه في هذه الحالة تعد نسخة جديدة يتخذ أساسًا لها النسخة السالفة، فكان المؤلف يقتبس منها باختصارٍ الحقائق التي يرى أنها هامة له، وعندما كان ينتهي من تدوين ما اختاره من أصل ينشئ بقلمه ما يريد تدوينه من الأحداث الجديدة بالتفصيل، وإذا احتاج الأمر فيما بعد إلى تدوين حادث آخر جديد كانت

تتخذ النسخة الأخيرة أصلًا بمثابة مرشد، ثم يضيف إلى ما أخذه منها ما يريد تدوينه من الحوادث الجديدة؛ وهكذا إلى أن تصبح آخر نسخة كأنها سجل لحوادث تاريخ هذا الملك جاء فيها الحادث الأخير مفصلًا، على أنه كانت أحيانًا تضاف بعض تحسينات تشوه الحوادث باختصارها، ومن أجل هذه العملية يجب على المؤرخ إذا أمكن أن يستعمل المصدر الأصلي لكل حادثة الذي كتب خاصًّا بها، ومن ثم يتضح لنا قيمة النسخ المختلفة التي نجدها في تواريخ هؤلاء الملوك، وبعبارة أخرى يمكن القول إن ملوك «آشور» كانوا يلخصون ما قاموا به من قبل عند تدوينهم لحادثة خاصة تأتي في النهاية بالتفصيل.

ولدينا نسخ كثيرة جدًّا لتواريخ «آشور بنيبال» تحتوي على بيانات عن حملات تتفق الواحدة مع الأخرى إلا في حالة واحدة، وهي أن مؤلفًا من مؤلفي النسخ الأخيرة كان يرغب في إدخال بعض تعابير أدبية في سياق موضوعه، مما اقتضى معالجة حملات «آشور بنيبال» من الناحية الجغرافية لا من ناحية التسلسل التاريخي، في حين أنه قد استعمل عبارات يظهر أنها تشير إلى التأريخ، فمثلًا مجد أن الحملتين اللتين قام بهما «آشور بنيبال» على مصر قد وضعتا في أول الكلام، والحديث عن علاقات «آشور بنيبال» بمصر قد جعل الثورة التي قام بها «بسمتيك» كأن كل حوادثها قد وقعت في السنتين الأوليين من حكم هذا الملك، وهذا خطأ، والواقع أن هذا الخلط قد نشأ عن قلة المهارة في معالجة المادة التي تناولها المؤلف، ومن ثم نجد أن انحراف الكاتب عن الترتيب الحقيقي للحوادث كما وقعت قد سبب بعض الإبهام.

فتح مصر

إن أول حادث هام وقع في أول حكم «آشور بنيبال» هي الحملة التي سار على رأسها لفتح مصر من جديد، ولا ريب في أن موت «إسرحدون» وهو يتأهب لغزو مصر من جديد قد قوبل من ناحية «تهرقا» فرعون مصر والسودان بفرح عظيم؛ إذ مهد أمامه فرصة لإعادة حكمه على مصر بعد أن طرد من الوجه البحري، فسار هذا الفرعون بجيشه شمالًا ودخل «منف»، ومن ثم أرسل جنودًا إلى أعالي الدلتا ليقوموا بمظاهرات على الأمراء المحليين والحكام الآشوريين الذين ترك في أيديهم «إسرحدون» حكم هذه البلاد، فلم يُبْدِ أمراء الدلتا الموالين «لآشور» أية مقاومة، بل ولوا الأدبار شرقًا طالبين العون في حينه من «آشور»، وقد وصل الجيش الآشوري إلى مصر عام ٦٦٧ق.م، بعد أن قطع مسافة طويلة في أرض وعرة المسالك لينقذ موقف هؤلاء الحكام الذين كانوا في خطر عظم بسبب عدم الكفاية الحربية والجبن، وقد تلاحم الجيشان الآشوري والمصري في واقعة عند «كاربانيتي»، وتقع في مكان ما في شرق الدلتا، وكانت نتجية الموقعة كالمعتاد، فلم يكن في استطاعة النوبيين والمصريين مقاومة الهجوم الآشوري، وارتدوا على أعقابهم في غير نظام، وعندما وصل إلى مسامع «تهرقا» خبر هذه الهزيمة انسحب في الحال من «منف» متقهقرًا إلى «طيبة»، وقد حدث ذلك في سهولة ويسر؛ بسبب تأخر الجيش الآشوري الذي كان ينتظر مددًا مؤلفًا من عشرين فرقة أرسلها الأمراء الخاضعون لآشور في سوريا وقبرص وفينيقيا وفلسطين، وقد

زحف الآشوريون في النهاية إلى «منف» التي وقعت في أيديهم بعد بضعة أيام، وعلى إثر ذلك أخذ «آشور بنيبال» أو نائبه في إعادة الأمراء المصريين الذين طردهم «تهرقا» من إماراتهم ومقاطعاتهم.

هذا؛ وتدل إعادة الحكام الوطنيين إلى مقر حكوماتهم على أن «آشور بنيبال» قد أخذ يفطن لمواطن الضعف الرئيسية في موقف الآشوريين في مصر، وذلك أنه إذا لم يتمكن الحكام الآشوريون من جعل الحكام الوطنيين يقومون بخدمته بكل صدق وأمانة فإنه سلطتهم لا يمكن أن توطد أركانها في بلاد مثل مصر بعيدة عن آشور، وقد دلت الأحداث القريبة العهد على أنه لا بد من وجود حاميات قوية في مصر أكثر مما كان يظن «إسرحدون»، وقد حدث ما أثبت ذلك قبل عودته إلى «نينوة»، والواقع أن مغادرة الجيش الآشوري الرئيسي مصر كان بمثابة إعلان لقيام ثورة من جانب نفس الأمراء الذين أعادهم «آشور بنيبال» إلى مقاطعتهم في الدلتا، وقد انضم «نخاو» وحاكم منف «وسايس» إلى «منتومحات» حاكم مقاطعة طيبة، وكذلك كل الأمراء العظام من حكام المقاطعات، وقدموا للملك «تهرقا» الذي كان وقتئذٍ في عاصمة بلاده «نباتا» في النوبة ولاءهم على شرط أن يعود لمحاربة المغتصب لبلادهم، وقد كان في استطاعة الحكام الآشوريين في الدلتا القضاء بسهولة على هذه المؤامرة في عام ٦٦٦ق.م؛ إذ قبضوا على رؤساء المتآمرين في الوقت المناسب، وبذلك استطاعوا أن يقبضوا على ناصية الحال في البلاد دون حاجة إلى استدعاء «آشور بنيبال» لمساعدتهم.

ولو كان «آشور بنيبال» يعتقد في قرارة نفسه أنه في استطاعته أن يجعل من مصر إقليمًا آشوريًّا بحتًا ما تأخر عن تنفيذ هذا العمل الجليل، إلا أنه كان يرى استحالة الوصول إلى غرضه؛ ولذلك لم يعامل الأمراء الذين أسرهم بقسوة بالغة كالقسوة التي كان يستعملها الحكام في مصر مع الجنود الوطنيين، وقد خص «آشور بنيبال» حاكم «منف» «وسايس» «نخاو» بفضله وإنعاماته الملكية، وعند موت «تهرقا» عام ٦٦٤ق.م كان قد أعاده إلى «سايس»، في حين أن ابنه «بسمتيك» الذي سماه الآشوريون «نابو-شرباني» كان قد عُيِّن حاكمًا على «أتريب» (بنها الحالية)، وقد أفلحت سياسة «آشور بنيبال» لمدة، ولكن لما مات «تهرقا» وخلفه على عرش ملك مصر والسودان الملك «تانوت آمون» بن «شبتاكا» قام بمحاولة باسلة لإعادة سلطان بلاد النوبة على مصر، فزحف بجيشه على البلاد المصرية، وبعد أن استولى على «طيبة» «وعين شمس» زحف في الدلتا وحاصر الآشوريين في «منف» ظنًّا منه أنه لن يصل إلى الآشوريين مدد، ولكن جيش «آشور» كان قد زحف على مصر في أوائل عام ٦٦٣ق.م فلم يسع «تانوت آمون» إلا الارتداد بسرعة إلى «طيبة»، في حين أن ملك «آشور» أو نائبه قد رحب به الأمراء التابعون لآشور، ولم يرغب «تانوت آمون» في المقاومة عند «طيبة» بل استمر في هربه جنوبًا، فسقطت «طيبة» في أيدي الآشوريين بعد مقاومة طفيفة، وحمل منها الآشوريون مغانم ضخمة، وعلى ذلك قضى الآشوريون على سيادة الكوشيين في مصر، وقد أدى موت «نخاو» عام ٦٦٣ق.م إلى أن احتل «بسمتيك» ابنه الذي خلفه في حكم «سايس» مكانة قوية أكثر من المعتاد بين الأمراء التابعين لآشور، وقد بقي عدة سنين لم يحنث بيمين الطاعة الذي أخذه على نفسه لملك «آشور»، غير أنه أفاد من

فرصة سنحت له من مساعدة خارجية للقيام بثورة على «آشور»، ففي المدة التي بين عامي ٦٥٦–٦٥١ق.م نجح في طرد الحاميات الآشورية من مصر بمساعدة الجنود الليديين المرتزقة الذين أرسلهم له حليفه «جيجنر» ملك «ليديا»، وتدل السهولة التي انتصر بها «بسمتيك» على الآشوريين على أن «آشور بنيبال» لم يكن مهتمًا بفقد مصر، ومن المحتمل أن حاجة «آشور بنيبال» إلى جيش كبير للمحافظة على مصر هو الذي صرفه عن محاولة فتحها كرة أخرى؛ وذلك لحاجته إلى هذا الجيش في جهات أخرى من حدوده، ولا نزاع في أن فقدان «آشور» لمصر لم يكن خسارة عظيمة في نظر ملك «آشور»، وعلى ذلك فإنه اكتفى بعقد محالفة هجومية دفاعية بينه وبين مصر.

هذا موجز عن الحملتين اللتين قام بهما «آشور بنيبال» لفتح مصر بعد موت والده «إسرحدون»، وسنورد هنا المتون التي جاءت في النقوش الآشورية عن هذا الفتح، أما ما قام به الكاهن الرابع «منتومحات» وحاكم مقاطعة «طيبة» والوجه القبلي تقريبًا في ذلك العهد، فإنا قد أفردنا له فصلًا عند التحدث عن حكم «تهرقا» وأخلافه.

وهاك النصوص التي وصلت إلينا حتى الآن على حسب ترتيبها بقدر المستطاع …

حملة «آشور بنيبال» على مصر «وسوريا» «وفلسطين»:[٦٥]

> سرت في حملتي الأولى على مصر (ماجان) «وإثيوبيا» (ملوها) أن «تهرقا» (تارقو) ملك مصر (موصور) والنوبة (كوسو) الذي هزمه والدي «إسرحدون» ملك «آشور»، والذي حكم بلاده (أي إسرحدون). إن نفس «تهرقا» هذا قد نسي جبروت «آشور» «وإشتار» والآلهة الآخرين العظماء أربابي، ووضع ثقته في قوة نفسه، فانقلب على الملوك والنواب الذين عينهم والدي في مصر «وفي رواية أخرى لأجل أن يقتل ويسرق ويستولي على مصر لنفسه»، فدخل واستقر في «منف» وهي المدينة التي فتحها والدي وجعلها إقليمًا آشوريًّا، وقد حضر رسول مستعجل إلى «نينوة» ليخبرني بذلك، فاستولى عليَّ الغضب بسبب هذه الأحداث واشتعل روحي، فرفعت يدي وتضرعت إلى الإله «آشور» وللإلهة «إشتار» الآشورية، وبعد ذلك جمعت جيشي العرم الذي وكل إلى أمره الإله «آشور» والإلهة «إشتار» وسلكت أقرب طريق لمصر والنوبة، وفي خلال سيري إلى مصر أحضر إليَّ اثنان وعشرون ملكًا من ساحل البحر والجزر والبر، وهم «بعلو» ملك «صور»، «منسه» ملك «يودا»، «قاوشجبري» ملك «إدوم»، «موسوري» ملك «مواب»، «سيل-بل» ملك «غزة»، «ميتنتي» ملك «عسقلان»، «أكاسو» ملك «إكرون»، «ميلكي-أشابا» ملك «جبيل»، «ياكينلو» ملك «أرواد»، «وآبي بعل» ملك «سامسيمورونا»، «أمينادبي» ملك «بيت عمون»، «أخوميلكي» ملك «أشدد»، «وإكيشتورا» ملك «إديلي»، «بيلا جورا» ملك «بتروس»، «وكيسو» ملك «سيلوا»، «إتواندار» ملك «بابا»، «إريسو» ملك «سيلو»، «داماسو» ملك «كوري»، «أدمسو» ملك «تامسو»، «داموسو» ملك «قاري-ها داستي» (قرطاجنة)،

«أوناساجوسو» ملك «ليدير»، «بوسوسو» ملك «نوري»، هذا إلى اثني عشر ملكًا من الساحل والجزر والبر، وهم خدام تابعون لي، أحضروا عطايا عظيمة لي وقبلوا قدمي، وقد جعلت هؤلاء الملوك يتبعون جيشي على البر وعلى طريق البحر ومعهم قواتهم المسلحة وسفنهم «على التوالي»، وقد زحفت بسرعة حتى «كاربانيتي» لأنجد بسرعة الملك والنواب في مصر وهم خدم تباعون لي، وقد سمع «تهرقا» ملك مصر والنوبة في «منف» بمجيء حملتي وجمع جنوده لمعركة فاصلة علي، وبمقتضى وحي أمين أوحى به «آشور» «وبل» «ونبو» الآلهة العظام، أربابي الذين يسيرون دائمًا بجواري، هزمت الجنود المدربين على الموقعة من جيشه في موقعة عظيمة مكشوفة، وقد سمع «تهرقا» بهزيمة جيشه وببهاء «آشور» الذي يبعث الذعر، وقد أعمته الإلهة «إشتار» حتى أصبح كأنه مجنون، وقد بهره فخامة ملكي الذي منحه إياي آلهة السماء والعالم السفلي، فترك «منف» وهرب لينجو بحياته في بلدة «ني» (طيبة). وقد استوليت على هذه المدينة كذلك وقدت جيشي إليها ليرتاح هناك.

أما «نخاو» ملك «منف» وسايس، «وشارولو داري» ملك «سينو» (بلوزيم)، «وبيشانهورو» (وبيش حو) ملك «ناتو»، «وباكرورو» ملك «بيشابنو» (= بي سبد)، «وبوكوناني-بي» ملك «أتريب» (بنها الحالية)، «وناهكي» ملك «حننشي» (أهناسية المدينة)، «بوتوبشتي» (بتوباست) ملك «سانو» (= تانيس أو صان الحجر الحالية)، «وناmونو» ملك «ناتو»، «وهارسيا أشو» (حورسا إزيس) ملك «سبنوتي» (سمنود)، «بوايما» (= بيماي) ملك «بيتنتي» (منديس = تل الربع الحالية)، «وسو-سي-إن-قو» (شيشنق) ملك «بوشيرو» (بوزيس أبو صير)، «وتابنهتي» (= تفنخت) ملك «بونونو» (بنب)، بوكاناني-بي «باكننتي» ملك أحتي (= حنت أو إحنت)، «وإبتحار دشو» (بتاح أردي-شو) (= بتاح أعطاه) ملك «بيحاتيهورون بي» (كي) (= بي حتحور نبت تب آح = أطفيح)، «نهتيهور وانسنى» ملك «بيشابدي» (= بيسبد = صفت الحن)، «بوكورنينب» (بكنتفي) ملك «باحنوتي»، «وصيحا» ملك سيوط، «ولمنتو» (نمروت) ملك «خيموني» (الأشمونين)، «أسبيماتو» (بساموت) ملك «تايين» (طينة)، ومنتيمنحي (منتومحات) ملك «ني» (طيبة).

وهؤلاء الملوك والحكام والنواب الذين كان قد نصبهم والدي في مصر وهم الذين تركوا وظائفهم في وجه ثورة «تهرقا» وانتشروا في العراء أعدتهم إلى وظائفهم، وفي أماكن وظائفهم السابقة، وبذلك قبضت من جديد على زمام الأمور في مصر والنوبة، وهما اللتان فتحهما والدي من قبل، وقد جعلت الحاميات أقوى من قبل، وقوانينها أحزم، وقد عدت سالمًا بأسرى كثيرين، وغنيمة فادحة إلى «نينوة».

وعلى أية حال فإن كل الملوك الذين نصبتهم، نقضوا أيمانهم التي عقدوها، ولم يحافظوا على الاتفاقات التي أوثقوها بالحلف بالآلهة العظام، ونسوا أني عاملتهم بلين ودبروا مؤامرة خبيثة، وقد تحدثوا عن أمر العصيان واتفقوا فيما بينهم على القرار الدنس التالي: والآن

حتى عندما طرد «تهرقا» من مصر كيف يكون في مقدورنا نحن أن نأمل في المكث؟ وعلى ذلك أرسلوا رسلهم ممتطين جيادهم إلى «تهرقا» ملك النوبة ليضع اتفاقًا وثيقًا هكذا: «دع السلام يكون بيننا، ودعنا نأتي إلى تفاهم متبادل، فسنقسم البلاد بيننا، ولن يكون أجنبي حاكمًا بيننا.» وقد استمروا في المؤامرة على الجيش الآشوري، وهي القوات التي كان يرتكز عليها حكمي، وهي التي كنت قد أحللتها في مصر لمساعدتهم، غير أن ضباطي سمعوا عن هذه الأمور وقبضوا على رسلهم الممتطين جيادهم، وبذلك عرفوا عن أعمالهم الثائرة، فقبضوا على هؤلاء الملوك ووضعوا أيديهم وأرجلهم في السلاسل والأغلال، وقد أصابتهم نتائج الأيمان التي نقضوها مع «آشور» ملك الآلهة، وقد حاسبت هؤلاء الذين أجرموا في نقض اليمين الذي حلفوه بالآلهة العظام، وهؤلاء الذين قد عاملتهم من قبل برأفة.

وقد أعمل «الضباط» السيف في السكان صغيرهم وكبيرهم في بلدتي «سايس» (صا الحجر) ومنديس «تل الربع» «وفي رواية أخرى نجد: وقلوب سكان «سايس» «ومنديس» «وتانيس» التي قد ثارت وساعدت «تهرقا» علقتها على عمد، وسلختهم وغطيت بجلودهم جدران المدن»، أما تانيس «صان الحجر» وكل البلاد الأخرى التي كانت قد اشتركت معهم في المؤامرة فإنه لم يفلت أي رجل منها؛ إذ علقوا جثثهم على خوازيق وسلخوا جلودهم وغطوا بها جدران البلاد، أما أولئك الملوك الذين كانوا يتآمرون تكرارًا فقد أحضروهم إليَّ أحياء إلى «نينوة»، ومن بينهم جميعًا رحمت «نخاو» فقط، ومنحته الحياة، وعقدت معه معاهدة مدعمة بمواثيق فاقت كثيرًا مواثيق المحالفة السابقة، وألبسته حلة مزركشة، ووضعت عليه سلسلة من الذهب رمزًا لملكه «وفي ذلك كان يتبع «آشور بنيبال» عادة مصرية»، وألبسته خواتم من الذهب في يديه، وكتبت اسمي هجاءة على خنجر من الحديد «يلبس» في الحزام، وهو مرصع بالذهب، وأعطيته إياه، وأهديته فضلًا عن ذلك خيلًا وبغالًا لحمل الأثقال تليق بمكانته بوصفه حاكمًا، وقد أرسلت معه لمساعدته ضباطًا من ضباطي بمثابة حكام وأعدت له «سايس» لتكون مقرًّا لملكه، وهي المكان الذي كان والدي «إسرحدون» قد نصبه فيه ملكًا، أما ابنه المسمى «نابوشيزيباني» فقد عينته في أتريب «بنها الحالية»، وبذلك عاملته بحظوة وصداقة أكثر مما عامله والدي من قبل، وقد تغلب فزع سلاح الإله «آشور» المقدس سيدي على «تهرقا» في المكان الذي لجأ إليه، فلم يُسمع عنه شيء بعد.

وبعد ذلك جلس على عرشه «أوردمان» (أوتندمان) بن «شبكا» «وفي رواية أخرى ابن أخته»، وقد جعل «طيبة» «وهليوبوليس» حصنيه، وجمع قوته المسلحة، وحشد جنود موقعته المدربين لمهاجمة جنودي، وعسكر الآشوريون في «منف» وحاصر هؤلاء الرجال واستولى على كل مواصلاتهم «أي المنافذ التي يمكن أن يخرجوا منها»، وقد حضر إلى «نينوة» رسول مستعجل وأخبرني بذلك.

وفي حملتي الثانية: زحفت مباشرة على مصر والنوبة، وسمع «أوردمان» (تانوت آمون) باقتراب حملتي فقط عندما كانت قد وطئت قدماي الأراضي المصرية، فترك «منف» وفر إلى طيبة نجاة بنفسه، وجاء الملوك والحكام والنواب الذين نصبتهم في مصر لمقابلتي وقبلوا

قدمي، فتتبعت «أوردمان» وسرت حتى طيبة حصنه، فلما رأى صفوف جنود موقعتي ترك «طيبة» وهرب إلى «كبكيبي»، وعلى حسب وحي أمين من الإلهين «آشور» «وإشتار» فتحت هذه المدينة تمامًا، وقد[٦٦] استوليت من طيبة على غنيمة فادحة يخطئها العد، وهي: فضة وذهب وأحجار ثمينة، وكل متاعه الشخصي، وملابس كتان مزركشة، وجياد جميلة، وبعض سكان من الذكور والإناث، وخلعت مسلتين من مقاعدهما، وهما قالبان صُبَّا من البرنز اللامع «يقصد من المسلتين غطاء «بنبت» الهرمي الشكل الذي كان يوضع فوق المسلة» وزنهما ٢٥٠٠ تلنت، وكانتا منصوبتين عند باب المعبد، وحملتهما إلى بلاد «آشور»، وعلى ذلك حملت من طيبة غنيمة ضخمة لا حصر لها، وجعلت مصر وبلاد النوبة تشعران بوطأة أسلحتي بمرارة، واحتفلت بانتصاري، ثم عدت إلى «نينوة»، وهي المدينة التي أدير الحكم منها، مملوء اليدين سالمًا.

هذا؛ ولدينا بعض نقوش أخرى تحدثنا عن فتحه لمصر جاءت على قطع آثار مختلفة نذكر منها ما يأتي لما فيها من بعض إيضاحات لم تذكر في النقش السابق.

فقد جاء في نقش على أسطوانة:[٦٧]

> «ماجان» «وملوخا» وهو «إقليم» بعيد … «وهو الذي» تقدم نحوه «إسرحدون» والدي ملك بلاد «آشور» هازمًا هناك «تهرقا» ملك النوبة «كوش»، مشتتًا جيشه، وفتح مصر والنوبة، وحمل منها جزية يخطئها العد، وحكم على كل البلاد وضمها إلى «مملكة آشور»، وغير أسماء البلاد السابقة وأعطاها أسماء جديدة، ونصب خدامه وحكامه في هذه البلاد، وفرض عليهم جزية سنوية تدفع له بوصفه السيد الأعلى … مسافة ستون ياردة؟ … منف …

وجاء في نقش من المتحف البريطاني:[٦٨]

> خمسة وخمسون من تماثيلهم لملوك مصر … وكتب «عليها …» النصر الذي أحرزه بيده … بعد أن مات والدي «إسرحدون».

ومن متن آخر بالمتحف البريطاني[٦٩] جاء ما يأتي:

> وقد أتى الملوك من الشرق والغرب وقبلوا قدمي، ولكن «تهرقا» (تاركو) دبر الاستيلاء على مصر ضد «إرادة» الآلهة، ولأجل … ولم يكترث بقوة الإله «آشور» ربي، ووضع ثقته في قوة نفسه، ولم يستعد إلى ذاكرته الطريقة الخشنة التي عامله بها والدي،

فسار ودخل «منف» واستولى على هذه المدينة لنفسه، وسير جيشه على الآشوريين الذين كانوا في مصر وهم خدام تابعون لي، وهم الذين كان «إسرحدون» والدي قد عينهم هناك ملوكًا، ليذبحهم ويأسرهم ويجعلهم غنيمة لنفسه، وقد جاء رسول مستعجل إلى «نينوة» ليقدم إليَّ تقريرًا بذلك، فغضبت بسبب هذه الحوادث، وكان روحي مشتعلًا، فجمعت القائد الأعلى «تورتان» والحكام، وكذلك مساعديهم، وأصدرت الأمر في الحال لجيشي الحربي ليساعدوا بسرعةٍ الملوك والحكام والخدام التابعين لي، وجعلتهم يبدءون الزحف على مصر، وقد ساروا بسرعة جنونية إلى أن وصلوا إلى بلدة «كاربانيتي»، فترك «تهرقا» «منف» مقره الملكي، وفي المكان الذي كان قد وضع فيه ثقته، لينجو بحياته، وركب سفينة تاركًا معسكره هاربًا بمفرده، فدخل طيبة «ني»، فاستولى محاربو «آشور» على كل سفنه الحربية التي كانت معه، وقد بعثوا إليَّ بالخبر السار بوساطة رسول حمل إليَّ تقريرًا شفويًّا، وبعد ذلك أمرت بأن يضاف إلى قوتي الحربية السابقة في مصر الضابط «ربشباك» وكل الحكام والملوك التابعين للإقليم الواقع خلف النهر «أي الفرات»، وهم خدام تابعون ومعهم قواتهم وسفنهم ليطردوا «تهرقا» خارج مصر وبلاد النوبة، فساروا نحو طيبة، وهي بلدة «تهرقا» ملك النوبة الخصينة فقطعوا مسافة مسيرة شهر في عشرة أيام، وعندما سمع «تهرقا» بمجيء جيشي ترك طيبة بلده الحصين وعبر النهر وعسكر على الشاطئ الآخر للنهر، ولكن «نخاو» «وشارولو داري» «وبكرورو»، وهم ملوك كان قد عينهم والدي في مصر، لم يحافظوا على العهود التي وثقوها بحياة الإله آشور والآلهة العظام أربابي، ونقضوا أيمانهم ونسوا الود الذي عاملهم به والدي، وأخذوا يتآمرون عليه، فقد تآمروا باستمرار على الجيش الآشوري المجتمع في مصر، ولأجل أن يخلصوا حياتهم فإنهم دبروا هلاكهم التام، ولكن ضباطي سمعوا بهذه الأمور وقابلوا مكرهم بمثله، فقبضوا على «شارولوداري» «ونخاو».

أما أنا «آشور بنيبال» الذي يميل إلى المهادنة فرحمت «نخاو» خادمي الذي نصبه والدي ملكًا في مدينة «كاربلمتاني» (= سايس)، ونصبت ابنه «نابوشزيباني» ملكًا على «أتريب» (بنها الحالية)، وهي التي أصبح اسمها الجديد «ليمير إشاك آشور».

وقد جمع «تندماني» (تانوت آمون) قوته «المسلحة»، وأعد سلاحه وسار لمنازلة جيشي في موقعة فاصلة، ولكن على حسب وحي أمين أوحى به الإلهان «آشور» «وسن» والآلهة العظام أربابي هزمهم جيشي في موقعة عظيمة مكشوفة، وشتت شمل جيشه المسلح، وهرب «تندماني» وحيدًا، ودخل طيبة مقره الملكي، فتابعه جيشي قاطعًا مسافة مسير شهر في عشرة أيام في طرق وعرة حتى طيبة، ففتحوا هذه المدينة تمامًا وحطموها كأنهم فيضان عاصفة، ونقلوا من مدينته ذهبًا، وفضة وُجدت في هيئة تبر في جباله، وأحجارًا ثمينة، وكل أمتعته الشخصية من ملابس كتان مزركشة وجياد جميلة وخدم من رجال وأناث وقردة متوطنة في جباله؛ أي جبال «تندمان»، وكل شيء كان بمقادير كبيرة يخطئها العد، وأعلنوها غنيمة، وقد

أحضروا «الغنيمة» سالمة إلى «نينوة»، وهي البلدة التي أدير فيها حكمي، وقبلوا قدمي.

حرب «آشور بنيبال» مع «سوريا» «وفلسطين» وإخضاع ملكي «تابال» «وسيليسيا» وعهد «جيجز» ملك «ليديا»: استمر «آشور بنيبال» في حصار «صور» الذي كان قد ضربه «إسرحدون» حولها، وتدل الأحوال على أن هذه الحرب قد انتهت بعقد معاهدة صلح كانت شروطها أسمى من التي كان قد عرضها «إسرحدون» من قبل، وأرسلت أميرات صورية إلى حريم «آشور بنيبال» في «نينوة»، وقدم «ياحيمليكي» بن «بعلو» فروض الطاعة لملك «آشور»، وعلى آية حال لم يحجزه «آشور بنيبال» عنده رهينة.

وعلى الرغم من أن «صور» قد ساعدت في الحملة المصرية سنة ٦٦٧ق.م على «آشور»، فإن شواهد الأحوال تدل على أن «بعل» كان لا يزال بعد هذه الحرب يتمتع بمقدار عظيم من الاستقلال، وهاك المتن الذي ورد في هذا الصدد:[٧٠]

في حملتي الثالثة: زحفت على «بعل» ملك «صيدا» الذي يسكن «على جزيرة» في وسط البحر؛ لأنه لم يخضع لأمري الملكي، ولم يكترث لأوامري الشخصية «لشفتي»، فحاصرته بالمتاريس، واستوليت على طرقه في البحر والبر، وبذلك خنقتهم وجعلت مؤنهم شحيحة وأجبرتهم على الخضوع لنيري، وقد أحضر ابنته وبنات أخيه أمامي ليقمن بخدمات حقيرة، وفي الوقت نفسه أحضر ابنه «ياحيمليكي» الذي لم يكن قد عبر البحر بعدُ ليرحب بي بوصفه عبدي، وتسملت منه ابنته وبنات أخيه ومعهن مهورهن، وقد رحمته وأعدت له ابنه الذي أنجبه من ظهره «ياكنلو» ملك «أزواد» الذي كان يعيش كذلك على جزيرة ولم يكن قد خضع لأي ملك من أسرتي، فخضع الآن لنيري، وأحضر أخته ومعها مهر كبير إلى «نينوة» لتقوم بخدمات حقيرة، وقبَّل قدمي.

أما «موجالو» ملك «تابال» الذي خاطب الملوك آبائي بكلمات عداء فقد أحضر ابنة من صلبه بمهر كبير إلى «نينوة» لتكون حظيتي، وقبَّل قدمي، وقد فرضت جزية سنوية عليه من الخيل الكبيرة.

أما «سانداشارم» ملك «سيليسيا» الذي لم يخضع للملوك آبائي ولم يحمل نيرهم فقد أحضر ابنة من صلبه وقبَّل قدمي.

وبعد أن مات «ياكينلو» ملك «أرواد» فإن «آزي بعل» «وآبي بعل» «وآدوني بعل» «وسباتي بعل» «وبودي بعل» «وبعليا شوبو» «وبعل جنونو» «وبعل ملكوكو» «وآبي ملكي» «وأحي ملكي» أولاد «ياكينلو» الذي يسكن «جزيرة» في وسط البحر، فقد أتوا من البحر بهداياهم الثقيلة وقبلوا قدمي، وقد نظرت بسرور إلى «آزي بعل» وجعلته ملك «أرواد» وألبست «آبي بعل» «وآدوني بعل» «وسباتي بعل» «وبودي بعل» «وبعليا

شوبو» «وبعل حنونو» «وبعل ملكوكو» «وآبي ملكي» «وأحي مليكي» ملابس مزخرفة، ووضعت خواتم ذهب على أيديهم وجعلتهم يخدمون في بلاطي.

وفي هذا الوقت بلغ النفوذ الآشوري قمته، ونفذ عن طريق إغريق قبرص إلى شواطئ بحر إيجه، وبدأت بلاد «ليديا» تحتل مكانة بلاد «فريجيا» بوصفها الدولة الرئيسية في الأناضول؛ وذلك لأن المملكة الفريجية كانت قد تحطمت بتصادمها مع «الكميريين» الذين شتت «إسرحدون» جموعهم غربًا عام ٦٧٨ق.م، فأوقعوا الدمار والخراب في كل شبه الجزيرة.

وقد كان من جراء ذلك أن قتل آخر ملوك «ميديا» نفسه يأسا بشرب دم ثور، كما تحدثنا قصة موته عندما خرب مملكته حوالي عام ٦٧٥ق.م، وبذلك خلفه «جيجز» ملك ليديا الذي كان أعظم ملك في «آسيا الصغرى»، كما كان أهم شخصية بارزة وقتئذٍ حاربت «الكميريين» الذين كانوا لا يزالون يعيثون في الأرض فسادًا، وهؤلاء الكميريون كانوا محاربين شبه عراة يمتطون جيادًا برية عارية الظهور، ويلوحون بسيوف جبارة في أيديهم ذات نصال طويلة ثقيلة على هيئة الورق، كانت تخترق الخوذات المتينة الصنع في سهولة ويسر،[٧١] وقد كان السبب الذي من أجله أرسل «جيجز» بعثة إلى ملك «آشور» هو أنه طلب إليه المساعدة على هؤلاء الكميريين المتوحشين، وتدل شواهد الأحوال على أن «آشور بنيبال» لم يقدم له أية مساعدة في هذه الأونة، ومع ذلك فإن جيجيز عدَّه حليفًا له على هؤلاء القوم الهمج، وأرسل إليه بعد انتصاره عليهم أسيرين في السلاسل والأغلال هدية له، وهكذا كان في مقدور ملك «ليديا» إنهاء حربه مع الكميريين بفوز عظيم، وكان تحرير مصر من النير الآشوري على يد مليكها «بسمتيك» سببًا في تغيير مجرى سياسة «جيجيز»؛ إذ أعلن خروجه على «آشور»، وذلك بإرسال فرقة من جنوده إلى الدلتا لمساعدة الفرعون الجديد، ولا نزاع في أن هذه الصداقة التي أظهرها ملك «ليديا» للفرعون «بسمتيك» كان سببًا بلا نزاع يرجع بعضه إلى مصالح تجارية، وربما يرجع بعضه الآخر إلى ثقته في قوة مركزه، غير أن الحوادث قد برهنت فيما بعد على أنه كان على غير حق؛ إذ لمَّا علم الكميريون بالخلاف الذي قام بين «ليديا» «وآشور» انقضُّوا على «ليديا» في عام ٦٥٢ق.م واستولوا على «سردس» ومات بعدها جيجيز.

حرب «آشور» مع «عيلام»: وفي تلك الأثناء كان «آشور بنيبال» قد شرع في محاربة عيلام بقلب فرح، بخاصة بعد أن أكد له الوحي المنزل أن النصر المبين سيكون حليفه، ويرجع السبب في هذه الحروب إلى غزو العيلاميين «بابل»، فانتهز «آشور بنيبال» الفرصة ليقضي على عيلام قضاء مبرمًا أبديًّا، كما فكر هو وكما ظن والده من قبل أنه سيقضي على مصر نهائيًّا، وقد كانت كل الأحوال مواتية وتبشر بالفوز العظيم؛ إذ كانت الإمبراطورية وقتئذٍ في أوج رفعتها وفلاحها، وكانت مصر خاضعة لسلطات «آشور» وبلاد «ليديا» تطلب ودها ومصادقتها، ومملكة «أورارتو» (أرمينيا) لا حول لها ولا قوة، ولم يكن يقف في وجهها إلا «عيلام» وكانت صاحبة قوة وبطش، وعلى ذلك صمم «آشور بنيبال» أن يخضعها بدورها، وبذلك يدين له ملك العالم المتمدين قاطبة على وجه عام، غير أن «آشور بنيبال» لم يقدر

الصعوبات التي كانت تقوم في وجهه لتنفيذ غرضه، حقًّا إنه نفذ غرضه بنجاح، ولكن ذلك كلفه عددًا هائلًا من الرجال، وقد كانت هذه الخسارة في الرجال مضافًا إليها ما كان عليه أن يبقيه من الجنود في مصر سببًا في تمزيق إمبراطوريته في نهاية الأمر، غير أن ظواهر الأحوال لم تكن تدل على مثل هذه النهاية المحزنة.

ومما يؤسف له أن معلوماتنا عن سير الحوادث في خلال نصف القرن الأخير من حياة الإمبراطورية الآشورية ناقصة بعض الشيء، وذلك بسبب اختفاء قائمة «لمو»، فقد انقطعت قوائم هؤلاء العظماء حوالي هذه الفترة، ولم تصل إلينا قوائم جديدة بعد عام ٦٦٦ق.م، ولذلك ليس لدينا عن التواريخ المضبوطة للحوادث التي وضعت وصفًا مفصلًا في عهود الملوك إلا ما يمكن استخلاصه بالحدس والتخمين.

والظاهر أن غزو «العيلاميين» «لبابل» قد حدث عندما كان «آشور بنيبال» غائبًا في مصر حوالي ٦٦٧ق.م بعد موت والده، وقد عقد صلحًا ظاهرًا مع العيلاميين، غير أن الملك «تومان» ملك عيلام الذي خلف الملك «أورتاكي» الغازي العيلامي كان أكثر جرأة من الأخير؛ إذ أشعل نار حرب ثانية بسبب إرساله طلبًا لا مبرر له إلى ملك «آشور» يسأله فيه إعادة كل الأفراد الذكور الذين هربوا إلى «آشور» على إثر موت الملك «أورتاكي» من «بيت عيلام» الملكي، ومن المحتمل أن هذا الطلب قد أرسل قبل حملة «آشور بنيبال» إلى مصر عام ٦٦٣ق.م.

وعندما عاد «آشور بنيبال» من حملته على مصر وجد أن تومان الجريء قد غزا البلاد الآشورية انتقامًا لعدم إجابة طلبه، وكان قد زحف من «دورإيكو» الواقعة في أعالي دجلة نحو العاصمة مباشرة، ولكنه قبل أن يقابله «آشور بنيبال» في ساحة القتال ارتد بجيشه، ولكن ملك «آشور» قفا أثره حتى وصل إلى «سوسا» وحاربه على نهر «أولا» في موقعة قتل فيها تومان، وبعد هذا النصر عين «آشور بنيبال» ملكًا على «عيلام» «خوميا نيجاش» بن «أورناكي»، وجعله تابعًا لآشور بعد أن انتقص أطراف الإقليم الذي كان يحكم عليه بإعطاء جزء كبير منه إقطاعًا لابن «خوميانيجاش» نفسه المسمى «تاماريتو»، وعلى أثر ذلك أخذ «الآشوريون» بلاد «عيلام» حوالي ٦٥٨ق.م، وقد خلد «آشور بنيبال» ذكر هذا النصر بتصوير نفسه في منظر على جدران ممر قصره وهو في وليمة مع زوجه ويتدلى بجانبه رأس «تومان» من شجرة.[٧٢]

على أن ذلك لم يهبط من همم «العيلاميين» بأية حال، فقد انتعش فيهم روح الوطنية بعض الشيء عندما قامت في «بابل» ثورة لم تكن قط في الحسبان، مما أحيا في نفوس «العيلاميين» الأمل لاسترجاع حريتهم، ففي عام ٦٥٢ق.م هب «شماس شوم أوكن» ملك «بابل» التابع «لآشور» بثورة على أخيه «آشور بنيبال»، وكان غرضه أن يخلع أخاه من الملك جملة وينفرد هو بالملك وحده، ويجعل «بابل» عاصمة ملكه بدلًا من «نينوة»، ومن المحتمل أن الأسباب التي دعت «شماس شوم أوكن» إلى القيام بهذه الثورة بعد أن مكث تسع عشرة سنة تحت ظل حكم أخيه هو أولًا مطامحه الشخصية، ثم ما رآه من عدم رضا «الكلدانيين»

عن خضوعهم «لآشور» وبخاصة أنهم كانوا يؤلفون الجزء الأعظم من سكان «بابل»، هذا بالإضافة إلى وجود حركة عامة تهدف إلى العصيان في كل أنحاء الإمبراطورية الآشورية، مما جعل «شماس شوم أوكن» يسرع في تنفيذ غرضه زعمًا منه أنه إذا بقي مخلصًا لأخيه فإنه سيفقد بلا نزاع عرشه في «بابل» لمدة، ويمكنه أن يستفيد فقط بمساعدة أخيه غير أنه يصبح خاضعًا له أكثر مما كان من قبل، من أجل ذلك عقد حلفًا سريًّا حوالي ٦٥٤-٦٥٣ق.م مؤلفًا من عدة بلدان من التي كانت تحت سلطان «آشور»، وكانت بلدان هذا الحلف تمتد من «عيلام» حتى بلاد «يهودا» «وفينيقيا».

والظاهر أن هذه المؤامرة قد كشف سرها أولًا الموظفون الآشوريون الذين كانوا يسيطرون فعلًا على الحكومة المحلية في «بابل»؛ إذ كان في الواقع ملكها بمثابة «ناطور»، وكانت النتيجة أن «شماس شوم أوكن» قد أجبر على إعلان ثورته قبل أن يكون على تمام الأهبة، وقد اندلع لهيب الثورة في جنوب «بابل» فاستولى الثوار على «أور» وإرخ «إريوك»، وقاد الكلدانيين حفيدٌ للملك «مروداخ بلدان»، وكذلك غزا «خوميانيجاش» ملك عيلام ممتلكات آشور، غير أن معسكر العيلاميين كان مأوى للدس والقتل، فقتل «خوميانيجاش» بيد ابنه «تاماريتو»، والواقع أن الثورة كانت رديئة التنظيم، مما جعلها تئول إلى الفشل التام، وشجع «آشور بنيبال» ما وصله من إجابة الوحي على لسان إله القمر بأنه سيكون حسن الطالع في هذه الحروب، فسار جنوبًا وحاصر «سبار» «وكوتا» «وبابل» وطرد «الكلدانيين» إلى «عيلام» واستولى على المدن الثلاث، وأشعل «شوماش-شوم-أوكن» النار في قصره ومات بلهيبها، غير أن «آشور بنيبال» لم ينصب نفسه ملكًا على بابل، بل وضع شريفًا على عرشها يدعى «كادالانو»، وهو الذي يسميه المؤرخ الإيراني «برسوس» باسم كينلاداروس Kéneladaros وبعد طرد الجيش الكلدي إلى «عيلام» طلب «آشور بنيبال» إلى ملكها «أندانيجان» تسليم قائده فرفض، وعلى أثر ذلك دخل العاهل الآشوري «عيلام» وقتل ملكها، وتولى مكانه «خوميا خلداش» الثالث الذي لم يكن على أية حال في أستطاعته إيقاف التقدم الآشوري، فاستولى على «سوسا» ثانية عام ٦٤٦ق.م، وخربت هذه المدينة العظيمة في هذه المرة تخريبًا مريعًا، وقد ذكر من بين الغنائم التي استولى عليها «آشور بنيبال» تمثال الإلهة «نانا» صاحبة «أرح» (أريكو)، وكان هذا التمثال قد حمل إلى «عيلام» الملك «كودور-نانخوندي» قبل ذلك العهد بحوالي ١٦٣٥ عامًا على حسب ما ذكره كتاب الملك «آشور بنيبال»، وقد أعيد هذا التمثال باحتفال إلى محرابه الأصلي، هذا؛ وقد تفادى حفيد الملك «مروداخ-بلادان» التسليم إلى خومباخلداش بقتل نفسه بسيف حامل درعه، وأخيرًا أسر «كوباخلداش» نفسه وسيق أسيرًا، وبموته خربت عيلام خرابًا تامًّا وأصبحت كأن لم تغنَ بالأمس.

الحروب التي شنت بين «آشور بنيبال» وبلاد العرب وما وصل إلينا من متون عنها:[٧٣] بعد أن فرغ «آشور بنيبال» من محاربة «عيلام» ولى وجهه شطر حلفاء «شوماش-شوم-أوكن» في الغرب، وأهم هؤلاء عرب «حوران» وهم سكان خيام «قدار» والنباطيون، وكان ملك العرب في تلك الفترة يدعى «بعلو» الذي كان عينه «إسرحدون» ملكًا، وكان قد تحالف مع «شماس-

شوم-أوكن» على آشور فأرسل عليه «آشور بنيبال» جيشًا، وبعد أن هُزم أو قُتل تولى بعده ملك يدعى وايتي Uaite وقد أبى بدوره الخضوع لآشور، بل قلب لها ظهر المجن، وأشعل الفتنة في البلاد الممتدة من «أدوم» حتى أبواب دمشق، ولكنه هزم وولى الأدبار، والظاهر أنه غُدر به، فقبض عليه الآشوريون وحُمل إلى «نينوة»، حيث عامله «آشور بنيبال» هو وزوجَه «عدية» وحليفَه ملك «قدار» كالكلاب، فقد وضعهم في السلاسل في أوجار كلاب كالحراس أمام قصره، والواقع أن فرقة من جنود العرب قد وصلوا فعلًا إلى بابل لمساعدة الملك «شماس-شوم-أوكن» ونُصِّب قائدهم المسمى «أبيات» ملكًا على بلاد العرب بدلًا من «وايتي»، ولم يكد يصل إلى بلاد العرب حتى ثار بدوره، ولكنه أُخضع، وقد استولى الآشوريون منه على عدد عظيم من الجمال، حتى إن الواحد منها كان يباع في أسواق «نينوة» بنصف شكل من الفضة.

ولدينا عدة متون عن حرب «آشور بنيبال» مع بلاد العرب، مما يضيف إلى معلوماتنا شيئًا عن هذه البلاد المجهولة التاريخ إلى حد بعيد حتى الآن، وسنورد هنا ما وصل إلينا حتى الآن في هذا الصدد، والواقع أن «آشور بنيبال» قد رصد حملته التاسعة لمحاربة العرب بعد أن فرغ من محاربة «كلديا» «وعيلام» فاستمع إلى ما جاء نقوشه:

> وفي حملتي التاسعة جمعت جنودي وسرت مباشرة إلى «وايتي» ملك بلاد العرب «عريبو» وذلك لأنه نقض الأيمان التي حلفها لي، ولم يذكر أني قد عاملته بلين، وقد نزع بعيدًا نير حكمي الذي وضعه «آشور» نفسه عليه، والحبال التي كان يشدها حتى الآن، وقد رفض أن يأتي ويسأل عن حالة صحتي ومنع الهدايا وجزيته الثقيلة، وقد أصغى «كما أصغت «عيلام» بالضبط» إلى دعوة «آكاد» الثورية، ولم يحفل بالأيمان التي حلفها لي، وقد نبذني أنا «آشور بنيبال» الكاهن المقدس الخادم الدائم العبادة للآلهة، والذي خلقته يد «آشور»، وسلم جيشه المسلح إلى أبيات Abiiaté «وعامو» بن تري Te’ri وأمرهم عن قصد بمساعدة أخي الشقي «شماس شوم أوكن»، وأغرى سكان بلاد العرب لينضموا إليه، وبعد ذلك خرب باستمرار أولئك الأقوام الذين أعطاهم إياي «آشور» «وإشتار» والآلهة العظام الآخرون ليكونوا رعاياهم، وهم الذين أودعوهم في يدي، وقد جمعت جيشي وهزمته في موقعة دامية وأحقت به هزائم لا تحصى في بلاد «عزاريل» «وحيراتا و… كاسايا» في أدوم، وفي مضيق «يابرودو» في «بيت عمون» وفي مركز «حورينا»، وفي «مواب» وفي «سآري»، وفي «حارج»، وفي مركز «ذوباح». وفي هذه المواقع حطمت كل سكان بلاد العرب الذين ثاروا معه، إلا أنه هرب أمام أسلحة الإله «آشور» الجبارة إلى إقليم قاص، وقد أوقدوا النار في الخيام التي كانوا يسكنون فيها وحرقوها، أما «وايتي» فقد استولت عليه الشكوك وهرب وحيدًا إلى بلاد «نباتي».

وقد جاء على أسطوانة متن مفصل عن هرب «وايتي»[٧٤] جاء فيه:

وايتي ... «هرب» إلى بلاد «نباياتي»، «وقد ذهب» ليرى «نتنو» وقال «نتنو» «لياوتا» ما يأتي: «كيف يمكن أن أنجو من «آشور» وأنت الذي قد وضعتني بزيارتك في سلطانك!» وكان «نتنو» خائفًا واستولى عليه القلق وأرسل رسله ليسألوا عن صحتي وقبلوا قدمي، وقد رجاني تكرارًا بوصفي سيده لأعقد صلحًا موثوقة بأيمان، وأن يصير خادمي، «وأخيرًا» نظرت إليه بمودة ورمقته بوجه باسم، وفرضت عليه جزية سنوية.

أما «وايتي» الآخر ابن «هزيل» ابن أخي «وايتي» ابن «بيرددا» الذي نصب نفسه ملكًا على بلاد العرب؛ فإن «آشور» ملك الآلهة والجبل العظيم قد جعله يغير فكره وأتى لمقابلتي «خاضعًا»، ولأجل أن أبرهن أن الإله «آشور» والآلهة العظام أربابي يستحقون أعظم المديح فرضت العقاب الصارم الآتي، فوضعت على رقبته خشبة «المذنب» ودبًّا وكلبًا، وجعلته يقف حارسًا عند بوابة «نينوة» المسماة «نريب ما سنقتي-أدناتي»، وعلى أية حال فإن «أمولادي» ملك «قدار» قد هب لمحاربة ملوك الأرض الغربية التي وهبها إياي «آشور» «وإشتار» والآلهة الآخرون بوصفها ملكي، وقد أحقت به هزيمة على حسب وحي أمين أرسله الآلهة «آشور» «وسن»، «وشماش»، «وأداد»، «وبل»، «ونبو»، «وإشتار» صاحبة نينوة ملكة «كدموري» «معبدها في كالح»، «وإشتار» صاحبة «أربلا» «ونينورتا»، «ونرجال»، «ونوسكو»، وقد قبضوا عليه حيًّا، وكذلك على «عديا» زوج «وايتي» ملك بلاد العرب، وأحضروهم إليَّ «وهنا نجد أن متن المتحف البريطاني يزيد بعض تفاصيل على العبارة الأخيرة وهي: أما «عاديا» ملكة العرب فقد أحقت بها هزيمة دامية وحرقت خيامها وقبضت عليها على قيد الحياة، ونقلتها مع سجناء آخرين كثيرين إلى آشور».

وقد وضعت طوق كلب حول رقبته وجعلته يحرس بوابة المدينة، وذلك على حسب أمر وحي للآلهة العظام، وكذلك هَزمتُ في موقعة دامية وشتَّتُّ شمل جنود «أبياتي» وجنود «عامو» بن «تري» الذي سار لمساعدة «شماس-شوم-أوكن» أخي الشقي عندما كانوا على وشك دخول «بابل»، وذلك بأمر وحي من الآلهة «آشور» «وإشتار» والآلهة العظام، أما الباقون الذين أفلحوا في دخول «بابل» فقد أكل كل واحد منهم هناك لحم أخيه بسبب جوعهم الكافر، وبعد ذلك قاموا بمحاولة للخروج من «بابل» ليخلصوا حياتهم، وعلى أية حال كانت جنودي مرابطة هناك ضد «شماس-شوم-أوكن» فأوقعوا به هزيمة أخرى، حتى إنه «أي أبياتي» هرب بمفرده وأمسك بقدمي لينجي حياته فرحمته، وجعلته يعقد ميثاقًا بحياة الآلهة العظام، ونصبته بدلًا من «وايتي» ابن «هزيل» ملكًا على بلاد العرب.

وجاء في رواية أخرى:[٧٥]

> وقد أتى «أبياتي» بن «تري» إلى «نينوة» وقبَّل قدمي، وعقدت معه اتفاقًا عن حالته بوصفه خادمي، وجعلته ملكًا بدلًا من «وايتي» أو شخص آخر، وفرضت عليه جزية سنوية من الذهب، وخرز في هيئة العين من حجر «أداش»، والتوتية وجمال وحمير، وبمساعدة الآلهة «آشور» «وسن» «وشماش» «وأداد» «وبل» «ونبو» «وإشتار» «نينوة» ملكة «كدموري» «وإشتار أربلا» «ونينورتا» «ونرجال»، وبنطق اسمي الذي جعله «آشور» قويًّا فإن «كما شالتو» ملك «مواب» وهو خادم تابع لي قد أوقع هزيمة في موقعة مكشوفة على «أمولادي» ملك «قدار» الذي كان مثله «أي أبياتي» قد ثار وقام باستمرار بغزوات على ملوك بلاد الغرب، وقد استولى «أمولادي» نفسه على أهله؛ أي أهل «أبياتي» الذين هربوا من قبل … ووضعهم في السلاسل والأغلال الحديد وأرسلهم إلى نينوة.

ولكنه تفاهم مع بلاد «النباطيين»، ولم يكن خائفًا من الأيمان التي عقدها بحياة الآلهة العظام، وأخذ يقوم بغزوات مستمرة في إقليم بلاده، أما «ننتو» ملك «نباياتي» التي تقع على مسافة بعيدة، وهي التي قد هرب إليها «وايتي» فقد سمع بهاتف من «آشور» «وسن» «وشماش» «وأداد» «وبل» «ونبو» «وإشتار» صاحبة «نينوة» «وإشتار» صاحبة «أربلا» «ونينورتا» «ونرجال» «ونوسكو» عن قوة «آشور» التي وهبتني القوة، ولذلك فإنه على الرغم من أنه لم يرسل رسولًا لأجدادي الملوك ليحييهم بوصفهم ملوكًا بالسؤال عن صحتهم، فإنه الآن يسأل خوفًا من ساعدي «آشور» المنتصر دائمًا بإلحاح عن صحتي الملكية.

ولكن «أبياتي بن تري» الذي كان مجردًا عن أية مقاصد حسنة، والذي كان غير مكترث بالأيمان التي أوثقها بالآلهة العظام قد تحدث عن الثورة عليَّ، واتفق مع «ننتو» ملك «نباياتي» فجمعوا جيوشهم للقيام بهجوم خطر على بلادي.

وقد جمعت جيشي وسرت مباشرة إلى «أبياتي» وذلك بأمر وحي الآلهة «آشور» «وسن» «وشماش» «وأداد» «وبل» «ونبو» «وإشتار» «نينوة» ملكة «كدموري» «وإشتار أربلا» «ونينورتا» «ونرجال» «ونوسكو»، فعبر «جيشي» بأمان نهري دجلة والفرات عند قمة فيضانهما، فاتبعوا طريقًا تؤدي إلى أقاليم بعيدة وقد تسلقوا سلاسل جبال عالية، وساروا في طرق ملتوية في غابات ملأى بالظل وساروا بسلام على طريق شائكة بين أشجار عالية وأعشاب ملأى بالأشواك على مسافة مسيرة مائتي ساعة من «نينوة» البلد المحبوبة من «إشتار» زوج «إلليل»، وقد ساروا متقدمين في الصحراء حيث كان هناك العطش المحرق، وحيث لم يكن هناك حتى الطيور في السماء، وحيث لم تكن توجد مراعٍ للحمير البرية أو الغزلان مقتفين أثر «وايتي» ملك العرب «وأبياتي» الذي كان يسير بجيش النباتيين، وقد قمت من بلد «هداتا» في شهر سمانو، وهو شهر «سن» (إله القمر) بِكر الإله «إلليل» وقائد إخوته في اليوم الخامس والعشرين، وهو يوم موكب سيدة «بابل» أهم الآلهة بين الآلهة العظام، وقد خربت خيمة في «لربدا»، وهي مدينة ذات جدار أحجاره ساذجة عند آخر

أحواض الماء، وقد منح جيشي الماء هناك لشربهم، ثم تقدموا سائرين في أقاليم ذات عطش محرق حتى حورارنيا، وقد أوقعت هزيمة بقوم «إسامي» وهم اتحاد عباد الإله «أتار سامين» والنباتيين بين مدينتي «ياركي» «وأزلا» في صحراء نائية حيث لا توجد حيوانات برية، وحيث لا تبني هناك الطيور أعشاشها، وقد استوليت منهم غنيمة على أسرى يخطئها العد وحمير وجمال وماشية صغيرة، وبعد أن سار جيشي دون مقاومة مسافة مسيرة ست عشرة ساعة عاد في أمان وورد الماء في «أزلا» ليطفئ ظمأه، ثم ساروا إلى الأمام حتى بلدة «قوراسيتي» على مسيرة اثني عشر ميلًا في إقليم عطشه محرق، وهناك حاصرت حلف عباد الإله «أتارسامين»، وأهل «قدار» الذين كانوا تحت إمرة «وايتي بن بيرددا» وجعلتهم يسيرون معي على الطريق إلى «دمشق»، وكذلك آلهته وأمه وأخته وزوجه وأسرته وكل نساء «قدار» الآخرين، والحمير والجمال والحيوانات الصغيرة بقدر ما قبضت عليه بمساعدة «آشور» «وإشتار» سيدي.

وفي شهر «أبو» وهو شهر نجمة القوس ابنة «سن» الجبارة اليوم الثالث، وهو اليوم الذي قبل عيد «مردوك» ملك الآلهة غادرت «دمشق» وتقدمت حتى «هولهوليتي»، وهي مسافة مسيرة اثنتي عشرة ساعة في ليلة واحدة، وقد استوليت على حلف «أبياتي» بن «تري» ومعه القداريون عند جبل «هكورينا» المنحدر، وأوقعت هزيمة بهم وحملت منه بعض غنيمة، وفي خلال الموقعة قبضت على حسب أمر وحي أعطاه الإله «آشور» والإلهة «إشتار» أربابي على «أبياتي» «وعمو» بن «تري»، حيين، ووضعت في أيديهما وأرجلهما السلاسل والأغلال من الحديد وسقتهما إلى «آشور»، وكذلك الغنيمة التي جمعتها في بلادهما، أما أولئك الهاربون الذين فروا من هجومي فقد استولوا في رعبهم على جبل «هوكورونو»، وهو ذروة منحدرة، وقد أمرت جنودًا ليقفوا حراسًا في بلاد «مانهابي» «وأباروا» «وتنوقوري» «وزايوران» «ومارقانا» «وسداتن» «وإنزيكارم» «وتانا» «وإرانا»، وفي كل مكان كانت توجد فيه أحواض ماء أو ماء في عيون، وبذلك منع عنهم السبيل للحصول على الماء الذي وحده يمكن أن يحفظهم أحياء، فكان الماء نادرًا جدًّا لشفاههم، وكثير منهم هلك من العطش المحرق، وقد شق آخرون بطون الجمال التي كانت وسيلتهم الوحيدة للنقل وشربوا الدم والفَظَّ[٧٦] لإرواء عطشهم، ولم يفلت واحد من هؤلاء الذين صعدوا الجبل أو دخلوا هذا الوادي ليختبئوا فيه، ولم يكن واحد من بينهم سريع القدم ليفلت من يدي وقد قبضت عليهم كلهم بنفسي في مخابئهم، وكانوا أناسًا كثيرين ذكورًا وإناثًا، وقد قدت غنيمة إلى «آشور» حميرًا وجمالًا وحيوانات صغيرة وكبيرة، وقد ملأت تمامًا بلادي حتى نهايتها التي أعطاها إياي «آشور»، وقد ألفت قطعانًا ووزعت جمالًا كأنها غنم، مقسمًا إياها على كل سكان سوريا، وكانت الجمال تُشترى في داخل بلادي بأقل من شكل من الفضة في مكان السوق، وكان عمال «سوتامو» يتسلمون جمالًا وحتى العبيد بمثابة هدية، وصانع الجعة بمثابة بخشيش، والبستاني بمثابة أجر إضافي؟ أما «إرا» المحارب «أي الطاعون» فقد أصاب «وايتي» وكذلك جيشه الذي لم يرعَ الأيمان التي حلفها لي وفرَّ أمام مذبحة «آشور» سيدي، وقد شاع بين جنوده القحط فأكلوا لحوم أطفالهم من الجوع، وبذلك فإن «آشور» «وسن» «وشماش» «وأداد» «وبل» «ونبو» «وإشتار نينوة» ملكة «كدموري» «وإشتار أربلا» «ونينورتا» «ونرجال» «ونوسكو» قد

صب عليهم بسرعة كل اللعنات التي كتبت في اتفاقاتهم الموثقة بالأيمان، وحتى إن البعران والجحوش والعجول والخراف الصغيرة كانت ترضع سبع مرات من أمهاتها، ولكن لم تكن لتملأ بطونها باللبن، وعندما كان سكان بلاد العرب يسأل أحدهم الآخر: لأي سبب حاقت هذه المصائب ببلاد العرب؟ أجابوا أنفسهم: ذلك لأننا لم نرعَ أيماننا مع «آشور»، ولأننا أغضبنا صداقة «آشور بنيبال» الملك محبوب «إلليل».

ولا ريب في أن «نينليل» البقرة البرية المسوَّدة، وأعظم الإلهات شجاعة، والتي يماثلها فقط في المكانة «آنو» «وإلليل»، كانت تناطح أعدائي بقرنيها الجبارتين، «وإشتار» التي تسكن في «أربلا» مرتدية نارًا «مقدسة» وحاملة لباس الرأس «ملامو» كانت تمطر لهيبًا على بلاد العرب، «وإرا» المحارب المسلح بأنونتو كانت تحطم «تحت قدمها» أعدائي، «ونينورتا» السهم، البطل العظيم ابن «إلليل» كان يقطع حناجر أعدائي بطرفه الحاد، «ونوسكو» الرسول الطيع «للآلهة»، المعلن عن سيادتي، الذي رافقني بأمر «آشور»، والمحاربة «نينليل» سيدة «أربلا» التي حمتني بوصفي ملكًا، أخذت قيادة جيشي وطوحت بأعدائي، وعندما سمع جنود «وايتي» باقتراب هذه الأسلحة الجبارة الخاصة بآشور وإشتار إلهي العظيمين، وسيدتي، وهي التي أتت في أثناء المعركة لمساعدتي، ثاروا عليه، فأصبح خائفًا ونزل البيت «المحراب» الذي هرب فيه، وعلى ذلك قبضت عليه شخصيًّا على حسب الوحي الأمين الذي أوحى به «آشور» «وسن» «وشماش» «وأداد» «وبل» «ونبو» «وإشتار» صاحبة «نينوة» ملكة «كدموري»، «وإشتار» صاحبة «أربلا» «ونينورتا»، «ونرجال»، «ونوسكو» وأحضروه إلى «آشور»، وبأمر وحي من «آشور» «ونينليل» خرقت خديه بحربة ظُبَاها حادٌّ، وهي سلاحي الشخصي، وذلك بوضع نفس اليدين اللتين تسلمتهما للتغلب على المعارضة ضدي، ووضعت الحلق في فكه، وطوقت عنقه بطوق كلب، وجعلته يحرس درباس بوابة «نينوة» الشرقية التي تسمى «نيريب-ماسناق-أدناتي»، وفيما بعد رحمته ومنحته الحياة لأجل أن يثني على فخار «آشور» والآلهة العظام أربابي.

وفي عودتي فتحت بلدة «أوشو» التي تقع على ساحل البحر «اسم الأرض الرئيسية لموقع صور»، وقتلت سكان «أوشو» الذين لم يطيعوا برفضهم دفع الجزية التي كان عليهم أن يدفعوها سنويًّا، وأخذت للعمل أولئك الذين لم يكونوا مطيعين من بينهم، أما أصنامهم ومن بقي حيًّا من السكان فقد سقتهم غنيمة إلى «آشور»، وقتلت كذلك أولئك السكان من «عكا» غير المطيعين، وعلقت أجسامهم على عمد نصبتها حول البلد، وأخذت الآخرين إلى «آشور» وألفت منهم فرقة عسكرية أضفتها للجيش العظيم الذي قدمه لي الإله «آشور»، وفي خلال المعركة قبضت شخصيًّا على «عامو» بن «تري» الذي كان قد انحاز إلى «أبياتي» أخيه، وقد جعلته يُسلخ في «نينوة» التي كنت أدير فيها الحكم.

ولدينا من نقش على معبد «إشتار» ما يأتي:

استوليت على «وايتي» حيًّا، ملك إشمائيل «سو-مو-إيل» الذي كان متحالفًا معه «يقصد شماس-شوم-أوكن»، وأمولادي ملك «قدار» وقع في يدي جيشي في حومة الموقعة، وقد أحضروه «رجال الجيش» إليَّ حيًّا.

وقد أسرجت «تاماريتو»، «وباي» «وأما نالداسي» ملوك «عيلام» «وإيوتي» ملك «إشمائيل» وهم الذين قبضت عليهم شخصيًّا بأمر وحي من الآلهة «آشور» «ونينليل» «وإشتار» القاطنة في «أربلا» كمهارى مختارة لأجل جر عربة نصري، وهي لنقل جلالتي بعد أن خرجت في موكبي من المعبد … لأجل أن أضحي وأن أقوم بالشعائر، وقد قبضوا فعلًا على السيور لجر العربة.

أما «ننتو» ملك «نباياني» (وهي بلاد بعيدة) الذي لم يخضع لأجدادي الملكيين فإنه انحنى إلى نيري، وعلى ذلك فإن وحيًا بأمر من «آشور» «ونينليل» الإلهين العظيمين، سيديَّ اللذين شجعاني على ذلك، فهزمت «إيوتي» الذي وضع ثقته في مساعدة بلاد نباياتي.

وعلى ذلك منع هداياه «تامارتو» وقد قدته هو وزوجه وأولاده … بمثابة غنائم ثقيلة من بلاده، أما «نوهورو» (ناهور) ابنه الذي هرب أمام هجوم آشور وإشتار … فإن بهاء قدسيتهم قد أعماه، وأتى إليَّ بالهدايا وقبَّل قدمي، فرحمته وأقعدته على عرش والده.

وجاء في متن آخر:[٧٧]

«تألهونو» كاهنة الإلهة «دلبات» التي أصبحت غضبى من «هزيل» ملك العرب، وجعلته يسلم إلى يدي «سنخرب» جدي، وذلك بأن سببت هزيمته، وهو الذي أعلن أنه لن يعيش بعد قوم العرب وهاجر إلى «آشور»، وقد أتى «هزيل» إلى «إسرحدون» ملك بلاد «آشور» والدي، وهو محبوب الآلهة العظام، والذي نال النصر بسبب عبادته لكل الآلهة والإلهات، وهو الذي أعاد «هزيل» على عرش والده بأمر أعطاه الإلهان «آشور» «وشماش»، وأعاد كل الأصنام المستولى عليها إلى محاريبها، ملك بلاد العرب ليراه ومعه هدايا ثقيلة الوزن، وقبل قدميه وطلب إليه إعادة «تمثال» إلهته «إشتار»، فرحمه «أي إسرحدون» وسمح بإعطائه «تألهونو» كاهنتها السابقة. أما عن «الكاهنة» «تابوا» فإنه سأل وحيًا من الإله «شماش» كما يأتي: … وبعد ذلك أعادها ومعها تمثال الآلهة، وكذلك وضع نجمة (رمز الإلهة «إشتار») من الذهب الأحمر المحلى بالأحجار الثمينة و… لحياة سعيدة له، ومدة عمر دائم، وفلاح نسله … ودوام ملكه وهزيمة كل أعدائه …

هذا ما وصل إلينا من وثائق عن بلاد العرب في عهد «آشور بنيبال» ومنها نفهم ما كانوا عليه من حب للحرية وعدم الرضا بحكومة منظمة؛ إذ كانو لا يميلون إلا إلى الضرب في الأرض في مجاهل الصحراء وعدم الاستقرار في مكان، وقد كان هذا هو دأبهم إلى أن جاء الإسلام فوجدهم على نفس الحال التي كانوا عليها منذ ١٢٠٠ سنة مضت بل أكثر من ذلك.

ومن المحتمل أنه قبل هزيمة «أيوتي» التي وقعت على ما يظن حوالي ٦٣٩ق.م قبض على «منسة» ملك «يهودا» وهذه الحادثة دونت في كتاب «أخبار الأيام»، ولكن لم تذكر في سفر الملوك.

وهذا الحادث بعينه لم يذكر في تواريخ ملوك «آشور»، ولكن ليس لدينا شك في أن ما جاء في «أخبار الأيام» صحيح من الوجهة التاريخية، وأن «منسة» نقل في شيخوخته إلى «بابل» ليجيب عن اتهامه في الاشتراك في الؤامرة التي قام بها «شماس شوم أوكن»، وقد عاد في النهاية إلى «أورشليم» حيث مات عام ٦٣٨ق.م.

ولا بد أنه حوالي عام ٦٣٨ق.م كان قد وقع العقاب على كل من «صور» «وعكا» للمساعدة التي قدمها الفينيقيون للثورة التي قام بها «شماس شوم أوكن».

وبعد هذه الانتصارات في أنحاء الإمبراطورية الآشورية عقد «آشور بنيبال» مهادنة صداقة بين «آشور» «وساردرور الرابع» ملك «أورارتو» (أرمينيا) وبذلك انتهى نشاطه الحربي.

ولا نزاع في أنه لم يقم على رأس حملة من حملاته هذه في ساحة القتال منذ أن ذهب لمصر في عام ٦٦٣ق.م.

ومع ذلك فإنه حوالي عام ٦٣٥ق.م أقام حفل انتصار في «نينوة» شاكرًا الإله على الانتصارات التي أحرزها في عهده الطويل، فسار في موكب إلى معبد «إشتار» في عربته التي كان تحت نيرها «خومبا خالداش» ملك «عيلام» السابق، وكذلك «باي» الذي ادعى عرش «عيلام» عندما ثار على الآشوريين وضايقهم بعد هزيمة «خومبا خالداش»، ثم «تمريتو» بن الملك «أورتاكي» الذي حكم مدة على «عيلام»، ثم أيوتي ملك العرب، وهناك شخصية عظيمة هائلة لم تكن بين هؤلاء الملوك الذين صب عليهم هذا الإمبراطور جام غضبه، ووضع أنوفهم في الرَّغَام، وأذلهم أخس إذلال، وأهانهم أحقر إهانة يمكن أن توجه لبشر، وهذه الشخصية الغائبة عن هذا الحفل هو «بسمتيك» ملك مصر، وقد يرجع السبب في ذلك إلى الثورة التي قام بها «شماس شوم أوكن»، فقد أجبرت ملك «آشور» على سحب جنوده من مصر حوالي عام ٦٥١ق.م «ويلحظ هنا أن الملك «بسمتيك» قد حسب سني حكمه من أول السنة التي مات فيها تهرقا كما شرحنا ذلك في غير هذا المكان».

وفي تلك الأثناء استأجر «بسمتيك» جنودًا يونانيين وكاريين من «جيجيز» ملك[٧٨] «ليديا» ليبعث في جنوده روح الشجاعة، وبذلك أصبح في مركز يمكنه أن يقاوم أية محاولة من

جانب الآشوريين للاعتداء على استقلال مصر، وقد كان قبل ذلك يلبس تاج الوجهين القبلي والبحري مدة عشر سنين، ولم يكن يناهضه في ملك مصر أي ملك آخر من «الكوشيين»، ولذلك فإنه اعترف به في الحال ملكًا على مصر حتى أسوان، ولم يُبْدِ في ذلك «آشور بنيبال» أية معارضة؛ إذ من المحتمل أنه فطن إلى أن تكرار الحروب في مصر لفتحها من جديد عقب عودته لبلاده في كل مرة كان سببًا في إضعاف جيشه تمامًا، هذا إلى أن بعد تجديد الفتح لمصر لا يمكنه أن يسيطر عليها كما حدث من قبل في عهد والده وفي عهده؛ إذ كان بمجرد عودة الملك إلى «آشور» تنطلق الثورة من عقالها.

وقد ظلت مصر عشر سنوات هادئة بسبب عدم ظهور السيطرة الآشورية في أي جزء من أجزائها، وكان وجود أي جنود آشوريين فيها يعده المصريون بلا نزاع جنودًا مرتزقة استأجرهم «بسمتيك»، ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن «بسمتيك» قد اتخذ خطة سياسية حكيمة؛ إذ لم يظهر عدم الولاء للملك «آشور بنيبال» أمام مواطنيه قط، وتدل شواهد الأحوال على أنه كان مرتبطًا بمساعدة مليكه السابق عاهل «آشور» في بعض الأمور كما سنرى بعد، ومن ثم بدأت مصر تسير في سبيل جديدة من التطور بوصفها مملكة مستقلة تحت سيادة أسرة جديدة ظهر مؤسسها «بسمتيك الأول» بمظهر القوة والفطنة وحسن السياسة مما ميزه عن أولئك الملوك الكوشيين الذين لم يستطيعوا الوقوف أمام «الآشوريين» الغزاة، ومن أجل ذلك عزم «الآشوريون» على ترك وادي النيل لأهله، وتلك كانت سياسة حكيمة، قد كان الدافع على اتباعها أحداث جسام أدت إلى سقوط إمبراطورية «آشور» بعد قليل من الزمن، وقيام أخرى على أنقاضها، وهي دولة «كلديا».

(٨-٢٦) سقوط الإمبراطورية الآشورية

انتهت المصادر التي في متناولنا عن عهد الملك «آشتار بنيبال» عام ٦٣٩ق.م على الرغم من أن هذا الملك قد تُوفي عام ٦٢٦ق.م، ومن ثم نعلم أنه حكم البلاد ثلاثًا وثلاثين سنة بنجاح، وذلك من مجموع الاثنتين والأربعين سنة التي قبض فيها على زمام الأمور في «آشور»، وقد كانت مصر تعد بالنسبة للإمبراطورية الآشورية خارجة عن ممتلكاتها الفعلية، وإن كانت الحوادث التي أتت بعدُ قد برهنت على أن خروج مصر عن نطاق إمبراطورية «آشور» يعد كسبًا لها؛ وذلك لأن مصر قد أصبحت بعد نيل استقلالها حليفة مخلصة لآشور، هذا؛ وقد استقر السلام وحسن النظام في «فلسطين» «وفينيقيا» «وسوريا»، كما أصبحت «ليديا» على ود ومصافاة مع «آشور».

وكان «آشور بنيبال» في سلام مع قوم السيثيين في الشمال كما كان ملك عيلام الذي عينه أخيرًا يظهر له الإخلاص والطاعة، والواقع أن «عيلام» قد سُحقت ولم تقم لها قائمة بعد، كما أنه لم يكن في استطاعة الميديين أن يقاوموا جيوش الإمبراطورية الآشورية، وكان الآشوريون في كل أمهات بلاد الإمبراطورية يعملون على سيادة النظام وسير الأمور في مجراها الحسن، وبخاصة عندما نعلم أن بعض هؤلاء الحكام كانوا من البيت المالك.

وكان «آشور-إطيل-شام-آرسيتيلي — أو باليتسو» أصغر إخوة «آشور بنيبال» يحمل لقب الكاهن الأكبر للإله سن (= القمر) في مدينة «حران»، ومن كل ذلك نفهم أنه كان يحق «لآشور بنيبال» أن يفخر بما كانت تتمتع به إمبراطوريته من سلام ورخاء، ولكن على الرغم من كل ذلك السلام الظاهري السائد نجد أنه على حين غفلة قد تداعى ملكه وأخنى عليه الدهر وطوحت به الأيام إلى الحضيض لأسباب لم نصل إلى كنهها بعد، ويقف التاريخ أمام هذا الحادث مشدوهًا حائرًا.

وقد حدثنا «آشور بنيبال» في فقرة رائعة من متن كتبها عن نفسه، وكان أديبًا منقطع النظير يصف لنا فيها آخر حياته السود، فاستمع إليه وهو يتحدث والحسرة ملء قلبه وروحه وسمعه وبصره:

> لقد أعدت الشعائر الخاصة بعمل القربان للموتى ومياه الطهور لأرواح الملك والأجداد بعد أن كانت نسيًا منسيًا، ولقد عملت كل خير للإله والإنسان والأحياء والأموات، فلماذا انتابني المرض واعتلال الصحة والبؤس والشقاء؟ فأصبحت وليس في مقدوري أن أقضي على الشغب في البلاد والأحقاد في أسرتي، فالفضائح المزعجة تضايقني دائمًا والبؤس العقلي والجسماني قد قوس قناتي، وإن أيامي الأخيرة تحتضر مصحوبة بصيحات ملؤها الفزع، وفي يوم إله المدينة، وهو يوم عيد، أجد نفسي بائسًا والموت يأخذ بخناقي ويودي بي إلى الأرض، وإني أنتحب بالبكاء والعويل ليل نهار وأتأوه قائلًا: يا إلهي امنح إنسانًا كافرًا حتى يرى النور، إلى متى يا إلهي ستعاملني هكذا؟ كأني أصبحت إنسانًا لم يخف إلهًا أو إلهة.

فماذا يا ترى تلك الآلام الجسمانية التي أصابت هذا الرجل الذي بلغ من الكبر عتيًّا؟ ذلك ما لا علم لنا به، أما الإشارة إلى القلاقل والشجار في أسرته ومملكته فواضحة ظاهرة لا تحتاج إلى فحص أو تدقيق.

قد قامت منازعات خاصة بوارثة عرش الملك، وذلك أنه عندما وافت «آشور بنيبال» المنية كان على ابنه «آشور-إطيل-إلاني» الذي اختاه لوراثة العرش أن يحارب مغتصبًا للملك قبل أن يتولى العرش، ولم ينجح إلا بمساعدة موظف يدعى «سن-شوم-ليشير» وكان النزاع بينهما شاقًّا طويلًا، وقد قاست الإمبراطورية الآشورية أهوالًا من جراء ذلك، وكانت بابل الجنوبية تحت سلطان «كاندا لانو» حتى موت «آشور بنيبال» عام ٦٢٦ق.م، غير أنها انخلعت عن طاعة «آشور-إطيل-إلاني» في عهد «نابو بولاسار» القائد الكلداني المختار الذي بدأ بالثورة على أثر تولية العاهل الجديد عام ٦٢٥ق.م، وفي نفس الوقت نجد أن فلسطين قد تخلصت من نير الحكم الآشوري، وأعلنت «فينيقيا» عدم الطاعة للقوانين الآشورية، أما بلاد «ميديا» فقد أصبحت الآن متحدة الكلمة تحت حكم ملك واحد، وانفصلت نهائيًّا عن الإمبراطورية الآشورية، ومن المدهش أنه في مدة حكم «آشور-إطيل-إلاني» القصيرة ٦٢٦–

٦١٩ق.م لم تفقد «آشور» من أقاليمها شيئًا جديدًا؛ لأننا سنرى أن ممتلكاتها في الشرق والغرب بقيت على ولاء لحكومة «نينوة».

انتهى حكم الملك «آشور-إطيل-إلاني» بقلاقل كما ابتدأ، واستولى على العرش من بعده الملك «سن-شوم-ليشير»، فلم يمكث على العرش أكثر من بضعة أشهر بعد وفاة سيده، فقد طرده أحد أولاد «آشور بنيبال» الآخرين الذي يسمى «سن-شار-إشكون»، وهذه الحوادث قد جرت بين عامي ٦٢١–٦١٩ق.م.

وفي خلال الحروب الطويلة التي شنها «نابو-بولاسار» ملك «بابل» «وكياكازارس» ملك «ميديا» على ملك «آشور» لكسر شوكته كان على عرش «آشور» ملك قادر يدعى «سن-شار-إشكون»، ولو اتيحت له فرصة أحسن من التي كان فيها لكان في مقدوره أن ينازل هذا الحلف وينتصر عليه، ولو أن كثيرًا من الفرق التي كانت تابعة للجيش الآشوري سابقًا لم يعد من المستطاع تجديدها فإنه كان لديه حلفاء أقوياء، والواقع أن كلًّا من «بسمتيك» ملك مصر وقوم «الستيون» كانوا على استعداد لمساعدته، ولا نزاع في أن الحروب الداخلية التي وقعت في السنين السابقة قد أضعفت القوة المقاومة في الجيش الآشوري، هذا إلى أن أعداء «آشور» من البابليين والميديين كانوا يحاربون بقيادة قواد ليسوا أقل مهارة ومقدرة من القواد الآشوريين.

وكانت خطط أعداء ملك «آشور» سليمة محكمة، فقد عملوا على حصر القوات الآشورية، وجعلها تنكمش شيئًا فشيئًا في المربع المحصن الذي يشمل البلاد الآشورية الأصلية من أول قلعة «شرقات» حتى «كاروك»، ومن ثم حتى «إربل» إلى «خرسباد»، ففي عام ٦١٦ق.م كان في مقدور «نابو-بولاسار» ملك «بابل» أن يزحف بجشيه إلى أعالي «الفرات» في إقليم «سوخو» «وخندانو» دون مقاومة، وهزم الجيش الآشوري الذي وقف له في «قابلينو»، وكان في مقدوره في الوقت نفسه أن يرسل فرقة من جيشه إلى نهر «بلخ»، ولكن النجدة المصرية كانت قد وصلت وقتئذٍ لمؤازرة «الآشوريين»، ولذلك اضطر «نابو بولاسار» إلى التقهقر بسرعة إلى «بابل»، ولكن من جهة أخرى صادف البابليون نجاحًا عظيمًا عند «أراباجيا» (القريبة من «كاركوك») حيث هزم الجيش الآشوري وتقهقر عبر نهر «الزاب».

هذا؛ وقد كان لتدخل الميديين أثر في إضعاف قوة الدفاع عند الآشوريين، مما جعل عزيمة الملك «سن-شار-إشكون» تخور وتنحل، وربما كان سبب ذلك قلة الرجال، ففي عام ٦١٤ق.م زحف «سياكزرسس» حتى أصبح على أبواب «نينوة» نفسها واستولى على «تاريس» (شريف خان)، ثم تحول جنوبًا نحو «آشور» ليضمن مقابلة جيشه بجيش «نابو-بولاسار» حسب الخطة الموضوعة، والآن وللمرة الأولى على حسب ما وصل إلينا من تاريخ «آشور» سقطت العاصمة القديمة ونُهبت بوحشية مشينة كما دلت على ذلك الحفائر الحديثة، وقد وصل «نابو-بولاسار» متأخرًا ليشترك في المعركة، غير أن هذه الفرصة قد خدمته في توطيد عرى التحالف مع «سياكزرسس».

وعلى الرغم من أن أحوال ملك «آشور» كادت تكون على شفا اليأس في بلاد «آشور» نفسها فإن ممتلكاته الخارجية لم تكن قد انحلت بعد، فقد كانت إدارتها غاية في الحكمة طوال مدة قرن من الزمان، ولذلك لم يكن من المعقول أن تصل إلى درجة من الانحلال والتفكك بتلك السرعة الخاطفة.

وإذا كان ما رواه لنا الإغريق صحيحًا فإن «سن-شار-إشكون» قد تضرع في عام ٦١٣ق.م إلى السيثيين ليساعدوه على مقاومة الميديين في الوقت الذي كان يحارب فيه البابليين، وفي تلك اللحظة الحرجة زحف «السوحو» على الفرات علنًا خوفًا من مقاصد «نابو-بولاسار» إلى ساحة القتال لمساعدة الآشوريين، وعلى الرغم من أن «البابليين» قد أصابوا بعض النجاح، فإن الجيش الآشوري طرد «البابليين» من عناه Anah واضطرهم على الأقل إلى التقهقر، وكان نجاح «سن-شار-إشكون» يتوقف كلية على ولاء السيثيين له وإخلاصهم في مساعدته، ولكنهم خانوه، وربما كان قد توصل إلى ذلك «سياكزرسس» بما بذله لهم من الغنائم التي استولى عليها، ولذلك اتحدوا معه هو وحليفه «نابو-بولاسار» في عام ٦١٢ق.م في الهجوم النهائي على «نينوة» نفسها، وقد قام الحلفاء بثلاث هجمات غير مظفرة على المدينة التي كانت مضرب الأمثال في الثراء والقوة في كل أنحاء الشرق الأدنى، ولكن في النهاية سقطت أمام هؤلاء الجموع المدربين الذين كانوا قد تلقوا دروسهم في نصب الحصار على يد ملوك الآشوريين، وهذا يذكرنا بقول الشاعر العربي:

أُعَلِّمُهُ الرماية كل يوم فلما اشتد ساعِدُه رماني

وكم علَّمته نَظْم القوافي فلما قال قافية هجاني

والكلمات الرئيسية التي دونها المؤرخ البابلي في هذا الصدد هي: لقد حدث دمار للناس والأشراف … فحملوا الغنائم بمقادير يخطئها الحصر وحولوا المدينة إلى أكوام خربة، أما الإسرائيليون فقد وصفوا لنا سقوط «آشور» على لسان نبيهم «ناحوم» بصورة رائعة، ومن المحتمل أن «سن-شار-إشكون» نفسه كان قد هلك؛ إذ قص علينا الإغريق أنه ألقى بنفسه في النار التي أشعلها هو، كما لاقى حتفه بنفس هذه الكيفية من قبل الملك «شماس-شوم-أوكن»، والواقع أنها كانت نهاية جندي وملك آشوري عظيم لا نهاية خليع مخنث كما صورها لنا الإغريق في صورة «ساردانابالس» Sardanapalus.

وبسقوط «نينوة» طويت صفحة تاريخ آشور نفسها، وهي البلاد التي اضطرت أن تحارب قرونًا أولًا لتعيش، ثم لتبني إمبراطورية مترامية الأطراف، وأخيرًا هوت دون أن تقوم لها قائمة عندما آلت إلى الوهن والضعف لدرجة أنه لم يبقَ من بين أقاليمها العديدة الشاسعة إقليم يمكن أن يدافع عن كيانها.

ومع ذلك فإن قليلًا من الآشوريين الذين أمكنهم الهرب من «نينوة» قد استمروا في النضال، وهؤلاء الذين فروا نحو الغرب على الرغم منهم التجئوا إلى «حاران»، تلك القلعة الي سيطروا منها على «سوريا» باستمرار على وجه التقريب منذ عهد الملك «آشور ناصير بال».

وفي الوقت الذي كان فيه «نابو بولاسار» مشتغلًا في إخضاع نصيبين والمراكز المجاوة لها مباشرة عاد كل من الملك «سياكزرسس» وملك «السيثيين» إلى بلادهما محملين بالغنائم.

وقد نصب «آشور أوباليت» ملكًا على «آشور» الذي اتخذ عاصمة ملكه في «حاران»، ويحتمل أنه كان أخا «آشور بنيبال» الذي كان قبل ذلك يشغل وظيفة كاهن الإله «سن» إله القمر.

ولما لم يكن في مقدور هذا الملك أن يمنع تخريب أقاليم وطنه القديم الذي استمر حتى عام ٦١١ق.م لم يرَ بدًّا من انتظار الهجوم على «حاران»، فثبت هناك على أمل أن يسعفه المصريون في الوقت المناسب لصد عدوان أعداء بلاده، وكان «نابو بولاسار» يعلم فداحة العبء الذي سيلقى على عاتقه في هذا النزال، ولذلك فإنه لم يزحف على «حاران» إلا بعد أن انضم إليه الميديون والسيثيون عام ٦١٠ق.م.

ولما كان «آشور أوباليت» يرغب في بقاء جيشه في ساحة القتال هجر مدينته التي وقعت فريسة في يد العدو الذي خربها كما خرب المدن الآشورية الأخرى، وفي نهاية الأمر وصلت جنود ملك مصر «نخاو» وانضمت إلى جيش «آشور أوباليت»، وحاصر الجيشان الجيش البابلي في «حاران»، ولكن وصل إليه المدد في الوقت المناسب من «بابل»، وبذلك هزم جيش «أوباليت» وجيش «نخاو» المصري في ساحة القتال، ومن المحتمل أن هذه الحروب الضعيفة الفاترة قد امتد أجلها حتى عام ٦٠٥ق.م، عندما هزم «نخاو الثاني» على يد الملك «نبوخاد رازار» في كركميش، وبذلك حلت مؤقتًا مسألة السيادة في «سوريا»، وانتقلت بهذه الكيفية الأمة الآشورية إلى «سوريا».

وسيبقى اختفاء قوم الآشوريين دائمًا ظاهرة فريدة مدهشة في التاريخ القديم، حقًّا لقد اختفت ممالك وإمبراطوريات أخرى مشابهة لآشور، ولكن أقوامهم قد ظلوا عائشين معروفين من بعدهم، وقد دلت الكشوف الحديثة على أن مجتمعات عضها الجوع والفقر قد خلدوا أسماءهم الآشورية القديمة في أماكن مختلفة، كما نجد ذلك ممثلًا في مدينة «آشور» القديمة لمدة أجيال، ولكن الحقيقية الرئيسية ظلت كما هي، وذلك أن أمة عاشت مدة ألفين من السنين ومدت سلطانها على مساحة شاسعة قد فقدت صفتها المستقلة، ولتعليل هذه الظاهرة سببان: أولًا كان الآشوريون منغمسين في عادات شهوانية لا يمكن أن تؤدي في النهاية إلا إلى انتحار سلالتهم، ويمكن تفسير السنين الأخيرة من تاريخهم بنقص مُحَسٍّ في رجالهم، ولكن لا يرجع ذلك كله إلى الحروب الداخلية. وثانيًا: نعلم أن الميديين كانوا قد نقلوا إلى بلادهم عددًا عظيمًا من الآشوريين أصحاب الحرف الذين كانوا يشتغلون في المعادن والأحجار، فنجد كثيرًا من القطع الفنية العظيمة التي عثر عليها في مدينتي

«برسبوليس» «وإكيتانا» قد عملها صناع أخذوا صناعتهم عن طوائف من «نينوة»، هذا وقد علم العبيد الآشوريون أسيادهم فن قطع الأختام.

والواقع أنه لا توجد بلاد أخرى في العالم خربت ونهبت تمامًا كآشور، كما أنه لا توجد أمة أخرى إذا استثنينا بني إسرائيل قد استعبدت استعبادًا تامًّا مثل آشور.

ومن جهة أخرى يلحظ أن سقوط «آشور» كان منقطع القرين، وذلك أنها بعد أن مدت نفوذها الحربي مدة هذه القرون الطويلة في «مسوبوتاميا» وبعد أن ظل سلطانها الإمبراطوري شامخ الذرى مسيطرًا على أقوام عدة أصبح المؤرخ الحديث لا يستطيع أن يتتبع أي تأثير باقٍ في تاريخ العصور التي جاءت بعد سقوطها، ولا ينبغي أن نعزو عدم قدرة المؤرخ على تتبع آثارها للجهل وحسب؛ إذ لو كان لدينا معلومات كافية عن قوم الميديين أو لو كان لدينا معلومات أتم عن تطور الفرس وتاريخهم ومعلومات أدق عن طائفة الزرواستيين؛ فإنه كان من المفهوم أن نصل إلى صورة ناطقة عن مصير هؤلاء القوم بصفة قاطعة، والواقع أنه من الوجهة السياسة أصبح في استطاعتنا الآن أن نؤكد أن الإمبراطورية الآشورية قد عاشت في الدولة الفارسية العظيمة التي خلفتها وكانت الأصل لطراز الحكم الباقي المعروف باسم «الملكية الشرقية»، ومن الجائز أنه لو وصلت إلينا معلومات أكثر لعرفنا أن المدينة الآشورية قد تركت طابعًا ثابتًا في بلاد «سوريا» وغيرها من المقاطعات الآشورية أكثر مما هو ملحوظ حتى الآن، وإنه لمن الخطأ أن نقول: إن حكام السراجنة قد ركنوا إلى العزلة وسموها سلامًا، ففي «حاران» مثلًا قد بقي حتى عهد الخلافة العباسية نوع من الوثنية يشبه في بعض صفاته الرئيسية الديانة الآشورية، ولكن فوق كل ذلك نجد أن قوة «آشور» الحربية ساعدت المدنية البابلية على أن تبقى قرونًا، في الوقت الذي لم تكن فيه «بابل» قد صارت بعد مركزًا ثقافيًّا، إلى أن أصبح في مقدور الأسرة الكلدانية التي حاكت بيديها كفن «نينوة» أن تأخذ على عاتقها مهمة حفظ المدنية في مهد من أقدم مهادها.

وعلى أثر سقوط الإمبراطورية الآشورية قسمت أملاكها بين الميديين الآريين والكلدانيين الساميين، ولم يمضِ أقل من قرن من الزمان حتى قام أمير آري وهو «كورش الفارسي» وحل محل الساميين، وأسس إمبراطورية آرية في كل الشرق الأدنى، وهي الإمبراطورية الفارسية.

---

[١] وهي قلعة شرقاط الحالية الواقعة على مسافة تُربي على مائتي ميل من الشمال الغربي من بابل، راجع Hall, Ancient History of Near East, p. 193.

[٢] راجع «كتاب الرافدين»، ص٧٥.

[٣] راجع: Conteneau, Trente Tablette Cappadoeiennes; S. Smith, Cappadoeian Tablets in the British museum.

[٤] راجع: Jhons, Ancient Syria. P. 23.

[٥] راجع: Ibid, P. 35.

[٦] راجع: Hall, Ibid, P. 194.

[٧] راجع: Thureau-Dongin, Nouvelles Fouilles des Tello (1910). P. XXXVI. Note 1.

[٨] راجع مصر القديمة الجزء الرابع.

[٩] راجع: Hall, Ibid, P. 260.

[١٠] راجع: Delaporte, La Mesopotamie, Les Civilisations Babyloniennes et Assyriennes, P. 49ff.

[١١] راجع: Luckenbill, Assyria and Babylonia. Par. 207–209.

[١٢] راجع: Luckenbill, Ibid I, P. 72.ff.

[١٣] أي البلاد الواقعة في آسيا الصغرى غربي جبال طوروس «وهم على وجه عام الخيتا كما يقول الأثري هول».

[١٤] ويذكر لنا أن تجارًا أحضروا له تمساحًا وجاموس بحر وحيوانات أخرى أهداها له ملك موصيري «يحتمل مصر». راجع Luckenbill, I, Ibid Par. 122.

[١٥] راجع: Luckenbill, I, Ibid Par. 274ff.

[١٦] راجع: Luckenbill I Ibid Par, 339ff.

[١٧] ويقول سيجفرد هوون (راجع The Chronology of Ezna, P. 16): وهناك طريقة أخرى لتحديد السنين قد أدخلها الآشوريون، فكان كل موظف كبير بما في ذلك الملك يعين مرة في خلال حياته ليخدم لمدة سنة بوصفه «لمو»، وكلمة «لمو» تقابل في الإغريقية Eponym «أي الذي يطلق اسمه على شيء»، ومن ثم القوائم الحولية التي تحتوي على أسماء «لمو» قد أطلق عليها قوانين لمو، فنجده مثلًا أنه في السنة التي اعتلى فيها سرجون الثاني عرش الملك أن «لمو» هذه السنة كان يسمى «نيمورتا-إلابا» وكانت كل الوثائق تؤرخ

خلال هذه السنة: «في سنة نيمورتا إلابا». وهذا «اللمو» جاء بعده في السنة التالية «لمو» يدعى «نايو-تاريس»، وكان من الواجب أن تكون قوائم «اللمو» مثل قوائم أسماء السنين في عهد بابل المبكر لأجل المعاملات أو الأغراض القانونية، وهذا النظام للتوقيت كان قد استعمل بوساطة الآشوريين منذ حوالي ٢٠٠٠ق.م، حتى نهاية الإمبراطورية التي سقطت في نهاية القرن السابع قبل الميلاد.

[١٨] راجع: Ancient Near Eastern Texts, Relating to the Old Testment. Edited by James B. Pritchard, (1950), p. 267.

[١٩] راجع: Sumer, A Journal of Archeology in Iraq. Vol. VI, (1950) No. I, P. 6ff.

[٢٠] راجع: Herodotus, I, Par. 184; Olmstead, History of Assyria, P. 158.

[٢١] راجع: Hall, Ibid, P. 45.

[٢٢] راجع: Journal of the Royal Asiatic Society (New Series) XIV, P. P. 378ff.

[٢٣] وقد نقشت تواريخ هذا الملك على أحجار من (Luckenbill, I, P. 269ff) نصر كالح «نمرود»، وهذه الأحجار استعملها فيما بعد ثانية الملك «إسرحدون» في بناء قصره الواقع في الجنوب الغربي من نفس مدينة «كالح»، وقد نتج من إعادة استعمالها أن هشم بعضها، ولذلك وصلت إلينا تواريخ هذا العاهل مهشمة، ولكن بمساعدة قوائم «لمو» أمكن أن تنظم هذه الأحجار بعض الشيء، ولا يزال ترتيبها فيه بعض الشك، وقد تصلحه كشوف حديثة (راجع, Luckenbill, Ibid. Par. 761).

[٢٤] راجع: Rogers, History of Babylonia and Assyria (1915) P. 280.

[٢٥] راجع: Cambridge Ancient History, Vol. III, P. 37ff.

[٢٦] راجع: Luckenbill, I, Ibid, Par. 762ff.

[٢٧] راجع luckenbill, II, Ibid, P. 815; Ancient Near Eastern Studies Texts. (1950) P. 283.

[٢٨] راجع: Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, p. 284.

[٢٩] راجع: Pritchard, Ibid, b. 284.

[٣٠] راجع: Luckenbill, II, S 55; H. Winkler II, Pls. 30 f. 1, 101.

[٣١] راجع: Luckenbill, Ibid, II, p. 79.

[٣٢] راجع: Pritchard, Ibid, Par. 285.

[٣٣] راجع: Winkler, I, 103–105, Pritchard, Ibid, p. 285.

[٣٤] راجع: Winkler, Ibid, I, 46–50; Pritchard, Ibid, p. 285.

[٣٥] راجع: Winkler, Ibid I, 94–99; Pritchard, Ibid, P. 285, Luckenbill II § 17-18.

[٣٦] راجع: Winkler, Ibid I, 215–228; Pritchard, Ibid, p. 286; Luckenbill Ibid II, 30.

[٣٧] راجع: Winkler, Ibid I, 115-116; II, 33-34; Luckenbill II, § 62. Pritchard, Ibid, P. 286.

[٣٨] راجع: Pritchard, Ibid, P. 286.

[٣٩] راجع: Pritchard, Ibid, P. 287.

[٤٠] راجع: Luckenbill, II, §§ 115ff.

[٤١] راجع: Pritchard, Ibid, P. 287.

[٤٢] يُحتمل أنها خربات المقنع الحالية، على مسافة ستة أميال في الجنوب الغربي من عقير.

[٤٣] راجع: Pritchard, Ibid, P. 288.

[٤٤] راجع: Ibid, P. 288.

[٤٥] راجع: Luckenbill, II, Ibid, 8 349.

[٤٦] راجع: L. W. King. Senechrib. and the Jonians,. J.H.S, XXX.

[٤٧] موبسوس: إله إغريقي ابن أبولون = مؤسس وحي أبولون في مدن عدة، وبعد موته كان له مكان وحي في مالوس (في سيليسيا).

[٤٨] كأن «سنخرب» عين في هذه الحالة بلدة نينوة؛ لأن نهر «حوسور» يقسم بلدة «نينوة»، وهو نهر بينه وبين نهر «كدنس» تشابه أكثر من نهر الفرات في بابل.

[٤٩] راجع: Journal of Near Eastern Studies, Vol. p. 101–107.

[٥٠] راجع: Layard, Nineveh and Babylon, p. 156.

[٥١] راجع: Herod, II, 141.

[٥٢] راجع: Berakh. J, 28a.

[٥٣] راجع: Luckinbell, II, §. 506.

[٥٤] راجع: Cambridge Ancient History, III, P. 64, 89.

[٥٥] راجع: Gauthier, Dic. Geogr, III, p. 15.

[٥٦] يلحظ في هذا المتن أن الكاتب يستعمل الكلمات «موصور» «وماجان» «وملوها» بصورة غير محددة.

[٥٧] الظاهر أن شبة هذا الإقليم كانت تصدر إلى مصر وكان يعبر عنها بكلمة سامية مستعارة وهي أبنم؛ أي أحجار.

[٥٨] راجع: Luckenbell, II, Ibid, P. 573–81; Pritchard, Ibid, P. 293.

[٥٩] راجع: Luckenbell, II, Ibid, § 584-5; Pritchard, Ibid p. 293.

[٦٠] راجع: Winkler, Altorientalische Forschung, Vol. II, p. 21, Pritchard, Ibid, P. 293.

[٦١] راجع: Pritchard, Ibid, P. 193.

[٦٢] راجع عن بلاد العرب في هذه الفترة ما يأتي: Trude Weiss Romarin, Aribi und Arabien in den Babylonisch Assyrischen Quellen in Journal of the Society of Oriental Research Chicago (1917–1932) XVI (1932), p. ff Especially 14.

[٦٣] راجع: Pritchard, Ibid. p. 291.

[٦٤] راجع: Ibid.

[٦٥] راجع: Pritchand, Ibid, p. 294

[٦٦] وفي المتن الذي نشره نصوحي (راجع E. Nassouhi, A.F.O, II (1924) 97ff) نجد الرواية التالية: Col. II; 7–10 «استوليت على مدينة طيبة مصر «موصير» والنوبة «كوشي»، وحملت بمثابة غنيمة جيادًا جميلة وملابس كتان لها هداديب ذات ألوان مختلفة، وذهبًا وفضة وأناسًا لا تحصى.»

[٦٧] راجع: Pritchard, Ibid, P. 296, Luckenbill, II, Par. 892ff.

[٦٨] راجع: Pritchard, Ibid, p. 296.

[٦٩] راجع: Ibid, P. 296; Luckenbill, Ibid §§ 900–7.

[٧٠] راجع: Pritchard, Ibid, p. 295.

[٧١] راجع: Hall, The Ancient History of Near East, pl. XXX2.

[٧٢] راجع: British Museum: Assyrian Basement No. 121.

[٧٣] راجع: Pritchard, Ibid, P. 297ff.

[٧٤] راجع: Pritchard, Ibid, p. 298.

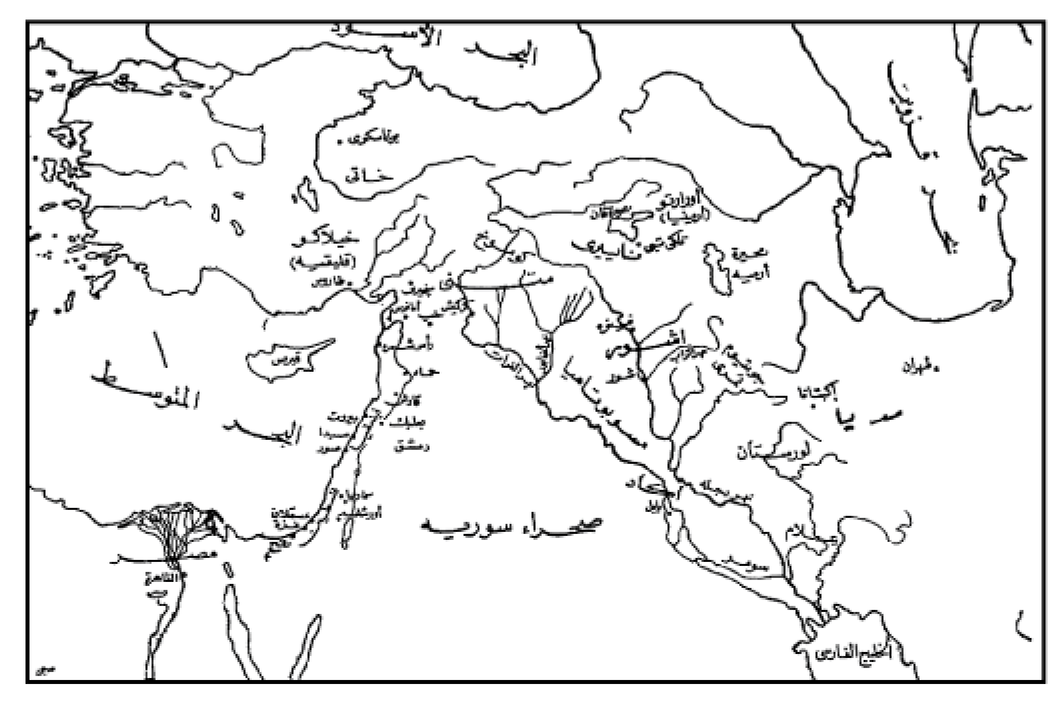
[٧٥] راجع: Pritchard, Ibid, p. 298.

[٧٦] الفَظُّ: الماء الذي يوجد في معدة الجمل بعد ذبحه، وكثيرًا ما كانت العرب تسقي الجمال الماء ليخزن في بطونها ليستعمل ثانية أثناء السفر في الصحراء.

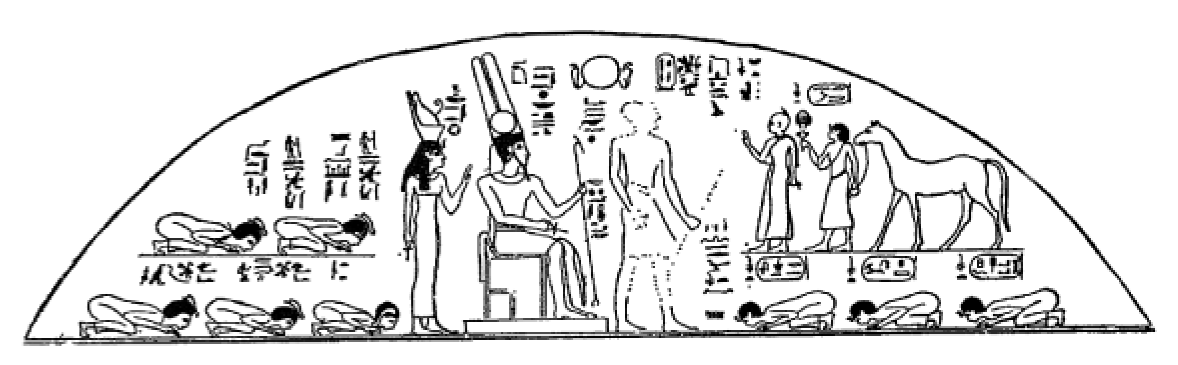
[٧٧] راجع: British Museum, K,; 308; Luckenbill, II, 9408 943; Pritchard, Ibid, P. 301.

[٧٨] راجع: Herodotus II, 152.

الصور والأشكال الإيضاحية والخرائط



شكل : خريطة الإمبراطورية الآشورية.



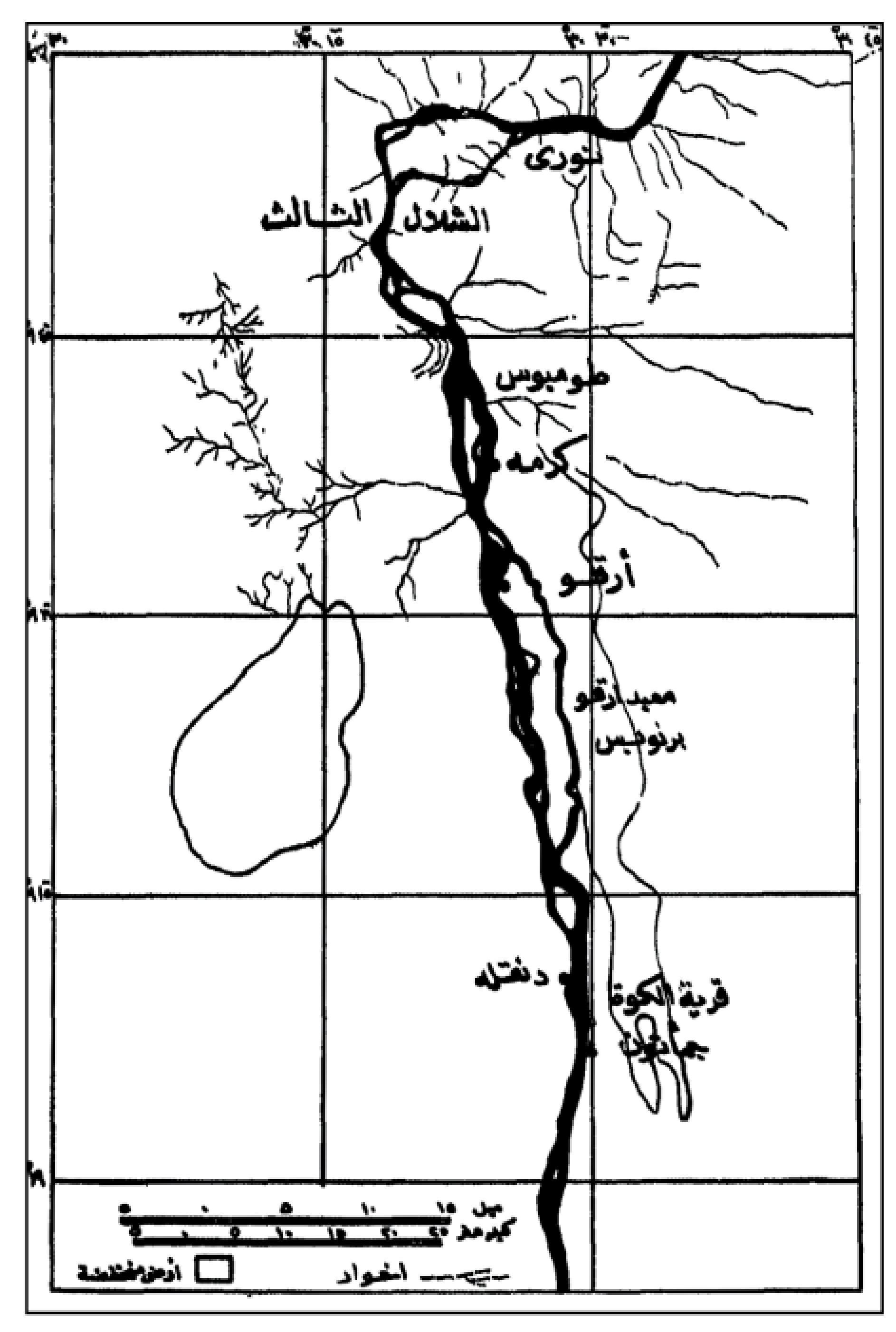
شكل ٢: الجزء الأعلى من لوحة الملك بيعنخي.



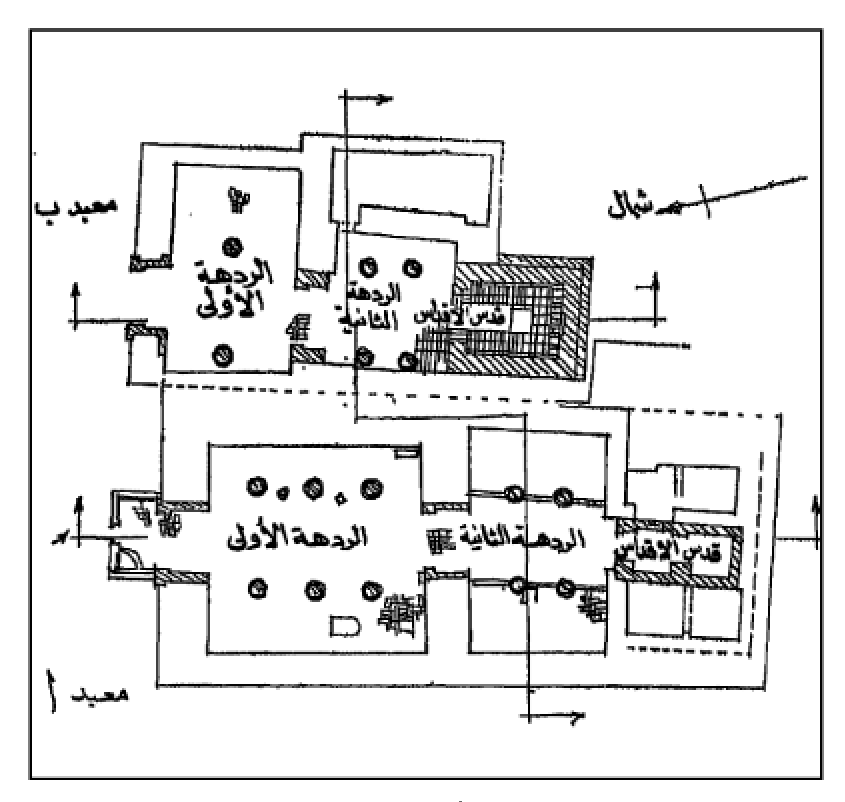
شكل ٣: صورة الملك شبكا.



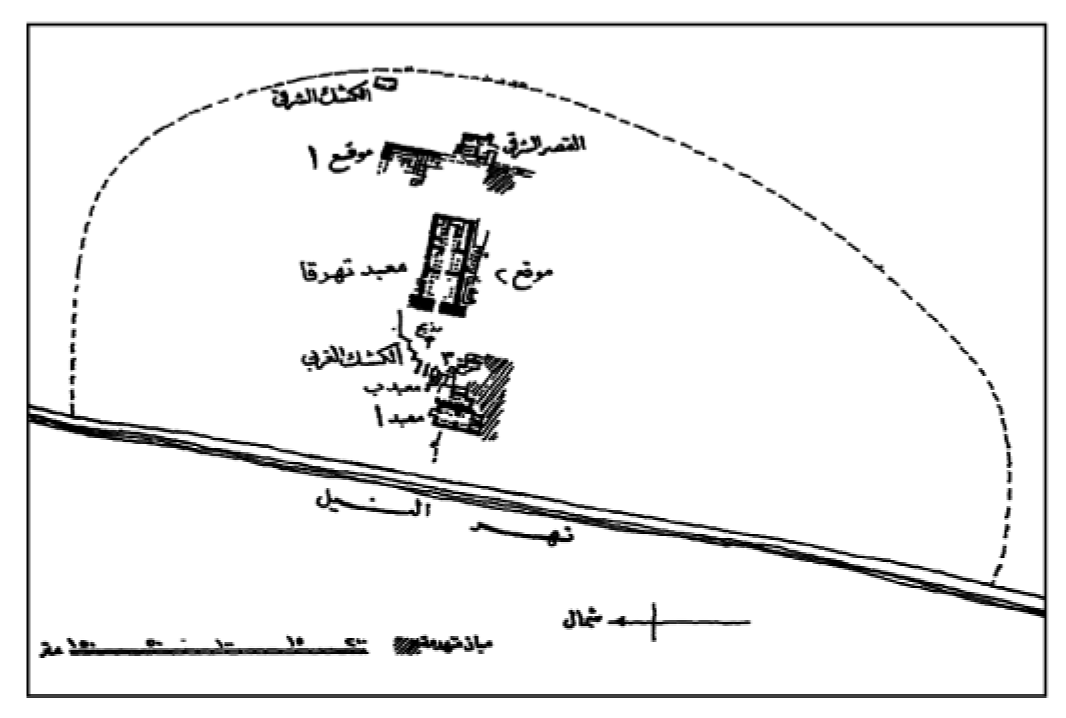
شكل ٤: صورة الملك شبتاكا.



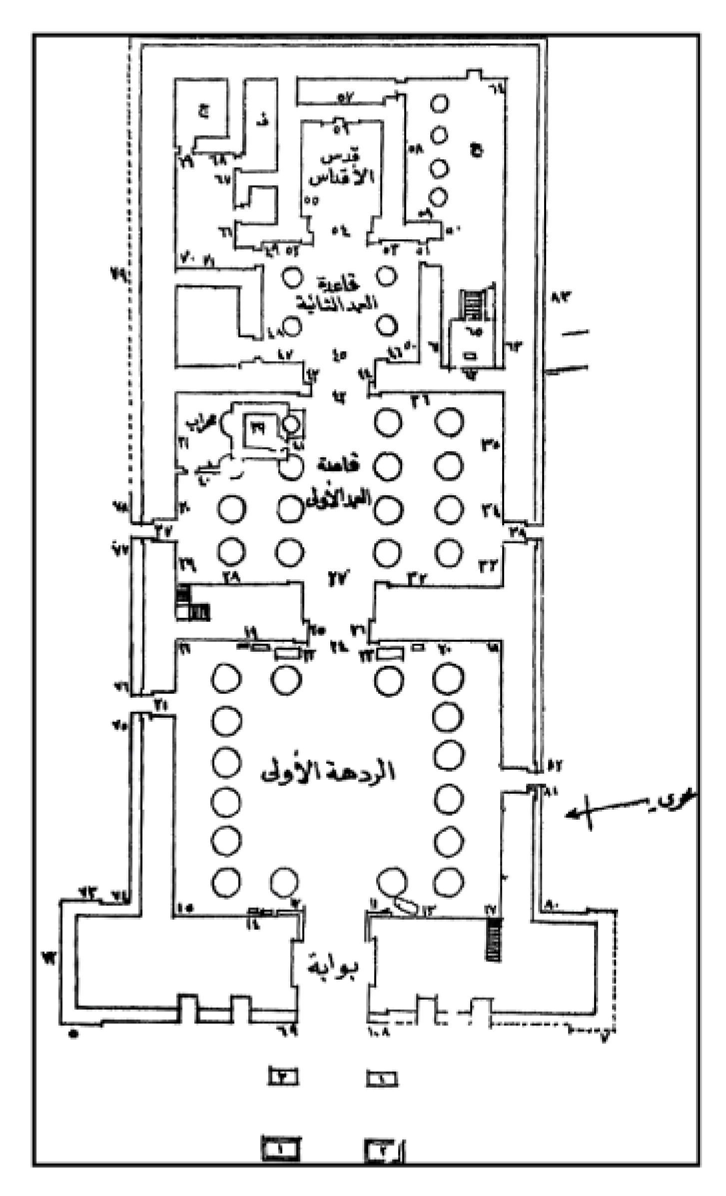
شكل ٥: موقع إقليم الكوة.



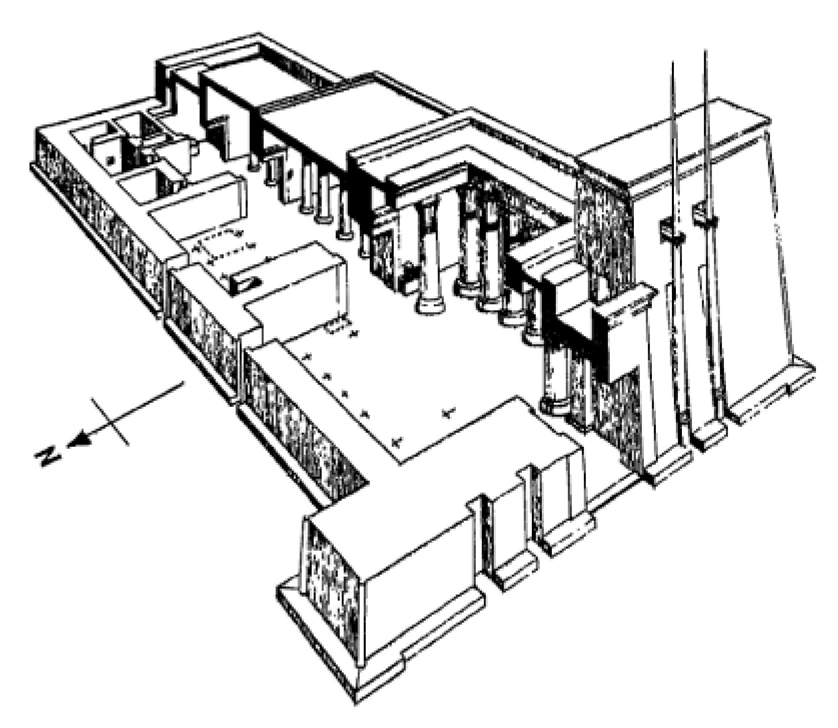
شكل ٦: المعبدان (أ) و(ب) من معابد الكوة.



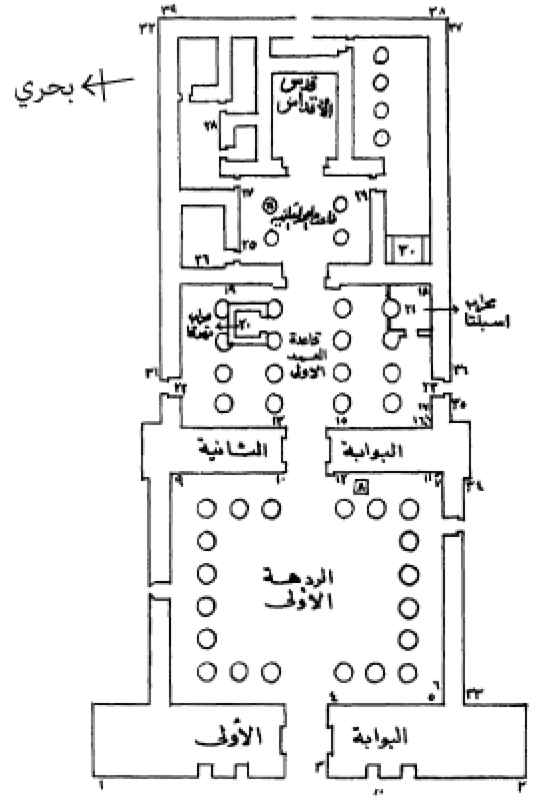
شكل ٧: خريطة موقع معابد الكوة.



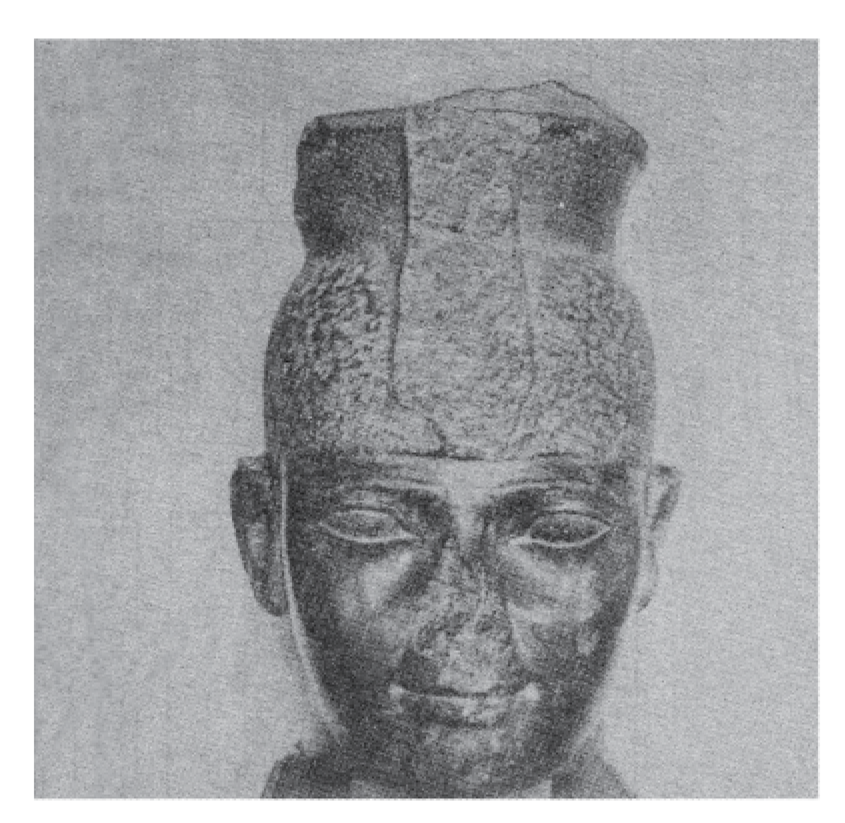
شكل ٨: معبد T بالكوة.



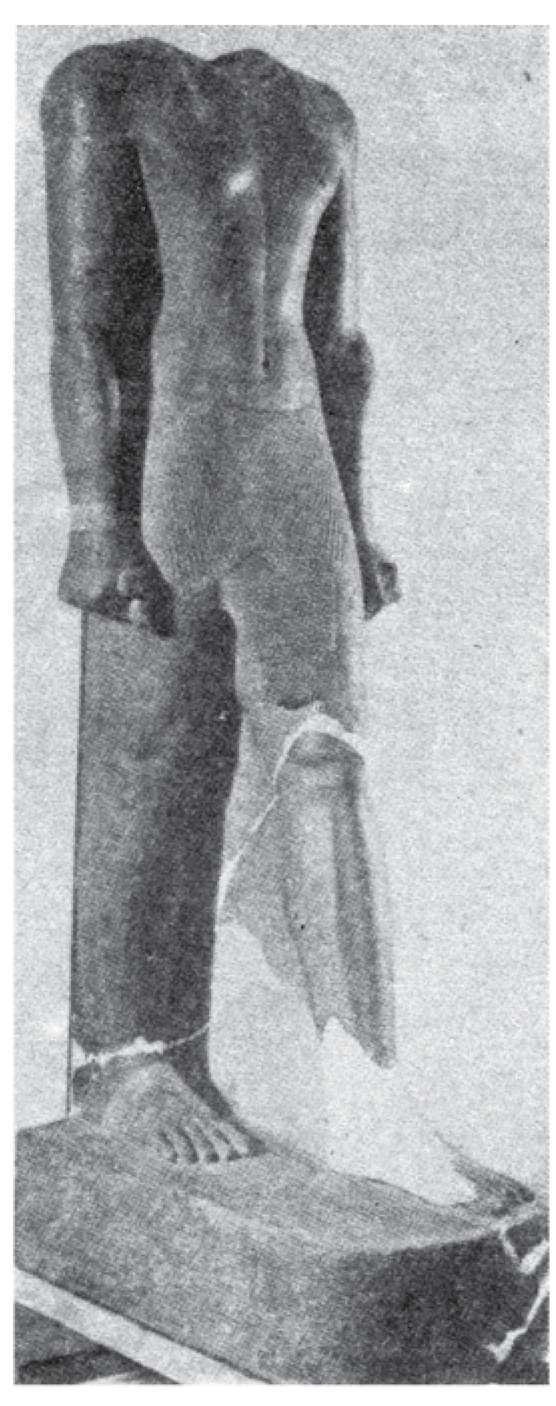
شكل ٩: نموذج لمعبد تهرقا بالكوة.



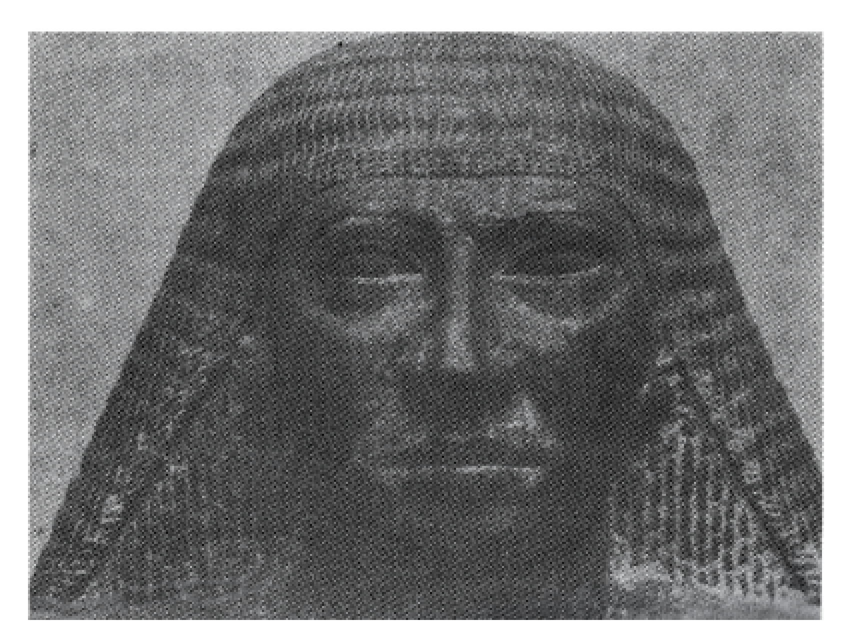
شكل ١٠: معبد آمون رع – صنم.



شكل ١١: تمثال الملك تهرقا.



شكل ١٢: تمثال الملك تانوت آمون.



شكل ١٣: تمثال نصفي للأمير منتومحات.



شكل ١٤: تمثال نصفي آخر للأمير منتومحات.



شكل ١٥: تمثال أتي: ذكر عليه السنة الخامسة عشرة من عهد الملك شبكا.

المصادر الإفرنجية

(١) مختصر أهم أسماء الدوريات الإفرنجية التي استعملت في الجزئين الخاصين بالسودان

- A.J.S.L: The American Journal of Semitic Languages and Literatures, Chicago and New York.
- Ancient Egypt, London.
- A.S: Annales du Service des Antiquites de l'Egypte, Cairo.
- A.S.N. Bull: Survey Department, Archæological Survey of Nubia, Cairo.
- A.Z: Zeitschrift für Agyptische Sprache und Altertumskunde, Leipzig.
- Bull. Boston M, F. A: Bulletin of the Museum of Fine Arts, Boston.
- Bull. Inst. Fr: Bulletin de l'Institut Français d'Archeologie Orientale, Caire.
- Cambridge Ancient History vol. II.
- Chronique d'Egypt, Brüssel.

- The Egyptian Expedition Metropolitan Museum: The Bulleitn of the Metropolitan Museum of Art, New York.
- J.E.A: Journal of Egyptian Archæology, London.
- Journal Asiatique.
- Kemi, Revue de Philologie et d'Archeologie, Egyptienne et Coptes. Paris.
- L.A.A.A: Annals of Archæology and Anthropology issued by the Institule of Archeology, Univerisity of Liverpool, Liverpool.
- Mélanges Maspero, i.e. Mem. Inst. Fr.
- Mem. Miss. Fr: Mémoires publies par les Membres de la Mission Française du Caire, (Ministre de l'instruction Publique et des Beux Arts).
- Mitt. D. Inst: Mitteilungen des Deutschen Instituts für Agyptiischs Altertumskunde in Kairo, Berlin.
- O.L.Z: Orientalische Literaturzeitung Monatsschrift für die Wissenschaft von ganzen Orient, Leipzig.
- P.S.B.A: Proceedings of the Society of Biblical Archæology, London. Transactions of the Society of Biblical Archeology Vol. III.
- Rec.Trav: Recueil des Travaux Relatifs à la Philologie et à l'Archeologie Egyptiennes et Assyriennes, Paris.

- Rev. de l'Egypte Anc: Revue de l'Egypte Ancienne, Paris.
- Revue d'Egyptologie, Paris.
- Revue Egyptologique, Paris.
- Sphinx, Revue Critique Embrassant la Domaine Entier de l'Egyptologie, Upsala.
- Sudan Notès and Records, Khartoum.
- Z.D.M.G: Zeitschrift der Deutschen Morgenladischen Gesellschaft, Leipzig.

(٢) المراجع الإفرنجية

- Albright, W. F, The Archæology of Palastine and the Bible.
- ———, The Excavation of Tell Beit Mirsim, 1 A: The Bronze Age Pottery of the Fourth Campaign, Yale University, 1933.
- Anthes, R, Die Felseninschriften von Hatnub, Leipzig, 1928.
- Avedief, V, The Origin and Development of Trade and Cultural Relations of Ancient Egypt with Neighbouring Countries (Papers presented by the Soviet Delegation at the 23rd International Congress of Orientalism, 1954).
- Bates, O, The Eastern Libyans, London, 1914.

- Baumgartel, Elise J, The Culture of Prehistoric Egypt, Oxford, 1927.
- Blackman, A. M, The Temple of Derr, Cairo, 1913.
- Blankenhorn, M, Aegypten, Heidelberg. 1921.
- Bonnet, Reallixikn der Agyptischer Religions Geschichte.
- Borchardt, L, Altägyptische Festungen an der Zweiten Nilchnelle. Leipzig, 1923.
- Boreux, C, Etudes de Nautique Egyptienne. L'art de la Navigation en Egypte jusqu'a la fin de l'Ancien Empire, (Memo, Inst. Fr. 50).
- Breasted, J. H, Ancient Records of Egypt. Historical Documents from the Earliest Times to the Persian Conquest, I–IV, Chicago, 1906; V, Chicago, 1909.
- British Museum, A Guide to the Egyptian Galleries, Sculptures, etc. 1909,
- ———, Hieroglyphic Texts from Egyptian Stelae, I–VII, vols, 1911.
- Brugsch, H. K, Thesaurus Inscriptionum Aegyptiacarum. Altaegyptische Inschriften gesammelt verglichen, ubertragen, erklart und Autographiert von H. Brugsch Abteilung I–IV, Leipzig, 1883ff.

- Brunner—Traut, E, Der Tanz im Alten Agyten, 1938.
- Brunton, G, Mostagedda and the Tasian Cultures (British Museum Exploration to Middle Egypt 1st. 2nd 1nd years 1928, 1929), London, 1931.
- ———, Qau and Badari III, London 1930.
- Brunton C, and Caton—Thompson, G, The Badarian Civilisation and Predynastic Remains near Badari. 1928.
- Budge, E.A.W, The Egyptian Sudan, Its History and Monuments in 2 vols. London 1907.
- ——— Book of Kings Vol. II.
- Burckhardt. J. L, Travels in Nubia. London, 1819.
- Carnarvon, G.E.S.M.A. and Carter, H, Five Explorations at Thebes A Record of Work done 1907–1911, London, 1912.
- Carter. H, and Mace, A.E, The Tomb of Tut Ankh Amun discovered by the late Earl of Carnarvon and Howard Carter 4, London, 1930.
- Carter, H, and Newberry, P.E, The Tomb of Thutmosis IV, Westminster, 1904.
- Davies, N. De G, The Rock Tombs of Sheikh Said, London, 1901.

- ———, The Tomb of Huy, Viceroy of Nubia in the Roign or Tut Ankh Amun, London, 1926.
- ———, Tomb of Ken—Amun at Thebes, 2 vols, New York, 1930.
- ———, Tomb of Neferhotep at Thebes. 2 vols, New York, 1933.
- ———, The Tombs of two Officials of Thutmosis the fourth, London, 1923.
- ———, The Rock Tombs of El Amarna, I–IV, London, 1903–1908.
- Davis Th. M. and Maspero, G.u.a, The Tomb of Siptah, the Monkey Tomb and the Gold Tomb, London, 1908.
- Drioton, E, and Vandier, G, L’Egypte, Paris, 1938.
- Dunbar, G. H. Sarra, The Rock Pictures of Lower Nubia.
- Dunham, Dows, The Royal Cemeteries of Kush, El Kurru, Cambridge, 1950.
- Emery, W. B, and Kirwan, L.R, The Excavations and Survey between Wadi Es Sebua and Adindan, 1929–1941, Cairo, 1935.
- Engberg, S. M. The Hyksos reconsidered, Chicago, 1939.
- Erichsen, W, Papyrus Harris I, Brüssel, 1933.
- Ermann, A, Aegypten und Aegyptischen Leben im Altertum Neu bearb, von H. Ranke, Tubingen, 1923.

- Evans A, The Palace of Minos at Knossos, I–II Vols, London, 1921ff.
- Firth, C. M, The Archæological Survey of Nubia Report for 1908–1915, Cairo. 1915. Report for 1909-1910, Cairo, 1915. Report for 1910-1911, Cairo, 1927.
- Firth, C. M. and Quibell, J. E, The step Pyramid, Cairo, 1936.
- Fritzler, K, Steinbrüche und Bergwerke im Ptolemäischen und Römischen Ägypten. Ein Beitrag zur Antiken Wirtschaftsgeschichte Diss, Leipzig, 1910.
- Gardiner, A. H, Egyptian Grammer, Oxford, 1950.
- ———, Ancient Egyptian Onomastica, Oxford, 1947.
- ———, The Inscription of Mess, Leipzig, 1905.
- ———, Late Egyptian Miscellanies.
- ———, The Admonitions of an Egyptian Sage from A Hieratic, Papyrus in Leiden, Leipzig, 1909.
- Garstang, G, Moroe, The City of the Ethiopean, Oxford, 1911.
- Gauthier, La Livres de Rois d’Egypte, I–III Vols.
- ———, Precis de L’Histoire d’Egypte, Caire, 1932.
- ———, La Temple d’Amada, Caire, 1926-1926.

- ———, La Temple de Kalabchah, Caire, 1911–1927.
- ———, Dictionnaire des Noms Goegraphiques contenus dans les Textes Hieroglyphiques. Caire, 1925.
- Griffith F. LI, The Oxford Excavations in Nubia.
- Helck, H. W, Der Einfluss der Militarfuhrer in der 18 Agyptischen Dynastie, Leipzig, 1931.
- Herodotus Book II.
- Hieratische Papyrus aus den Koniglichen Mussen zu Berlin, Leipzig, 1911.
- Holscher, W, Libyer und Ägypter, Gluckstadt—Hamburg, New York, 1937.
- James x prilchard, Ancient near Eastern texts.
- Jaquier, G, Le Monument Funeraire de Pepi II, Cairo 1931.
- Junker. H, Der Nubische Ursprung der Sogenannten Tell el Jahudiye Vasen, Wien 1921.
- ———, Das Erste Auftreten der Neger in der Geschichte, Wien, 1925.
- ———, Bericht über die Grabungen der Akademie der Wissenschaften in Wein auf den Friedhofen von Ermenne (Nubien in Winter) 1911-1912, Wien, 1925.

- ———, Ditto Ditto von Kubanieh Nord in Witer 1910-1911, Wien 1919.
- ———, Ditto Ditto Ditto von El Kubanieh Süd im Winter 1910-1911, Wien, 1919.
- ———, Ditto Ditto von Toschke (Nubien) im Winter 1911-1912, Wien, Leipzig, 1926.
- ———, Giza, Vorbericht, 1913, Wien, 1927.
- ———, The first Appearance of the Negroes in History.
- ———, and Delaporte L, Die Völker des Antiken Orients. Die Agypter, von H. Junker, Freiburg, 1933.
- Kees, H, Totenglauben und Jenseitsvorstellungen der Alten Agypter, Grund lagen und ENtiwicklung bis zum Ende des Mittleren Reiches, Leipzig 1926.
- ———, Beiträge zur Altägyptischen Provinzialverwaltung und der Geschichte des Feudalismus, 1932.
- ———, Herihor und die aufrichtung des Thebanischen Gottesstaates Gottingen, 1936.
- Kees, Kultlegende und Urgeschichte Grundsätzliche Bemerkungen zum Horusmythus von Edfu, 1930.
- ———, Beiträge zur Geschichte des Vezirats im Alten Reich. Die Chronologie der Vezire unter König Phiops II, Gottingen, 1940.

- Knight, F, Nile and Jordan, 1921.
- Kortenbeutel, H, Der Ägyptische Süd—und Osthandel in der Politik der Ptolemäer und Romischen Kaiser, Berlin, 1931.
- Lange, H. O. and Schafer, H, Grab—und Denksteine des Mittleren Reichs, Berlin 1902–1925.
- Lepsius, C. R, Denkmaler aus Aegypten und Aethipien, Berlin, 1894.
- Lieblein, Dictionnaire des Noms Hieroglyphiques en Ordre Genealogique et Alphabitique, Christiania, 1871.
- Loat, L, Gurob, London, 1905.
- Lucas, A, Ancient Egyptian Materials and Industries 2nd rev. Ed. London, 1934.
- Muckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia Vol. II.
- Macadam, M. F. Laming. The Temple of Kaw, I–IV Vols, London – 1949, etc.
- Maciver, D. R. and Woolley, C. L, Buhen, 2 Vols, Philadelphia, 1911,
- ———, Areika, Oxford, 1909.
- Macmichael, H. A, A History of the Arabs in the Sudan, 2 vols, Cambridge. 1922.

- Mariette, Catalogue General des Monuments d'Abydos Decoverts pendent les Fouilles de cette Ville, I–II, Paris, 1880.
- ———, Karnalk Etudes et Atlas.
- ———, Monuments Divers Recueillis en Egypte et en Nubie. Paris, 1889.
- ———, Le serapeum de Memphis Paris 1857.
- Maspero, Melanges d'Archeologie Egyptien.
- Meyer, Ed, Geschichte des Altertums. Stutgart, Berlin, 1921.
- Moller, G, Hieratische Lesestucke für den Akademischen Gebrauch, I–III Leipzig, 1910.
- Montet, Byblos et L'Egypte.
- ———, Les Reliques de L'Art Syrien.
- Moret, A, L'Egypte Pharaonique, Paris, 1932.
- ———, Histoire de L'Orient Tom. II.
- De Morgan. J, Catalogue de Monuments et Inscriptions de L'Egypte Antique, 1er sér. Haute Egypte, Wien. 1894.
- Muller, M. W, Die Felsengraben der Fursten von Elphantine, 1940.
- ———, Die Liebespoesie der Alten Ägypter, Leipzig 1899.

- Murray, M.H, Saqqara Mostabas. London, 1905.
- Naville, E, The XIth Dynasty Temple at Dier El—Bahari, I–III Vols London. 1907, 1910, 1913.
- ———, Bubastis (1887–1889), London, 1891.
- Newberry, P.E, The Set Rebellion of the IInd Dynasty, 1922.
- Egyptian Antiquities, Scarabs, London, 1906.
- Otto, H, Studien zur Keramik der Mittleren Bronzezeit in Palastine, 1938.
- Peet, T.E, and Loat, W.S.L, The Cemeteries of Abydos, I–III Vols.
- Pendlebury, J.D.S. Agyptiaca, A Catalogue of Egyptian Objects in the Aegean Area, Cambridge, 1930.
- Petrie, W. M. Fl, Prehistoric Egypt, London 1920.
- Petrie, W. M. Fl, Six Temples at Thebes, 186, London, 1897.
- ———, Diospolis Parva, the Cemeteries of Abadiyeh and Hu, 1898-99 London, 1901.
- ———, Gizeh and Rifeh, London, 1907.
- ———, A Season in Egypt, 1887, London, 1888.
- ———, A History of Egypt, London, 1894.
- ———, Royal Tombs of the 1st Dynasty, London, 1901.

- ———, Royal Tombs of the Earliest Dynasties, London, 1901.
- ———, Qurnah, London, 1901.
- Petrie. W. M. Fe, and Duncan, J. G, Hyksos and Israelite Cities London, 1906.
- Piehl, K, Inscriptions Hieroglyphique recueillies en Europe et en Egypte Stockholm, 1884.
- Pirenne, J, Histoire des Institutions et du Droit privé de l'Ancienne Egypte, Brussel, 1932–1935.
- Plyte, W, and Rossi, F, Papyrus de Turin, Leiden, 1869–76.
- Porter and Moss. Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Inscriptions, Texts, Reliefs, and Paintings, I–IV Vols, Oxford, 1921–1937.
- Posner G, Princes et Pays d'Aise et de Nubie, Brussel, 1940.
- Quibell, J. E. and Green, F. W, Hierakonpolis, London. 1902.
- Reisner, G. A, Excavations at Kerma, I–III, IV–V, U.S.A, 1923.
- ———, The Archæological Survey of Nubia, Report for 1927. 1908 Cairo, 1910.
- Roeder, G, Der Felsentempel von Bet El—Wali. Cairo. 1938.
- __, Debod bis Bab—Kalabsche, I–II, Caire, 1911.

- ———, Der Tempel von Dakke, I–III, Cairo, 1930.
- Row, A, Catalogue of Egyptian Scarabs in the Palastine Arch. Museum,
- Save—Soderbergh, Torgny, Egypten und Nubien, 1941.
- Schafer, H, Urkenden der Alten Athiopenkonig, Leipzig, 1905.
- Kriegerauswanderungen unter Psammatik und Slöderaufstand unter Apries, Leipzig, 1904.
- J. Simons, Egyptian Topographical Lists relating to Western Asia.
- Sjoqvist. E, Problems of the late Cypriote Bronze Age, Stockholm, 1940.
- Seligman, C. G, Egypt and Negro Africa, London, 1934.
- ———, Die Achtung Feindlicher Fursten Volker und Dinge auf Altägyptischen Tongefasscherben des Mittleren Reiches, Berlin, 1926.
- ———, Die Altägyptischen Pyramidentexte, nach den Papierabdrucken und Photographique des Berliner Museums, Leipzig. 1998ff.
- ———, Die Bau—und Denkmaleteine der alten Agypter und ihre Namen 1933.

———, Urgeschichte und alteste Religion der Agypten, Leipzig, 1930.

———, Aegyptische Lesestucke zum Gebrauch im Akademischen Unterricht Texte des Mittleren Reiches, Leipzig, 1921.

———, Urkunden des alten Reichs, Leipzig, 1932ff.

Steindorff, G, Aniba. Vorlaufiger Bericht uber die Ergebnisse der in den Jahren 1912–1914 und 1930-1931 I–II Vols. 1935–1937.

Stock, Studien zur Geschichte und Archeologie der 13 bis 17 Dynasite Agypten, 1942.

Wainwright, G. A, Balabish, London, 1920.

weill. A.F.P.A Report On The Antiquities of Lower Nubia Oxford 1907.

Weill, R, Les Décrets Royaux de l’Ancien Empire Egyptien, Paris, 1912.

———, La Fin du Moyen Empire Egyptiene, Paris, 1918.

Wiedmann, A, Aegyptische Geschichte, Goth. 1884.

——— and Portner, Aegyptische Grabsteine. und Denksteine aus Verscheidenen Sammlungen.

- Wilkinson, J. G, Manners and Customs of the Ancient Egyptian. 3 Vols. London 1837.
- Williams, C. R, Gold and Silver Jewelry and Related Objects. New York, 1923.
- Winleck H. E, The Rise and Fall of the Middle Kingdom in The bes New York, 1947.
- Wolf, W, Die Kultische Rolle des Zwerges in Alten Agypten (An thropos 33).
- Wreszinski, W, Atlas zur Altaegytischen Kulturgeschichte, 2 Bande Leipzig, 1914, etc.